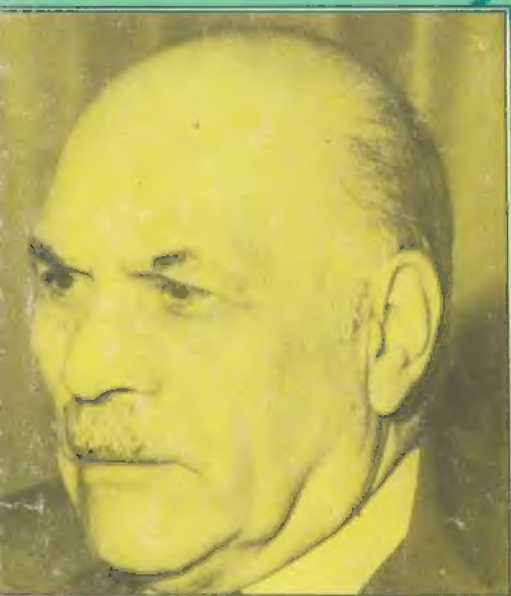


فتحي رضوان

سيرة ذاتية



• خَط العتبة
• الخليج العاشق
• محام صغير

Bibliotheca Alexandrina



0155647



الهيئة المصرية العامة للكتاب

هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
باحثون



مختار خطاب

فتحي رضوان

سيرة ذاتية

- محام صغير
- خط العتبة
- الخليج العاشق



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤

تجبرام



سحر الزكية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كان ح . ص . عليه رحمة الله من المعلمين المبرزين في طليعة حياته . توافر له حسن الخط . وسعة الرقعة ، وبعد الصوت ، وكان مكتبه في عاصمة إحدى المديرات ، مدرسة للمعلمين الناشئين ، ومثلاً يحظى في حسن الإدارة ، ورعاية حقوق الموكلين . ثم تضرع ، ولج في المنابر حتى لم يعد يتراجع إلا في الصغير من القضايا يطلع عليها سريعاً ، ويحيط بها سريعاً ، ثم يتراجع فيها بحمل قصار ، نحو الملح والطرائف وتحويل باللائح من القول ، وكأنما يصوب سهاماً إلى المجتمع الذي كان يحسب أنه تنكر له ، وخاف منه . . .

واضطربت في أغريات أيامه أصابعه ، فكان يظن الظنون بأكثر الناس ، ويتأثر بظنونه هذه ، ويعمل في جوارها . فانقضت عنه أسدلاته وعبره ، وجفاه صلاله وزبانه .

وفي ذات يوم التفت به مكتب المحامي الكبير المرحوم أ . و . فبدأن بالحديث ، وكنت إذا طالباً بكلية الحقوق ، فراعته سمة إطلاعه ، وشدة ميله لتحليل النفوس والحوادث ، فالتصت أسباب بأسبابه ، وقد روي لي فيما روي ، تجربته الأولى في المحاماة فانهبطت في نفسي ، وودت كثيراً أن أخرجها للناس ، فلم يتيسر لي شيء من هذا في الماضي ، حتى هذه الأيام ولعل مرد هذا أنني أعود إلى المحاماة بعد انقطاع عن العمل بها سبع سنوات طوال ، وقد حرصت على أن أبقي على جوهر القصة ، بلا زيادة أو نقصان لا سيما ما اتصل بتأثرات صاحبها النفسية ونظراته للمجتمع ، ووصفه لخلجاته ، ولذنيه التي كان يعيش فيها . وقد أثرت وضع هذه الرواية في إطار من الحوادث التي وقعت في السنين الأخيرة ، لتكون أقرب إلى فوق قراء اليوم ، وأذن إلى فهمهم . ووقائع القصة بسيطة ، فهي ليست سوى وسيلة للنظر إلى نفس هذا المحامي الناشئ وهو ينظر أولى خطاه في مجتمع متجهم ليس له

سوى وسيلة للنظر إلى نفس هذا المحامى الناشئ ، وهو يخطو أولى خطواته فى مجتمع متجههم ، له قواعده وتقاليده فإن وجد القارئ فى هذه الرواية شيئاً يزيد صلته بالنفس الإنسانية أو بالمجتمع الإنسانى أو بنفسه ، فقد حققت الرواية الغاية منها فإن لم تفعل أرجو ألا يخطوون ثواب المجتهد .

القاهرة فى ١٥ يولية ١٩٥٩

فصحى رضوان

تليجرام



غواصة فى بحر الكتب

محام صغیر

الفصل الأول

محام صغير

أنا محام . . . وعندي أكثر من دليل على ذلك .

ففى الشارع لافتة تحمل اسمى « حسين القويشى المحامى » ، وتستوقف المارة الذين يعبرون الطريق أمام بابى ، ولقد رأيتهم بنفسى يقفون أمامها ، ويقرأونها ، وكان منهم أشباه أميين ، سمعتهم يذللون جهدا لينطقوا الاسم والمهنة ، ومع ذلك لم يفكر أحدهم فى أن يطرق الباب ، ويسأل عنى . . .

وقبل أن أضح هذه اللافتة ، نشرت الجرائد اسمى ، ضمن الطلبة الذين نجحوا وحصلوا على الليسانس . وقد جئنى خطاب من الكلية ، يفتون بالنجاح فى الامتحان ، ويمنى لى التوفيق فى الحياة .

وبعد ذلك ، ذهبت إلى إدارة تحقيق الشخصية ، ووقفت ضمن طابور طويل ، من الراغبين فى الحصول على شهادة صحيفة سوابق ، وكان أكثر الطابور « عمالا » من طهاة « وسفرجية » وسائقى سيارات « ملاكى » و« أجرة » . . . وكان مع هذا الطابور بعض نساء ، اثنتان أو ثلاثة ، واحدة عجوز دعيمة ، واثنتان صغيرتان ، أشاعتا فى الطابور حركة وقلقا واضطرابا . ولما حصلت على صحيفة سوابق خالية من الشوائب ، دفعت رسماً لتقايمة المحاميين - دفعة أبى فى الواقع - وقدمت طلباً فانهضت لجنة قبول المحاميين ، وأعلنت اسمى ضمن قائمة طويلة من أسماء زملايى الذين قبلوا أنفسهم فى جدول المشتغلين بهذه المهنة العظيمة .

وفي اليوم التالي نشر اسمي للمرة الثانية في الجرائد

فالأدلة على أن أصبحت عامياً كثيرة كما ترى .

ومع ذلك ، فليس لي مكتب ، وليس عندي قضايا ، ولا وكيل لي أو كاتب يعينني على العمل . . . أي عمل ؟

أنا في بيتي الذي كنت أسكن فيه أيام الدراسة لم يتغير منه شيء واحد في الظاهر ، فقد كانت التغييرات كلها باطنية ، أما الشيء الوحيد الظاهر الذي تغير على دارى فهو اللفة الرخامية التي ركبت على باب الدار . .

ولا أغضى عليك أن هذه اللفة لم تعجبني ، لأنها كانت أشبه شيء بشواها القبور ، فقد كانت بيضاء ملساء ثقيلة باردة ، والكتابة عليها سوداء قائمة . . ولكن لم يكن بد من قبولها ، فقد كانت هدية ولم يكن معي من المال ما أدفعه في غيرها مما يصنع من النحاس الأصفر البراق . غير أني لم ألبث حتى طبت نفسها ، فقد رايت في نحوالي الكثير في الطرق ، لوافت رخامية على مكاتب محامين ترن أسلاكهم في أسماعنا ، وتقرأ كل يوم في الصحف .

كان هذا هو الشيء الوحيد الذي طرأ على حياتي . .

أما كل شيء في دارى فعل حاله . فدارى الواسعة ، التي استأجرها لتكون ملاذى أثناء الشتاء ومصيفاً لأخواني وزوجات إخوتي الذكور وأقارب الكثيرين الذين يأتون في الصيف إذ لم يستطيعوا أن يذهبوا إلى غيرها ، لم تمتد إليها يد بإضافة أو حذف . الحجرات القديمة الواسعة ، تكاد تكون غالية من الأثاث . ففى كل حجرة سرير فقط ، وفي بعض الحجرات نجد إلى جانب السرير كبة أو كرسيًا ، من الكراسي القديمة المنجدة التي كانت تعرف في أيام سابقة على أبياس ، بالشيخ أحمد ، وعلى الطريق كانت حجرة مكتبي الصغير القديم ، وكبة بجواره . .

ومع ذلك كنت سعيداً جداً في هذه الدار . .

فلقد منحني هذه الدار « الحفوة والفراغ » أكبر حقوق الإنسان وأجدرها بالحماية والصيانة ، هذا الحق الذي لم تنص عليه وثيقة من وثائق الحقوق التي قامت

من أجلها الثورات ، وسالت في سبيلها القماء ، وطارأت عل مديحها رؤوس ،
وطاحت عروش ...

نعم ، لقد كست أمتع « الخيال » الابن البكر ، « للخلوة » أو « للفراع » أول
الحقوق وأبوها جميعا ولكن أبانا آدم حرط في هذا الحق فجر عليا ما جر حتى اليوم .
فآدم ، عليه السلام ، بقير جدال ، كان في الجنة وحيداً كلل يسرح فيها
وعرج ، ويأكل من فاكهتها ما يحب ، ويدع منها ما يكره . كان يمشي ويتناب ،
ويعلم ، ويعيق من أحلامه . كل يصعد فوق صخور الشواطئ « ليرى البحار
الممتدة ، ويعلو قمم الجبال ليرى السهول الواسعة ويخط الوديان ، ليتأمل الرموس
الشائعة ، ولم يكن يعرف طوال هذه الساعات الطويلة ، التي تمت الواحدة منها
بالف ، المشاعر فتضجعت في نفسه مواعب الفناء والشاعر والفيلسوف والمصلح
والناثر ، فلم يكن في الجنة ما يشغله ، إلا أن هذه الراحة الطويلة ثقلت عليه
وصعب إلهامها بالذات في ذاتها ، لا تنلوق ، وإنما تبحث ما تبحث في النعوس من
السرور والنشوة إذا ما قورت بأصداعها . لذلك استولى على آدم حين مطلب ،

هو الحزن إلى رقيق في هذه الجنة ولو بحث الله إليه برجل ، القتل نفسه ، ولانتهت
البشرية ، منذ ذلك اليوم ، ولما عرف أبناء هذا الرسول الكريم ما عرفوا طوال
الحقب والسنين من آلام المعصية ، وسعادة التوبة ، ومن متاعب المخاوف ، وبعم
الطمأنينة . لذلك جاء الرفيق لآدم في صورة مصالحة للرجل في كل شيء . فكانت
المرأة . كان خشناً ، فجاءت ناعمة ، كان كثير الاعتماد على عقله الذي استعمله
طوال أيام الوحدة فجاءت مريضاً من العاطفة ونبيلاً من الشعور . حشى آدم عقله
بالكثير من الحقائق والمعلومات التي تصيدها من الكون الذي كان يعيش فيه وحيداً
لا يشغله شاغل ، سيداً لا يعصى له أمر . قلباً جاشته حواء كان قد شبع من تأملات
العقل ، ومن الجرى وراء المعرفة ومن الأسئلة التي وجهها لنفسه بلا طائل أحياناً
والتي توجه بها إلى الله سبحانه وتعالى أحياناً أخرى فلم يلق عنها جواباً ، فأصبح
يؤمن بشيء واحد هو القلب ، والإحساس ، والمهفة على التحرر من رقة العقل .
فلما خلقت حواء كانت أحدث من آدم عهداً بالندى ، فرأت في كل معطف من
طريق في الجنة ما يبهز علم تكف عن صحبته الإعجاب والفرح ، في الوقت الذي

كان يبدو على آدم ، البرم بما ترى ، والسأم مما يبعث في نفسها الدهشة ويحرك لسانها
بصرخات السعادة

لذلك شعرت حواء ، بأنها من آدم كالطفلة ، لأنه يكبرها عقلاً إذ لم يد عليه
مطلقاً أنه يرى في مقائن الجنة ، ما يدعو إلى هذه الفرحة اللطيفة ، ولا يورط في هذا
الفرح المصيبين . وأفاد آدم من هذا ، فاستقر عزمه على أن يخفى عواطفه
ما استطاع ، وأن يعود حواء على أن تعبر عن مشاعرها بصراحة لا تحفظ فيها ، وأن
يؤكد في نفسها أنه السيد ، لتعلم ، وأنها التابعة الآخضة عنه . كل ذلك كان ثمرة
من ثمار الخلوة والفراغ والتخيل والسبحات الطويلة في عالم الأحلام والتصور . فلو
حلت آدم ومعه حواء ، ولورزقا البين والبنات ، مند حرقا الجنة ، لما عرفا معنى
الفراغ ولا تدبوا لذات التأمل ، ولا منع الأحلام ، ولما كان من أسئلتها وسائرها
شعراء ومصورين ، ولا عرفت موسى بن آدم وحواء ، الطموح والنظر إلى السماء ،
والتأمل في الأرض ، والتأمل في عالم غير محدود بحدود الكون ، ولا بذلا جهدا في
حل معمياته وأسراره .

ولقد كنت في شقي كآدم في الجنة . .

كنت وحيداً ، كان معي طله من الريف ، صموت ، لا يكاد يتكلم وكان حل
الروم من صبة وجهه ، مقطب الجبين ، كأن مصابا متجعداً ينزل يساعته كل
صباح ، فلا يدع في نفسه شيئاً من الفرح أو الابتهاج ومع ذلك كان هذا الطاهر -
الذي كان يقوم في الوقت نفسه بكل أعمال المنزل - إذا تكلم معه أحد ، انطلق
بضحك ، وكأن وجهه قناع ، يخفى حقيقة تقاطيعه وقسماته . فإذا بدا حل عذله ،
أنه صادق بحدِيثه أو انصرف عنه ، عاد إلى سابق تقطيعه ، ومكث عيوسه بسرعة
ميكانيكية كال البهجة والعروس عند حملان البان ، ينتقل من أحدهما إلى آخر ، كما
تنتقل لبة الكهراء ، من الإضاءة إلى الاظلام والمكس ، بضخمة حل زر .

ولما كنت بطبعي قليل الكلام ، وكنت عاجزاً عن خلط نفسي بالناس كنت مع
عبد في هذه الشقة كأي وحيد لا مؤنس لي ولا رفيق .

وإن لأذكر أصيل يوم قرأت لسمى ضمن قائمة الذين قُودت أسماؤهم بجول

المحامين كنت وحيداً كالعادة مستلقياً على « كبة » أنظر إلى سقف الحجرة ، كأنها أبحث على شيء فيها . والحقيقة أن كنت أبحث عن شيء في نفسي . .

محام ؟

قلت ذلك لنفسي ، ثم ابتسمت ، وما لست لأن استعالت الانتماء إلى ضحكة كانت بلا جدال ضحكة هزه وسخرية ، من نفسي . .

فلقد كنت أعرف عن نفسي عيين كبيرين جداً ، لا يعملان صالحاً للمعاملة . كنت نخبولاً ، لا أكاد أقوى على مواجهة إنسان لا أعرفه . وكنت كما كثر الخجولين ، حياءً لا أكاد أطلق سماع حرفين في أمر من أمور الدنيا .

لا أذكر أن اشترت لنفسي شيئاً . فقد تكفل أهل بشره ثيابي ، وكل حوائجي حتى بعد أن كبرت ، وانفصلت عنهم ، وذهبت إلى القاهرة ، كما يذهب الأولاد حينما يرسلون إلى المدارس العالية أو الجامعة ، فلم أكن أعرف بكم يشتري المتدبل وما هو سعر الجوارب والمقصان . وإلى لأذكر أن أمي أرسلتني يوماً لأشتري قدحا من الفول المشوش ، وأعطيني مبلغاً كبيراً كان يسمى على ألسنا بالمسديل المحلاوي . وذهبت إلى « حسي عبد اللطيف » ، الذي كان قد نفل دكانه من أسفل منزلنا بحي النخالة إلى ميدان سينى رينهم . ولما رأى الرجل حش وش ، وأهل وسهل ، ثم كال قدحا ، دون تطفيف ، وزاد عليه حبات ، تكميلاً لي ، ونجدة للوفاء الذي كان يحملنا على أن نقطع المسافة الطويلة بين بيتنا ومتجره ، وربط للمتدبل ربطاً عسكياً ووضعني في يدي ، ومضيت إلى بيتي غمرقاً هذه الشوارع الأهلة بالناس ، المانجة بحركة لا تكف من شروق الشمس ، حتى قبيل شروقها في اليوم التالي : حريات يد ، وحريات كلور ، وحريات حنطور ، ونساء وأطفال ، وشيوخ ورجال ، وباعة يصبح بعضهم بأصوات كريمة عليظة ويصبح البعض الآخر منهم بأصوات جميلة لطيفة ، ويثامات منهن النسوة اللواتي سقطت أسنانهن فلم يعدن قادرات على أن يتلقن أساء بضاعتهم ومنهن ثابلات لا يعرضن بضاعة تباع بفقد ما يعرضن رشاقة قدوجهن ، أو يغلبن الأصماغ بحلاوة أو طراوة أصواتهن في مداهن الذي كان أشبه بالفناء وأقرب . وشبان مفتول السواد يلبسون جلابيب تكشف عن صدور قوية واسعة فوقها صغريات من الحرير اللامع ، وحل رعوسهم لاسلت من الحرير

ذاته ، وكأنهم بجمال أجسامهم وقوة أبدانهم ، الصورة المقابلة للباقيات
الفاتنات ، اللواق تزين رموسهن مناديل « القوة »

كان من حقى أن أنقل حقى فى عناصر هذا المعرض الأسمى الحى ، بكل صور
الحياة الزاهية الصالحة فيه . ففى كل خطوة فى طريقى الى المنزل ككل خطوة فى
طريقى الى الشجر - يستوقف نظرى منظر أسمى معه نفسى ، ومن باب أبهى المنديل
اللى فى يدى . فمن شجار كان الإنسان يسمع فيه مبالغة فى بلاغة الطريق ، أكثر مما
يرى ضرباً لوطعناً فلشجائرون يستلون سيقاناً مرهقة ، هى التهم السريعة
النشيطة التى تغلف قنابل صغيرة ، متلطفة متلاحقة ، هى الشاتم ، وصور التهكم
وعبارات الزبابة . والناس يعجبون بهذه القدرة البهائية ، فلا يودون أن يعضوا حلماً
للقتال ، لكيلا يجرموا هذه اللمة الباهرة - ولا يبعد هذا الشجار بين الرجال عن
شجار آخر بين النساء إلا أمتار قليلة . ولا يمدان معاً عن قرداق ، يتحلق الناس
حواله ، وكان حركة المرور ، لا حساب لها ولا وجود ، وبعد هذا الفنان الذى يدخل
بفرده سروراً الى نفوس الصغار والكبار معاً ، مع جوعه الذى يبدو صارخاً فى أصلاص
صدره الذى يمكن أن تعد صلماً بعد ضلع ، تجلس ضاربة الودع « تين زين » للذين
ضاقوا بحاضرم الكتيب ، وجوعهم الرهيب ، فتعجلوا معرفة المستقبل
المحجب . وفى وسط الزحام والصراخ ، والشاتم يحمل « الأراجوز » دولابه فوق
ظهره ، ومعه مساعده يحمل « بروجى » أصفر عتيق ، حطمت الأيام فأصبح فى كل
جانب منه ندبة كبيرة ، تكشف عن العمر الطويل الذى قضاه فى هذه الدنيا التى عهد
الفردى ، وتذهب بحلاوة الوجوه . .

لقد كان من حق أى طفل ، أن ينظر إلى هذه الصور الفاتنة مشدوهاً مفتوح
الأحداق ، فاخر الفاء . . ولكن لو كان طفلاً « واحياً » لقبض حل منديل الفول
« المدشوش » بيد من حديد ولكنى طرقت حل أجنة الخيال التى بسطها شارع السد
البراق ، أو الجواهر ، لست أذكر بكل حجابية وخرائبه ، فتراحت عقلة للمنديل
لكثرة ما نقلته من يد إلى يد ثم بدأ القول يتسلل من موضعه فى هذا المنديل ، حتى لم
يعد منه إلا أقل القليل . . وبقيت ذاهلاً عنه حتى وصلت إلى بيتى ، فأسلمت
المنديل إلى أمى التى فرحت . . وتلفتنى متلهلة أول الأمر ، لأنى قمت لأول مرة فى
حياتى بعمل نافع ، ولكنها لم تكذ ترى من بعيد ضالة للمنديل ، حتى أذكرت أنى

لازلت وفيما لصفائي فأسرعت نحوى ويدرتى « بقلمين كبيرين » تركا آثارهما الحمراء على صدغى الأيمن والأيسر ، فطار من رأسى كل أثر لهذه الرحلة السحرية التى ارتفعت بها من هذه الدنيا التى تحتاج النفس فيها إلى « قول منشوش » .

وقد ترى أن قصة هذا « التنبيل » وما وضع فيه من قول أطول مما يسفى فى موضع الاستشهاد وقد كان ممكناً أن تصدغى فيها وصفت به نفسى من أن لم أكس فى أول حياتى من هؤلاء الذين يطبقون الحيلة العملية بتفاصيلها ومقتضياتها غير الباعثة على السرور ، دون حاجة إلى سرد هذه القصة الطويلة ولكنى قصصت أن أروى لك هذه القصة كاملة ، لتعرف من لى طراز من أطررة الشر كنت ولا يمكن أن تكمل معرفتك بى إلا إذا قلت لك إنى على الرغم من شدة انصرافى من واقع الدنيا فى صورة كنت شديد الارتباط بهذا الواقع فى صورة أخرى . فالتأمل فى النفس ومعرفة ما يشغلهم وإطالة النظر فيهم ، حسيما يفرحون وحيون يحزنون كان ديدن لى لذلك قلت لنفسى فى أصيل ذلك اليوم « علم » .

هل أنت تصلح لهذا العمل . . إن المعاملة أيا الشاب الخجول الصغير هي صراع طويل . فهل تعرف كيف تغضب . إن المحبولين ، لا يحسنون الغضب ، وما أخرج رجل الأعمال ، إلى طاقة غنية من الغضب . .

ليس ضروريا أن يكون غضباً صادقاً ، يكلف أحصاب صاحبه ، تعباً ويجعلها إرهاباً فالغضب ككل الانفعالات الإنسانية ، يمكن التدريب عليه وإتقان التظاهر به .

فرجال الأعمال من صغار وكبار الموظفين ، وصباط البوليس ، ومدرسى المدارس يكتبون مع الزمن ، قطرة على الغضب المصطنع ، فلا يكادون يرون الأمر الذى تكلفهم وظائفهم استنكروه أو صمعه ، حتى تكسى وجوههم ، بصورة من الغضب الجارف ، ولا تلبث حناجرهم حتى تقذف بصرخات عنيفة يتعرق لها صدر الهواء ، وكأن النساء أطبقت على الأرض ، فيجمد الدم فى عروق من توجه إليه هذه الحملة الساحقة . . فلذا أدار هؤلاء الغاضبون وجوههم أو ابتعد عن ناظرهم من لرادوا إغافته وإرهابه ، لمت عيونهم فى الحلال يلعبان السرور والاعتباط ، وكأنهم ما كانوا فى غضب يقذف بحممه متدحين .

والحق أن ذلك المحامي الناشئ . كان مما يشعل باله كثيراً أنه لم تتح له فرصة للتدرب على هذا العصب الذي كان يعتبره في ذلك الحين من أكبر المواهب الإنسانية وأحقها بالاحترام ، وقد كان سر إعجابه بهذه الموهبة ، أن والده كان يتمتع بطاقة غضبية كبيرة وغنية ولقد ألف أن يمتشي غضبه ، وأن يتقي ، فإذا ذهب صبحته صراً من الأحيان كابذ أهوال هذه القوة الساحقة . فكان يشعر وصوت أبيه الذي يمه أعظم الحب ، يلوى في أذنه ، دوى الرعود ، فيصبح أشبه شيء بريشة تنقلدها الأنواء والمواصف وكان يعجب - بعد أن ينصرف عنه أبوه - بقدرة هذا الصوت الغاضب على تصوير أشياء مفرجة متلاحقة لخياله ، فهو يحس ثارة بما يشبه الاحتراق ، وتارة بأنه يوشك على الوقوع من حلق ، وأخرى بأن أصداء أقرباء يكرهونه ، يتعقبون خطاه ، ويكادون يلحقون به ليؤذوه وراية بأن سباطاً عوى على جلده ، فتشويه شيئاً . وكان في كل مرة من هذه المرات يشعر بالحزى ، ويحس بأن صوته كثيرة هي عيون إخوانه الذين يكرهونه من الذكور والإناث ، ومن في البيت من خدم ، تحلق فيه ، تحديقاً شديداً ، وهي عين شامتة فرحة لما أصابه ، أو مشفقة حزينة لما ابتلى به ، وكانت كلتا النظرتين ، مما يمليه هذا شديداً .

ولقد كان يظن أنه وحده الذي تمزه هذه الصيحات الغاضبة فألقى أثرها عند الجميع واحداً ، فقد كان أبوه ذا شخصية آمرة ، وكانت قدرته على حل الناس على الإدهان لإرادته واحترام كلمته واتقاه غضبه ، شيئاً يلم به الجميع .

وقد كان يحبه من الذين أسبغ الله عليهم ، موهبة الغضب « طلائعهم » وتسلسل أفكارهم ، وقت الغضب فإذا اقترمت هذه الطلاقة بصوت جهر مؤثر يملو منه أن الغاضب يعانى ألماً من الخطأ الذي أغضبه ، ومن الخطأ الذي أثاره ، وأن غضبه إنما هو للحق أو للفضيلة أو الواجب ، فقد بلغ إعجابه أقصى الغاية

وإذا كان دور الغضب في حياة الناس ، قد شغل الشاب ، الذي كان يضع قدمه على عتبة الحياة العملية ، فترة طويلة من عمره ، فقد أصبح شغله الشاغل الآن بعد أن قيد اسمه في جدول المحامين ، لأنه يعتبره عنصراً هاماً من عناصر المنة التي لا بد أن يعتد بها ، إذا أراد أن يجيع في المحاماة .

ومد يده إلى كتاب في أصول المحاماة والمرافعة فقرأ :

فالمحامى ، في ساحة المحكمة يجب أن يبدو عالياً - أعلى من الذين يسمعونه
جيماً - وبقدرة تخليق المحامى ، وارتفاعه يثير في القلوب الإعجاب به ، ثم الحب
لما يقوله ، والثقة فيه ، واختيراً الانقياد له . . وليس معنى تخليق المحامى في جو
المحكمة ، تعاليه على القاضى أو اصطدامه به ، بل إن هذا التخليق والتصميم
والتسامى ، يجب أن يشعر السامعين أن مرده كله للحق الذى يدافع عنه المحامى ،
وللقضية التى يكافح فى سبيلها . فلا بد أن يشعر السامعون ، أن للمحامى ، وإن كان
يعلو صوته وتردد صده فى قلوبهم بشدة ، مثيراً الجرع أو الإشتاق أو الاشتزاز ،
فهو مع ذلك يمان ويتألم ، وأن الظلم الواقع على موكله لا يؤذى موكله لحسب ،
بل يؤذيه هو أيضاً ، لأنه ينطوى على أذى للناس جميعاً .

« والصوت المنضوب . الذى يربك الشهود الكلايين أو الذى يبعث الهبة فى
قلوب المستمعين بصاحبه أو المجترئين عليه ، حيلة لارمة للمحامى ، وسلاح لا حق
عنه أبداً . وليس علو المحامى وتخليقه وتسلفه ، وتردد صوته فى الأذنان
والقلوب ، وكأنه القفر المحترق ، معناه ، ارتفاع صوته ، فالصوت المؤثر ، ليس
دائماً الصوت العالى . إنما هو الصوت المعبر ، وقد يكون الصوت المعبر ، أحسن
نحبه خليطاً بصوت الآذان ، حتى يسترسل صاحبه فى الكلام ، فهى الناس به
وهو يشق طريقه شيئاً فشيئاً إلى القلوب والأفئدة . وقد يكون حافئاً ، فحظن أن
خصوته سيكلف السامعين جهداً ، حتى إذا ما تكلم رأيت كل ما حوله قد سكن ،
وأجلد إلى الصمت .

وكل هذا يجب أن يتم خلف سياج من الغضب الظاهر ، أو الغضب المكتم
الذى يحمي المحامى من المقاطعة والمهاترة . »

وطوبى الكاتب وحده ، من حيث بدأت وفلت لنفسى :

« أنا خجول ، كثيراً ما يسقط فى يدي ، مجرد توهمى ، أن شيئاً ما يعينى . قد
يكون هذا العيب فى نهاي ، أو فى مشيى ، أو فى طريقة كلامى ، فيما من يجتمع لأدخل
إليه إلا وأحس أن كل من فيه هبون تخلف إلى ، ثم تسخرى ، فأسير مطرقاً أميل
بجسمى إلى الأمام لا أرى أحداً ، فإذا وصلت إلى الباب تنفست الصعداء وكأنما

كنت على وشك الفرق . فلما حشرتني الظروف في جماعة ، والزمتني بصحبتي ، لم أصر كيف أبدأ الحديث معهم أو مع أحدهم ، فإذا لدخولوا في مرحهم ، وتبادلوا الدعابات ، وقصوا الترائد والفكاهات ، شأ الجماعات التي تفرح بالجمع والتلاحق ، أحسست بأن غريب عن هؤلاء جميعاً ، ورأيت في كل ما يقولونه غشاة وسوقية ، وأحسست بأن ظلهم ثقيل ، وذوقهم سقيم ، وفكاهتهم غليظة ، وسوء أدبهم ظاهر ، فإذا اقترب مني أحد أفراد هذه الجماعة واتصل بي سأحدث - أيا كان - شعرت في الحال بالضغط بنصف عني ، ورجعت بذلك كأنما أنا العريق ، وقد نشبت بقشة ولو سمعت إلى في تلك اللحظة ، لحظة الفرح بالخلاص ،

والابتهاج بالنجاة ، لرأيت عجباً . فالألفاظ على لسان تتدافع تدافعاً يؤدي إلى تقطع كلامي ، فلا يتصل كلامي بعصه ببعض إلا بمجهود عصبي ، يظهر في تقاطيع وجهي ونبرات صوتي ، وحركات يدي ، ووصع رأسي ، ويحدث في الغالب من أحوالي أن يؤخذ المتحدث بهذه المظاهر المثيرة للفتنة ، فتبدو عليه دهشة عظيمة والويل لي إن قلبى الصت إلى علامت هذه الدهشة ، فلما تزيدني ارتباكاً وحيرة ، وتزيدني عذاباً وألماً ولكن العجيب في الأمر ، أن هذا الحديث المتقطع ، الذي أنتزعه ، من حلقى ، وأعماق قلبى ، انتزعا ، اعتصره من أعصابى اهتماماً كان يسبح أحياناً في استمالة المستمع إلى ، وفي إنشاء علاقة من علاقات المودة المعالجة ،

أشعر معها براحة ، وطمأنينة ودعة فيذهب عني الضيق ، تبيض نظري إلى الدنيا بعد سواد ، ويسودني تعاون بعد تشاؤم . أتوكأ على هذه العلاقة ، لأدب بفضلها في أنحاء هذه (الحماة الإنسانية) التي كانت من بمثابة الحصن المفلق ، أو الأرض الملمضة ، لا أستطيع أن أفصح مغالقتها ، ولا أن أتقى شروط مرارتها فإدا ما بدأت أتصل بأفراد جدد من الجماعة وأحسوا الاستماع إلى والترحيب بي ، رأيت عجباً كذلك ، وإلى أنقلب من النقيض إلى النقيض . أنقلب من الانكماش إلى الانطلاق ، ومن الانقباض إلى الانبساط ، ومن التحفظ والصمت إلى الاندفاع والثروة . وأنا في هذا كله ، أراقب نفسي ، أحصى عليها كل ما تقول ، وكل ما تفعل ، غير راض عنها ، أعد ألفاظي ، كأنما هي زلات ، وتصرفاتي باعتبارها سقطات . ولكني أشعر مع ذلك ، بقوة تدفعني دوماً إلى الكلام ، أو قل الثورة على نفسي ، وهي ثورة تزداد على مر اللحظات قوة وضراً فأصعب عن مفولمتها ، وأنا

شاعر بالدم والالم . ولقد اعتدت أن أصور نفسي نحسى وأنا في تلك الحال ، بأن كالشباب غير المجرب الذي يستلججه أصحابه إلى مجال الشراب ثم يدعونه إلى تناول شيء من المسكرات هبأى ، ويتمتع ، ويقاوم ، ويعتدل وهم يدعونه ويخرجونه مستعينين قلة حيرته ، وشدة حيرته ، حتى يورطوه في كل شيء ، فتدور رأسه ، ويشمئش الشراب في نفسه فينطلق لا يلوى على شيء ، يقول كل ما احتجزه في صدره ويغشى كل ما طوى عليه قلبه ، ويطلب هو بنفسه الكأس تلو الكأس حتى يقع منشياً عليه .

يحدث هذا إن ظهرت في الجماعة بترحاب وتشجيع ، أما إذا وقع العكس ، فلا سبيل إلى وصف ما أبطل به من الحزن والالم ، فإنه سرعان ما أدخل في (قوقعة) خجل وحيائي ، لا إذا بالصمت ، متوارياً عن الأنظار ، أرى الناس أشباحاً ، أسمع أصواتهم ، وكأننا نصل إلى من مكان بعيد وأحد الفائق ، التي تمر بطيئة متاقلة متعب على الله أن تنفض هذه الجماعة ، تنتهي هذه المحنة . فلذا وبقي الفرج ، انطلقت أشبه شيء بالتلميذ الصغير ، الذي ينتظر دقائق ناقوس الانصراف من الدراسة بصبر نافذ ، وقلبي معذب فلذا ما انطلق خارج أسوار المدرسة إلى الطريق ، أخذ يقفز ، ويدلو ، ويضرب الأرض بقدمه ، وانطلقت منه أصوات لا يلوى مبحثها ، وقد تكون بلا معنى - إلا أنها مع حركات يديه ورجليه ، التنفيس عن الضيق والتمويه عن الحس ، والفرح بالحرية ، وبالهواء ، وبالفضاء ، وبالعبد من السيطرة والسيدة ، والنجاة من قيود الطاعة والنظام .

هذا بالضغط حال حيناً تنتهي صحيق مع جماعة لم أألمها من قبل مع طارق كبير ، هو أن النحسى الذي يترك مدرسته ينسى على بابها كل متاعه فيها . فلا يعد يذكر صبهات المدرسين العاصبة ، ولا شجاره مع زملائه ، وخوفه من أقربائهم ، وكرهه لسفاهتهم . . بل إنه ينسى الواجبات التي تنتظره في البيت ليؤديها . أما عذاب مع الناس فيسلمني إلى عذاب جديد ، هو عذاب حيناً أدخل نفسي ، نصي هذه الخلوة أستعيد كل كلمة بطلت بها وكل حركة صدرت عني ، وكل تصرف أتيت به ، وأنا في هذه الاستعادة لا أرى إلا أخطاء فوق أخطاء وعيوباً تملو عيوباً . . فإذا ما تذكرت بالذات تصرفاً غير لائق ، أو لفظاً غير سائب . . انتابتني حالة المحموم ، فالتفت رأسي ثم نصبت عني . ثم تلتجت أطرافى ، وبرزت لي عل

لوحة من حيالي ، وجوه كل من كانوا معي ، تتابع وتتعاقب ، وكأنها وجوه الرمانية والشياطين تخرج لسانها لي ، أو تطيل نظرها لي ، أو ترمقه شديراً ، أو تصحك صحكاً ، لا يسمع له صوت ، وإنما ترى مظاهره .

سألت نفسي ، أية علامة هذه التي أطمع أن أكون من رجالها وهذه صفة من أكبر صفاتي ، أو قل هذا عيب من أكبر عيبي .

وقد كان مثل هذا السؤال حليقاً بأن يدفع اليأس إلى غلي ، ولكن كان إلى جوارى دائماً ملاكي الحارس . كان معي الخيال

والخيال يمد يده دائماً إلى الخائفين والخائنين ، وإلى الضعفاء والفقراء - فإن أحسنوا الإفاضة منه استعملوه ، وإن أساءوا استعملهم وويل للإنسان إن استعمله الخيال ، إنه لا يدع له فرصة ليحرف الحياة ، ولا ليتوصل متاعها . إنه يعر به منها حتى يفقد الصلة بها .

وناديت ملاكي الحارس .

إذا به يرتفع بي عن « الأزمة » ويصور لي الأمر أهون مما ظننت . وقال لي ليس في الضعفاء والضعفاء ، وليس في المحامير المدارة إلا من عقد الخجل أول الأمر لسانه فأخذ يجهاد ليحلها ويعكها ، وهو في جهاده هذا ، يصنع نفسه ، لأنه يقيس قوتها بالنسبة للناس وسير غورها ويدرس الأشياء والأشخاص ، فتزداد نفسه عمقاً ، ويزداد نظره للأمور إحاطة . إن الذين لا يخافون الناس ، ويعشون مجتمعاتهم ، في ثقة واطمئنان ، لا يهابون أحداً ولا يحسبون حساب شيء ، قد تبدو عليهم السعادة ، وقد يجيل إلى الناس أنهم لقوياء والحقيقة أن هؤلاء يفقدون مع الزمن كل طاقاتهم الروحية ، فيحرف ورنهم ، ويصبحون مع أحداث الدنيا ، كالريشة في مهب الريح ، لا يقوون على مقاومة صدام ، ولا يصمدون أمام حلجة من الملمات ، فليست البلاغة مجرد شقيقة لسان ، ولا تحريك هذه القطعة من اللحم في الأشدق فلا تخف أيها السيد ، وقف على قدميك وانزل إلى ميدان المعركة ، وسترى أن خوافك بلا أساس .

وقد خفف هذا الكلام عن نفسي كثيراً عما كان بها ، وأحسست أن العرق الذي

تفهد به جيبتي قد جف ، وأن الانقاص الشديد الذى انتابنى قد أحد يرايلى

وأحلت لوحة حياتى تعرض على صور كثيرين من العظماء الذين علتوا مطلع حياتهم كما أعلت الآن من الخجل ، وكيف عجزت ألتتهم فى أول مراحل تكامهم من أجل الرزق ، عن أن تفصح عما فى صدورهم ، فالتحتمهم الناس ، وأراهم عن طريقهم ، ثم استهانوا بقدرهم ، حتى حسب هؤلاء المساكين أن صفحتهم انطوت ، وأن سبل الحياة فى وجوههم قد سلت ، وأن أملهم فى النجاح قد انهار . . ثم قالوا ، قالوا أنفسهم وقولوا صغفهم . فلوموا خوفهم ، وقاوموا بأسهم ، فاستحالت هذه المقاومة إلى معركة دامية ، فلما خرجوا منها كانت أرواحهم قد اشتدت وقواهم قد أرهقت ومواهبهم قد صقلت . . .

وقد كان من عاقل ، إذا التهب خيال بصورة من الصور ، أن ألقف على قدمى ثم أذهب ، فى حركة دائية ، أقيس الحجرة دعاباً وإياباً ، وينبى خلف ظهري وكأن فى راسى سوفاً مألجة ، لأفكر تدافع ، وتسبق وتختلط ، وتفترق ، حتى أشعر بالسلم ، أو يدخل على فاضل ، أو يصرف انتباهى عن المسألة التى كانت تشغلنى صارف .

لكن فى ذلك اليوم لم تمتد إلى يد لإنقاذى من نفسى ، فبقيت أفكرى المستقبل ، تفكيراً عاودنى معه الحروف الشديد ، وأحسست فى هذه اللحظة أن المجتمع هو « غول » لا يرحم . وأنه ينطلق فى طريقه كالأعمى يندوس الناس ، احتباطاً ما لم يكونوا مسلحين بأفكك الأسلحة : ~

فالعصافاة لارقة الشعور والاجترأ لا الحياة . والادعاء لا التواضع ، والشره لا القناعة هى الدروع الواقية لأعصاب الإنسان من الأذى أو التلف . وهى سبله إلى قطع أقصر الطرق للنجاح . وعادنى بالتالى الشعور باليأس ، والرحبة فى الفراغ . الفرار إلى أين ؟ والاحتياط بمن ؟

ولأول مرة بدت لى هذه الحقيقة كالحة نكراء . أحقيقة أنا وحدى ، أعلم هذا الغول الذى يسمى بالمجتمع ؟ لم يعد يتفقى حبان الأم ، ولا عطف الأب ؟ أهذا الجو الرحيم المشبع بالودة والعطف ، قد انتهى دوره ، وأنه سيسلمنى إلى جو آخر

حل . بالتوتر ، والتنافس شعوره . السجاح هو الهدف . والوصول إليه جائز بأي ثمن ،
ومطلوب عن أي طريق ؟

وحيل إلى في هذه اللحظة كأي طفل تركته أمه تشبث بأهداب ثوبها ، فحلصت
الثوب من بين يديه في رفق وحنان ، ودموعها على خنودها والأسى مرسوم على
وجهها ، ولكنها مع ذلك كله تركته . . فهذا هو القدر المحتوم ، عتقم على كل ما أن
يواجه الحياة آخر الأمر وحده . .

وكان الشعور بهذه الوحدة قاسياً ، ذكرى بيوم دخلت حجرة العمليات ، فقد
كان كل من حولي يود أن يمدني بنفسه على الأقل هذا ما تصورته ، وزاد هذا التصور
من عذاب ، فقد كانت الوجوه تنظر إلى ، متجلطة ، متظاهرة بعدم الاكتراث
لتفريقي ومع ذلك كان وراء هذا التجلد ، جزع هائل ، لا يحيط به خيال ، وشفقة
عصيفة لا يمحدها حد ، . فلما وضعني الممرض على عربة حجرة العمليات ودهمني
أمامه ، كأنها يدفع شيئاً ، أدركت رأسي ، بحركة خفيفة لأرى أحساس ، وأولاد
إخوتي وفيهم الضابط ، والقاضي ، ولأرى جندي هذا الرجل الصارم الذي قضى
حياته في السودان قائداً عسكرياً ثم موظفاً إدارياً ، وأرى من خلف هؤلاء أمتي
التي تصعرتني . . كانت كمؤخرة الصورة ، تبدو أن شاحبي الوجه ، صامتتين
تلوح في مأقبيها دموع تود أن تنهمر ، ولزادة قوة تجسبها حبساً . . لقد بدا لي هؤلاء
جميعاً ، أبعد ما يكونون ، وإن كان لا يفصلني عنهم فاصل . . فإني أحس
بانعاسهم تتردد في صدورهم ، وأرى دموع أمتي وكأنها تتساقط على خنودي ، ومع
ذلك فهؤلاء جميعاً لا يملكون إلا أن ينظروا إلى ، وأنا ألدغ أحاسنهم إلى مصير
محموم . .

ماذا يسأري بهم الآن ؟ ماذا تسأري هذه الدموع المحبوسة ، وهذه الآهات
التي بطون عليها الصدور . إنهم جميعاً سألون غائون لا يشكون شيئاً ، وأنا وحدي
الذي أتحمّل آلامى وأحزاني ، أنا الذي سيدخل إلى حجرة العمليات ، وسيخلف
الباب على ويحرق الشرط على لحمي ، حق لمي التي كانت قد ماتت قبل هذه
العملية بسنين ، لو عاشت إلى هذه اللحظة لماضت أكثر مما فعله الآخرون ، بل
لعلها كانت تدنو أقل من غيرها فلما لأنها أكثر من غيرها رياضة بجاش ، وقوة
أعصاب .

هذه هي مأساة البشر ، لا يملكون لأعر الناس عليهم ، في ساعة المحنة ، سوى
المعطف والشمعة ثم يقومون بمد ذلك مكروى الأهدى .

علت موجة التشاؤم . . .

ولكن جاء الرد على هذا التشاؤم سريعاً . .

فقد سمعت طرقات الباب طرقات سريعة ، تدل على أن الطارق لم يتردد على
بيني ، لأنه لم يعرف مكان الجرس الكهربائي على الباب ، ومع ذلك إلا طرقاته تدل
على الثقة والشعور بحقه في هذا الطريق المتصل

وفتحت الباب ، ووجدت عيسى أمام ساعي تلغراف يقدم لي بريقة ، وعلى
شفتيه ابتسامة مودة كأنه يعرفني منذ وقت طويل وقال لي :

برقية للأستاذ حسين القويضي

قال الأستاذ ، كأنه لقب قديم ، جرى استعماله على وجه مألوف ، أما أنا فقد
أحسنت بأن لفظ أستاذ قد رن رنيناً أحياناً ، وشعرت بأن ابتسامته قد ففرت إلى
شفتي واستقرت عليها .

والعريب في الأمر أنا - نحن طلاب كلية الحقوق - كنا نسعى انفسنا بسائلة
منذ اليوم الأول الذي وطأنا فيه أرض الكلية ، وكان الناس يسموننا كذلك ، فانا
أستاذ منذ أربع سنوات سابقة على حصولي على شهادة الحقوق ، ومع ذلك فإن ربي
العملة الصحيحة يختلف في الأذان - هي ربي العملة الزائفة .

فأستاذ السابقة على الشهادة النهائية كانت مجرد اختصار للقب ، أما أستاذ الآن
فاستعمال حلال له . وإعلان لي بأن لياي الدراسة قد ولت ، وأن الخوف من
الامتحان ، وترقب النتائج قد احتسنى إلى خير رجعة

وعلى عادي ، جرت هذه الخواطر كلها في رأسي في مثل لمح البصر فلما أفقت
منها وجدت ساعي التلغراف واقفاً أمامي ، وعلى شفتيه ابتسامة لامعة فملدت يدي
وأخذت البرقية منه ووقعت بالاستسلام ، وقضت البرقية ، فإذا هي باللعنة
الإنجليزية ، إنها بريقة تهتة من أحق التي سافرت إلى ألمانيا لتكون في صحبة زوجها

الكيمائى ، الذى أوقدته الحكومة ليحصل على درجة الدكتوراه فى العلوم « غنى »
 الأستاذ حسين ، وتنسب له السجل العظيم « لقد قرأت البرقية ، عشرات المرات ،
 ثم طويتها ووضعتها فى جيب سترى ، المعلقة على مشجب فى الحائط ثم ذهبت على
 حافى أذرع الحجر جثة وذهاباً ، ثم عدت إلى السترة وأخرجت من جيبها البرقية ،
 وقرأتها مئة وثلاث وربع ، فى كل مرة أشعر بالسروى بغير نفسى ، بأنى تلقيت
 برقية من الخارج ومكتوبة باللغة الإنكليزية وأنى استطعت أن أفهمها بسهولة ، على
 الرغم من أن مستواى فى اللغات الأجنبية ضعيف غاية الضعف .

زال التشاؤم من نفسى ، وأحسنت أن أصبحت شخصاً قادراً على أن أخلق
 بجسمى فى الهواء ، وصيبت على التو ، بحكمة فى خيالى واخترت لنفسى قضية من
 القضايا الهامة ، ولكنى لم ألبث حتى اخترت غيرها وغيرها وهكذا ، وأخذت أترافع
 ليهما الواحدة بعد الأخرى ، فمرة أكون محامياً لمجريت فهمى المرأة الإنكليزية التى
 قتلت أحد الأعيان المصريين ، وتارة أترافع ضدها طالباً الحكم بموتها ، ثم أترافع
 عن المتهمين فى قضية مقتل السردار ، وقضية محمد فريد وعن النازىين ، وفى كل
 مرافعة من هذه المرافعات ، أقتع بجمليتين ، لا ألتجورها ، أضع فيها حلاصة
 ما أظنه آية الآيات فى البلاغة ، وأنها سيهران الجمهور الذى تعص به قاعة الجلسة
 من الأعماق . .

ويبدو أن المجهود العصبى ، المصحوب بالحركة ، قد استعدا قادراً غير قليل
 من طاقة نشاطى ، فأحسست بشدة الحاجة إلى الطعام ، ففمت أبحث عما عساه
 يكون معداً للأكل فى الدولاب البنى القديم الذى انتقل مع والدى من بلد إلى بلد ،
 والذى أخذته آخر الأمر وأنا أنمصل من عائلتى لأقيم فى القاهرة طالباً العلم فى
 الجامعة ، فوجدت طعاماً وصعته على المائدة الخشبية التى يملؤها مشمع ، تزينه
 أوراق من ورق شجر أحمر وأحضر وأصفر فى إطار من دوائر ، ومثلثات ، متداخلة
 ومتجاورة ، مكونة حلقة .

ولم تكن حدة انفعالى قد هدأت بعد ، فوضعت الأكل أمامى وأخذت أقضم
 لقمة فى أثر لقمة ، ولا يزال الفضاضة أمامى أترافع أمامهم ، وأحطب فيهم ،
 ويقاطعنى ممثلو الانهزام ، وزعمائى المحامون ، فأنعجج فى صيحات تحيفة مرعدة ، ثم

يقاطعني الجمهور ، بالتصفيق ثلثة وبالصحك المشجع تارة أخرى كأننا في مسرح . .
وأنا في كل هذا لا أدري ما إذا كانت القضية التي أترافع فيها ، قضية سياسية أم
جنائية أم مدنية ، وما إذا كان موكل رجل أم امرأة ، إنما الشيء الوحيد الذي أدريه
أن المحاكمة منسوبة والجلسة معقودة والقاعة مكتظة ، والجمهور معجب ، وصول
يرد في أدنى وصور بلاغية ، وبيانية تتلاحق هل لسان

وكلها امتلأت بطنى ومالت إلى الشبح ، قتر خيالي ، وقلت حمامتي ، وملت إلى
الراحة ، حتى جلست هل مقعدي . وكأننا ألفب أنفاسي بعد شوط طويل قطعته في
الركض والعدو ، ثم هدأت نفسي ، وانخفضت الشاشة التي كنت أرى المحكمة
عليها ، وانقطعت مراهمي ، وانشغلت بتناول فاكهة كانت أأمل ، فلما فرغت من
تناول الطعام قمت أغسل يدي . وتحدثت هل كنية أمام السرير ، أطلع في
كتاب . . . حتى استوائ النوم بين فراحه . . .

الفصل الثاني

القضية الأولى

دق جرس الباب ، فأسرعت إليه ، لأرى موسى أمام عبد الحابر سرى أمدي ،
المهندس الزراعي فقد كان أحد جيران الكثيرين الذين لا أعرف مجرد أسمائهم ،
والذين أحهل كل شيء حتى وجوههم . فقد كنت أعيش في الحى الذى أقمت فيه ،
وفي المنزل الذى برئت بالدور الأول منه بعيداً عن كل الناس ، لا أروى ولا أزار ،
لا أهوى ولا أعزى ، ولا أتبادل التحية مع أحد ، كنت وحيدى ، لا أتمدّد مقاطعة
الناس ، ولا أتخاصمهم ، ولا أتعذبهم ، ولكنى لا أسمع إليهم ، ولا أفكر
فيهم ، ولا أشعر بحاجة إلى العيش معهم ، قد يكون مرد ذلك كله ، هذا الخجل
الذى حدثتلك منه ، ولكن الشيء الذى كان يسملى ، أنهى لم أكن أضمر للناس
كراهية ، ولا أحس بأن أكبر أو أفضل منهم ، وأن عزلتى لا تغفل عني ، ولا تأتى عن
جهد أو تعمد

ولكن عبد الحابر سرى أمدي كان استثناء ، فلقد ركنا سوياً الترام أكثر من
مرة ، عند المحطة التى تواجه منزل كل منا ، وعلى عادة ركاب الترام إننا الأيام التى
لم يكن فيها الترام مزدحماً أردحامه الآن بدأ يثرثر معي ، فيتقلّب بين شئون السياسة ،
والاجتماع ، والوادر ، والقصص ، ويسألى عن دروس الحقوق ، وقيل أن
أجيب ، يجيب هو ، ويذكر أسماء الأساتذة متداخلة ، فهو يعرف مثلاً - هذه
عبارة - الدكتور كامل بدوى ، فلا أعرف أنا إننا كان يقصد كامل مرسى ، أو
بهجت بدوى ، ولكن السؤال الوحيد الذى كان يسأله ، ثم ينتظر الإجابة عليه هو

سؤال ثالث ، دائم ، يوجهه في موضوع الموارث ، ولما كانت الموارث في الشريعة الإسلامية من أثقل دروس هذا العلم ، فكان ترحيبي بالأسئلة فيها ضعيفاً ورعيق في الكلام حولها أصعب ، ولكنه كان يسأل السؤال ، ويبحث في وجهي ببعض صغيرتين لامعتين تصحسان وجهي وقد تحولوا العوص إلى سريري ، وأعماق نفسي ، تشهدا كيف تدور عجلة « غي » بلحنة عن الإجابة الصحيحة لهذا السؤال المويص . وفي كل مرة يوجه إلى هذا السؤال ، تشد في الرعدة لتوجيه سؤال مضاد له « هل تنتظر ميراثاً يا سيد عبد الحارث ؟ » . ولكني قاومت نفسي بشدة ، لأنني كنت أعتقد أن توجيه مثل هذا السؤال ، سيصدم عبد الحارث أفندي فهو أغلب الأمر ، يحلم ، وهو يريد أن يؤكد أحلام اليقظة - بهذا السؤال الذي يفتح بتوجيهه ، ثم ينصرف إلى وجهي بشأله وأنا أحاول البحث عن الجواب فعل شفيه ابتسامة عضة ورصا ، وقد فهمت بعري ، أنه يصور الأمر لنفسه ، باعتباره صاحب ميراث ، ويوصي محلياً ، فهو يسأل ، ثم يرى المحامي ، وهو يفكر ، لأهمية القضية ولخطورة الموكل ، ولضخامة الأتعاب ، وينسى بهذا الخيال كله ، أنه داهب إلى عمله ، الذي لا يجه كثيراً ، أو الذي يكرهه ، لثقل دم رئيسه ، ولعقر رمالته وكثرة تنادهم على الناس ، بما فيهم شخصه . فالمرحلة بين البيت والعمل ، هي المرحلة الفاصلة بين الحرية ، والقيود ، وبين الراحة والمثل ، فتزدها يحال مسعد ، يزيد من حلاوتها ، ويؤكد وظيفتها ..

والمعجب في الأمر ، أنني أسطلت الجواب في المرة الأولى ، ونجحت بيني وبين نفسي ، من جهل ، ولكن عزائي ، وتخطف عن الأمر ، أنني كنت أعلم أن نتائج هذا الجهل ، وعواقب هذه الفتوى ، هي صفر وعدم .. فصاحي لن يكسب إن أحسنت الإجابة ، ولن يخسر إن أسطلت قالأمر كله كلام في كلام .

لكن ضميري كان يقظاً ، فني المساء عدت إلى بيتي ، وأعدت أبحث في كتاب الشريعة الذي تمرق منه خلافة الأزرق الذي كان يشبه في توابعه نواصع مؤلفه العالم الجليل المرحوم الشيخ أحمد إبراهيم ، فوجدت أن كل ما قلته كان بعيداً عن النصوص ، بعد المساء عن الأرض ، فانتظرت أن ألقى عبد الحارث أفندي لأصحح له إجابتي ، ومرت الأيام وأنا قلق على القلب ، وقد بلغ من حرصي على تصحيح الخطأ ، أنني ما هممت بركوب الترام في الصباح أوفى الوصول إلا تلت حوالى ،

ماظراً إلى الجهة التي يأتي منها عدد الجواهر أفندي ، عسانا لربنا مقلدا . وفي بعض
المرات كنت أترك الترام ، مؤملاً أن يأتي خلال انتظارى للترام التالي ، ويعد أيام غير
قليلة ، انقضت على هذه الصورة من الثرق ، رأيت عدد الجواهر أفندي على سلم
الترام ، يعد أن كان القطار قد تحرك ، وثب إليه في رشاقة ، مع أنه كان صحياً ،
وعلى الرغم من أن سنة قد تجاوزت الأربعين

ولا تسأل عن سروري وفرحي ، إذ رأيتة أسمى ، ووقع نظري على وجهه
المستدير الكامل الاستدارة ، المليء ، الأمصر ، وعلى عيبه الصغيرتين
اللامعتين . وقال وهو لا يزال على سلم الترام : صبح الخير . ! صبح
الأنوار . . .

فهتفت من الأعماق ، وكان عثرت على لفظة : صبح الخير . وجلس عبد
الجواهر إلى جانبي وأخذ يثرثر على عادته ، وأنا أود أن أقاطعه ، لأصحح له الخطأ ،
وهو متدفع ، متدفق ، يتنقل من موضوع إلى موضوع ، في خفة ورشاقة ، وسهولة
وير ، مفهفها ، مبتهجاً ، علم أجد وسيلة لإيقاظ لحظة لأبش إليه بصحيح الإجابة
التي سبق أن أدليت إليه بها خطأ ، حتى جاء « الكمساري » يطلب التذاكر ، فتوقفت
هذا السيل من الأنفاس ، فأمرحت إلى القول بأن متأسف . ولكنه لم يسمع من
كلامي سوى هذين اللفظين ، ثم اشتبك مع الكمساري في حديث لم أدر كيف نشب
فقد سمعتها يتبادلان الفكاهات ، ويهفهفها معاً ، وكأنها صديقان متعارفان منذ
قديم . بقيت أنتظر أن ينصرف الكمساري لأصحح الخطأ الذي وقعت فيه ،
والذي أنقل ضميري كل هذا الرمز ، ولكن كم كانت دهشتي حين رأيت
الكمساري وقد أحاطت العمود الحديدية الذي تنتهي عنده العربات الأخيرة من الترام ،
والتي كنا جوساً بها ، يدراعه ووقف يتحدث مع عبد الجواهر ، على صورة تدل على
أن الحديث طاب له ، وأنه قرر أن يبقى في مكانه ، صارفاً النظر عن صرف التذاكر
لبقية الركاب . .

وانتفت الكمساري إلى أخيراً قائلاً : تذكرة ؟

فلمحت له يدي في الحال بالنقود التي كنت طويت يدي عليها منذ ركت وقد

غسلها العرق ، فلبت لأمعة يديه . مددت له يدي بالتقود والتعت في الحال إلى
عبد الجابر وقلت له مسألتاً « أنا متأسف يا عبد الجابر أفنى . »

ولشلة دهشني ، لم يلبث الحديث أن شب بين الكساري وعبد الجابر وراكب
ثالث كان يجنس إلى جوارى ، وكان إلى تلك اللحظة صامتاً . ولو كنت في حالة
أخرى ، لشملتني ظاهرة اشتراك السس في أحاديث حارة متدفقة دون تعارف سابق ،
ولكنني في الواقع كنت مشغول البال بتصحيح الخطأ الذي وقعت فيه . وأخيراً
جاءت اللحظة المرتقة فقد قال أحد الثلاثة عبارة لم ألتصق إليها ولكن عبد الجابر
أجاب مشيراً إلى . « معنا أسلاد ، ويمكن أن يفيدنا في الموضوع » . وألصقت الثلاثة
إلي ، فقلت « إني تحت الأمر » ، وأضعت . « يا عبد الجابر أفندي » أحب أن أعتذر
لك ، فقال عبد الجابر ، في تسامح ، ومودة ، وأخوة ، عفواً . عماداً ؟ فقلت
أذكر مسألة الميراث التي سألتني عنها ؟

ولم أكن أتوقع أن تعبراً هائلاً ، بالفقر الذي حدث فعلاً سيصيب عبد الجابر ،
فقد بدا عليه أنه انفصل في الحال عن الكساري وعن جاري ، وأن موضوع
الميراث ، قد استغرقه في لحظة ، بأسرع مما تمحور الإصمعة الماء الذي توضع
فوقه . وأقبل هل بكل جسمه ، ولملت عيونه الصغيرة كالماندة ورففت على شفتيه
ابتسامة ، مضجعة ، متوقدة ، وقال : خير .

قلت ، وأنا عارق في مظاهر هذا الجو المجامل اللطيف ، حتى الأذن :

لقد أحررتك بأن الأخ غير الشقيق يرث . .

ولم يدع عبد الجابر أفندي الكلمة التي بقيت هل لساني محبوبة منذ رأيته في
الصباح تخرج من مجبها ، فقد أشرك الجالسين معنا في الحديث والتفت إلى
الكساري ، فوجدته قد يارب مكانه بحثاً عن الزبائن وتذاكر الزبائن ، وبدل أن
يستمع التصحيح روى المسألة من جديد وأستمعت إليها كلها ثم أجهت الإجابة
الصحيحة ، وكأنه طفل يتجرع رجاجة زيت غرور ، فقد كان استعداد له لسماع
أي شيء مني صحيحاً وكانت رغبته في أن يتكلم هو ، جماعة كالجواد المنطلق .

ونعمف صمبى من هذا الوزر الذي احتمله طويلاً . ولم يعد يحى أن

بستمر في كلامه أو أن يصمت إلى الأبد ، ولم تذكر المحطة التي أريد المرور فيها
تبل ، حتى قمت مستعداً للمرور عبياً عند الجابر ، والجالس جميعاً .

ومنذ ذلك اليوم لم يكن جاري عبد الجابر يلتقي في الترام أو يقابلني في الطريق
حتى يسأل عن نفس مسألة الميراث ، وهذا لي أن أنوع في الإجابة هل في كل يوم
جواب ، ولكم كان سروري عظيماً حينما وجدته يتقبل جميع الأجوبة بنفس الترحاب
المعهود وانقلب الحال فأصبحت أنا الذي يؤثر موضوع الميراث ، "كلما لقيت ، وعلى
كثرة ما أثرت ذلك الموضوع لم ألحظ على اهتمامه فتوراً ، أو ألحظ عليه انصرافاً ، كما
لم ألحظ أنه تشكك في نواياي في مناقشة هذا الموضوع فقد كان مظهرى بريئاً ، وفي
الواقع أني لم أكن ممن يحسون معاذرة الناس ، أو السحرية من عيوبهم ونقصاتهم .
ولكن عبد الجابر أفندني كل فرصة سهلة ، وكنت أبرى على وجهه مظاهر السعادة
والرضاء فكان يتقبل هذا كله لي بالعدوى

وعلى الرغم من كثرة مقابلتنا في الترام وفي الطريق ومن كلامي في موضوع
الميراث فإن عبد الجابر أفندني بقى بالنسبة لي ظاهرة عارضة لا أثر لها في حياتي ، فلم
توثق علاقتي به ، فلم أسأله مثلاً عن مسكنه ، وإن كنت أعرف استنتاجاً أنه يقسم في
حارة مجاورة لمنزلي ، فقد كان يخرج من هذه الحارة المؤدية إلى الشارع الذي كنا
نركب منه الترام ولم أسأله كذلك عن وظيفته ولا عن مرتبه ، ولا ما إذا كان متروحا
أم أعرب . وإن كنت واثقاً أن أبسط محاولة مني ، للوقوف على هذه التفاصيل
ستؤدي حالاً إلى إغراقني ببعض من المعلومات والتفاصيل ، ولكني لم أكن أبدأ
فضولياً ، ولم تكن حقائق حياة الناس التي من هذا النوع شعلاً من مشاغل

لذلك أدهشني جداً أن أجد أن عبد الجابر أفندني جاء لزيارتي ونساءمت نري
أي حافز حفزه على هذه الزيارة .

دخل وسلم ، واعتذر ، وكانت نظراته ، تنبئني من لحظة إلى أخرى إلى الباب ،
فظنت أن حلف الباب شخصاً أو شخصاً حصروا معه ، أو حصروا من أجلهم ،
ولم تطل المقلعت ، فقد أفندني لي في اختصار بأنه جاء بعرض على قضية

قضية دفعة واحدة !

عصمت بريقي ، وشعرت بقلبي تتجارب صرساته ، وأحسست بعصبية
تشملي من رأسي إلى قلبي ، وحاولت عبثاً أن أبدو هادئاً . قضية ؟
فأجاب على الفور قضية على قدر الحال لا نؤاخذن يا أستاذ فلقد رأيت
أن الحأ إليك لاني استشفعت من أحديتك أنك رجل تشفق على الفقراء وتحب أن
تساعدهم .

ولم يكذب يقول هذا ، حتى نصورت أن القضية التي مشعر من على سنكلقي مالا
ولس أكسب منها شيئاً ، ولكن الواقع الذي أخافني هو أنني سأكلف القيام بعمل في
المحاكمة وأنا لا أدرى من إجراءات المحاكم قليلاً أو كثيراً ، وقد كنت أمتني نفسي أن
يتأخر عمل المحاكم قليلاً حتى أنهي لهذا الدور الجديد في حياتي .

وقد لاحظت أن عبد الجابر يشرب يده طوال الحديث إلى ناحية الباب ، دون أن
يصحح عما إذا كان وراء الباب أحد يتظره ، أو له صلة بالقضية التي نبدأ ليرى في
وقائعها ، ولكن تلك الإشارة ، لفنت نظري إلى الباب ، فتبيت شبحاً أسود ،
حلب الزجاج يتحرك ميضاً وساراً ، ولم أستطع أن أقطع لنفسي ، ماذا يكون صاحب
هذا الشبح أرجلًا يكون أم امرأة ؟ فالصورة المتطبعة على الزجاج « الإنجليزي
السميك » لا تمير على القطع بشيء ، إذ لا يظهر من خلف الزجاج سوى الخطوط
الخارجية لشكل الجسم ، ولم يكن هذا الشكل مطابقاً لصورة رجل يلبس شيئاً من
أغطية الرأس المعروفة كالعملة أو الطربوش أو اللبلة أو الطاقية ، ولا حتى القبعة

شملت بحل هذا اللغز ، حتى لم أعد قادراً على متابعة حكاية السيد عبد الجابر
عن القضية . . فلما انتهت بعد فترة من الانصراف عنه ، سمعته يقول : « وصرح
الرجل . . صاحب . . . صاحب الله لا يسيك » .

ورأيتني أمام مشكل أكثر صعوبة من مشكلة تبيين صاحب الصورة المتطبعة من
خلال الزجاج الإنجليزي ، فقد ظهر أن عبد الجابر وصل في القصة إلى مرحلة
هامية ، حتى لم يعد لائقاً مني أن أستفسر منه عن شيء في هذه القصة ، لأن أي
استفسار سيكشف تماماً له أنني كنت بعيداً عنه كل البعد وإن أنني لم تلتقط من هذه
القصة قليلاً أو كثيراً . . ولم يكن ثمة متلوجة من المتظاهر بالاهتمام الشديد بوقائع
كأسها آثار تنفي واستولت على انتباهي وعلى الرغم من أن عبد الجابر لم يكن في حاجة إلى

مشجع ، فقد بدا عليه الاعتباط الشديد بهذا الإقبال لا لأنه كان يريد من الاهتمام والمطعم على القصص وصاحبها فحسب بل لأن هذا الإقبال كان دليلاً عظمياً على نجاحه في القصة والحكاية ، وشهادة بحسن أسلوبه وطلاقة لسانه وكرر عبد الجابر هذا المقطع الأخير من قصته

— صرخ الرجل . . حاسب . . حاسب الله لا يسيئك .

وهنا اجترأت على أن أهر رأسى هزة الأسف ، صحيح ، أبي لم أكن أدري إطلاقاً من هو الرجل الذي صرح ولا أدري لماذا صرح ولا من قال حاسب . ولكن ألفاظ العبارة والطريقة التي أدت بها ، دلت دلالة قاطعة على أن الموقف الذي ذكرت فيه كان داعياً للأسف لذلك لم تكن المجازفة — مجازفة هر الرأس في أسف ، محفوفة بمخاطر كثيرة .

وقد كنت حسس الخط إلى درجة لم أكن أتوقعها ، فإن هزة الرأس هذه ، هزت وجدان الأخ عبد الجابر ، فقد توقف عن الكلام وحلق في وجهي بعينه الصعيرتين الناعزتين الصاحكتين المتوقدتين وقال . ألم أقل لك إنك إنسان ؟
يا للورطة ؟

هزة رأس لم تكن مجرد حركة عادية بل كانت حدثاً تاريخياً بدليل هذا التعليق الصخيم ، لقد كشفت هزة رأسى ، أبى إنسان ، فأية بلاغة اتسمت بها هذه الحركة ، حتى أعلنت عن إنسانى . لقد رأيت أن الرم الخفيفة ، فقد تورطى هزة رأس أخرى ، أو لفظة صغيرة ، أو تلويحة يد ، في معان لو مواقف لم أفصدها

صممت صممت الاهتمام والترقب ، واستأنف عبد الجابر حديثه ووجرى أبوها (وأشار بيده إلى الباب) وجرى كل الرجال الذين كانوا معه . ولكن كان كل شيء قد انتهى .

ولما وصل الحديث إلى هذه الفقرة أحسست بأن غسقت حتى أدنى في معميات . ففقد قال صليقي عبد الجابر « أبوها » وأشار إلى الباب ، فلا بد أن يكون الشبح ، شبح امرأة ، ولا بد أن الحديث تصم إشارات وحقائق عن السينة بدليل أن بطل القصة كلها ، وصاحب أكبر أدوارها يوصف بأنه « أبوها » فمن

تكون ، ومن هؤلاء الرجال الذين جروا وما هو الشيء الذى انتهى كله حينها جرى هؤلاء .

العار فوق العاز ، ومعصيات فوق معصيات والله وحده يعلم كيف الخروج منها ؟

وتوقف عبد الجابر أفندى ، قليلاً وعينه لا ترحل عن الباب ، ثم انجه إلى وقال ماذا ترى ؟

وعصمت برقى ، لأن الله لم يفتح على بكلمة ، فقد كانت الكلمة الواحدة في هذا الموقف كافية لأن نطلع عبد الجابر ، هل أنه كان محدثاً فاشلاً كل المشل ، هل الرغم من الجهد الذى بذل ، والماء الذى كاد ، والقفرة البتائية التى أظهر

وساد المكان صمت ، فلا هو يتكلم ، ولا أنا أنبس بيت شعة ، ولا حتى الشبح الذى يقف خلف الباب يتحرك ، فترة صمت ، أعرق من الصمت الذى يفرق فيه الناس ، عندما يقفون حداداً هل ميت جليل

ولقد أدركت بغيرى ، أن القصة فيها ميت — ولم يطل الموقف ، حتى أناكدم من صخرة ما حدث ، فقد استأنف عبد الجابر القصة وكأنه قبلة تطلق من عقابها ، بائسة عن الفضاء والحرية .

قال :

قلوب الرجال ، الرجل المسكين .. هرجلوه قد عقد النطق ولغد على الأرض كقطعة من الخشب ..

وأغمض عبد الجابر عينيه فترة غير قصيرة استطعت معها أن أنطق نظرة طويلة نوعاً وجهتها إلى الباب .. ولكن قدر هذه النظرة أن تطول إلى أكثر مما توقعت ، حتى لقد سبت سبب هذه النظرة الأستاذ عبد الجابر ، وتركته في « نوم » مثل البطل الثاني في القصة ، الذى جرح أو قتل لست أدري . نعم ، طالت بطرق ، لأنى تبينت أن باب الحجرة المائل على السلم ، الذى وقف الشبح خلفه ، كان موارباً ، ورأيت الباب يدفع ، ويطل من بين شقيه ، رأس فتاة تجاوزت السابعة عشرة بقليل .. فتاة من أهل القاهرة ، على رأسها ملاءة سوداء ولف « انراحت قليلاً من

فوق رأسها ، هذا فوق الرأس متدلي ورفي من هذا الصنف من المتاديل المعروفة « بالقوية » ولكني أكتب حينئذ أنول إلى هذه الرأس ، أكتب مدح الباب ، والنظر منه إليها ، أنا وعبد الجابر ، فقد فعلت شيئاً أكثر بكثير من هذا . فقد علت هذه الرأس جبهة مسيحة عالية ، تكاد تنظر بورا وكان تحت الجهة جاجبان لم تمسهما يد الصاعدة فاستندازا كحد المسيف ، فوق عيني واسعتي ، لا أعرف لونهما ، ولكني أحسنت بأثرهما ، فقد كانتا كعين طفل صالحك ، ملوح ، يرى ، ومع ذلك فهو طفل شقي ، تنظر الرعية في المعاكسة من مظارئه . وفجأة رأيت ابتسامة ترحب ، تقفز على شفتي ، ورأيت هذه الابتسامة على صفحة وجهي ، فالتجعت إلى الباب بكل جسعي ، وتهللت كل جارحة من جوارح نفسي . ولم يجتج عبد الجابر أفندي على انصرافي عنه ، لأنه هو أيضاً انصرف عني وهي الحكاية التي كان يروينا لي بأدلا في سبيل روايتها جهداً جباراً .

« ادخل يا حميدة » .

هكذا قال عبد الجابر ، ولكن لسبب لا أحريه أحسنت أنه قال « حميدة » بطريقة ماطقة بأن حميدة هذه ليست مجرد فتاة ذات صلة بالقضية التي جاءه إلى من أجلها وأنها تشعل حوراً في حياة جاري

ودخلت حميدة ، وكانما دخل معها تبار من السعادة والسرور والنشاط ، فقد دفعت الباب ، فتاة رشيقة ، سريعة ، بسيطة ، ساخجة من بنت البلد ، ميسرات احوال نوعاً ، وقالت سل خير ، فقلت في غير ارتباك : مساء الخير .

ومع ذلك لم يكن المساء أقبل بعد ، فقد كانت الساعة في نحو الخامسة وكان الجو حارها وجلست بعد أن مدت يدها إلى : جلست متصبية القائمة دون أن يبدو عليها ارتباك أو حجل أو تريب ونظر إليها عبد الجابر لحظة ثم التصت إلى وقال : بيته

وكان ممكناً أن أقول : أنت من ؟ دون أي ارتباك أو خوف ، فلقد ذهبت كل المشاعر السيئة من نفسي ولم يعد باقياً إلا مشاعر الاطمئنان واللغة والإنبال على الحياة .

والارتباك لا ينشأ إلا من الخوف من الناس ، أو من الظروف ، فإذا غلب

الخوف في نفس الإنسان شعور أعظم منه اجتمعت مع الخوف كل المشاعر التي تتجم
فيه ، والتي يلدها . . .

وقالت حميدة : وأيك إليه يا أستاذ . .

مقاطعها عبد الجابر . والدك ليس عليه ذنب ، والقاتل اتضح أنه مصاب
بالصمم عندنا شهود . والدك عمل ما عليه وأكثر ، لقد صرخ صرخات
عالية . .

فقال حميدة وهي غير مرتاحة لمقاطعة عبد الجابر ، « على الله » . فاندفع
عبد الجابر كالشور : على الله . . طبعاً . . ليس لنا سواء نحشى به ، ويعتمد
عليه . . إنه كبير ، كبير جداً . جداً جداً ، وكأنها استولت على (عبد الجابر) نوبة
عصبية فأصبح يردد بلون وعي ، ويكثره ملعة للنظر كلمة كبير جداً ، مكتوباً منها
صيفاً مختلفة فيقول مثلاً كبير . كبير . ماذا الباء والياء ، ثم يقول نارة أخرى
و كبير كبير كبيره بسرعة مع تقصير الياء وتخفيف الباء ثم يقول كبير مرة واحدة مع
إطالة الياء ثم يضع بعد هذه الكلمة جداً مرة ، ومرتين وهكذا ، كأنها هو موسيقى ،
يصنع من اللحن الواحد ، نفرجهت عليه ، تتداخل وتشابك ، وتوزع وتلتقي
وهو سعيد بهذه البراعة في معالجة ذلك اللحن الممتاز .

ولم يعد عبد الجابر يعني لا هو في ذاته ، ولا هو بالحنان ، فقد شعلت حميدة من
الحجارة كل شبر فيها ، ببساطتها واطمئنانها وقلة اكترائها بما سيحدث ، وكأنها هي
وعبد الجابر ، شيان متناقضان . فقد كان أسمر اللون ناكته ، وكانت بيضاء ناصعة
مع طبقة حمرة خفيفة ، وكان مهتاجاً ثثاراً مندفعاً ، وكانت هي صامتة مقلّة ،
مطوقة الشفتين . وكانت عيناه صميرتين كأنهما حلفت من الترتير ، وكانت عيهاها
واسعتين جداً ، كأنها هما مصباحان يشعان موراً . وكان قلماً لا يستقر ، وكانت
هادئة لا يبدو عليها قلق ولا انفعال . .

ولكنها كانت مرتبطة أشد الارتباط ، فقد جمعها عدى أمر هذه القضية . وقد
أصبح سهلاً أن أستنتج أن والدها متهم بقضية قتل خطأ ، أو على الأقل إصابة
خطأ . وأن الحادث وقع بسبب سقوط شجرة على رأس المجنى عليه ، جرحه أو

قتله ، وأن والد حميدة كان مشرفاً على العمال الذين يقطعون هذه الشجرة في طريق
من الطرقات العامة .

وشجع عبد الجابر من ترويض لحنه للكون من كلمتي كبير وجداً ، فكف عن
الكلام قليلاً . خصوصاً بعد أن نظرت إليه حميدة نظرة مناعها ودع الاستد
بتكلم .

فنظر إلى وقد هدأت أنفاسه وقال : أظن أن موقفنا مطمئن

وكانت هذه هي تجريبي الأولى في مباشرة عمل كمحام ، مع الزبائن لذلك
حرت ماذا أقول ، هل أقول مثلاً إنني لا أستطيع أن أبدي رأياً حتى أقرأ الأوراق
فيظن موكل في الظنون ، ويحسبون أني عبر كصه ، وينصرفون إلى عام آخر يبعث
فيهم الأسمل . أم هل أقول إن الموقف مطمئن وأن المراكز متين ، وأن القضية
مضمونة ، فأسري عنهم ، وأخفف قلقهم ، أم هل أقول كلاماً عاماً بما يكره الناس
عادة لتخلص من رتود معينة لا يجبون التورط فيها مثل . ربما يسهل إن شاء الله ،
كله غير

وعندما وصلت إلى هذه المرحلة من الحديث مع عبد الجابر ، حاولت نجعل ،
فأصبحت لا أستطيع أن أنظر إلى « حميدة » ولا إلى « عبد الجابر » ونحيل إلى في هذه
اللحظات ، أن عيني حميدة الكبيرتين الواسعتين ، وعيني عبد الجابر الصغيرتين
المتلائي ، ثمحيطي بسياج من نظرات متسائلة ، تكاد تجل إلى الصحرة . . ونحيل
إلى أنها يجمان بالخروج من الحجرة ، وهل شئ كل منها انتسامة اشفاق ، إذ كشفنا
عجزى وقلة خبرتي .

كنت أود أن أنظر إليهما ، وأن أطيل النظر ، لا سيما إلى حميدة بالذات لأني كدت لها
أن ماتوهما لا أصل له . وأن أي عام آخر مهما كان حظه من القدم والقدرة في موقعي
لا يستطيع أن يفعل أكثر مما فعلت . وأنيما يظلماني إذ يظنان في كفاف الظنون ،
وصمعت في هذه اللحظة صوت عبد الجابر يقول « على بركة الله يا أستاذ ، هم
تمامي ، سيكون في نيابة عابدين غداً ، وحضرتك تحضر معه ، وهل الله القبول ،
إنشاء الله إمرأج ، ولو بكفالة . أحسن من الحبس والإهانة » الله كبير . . كبير

قوى و وخیل إلى أنه سيورد إلى تحة القلبم ولكنه اكفى هذا المقطع منه ، بعد استبدال كلمة قوى بكلمة جداً .

وفي هذه اللحظة دفع الباب ، ودخل شاب يلبس ما تواضع الناس على تسميته « بالعريضة » وحيا الجالسين بقوله السلام عليكم ، وبعد بده محوى يداً مسوطة ، لم يطعها على يدي وهو يصافحني وقال وهو يجلس على حرف المتعد - كيف الصحة يا أستاذ وقيل أن أجيء قال عبد الجبار « مديوني . ابن عم حميدة » ونظرت إلى حميدة عمو ، فإذا وجهها قد اكسى بحمرة قانية ثم ما لبث أن عاد إلى ما كان عليه - في لحظة واحدة علت وجهها هذه الحمرة ثم رالت وكأنها لم تكن وعادت حميدة إلى سابق هدوئها وعدم اكترائها . ولكنني أحسنت أن عبد الجبار قد تولاه قلبي بمجرد وصول مديوني إلى الخجرة هل كنت مصيباً فيما تصورته أم أن انفعالي الشديد هو الذي صور لي كثر هذه التصورات .

وأراد عبد الجبار أن يقصر الجلمة ، وأن يقوم دور وصول مذبولى إلى الحجرة فقال :
« استين » . الأستاذ باكر إن شاء الله في نهاية هابدي . . . وهل الله « التناهي » .

قالت حميدة - وقد بسطت أطراف ملائحتها اللف أمليها ثم عادت ولغت جزءاً منها حول جسمها بيدها اليمنى ، ثم جانباً آخر بيدها اليسرى ، فالتصقت الملاة بجسمها الرشيق التصاقاً بلوياً ، وعذلت من وصح الملاة فوق رأسها ، ثم عذلت يدها ، إلى ، وهي - تنظر بعيون تفيض ابتسامة سعيدة ، لا تلمس عذته ، ولا حلة حرمها حل ألا يبدو عليها وفي صوتها ، خصوصاً أى شيء ، من الحزن والأسى ، لأن أباهما قص عليه ، وهو رجل كبير ، ولا عهد له بأقسام البوئس ولا بالقضايا .

ووقت مدبولی ، وارثان اُن يتكلم فقال عبارات مقتضیة ، حقیقة ، مؤداها اُن
 حبس عمه الشیخ تمامی ظلم وان عسکری الداوریة حابی اهل العامل القتیل ،
 مساق الشیخ تمامی الی نقطة الترامک ، مع انه لا شأن له بالطور ولا بالطاحین ، وان
 العنطة حلقة القتیل ، ولكن ماذا نقول ، والدمم اصحبت خربة ، واصبح الناس
 لا یحافون الله ، ولا ..

ويدأ على عبد الحابر نيرم شليد هذا الكلام ، وقال : مفهوم يا مدبولي مفهوم .. البركة في الأستاذ اطمئن ..

ودفع عبد الجابر ، مدبولي ألامه ، فانتطلق في العفريتة ، يطرق أرض الحجره
بقباب حشى في رجله ، وسارت من خلفه ، حيلة ، واللامه السوداء ، تحبط
بجسمها ، فتزدها رشاقه ، وتزيد خطوط جسمها وضوحاً ، وجمالاً

وتخرجاً معاً ، وحرر معها (عبد الجابر) للحظة ، ثم عاد في الحال ، فوجه إلى
الحديث : أرجو ألا تكون قد فصلت من كلام (لولود) مدبولي بسلامته يود أن
ترافع هنا . . بحاية وصكري الدلورية ، وخط لا لول له ولا آخر . . والمعجب
أنه لم يكن في مكان الحادث ، ولم يسمع شيئاً عنه إلا منا ، مخلوقات الله عجيبة ،
المهم هو أن حضرتك تكرر في الحضور لأن وكيل نيابة عابدين (حامى) قتيلاً ،
والضحايا والتلبس ، لا تطول في يده كثيراً ، ربح ساعة هل الأكثر ؟

ألقى عبد الجابر بهذه المعلومات ، وهو لا يشعر بأن كل عنصر منها بالنسبة في
شيء جديد ودنيا لا عهد لي بها ، فكان وكيل نيابة عابدين « حامى » مسألة عندي
يحبس لها كل حساب ، وقضايا التلبس هذه ، معنى من معميات عالم المحاكم ،
فالتلبس هو حسب التعريف القانوني الذي تعلمناه في الكلية ، هو ضبط المتهم أثناء
ارتكاب الجريمة ، أو بعدها مباشرة ، والجماهير تتبعه بالصياح ، فهل هناك وكلاء
نيابة هذا النوع من القضايا بالذات ، ثم لماذا يفرغ منها وكيل النيابة المختص
سريها ، وكيف يخلص منها ؟ وما هو المقصود بالفراغ أو الخلاص منها؟ ثم ما هو
دوري أنا في كل هذا ؟

وهجبت في هذه اللحظة من جهل بكل هذه الأمور ، مع أن درست في كلية
الحقوق أربع سنوات ، وأصبحت أستاذاً ، ونشر اسمي في الصحف مرتين في أقل
من شهر ، بينما يفض عبد الجابر بمعلوماته القانونية ، إفاضة تدل على حلم حرير ،
وثقة كبيرة ، وتدل فوق ذلك كله على أن دنيا المحاكم ، والتحقيقات ، وكلاء
النيابة والحوادث ، والجرائم ، هي دنيا مألوفة لا يهابها ، مع أنه مهتمس زراعى .

سألته ، وأنا أريد أن أبحث عن وسيلة من وسائل الطمأنينة ، هل ستكون
هدأ ، وقبل أن أتم السؤال ، ملأني الجواب : « طبعاً . . تعنى في نيابة عابدين ؟
بلا شك ، كيف أدع تهاوى وحده ، وهو رجل غشيم غير مجرب ، ومسكين والله

مسكين ، هذه أول مرة سيدخل فيها المحكمة .. ويمتاز بك وكيل النيابة شديد ؟
فالبركة بك !!

وهكذا طارت الطمأنينة التي كان مبعثها علمي بأنه سيكون معي عدداً في
النيابة ، بفضل ما قلته عن شدة ممتاز بك ..

ولكن قبل أن أجد الوقت الذي أصور فيه نفسي حالتي خدأ ، وأنا واقف أمام
ممتاز بك أحاول أن أنفذ عم تلامي ، وأنا في حاجة إلى من يتقن رأيت يد (عبد
الجاير) تمتد إلى بحركة سريعة غريبة ، اقشعر لها يدي ، وكأن قد مسست شيئاً
قذراً ، أو أثبتت عملاً كريهاً ، فني أتل من لمح البصر ، رأيت يد عبد الجاير ، في
يدي ، تدس فيها شيئاً ، عرفت بعد لحظات ، بغريز لا أيضاً لا يعقل . أنه ورقة من
أوراق البكنوت .. ؟

ورقة بكنوت يضعها في يدي رجل لا يعرفه ولا صلة لي به أحسست كأن
الورقة لدغني أو كأنها جلوة من نار ، وضعت لمحاكة في يدي ، فحاولت أن أقذفها
بمبدأ ، وقد امتلأت رأسي بالدم ، وغطت عيني بخشارة ، ولم أهد أرى شيئاً ، ولم
يبق سوى إحساس واحد ، هو الإحساس بالورقة تكوم وتكوم ، وتلصق في يدي ،
وأنا أدفعها دفعا ، وشخص لا أذكر اسمه ولا وجهه ، يصمم على أن يعلق الورقة في
يدي ، لماذا ؟ لم أفهم . ومن يكون هذا الشخص ، لقد نسيت عبد الجاير ، ونسيت
حميدة ، ومدبولي والقضية ، بل نسيت أنني محام ، وإن وقائع أول قضية رويت لي
منذ قليل . ولم يعد في حياتي سوى هذه الورقة التي كنت أعجب ، لأنها أصبحت
جزءاً من يدي لا يريد أن يفصل عنها ، ولأنها لا تريد أن تستقر ، فهي تكوم وتكوم
حتى كادت تكون ورقة صغيرة ، تروح وتغدو بين يدي ويد أخرى .

وافقت من العيوبة التي اشمكتني على صوت فيه شدة ، يأمرني - - - خذ ..
هذه أتعاب ليست قدر المقام .. ليست أتعابا .. نعم تلامي رجل فقير ويجري على
أولاد كثيرين وسيدخل إن شاء الله شيئاً بعد قليل

لقد زال عني الخجل ، كما زال عني الخوف ، وشعرت لمحاكة بثقة نفس هائلة
فاحذت الورقة من يدي اليسرى بيدي اليمنى وألقيتها في الأرض إلقاء . ونظرت إلى

عبد الحايك نظرة حادة ظهر لى أنها أحفاته ، فانهض فى حرى إلى الأرض ، والتقط
الورقة - فيما يحوى على الأرض - رأيت ظهره ، ولا أدري ما السب الذى جعلنى
أطعن النظر إلى هذا الظهر ، ولا السب فى شعورى ، بأن ظهره مלא قلبى بأسى
عجيب ، وشعور بالشعقة عليه ، وعلى (تهاى) الذى لم أر وجهه ، وعلى حيلة
ومدبولى والجميع .

ولو استطعت أن أبكى ليكى بصوت عال ، ولكى لم أعمل وخرج عبد الحايك
يجر قدميه ، كأنما ارتكب خطأ ، وخرج من الباب بصمت جسه ، كأنه يود أن يرى
وجهى ، وهو يصرف ليعرف هل لا أزال هناك

الفصل الثالث

كانت الليلة السابقة على أول عمل قضائي أباشره ليلة مابنية
أكذب على موسى ، وحل الناس ، لو قلت إن كنت فيها ، فميتاى لم تعرف
العمى المريع . وأكذب لو قلت إن قصبتها ساهراً ، فانا لم أمارق فراش الذى
ذهبت إليه أنقلب فيه بين السهد والغفوة ، ومنذ تركنى (عبد الجابر) وأنا أبدر طبيعياً
فلم يلمح (عبده) شيئاً على تناولت عشائى ، عادى ، وطالعت كعادى بعد
العشاء . ولكن هذه المظاهر كلها كانت خداعاً يروى للناس شيئاً غير ما يجرى
داخل موسى فقد كنت غائباً عن العالم الذى أتحرك فيه ، وأتصل به .
كانت الحوادث التى جرت فى حجرة الاستقبال التى يفتح بابها على السلم والنق
كان بها كما ذكرت مكتب ، وكنية ، وكمرسان من طراز كراسى الشيخ أحمد
وكمرسان من الخيزران . والتى يغطى أرضها كلهم ذو خطوط مريضة حمراء وصعراء
وبيضاء . كانت الحوادث التى شهدتها هذه الحجرة أشبه شيء برلزال هوى من
الاعماق . ولبت الأمر انصر على هذه الهزة التى بلغت الأعماق ، فقد أحسست
بأن اقتلعت من جلورى . فلم أجد هذا المخلوق الذى يعيش فى قوقعة معروفة
الأبعاد ، محدودة الأعماق ، يمكن التنبؤ سلفاً بكل ما يمكن أن يقع فيها . لقد
أصبحت عضواً فى هذا المجتمع ، المسيح ، المترامى الذى يضم الآلا وملايين من
الناس الذين لا أعرفهم ، ولا أعرف طبائعهم ، ولا دوافعهم . لم أجد أنسب إلى
أسمى وأبلى وإخوتي وجيرانى . كل هذا قد انقضى فرورقى الصغير دفع به إلى أمواج
بحر مجهول . . .

وراجعت كل كلام قلته وكل ماحرى في الحجرة ، وأنا لا أكاد أصدق ، أن كل هذا قد حدث . هل صحيح أن رجلا لا أعرفه قد قتل ، وأن رجلا آخر لا أعرفه أيضاً ، هو الذى قتله ، في شارع من شوارع الزمالك ، وأن هذا القتل انتهى أمره إلى أنا ، حتى توهم أقارب أحد الرحلى ، أن سجاته في يدي . يدي أنا

وسطت يدي ، وتأملتُها طويلا ، فإذا هي حلاء . وهنا ذكرت الحية الندى دسه عبد الحايير في يدي . واستولى على شعور بالعار ، كان أقوى المشاعر التي كابيتها ، وأنا استعيد وقائع الأمس ، وحاولت أن أناقش نفسي في هذا القرار الذي أصدرته ، حيسا قدفت (بابلييه) في الأرض ، ولكن نفسي رفضت في إصرار وحرم ، حتى مجرد فتح الموضوع واعتبرت الكلام فيه من جديد ، مهانة لا تستطيع أن تخاصم أوحاشا مرة أخرى . ولكن عقل كان عبر مقتنع بهذا القرار . كان يمتريه غير متفق مع أحلامي في النجاح . ماهو النجاح في المنعاه ، إلا أن يكون للمحامي زبائن كثيرون ، وأن يترافع في قضايا هامة وأن يحقق نتائج باهرة ؟ إن نرحمة هذا كله ، هو مفرد يدفعها الناس لى . فما سير احتجاجي الشديد إند هل أم إنساناً ما ، يدفع لى نقودا ..

وجلست أتناول طعام الإفطار في مطه شديد ، وفي ترواح وتساقل ، هل غير ما جرت به عادتى ، فأتنا أتناول طعامي صباحا وظهرا ومساء ، في سرعة حافظة ، وكثيرا ما أتناوله وأنا واقف ، ويحدث أحيانا إذا اشتد افعالي لفكرة أو لسامع بأو لرؤية شيء أن أدع الأكل ، وأن أقيس العرفة ، علوا ، ورواحا . وبين الذهاب والحيلة أسطف لقمة ، أفسها في فمي ، دون أن أحس بأن أكل ، ودون أن أدرك طعم الطعام أولدته ، لكن في ذلك الصلاح كنت أعدل جهدا شاقا لاقتطع لقمة صغيرة وأرفعها إلى فمي . . .

وبعد أن أكلت قمت أرتدى ثيابى ، وكأن لا أود أن أترك دارى . كيف أصعب شعورى في ذلك الصلاح ، وبأى شيء أقاربه . لا أستطيع أن أقاربه بشعورى مثلا وأنا داهب إلى الامتحان . فلم يكن الامتحان ليخيمى علة ، وشعورى وأنا داهب إليه في الألعاب من الأحوال ، كان القلق ، لا الخوف . وكانت حالتي وأنا داهب إلى الامتحان أقرب إلى الشياط العصبى من الفتور والثرابي ، وهذه حالتي ، كلما

توفعت مجهولاً سواء أكان ذلك المجهول خيراً أم شراً فكيف أصعب ذلك التواضع
الذى أحسست به في ذلك الصباح .

أكون مرد ذلك الشعور هو حزنه تسلل إلى نفسي حينما علمت أنه لا ماضٍ لي
من أن أعيش مما سيقدمه لي الناس من بقودهم ، أما يكون سبب حزنه هو
ما لاحظته من فقر حميدة ، وفقر ابن عمها مدبولي ، ومن إلقاء الذي كان
يكابده (عبد الجابر أفندي) طوال سرده لوقائع القصة ، لأنه كان يعلم أن حثام
ذلك كله أنه سيدس في يدي ، وكأنها يرتكب سكرًا ، حينما مطوها ، زيادة في التعبير
عن رغبته في أن تتم هذه العملية ، في تخف وتستر . قد يكون ذلك هو السبب
الحقيقي ، لتلك الحالة التي انتابتني وأن عني لم تعرقا ملابس حميدة ، ولا ملاءتها ،
وإن فارتقتها فقد بقي ذهني مشغولاً بحالة تلك الملابس وبما ظهر عليها من الرعة في
انتزاع أساليب الأناقة ومظاهر المعنى من حقائق الفقر الظاهرة جلياً من
أروعش أنواع الفخاش المرص بأوراق الشجر (للشجر) في أعلاه فتحة تشبه المثلث ،
تكشف عن أهل قميص ، أو عن حلية من الدانتلا الملبطة ، والقميص والدانتلا
كلاهما قلبي ، أو على الأقل غير مستطيف ، فالنظافة تقضي هؤلاء الفقراء
ما لا يطبقونه ، والملاءة اللب يصل لونها فلم تعد سوداء كأصلها ، ولا يضاء إنما
هي شيء يبي يور وقد يكون المتبدل وحده ، هو الذي يغير بشيء من الخيبة ، ولكن
جدته زادت من تأكيد مظهر القدم في إجراء الثياب الأخرى ، غزاد إحساسى برغبة
حميدة في أن تتلمس مظهراً من مظاهر المعنى وراة حزن بالتالي ، لما انحنى عبد الجابر
ليأخذ لحيته ، ووقع نظري على ظهره أحسست شعور قوى من الإشفاق عليه وعن
كل الذين كانوا معه ولكنى لم أتيسر سبباً وقدائك ، لهذا الشعور ، علما انقصى
للليل ، وأعدت أنامل كل ما حدث في اليوم السابق ، بدا لي بوصوح أن قدم بذلة
عبد الجابر ظهر لي ثمنا ، وهو يحسني . . حيوط المذلة ، قل تماسكها ، على مر الزمن
ورال اللون من مواضع مختلفة ، ومع ذلك عبد الجابر ، يحاول بدوره ، أن يظهر
أنفا متحلياً هذا الفقر الطاغى ، هي جيب سترته الأعلى ، يضع مدبلاً أبيض ،
يكاد يذكرك بالخرق التي يستعملها الطهارة في المطامح للإسك بالمواضع الساحة ،
ولكن المتبدل يظل يجرأة من الحلب ، وكأنه غير مكترث بحالة القميص ،
و (الياقة) ، وعلى وجه خاص بحالة ربطة العنق . إن الرعة في الاستماع

بالخفية ، والفرح بها ، وتلمس الأسباب لتجملها ، ورغبة جميلة ، وتستحق مسا
التحية والتكريم . ولكنها كانت في تلك اللحظة ، باعثاً على تحريك شعور قوى في
نفسى بالشفقة . .

وقد كان ظهور (مديول) بالمفرقة الزرقاء ، وقبائه الخشبي عاملاً من عوامل
اكتمال هذه الصورة التي يتجاوز فيها الفقر مع الرغبة في إدهاء العنى . فقد ارتسم
على وجه عبد الجابر صورة من التفرز لظهور (مديول) على المسرح ، فإن عبد
الجابر في رأى نفسه من عالم آخر لمجرد كونه موظفاً في الحكومة أولاً ، ومن لابس
الملابس الأوروبية ثانياً ، ومن المتفكر ثالثاً ، ولم يثر (تفرز) عبد الجابر في نفسى ،
شعور الاستياء بل إنه أكد فقط شعور الإشفاق . . فقد كان تفرزاً سادجاً ، كان
تفرز طفل ، يود أن يظهر أكبر من سنه ، وأعلم مما هو في الواقع .

ولكن لم يكن هناك بُد من أن أوتدى ثيابى ، فارتديتها ، وأنا لا أدري كيف
سأخرج من داري . ولكن ما أصعب النفس الإنسانية وما أسرع تحولاتها ، فلما لم
أكد أفرغ من ارتداء ملابسى ، ولم أكد أنهى من إلقاء نظرة على تلك الملابس ،
وعلى شخصى داخلها في مرة (الدولار) التي يرجع تاريخ ميلاده إلى أكثر من
ثلاثين سنة مضت قبل ذلك الصباح ، حتى أحسست بعزم مفاجئ ، بملا نفسى ،
وبرغبة طارئة في النضال والمقاومة . وأردت أن ألقى نظرة ثانية على ثيابى ، وعلى
ربطة الرقبة بصفة خاصة ، إلا أن أصابعى تسمرت في مكانها وهي في طريقها إلى
ربط رقبتي . فقد أدركت أن ثيابى بدورها ليست جميلة ، ولا هالية ، وأننى أشبه
ما أكون بعد الجابر وجميلة وأنا أدمى العنى والأناقة ، على الرغم من الفقر . وقد
رمض عقل أن يسوى بينى ، وبين هؤلاء الفقراء . . وعدلت عن النظر إلى المرأة ،
ولكنى لم أنجح حتى النهاية في مقاومة الرغبة في أن أرى شكل في المرأة قبل أن أذهب
للمرة الأولى إلى المحاكم كمحام ، إلا بمشقة عظيمة وانتهجت إلى الباب . خرجت
إلى الشارع حيث محطة الترام وكلمت اقتربت منها ارددت هزماً ، فلما وقفت لانتظر
القطار الذى سيقطى إلى محكمة عابدين . أحسست بالرغبة في أن أروح وأغسل على
عادى ، ولكن انتظاري لم يطل ، فالقطار وصل بعد ثوان ، وصعدت إلى مكان
فيه ، وجلست وإحساسى بأنى مقدم على معركة ، وبأن اليوم صاحب رسالة يزداد
قوة

ووصل الترام الى مبنى قديم ، في شارع الساحة ، كنت أعلم وأنا امر عليه
بالترام أنه مبنى محكمة ، ولكن لم يكن قد ارتست له في ذهني صورة واضحة فلما
نزلت من الترام متجها نحوه طرأ علي تعبير جديد مناجي . فقد رايتني هذا العزم
الذي آسبى طوال الطريق . وأحسست بوحشة شديدة ، وبخوف من الناس ومن
الحياة . ويرعة في العودة إلى داري . ولست أدري لماذا ذكرت في هذه اللحظة
بالذات ، العراش في ليل بارد ، وأنا أسحب علي جسمي ، لحافا غليظا تملوه بطانية
صوفية ، وعلى رأسي طاقية من الصوف أيضا . . أهيكون هذا المنظر هو
الصورة المودجة لحالة الظمائية والدعة والراحة والحد من التعب ، وهو ما كنت
أتوق إليه ، وأتمناه في هذه اللحظة .

ولما اقتربت إلى المحكمة ، أردت أن أتأكد من أن معلوماتي صحيحة وأنها محكمة
عابدين حقا ، فتقدمت إلى رجل مس ، يلبس منظر عيطة ، ويمسك في يده
عصاه ، ويرتدي ثيابا سوداء ، قديمة ، ويعلمو رأسه طربوش رسم العرق على حالته
السفل شريطا عريضا ، وسألته « أهذه محكمة عابدين يا عم » ، ونظر إلى الرجل
نظرة طويلة حيل إلى أنها نظرة تأنيب واستكار . وقد ذكرتني هذه النظرة ، بمدرس
خط ، كان ينظر الى بنفس الطريقة ، بعد أن يرى رداءه خطي أو كراسي الخط
أو (المنشق) الذي كنا نقتله فيه خطوطا جميلة أنيقة مطبوعة بأهل كل صفحة من
صفحاته ، ولم يكن مدرس الخط ، ليس في مرة من المرات أن يصيرني بالمصاهرة
أو مرتين علي كفتي كأن التصحيح لا يكمل إلا بصري دون أن يسأل نفسه عن أثر
العصى الكثيرة التي منحني إياها في الأسابيع السابقة ومن مدني التقدم الذي حققته
تلك العصى

أطال الرجل نظره إلي ، ثم قال : « محكمة . ؟ »

قلت نعم . . محكمة عابدين . .

واقترب مني ، كأنه ينظر الى سطر في جريدة لم يستطع قراءته وقال : محكمة
عابدين !

قلت وقد احترقت جسمي من الرأس إلى القدم « رعشة » . نعم ، محكمة
عابدين . .

فهر رأسه اسعاً - لست أدري على أى شيء - وقال . يا بني هذه مصلحة الإنتاج هذه عارون مصلحة الإنتاج . اسأل جيداً .

وأردت أن أشكره وأن امصرف ، ولكن نظرت الطويلة ، الفاحصة المتأملّة لم تدعى ، فقد سمعتني في مكانى كان ديانة ، وكان هذا الرجل عكبيوت . والحق أن شواربه الطويلة الكثيفة ، أوجدت بينه وبين المكبوت شيئاً وبعد فترة صمت ، قلت له . سأسأل فقال الرجل ، وكأنه أخذ هل عاتقه ، أن يعطى عظة طويلة حتى لا يتكرر منى هذا الخطأ فقال : هل تعرف مصلحة الإنتاج ؟؟

فاجبت ، والخوف لا يزال يركبني - نعم . . .

فقال ماذا تفعل مصلحة الإنتاج ما هي وظفتها ؟؟

ولو تركني لأجيب لما عرفت كيف أجيب ، ولكنه التحد من هذا السؤال دريعة لبعض معلوماته عن هذه المصلحة على وجه جعلني أظن أنه كان من موظفيها وأن تجريك ذكرياته فيها ، مما يسعده .

فقال : الحكومة يا بني .

وكادت تدهس حربة حطور ، فقد وقفنا معاً في عرص الطريق ، فاندفعنا سوياً إلى إفرير ووقفنا على ناحية شارعى الساحة وإبراهيم باشا واستأنف الرجل حديثه فقال السبرتو ، والكبريت وبعض المصنوعات التي تصنع في بلادنا ، تأخذ عنها الحكومة صرية داخلية اسمها ضريبة الإنتاج وفي هذا المبنى يودع الكحول . ويسمى يشرح لي هذا الأندى هذه المعلومات ، ابتداءً اقتناعي بأن المبنى الذى نقف إلى جواره ، هو مبنى المحكمة يشت ويتأكد . فقد كان الناس الذين يدخلون من باب هذا المبنى أرواحاً أفرجاً ، وطلابهم ناطق بأهم متخاصون ، أو شهداء ، أو محامون ، أو كتبة محامين ، أو رجال بوليس . وبدأت أشعل بمناعتهم ، منصرفاً عن شرحه ، وانتهزت فرصة اقتراب شخص منا ، حيل إلى أنه كاتب عمومي ، فسألته أهذه محكمة عابدين ، فقال على الفور أى نعم . . عابدين الأهلية . والشريعة هل ناحية شارع حسن الأكبر . . .

وأصاح الرجل بسمعه ، كأن هذا الكلام قد قيل بطريقة أجنبية . وهر

رأسه ، - مرة أخرى بطريقة تعبر عن الالام على شيء مجهول لي - وقال
« جائز .. كل شيء جائز » .

وانطلقت من أسره ، وعدوت إلى باب المحكمة وقيل أن أنجلوز عتبتها
سمعت صوتاً عبقاً ، أشبه شيء بالصراخ ، فالتفت خلفي ، فإذا سياره لوزي
صحبة تقف أمام باب المحكمة ، فتحدث « قراملها » هذا الصوت وما كادت
تقف ، حتى خرج من أركان وبولحي الشوارع المجاورة عشرات من الناس أكثرهم
من النساء ، يمشون عدواً نحو تلك العربة ، وما تكاد هذه الجموع ، فصل إليها ،
حتى يشب من العربة نفسها حساكر بمسكون في أيديهم بعض طويلة من الخيران ،
يلوحون ب في الهواء ، مخوفاً لهذه الجموع المتكاثرة ثم يصرخون بها وجه الأرض ،
حيث لا يتسع هذا التخويف ، ثم يعملونها في أجسام النساء والرجال والأطفال
فتسع الدائرة قليلاً ، ثم لا تلبث حتى تصيق مرة أخرى حول العربة

وقد استهوان هذا المنظر فوقفت أتأمل فيه ، فأدركت أن ركاب هذه العربة
متهمون ، هائمون إلى المحكمة ، وأن هؤلاء الذين تجمعوا حولها ، هم أقارب
المتهمين من نساء ورجال وأطفال ، لا يكادون يلمحون دويهم ، حتى يصرخوا
إليهم ، فيقع منظر يبعث بالانفعالات الإنسانية السليطة الساذجة ، لو وقف أحداً
ليتأمله ، لما أحب أن ينصرف عنه إلا أن يكون إنساناً يعنى بالمظاهر الخارجية لحياة
البشر ، دون دوائلها وخباياها .

وركاب هذه العربة ، دائماً ، من صفار الناس . وصغار من أنفهم خوفاً من
المجتمع ، فهم لا يخفون عواطفهم ، فما في تعوسهم على أنستهم أو على وجوههم
وما عندهم يشبه ماعد غيرهم من الأعياء والمتقنين الذين يجنون سعادة كبيرة في
إسدال الستائر على مشاعرهم وإلصاق الأقمشة لعواطفهم فإن أردت أن تعرف كيف
يخس ويفكر السادة المتكلفون ، والخاصة المثقفون ، والدوات الثرمون ، فانظر إلى
ركاب عربة السجن ، وانظر إلى الذين يتطرونها من النساء والرجال والصبية واسمع
ما يقولون . ثم اعلم أن هذا جوهر ما يقوله ويعمله سادة المجتمع في مثل هذه
الظروف ، وإن ظهر في ثوب آخر ، وفي صورة مغايرة .

رأيت الرجال يتزلون من العربة ، دفعات . ثلاثة معاً ، أو أربعة معاً ثم يتلفنون حولهم ، كل منهم يبحث في الذين يركضون نحوه عن زوجة ، أو ابنة ، أو أم . يبحث عندها عن لقمة يأكلها ، بعد ساعات الجس في القسم أو يقود تدمسها في بده تيسر له الصعب وتفتح له المفلق في طريقه من القسم الى النهاية ومن النهاية الى المحكمة ؛ أو عن غير متصل بيته ، أو متصل بعمله ، أو متصل بقضيبه ومنهم من يود أن يلقى نظرة على ابن أو ابنة ، سمح أنه أو أنها مريضة . . . ويجري هذا كله بسرعة خاطفة ، لجمال التعبير رقيقاً والإحساس بارزاً ، وكل همسة ذات سعر خال ، وذات أثر كبير . . .

فمعا البوليس لا تدع النساء يفترين ، فإن سمعن بذلك ، فلها لا تعطيل العرض المتلحة هؤلاء المحاييس فلا بد لرجل أن يكلم زوجته أو ابنة أو صديقه أو جاره ، في عجلة عاجلة ، ولغة خاطفة . وعسكري البوليس يدفعه بين الحين والحين ، ليستمر في سيرة الى المحكمة ، ويلوح بعصاه ليخيف المتحدث إليه . ويستطيع أن يميز بين الجرب الذي عرف هذا الموقف من قبل ، وبين من لا عهد له به فالجربون ، يعرفون كيف يتحاشون العصي المرفوعة ، وأن يتكلموا من فوقها ، أو من تحتها ، وأن يثقفوا ما يثقف إليهم من الأرفة المملوءة باللحم المشوي ، أو الورق الصغير الذي يحتوي نقوداً صغيرة ورقية أو معدنية . وأن يسمعوا أصواتهم إلى سائهم اللواتي انتظرتهم من الصباح المبكر .

أما غير المجريين الذين لم يركبوا من قبل هذه العربة ، ولم يحاولوا أن يتحدثوا إلى فويس ، وقريعاتهم في المرحلة القصيرة التي تفصل ما بين الرول منها والوصول إلى باب الياقة أو باب السجن للوقت المعد في كل محكمة ، فيتعثرون في خطواتهم ، وهم يتزلون ، ويصيحون هرسة لا حول لها ، لعصى البوليس ولكلماته ، ولشائمه وعيدياته ، وتعجب كيف يطيب للأقوياء أو على أقل للمسلمين بالقوة ، أن يهابوا حل الضعيف الذي لا يفلوهم بكل صفهم ، وأن يتحاشوا الاحتكاك بالقوى الذي قد يتحش بهم ، أو يتمرده عليهم . قد أفهم ابتعادهم عن القوى لأنهم لا يقدرون حل منزلته ، ولكن لا أفهم كيف يبطشون بالضعيف وهو ساكت صاغر ، يصاح لأمرهم وينسق لأوامرهم .

وفي هذا اليوم رأيت ه أفنديا ، صغيراً يبلو عليه أنه يقف موتف الانعام ،
وعشرف في رمة المتهمين ، لأول مرة ؛ فقد كان داهلا من الناس تبتو عليه النعشة
لكل ما يرى ، ولكل ما يسمع فهو ينظر قاهر الفاء لرملائه في العربة ، وهم ينزلون
منها اثنين اثنين ، ثلاثة ثلاثة ، متداعبين ، ليتحاشوا عصي المساكين ، فلذا لامت
أقدامهم الأرض ، اندفعوا يصيحون بأصوات عالية ، ملقين أولهم ، أو موجيهم
أسئلة ، أو مورعين شتائم ، هل من يعتقلون أنهم السبب في اتهامهم ، أو من شهد
ضدهم ، أو هل جيرانهم الذين يعتقلون أنهم فرحون شمتة لما أصابهم .

وقد رأيت على ناصية الشارع المجاور للمحكمة شابة صغيرة ، تحمل في يدها
حقيبة قديمة صفراء ، تنظر إلى هذا الأفندي ، هي بعد ، وقد أحاط بها أوتيك باد ،
مرده حجل - شديد ، وجعل تام بما يجب أن تفعل ، وما يجب أن تدع ، واستتجبت
أنها جاءت ، وقد أحضرت في الحقيبة ملابس داخلية لزوجها ، وقد يكون داخل
الحقيبة طعام أيضاً . ولكنها حينما رأته هذا السيل البشري الذي تدفق من السيارة ،
واندفع يدير هدير الأمواج المتدافعة من ضجة فظفة أو سد من السخود ، تداحلت في
نفسها ، حتى كأنها تود أن تختفي . فلقد أحست أنه لا قبل لها بمواجهة هذا السيل ،
ولا قدرة لها على السباحة فوق أمواجه ، وبظرت إلى وجه زوجها - أو إلى الأفندي
الذي ظننت أنها أنه زوجها - فرايته ضئيلاً ، تتقاذفه الأيدي ضارة هو صلى بين
رملائه ، المحابيس ، النازلين من العربة وتلوة على يسارهم ، وثلاثة أمامهم ، ورابعة
وسطهم ، دون أن يكون له إرادة في التقدم والتأخر ، ولا في الانحراف يمنة
أو يساراً ، فلذا صاحوا بنظر إليهم وكأنه طفل لا يدرى ماذا يقولون . وإذا انبالت
عليهم العصي هلفعوا عن أنفسهم العصي ، وهووا بالقتحام المساكين ، بحث له
عن ركن يحميه ، أو ملجأ يلوذ به ، فلا يجد من ذلك شيئاً ، فيضطرب

اضطراب المصعور ، بلذله القطر . . وكان تحت أبط هذا الأفندي (فوطه) بطوى
فيها شيئاً لم أتنبه ، وكان تأبطه له وضغطه عليها ، ونقلها من يد إلى يد وسيلته
الوحيدة ، للتفيس من المصيبة الجائحة التي تود أن تتطلق ، فلا تجد سبيلاً واحداً
للتفريج عنها ، فلا هو قادر على أن يصرخ صراخ هؤلاء الرجال الأشداء ، ولا هو
يستطيع أن يتجه إلى زوجته ، ليكلمها ، ويتلقى منها نفوداً أو طعماً ، ولا هي قادرة
على أن تقترب منه أو تفعل فعل زميلاتها من بنات البلد ، اللواتي هلون ، وقد

انكشفت رموسهس وظهورهن ، يسقوط الملاءات اللب السوداء ، وهبوطها إلى وسط كل منهن .

وأحد الموقف يعتمد ، حينها أصاب العسكري ، بطرف عصاه ، وجه شابة من هاتيك الشابات ، دوات الملاحة « اللب » وكانت تبدو متأفة على الطريقة التي تطيب لسانات « البلد » قفمها بمرج عن ابتسامة تكشف بدورها عن صف من الأسنان الذهبية . ومتبيلها الملون يميل على أعلى جبينها وقد حلت « القوة » في أصابع يديها عدد من الخواتم الذهبية ! في الغالب أنها من المعدن المظلل بقشرة من الذهب وهي خواتم ذات فصوص تحاكي الزبرجد والياقوت وعلى صدرها المكشوف عقد حريص مكون من أنصاف دوائر يعلو بعضها بعضا ويظهر من تحت الملاحة ذبل ثوبها الحريري المزركش ، ثم فداغان في شئت من الجلد اللامع ، يكشف عن كعب صيفته الحناء التي بدت ألوانها أيضا في أصابع يدها وهي تسير تنثني تنثيا فيه كبرياء ، واعتزاز وبهاة ، والابتسامة لا تفارق شفيتها . ومع تنثها لا تحس في تنثها بهيعة ، فهي إذ تحظر ، تذكرك بالحصان الأصيل ، الذي يرقص على أصوات الموسيقى ، رقصا يمت في نفسك الشعور بقوة الحصان ورشاقته لاصعه ولا دخولونه . ولكن لمسة العصا التي مرطت من العسكري ، أثبتت أنها مست بركانا ، لا إنسانا ، فإن هذه الشابة الجميلة ، الرشيدة ، الخائفة ، المزودة بالأقراط والعقود والخواتم ، والتي تفوح عنها رائحة فاقمة ، والتي تحمل الحناء يديها وقسميها انفجرت ، فخرجت منها حم كحمر البراكين ، فقد أصلت العسكري ، بل والساكر جميعا بشنائم رحمت رصا وانتفيت انتقاء بطريقة لا تدل فقط على سرعة لسانها وقوة بيانها ، بل على ثقة بالنفس ورباطة الجأش ، ودكاء غريب ، فهي وهي تطلق قذائفها تقرب اقترابا شديدا من الصاكر شاهري العصي الغليظة وكأنها وحدها جيش يتقدم ويهزج ، ويحيط العدو ، بقله وأجبحته والعجب أن الجيش - جيش صاكر البوليس - كان يتراجع أمامها ، فالعصي اسحمت ، وحركة الضرب ، والدفع هبطت ، وعيون الجود شدت إليها وأحدث تتابع صياحها الملحن ، وشنائمها المسجوعة المتفتة . وهم بين مأحود مشدوه ، وبين معجب مستحسن فملابسهم التي كانت تنسبهم إلى السلطة كانت حاجراً رقيقاً جداً ، يحصل بينهم وبين الرف الذي جاءوا منه ، يحملون معهم الإعجاب الشديد

بالقاهرة ، ويكل من فيها ، والخوف من أهلها ، ولا سيما سائها - ولما تجاوزت
الشابة حدودها ، ولم تنزع حيلة في إسكانها ، فالبوليس غير قادر على ضربها
لأنها « حرمة » وغير قادر على مجاراتها في شتاتها ، لأنها أكثر غمرا بها ، ظهر على
خشية المسرح ضابط شفت يحمل كفه « ديورتين » فهو ملازم أول كان طريقه
يميل الى يمين جبهته ، وكانت في يده عصاة صغيرة ، أما شاربه الصغير الرقيق فقد
وقف طرفاه ، بفضل دهان دى رائحة جميلة وكان وجهه المستدير جميلا ، يذل على
طمأنينة للحيلة ، ولرح بالسلطة التي يمنحها المنصب ، وفراغ نفسى ، وعقل
كبيرين . توسط الضابط الحلقة التي استدارت حول الشابة وعساكر البوليس ،
والمتهمين وسال في تعال واستكار : « فيه ليه ؟ »

وسكت الباشجاويش ، رئيس العساكر ، وكان رجلا ضخما ، ذا وجه ثملؤه
تقاطيع كبيرة ، ويرنه شارب ضخيم ، مرفوع الأطراف أيضا ، ولكن أطرافه فليظة
مدية ، تنفق مع تقاطيع وجهه ومع طوله ، وعرضه وجهامة صوته ، وضخامة
رأسه .

ووقع نظر الضابط على الشابة ، وعلى الرغم من أن عمله يتيح له أن يرى هذا
النصف من النساء ، إلا أنها وقعت من نفسه في الحال ، موقعا حسنا ، فقد كان
وجهها جميلا ، وكانت عيناها السليتان الضاحكتان ، جملتين ، مبرتين ،
مفرتين ، وكان قوامها مليئا ، ملفوفا ، وفراهاها المكشوفان ، بفسين حين ،
فأضطرب داخل نفسه اضطرابا شديدا ، ولكنه ، فمأسك ، ورأى أن يبدو مستخفا
بها ، محتفرا لشأنها ففرب عصاة قليلا من وجهها وقال في صوت يبدو فيه غضب
متكلف : « جر الزلية دى . . بعيد من هنا . ؟ إيه الوساعة دى ؟ »

وفى هذه اللحظة استطاعت الشابة التي كانت تحمل الحفية في يدها أن تجد
فرصة ، فقترب فيها من زوجها . وكانت الحفية قد جدت في يدها حتى أوشكت أن
تساقا . فلما وقعت المعركة ، وغفل الناس حول « الشابة » الجميلة ، اقتربت هي
كثيرها من المارة في الشارع ، ودأت زوجها عن قرب ، ولكن لم تلبث حتى نسيت
نفسها وحقيقتها ، وزوجها ، حينما دلت رضى المعركة بنشاط وسرعة بين الشابة
وبين أهدائها اللين ألجموا ، فلم يتفكروا أو يتيسوا بحرف ، وفعل زوجها مثل

فعلها ، فقد زايله خوفاً وشعر أنه يرى مشهداً مسلماً في رواية ، وغاب عن خياله منظر السجن ، الذي ينتظره ، واسم النيابة الذي يسمح به ولا يعرف معناه ولا وظيفتها ، ولا شكلها ، ولا طريقتها ، في مقابلة الناس . إذن كل ما يعرفه عنها هو اسمها ، وأنها شيء مخوف ، لأنها أعلى من ألبوليس ، ولأنها هي التي تقدم الناس إلى المحاكمة .

أما أنا فقد تحركت في نفسى غريزة التأمل ومراقبة الناس ، فراهني أن يكون في قلبي لسان يتحرك بين شفتي امرأة ، أن يصيب ثلة من العاكريما يشبه الشلل لمحمد كل في مكانه جوداً تاماً ، وأن يوقف حركة المرور في الطريق ، فيقف المارة ، وتقف السيارات وتفتح النوافذ فتل النساء والرجال والأطفال هل الرغم من أن أصحاب البيوت المجاورة للمحاكم قد ألفت مشاهدة « لوري » المساجين ، حينما يعبأ وحينما يفرغ ، وحينما يقدم ، وحينما يرحل . . . ألفت آذانهم صراخ ويكاه وهويل غريبات المحكوم عليهم وزغاريد المقرج عنهم . . . ولكن كان في لسان هذه الشاببة شيء جديد . فاطنوا يتذوقون فيها . .

« فيها » رنت هذه الكلمة في أذني . وكأنها الكلمة التي كنت أبحث عنها . نعم ؟ هذا ليس سوى فن . إذ لا نتحتم أن يكون العمل الفني معروضاً في شكله التقليدي المتفق عليه . وليس ضرورياً أن يكون مشاهد العمل الفني ، قد تمعدوا هذه المشاهد أو أن يكونوا دفعوا ثمنها . فالعمل الفني هو كل عمل هائمه ، أن ينقل إلى الغير إحساسات صاحب هذا العمل ، وأن يؤثر فيهم ، بفضل هذا النقل ، سواء كان هذا التأثير اضمحاً أو إيكاه ، أو حلاً على التفكير .

فهذه الشاببة لم تكن سوى « فنانة » وقد زاد من تجهيزها للعمل الفني أنها تزينت وتجملت ، فأصبحت بشكلها وصورتها ، منظرًا تحتليه الصور ، وتفرح به الأبصار .

وقد أخذ الضابط الشاب أول الأمر ، بجمالها ، لا سيما بعينيها ، ولكنه لم يلبث أن أحس بقوة شخصيتها ، فهي لم تحفل به لا ادعاء ، بل حقيقة ، فقد كانت تشعر أنها أقوى من جميع الذين اجتماعوا حولها ، وكان صمت شعورها بالقوة في هذه اللحظة أنها « صاحبة حق » فقد كانت محتلي عليها ، وزاد من هذا الشعور

عندها ، أن الذين اعتدوا عليها لا يؤمنون بما يفعلون ، فهم أذوات ، لا نعى شيئا مما فعلت ، ومن هنا كان أقل المقاومة لهم ، يربكهم ، وأقل النقد لسلتهم ، يلقى في صهوفهم بالخوف . .

ولكن الضابط يعلم بأن واجبه يقضى عليه ، بأن ينهى الموقف ، بعنف ، ليؤكد للمارة ، أن هذه المرة أصعب من أن تستأمل منه جهداً . . فصرخ بصوت أخص . . « شيل الولية دي من هنا . بسرعة يا عسكري . . » فكان أثر هذه الكلمة عجيبا ، فالمسافر الذين كانت سواعدهم قد توقفت عن الضرب واللطم ، وألستهم من الشاتم واللعنت . انطلقت فجأة لا لتضرب في الولية أو تريلها من مكانها بل ولتضرب في « المحاييس » الذين لم يفعلوا شيئا . وفي هذه الفوضى التي سادت ، تقع عصا حل رأس « الأفندي » . ولم يكن له في كل ما وقع به . . فلا هو قاوم ، ولا هو شتم ، ولا هو خلق حل المقاومة أو الشتم . وكان المسكين يحيا وكان خوفه قد زاده ضحعا ، فهو يتوقع في كل لحظة إهانة نصيبه ، في شكل شتمه أو ضربه . . فلما وقع القدر المنتظر صرخ صرخة مدوية ، وكأنها أصابت رصاصة لا عصا ، وصرخت الشابة التي كانت تنتظره ، صرخة انطلقت وكأنها صدى صرخته ، وما لبثت أن وقعت مغشى عليها . . .

ولمحت الحفية التي كانت في يدها ، وتناثر ما كان فيها . ليل الخجل ! لباس . . وفاتلة قدمه حمزة وإن كانت مفسولة ونظيفة و « مزهرة » بجوار الانثى حلبة سجاير رخيصة من ماركة « الفول » ثم رغيف « فينو » وقطعة جبنة ، وقرطاس به زيتون أسود ، ثم قطعة حلالة طحينية ومصعب رشح على صفحات ريت الزيتون . .

ولم يتلمز الجمهور ، ولم يقل شيئا ، ولكن الضابط أحس أن الجمهور المحيط به ، وبالمحاييس ، غافله أن يقع هذا المتوان بلا مبرر . وأن مصطفه تد راد لما سقطت هذه الفتاة مغشى عليها ، فلما انتشرت هتافات الحفية على الأرض ، وبدأ تراضع مشاركة الزوجة لزوجها في مصايه . . فظهر لمزق ثيابه ، وعصاة طعامه . فتلفزت الضابط يمتأ ويسأرا ، وقد شحب وجهه ، ولعبت العصا الصغيرة في يده ، وكأنه لا يدرى ماذا يفعل بما فقد كانت من قبل مظهرا للسلطان ، تؤنس ، وتملن

على القوة ، ولكن لا تستعمل . والآن ظهرت الحاجة إلى استعمالها ، فكيف تستعمل . . ؟

لقد دارت في يده ، وكأنها أصبحت شيئاً منفصلاً عنه . وراى تكاثر الناس ، واستمتع ضرب الحاييس هرج ومرج في الطريق ، فالتاس من السطارة ابتعدوا متدافعين ، فسقط بعضهم ثم قاموا مهرولين ، لا يلبون على شيء ، فاصطدموا بغيرهم من المارة ، وتوقف المرور ، فذوت مواخير العربات ، فأزعجت هذه الصجة الضابط ، وحررت في أعصابه ، واعتبرها إعلاناً صارخاً لانتهيار سلطانه . . وانذفع نحو الشابة التي أحب بينه وبين نفسه شكلها ، وأعجبه قولها اندفاعاً عصبياً وقال :

«هاللا . . ياشر . . . يايت ال . . .» ورفع يده بالعصا . وحرك هذا كل فضولى ، وأصبحت مشتتاً أن أعرف بلئى ثمن ، ماذا سيحدث بعد أن وصل الأمر الى هذه القمة العالية من التنازم والانفعال . وحدث ما لم أكن أتوقع . فالشابة وقفت في مكانها لا تتحرك وتلوح الضابط بعصاه لم يزل فيها جارية من جوارحها ، إلا أن تهجم عليها ، واجترأه على سبها بهذه الألفاظ ، أثارها فلريد وجهها ، فغضبوا واختفت الانتماسة من فوق شفيتها ، وحل محلها نجهم ، زادها جالاً في نظري ، والحق الى تحولت الى متعرج ، فتابت حركات وجهها ، وديها ، وكان هذه المتابعة هاية في ذاتها .

ووضعت الشابة أصابعها في وسطها ، وقالت بصوت خال من الصراخ جاء مكتوما ، حالته بيرة لا أدرى أى بيرة النائب أم العتاب . « كده . كده . باحضرة الضابط . . نصريونا . ولما نشكى تشتمونا . . » .

فصرخ فيها : أخرسى . . !

لجرت على وجهها علامة من علامات الانفعال العنيف السريع ، وكأنها هبة ريح سريعة حركت سطح بحر هادئ ، ثم قالت ، وقد زمت شفيتها ، وكأنها غمرة تنهيا للوثوب .

« أخرسى . . أخرسى عشان إيه . . هو لحتا مش بين آدم . ولا لحتا مش لحم ودم . الضرب فينا حلال . . البلد فيها حكومة . . »

فقد الصابط كل يحكم في أعصابه ، واحتس وجهه بالدم ، وامسك بطرف
ملاءتها قرب كتفها . « حكومة في عينك مره ما محتشيش » فجدبت الشابه
طرف الملاءة من يد الصابط ، وكأنا تصعده على وجهه ، وحدثت في وجهه تحدينا
رهيبا ، وهى تقول حرك عينك تحط ايندك على . « دنا مستيبعة ووش
للیمانات والشویش فرعل عارفى كويس » وأشارت إلى الشاويش رئيس
العسكر

وفتشت عن مشاعرى داخل نفسى ، فإذا بى كل إعجاب بهذه الشابة . وإذا بى
في الوقت نفسه ، كل إشماع لهذا الصابط . فليس فيه ما يدل على رغبة في الشر ،
ولكن الموقف استلذه إلى هذه الورطة حقيقة أنه معها سباً فيهما ، وولجبه
كرجل بوليس أن يجمع الناس من هذا العلوان الذي أتاه هفو الخطر ، وكأنه يهوس
خلال حرم مستباح ، ولكن أهدأ خطاً هذا الصابط ، أم أنه المألوف المتبع بين رجال
البوليس والحكومة في كل وقت ، وبلا مرور ، فالأصل أن رجل الأمن يسب الناس
ويشتتهم ، وأن له حقوقاً لا يصر عليها القانون ، مع ذلك محبه إياه العرف
واستحذاء الناس ، وسكوتهم على الإهانة وفهمهم للحاكم ، ووظيفته ، فهماً
مغلوباً ، يجعل منه عدواً بجاف ، يجعل منهم فرائس وصحابة تفر وتهرب ، وتلتبس
لنفسها الحجة بالكذب والتعاقب ، واللس والوقية ، والدائرة والتجسس ولكن
كيف يحل المشكل ، وكيف يتم للصابط الشاب الخروج من المأزق ؟

خرج من بين صفوف المحابيس ، شاب طويل فارح ، يرتدى ثوباً من الصوف
الرفيق على رأسه لاسه ، وفي قفله حذاء وأجلسه « وفي قمة أسنان ذهبية شبيهة
بالأسنان التي تزين فم الشابة » وأغته إليها ، وكأنه فارس رخص البدن ، لديه ،
على منانة تراكيب هذا البدن ووثاقة عضلاته ، وأحاطها بلراحيه ، وكأنه يحنضها
احتساناً على مرأى من الناس وسمع ، في غير مخرج ولا تأثم وقال لها « هيب .
عيب يا كيداهم .. نظولي لسانك على سعادة اليه . لى لسانك .. وأحرى
الشيطان .. وأبعدى اللحظة دى » ..

وتجمعت « كأيدهم » قليلاً ثم تقلعت نحوها نسوة أخريات ، ورجل يشبهون
ذلك الشاب في المنس ، كأنهم أتباعه ، ودفعوا بها إلى قاع المظنر ، بمبدأ عن مقدمة
المسرح ، وعن الموضع الذي وقف فيه الصابط ، والعربة ، والعداء

وتابعها بعيني ، وهي تحتفي ، وقد دبت إلى وجهها حمرة حلت محل صفرة العصبية ، التي شملته ، وبدأت استأمتها تلوح في وجهها ، ويدها تمتد إلى الملاء فوق رأسها ، تضعها في مكانها ، بمد أن كانت تهبط بفعل جذبها وشدها ، وسمعت صوتاً يأن من بعيد ، مختلطاً بأصوات رجال وساء ، يقول : « أنا ما علطش ولا عيتش في أحد .. » .

فسرر جداً أن تكون مذكرة تماماً ، أنها قائمة بواجبها ، وأنها تدفع عن نفسها الأذى وأنها التزمت حدود الواجب ..

وتلعت حوالى ، فإذا بهذه الضجة الماثلة ، قد زالت بكل معالمها فالمساجين تجاوز موكبهم باب المحكمة ، واحتواهم جوفها ، والعربة الضمخة تحركت من مكانها بعساكرها ، والمارة تفرقوا ، والواقف التي كانت مفتوحة أهلفت ، والرؤوس التي كانت مطلة اختفت .

ورأيت نفس مرة أخرى ، وحيداً مطالباً بأن أنهي لمواجهة المعركة التي كانت تنتظر ، وعاودني الفأل ، فتلعت نحو باب المحكمة ، وأنا موزع النفس بين التكبر فيما يجب أن أعمل ، وبين المشهد الذي رأيته منذ قليل ، والذي لمت فيه « كائدهم » الدور الرئيسى ، فاثارت من إعجاب ما اثارت ، ورسمت في طريقها - على سداجتها وقلة تعليمها أو عدم تعليمها - كان في رأيي الطريق الأمثل لكل من يود أن يدافع عن الحق فلم تكن خائفة . لم يجمعها السلطان لأن السلطان الذي يجيف هو السلطان الذي يؤدي واجبه ويحترم حرمان الناس . ولم يشجعها خطأ السلطان على ارتكاب خطأ مماثل ، ولم تخافت في طلب الحق ، بل جهرت به .

وهي آخر الأمر بنت ، من « نبات البلد » فيا أحرار يا أكون شجاعاً كشجاعتها ، مؤمناً بنفسى ، إيماناً بنفسها . وفيما أنا أحدث نفسى ، استيقظت عن صوت أعره ، يصيح « يا صبايح الأنوار . أهلاً امتداد حبيب »

ونظرت فإذا بي أمام جارى « عبد الحايبر أفندى سرى » شيطاً ، صليحاً ، متودداً ومد يده ، مصافحاً ، فإذا بها يد تشع صداقة ، وتميز إخلاصاً ، فلما

وضعت يدي فيها ، شعرت بطمأنينة وثقة ، وقلت في صوت أكثر ثقة : صباح الخير . . ؟

فقال عبد الجابر : هم تلمى وصل . .

وانتزعت نفسى من خواطرى نهائياً وكررت الكلمة بغير تفكير :

وصل . .

فرد على عبد الجابر : نعم ، وصل في المرة التي جعلت الآن . وقد رأيناه وسلمنا عليه ، « وظرفنا » العسكري ببريزة ، والأشياء معدة والبركة ههنا في الباقي » .

وعبد الجابر الفندى على عافته ، يضمن العملية الواحدة ، عشرات من المعلومات والحقائق يلقيها إلقاء وكأنها أمور مسلمة . وهو لا يدرى أن أجهل كل هذا العالم الذى يتحرك هو فيه ، وكأنه بيته الخاص .

الفصل الرابع

عند وكيل النيابة

دفعني عبد الجابر ، إلى دحلوز ضيق ، أغضى إلى سلام ، من البلاط القديم تكسرت حوائطها ، وتفنن سطحها ، بكسور ، وثور فاصبحت أشبه شيء بأستان عجوز درديس ، وفي نهاية السلام طالعني باب حديدى قائم ، في أعلاه نافذة صغيرة ، فأدركت أن هذه هي قاعة (الحبس خاتة) أى قاعة الحبس الموقوت ، التى يودع فيها « المسجون » أو المحاكيس الذين يقضى عليهم احتياطياً ، فيودعون في الأقسام ، حتى تعرض أوراقتهم على وكيل النيابة ، فإذ أفرج عنهم ، صادوا إلى بيوتهم وحياتهم وإن استبقاهم ، أرسلوا إلى السجون المركزية ، أو السجون العامة ، حيث يتأمنون على أسرة ، إذا كان في مقدورهم أن يدفعوا عن كل ليلة عشرة قروش ، وإلا ناموا على « البرش » المجهول من الخوص ملتصين ببطانية بيضاء ، ومفترشين ببطانية مثلها .

وتقدم عبد الجابر ، من عسكري واقف إلى جوار الباب الحديدى القائم ، له كلاماً ، فافتتحت شفتا العسكري عن انسيابة ، وفتح الباب ، عن قاعة كل ملغيا أسود فارضها من الأسفلت ، وجدرانها استحالت سوداء من طول ما كتب أو بصق عليها ، وطول ما جرى فوقها من الهوام الصغيرة والكبيرة وقد هنت بمجرد أن فتح الباب رائحة تننة هشة ، أشبه شيء برائحة مرحاض كبير ، وفي الظلمة التى فزقت فيها هذه القاعة ، لمحت ادميين لمحركوا عندما سمعوا صوت مزلاج الباب يتحرك وتطلعوا إلى الباب فبدت ملاصقهم في هذا الضوء الضعيف ، كملامح مرضى طال الداء عليهم ، وثقل اليأس على نفوسهم فزاعت أبصارهم ، وشحنت

الواهم ، واسترنى دهول على كل من كان مهم حديث عهد بهذا الجانب من الحياة ، حياة التحقيقات في أقسام البوليس والبيان والمرتبات التي تحمل المحابيس والقاعات التي تأوهم ، وحيل التحصيف من قيود الإحراءات والتلطيف من غلظة العائمين على الحراسة وشدة المنهيين على ترحيل هؤلاء المتصله ، وتقديمهم للمحقق وإخراجهم من حجرته وإيداعهم في الخانات أو القاعات المحصنة لحجزهم

أما الذين ألفوا هذه الدنيا فإن شئنا من الضاهم يرتفع أحياناً إلى درجة الصداقة - يقوم بينهم وبين دنيا البوليس والبيان ، فهم يتجولون في دهايرها ، وطرقاتها ويتعاملون مع كبارها وصغارها في غير خوف ولا تردد - يردون على الشدة بالمعاطة تعيص تمرداً وثورة ، وعلى اللطف بالدعابة والمكاهة والسكنة ويلبسون العليظ بالقرش أو السجاعة أو بالوحد ، ويحسون رأسهم عند العاصفة ، ولا يدهون فرصة الضمب أيا كان الضمب الذي يقع بين أيديهم سواء أكان رجلاً يمثل الحكومة ، أم زميلاً لهم في الحبس - ففاعة الحبس ، تصمم دائماً هرقاً من الأتيمين تضم العتاه الغلاظ الذين هنر إحسانهم - ولم يعد لهم أمل في احترام المجتمع أو حسن علاقة بهم ، فهم لا يتوددون إليه ولا يتلطفون معه ولا يعاملونه إلا كما يعاملهم

فهم في نظر المجتمع لصوص وقاطعو طريق وساهو رزق وهاتكو همرص ومرورون ومريفون ، ومهريو مخدرات أو مفود - والمجتمع في نظرهم جبان ومرتش وصافق ونهار للهرص وساع وراء المصلحة الشخصية لا ينفع معه إلا أحده بالشدة ونحوه بلوت أو الإبداء بالمصانع وهو يتظاهر عما ليس فيه فهو يذمى الفصيلة وإن كان يحب الرذيلة ويتهاكك عليها ويذمى العفة ، ولا يدع فرصة ليهتك هرساً إلا ويستهرها - ويتظاهر بأنه مع القانون ، وهو لا يملك يعمل صله ، ويسهر في أسسه ، ويفرض من دعائمه ، كالسوس لا يمتز ولا يبدأ - وهذا الفريق من معتادي الإجرام ، يروحون ويعلمون في قاعة الحبس كما يروح الأسد ويعلمون قصصه بحديفة احيوانات ، فلا يجريز أحد على الاقتراب منهم أو التحدث إليهم - وهم لا يملكون لأحد أن يوجه إليهم سؤالا لو يشترك معهم في حديث . فهم ملوك هذه القاعة المطلمة ، يتعالمون على غيرهم من ملاء ، وساحين ورجال أمن ، فقد نزع كره المجتمع من قلوبهم كل خوف وكل احترام فتحسروا تحمراً ملعراً . .

أما الفريق الثالث ، فهو فريق المحدثين ، الذين يظفرون إلى كل ما يجري أمامهم ، في خوف مطبق قصرخة العسكري تهرهم من الأعماق ومنظر رملهم الذي يدخل إلى القاعة متعوش الشعر أشعث أعير ، حلق القلمين ، عارى الصدر ، في يده كسرة خبز يأكلها وهو يسب ويلعن ، في فحش لا حد له ، وبصوت ليس أعلى منه . منظر هذا الرميل يفتنهم في مكانهم فلا يتحركون من الدهشة والامتعاب والخوف أما منظر الرميل الآخر ، الذي يدخل القاعة تسيل من رأسه دماء تغطي وجهه وتجعل منظره غريبا بشعا ، فتصطك لمأه أسنانهم ، وكلما اقترب منهم ، يمدوا عنه وهم يودون لو استطاعوا أن يتعدوا من حذران السجى سلطان

وبين هؤلاء هؤلاء فريق لا إلى الأولين ولا إلى الآخرين فلا هو مجرم معاند الإجرام ، نزع من قلبه الأمل في المجتمع وقرر أن يجاريه إلى النهاية ، ولا هو من الأبرياء السذج الذين لا يزالون يعيشون في خوف دائم ودرع مقبض ، بل هو ممن جربوا حياة الجريمة ، فاتهموا ويرثوا أو نالهم عقاب حفيف ثم اتهموا ثانية وهم يظنون أن ما أصابهم ليس سوى سوء حظ ، فهم مضطرون أن يتعاملوا مع عالم الإجرام ، وأن يلجسوا وسائله وأن يطلقوا طرائقه ، وأن يألفوه فلا يجامسون من مظاهره البشعة وفي الوقت نفسه ، أن ينعوا أنفسهم من التشبه به ، والانتماء فيه ، والمسايرة له فهم لا يزالون يحسنون الظن بأنفسهم ، فلم يفقدوا الثقة فيها ، ولا الثقة في قدرتها ، حل مقاومة الإغراء ولذات الجريمة والتأني في هذه الفرق الثلاثة ، متعة لو اتسع الوقت لحير بالنفوس يوقف فيها وقتاً وجهداً عليها

ولما فتح باب السجنانة نادي العسكري (تلامي عبد المولى) فلم يبق داذه مجبياً ، فكرر النداء فلم يتحرك من داخل هذا السواد أحد ، بدا على العسكري التمليل واستأنف نداء مطوطلا طويلا (ياتلامي يا عبد المولى) .

ثم دخل إلى قاعة الحبس خائضاً في أكوام من حطام بشرى ، يتمثل في متشردين تكشف حرقهم من حورثهم ، ومتسولين من أحصى واكتع وأعرج ومدع لكل هذه العاهات أولسعضها ومن (أفندية) يلبسون الملابس الأبرنجية الأنيقة التي بدل (الكواء) في كبتها جهداً ، وتحمل الخياط في حياكتها عناء فلما دخل بها أصحابها

السحر ، أصبحت كعزير قوم ذل ، عليها من النعمة آثار ومن المهانة آثار . فتجاوب الدل والعر ، واجتمع الحاء والصف وقف بمصر هذا الخطام مفسحا الطريق (للجلاويش) وبقي بعضهم مكانه لا يحتل به ، كأنه لم يفتح عليه باب ولم يوجه إليهم بداء ..

وقال العسكري - تهاى عل - أين تهاى عل عبد المولى ؟ - مات ...
نصرخ رجل من ركن من أركان الخجرة صاحكا ضحكة خالية من المرح والسرور قائلا قطس .. فصرخ العسكري اخترم ..

ورفع كعب حدائه كأنه يهدى بندق رأس هذا المجترى به فقال صاحب الصوت ، مع ضحكة أخرى شبيهة بسابقتها ، ومع تراج وتكاسل حطك على ... حطك عل .

وقال بصوت أحمق - والله قطس . ولكن قول الحق في هذا البلد يقطع الررق - وفيما يجيل العسكري عيبه في ظلام القاعدة ، ياحثا ومفتشا (عن تهاى عبد المولى) ثمة أحد الأشخاص إلى البداء ، فأقبل على جسم محدد في أحد أركان القاعدة فأحد يبره هرا شديدا وهو يقول : عم تهاى - عم تهاى .

وتحرك في هذا الركن ، وذلك الجسم ، في بطنه وكأنما هو جسم ثعبان كان قد التفت حول نفسه ، ثم سطاها سطا بطيئا حتى امتد إلى آخر طوله . ثم رفع رأسه فلممت في الظلام عيان صغيرتان ، ثم دفع من فوق رأسه شال كشمبر قديم كان قد أحاط بها ، ودار الرأس عينا ويساروا ليبحث عن مصدر البداء عليه ، والسؤال عنه . واتجه العسكري نحوه « أنت هم تهاى » .

فقال الرجل وهو يتترع نفسه انتزاعاً من النوم الذى غرق فيه « أى نعم » .

قال له العسكري - قم لقد أتممتا في البداء عليك .. أين كنت . مع الملائكة - لقد أتيت على الرر واللبن في الأوص والساه .

وأطال عم تهاى نظره في الظلام ليثين الأشخاص الذين حولوا والمكان الذى احتواه . ثم قال منهوشاً - رر بلبن - نعم - أتمتم .

مرت العسكري على كتفه وقال - يذك .. قم .. قم على حيلك . وقام هم

تنامي مسقط النشال من فوق رأسه على الأرض ، فالتحى بأحده من الأرض . ثم
سار العكسرى ومن حلقه تنامي حتى خرج إلى باب مداعة بحس . ورأيت
موكلى . .

هذا هو أول إنسان أول مخلوق قضت الأقدار ، أن أكون عاميه ، أو أن أكون
المدافع عنه والتحدث باسمه

ولم تمر هذه المقابلة ، هينة ، فقد كان شعوري بأن هذا الرجل وديعة في يدي
محرجا لي . كنت لا أصدق في الوقت نفسه أن تقوم سبي وبينه هذه العلاقة الدقيقة
دون أن أعرف شخصه ، ولا اسمه ولا تاريخه ، ودون أن تقابل من قبل . وكنت
أتساءل مقدما ، هل يعقل بعد أن تنتهي قصته أن يصرف كل ما في سبيله ،
لا يعرف الآخر ، وربما لا يذكره ما أعرب العلاقات الإنسانية وما أعجب هذا
الاجتماع الذي يسج هذه العلاقات على موله ، ويشكلها كما يشتهي فهذا رجل له
ماهر وعائلة وأولاد ، وله مشكلاته وهمومه ، يقدم إلى كذا يقدم كمرس إلى بحار ،
ويطلب إلى أن أعالج شيئا ما في هذا الكرسي . أدق مسامرا أو أصبح قطعة خشب
جديدة فيه تقويه . فإذا انتهت مهمتي أعدته إلى أصحابه ، دون أن تقوم ببس وبينه
أية صلات أخرى . فأنا علم لا شأن لي إلا التهمة الموجهة إليه . وهو لا شأن له بي
من أنا ؟ ماذا أكون ؟ ما اسمي ؟ كل هذه أسئلة لا تنور برأس عم تنامي بل إن
عم تنامي هذا راد الأمر تعقيدا لأنه لم يلتفت إلى ، ولم يكلف نفسه مشقة حتى
التعرف على شكل .

تقدمت به ابته حميدة ، وكأنما بيت من الأرض ، فأنا لم أرها قبل هذه اللحظة
في هذا المكان وقالت له في صوت يعص حوا وعظما ونشيجا ، شد حيلك يانا
فتمتم أبوها : على الله يابتي .

وأحسست بقلبي تتحابو بفضاته ، وتتدافع دقاته ، وأنا أشهد هذا اللقاء
البيط السادج ، التي بالماطفة الصداقة ، فقالت له وهي تشير إلى الأستاذ
الأستاذ بتاعك فقال الرجل وهو لا يرفع رأسه إلى ، ولا يوجه وجهه نحوي أهلا
وسهلا

وأحسست أنني رائد عن هذه الجماعة . وأن ليس لي دور فيها فاردت

انكماشا . واضطرت حينها اتجهت إلى (حيدة) في عبر كلفة ولا نخرج أسأله
بأستاذ . . عن الحكاية

ولم أعرف كيف أسأله ، خصوصا بعد أن نظر الرجل إلى السماء وهو يقول
« لا حول ولا قوة إلا بالله » .

صدرت هذه الحملة من قبلة تحمل إلى السامع ، إحساسين متناقضين
الإحساس بالاستسلام والركون إلى إرادة الله ، والرضا بما قسم كما تحمل في الوقت
بنفسه الإحساس بتمرد وعدم رضا ، أو قل عدم فهم لما يجري . ولم يجب استنتاجي
فقال تهامي : هو أنا عملت إليه يارب . حكمتك في عبيدك

وارتمخت وأنا أسمع هذه العبارة « حكمتك في عبيدك » هل يود هذا الرجل
المتهم البسيط ، أن يقول إنه لا يفهم هذه الحكمة ، أم أنه يقبلها على علات ، أم أنه
يتنظر أن تتكشف له وتضلع فيها بعد .

ولم يعجب حيدة ألا يجعل أبوها بي ، وألا يشط في شرح قصته لي فاقتربت منه
وبحركة مليئة بالحموية ، ملئت ذراعيها العاري بحرا أبيها ووصته على كتفه وقالت
بابا . الأستاذ هاور تقول له الحكاية الراحل الل مات طلع أحرض مايسممش .

فكان رد أبيها : يارب تحكم وتلطف أنا يا بني ماخنش ولا دقيقة أعود
بالله

وأخذ عم تهامي يصف ليته الماضية في نقطة بوليس الرمالك ، والرجل كما ظهر
لي من قليل الحيلة والخبرة ، أي من النصف الذي يقول عنه « في حاله » كان قد
تجاوز الخمسين وأصبح في حدود الستين في خديه لحية خفيفة تآثر شعرها الأسود
الأيض يعبر نظام وهرين الطويل والنقص ولونه يتردد أيضا بين السمرة والبياض ،
يصح فوق رأسه عمامة ، ويرتدي جلباباً من الصوف من الطراز الذي يلبسه أبناء
البلد ، الذي يستدير حول العنق ، ويتفتح من الصدر ويكشف عن صدريري من
نفس الصوف ، وصوته حانت وعبارة متقطعة وميله للكلام ضعيف وبالحملة ليس
فيه ما يستوقف النظر ، فهو واحد من الملايين الذين تراهم فلا يصدف من أنهم العين ،
ولا تطلب صورتهم للنظر . ولكن حينها أطلت التأمل فيه ، بوصفه أول عملاي ،

والجسم الحى لتصفى الأولى ، لاحظت أنه يتسم بين الحين والحين فتضىء ابتسامته وجهه ، وتصبح عينه أبلع تمييراً وأشد في النعس تأثراً

وما كاد يتسم حتى رايتنى ميالاً إلى عقد المفارقة بينه وبين ابته فقلت لنفسى ما أعجب أن يكون هذا الرجل الهادى القليل الكلام ، العاقر ، المتواكل هو أبو هذه العنائة التى تمضى حيرة ، والذى يرن صوتها في الأدن ، غيباً بالانفعال ، والإقبال على الدنيا ، واللمحة بالنفس . إنه يمكن تلخيص شخصية الرجل في ثلاث كلمات « دعنى في حالى » بينما يمكن تلخيص شخصيتها في ثلاث كلمات أخرى « لن أدهك نعلت » إنه يود أن يشهد ويتوارى لو يترجى من كلام الناس ، وهى تود أن تستوقف كل شيء وكل إنسان ، إنما يتلاءم عينيها ، لو يتلاءم ذراعها ، لو يتلاءم قوامها ، أو يتلاءم صوتها ، لو يتلاءم هذا كله ، مجتمعاً ومتعاوناً بعضه مع بعض . ولم تكن تجرئنى في هذا الحيز قد كلمت ، لذلك خدعتنى المظاهر ، فظننت أن الرجل أميل إلى الضعف ، وإن ابته أميل إلى القوة ، أى أنها من طبيعتين مختلفتين ، ولكنى لما تقدمت إلى الس ، وزادت فضلى ، ولرصدت فيها للناس ، وإدراكاً لهم ، عرفت أن كثيرين من تلوح عليهم القوة ، هم في واقع الأمر ضعفاء ، وأن كثيرين من يلوح عليهم الضعف هم عند الشدة ذوو عزم وإرادة .

وانقطعت عن تأملات حينها بدأ الرجل يروى قصة الليلة التى قضاهما في نفقة وليس الرمالك فقد كانت ليلة حافلة حقاً

قال الرجل : ماذا حدث ؟ لقد كنت في حالى لا لأخاصم أحداً ولا بأخاصم أحد . من عمل لبيى . لا يتسم في عسكرى ولا صابط وجة رأيت كل الناس أعداء بكرهينى ورأيتهم يعبرون من هذه العداوة وتلك الكراهية بعظيمة شديدة . ولقد كنت واقفاً في الطريق أقطع فرعا من شجرة ولم أدر إلا وأنا مسموك بتلابيبى والناس كلها تقول إنى مجرم وقاتل . قاتل دفعة واحدة وبلا تدريج ؟ فعلا رأيت رجلاً ممدداً تحت الشجرة لا يتحرك . وقد سمعت أنه القاتل الذى أهيت حياته وفي الحال خرج من كل مكان رجال ونساء وأطفال وقيل أن يفهموا ما الموضوع ، إنهم كل منهم على بشتة أو لغة . أخذت ، ولم أهتم ماذا أفعل ولا كيف أقصص وكنت أود أن أنظر إلى وجه هؤلاء الذين سبونى وشتمونى ، عساى أعرف منهم سيوة ذاتية . ٦٥

شخصاً أو اثنين من وجوههم وحيا ، فلم يقع وجهي على واحد أعرفه . كيف كرهني هؤلاء الناس هكذا وكأني قتلت أماءهم وأحداؤهم . هل هذا الرجل الذي رفدني الأرض مسجى عليه هدوء عميق وعدم اكتراث بكل ما يجري ، قرب هؤلاء جميعاً ؟ دعي ، ولكن كيف يكون قريب كل هذا العدد الضخم . وكيف نراهم ما قتله إليهم ، وهو سائر في الطريق ؟

واكتشفت شيئاً عجيباً فقد انضم إلى الحلقة التي أحاطت بي أفراد كانوا يسومون أولاً ثم يسألون عن الحادثة . وحدث ما هو أطرف فقد كان إلى جوارى شخص من عمال المرقعة التي أنزأها ، فانتدبه أحد الأفراد يسبه فلما بالقدمين الخلد يسوبه هو ، وقد تركوا أنا فسرر أنني وجدت شريكاً لي في هذه الجريمة المحيفة . ولكن غلاماً صغيراً أسرع بأن به المتجمهرين إلى أن الفاعل الأثيم الذي يستحق وحده ، دون غيره العقاب وانقسم الواقفون إلى فريقين ، فريق معي ، وفريق صدي ، وكانوا يتشاحون ويتصاربون بالأبدى ، وأنا واقف وسطهم لأأدري كيف نخرج هذه الصائفة

ولكن الأمر تحول فجأة ، فبدل أن يصوب المتجمهرون بعضهم بعضاً امتدت يد فصبغني على قفائي . . وأحسست بأن الشر يتطاير من عيني ، فانا لم أعرف الإهانة طول حياتي . كان الناس يوقروني ، حتى المهندس الذي كان معروفاً بالشدة ، كان يشتم الناس جميعاً ، إلأى . فقد كنت دائماً بالنسبة له (عم نهمي)

واحتق الرجل بالكاء ، وطأطأ رأسه ، كأنما لو تكب خطأ وهو يعترف بهذا الاعتراف وزاد شعوره بالخطيئة ، لأنه ضعف حتى درفت عيناه بالدموع

ورأيت ذراع (حميدة) العاري يمتد مرة أخرى إلى كتف أبيها وقالت له . عيب يا أبو حنفي . .

ولم يلتفت (أبو حنفي) لاسته وبعد إطراقة غير قصيرة قال . نهاية . ثم مر رأسه وقال . « نحمد الله على كل حال . . » ثم عصى بريقه قليلاً ، ثم استأنف حديثه فقال .

وجاء العسكري يحمل بندقيته ، وسأل عن الخبر ، ونظر إلى القتيل وقال في

سرعة أنه (خلص) ثم سأله عن (الرئيس) يعنى رئيس الأنفلز ، فلهذه على ، فأمسك بخناق وقال : قتلت الرجل . . يلى . نعم شتمى ولست أدرى لماذا انزعجت لشتم العسكرى أكثر مما انزعجت لشنائم الكثيرين الذين اجتمعوا حولنا ، وجدبني العسكرى قاتلا . « على النقطة » ولربوت أن استمعه ، وأنا أقول له إنه لا ذنب لى ، وأن الرجل لم يكن سائرا فى الطريق ، وإنما خرج من بطن جسر النيل فكان رده لكمة شديدة فى صدرى ، وكأنما كانت هذه اللكمة إيدانا بهجوم جماعى ضدى ، فقد انهال على الجميع ، بضرب لم أحس له بألم فى جسمى ، وإنما أحسست به ، ألاما موجعة لنفسى .

وقعت حمامتى فى الأرض وحل شالها ، والتفت بعصه على رجل أحد الواقفين ولم أربدا من أن أسير مع العسكرى ، ووراءها مظاهرة كبيرة ، لانتظم خطوة حتى يضم إليها أفراد جند ، وفى أثناء سيرنا كنت أسمع سؤالا متكررا : ماذا عمل وعلى فوارع الطرق ، تلوت التهمة المنسوبة لى ، فأنا مرة حرامى . وأنا مرة أخرى ضبطت مع امرأة ، وأنا مرة ثالثة قتلت إنسانا بمسلى ، ولم أكن فى وعى . ولكن فى كل مرة أسمع تهمة جديدة أهرز من مبت الشعر لى ألخص القدم لأن أصبحت لا أعرف بأية تهمة سأساق لى التحقيق وهرفى شخصى أو اثنان فى طريقنا لى (نقطة البوليس) فصاح « هذا هم عباس » وتقدم أحدهما بحوى وسأل عما حدث فكان جملوه دفعة شديدة له فى الصدر ، من العسكرى ، أودعها بسباب فجاور الرجل لى أمه وهرضها ، وكل هائلته فاستخذلى وتوارى . .

ووصلنا أخيرا لى النقطة ، فأسرع عسكرى لو أكثر كانوا واقفين بيب النقطة فصرخوا هذا الجمهور الضخم من الدخول معنا ، فارتد أكثره إلا اثنان أو ثلاثة دفعوا العساكر دفعا وسحومهم عن طريقهم ، ودخلوا ورامنا وكانهم من أهل الجاه .

ودخلنا لى حجرة الصول . . فوجدناه مشغولا بتحقيق قضية سيطة أجنبية صودر كليها ، كانت جالسة على كرسي بجانب الصول ، وقد وصعت ساقا على ساق ، وكانت فى يدها سيجارة وأخذت تنفث دخانها فى الهواء بشقة وعصية ، بينما كانت تغلف فى هم الوقت ، بكلام يبدو أنه فلس وشديد ، توجهه كله ضد هذا

الصول الذي كان يتلطف ، ويسكت ويجمع ، ثم يقطع قليلا ، وإن كان مطهرة كله يدل على أنه لو استطاع لحمل هذه السبلة من مقعدها وألقى بها في الشارع

وبعد أن وضعنا أمام حضرة الصول ، ما يريد عن ربع ساعة ، التفت إلى العسكري الذي كان قد قبض على ، وسأل عن الأمر ، وأراد العسكري أن يقص الواقعة ، ولكنه قبل أن يبدأ قال الصول في غير اهتمام « صعه في الحجر » ولم أفهم أي المقصود بهذه العبارة ، بل لم أفهم ما معنى كلمة (الحجر) وسألت العسكري إلى ما لا أعلم ، حتى وصلنا إلى باب معلق ، وجفته يفتح ، ويدعوني إلى ونوجه العسكري الذي يقص على وكأنما يدعوني إلى بيت فقد قال لي « انفصل » وبطرت إلى وجهه فلم أر عليه علامة واحدة من علامات الشدة والغلظة والغضب التي كانت تعلوه . وقبل أن يقفل الباب سألت ، وكأننا صاحبان قديمان « هل تريد شيئا . »

وشاقت حميدة بهذه التفاصيل التي لا علاقة لها بموضوع التهمة ، وأرادت أن تصرفه عنها ، فقالت على كل حال الحمد لله على سلامتك احك للأستاذ عن القصة القتل ظهر أنه أصم لم يسمع صرخة بيومي وخليفة ، حساب حساب وكان طلوعه من بطن الجسر هو سب الحادثة ، لقد كانت مصيبة غيلة لنا .. (يلرب سترك وعصوك) .

ولكن هم تهاى كان مشغول النفس والعقل بما جرى له . كان يريد أن ينفس عن آلامه ولم يكن متوقفاً من وراء اتهامه شراً ، وفي الوقت نفسه لم يكن عنده من وقائع القصة ، شيء أكثر مما عند انتبه وأقاربه لذلك استأنف الكلام بصوته الخافت وعارته المتقطعة التي تتلحها فيها الألفاظ تلك الألفاظ شديداً لولا انفعال واحتياج وجدانه ، الذي كسى تلك الألفاظ قوة ليست لألفاظ عادية

قال سألت العسكري هل أريد شيئا ، وكمل قلت له « كتر الله حيروك أريد أن أعود إلى بيتي فصحت العسكري من جهل ، وعملي وقال لا تستعجل ؟ فقلت كيف لا استعجل لماذا تجسوس فأجاب العسكري القانون هو الذي حبسك

ولم أريد أن أطيل الحديث مع العسكري عندما قال ذلك لأن لا أعرف القانون ولا أعرف لماذا يحبس القانون شخصاً مثل ولحيث أن أدخل د الحجر « فهذا

العسكري يسألني هل - معي نفود : فقلت نعم ، وأدخلت يدي في جيبي فقال أعطني « بريرة » وأعطيت بريرة ، فأخذها وقفل الباب على

واحتجعت (حميدة) لماذا أعطى (ابن الكلب) عشرة قروش كاملة وهما تدخل عند الخاير سرى أهدى ، فقال « هذه أتعبت العسكري في صرب أريك وجره من مكان الحادث إلى الحجر . أنتظرن أن هذا كله يجري بجانبنا وبلا شيء »

وصحكت حميدة ضحكة رابت أثرها في وجه عبد الجابر . فقد لمعت صفحة وجهه بانسامة سعيدة مشرقة ، ثم غير موقفه ، فأصبح أقرب إليها ، وشعرت - ولست أدرى سبب شعوري بأنه يود لو عاد (عم تهاى) إلى الحسحانة ولو دعت أنا إلى مكان ما ، ليتاح له أن يقف مع حميدة ، فإن مدبولى ذهب ليشتري لتهامى رعيماً ملينا بالهبة وخم الرأس ولكن عم تهاى لا يريد أن ينهى كلامه ، لقد قرع قفراً من فوق التحقيق الذى أجراه معه الصول ، والمعاينة التى قام بها باشجاويش لمكان الحادث ، وموقع سقوط الشجرة ، مكان خروج المجى عليه من بطن الخسر إلى حيث لقى حتفه . فصر فوق هذا كله قفراً ، وكأنه لا يتصل به ، ولا يتعلق بموضوع قضيتي ، وأثر أن يتكلم مع الليلة التى قضتها في قسم عابدين . فقد نقل بعد التحقيق والمعاينة إلى القسم ، وكأنه نقل إلى جهنم

فقد كان بين كل مقلة ومقلة ، وبين كل خطوة وخطوة يناله شيء من الإهانة ، أو دفعة في الصدر ، أو صفعة على الخفا ، أو شتمة من هنا ، أو كلمة هرة من هناك فلما وصل إلى قاعة الحبس في السجن ، ظن أنه نجا من هذه الإهانات التى تتطاير في الجو ، ولكنه ما كاد يصيح قفمه فيها ، حتى انبثت صرخة ، فنظر عند موضع قدميه فوجد شيئاً مكوماً ، لم يثنى شكله . مجرد كومة ضحمة من اللحم فطن أن من الأسلم ، أن يعتبر لهذا المجهول ، أيا كان اسمه ، أو صفته ، فقال (لا تأخذنى) وإذا ضحكة خفيفة ترد على هذا الاعتذار المؤذنب ، تأتى في أعقابها ، صيحة مزلزلة لأركان المكان يقول صاحبها « ومادا أحدث أنا من هذا الاعتذار لقد دمست على بطي حتى كانت أمعائى تخرج من مكانها ، لأنك أعمى . ولأن اللبس الذى تنصوس عليهم ، وهم أحسن منك ، ومن أريك ، ومن الذين خلعتوك ، هؤلاء الناس في نظرك كلاب مع أنك أنت الكلب وابن الكلب »

وشعر عم تهاى بأن قلبه كاد يعب أو أنه علق في الهواء من عنده ، فلا هو قادر على أن يرد هذه الإهانة من هذا المخلوق العريب الذى احتل هذا الموضع بتكوم فيه ، والذى امجر انصجاراً لا يعرف له مروراً ، ولا هو قادر على أن يسكت ولا على أن يخرج من هذا المكان الذى هدف به القدر إليه ، عل أنه بعد فترة صمت بطق لسبه ، بالكلمة التى اعتاد أن ينطق بها في مثل هذا الموقف ، وإن كان لا يذكر أن موقعاً مشابهاً مرة أبداً ، قال : « الله ساعك » .

وارتفعت رأس ، كانت بلا شك رأس هذا المخلوق ، واستند صاحبها بظهره إلى الأرض ، وأخذ يلهو هذيراً كالزهد : « ساعنى هل أى شيء هل وصمت رجل في بطنك . هل دست على نافوخك أم أنك تحسب أن الله من أتياحك لمجرد أنك وضعت هل رأسك برطوشة ، تقول عنها عمامة » وضحك الرجل ضحكة ملونة ، منعمة متقطعة انتهت بصوت يمكن ترجمته هل وجه التفريب هكذا . ها أو أو . . .

وعاد يقول : هؤلاء المفلون يحسبون أنهم يستطيعون أن يصبحوا على الله ، كما يصبحون عليها لأنهم يلبسون عمامم ، ولكن الله أكبر من أن تطل عليه هذه الخيل غلقد عرف أولاد الكلب من كل نوع وكشف حيلهم من رمس بعيد والشاطر الذى يود أن يضحك عليه لا بد أن يضع فوق رأسه لا برطوشة واحدة ، وإنما ألف برطوشة فهمت بأبهم ، عر من وجهي » .

وفرع عم تهاى بأمر الإفراج الذى أصدره عه هذا المخلوق ، وتأمل في هذه القاعة ، ليبحث له عن ركن يروى فيه فلم تساعده عياله على تبي المكان ، ولا لباس الذين حوله فتحرك في طقه وكأنه يسير هل السراط المستقيم ، خشية أن يصعب قدمه على بطن أو رأس مخلوق آخر من هذه المخلوقات التى حسمتها الحكومة في هذه القاعة ، من مكان لم يفو عقله على مجرد التفكير في موضعه من العالم . كما لم يفو عقله على مجرد التفكير في الطريقة التى تصطاد الحكومة هؤلاء الأدميين الذين ينصرون انصجاراً في عباد الله ، ملا مقدمات ولا اسباب مفهومة ، وهيا هو يتقلب في حيرته ، امتدت له يد ، وبظر في للظلام ، فإذا شلب صعب ، دون الثلاثين ينس بدنة وقال له بصوت هادىء خافت ، يخفى عطقاً عليه ، ورة في مساعدته ، فقال : « يا عم لا تحزن ربنا يصبرنا جيماً » .

ولو سمع إنسان هذه الدعوة ، لوقع في وهمه ، أن هذا الشاب يدعوه إلى مكان
جميل ، أو إلى مأدبة فاحشة ، ولكن الشاب لم يرد على أن سحب نهاسي إلى ركبي ،
وجد فيه بطابية معروشة ، وإلى جوارها حذاء استنتج أنه حذاء هذا الشاب فسار
معه حذوتين إلى حيث كانت البطانية وجلس على « البطانية » وكأنه العريق الذي
فقد الأمل في النجاة في بحر ظلم ، تتلاطم أمواجه ، فبررت له فجأة حرية ، قد
تكون قاحلة ، ولكنها على أية حال ، حير من الخوف من العرق ، وأهوال أمواج
البحر .

استند هم نهاسي ظهره إلى الحائط ، وأغمض عينيه ، وأراد أن يتلو شيئاً من
القرآن فاحتلقت على لسانه الفاتحة ، بآية الكرسي ، بآية ٠ « لقد جاءكم رسول من
أنفسكم ، الذي اعتاد أن يقرأها كلها آلت به مصيبة ، أو توقع شراً ، وأحسن بالحاجة
إلى معونة الله وحمايته ، فسكت ، واكتفى بترديد . « لا حول ولا قوة إلا بالله .
سبحان الله ونعم الوكيل . . » .

وبعد فترة من الصمت ، أحس بأنه استعاد غير قليل من وضوح أفكاره ،
وهذوه نفسه وأنه قادر على أن يعكر فيها جرى له ، فارتسمت على شفتيه ابتسامة ،
ملينة بالمرارة ، والسخرية فقد ذكر أنه كان في الصباح مشغول البال ، بأكلة
(ملوحيه) هل فراخ كانت شقيقة زوجته مشاركتهم فيها مع زوجها القادمين مع
أولادها من بلدة الفلسفوي بالشرقية (إنه ليس أكلوا ولكنه يحب الملوحيه - ولو
كانت ناشئة - على الفراخ ، ولو لم تكن من المتأفقي السماء السمسة ولكنه يحب
أكثر من الفراخ ، هذه الصيغة التي تضم أهل بيته ، وأقارب زوجته ، ومن يرى
أهل زوجته ، كأنها أحبتها (مقولة) أحب الجميع إليه ، فقد شأت في بيته حتى
كانت كابتية . لم يرق أول الأمر بيت حتى أنعم الله عليه (بحميدة) فكانت
(مقولة) ربحانة المنزل ، وحير عون لأحتها ، تفضل الشاب ، ونظهي الطعام
وتسهر على الأولاد وتصلح ما بينه وبين شقيقته إذا تمصصا ، وتدافع عنها إذا
هاجمها ، وتدافع عنه إذا اتهمته . وتدافع عنها عند أفراد الأسرة . إذا قبل عنها ،
ما يقال عادة في الأسر الريفية عن أولئك الذين يعيشون في المدينة ، من أن المدن
أفسدتهم وأبعدتهم عن الأهل والأقارب ، وعلمتهم البخل بعد كرم ، والكبرياء بعد
نواضع وازدادت الانتامة اتساعاً ورأى عنها ما شابهها من مرارة وسحرية ، حينما

تداعت الذكريات والخواطر في رأسه تداعياً متصلاً ، فقد ذكر كيف تنظر إليه الأسرة بل القرية ، باعتباره رئيساً ماجداً ، وشخصاً ذا نفوذ فلم يكن فاعلاً منتقلاً تتداوله أبدى المقاولين فتارة في عملة بالسيلة ريب ، وأخرى في الخليفة ، وثالثة في مصر الخديعة ، ولا هو نافع متجول ، بطارده البوليس ، وتحمل رحمة ويبث على الأرضة أوى حواصل ينم فيها أمثال عشرات في مكان واحد ليس فيه عرض ولا عطاء ، بل يصعق رؤسهم ، على حبال ممتدة بدل الوسائل ، فلذا أصبح الصاح ، شد المسئول عن الخان أو الوكالة الحبل ، فسقطت رموس النائم على الأرض ، فذهب عنهم النوم ، وذهبوا هم ، كل في مبيله بحثاً عن الرزق

ليس هو من هؤلاء جميعاً ، إنما هو رئيس يلتصق مرموسه بين عماله التابعين و « الزهورات » (غير الخبثين) رصاه ولا يطلق الأوامر إلا من المهندس ولا يتقص من قدره أن يكون هذا المهندس ، مساعد مهندس في الحقيقة ، ولكن الناس لا تتبع بنداؤه (باحضرة المهندس) بل يبالغون في الحماسة به ، واحترامه ، فيقولون عنه (حضرة الباشمهندس) وهو نفسه يتصرف كمفتش ، وإن كان جرحه شديداً إذا لمع من بعيد المهندس الحقيقي قادماً لما إذا كان المقدم المفتش ، أو حتى سيارة المفتش فالجرح أكبر ، بل إنه شيء أكثر من الجرح ، لأن وجه حضرة المهندس يصحح أبهى صاحباً كوجه الموتى ، في الوقت الذي تتحرك حيوة في محاجرها ، بسرعة خاطفة ، فتذهب يميناً ، ثم يساراً ، ثم تعلو وتغيط ، وتلور حول نفسها ، أما جبينه فيمضي عرقاً ولكن هذا المهندس لا يكاد يجتص من ناظره رؤساً حتى يصبح مخلوقاً آخر ، ذا عزم ، وإرادة ، ودا هية وكلمة نافذة

حالة الأمر ، أن عم تهاى في رأي أقاربه ومواطنيه رجل محظوظ ، وكان شعوره بهذا الحظ السعيد ، واعتباره به شديداً ، في اليوم الذي وقعت فيه الحادثة ، لذلك كان ينظر إلى فرع الشجرة ، الذي كان يقطع وهو ساهج في تأملات حميلة ، وتصويرات هائلة ولعله لم ير وهو ينظر إلى هذا الفرع ، شيئاً من الفرع نفسه ولا العامل الذي كان مشره بمشار طويل حاد ، بل كان يرى (الطليقة) وقد جلس حولها مع روحته ، و « مقبولة » وروحها ، وأولادها ، ثم طبق اللوحية وإلى جواره طق أكر فيه مرحتان عممرتان على الأقل ، تسردهما تنويع ولواحق ، من مثل

الطرشى ، والحرجير ، والفجل ... وغير بعيد من مكائهم جيداً (منة) فيها
(البتاو) الذى يحير فى فرن داره فى بولاق الدكرور وكأن بلده انتقلت إلى صواحى
القاهرة ..

ومما هو يتأمل هذه الصور البهية الممتعة ، سقط العرع لا على رأس الذى سعى
قتيلاً ، والذى حوسب عليه ، باعتباره متسبباً فى قتله ، بل على رأسه هو الرجل
مات واستراح .. على الأقل هذا ما كان يوحى به مظهره - فقد تمدد ، وليس على
وجهه ، أية علامة من علامات الضيق أو الاحتجاج أو العصب ، كأن الحيلة لم تكن
تهمه فى قليل أو كثير . لو كان العالم الذى انتقل اليه عوصه خيراً عما كان يلاتيه من
فقر وضنك ومساء حال ..

واردادت روح هم نهامى استقرلوا بجلسات المودعة ، فى هذا الركن الأمانى
تلك القاعة الموحشة ، فأخذ يفلسف ولعله كان لأول مرة يفعل فقد سأل
نفسه لماذا يضربه كل الناس ، ولماذا يشتمونه الآن هذا القليل عزيز صلتهم أم
هو صاحب ممود لاشئ من ذلك يدخل دائرة الملقول ، أو يتصل به فهو رجل
فقير ، كما تكشف عن ذلك ملايبه والمكان الذى خرج منه ، عندما دهمه القدر
المحتوم .

إذن فيما سر نشاط الناس فى الاعتداء عليه بالسب والدفع والركل والصنع
أن تكون الجريمة كريمة عند الناس ، فهم يمبرون من كرههم لها . ولكن الناس كانوا
يضربونه أولاً ، ثم يسألونه عن جرمته ثانياً والعسكري الذى صفحه ، ودفعه
وأمانه ، ما كاد يصل به إلى النقطة ، وتركه فيها ، حتى ذهب كل ما كان يبدو عليه
من غضب واشتمزاز وأصبح رقيقاً لطيفاً ، ومد يده ليأخذ نفوذاً منه كأنه صديق
قديم ..

ثم هذا المخلوق الذى ادعى - فى اللحظة التى وصح قلعه فيها على باب قاعة
الحبس ، بأنه فاس عليه ، ثم أهال عليه بأقذع السب ، ما قصته ؟

ولم تطل فترة الدعة والهدوء ، فقد صرخ الشاب الذى دعاه إلى الجلوس معه
على البطانية فى هذا الركن الحميم ، « حاسب حاسب » وفوت هاتان اللقطتان فى
أحد هم نهامى ، كأنها الرعود القاصفة ، فقد كانت هاتان العبارتان التذير الذى

أعنه على الفور حدث الوفاة التي لا يزال حتى الآن يذغ نفسه عالياً لانها
بأحداثه .

استيقظ تهاى على هذه الصرخة من تأملاته ولم يفهم سبها ، إلا أن الشاب
جده جدا ، ثم سمع على الفور صوت ماء يتدفق في رقابة ، ويصطدم بالحدار الذي
أسد ظهره إليه . وعرف أن هذا لم يكن سوى بول أحد رملاته في القاعة . لم
تكن قاعة المجلس هادئة ولكن هذه الصلابة ، كانت بمثابة سك ماء نار مشتعلة فعلا
فقد ساد جميع من في القاعة اضطراب لاسيل إلى وصفه ، فقد أمسك بعضهم
بتلابيت بعض ، وطمع بعضهم بعضاً فسمع صوت الرموس وهي تتصادم وكأنها
الكرات الحاصية أنشب البعض أسنانه في عنق ودراع من إلى جواره ، واسعة من
كل هذا صراخ ، وتطاييرت له في الحوشائهم . ولم يدركهم تهاى أين المنجأ ، وكيف
المنجاة . فقد رأى نفسه وسط دائرة من المتلاكمين والمتصارعين ، يشون بعضهم فوق
بعض ويقتلون بعضهم بعضاً ورأى الدم يتطاير من رموس لايحفل أصحابها هذا
الدم ، وكأنه يتطاير من غير أجسامهم . ترك نفسه لأمواح هذه المعركة المتلاطمة
تدفعه أماماً وتنفذ به إلى الخلف وتقر به إلى ركن ، ويناله بين الحين ، صريرة من
قبضة يد . أو رشاش منطائر لا يعرف ما إذا كان دماً أو مصافاً أو بولا

والمعجب أن هذه المعركة الحامية كما بدأت بلا مقدمات ، انتهت فجأة وذهب
كل من اشترك فيها إلى ركن أو ناحية وهو يلعب أو يس أو يجمع ما تمرق من ثيابه
أو يمسح ما تعصده من دمه أو عرقه .

والأعجب أن هؤلاء المشاجرين بدأوا يديرون بينهم حديثاً ودياً ، كأن لم يكن
بينهم قتال ولا حرب ولم يبق من آثار هذه المعركة سوى أن بعضهم أحد يلق باب
القاعة ، في طلب الشاوش الذي جاء بعد لأي وسأل من خلف الباب عن سب
الدق فقالوا له إن في القاعة بعض الجرحى ، وأنهم في حاجة إلى إسعاف من فطر
وشاش ، ومطهرات ، فسأل عن سبب جرحهم فقالوا له عن السب فلعن أمهاتين
وأعراصهن ، وقال لهم إن الأفضل أن يموتوا ، وأن الشاش والقطن حسارة فيهم
فدأبه من حلف اللب صاحب صوت عريض غليظ مصحك الشاوش من حلف

الباب أيضاً وسأل عن ابن الكلث الذي قال هذه السكة المليحة ، فقيل له (أبو صريح) فلما سمع اسمه ، استعرق في الضحك ودعا عليه بخراف بيته وبنت أبيه مرد (أبو صريح) على هذا الدعاء مضحكة ، وقال له إنه بهذا الطلب سيغير الله سبحانه وتعالى لأنه ليس له بيت حتى يمكن أن يجرب ، وما كان لأبيه بيت أبداً . فعاد الشاويش إلى الضحك ، ووجد أن الأمر قد وصل إلى حد يجب أن يفتح معه الباب ، وأن يتبادل الحديث مع أهل القاعة ، يفتح الباب فتدافع أكثر من فيها نحوه ، ووقفوا يتكلمون مع الشاويش ، يسهم حيناً ، ويداعبهم حيناً آخر ويهدد بصريحهم بالخذاء ، أو يقطع رقابهم ، ويأخذ لواحد منهم أو ، اثنين آخر الأمر ليضما قطعاً وشاشاً هل الجروح .

أما عم تهاى فكان يوده أن يسأل عن السبب الذي حدا برمي له في القاعة أن يتبول عليه وبعد هذه العاصفة تبي أن في وسط القاعة دلوين من الصمغ أو الصاج ، واحداً منهم وضع ليشرّب منه المحبوسون والثاني ليشربوا فيه ، ويقصروا حوائجهم وأن الدلوين متشابهان ومتعلوران . بحيث يصعب التحيز بينهما وأن بعض من يصل إلى هذه القاعة مخموراً أو مخدراً أو متعباً ، أو قليل خبرة بها ، يفصل أن يقضى حوائجه في غير الدلو المخصص . وإن هذا يعصب بطيخة الحال بغية سكان القاعة ، فيحدث الشجار والعراك . ثم يعقه الهدوء لأنه شجار (قائم على مبادئ) لا صلة له بالحرارات الشخصية لأن الذين يتعاركون لا يرون وجوه بعضهم بعضاً في الظلام ، ولاهم لا يعرفون كذلك بعضهم بعضاً عادة . فإذا ما أرسوا ما في نفوسهم أحلّدها إلى الراحة ، ومالوا إلى السكوت

ويدأ عم تهاى يألّف ظلام الحجرة وأسلوب نزلاتها ، فاندرك أهم على شدة ميلهم للشجار ، كرماء لا يكون مع أحدهم شيء يؤكل إلا ودها كل رملاته ليشاركوه في الأكل . ولا يشكو أحدهم شيئاً إلا وحف جميع رملاته لمواساته والتخفيف عنه .

وقد كشف عم (تهاى) أن (الخيسخانة) لم تكن سوى صورة مصغرة للديا . فإن الهدوء الذي ساد القاعة بعد المعركة لم يلبث حتى عكسته حلقة صغيرة أخرى . فقد رفع أحد الأشخاص عفيرته بالعناء فتضايق جاره فتماسكا ، فاندلكت

مار الحرب مرة أخرى ، ورأى عم نهمي نفسه في وسط الدوامة من جديد ، يرفع ويخفض ، ويجذب ويشد ويلصق وتقع عملاته ، ثم يرى نفسه على الأرض ثم يسود الملهو فجأة . ولم يكن اضطراب الحجرة واجعا فقط إلى المشاهدات والشجار فقد كان باها لا يقبل ، حتى يمتنع عن قادم جديد ، مرة يكون سكيرا يعربد ، وأخرى جريحا يصرخ ويتألم ، ويتأوه ، وثلاثة وجلا يكاد يكون عاريا إلا من حرقه تستر بعض عوراته ، ورابعة صبية صغار من جامعي أعقاب السجائر أو مشولا لا يرى أو يدعى أنه لا يرى أو شيئا محورا داخلية ، وعملاته ، يصعق في رقبته سبعة طويلة ويرغم أنه من أولياء الله ، ويهبط عليه الوحى المرة بعد المرة في صورة صبيحات طويلة ممطولة ، قد لاتعجب بعض أهل هذه القاعة المنحوسة ، فيطلب إليه أن يسكت ، فيتمصص له أحر أو آخرون ممن يبحثون عن سبب للمشاجرة والمصارعة وهكذا وهكذا

وقبل منتصف الليل ود : عم نهمي « لو ينام ، وكان السكون قد ساد قليلا ، نما أحر هذا الأمل ، ورى له هذا الحلم ، ولكن حلمه وأمله تبدد بدحول سكير ، وكان سكره نبيا ، فقد دخل وسط القاعة كثور المصارعة ، وكان يرتدى طربوشا ، فوق رأس انكش شعرها ، وكان يرتدى معطفا فوق جلباب ، فخلع المعطف والقاء في الأرض وانجه إلى الباب يذقه بيده دفا متصلا وأحب الشاويش أن يعطيه (شوية ميه بس) وكان إصراره على كلمة (بس) عمل تنذر جميع الموجودين في القاعة ، فقال له بعضهم لماذا لا نطلب ويسكى أيضا ؟ لماذا هذا التواضع والاعتصار على طلب الماء

وبطبيعة الحال لم يسأل الشاويش عنه ، واستمر هو يستعطفه ويرجوه ويلح في الرجاء ، حتى أصبح ذلك الرجاء غابة في ذاته ، فقد التصق بالباب ، وأخذ يردد (شوية ميه بس) في صوت حفيف رتيب وكان سماع كلمة الماء تلطف من اشتعال جوفه بالخمير الرحيصة التي شربها ولعله راح في إغفامة وهو واقف ، فلم يبق مستيقظا منه سوى لسانه الذي استمر يكرر نشيده .

ولما أوشكت شمس النهار على الشروق ، علب عم نهمي عن الدنيا وراح في نوم عميق ، لا يدرى كم طال ، ولا متى وقع . إن هذا الساحر المعجيب الذي

يرتفع من فوق المموم والأحرار والمواجس وفوق المحلوف والمساوس ، جاء لهم
تهامي ، أسدل يده بين رملاته في قاعة الحبس أسترأ وجوههم ، فأسلم بهمه هذه
العموة الميعة العالية ، وأتاح بذلك فرصة لمخلوقات صغيرة أخرى تشارك أهل هذه
القاعة الحيلة فيها ، لرعى جسده وتأسد نصيبها وحققها المعلوم ، من دعاه من يربل
باحتها

همي شقوق كل (حسانه) وفي أركان موافدها ، وعلى حواف الدنورين اللذين
يستعملان للشرب ولقضاء الحاجة ، تعيش كل أنواع الموام

فمن براغيث إلى قمل وهي تسير جماعات وراء جماعات ، ومقاومتها تزيدها
قوة وحرارة ، فهي لا تقاوم إلا تسلط شملة بار عليها من موقد يستعمل البترول
لإشعائه ، ويحدث هذا الموقد صوتاً شديداً ، ألقت المرام والحشرات سماعة ،
وعرفت معناه ، بها يكاد يقترب من باب المحبرة ، حتى تدخل في شقوقها وتظل
برأسها بين الحين والحين ، لتعيط هؤلاء الذين قرروا القضاء عليها والتخلص منها .

على أن عم تهامي استيقظ من نومه مدعوراً فقد أحس بأن كل جسمه يشتعل
بعمى قاسية ، عرف في الحال أنها انتابت أثر هجمة مركزة من أعوان سلطات
التأديب والعقاب في الدولة ، من البراغيث والقمل وأصرايها فأخذ يمد يده إلى
عنفه أهلاها وأسفلها ، وحول آذانه ، وتحث إبطه ، وعلى سيفانه ، وفي كل
مكان ، كان يجد هذه الحيوانات الضارية ، متجمعة ، ثم خراطيمها الصميرة
الشيطة إلى جلده فتشبه في سرعة وهمة ، وغملاً سطونها بشيء من دمه ، كثيراً
ظرفه ، قليل في تقديرها ، وتلفت عم تهامي حوالبه ، فرأى نفسه في مكان لم يدر
كيف جاء إليه ولماذا دخل فيه . فقد نام عقله نومة عميقة من أثر الجهد والماء الذي
كابد ، فسي أسه بكل مافيه . نسي فرع الشجرة الذي سقط والرجل الذي
مات ، والمظاهرة التي أحاطت به ، والتحقق الذي جرى والإهانات التي أهالت
على رأسه ، ونسي مخاض في قاعة الحبس من معارك ، وما سأل فيها من فعله ،
وما تطاير في جوها من شتائم . نسي الوجوه المعجبة التي كانت تدخل من باب هذه
القاعة ، وكان هذا الباب حرم ساحر عجيب ، يخرج منه كل غريبة وشاذة ،
ومثيرة للدهشة وبحركة للعقول ، ويسعمل عم تهامي ، ورأى لسانه يتحرك بايات

يرددها من حيث لا يدري ولا يعكر عند الروح ، ووقت الشدة ، وتختبئ بقوله مراراً
« الحمد لله رب العالمين » .

ورأى الشمس سسط بورها على الحجرة ، فرأى ألواناً من الناس لو اجتماعوا في
سيرك لأصحك مراهم النظارة ، فمس شيوخ دوى لحى ، على رؤوسهم طرايط
حصراء انحطعت من فوق الرؤوس ، واستقرت إلى جاب أصحابها ، الذين
انطرحوا على الأرض كالقتلى سيقانهم مكشوفة قد تباعد الواحد منها عن الآخر ،
وإلى حوارهم آخرون في حرق تكشف عن أجسامهم ، وإلى جوار هؤلاء هؤلاء
(أفندي) يلبسون اللباس الأوربية من بذلة وقميص وربطة رقة ، وقد اتخذ
بعضهم من ستراتهم وسادات ومساند ، وإلى جانبهم أحذيتهم العالية ، ووقوفها
حوارب وقد ترددت أنفاس هؤلاء جميعاً في انتظام ورتابة ، وامتث من بعض
الأنوف شمير مرعج متقطع أو شمير مرعج متصل ، ولكن الأذن بعد قليل تعتاد
هذه المجموعة من الأصوات ، وتكون لمعها منها بقيا مقبولا

أما هم نهمي ، فقد تأمل في الوجوه ، وكأنه قائد يقوم بجولة بعد معركة ،
ليرى في ميدانها المحرعى والقتل ، وفيما يتأمل في هذه الوجوه وقلوب دون عقله ،
مأخوذ بمظاهر التعاسة واليأس النادرة عليها ، من أثر مخاوفها من المستقبل ، وتعبها
في الحصول على الرزق ، وجهادها في الحرب من وجه السلطات والقوانين

وبدا عقله يثوب إلى بعضه قليلا ، طالع له لأول وهلة ، وجه الرجل الذي قتله ،
رأى الرجل طريح الأرض ، وعيناه مغمضتان . ورآه ، في موضع آخر جيبا عادم
الصابغ لإجراء العناية ، وفي هذه المرة رأى على وجهه قطعة من صحيفة هي كل
ما استطاع الناس ، أن يفظوا به هذا الجسمان هما ناهم ، جيونه ، ويضربونه ،
ويحرقون معه ، ويمجرون المعانيات ويمجرون المحاصر ، إذا كان هذا القتل قليل
الشأن مهيباً ملقى به على هذه الصورة في الهواء بلا احترام ولا توقير .

وقال هم نهمي لنفسه « يلرب حكمتك » .

ولكن صورة ، ترى تقوت إلى رأس هم نهمي ، مسحت من صفحة رأسه كل

هذه الصور . إنه يذكر الآن شيئاً قريباً لا يدري أين رله . ومسح جبهته بأصابعه ، وهو يعتصر ذاكرته اعتصاراً . ويقول « لا حول ولا قوة إلا بالله »

إنه رأى السيد السوى . ؟ ولكن كيف ومتى ؟ نعم كيف ، وهو بين أيدي البوليس لا يدعونه لحظة . حتى يودعوه هذه الحجر الملعنة المحققة للمجنية ومتى ؟ وأخبر عهده بالدنيا ، عند الشجرة ، وليس محقولا أن يأمن السيد البدوي هناك .

آه لابد أن يكون ذلك رؤية رآها قريبا يرى النائم ، وتعود بالله من الشيطان الرجيم .

إذن لقد علمه السيد البدوي في المنام ، واتصحت له الأمور اتصلا كاملا وأحدث أجزاء الحلم ، تتجمع شيئا فشيئا ، حتى تكمل أمامه

لقد رأى نفسه على حافة ماء ، لا يدري إذا كان ذلك بحراً أم نهراً ، أم ترعة أم بركة ، ولكنه ماء عجيب فهو يراه عيط فمخ صمبر ، مبلاته فضيلة ، ومع ذلك فقد كان الحلم مصرا على أن ذلك الفيط ، هو ماء وهو مائم على شاطئه ، يكاد يسقط فيه . ولكنه يحاول أن يضي بعيداً عنه وهو بين النائم والمستيقظ . هو مائم لأنه يمشي أن يسقط فيه ، أثناء نومه ، ومع ذلك هو مستيقظ ، يرى جمالا وحيرا تسير إلى ناحيته وتقف ولا يرى معها أحداً يفوقها وكاد يسقط في الماء على الرغم من أنه يبذل مجهوداً شديداً لكيلا يقع ، لولا أن بدأ امتدت إليه ، وأمسكته ، فلم يسر أهي امتدت إليه لتنتقله من السقوط ، أم امتدت إليه لتلقي به في الماء ، لأنها أمسكت به من خنائه حتى كاد يلفظ أنفاسه مرفوع رأسه إلى صاحب اليد ، فإذا هو بس هذا المجلوب الذي دخل قاعة المجلس ، يلبس طرطوراً ويمسك مسبحة طويلة ويضع أخرى في عنقه . ولكنه بلا حيلة طويلة ووجهه جيل ، مع ذلك إذا نظر إليه ، حاف حوفا شديداً ، كأن عيني هذا الوجه الجميل تسحرته ، وتعذبه ، وسمع هذا الرجل أخيراً بوجه الكلام إليه ، ويقول عموث عنك هذه المرة . ولكن إليك أن تفرح مانوت عليه .

لم يقل أحد في الحلم لعم تهلبي ، إن هذا هو السيد البدوي وهو نفسه . لم يقل

عن نفسه شيئاً من هذا ، ولكن كما يجري الأمر في الأحلام ، استيقظ وهو يحس أن
هذا الرجل ، تقدم إليه باسم السيد البدوي .

حينما وصل عم تهاى إلى هذا الموضع من حكايته للحيلة ، ارتد جبينه وشمله
تجهم عجيب وقال : « يا أرحم الراحمين عصفوك ورمصك . ستترك ورمصك
لطفك ورمصك » وتأثرت نفس بهذا الدعاء المتكرر وشعرت بأن عمة عم تهاى
الباطية قربت منه ، فلم يعد في نظري كرسياً يحتاج إلى مسمار ، ولا مقعداً يعوزه
طلاء أو دمان . ولم أعد في نظر نفسى مجاراً ، فيرى يلى نفس تتعذب ، وإن كان
عذابها لا شأن له بالقضية التي تشعل البوليس ، ولما نثرت أن تتخلل إلى يدي
النيابة .

وسمعت في هذه اللحظة صوت حميدة ، تقول لأبيها ، وهي تقاوم شعوراً
شديداً بالتشاؤم غمرها ، عندما سمعت قصة الحلم : حير . اللهم اجعله خيراً
يا أبو حنفي . فالتفت إليها ، وعلى شفتيه هذه الابتسامة التي نفس وجهه كلما
رفعت إلى الله . اللهم اجعله خيراً يا بنى .

ولكن حميدة أحسّت بالقلق ، لأن السيد البدوي أراد أن يحق أباهما ولأن أمهما
كاد يسقط في البحر ، ولأن الجمال كانت بلا حارس . . أليكون أبوها قد أهبط
السيد البدوي ، وحالف شيئاً من أوامر الله بحق عليه العقاب أو تكون الجمال
هذه هي أسرته ، ستبقى بلا حارس ولا قائد . « يا حفيظ يارب . . . »

ورفع نظري على حد الجابر ، فوجدته يظر إليها ، بكل عيونه ، وجوارحه ،
إنه يريد أن يقى هكذا إلى جوارها ، إلى الأبد ، ونقلت عيني إليها . فرائتها فعلا
جميلة كانت عيونها التي شملتهما سحابة القلق قد اردادنا اتساعاً وراود بريقهما
التساها ، وكان دراعها الأيمن العاري ، الذي نستعمله دون الدراع الذي كان محسكا
بملائتها ، حس التكوين ، لاهو ضعيف نحيل معروق ولا هو محتلم مكتنر عليل .
والدم الذي يجري في عروقه قد أحاله وردياً .

وأكدت لو ادعيت أن حميدة لم تشغلي ، وأكدت أيضاً لو قلت إنها كانت بالسة
في هذه اللحظة أكثر من منظر جميل ، فقد كنت مشئت النفس ، مورع المشاعر ،

كنت أسمع القصة وأنا أفكر في دوري في القصة كنت أريد أن أذهب إلى وكيل
 النيابة ، مع عم تهمي ولم ينتهي هذا الانتظار للرهن ، وقد رافقني مما حرقنا القصة
 التي رواها عم تهمي بمسارته المتضطه التي أصبحت في نظري آية من آيات البلاغة ،
 فلم تكن ثمة صورة للمجتمع أشنع ، ولا أدعى للجرع من هذه الصورة . ومع
 ذلك كنت أجد في النظر إلى وجه (عم تهمي) راحة وطمانينة وثقة بالمستقبل ،
 فالرجل لم يكن مهاباً ولا يائساً على الرغم من كل الذي قاله ووصفه . . كان هادئاً
 ولكن الذي كان قد استبد بهتنامه ، ما قاله السيد البدوي له ، غرغ رأسه ووجهه
 الكلام إلى لأول مرة .

— بالاستاذ أنا غلطت ، وأسحق كل ما جرى لي لقد كنت نويت أن أصبح
 هذا العام ولكن ماذا تقول في الشيطان لقد وسوس لي بأن في حاجة إلى عملية
 (حق) فقلت بعمل العملية هذه السنة ، ونجح في السنة القادمة

هذه عاقبة المترددين ألا نظل أبى عطارد ؟ ونظرت إلى استه حيلة ، وكأنها
 تستجدي لأقول لها ، ولأبيها إنه لم يخطئ . وشعرت بأن هذه الجماعة التي كنت
 معها بمثابة الغريب الطاريء ، أقوى من كل منهم يؤمن بنعمه وبأسلوب حياته وأنا
 ببلدتي الأوربية ، وبطربوشى الشرقي ، وبدراسق الحديثة ، وببرواسب معتقدات
 أهل القديمة ، جهاز مفكك الأوصال لا يعمل

فالرجل لا نعمة النيابة ولا البوليس ، ولا ينتظر على يدي المحامي شهنة لا حراً
 ولا شراً فهو مشغول بنفسه ، وهو يبحث عن أخطائه ويرد إليها ما أصابه وابتسه
 كالحيوان البري الذي يعيش في العانة ، نحس بمخافتها إحساساً عريضاً ، ونكشف
 عنها بسداجة وبساطة . وبعد الجبابرة القشرة الحديثة التي تعلو جوفه ، رقيقة جداً ،
 فهو في الحقيقة بلبس حليانا على جسمه وطاقية على رأسه وبقابا في قدمه ، وإن كان
 يظهر لباس في رى الأعدية . . أنا وحدي العريب

وهاد عم تهمي يسأل « أليست محطاً ، ومديناً وأسحق الجراء ؟ »

ولم ندعني حيلة أجيب فقالت . « والله يأسو حنم حير السيد البدوي
 أنفلك وأيقظك . . ماذا تطلب أكثر من ذلك أنك على الله ولا تخش
 شيئاً » .

ولكن عم تهلمى ، كان يريد منى أنا ان أجيبه . وأقول صادقاً ، إن هذا السؤال أربكنى لأنى كنت من السداجة والصدق إلى الحد الذى رأيت معه أنه لا يجوز لى أن أقول أى كلام رداً على سؤاله وكانت المشكلة التى عرصها عم تهلمى على ، مشكلة جدية بالنظر والتأمل ، فقد كان صوته وهو يعرضها علينا ، وصوته وهو يسألنى المتوى والمشورة صادقاً غاية الصدق . وقد كان تأثيرى بالصدق والصادقين منذ طفولتى هو أقوى بواعث نفسى ..

قلت له ، وأنا لأدري ، كيف قفرت إلى لسانى هذه العبارة التى قلتها .

« كيف تتصور الله يا عم تهلمى .. ؟ »

قال الرجل : أتصوره كبيراً . أكبر من كل شىء الله أكبر .

قلت له . أتصوره رحيماً أم متها جبلاً

قال الرجل وقد أهجه كلامى : الله أكبر . إنه الرحمن الرحيم

قلت له : إذا كان الله رحيماً ورحيماً ، فكيف يوقعك فى هذا المأزق لأنك لم تخج

وأنت مريض ..

ولكن هذه المناقشة لم تعجب أحداً . لم تعجب عبد الجابر ، ولم تعجب حميدة ، وعنى كل نهى لم تطل ، فإن مذبولى جاء يحمل معه رحيماً مشقوقاً ، تطل منه قطع من لحم الرأس ، وأعطاه وهو يلهث « لعم تهلمى » وقال له : « الرخيف سخرى وينار الطبونة .. »

ونظر تهلمى ، إلى الرخيف ومذبولى يدمسه فى يده دسا وكأنه لا يفهم ما يجرى ، بل كأن نظره لم يقع على رخيى من قبل . فقال متسائلاً ، تسألوا مفروماً بالاحتجاج « ما هذا والله أنا مالى مس .. » فقالت حميدة وهى ترتب على كتفه : كل بابو حنقى ووضع تهلمى يده داخل الرخيف فى تناقل شديد ، وأخرج قطعة لحم ، مع قطعة خبز ، وبقيت فى يده ، لا يوقعها إلى فمه واستأنف كلامه :

« كان الحج أبوى . فالإنسان لا يصمن حمرة وإذا ملت قبل أن يجرى عملية ، لايم فحس جميعاً تنصبح دوداً . بعملية أو بلا عملية يستلوى عبيد الله . أما العمل الصالح فهو الباقى ، وبه تتفاضل بين يدى خالق الخلق » وتضايق عبد الجابر من هذه الفلسفة ، فقال بصصية : « كل يا عم تهلمى .. إحنا فى إيه ولا فى إيه »

والواقع أن عصبته كان مبيها أن مديوني عاد واحد يكلم حيلة ويعزى لها كيف اشترى لحم الرأس ، وكيف صمم ألا يكون الرغيف سائداً وطازجاً .

وقل أن يصبح عم تهاى اللقمة في فمه ، جله شخص يجري يقول . « البك وكيل النيابة » البك وكيل النيابة « وجاء العسكري يسحب (تهاى) ليأكل ، لأنه أصبح من المتوقع بين لحظة وأخرى ، أن يدعى للمثول بين يدي وكيل النيابة ، واعتذر تهاى عن الأكل قتلاً « والله . . . أنا مالي نفس » وأغلقت حيلة له في القول حينما سمعت الاعتذار ، وصممت على أن يأكل شيئاً ورأيت أن أصعد إلى حيث يقع مكتب وكيل النيابة ، في الدور الثاني كما قيل لي . وصعدت والصور المختلفة التي امتلأت بها حكاية عم تهاى ، وصور حياته ، وما وقع على باب المحكمة في الصباح ، وما رأيته في دار المحكمة ، وعلى باب قاعة المجلس . . . كل ذلك يتراحم على مخيلتي ويتدايع ، ولا يدع لي الفرصة التي أسأل فيها نفسي ، ماذا يطلب مني ؟ مألئى سأقدمه لهذا الرجل البائس التمس . هل سأترافع هل سأسكت . وقلت لنفسي إن شيئاً من هذا لم نتعلمه في كلية الحقوق وصعدت السلم ، دون أن أتبين أمي الخوض في عالم من الأحياء لا يجتمع عادة في مكان آخر ، ودون أن نتوقف نظري حالة المبنى الذي يعرض فيه أنه محكمة ، حتى رأيتني أمام باب مفتوح هل المصاريح يقف هل بأنه ساع أي حجاب ينظر إلى ناحية معينة ، نظرة المتوقع قدوم شخص فعلمت أن (البك وكيل النيابة) لم يصل بعد ، وأن هذا حاجبه ، فوقعت أنظر إلى الساحة التي التفت إليها الحجاب ، حتى هل وكيل النيابة . . .

إن لم أصدق حتى إنه يبه الإسكتلندي . . زميل في الكلية إنه يسبقني في الدراسة بثلاثة أعوام كان في اللبائس ، حينما كنت في السنة الأولى ، ولكن ظروفاً كثيرة جمعتاً سوياً ، منها رحلة إلى البلاد العربية — كما كنا سميها في تلك الأيام — أي إلى فلسطين ولبنان وصوماليا .

وأحسست بقلبي يكاد يقهر من صدمتي ، لأتدري فرحاً أم حزنًا فرحاً بأن المحقق من رملاتي ، ومن حتى أن أتوقع منه معاملة حسنة ، أو على الأقل ، أن يطمئني ويأخذ بيدي ، ويخبرني أن أخطئ أمام زميلي ، أو أن يلتقط

اضطرابي ، وعصبي وحجلا من أن يراى واقفا على يابه ، بينما يقدم هو تحيط به هالة السلطان والسيادة . وعلى الرغم من هذه المشاعر للضطرة ، فإننا في الواقع لم نكن سعيداً ، لأن أول وكيل بيانة أباشر عمل معه ، كان سبه بك الإسكندرانى . فلم يكن من الطراز الذى يعجبى . كان مفهومنا لنديا أنه من لوساط الناس ، ليس عبياً ، وإن كان مستور الحال ، ولكنه كان يصير على أن يسب نفسه إلى الأعياء وقد أعانه على ذلك أنه كان يمتلك سيارة سوداء ضخمة لعلها العنصر الوحيد الظاهر من عناصر الثروة . وكان يمرر هنا المعتصر ، بأناقة طقعة ، هملأه حرية دائمة ، فالشراب والمندبل والقميمى وربطة الرقبة ، صيفاً وشتاءً من الحرير الخالص ويقول زملاؤنا في الرحلة إلى البلاد العربية ، إن ملابسه الداخلية أيضاً ، كانت من الحرير الخالص وهو يتمطر بقطر عالى ، لكنها كانت في رأى ، ورأى أمثالى أنها لا تليق بالرجال . ولما كان من مظاهر العنى في أيامنا ، ومن علاماته ، أن يتكلم الأعياء الفرنسية ، فقد كان سبه يحاول جاهداً أن يلمحظ من هنا ومن هناك كلمات ومجملات ، كما لا يراها دليلاً كافياً لإثبات ثرائه . ولكن سبه أمر الأمر ، شاب طيب القلب مكسوف الأذى ، فهو من لا يمتد لسألهم ولا يدهم بالأذى وهو لا يمتاعى على رملاته بالقدر الذى يفرحهم ، مكتئباً بالقدر الذى يجعلهم يعتقدون أنه من دوى العلاقات الهامة ، فهو يعرف المشهورات والمشهورين من بات وأبناء المجتمع .

وكان نبيه بك طويلاً ، بادئاً بداية لا ترحل فيها . فلما هل رأيت طربوشه في يده ، تاركاً شعره الأسود يلعب لمعاتاً صناعياً ، الفضل فيه للمبرليانتيين وغيره من المصاحجون الذى كنا نسمع أحياناً عن اسمها ، دون أن نعرف شيئاً من شكلها أو لونها ، وبالتالي عن ثمنها وكان الطربوش في يده يجره إلى الأمام وإلى الخلف ، في حركة رتيبة ، تكاد تتفق مع وقع خطاه ، وبينما يتجه إلى مكتبه ، وقف على اليمين وعلى اليسار ليرى من اجتمع في الرقعة المؤدية إلى ذلك المكتب ، وهم بين عسكري يسحب ورامه صبيلاً في إحدى يديه الأغلال ، وفي اليد الثانية رعيغ عيش ، فوقه شيء من الملح ، وبين كاتب مغموم جمع ثيابه حسبما اتفق له فجاكتته حمراء ، ويطلبوه أروق ، وقميصه أصفر ، وربطة رفته لا تعرف لها لوناً ، وطربوشه قديم ، تدو عليه الرثانة ، ومع ذلك فهو مائل على جبينه وفي جبهه العلوى الضعيف سطل منديل بينما تطل من جيوبه اليمى واليسرى أوراق كثيرة ، ويضع تحت أبطه -

تأدياً - ملف أوراؤه الذى يقوم معلم المكتبة أو كاتب معلم ، يبدو أكثر ثراء أو أقل فقراً من الكاتيب العمومى ، فالتلذذ وإن كانت قديمة ، إلا أنها متجانسة ، فهو لا يحتاج إلى ادعاء الأناقة ، كما لا يحتاج إلى أن يكون فى مثل اللهجة والشاط والميل إلى التثرثر التى يكون عليها عادة الكتبة العموميون الذين يحتاجون إلى عرض أنفسهم على الزبائن من مطلع النهار . حتى ختمه .

وقوف مع هؤلاء ، رجال من مختلف الأطرقة من أصحاب الحاجات ، أو من أقارب المتهمين ، أو من الشهود للطلولين لأداء الشهادة ، منهم الموظفون وفرو الأهمية ، كموظفى الطب الشرعى وخبراء الخطوط ، ورجال المباحث ، ولا يسي القضاة والجلاليل ، والعاءات ، وبذلات العمل وقف هؤلاء جميعاً احتراماً لمقدم وكيل النيابة فلم يكن جالساً سوى امرأة يديعة ، اخترشت الأرض ، فى دائرة كبيرة ، يزيد قطرها عن المترين ، وقد جلس إلى جوارها طفل تمرى بصفه الأسفل ، وتعلق بساقها الممدودة ، كما يتعلق البستاني بجذع شجرة . وتركت الطفل على هذه الصورة ، بينما صمت إلى صدرها العارى طفلاً أحمر ، أسلمته ثديها ، فراح يستصره اعتصاماً ، وهى لاهية عن الطفلين معاً بحديث طويل استمع إليه بسوء كى جالست معها . ورجال كانوا واقفين يطلون على هذه الخليفة فيسمعون حيناً ويتشاورون حيناً حيناً آخر .

عجزت هذه المرأة البديعة عن المشاركة فى مظاهرة (الأدب) التى شملت من اجتماع فى الردهة المؤدية إلى مكتب البك وكيل النيابة ، فقد عاقبتها عن الاشتراك فيها ، بدانتها ، وبطء حركتها ، ومع ذلك فقد ساهمت بالقدر الذى استطاعت ، فترعت التدى من دم الطفل ، وسحبت رجلها الممدودة ، فسقط الطفل الثانى على وجهه ولكنه لم يبك ، لأنه أحس بحريرته برهة المناسة التى أسقطته عن عرشه الذى كان قائماً على سابق أمه ومع ذلك لم يسد الصمت كما يجب فقد كان فى الردحات المتصلة بهذه الردهة ، حروع عميرة كان من بين هذه الجموع ، بائع عرقوس يلقى فى يده دفا خفيفاً احتراماً للمحكمة إناء من مجلس ، لفتاً للنظر ، وكما كان هناك بائع حلوى وغطائر ، وكحك وسجائر وطوايع مربد وشطائر ، وجرائد وروائع ، ودلائل حيرات ومدائح . وهكذا وهكذا . . ولم يسكت كل أولئك بل استمروا فى صراخهم وصياحهم ، ويصيحهم ونجارتهم وألحاحهم وردهم ، وواصل البك وكيل

النيابة سيره إلى حجرته ، لا يبدو عليه أنه يرى الذين اصطفوا على الحائنين ، ولا يرد
لنحية لم رفع يده من الصاكر والموظفين بالسلام ، والمجيب أن هؤلاء لم يعضوا
حيثما تجاهل وكيل النيابة لمحتهم وأعطى عن سلامهم ، كان ذلك من الأمور الواجبة
الوقوف عليهم أن عيوا ، وله ألا يلتفت إليهم ، ولا يتم بهم ووصل وكيل
النيابة إلى حجرته متاقلا يبدو عليه شيء من الإعياء وعدم الارتياح ، حتى أصحنا
وجها لوجه

واشتدلت صريبات قلبي ، وأحست بأن وجهي شحبت ، لاصطرابي
الشديد . الباجم من حيرت العظيمة ، ماذا أفعل ؟ هل أحبه أم هل أنتظر حتى أرى
ماذا يفعل ؟ أم هل أتواري عن نظره حتى حين موعد قصتي ؟

ومرت لحظات ثقيلة على حتى تدخل وكيل النيابة مكتبه . إنه لم يرق إطلاقا أني
أنه لم يلحظني هل تعتمد ذلك أم أن ذلك وقع فعلا ؟ ولم يكذب يدخل وكيل النيابة
إلى حجرته حتى عاد إلى الحال المرحج والمزجج في الرعدة التي يقع فيها مكتبه استأنف
التشاكروني شجارهم ، وجلس الكاتب العمومي على حافة كرسي مكسور ،
لا مقعد له ، ليكتب عريضة كان قد بدأها ، ووثب الطفل إلى ساق أمه ، وعاد
للطفل الثاني إلى ثديها ، وهكذا دبت الحياة المتدفقة إلى هذه الرعدة . .

ووقفت أنا ، أنتظر دوري . . .

ولم يطل انتظاري ، فقد سمعنا حركة شديدة ، رأينا على أثرها مجموعة من
الرجال والأطفال كان وسطهم (نهمي) يتدفع مع التيار ، ولا يملك لنفسه حولا
ولا قوة ، ومهم ، الشاب الطويل ذو القوام اللدنه الذي كان يظل حادثة الصباح
أمام دار المحكمة ، وفي الخلف رأيت حميدة ومديوني ، وهيد الجاير ، ورأيت
« كايدهم » الشابة التي أكلت الطريق وأقعته ، حينما مستها عصا العسكري ،
وحيثما وقع نظري عليها ، تذكرتها كما تذكرت بطلات الفصص المسرحية والروايات
السيمائية ، اللواتي يقفن هنا ، فلما هدد ، تداعت هن ذكريات أدوار عميلة
لعينها ، وأحسن أدماعها ، وتبعث صورهن في عقولنا وقلوبنا الإعجاب . كانت تبدو
من خلف هذه الجماعة المتنافسة ، التي تضم أغماظا مختلفة من أبناء آدم ، معتزة

لا يبدو عليها أن شيئاً مما يدور حولها يتركها أو نال من كبريائها ، فلبت حملة رلى جوارها ، صئيلة صمغة شاحبة

وبدا الحاجب ينادى على المتهمين واحداً ، بعد واحد ، فدخلون فردى إذا كان لكل منهم قضية مستقلة ، أو يدخلون اثنين أو ثلاثة أو أربعة إذا جُمعَت قضاياهم واحدة حتى يوتى على (تهايم) مدخل يتعثر في خطاه ، وهو ينثو شيئاً من القرآن ، فيرث حملة من ورائه ويودها أن تدخل معه ، ولكن الحاجب دفعها ، وانتهرها ، فلم تعمل بانتهازه ولا تدفعه ، وقالت لأبيها في صوت قوى ، يفيض ثقة وثبات ، « ربنا معاك » فتحت أبوها « اللهم آمين » ، ودخلت من حلقة ، وكان أبا الذي سيقف بين يدي وكيل النيابة موقف الاتهام

رأيت رملي السابق خلف مكتب صمبر ، ليس به من جلال القضاء قليل أو كثير ، في حجرة صمغة ، يغطي أرضها شيء لا هو بالبساط ولا بالكليم ، ولا بالسجاد . اختصت ألوانه ، وانتشر على سطحه بقع سوداء وبسة ، وثقوب صغيرة وكبيرة ، وتوزعت فوقه أعقاب السجائر طويلة وقصيرة مصرية وأجنبية وصفت على أطراف هذه السجادة ، وذلك البساط كراسر صمغة من الخلد ، كانت في قدم السجادة ظهرت تحتها أجزاء من الأسلاك الحامسة والزبركية التي كان مفروصا ، أن تجعل الخلوس على تلك المقاعد مريحاً ، فنامت على مر الأيام تحت ثقل الحامسي من الأوزان المختلفة ، ولم تسعفها يد بالملاج أو الترميم أو الصيانة فزدات من قبح الحجرة وسوء منظرها ، ولم يبق في هذه الحجرة ما يستحق أن يذكر سوى مقاعد من الخيزران ، بعضها قديم جداً ، ربطت أحزله بحبوط من القصب « للدوزنة » أو بأسلاك ، ويررت في نواحي منها ، مسامير تهدد الحامسي ، إذا هوى بالخلوس أما ما كان منها حديثاً ، فقد بدت لمعته وبريقه ، شيئاً غير متنسق مع القدم الذي يشمل الحجرة فكأنها أثاث حديث ، في متحف للماديات والقطع القديمة وعلى هذه المقاعد ، جلس من عرفت أهم من رملاتي المحاميين يتحدثون بعضهم مع بعض همساً مسموعاً ، قلما دخلت صوت بعضهم منظرهم إلى في غير اكتراث ، فحرت هل أحیی ، لم أن المقام ليس مقام تحية أو سلام ، ولكني قلت مدعوعاً بمعادى « السلام عليكم » فلم أسمع رداً وانجهت إلى وكيل النيابة . فركبته قد وصح على أخته سماعة آلة تليفون سوداء طويلة لها يد ، وكان يتكلم بصوت خفيض ، وحين شففيه

مصحارة تهرز مع كلماته اهتزازاً مستمراً ولم يكذب فرغ من هذه المكائلة ، حتى دفع (التليفون) فرغ السماع في استرخاءه وتكاسل ، ورد في فتور وإهمال « أبوه » ولم يطل حديثه هذه المرة ، إلا أنه مد أصبعه إلى قرص التليفون ، وأخاره خمس مرات ونشبت في الحال مكائلة حية ، كان يقطعها بين الحين والحين ، صيحة طويلة وقفت أثمل رصيل نبيه ، وأثمل في الوقت معه موكل (نهامي) الذي وقف لا ينظر بين ولا يساراً ، وكأنه ليس من حقه أن يرى شيئاً عما يجري والحق أني حسدت رصيل ، لا هل منهبه ، ولا هل الكرسي الذي يشغله ، قلبي لم أرفى حجرته مظهراً واحداً من مظاهر السلطان . وإما حسدته على ثقته بنفسه ، وهو مستريح في كرسيه ، والسيجارة لا تغرق شفته ، وفلم الحبر الأحمر في يده ، ووجهه يلعب لمعدنا شديداً بنافس لمعان شعره وآيات الدعة والراحة وخطو اليال تنطق في كل تقاطيعه

ومد يده إلى المحضر ، الذي أحضره معه العسكري الحارس لنهامي ، فقلبه بين يديه ، وأجرى عليه عنه بسرعة أدهنتي وكان بين الحين والحين يضع خطا بالأحر ، تحت كلمة أو سطر أو عبارة ، لو يرسم صليبا عند موضع يراه مهما حدث أن توقف مرة أو مرتين ، فأعاد فراءة سطر أو سطرين سبقت له قراءتها ثم قلب المحضر ، وعلى ظهر إحدى صفحاته : كتب شيئاً بقلمه الأحمر ، ثم نظر إلى نهامي لحظة لم ترد عن ثانية ، وقال . أنت قتلت الرجل . ٩ .

ولم يرد نهامي ، وكتب وكيل النيابة شيئاً ثم عاد يقول له بصوت أصلي :
ما تقتلوش ..

وقبل أن يجيب نهامي قال ، وكيل النيابة ، لماذا لم تتخذ الاحتياطات اللازمة ، فتسببت في قتل مصيلحي عبد الرحيم .

وتبها نهامي للرد ، فإذا بوكيل النيابة يقول له بالعامية ، يقولوا إنك ما عملتش حاجة عشان الناس األ في الشارع ما يموتوش . وأنتك راجل كبير ، وقديم في الشغلة ، ورئيس عمال ...

وضح نهامي فمه وبدأ يقول : والله يا سعادة ناليه .

فإذا بوكيل النيابة يكتب بالقلم الأحمر بسرعة ، لا أنا عملت الاحتياطات .

ورفع وكيل النيابة رأسه وقال : حد من الأساتذة مع المتهم ، فقلت في صوت متعثر
مخنوق : أنا !

ونظر بيته إلى في عطفه وقال : حضرتك وفجأة تبين أنني زميله فقال : انه إزيك
بحسين مبروك باراجل حتى أول قصبة إني خاينا شوقك كبير

وتصورت أنني سأستطيع أن أurd على هذه المجاملة ، فإذا وكيل النيابة يقول
للعسكري خذ كماله ٢ جيه ، وسحب العسكري نهامي ، وقطع الباب ، وأطلقت
في الحال رغايد كثيرة وعجبت لكثرتها لاني أعلم أنه لا يوجد مع نهامي سوى ابنة
حميلة ، وسمعت وسط هذه الرغايد أناس يقولون : إخراج . إخراج .

وهم وكيل النيابة بالوقوف ، ولكنه لم يفعل واكتفى بأن مد يده المغطاة بحوي ،
وصالحني ولم يكذب بسحبها حتى صفق بيده وقال : لك حاجب إلى بعده .

ورأيت نفسي خارج عرفة المحقق ، وحيداً لا يسأل عني أحد ، فقد أسرع
العسكري بنهامي إلى كاتب النيابة ، لاتخاذ إجراءات الإخراج بعد دفع الكفالة
وأسرع حلف العسكري عبد الحار ومديوني ، ومن خلفهما حميلة ، وبعد لا يحصى
من الأشخاص الذين كانوا في الردهة . وقفت وحيداً والرغايد لا تزال تترن ، تصدر
عن نساء تبعثن في أنحاء الردهة والردهات المتصلة بها ، ظننت أول الأمر أنني من
أقارب عم نهامي جيش دون أن أدري بمجهنهم ولكنني عرفت فيما بعد أنهم لاصلة
من بعم نهامي فهو لا يعرفه ، ولا يعرف قضيتي ، ولكنني تبرع بالرغايد ،
مشاركة له المتهم المجهول الذي من عليه الخط بالحربة ، فهو في واقع الأمر
(صانعات) يجهن أن يشارك السعداء عظمهن

ولم يكن ثمة بد من أن أنصرف فرحت أجر ساقى نائهاً ، والرغايد فلا
أذن .

في المحكمة

عدلت إلى يميني ، وقلبي مثقل بهموم لأحرف لها مسياً ، ولا أدري لها طبيعة .
كان اليوم بالنسبة لي حافلاً بصوف من المشاعر والوثائق من التجارب لم يسبق لي
أن كانتها فمتد الصباح ، وأنا أثقل على جرة من القلق والتوقع . ومنذ الصباح
وأنا أشهد وأسمع وأفعل ، وكان طاقة قد فتحت على حياض وتدفقت منها المشاعر
والصور ، وتدفقت الشخصيات والجماليات
إن مشاجرة الصباح أمام المحكمة ، تبعثها قصة طويلة حافلة رواها هم تهامي
بأسلوبه ، جاء في أثرها التحقيق والإفراج ، وأحيراً الوحدة المطبقة .

كان الشعور الذي وإن على صدرى كحجر ثقيل ، أن لم أفعل شيئاً مع أن
الجميع كان يحسبوني فارس الميدان ، ويطل الموقف لم أفتح فمي بكلمة ، ولم أمد
يدي بمساعدة . حميدة كانت تواسي وتستهث أبها ليتكلم ، مدبوني ذهب ليحصر
طعاماً ، وعدد الحابر كان الموجه والمشرق وعم تهامي قص قصته الطويلة وأنا كنت
أسمع وأشاهد ولا شيء بعد السماع والملاحظة

ولما دخلت حجرة وكيل النيابة في اللحظة الخامسة ، التي يتحرر فيها مصير
(تهامي) شعلت بالتأمل في الحجرة ، والتأمل فيها وفيه كان في الحجرة . شعلت
نفسى ، حتى أخرج من المتهم ، وخرج الناس فرحين وانطلقت الزغاريد .

هل يتصور عبد الجابر أنني عملت شيئاً ، هل تمتد حيدة أن الإفراج عن أيها
كان بفضل وجودي . . ؟

دع عنك عبد الجابر وحيدة ونهامي نفسه ، فهل أستطيع أنا أن أدخل إلى نفسي
الاعتقاد بأن لي يدأ في شيء مما حدث ؟ ترى ماذا يقولون عن ناهم يندمون على أنهم
استعانوا بمحام صغير لا خبرة له ، ولا كفاية . أم ترى أن فرحة الإفراج أنستهم
كل شيء ؟ أم تراهم قد كشفوا منذ الصباح عجري وقلة حيلتي ، وشدة حيلتي ،
فاحتملوا بصبر ، ما قدره الحظ لهم ؟ أتكون العبارات القليلة التي وجهتها إلى حيدة
مجرد حسن أدب منها ، تخفي وراءها حية أمل كبيرة .

ونشط خيالي هل عادته قصور لي أموراً هائلة ، أحسنت معها معرفتي ببارد معلو
جبهتي . فجلست جامداً في مكان ، لا أتحرك . . ولكن رحمة الله تداركتني ، فقد
طرق الباب ، فقلت وأنا أدعو الله ألا يكون القادم رائراً وأن يكون من الطافير
الذين لا يتجاوزون عتبة الباب من مثل ساحي يريد أو ياتع لين ، أو يحصل مياه
أو كهرباء . وفتحت الباب ، لأرى نفسي أمام نهامي ، ومعها ابنته حيدة ، وعمل
شفني الرجل ابتسامة عريضة نكاد نغطي كل وجهه ، أما حيدة نفسها ، فقد كانت
ابتسامة حية ، تشع بهجة وسروراً وسعادة .

ودخلا معاً ، وكأنيما ، يدخلان بيتاً يعرفانه من طول ما ترددا عليه وزاراه وأخذ
الرجل يدعوني دهال مصلاً ، أما حيدة ، فقد فعلت ما لم أكن أنتظر أو أتوقع ، فقد
انقربت مني وقبلت كفتي الأيمن ، ثم رست يديها على ظهري ، في مودة وبلا كلمة ،
فاهتزت بشدة القبلت التي لم تتجاوز طرف ظاهري النوب .

انطلقت إلى حدوي السرور والسعادة ، فرأيت نفسي سعيداً ، ورأيتني مقبلاً
على نهامي ، أكاد أقبله ، وأحسنت أن أقبه من حيدة وشمرت بأن عقلت
لساني قد حلت ، وأني قادر على أن أقول هذا الكلام الفارغ الذي يقال عادة في مثل
هذه المناسبات ، فيفرح له الناس ، ويفخيمهم عن التفكير في شيء أكثر عمقاً ،
يتناسب مع الموقف .

وجلس هم نهامي يروى لي ، ولايته ، كيف تصرفت في الدفاع عنه ، فيروى

أموراً بعضها حدث فعلاً ، وبعضها لم يحدث ، وبعض ما حدث وما لم يحدث ،
 التفسير الذى يجعلنى فى نظره عاماً كثيراً ، يرجع إليه فصل عودته إلى الحرية . قال
 لاسته إنى دخلت ، فتوقف وكيل النيابة عن الكلام فى التلهمون وهذا بالفعل حدث ،
 ولكن لم يكن مطيعة الحال سوى مصادفة ، ولكن الرجل الطيب اعتبر ذلك احتراماً
 لى . وقال إنى حصلت وحيداً مشرع للحق فى القضية فى التو ، ثم تير من أنا ،
 فقام حياً ورحب ، وأطلق سراحه ، وبكلمة صغيرة مع أن جميع الذين أخرج عنهم
 فى ذلك اليوم لم تقل كفالة الواحد منهم عن ثلاثة جنينيات . وإنه حينما أطلق سراحه
 أحد جميع الواقين يسألونه من لسمى ، فأعطاهم إياه ، وتبرع عبد الجبر بثناء جم
 على خلق واستقامتى ، وحسن معاملتى ، وتنافست معه حيلة ، فذكرت لم أنى لم
 أقض منهم حتى الآن ملياً واحداً ، مع أنى لست قريهم ولا جارههم ، ولا صلة لى

٣٣

كان الشعور الذى سادنى وأنا أستقبل تهمى ، وأبته شعور سرور مطلق ،
 ولكن ما كذا يتكلمان حتى أخذ سرورى يضحف ، وإن لم يزل فقد رأيت أن كل
 ما تصوره هذا الطيبان ليس سوى حيل لا صلة له بالحقيقة ، فلم يعد من حقى أن
 أفرح ، إلا بعودة تهمى إلى بيت ، لا لأنه كانت لى يد فى هذه العودة ، بل لجرد عودة
 الحرية إلى رجل تعذب وأهين ، بغير جريمة أو قنب .

ودخلت إلى داخل منزلى لأدعو (عبده) ليقدم للضيفين شيئاً فلما عدت
 لاحظت عليها ارتباكاً ولكن علائم هذا الارتباك زالت من وجه حيلة ، وحل
 محلها هرم شديد ، فكأنما عقدت إرداتها هل شىء . ها كنت أدخل حتى مدت يدها
 مطوية بشىء إلى يدي . وأدركت ماذا تعنى هذه الحركة ، فلم أخرج لأول مرة ،
 حينما حاول عبد الجابر أن يمس فى يدي جنينها ، فقد كانت المحلولة الأولى تطعما لى
 ضد الانزعاج فانتمت انتسامة كانت ملا شك حرية لأنها عبرت عن كل ما رسب
 فى نفسى من متاعب اليوم العصيب

وقلت لحيلة لم المعجلة . . القصية لم تته فسيحطد لها جلسة

وفى الوقت الذى أخذ فيه تهمى لهذا الكلام ، فقال مستكراً على الرغم من

هذوته (جلسة !) قالت ابنته أنا عارفة لكن ما يصحش نتحك كده على طول . . . وعلى كل حال دول مش مقامك . . . »

وفهمت أن يد حيلة انطوت على حبيبين قدعت يدها برفق ، وأنا أهر رأسى علامة الرهسى ويد حيلة تأبى أن ترد ، وحيدة نفسها بقيت مصممة على أن تعطي الحبيبين في إصرار تعمره بعبارات مختلفة ، نواتيها بها قريحتها ، فتارة ترجو ألا أحجلها بهذا الرفض وثانية ترجو أن أقبل إكراماً لها ومن أجل حاطرها أو من أجل شبة أبيها الرجل المنكسر أو أن أقبل حتى لا يظنوا أن رفضي استصعاب للبلغ أو احتقار لهم . ولم تؤثر على هذه العبارات كلها ، وإن كان إعجابي بهذا اللسان اللدرب الفصيح الذي تعمره ملاحظة وجه بسيط سادج يردد على مر الثواني والدقائق .

وانصرف الرجل وابته بعد أن شربا (شربتا) وحطوت إلى نفسي ، فاستلقيت على كبة وأحلت وحلى أتلعل في سقف الحجرة .

لقد كسحت لنفسي جانباً في المجتمع لم أكن أعرفه ولم أتصور أن له وجوداً .

لقد كنت أتصور الطريق إلى النجاح شاقاً مليئاً بالصعاب والعقبات ، وأنه كله جهد ومثابرة ومعاناة ومكاشفة ، يظهر لي أنه شاق بالفعل كما ظهر لي أن هناك طرقاً جانبية أو حلوية تؤدي إلى النجاح ، وأنها سهلة مذللة ، تكاد تكون مفروشة بالورود والرياحين .

كنت أحسب أن سبيل الإنسان للنجاح هو عمله وعقله وكفايته وأن الناجحين هم فقط الأكفأ الموهوبون الحادون قيدا في عمل ضوء كلام عم (نهامى) أن الظروف تنسب للناس أموراً لم يأتوها وتخلع عليهم صفات لم يتحلوا بها ، وبمبهم قوى لاحق لهم في استعصامها والاعتماد عليها .

إن مقالته نهامى ليس سوى مجرد بصيص من ضوء في ظلام حالك لقد فهمت أن في الإمكان أن تنتقل الأكاسيد أكاديم ومفتريات تجميل من الصغار كباراً ، ومن دوى العجور ، موهوبين وأكفأ ، واستولى على انقباض شلشد وذكرت أموراً لم أفهمها في الصباح بل في الاستوقفى .

ذكرت كيف كان التافس شديداً على إشعال عود الكبريت ، لحصرة وكيس
الببابة ، فلابد أن يكون ادعاه حسن الصلة به ، أمراً مطلوباً بوصفه سيلاً إلى
النجاح .

لم يرد عند المحامين اللذين حاولوا التلطف إلى وكيل الببابة على هذه الصورة ،
عن واحد أو اثنين ، وقد استعدت الآن كل ما حدث في الصباح فذكرت أن سائر
إخوانهم ، لم يكونوا راضين عن هذا الأسلوب فهدأت حتى قليلاً ، ولكن لم يكن
في الوسع أن أنزع تمام النزاع المؤذى الذي تركته هذه الصورة في نفسي

كان الأمر قبل هذه القضية ، وقبل سماع مقالته (عم تهاى) مجرد التساؤل
عن مدى استعدادي للمعاملة كمهنة ، ولكن بهذا الكلام ، الأمر أمر اختيار طريقتي
في الحياة ، وأسلوب في الكلام ، أسلوب الصدق والاستقامة ، وأسلوب التصح
في أصحاب السلطة ، والجرى وراء المتعبد ، والتظاهر بما ليس فيّ . وبدلاً من أن كلا
الطريقتين ، شائلك وأن الحياة بهما لن تكون سوى مريرة . واشتدت موجة التشاؤم
على نفسي ، ولشدة دهشني رأيت ملاكئ الخارص قد أبطأ في مد يده إلى على عائدته ،
علم ينقلني ولم يلفظ شدة شعوري بقتام الحياة نعم لم يخف (حبال) إلى
إنقادی . أوله عرض خدماته على فأبنتها فقد هر على أن أمر من هذا الواقع ،
إلى تصورات وخيالات وصممت على أن أواجه هذا الواقع ، مواجهة التصميم
والعزم ، ولا أجعل من هذه المعركة الحاسمة ، مهزلة يسق لي حبال فصولها ،
ويسد إلى فيها دور بطل من طراز دون كبشوت ، يضرب بسيفه في أعداء وهميين ،
فيختمهم جراحاً ويأخذ عليهم جميعاً .

استلقيت على ظهري ، مطيلاً النظر في سقف الحجرة ، مفكراً تفكيراً يعطب
عليه الحزن والانتفاض ، ولست أدري كم ساعة انقضت على وأنا على هذه الحال .
ولكن الذي أدريه ، أنني قمت لأنظر من الخافذة التماساً لشيء من الهواء النقي
المنعش ، فرأيت الحركة في الطريق قد خفت والظلام قد ساد المدينة ، فوقفت أمام
النافذة تاركاً لخواطري العنان .

هل حسرت في تلك الليلة أم كسبت ؟ لست أدري ، ولكن الذي أدريه أنها
كانت ليلة حاسمة قررت فيها اختيار الطريق الذي أسلكه لا في المعاملة وحدها ، بل

في الحياة كلها . هل أصبت هل أخطأت ؟ لا أستطيع أن أقول شيئاً ذلك لأن
القرار الذي انتهيت إليه لم يكن قراراً محدداً لنمى تلوم عليها ، إذ لم أصمم على
شئ بعينه ، ولكنني شعرت بأن الأمور قد اتضحت لي ، إذ فهمت طبيعة للمركة
التي أنا مقدم عليها . .

وبعد وقت لم أقسه بالساعات ، واللفظ أحسست بحاجة إلى النوم فذهبت
إلى فراشي ، وأنا أشد إدراكاً لوحدي في الحياة .
ولما استيقظت ولّيتي خلقاً جديداً .

فلست أنا هذا المضعف الوحيد الذي لا رفيق له ولا هادي معه أو مرشد ،
ولست أنا المشفق من المستقبل الخائف من المجتمع المثله احتقاراً لأساليه ، أنا
مجرد إنسان ، يستقبل يوماً جديداً ، لا له ولا عليه احتمت من نفسي كل خواطر
وهواجس الأسى ، ولعله مما أعاني على ذلك أن القصة لم يكن قد حدد لها موعد
بعد ، فلم أكن مطالباً بالتعكير فيها إلى أن يحدد هذا الموعد .

ولكن القصة أثبت أن تدعى . فإذا كان عدم تحديد موعد لها قد أعفان من
التعكير فيها ذاتها ، فإن جو القصة أي أن يعفني منه ، وأصر أن أعيش فيه ، وأن
يتيح لي ألوانا من التجربة ، النعبة تصرع على تلك القصة وتتصل بها .

في ذات مساء ، كنت أطلع كتاباً ، وأنا رضى البال هادي النص دق جرس
الباب وذهب (عبده) ليرى من الطارق ، وسمعت حديثاً بين الطارق وعبده ،
يتخلله ضحك ، وضحك (عبده) من الأمور النادرة ، فاستشرت خيراً ، ولست
أنتظر دخوله عليّ ، وإضاهه إلى باسم الزائر ولكن الحديث قد طال فقممت لرى
بنمى ماذا هناك ، فإذا عبد الجابر واقف وسط الصلاة متهلل الوجه ، وتلتقط أدنى
طرما من الحديث ، فأعرف أن عبد الجابر يداعب (عبده) ودعابت تلور حول
(العروسة) التي يراها لا تفتة بالأسطى عبده ، وأن الألوان قد أن ليكمل عبده نصف
دينه ، بشرع الله وصلة رسوله .

والمصدق أدنى فأنا لأعرف أن لعبه صلة بعد الجابر ، ولا أعرف عنه ، أنه

يتوسط مع الناس ، إلى الحد الذي يسوع لهم أن يموسوا في أحاديثهم معه ، هذه الحوائط عبر المطروقة من الحياة ، من مثل الزواج والعروسة .

فلما رأى عبد الجابر ، أحضى ابتسامته ، وغير حديثه ، وأقبل على يرحب ويحيى فأحسست أنه في غير حالته العادية ، وكذبت أتهمه بأن ثعلب ..

ودخل معى في الحجيرة ، ولخرج من جيبه أوراقاً مطوية وقال : الاطلاع . ولم أفهم ماذا يعنى فلم أكن قد عرفت بعد ، أن ملف القضايا ، يسمى اصطلاحاً : بالاطلاع ، هل أنه لم يمشى مشقة الاستفسار فقد أصاب : اطلعنا على القضية ومركزنا متين والحمد لله المعانة أثبتت أنه لم يكن في إمكان عم بهاس أن يرى المتهم ، ولم يكن الاحتياط أيما كان بوجه قلداً على إنقاذ المحنى عليه ... إنه قضاء وقدر يا أستاذ والحمد لله على كل حال

وأصكت : الاطلاع ، وقلبت في يدي ، فوقع نظري على خط قبيح اتبع من خطي الرديء لا تكاد تحمل رموزه إلا بمشقة وقد كتبه كاتبه بالقلم الرصاص حيث : وبالقلم الكويبة ، حيناً آخر ، وحير لا تعرف له لوثاً فيه خصرة ورقة وسواد حيناً ثانياً

وحاست معى التفاتة إلى عبد الجابر فهذا وجهه كله في الأوراق ، يتأمل السطور ، ويقرأها وكأنه يقرأ قصيدة فقلت له : هل يسجك الاطلاع . ؟

فقال على الفور : جفأ .

قلت : مالذي يعجبك فيه ؟

قال : براعة . براعة إن شاء الله والبركة إليك على كل حال

قلت ، وأنا سعيد بهذا الجو الذي أحاطني به عبد الجابر : أين هي البراعة؟

قال ، في كل سطر . ومد يده إلى الورق ، وأخذ معى ، وجعل يقلبه في عبر انتظام ، حتى تناثر وسقط بعضه على الأرض ، فلم يلتفت إلى ما سقط منه ، حتى وقع على شيء كان يبحث عنه ، فقلعه إلى وقال : انظر ودققت في الورق مشدة ، فقرأت : حصر مع المتهم الأستاذ حسين القويسري . فقال :

أرأيت .. ؟

معهم رأيت

هاهو ذا اسمعى في أول ورقة قصائدي ، وكأنما كان مرأى لهذا الاسم أصعباً امتد
إلى حرج كاد يلتهم ، فحطت عنه نديته ، وتمعى ، وترقرق الدم على
سطحه لقد عادت إلى صور ذلك اليوم المشهود دفعة واحدة رأيت ردهه
السيابة برحامها ، وصحيحها وعجيجها ، وهرجها ومرجها ، وأطعها ورجلها
وصدحات العرج ، وصرجات الألم ، والبيع والشراء والشد والحذب ، والصنيع
والركل رأيت رميل (بيه بك) يتقدم في ابتداء وثقة ، والكسبة العموميون ،
كالثراان الصميرة بطرايشهم المقدية ، وثيابهم العتيقة ، وأقلامهم تحت آذانهم
وأوراقهم تحت أناسهم حد كل شيء بمرلته ، محالوفه ، وفي قاع هذه الصورة
(كايدهم) بقوامها وحطوتها الثابتة ونظرتها الأسرة ، وحينئذ بحيويتها وسداجتها
ولت عبد الجابر ، أن حرك هذا الألم الملتصق ، والظاهر ، أن إلى بدا على وجهي ،
لأن عبد الجابر استصرق شيء من العزع فيه إيه ؟

واستعذت نفسي من ذكرياتها وقلت : لاشء ..

فعاد عبد الجابر يسأل عما إذا كنت وجدت في الورق مايرجع قطماته بقولي
أبدأ ..

ولكن ألفرد وضع على لسان كلمة ، كأنما كانت السر الذي يفتح المعلق ،
لقد سألت عبد الجابر : الظاهر أنك أحبيت الفضية . فقال بلا تفكير وبحماسة
بالغة : جداً .

فابتسمت ابتسامة حزينة وقلت : جداً هكذا دفعة واحدة . ما الذي
فيها ، حتى تحبها هكذا ..

فألقى عبد الجابر لهذا السؤال وقال : الراجل غلبان ومظلوم و . ولست
أدرى من أين جاءتني الشجاعة التي جعلتني أقول :
ويته ..

فأكمل من حيث لا يدري : ويتماهلان غيره
فقلت ، وكأنما سكبت سائلا كأولاً على جرح جديد أليس مبدؤي
حظيها .

فكاد يصق على الأرض إظهاراً للاشمئزاز ، لولا أنه رأى الكلبم عن أرض
الحجرة فأشفق أن يلوته ، فظاهر باليصق وروى ما بين حاجبيه . وقد شمت
عصية حاول إحصاءها ولكنه لم ير سبيلا لهذا الإحصاء إلا أن ينعت مذبول بموت
فيحة خلاصتها أن ظفرها يساوي رقبته . .

والظاهر أن ابتعادى عن جو القضية ، أسبع على أعصابى هدوءاً مسيحى ذلك
الهدوء الشجاعة التى يسرت على الخوص فيها لم يكن ممكناً أن أحوص فيه أو أن أقرب
منه ، لو كنت مضطرباً أو مشحول البال فسألت : ولكنها ترصده لها روجاً ، فقال
متدفعاً بلا تفكير : من قال ذلك . . . أبدا . . . غير معقول . .

قلت : وما الذى يحملها على أن تقيله !

فقال متدفعاً أيضاً : قريها . . وهى .

وكاد يلعبها فى ثورة انفعاله ، ولكنه أمسك ونظر إلى طويلا ، وكأى يود أن
يحد عندى ملجأ يفر فيه من نار الآلام التى تشتمل فى صدره ، وتطارده ، والحق أنى
أصبحت بفصل هذه القضية أشبه شىء بالفيلسوف فإن الظروف ألقت بى دفعة
واحدة فى تجربة كاملة ، رأيت فيها حوام لم أكن أفرعها ، ولا أفكر فيها ، وانتابنى
خلالها مشاعر وعواطف ، كانت من القوة والحدة بحيث بقيت نفسى رأساً على
عقب ، ووضعت على عاتقى مسئوليات لاتلقى على عاتق شاب ، فى مثل حرج
وابتعادى عن الناس ، إلا تدريجياً وعلى مهل .

لهذا كله ، رأيت من نفسى ميلا شديداً إلى مواصلة عبد الجابر والوقوف بجانبه
فى هذه المحنة التى كانت آلامها مسطورة على وجهه . وأمثلة من الخجولين يحسون
النصح ، لأن هم ميلاً إلى تحليل الأمور ، أكثر من ميلهم إلى ملاصقة الناس
والعامل معهم إلا أن يتمرسوا بالعمل فتترب إليهم تقهيم بأنفسهم ، ويحجب عنهم
صعق الخجل .

قلت له : لماذا لم تصلحنى .

وتلفف عبد الجابر سؤالى هذا كأنما هو طرف الجبل قد ألقى إلى غريق ،
فنهض : أصابحك ماذا ؟

فاستمرأت شعاعتي المقابحة ، وقلت له :

حيلة تمجيك ..

فقاطعتني ، أليست بنت حلال ؟

فانسمت مشعقا عليه من حسبه ، ومن محاولة حداثي : ليس هذا كل ما في

الامر .

فأطال النظر إلى عضلات وجهه ترتعش بعصية بالاستناد

فقلت . وغايي أن استدرجه للكلام ، والبوح بما في نفسه . ماذا ؟ فقال

لا تظلمني ..

وقررت أن أمد يدي بمجونة كاملة ، فقلت له . لا تحب عني لقد لاحظت
اهتمامك بها نظرت إليها ، وجذبتك إلى جوارها ، فلماذا ظهر مدبولى أريد وجهك
وعلاؤه فقام شديد .

وأطرق عبد الجابر برأسه ، وغص بريقه ، ثم قال . هذه هي الحقيقة .

ولكن كيف كشفت هذا كله . أكانت عواطفى مفضوحة إلى هذا القدر .

ثم . ثم ..

ومسكت .

فقلت .. ثم ماذا ؟

قال . لا تؤاخذنى .. لقد ظننتك أصغر من ذلك بكثير أنت في الحقيقة
والعشرين على الأكثر .. وأنا أكبر منك عشر سنين على الأقل . ولكن باسم الله
ما شاء . هذا بوضوح كبير مكر . وقلت وأنا أضحك من هذه المجاملة : ليس لي
فضل فقد كان كل شيء ظاهراً .

فصرخ الرجل : سترك .. اللهم سترك ..

وبعد أن مسكت قليلا قال . ولكن يا أستاذ أنا لم ألحظ عليك أبداً اهتماماً بها ،
ولامراقبة لحركاتنا .

قلت له . أنا لم أرقب شيئا . ولم أهتم بشيء . كنت أرى فقط وأسمع ولم
يكن في وسعنى أن أعمض عيني ولا أن أمد يدي .

فقال الحمد لله أنك لم تفعل . فأنا في حاجة إلى مصيبتك فقلت وأنا أريد أن أعاته نصيحتي أنا . . وأنا هونك من بعشرة أعوام ، ولا غيرة لي ولا قدرة على فهم هذه الأمور .

فلوح عبد الحار بيد عمتها على هذا الكلام قائلاً أنت لا تريد أن تصاعدي صدقي أمي أحببتك منذ رأيتك ، لا أدري لماذا . أنت تتعاشي الناس ، ولا تتحدث معهم ، ولكن إذا أقبلت ، عاينتهم كأنهم أصدقائك من زمن بعيد . وأنتم بالله ثلاثاً ، والله على ما أقول شهيد ووكيل إن عم هلمي أحبك

فسألت معاً وحيمة

مرحب بالسؤال وقال . أكثر بكثير . إنها تدعوك في الليل والنهار

وأحبست بوح صميري ها ، لأن كنت أعلم أن هذا الدعاء ليس من حق ، ولكني جرت الخديث فليس فاسترسلت في مداعبتها قائلاً هذا دعاء أظن أن السماء تمنح له حقاً فلم يلتفت إلى ما صبت ، وتعلق بقوله حقاً طبعي بنت حلال عيانة .

فقلت له دع عنك (بنت حلال) هذه هي ليست بيت الفصيد في الموضع وقل لي ماذا تريد مني

وأطرق عبد الحار ، واصمأ كفيه مبسوطين على ركبتيه وكأنه وقع في ورطة لاحتلاص منها . وظفرت إلى وجهه في هذه اللحظة ، فدا لي كأنه قد كبر عشرين عاماً على الأقل دفعة . كان وجهه فاتحاً وجيئة مقطباً ، وعيابه انطفا منها بوجه الذي كان يجمل طلعتة إلى مثل طلعة الصبي الصغير وبعد قليل قلب كفيه وقال . والله لست أدري ماذا أنا فاعل . أمر بنجل .

صربت على كفه ، وكان قد أصبحت أكبر منه ، وأدري بشئون الدنيا ، ولست أدري ما الذي جعلني فعلاً أحسن بأن أصبحت منه بمثابة الكبير من الصغير ، والقوى من الصغير أيتكون الإنسان الممتحن ذاتياً ، مألعا ما بلغ منه أو مقامه ، أصعب من الذين لا يشكون من الحياة ومتاعها ، والمحس ، وإن كانت تزيد الناس

تجربة وفوقهم على الحياة ، إلا أنها عند مرورها بهم تتحصى من أقدارهم ، وتصعب
من قواهم ، وتجعلهم في الحاجة إلى العون وإلى النصيح

عابة الأمر أنى رأيت عند الجابر صعباً كقطيل ، ففتحت له قلبي وقلت له
لا تجعلك أنت تحب حيلة

فقال ورأسه تكاد تكون فوق صدره نعم للأسف
فقلت له : وماذا يدعو للأسف .

مرع وجهه إلى ونظر بعينه الصغيرتين في وجهي مندهشاً ، ألا ترى الفرق بيننا ؟
وفهمت الأمر سداجة فقلت لست أكثر منها بكثير

فقال وقد صدم سوء فهمي ، باليت الفرق فرق مس ، كان الأمر بين
ابن أكبرها بعشر سنين أو أكثر قليلاً أكثر من ذلك يستين أو ثلاثة ولكن
الفرق ... ف ... في ... إل . .

وفتحت عيني مأخوذاً بهذا الكلام وقلت في أى شيء ؟

فأحابت نظري ، وبيرة صوقي ، عند الجابر وقال مرتسكاً ، وهو يمشي
بالألفاظ .. في المكانة الاجتماعية ..

وكأنما لدعت ، فقد بدت من صدرى صرخة من حيث لا أدري ولا أحسب
أنت تقول هذا يا هبذ الجابر أفندى !

فقال وقد فرغ فله ، ورجع إلى الوداء وقال . هل عصيت ؟
ولت بعسى على تسرعى وقلت محمياً ملق بعسى أبدأ أبدأ تقول
الفرق كبير بينكما اجتماعياً ..

وأجبل هذا الكلام عبد الجابر فقال مصححاً له ومتداركاً مانس منه . نحن
على « أد حالنا » ولكن لا تؤاخذنى مهما كانت الأحوال فأبوها عامل وأبنا
صحيح نحن قوم هراء ولكن بأستاذ أنا مثلاً بلا مؤاخذه والذى صمعة
أحى ماشكاتب ، وابن عمى مكمور أوقلف . . .

وصمت طويلاً ، فلم أقاطعه ولم أعلق على كلامه ، وأحسن هو بارتباك شديد .
 ولم بعد فحراً على أن يستأنف كلامه . وعاطفي من نفسي أن تصرفت منه على هذه
 الصورة ، ولم أدرما اللئى حصرى على أن أقول ذلك وأحسبت أنني بهذا التصرف ،
 أبعدت نفسي عنه ، ولم أعد على ثقته ، ولعله لا يفسد أن قصد شيئاً عرواً مثل
 ليتمن من عنده النصيح ، وساد الموقف كله حيرة ووجوم . عبر أنني قد ردت أن أبدو
 ذلك الجور ، فعبثت من لهجتي ومن سيري ، وأصططعت البشاشة التي كانت قد
 رايلتني وقلت : الحق أن الفرق بيكما كبير

فتنظر إلى وهو لا يصدق أنى قلت هذا الكلام ، طائفاً أن أسحر منه أو أهرأ به
 وقال :

ليس كبيراً . إنما أنت تعرف عقلية الفلاحين . عقلية جهائم والعباد بالله
 . . متى تتغير . . ؟؟

لهجته قائلاً . . علينا أن نتنظر فتغير العقول ليس بالأمر السهل فأمهل
 كلامي بقوله « لك كل الحق » . ولكن أنظن أنه هل أننتظر أنا ، فلو كنت مداعبته
 قائلاً : نعم ، لا مفر من أن نتنظر قرناً أو نصف قرن من الزمان .

فأدرك الدعابة وقال مشاركاً لى استعمال هذا الأسلوب المرح باليت إذا أمكن
 أن يعيش الإنسان قرناً . .

قلت قرناً واحداً 14

فاستغرق عبد الحابر فى الضحك وقال : « لا هذا يا أستاذ يكفى قرن

وتبدد الوجوم الذى شملنا ، وهذنا كما بدأنا ، جد قريين أحدهما من الآخر وقال
 لى : وما الحل الآن . . ؟

فأجبهته الحل أن نتزع من رأسك موضوع قضية عم تهاى ، وتدعنى وحدى
 أناشرها .

فقاطعتى ' لا . . . لا يا أستاذ هذا لا يلحق لى لا يمكن أن أقطع نردى عليك
 حتى يحصل فى القضية تهالفاً ، ويعود الرجل إلى بيته وأهله آت

فضحكت طويلا ، وقلت : هذه القصة ميسر جيد . ودع عنك المداواة
القصية التي تشعلك هي (حيدة) ، وزواجك من حيدة غير محسب . فالأولى لك
أن تواجه الأمر بشجاعه ، وأن ترعها من رأسك . وبات الخلال كثيرات

كنت أقول هذا الكلام لعبد الجابر ، وكأنما أنا قاض يتلو حكم الإعدام على
بريء نسمعه وهو داهل ، لا يعي عما يدور شيئا ، وبقي صامتا لا يتحرك وأحسست
بالآلم يعتصر قلبي اعتصاراً ، وأنا أنظر إلى وجه عبد الجابر ، وكان مستقله قد تعلق
بالألفاظ التي تخرج من بين شفتي . .

وبعد فترة صمت طويلة ، قال ، أهذا هو المرأى . .

قلت في حزم : نعم . . لألرى غيره . .

فصرخ إلى ، بنظرات عينه ، وقسمات وجهه قائلا : لكن هذا مستحيل . .
فأدعيني أن يقول هذا ، ويدت الدهشة على وجهي ، وقلت له : أنت التي قلت
ذلك . . أنت التي قلت لي إن أبلك عمدة ، وفي صائلكم مأمور لوقالب . .
و . . .

كان عبد الجابر غائبا عن المكان ، فلم يسمع شيئا مما قلت ، وأخذ يكرر
لنفسه ، غير ملتفت إلى : « هذا مستحيل . هذا مستحيل » .

وعاد ينظر إلى بوجهه الذي يفيض قسراً ، فرايتني أقول له بلا تدبير مني ،
أو تفكير :

— أنت جبان يا عبد الجابر أهنتي

وكأن أطلعت رصاصه من تلقية ، إيمالا وبلا عمد ثم أغضمت عيني ، وأنا
أتوقع أحد أمرين ، إما أن يصعني عبد الجابر ، وإما أن أراه معشياً عليه ، فاقداً
لصوابه

كيف قلت ذلك ؟ وأية جرأة واتتني لأن أطلق بهذه الكلمة ؟ هل شغف عبد
الجابر هو الذي ألهمني هذه الشجاعة وجرأت عليه ؟

لا لا ليس هذا كافيا ، فما تمسير لهذا الاجترار إلا عصبية الخنجل التي

نَجْعَلُ مِنْ يَتَلَّ بِهَا غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى التَّحَكُّمِ فِيهَا يَصْدُو عَنْهُ مِنْ قَوْلٍ ، هُوَ إِمَّا صَامِتٌ
كَالْحُرْسِ ، وَإِمَّا مُنْذِعٌ يُلْقِي الْكَلَامَ عَلَى عَوَاهِئِهِ فَلَا تَحْزَرُ وَلَا احْتِيَاظٌ وَلَكِنْ كَمْ كَانَتْ
وَهْشَى عَظِيمَةً حَيًّا رَأَيْتَ عَبْدَ الْجَبَابِرِ فِي مَكَانِهِ لَمْ يَثْرَ ، وَلَمْ يَحْتِجْ ، وَلَمْ يَعْتَدِ عَلَى ،
حَتَّى وَلَمْ يَقْتَرِ مِنْ وَضْعِهِ ، وَقَدْ ظَنَنْتُ أَوَّلَ الْأَمْرِ ، أَنَّهُ تَبَا لِعَمَلِ هَائِلٍ ، وَلَكِنْ كَانَ
مَا ظَنَنْتُهُ حَيَالًا لَا أَصِلُ لَهُ فَقَدْ سَمِعْتُ أَدْبَلَى عَبْدَ الْجَبَابِرِ يَقُولُ بَعَمِ أَنَا جَبَانٌ .
لَكَ حَقٌّ . أَنَا جَبَانٌ قُلْتُ ، بَعْدَ أَنْ عُدْتُ إِلَى هَدُولِي « لَا أَعْنِي جَبَانٌ . »

فَأَصْبَرَ عَبْدَ الْجَبَابِرِ عَلَى بَعَثِ نَفْسِهِ بِهَذِهِ الصِّفَةِ ، وَقَالَ : لَمْ لَا ؟ أَنَا أَصْرَفُ الرِّجَالِ
جَبَانٌ .. أَنَا خَائِفٌ مِنْ أَهْلِ إِنْهُمْ مَيِّمِرُونِي بِهَا وَمَيِّجِرُ عَلَى هَذَا مَتَاعِبِ
كَثِيرَةٍ ... فَبِمَادَا تَنْصَحُنِي ؟

قُلْتُ لَهُ : الْأَمْرُ يَتَوَقَّفُ عَلَيْكَ ...

لَصْرَخَ : بَلْ عَلَيْكَ .

وَتَصَوَّرْتُ أَنَّ عَبْدَ الْجَبَابِرِ أُصِيبَ بِدَحْلٍ فِي عَقْلِهِ ، فَتَأَمَّلْتُ وَجْهَهُ ، وَإِذَا عَلَامٌ
الْإِصْطِرَابِ وَالْمَعَانَاةِ تَبْدُو عَلَيْهِ وَاضِحَةً ، فَحَرْتُ فِي تَحْيِيرِ الْكَلَامِ الَّذِي يَجْعَلُ عَلَيْهِ
دُونَ أَنْ يُوْرَطِي أَنَا فِي نَصِيحَةٍ لَا يَرْضَى عَنْهَا خُسَيْرِي ، فَكَلْتُ

— كَيْفَ يَتَوَقَّفُ عَلَى ؟ . أَنْتَ الَّذِي سَيُتْرَجُ ، وَأَنْتَ الَّذِي سَيُحَاصِمُ
هَائِلُهُ ..

فَأَشْرَقَ وَجْهَهُ بِسُرُورٍ مَعْلُومٍ ، فَقَالَ ، إِذَنْ أَنْتَ تَنْصَحُنِي أَنْ أَتْرُوجَهَا أَمَا
مُسْتَعِدٌّ إِذَا رَأَيْتَ ذَلِكَ .

وَعَادُونِي مَرَّةً أُخْرَى شَكَّ فِي أَنَّ عَبْدَ الْجَبَابِرِ فِي حَالَةٍ عَادِيَةٍ ، فَقُلْتُ لَهُ وَأَنَا أَحْزَلُ
أَنْ أَتَبَيَّنَ حَقِيقَةَ الْحَالَةِ الَّتِي أَصْبَحَ فِيهَا :

— لَمَّا دَا . أَنَا . لَا تَكْثُرْ مَا لَا أُطِيقُ لَأَحْظُ أَنْ صَلَاتِي .

وَالْحَقُّ أَنِّي لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَكْمِلَ الْحَمَلَةَ فَكَلْتُ جَارِحَةً ، إِذْ كَانَ عَلَى لِسَانِ
عِبَارَةٍ ، أَنْ صَلَاتِي بِهِ جَدِيدَةٌ ، وَأَنَا لَا أَحْبِبُ أَنْ أَقْحَمَ نَفْسِي فِيهَا لِأَشْأَنِي لِي بِهِ

وَلَكِنْ عَبْدَ الْجَبَابِرِ الْمُسْكِينِ كَانَ مُسْتَعِدًّا ، أَنِّي يَكْمِلُ كُلَّ عِبَارَةٍ لَمْ أَكْمِلْهَا بِمَا يَنْفَقُ

مع حالته الذهنية وأن يضع على لسان ألفاظاً لم أقلها ، ولكنها تريحه وتتسق مع الفلق
اللى استولى عليه ، والحيرة التى شملته لذلك قال ، إن صلتى به قدمة ووثيقة ،
فأسقط فى يدي ، ولم يعد ثمة مبرر من أن تحمل المسئولية . ولكن ميا أنتها لأنصحده ،
لمح فى عقلى سؤال ، وكأنما اكتشفت شيئاً صالحاً فقلت وأنا لا أدرى الآلام التى
سأقذف صاحبى فى ماوها قلت فى سلامة بية . . ولكنك تتحدث عن الزواج من
حميدة ، كان الأمر كله فى يدك . . هل سالتها . . هل حصلت على موافقتها أو على
الأقل وعد منها لو من أهلها ؟ .

مجمعت حينئذ وقال ، وهو مقطع الأنفاس . . هل تشك فى أنها تفضلنى هل
مدبولى . . هل فى هذا شك . . لم يخطر ببالي أنها أو أبوها سيترددون لحظة فى قبولي
زوجاً . فمادا تظن ؟ ورأيت أن طرف هذا السيل ، والسير فيه ، أنصف من السيل
المؤدى إلى نصح عبد الحابر بشىء عديد فى شأن زواجه من حميدة لو عدم زواجه

فقلت له ، منطلقاً أنا لاشك فى قدرتك عند العائلة . وفى احترام الجميع لك
حتى مدبولى نفسه المارق بيبكيا كبير هذا مالا جدال فيه . ولكن قدرى هم بهامى
وهو رجل طيب وشريف أنه ارتبط بكلمة مع مدبولى وقد ترى حميدة كذلك به أن
النصحبة به من أحبك أمر لا يتفق مع الشرف

فصاح عبد الحابر : « الشرف . الشرف أن تتزوج حميدة جاملها غيباً . »
وقلت : « ومن يدري ألا تكون قد أحبت قبل أن تراك »

لم أكن قد قرأت رواية عطيل حتى هذه اللحظة ، ولم أقرأها إلا بعد هذه الساعة
بسين ولكنى تؤكد أنى لم أكن لأهم عطيل وتعامته ، والوالد التى تلظى فيها ، حينما
اشتعلت فى نفسه الحيرة ، لو لم أشهد هذا الموقف الذى لعب فيه دور البطولة لصديقى
المسكين عبد الحابر ، لقد قصصد جيئة عرقاً ، وراقت عيناه ، وجمدت يده ،
وأصبح ينظر لى ظلمات لا أدرى أنصبر عن كراهية لى أو خوفه منى ، أو إشفافه من
حكيمى أو خجل من تعرضه أمامى وظهوره بمظهر الضميف . وبعد فترة طويلة
أرهقت أعصابى ، سألنى وكأنه يتضرع لى : « لاحظت عليها شيئاً . . إن نفسى
تحدثنى أحياناً أنها تحب . . . »

ولو صدق ما كانت تهجس به نفسى لكانت العاجزة . وأراد أن يبدو كقوى
مايستطيع فعال : « إنها لأهمى في ذاتها ، ولكن أن تكونو المقارنة بينى وبين
مادا أقول . وبين لأشء هذا هو الألم الذى لأطبقه ، وهذا هو الحزن الذى كان
يجب على أن أكون أعقل من أن أؤرط نفسى فيه » .

وثبت لى أننى أمام إنسان فقد نصف عقله ، وأن الأمر حرج من مطلق النصيحة
إلى مطلق الإنقاذ ، فتكلفت الزعم بأن الشك لا عمل له ، وأنها لا يمكن أن تحب
مدبولى .. همد إلى يدا تلجعت وقال : ألاحظت اهتمامها بـ ؟

فأسرعت إلى القول بأنى لاحظت ذلك مرئراً
فاستحلفنى بالله أن أقول الحق .

حدثت وأنا أستمع الله على هذا اليمين ، الذى بذلته من قبيل الإشفاق وإذ
كنت لأجدرى إذا كان ما حدثت عليه صدقاً كله ، لو أبعد الأشياء عن الصدق فهذا
الأمر لم يشعلنى ويل لم يدرى بحلى . ولم أكن أظن أنه سيكون محلاً لحديث عاصف
كهذا الحديث ..

ولقب عبد الحبار أماسه ، وأخرج منديله فمسح به فطرات العرق التى كانت
قد لمت فوق جبينه . وأخذ يستجمع أنفاسه كأنه عاد من شوط بعيد قطعه
ركضاً ..

وحدث آخر ماكنت أنتظره أو أتوقعه ، فقد صمت عبد الحبار طويلاً ثم قال
هجأة : « نرجى الحديث إلى وقت آخر » وخرج بعد أن أكتفى بأن حياناً بقوله
(السلام عليكم) دون أن يمد يده الى . وأحلفت أنظر إليه ، وهو يخرج من
الباب ، وبصفة خاصة إلى ظهره هذا الظهر الذى حينما وقع نظرى عليه ، وهو يلتقط
الجنيه من لأرض ، حينما عرصه كأنما لم . وللمرة الثانية أحسست وأنا أنظر إلى
هذا الظهر ، طينى ببعض حنا وشفقة على (عبد الحبار) وعلى كل أمثاله من
المعذنين المتعيين . كان إشعاقى عليه للمرة الأولى لمقره أما هذه المرة ، فقد كان
إشعاقى عليه لشئ رأيت أشد تعظيماً للناس من المقر والجروح ذلك هو
الشك ..

احتفى عبد الحبار (ماديا) من الحجرة ، ولكن صوته ، بل صوره المختلفة ،

بقيت وتتابعتم أمامي ، كأننا هي صور قصة (سينما) فبدلت صورته ، وهو داخل على ، بعد حديثه المرح الضاحك مع عبده عن المروسة والزواج ، ثم تقديم أوزار التحقيق في قصية تهلى ، ثم الحديث عن حميدة التي بدأ باستشارته إياي في زواجها منه ، أو بعدها عنه ، ثم الإشارة إلى مذبولي وما أصابه بعدها .

صور الفرق بين الواحدة منها والأخرى ، كالتفرق تماماً بين الأضداد فضحكه مع عبده ، لم يكن سوى التعبير عن انفعاله وإرتياكه وحيرته ، وكثيراً ما يكون التعبير عن الحزن صيحكا والتعبير عن الفرح بكاء . وكثيراً ما يختلط في التعبير عن عاطفة واحدة أسلوبان متعيران ، فيستقل الإنسان من الضحك إلى البكاء ، ومن الحركة إلى السكون ، ولقد ذكرت في هذه اللحظة (شارل شايلن) الذي أنقذ التعبير عن هذا التعبير المختلط عن الانفعال الذي لا يجد الأسلوب الطبيعي في التعبير عن نفسه ففي أكثر من رواية له ، كان البطل الصغير العقير الخائب ، يتحقق له شيء من آماله ، تتمتع بانفعال ، يجعله يقفز ، ثم ينفض على إحدى الوسائل ، فيخرج منها حشوها من الريش أو الفطن ، فيشره فوق رأسه ، ويملأ به الحجرة ، ويروح يرقص ويغنى ؛ ويبعث ويصرح حتى يسقط إصهاه .

وعبد الجابر كان مشغولاً حينها قدم « بالمروسة » فحدث (عبده) عنها ، فقد كان حديثه في هذا الموضوع أحد الأحاديث إلى قلبه ، وأقربها إلى لسانه ، وكان صيحكه ، هو التعبير عن السرور الممتزج بالخوف وكان حديثه إلى ، وأنا أبعد الناس عنه ، خصوصاً في هذه المسألة الداخلية الباطنية التماساً لرأي شخص يعلم أنه لن ينصحه بما لا يجب ، ولا ينجح من أن يكشف عن نفسه أمامه

ولكن المسكين لم يكن يظن أنني سأطلق عليه هذا (العصريت) المحرف المائل ، الذي يقتض على سعادة الناس فيقوصها ، والذي يمسح بيده الرعناء الطائشة الصورة الحميلة لحياة الناس ، ذلك هو قول « الشك »

فلما حلوت إلى نفسي أنحت عليها بلوم شديد ، ورحت أفرعها تقريباً لا راحة فيه ، ولا مراعاة عمل الإسماع التي فرطت مني في حق هذا التمس الذي جاء يلتمس عندى الراحة ، والطمانينة ، فأغرقته في تنور ملتهب من مشاعر أشبه شيء بالأسباح

الحملة التي يتقلب الإنسان عليها بإرادته ، متلذذاً بالمعذاب الذي يجده في قلبه عليها .

فالشك دون عواطف الإنسان ، يتغذى بنفسه ، فيزيد كما تزيد المتواليات الهندسية أو كرة الثلج ، كلما تفرجت كبرت وزادت سرعتها وكلما رادت سرعتها ، زاد حجمها وهكذا . دواليك إذ يكفي لخيبة الشك حتى يستحيل مراحلاً لا يرد . إنه لا يطلب من الناس طعاماً ولا شرباً إنه لا يطلب منهم حابة ولا وقاية ، إنه يكبر من ذات نفسه إنه ليكبر كل ما يقع تحته لوفى دائرته كالجمهر الذي يضاهى من أحجام الجرائم الصنيعة التي لا تراها العين ولا تمسك بها اليد . . ماذا أقول ؟

هل أخرج بحثاً من منزل عبد الجابر لأؤكد له أن كلامي لا أصل له ، ولا سند ، هل أقسم له أن كل ما رواه من حيلة ، كان صادقاً بالحسب له ، والإحسان به ، والتفان فيه ، ولكن أبليغي أن أقدم نفسي ، في أمور لا صلة لها بعمل ، ولكن أي عمل هذا الذي يحول بيني وبين أن أنقل إنساناً تمسأ ألقت في كأس سعادته قطرة من سم ، فجعلت الكأس كلها تقيماً مهلكاً .

ولكن من يدري أن كلامي سيقع من نفس عبد الجابر موقع الرضاء ، ألا يحمله الآن وهو كالمصنوع - على عمل المواصلات ، ونموه الحقائق له . .

لا أدري كم من الوقت قضيت ، وأنا أناقش هذه الحواطر ، وأقلبها على وجوهها ودون أن يرد حل خاطري أبداً أن عبد الجابر لا يد أنه يكون قد اخترسه الشك قبل أن يقصص ويخلص نصيحتي . أحسنت آخر الأمر بالإحياء وأنا لاحق تلك الحواطر ففقت وقلبي ينوء تحت عبء ثقل .

وجاءت الأيام التالية ، بتجربة جديدة ، فإن عبد الجابر قد اتخذى تماماً فلم أعد أراه ، وكلما قرب موعد الجلسة ، زاد توقعي في أن يمر على ، فلم يفعل ، وحررت في تفسير هذا لمسلكت منه . أكرهني حتى لم يعد يطلق أن يراني ؟ أتجمل مني فأتر أن يتوارى من عيني ؟ كانت نوية انفعال مبالغى - فعبت عنه ، فلم تمد لديه الجلسة لأن يراني ، وتحدثت إلى . ولكن القضية التي كانت شغله الشاغل ، أفتوت صلتها بها . . ؟

وفي ذات يوم طرق الباب ، وجاءه عمله ، ليعلم أن تهايم حضر ، ودخل تهايم مرتدياً جلماً حديثاً ، وعلى رأسه عمامة لونها شال أبيض ناصع ، ومن خلفه لحمت حميدة ومن خلف الاثنين كان مندوبى . . وانتظرت أن أرى عبد الجابر وسلمت وكل جوارحي تلهف على الوقوف على أحبار « عبد الجابر » . ولكن الحديث بعد السؤال عن الصحة امتأثرت به القضية ، ولم يكن عندهم جديد يضيفونه ، سوى أنهم أعلوا بصعده شهود هم أصدقاء وزملاء العامل القتيل - ليشهدوا بأن زميلهم الذى لقي حصه ، كان أصم وأن كل نبيه له لم يكن مجدياً ولا مثمراً .

ولاحظت أن العلاقة بين مندوبى وحميدة ، أكثر حرارة . فهي توجه إليه الكلام ، وهي تستقبل كلامه ، في بساطة وحرية وعدم كلفة . وهو يتصرف كما يتصرف السيد ، صاحب الحق ، لا للتطفل الذى يفهم نفسه فيما لا شأن له . وقد أصحبنى هذا التطور ، وراق لي أن أتابعه وأتأمله ولم يكن عندي أدنى شك في أن مرد هذا التطور ، هو غياب عبد الجابر من مسرح حياتها وعلى الأقل في هذه اللحظة ، وقد اعتقدت ولا أدري مدى نصيب هذا الاعتقاد من الصحة - اعتقدت أن حميدة كانت مثبته اليأس ، موروثة النفس ، بين عبد الجابر ، وبين صاحبها ولعلها لم تكن قادرة أن تختار أحدهما دون الآخر . وكان مندوبى بدوره ، شاعراً بأنه ليس سيد الموقف ، وأن له شريكاً ، قد يفوقه بحكم مكانته الاجتماعية ، وزيه الأقران ، وصلاته بالطبقة الأرضى في عمله الحكومى ، وفي الحى . وأخيراً يعصل رياسته لعمه تهايم ، ويمضل أباديه عليهم في هذه القضية . ولكنه لم يكن كعبد الجابر ، معقداً ملتئماً ، بل كان صريحاً وبسيطاً ، فقد كان يحب حميدة ولكنه لم يجرؤ أن يجرمها هذا الرواج ، ولا أن يعصب عمه ، ولم يكن يستطيع أن يترجم آلامه وأحزانه ، إلى صور متخيلة تعذبه وتعاكس حياته ، فعلمه البدوى ، لا يمدح مجالاً لهذه التصورات المرصية ، ورفضه البسطاء المرحاء في العمل وفي الحى مثله ، يخلطون اندياً مائتداً سهلاً ، مما لا يعنى على الاستعراق في الآلام ، ولكن هذا كله لا ينمى أنه كان يتألم . تصورت أنا هذا كله ، ففرحت إذ رأيته ، وقد أعفاه الخط الحسن من القيود التى فرصت على عاطفته ولعوط فرحى بها ، خيل لى أن مندوبى أصبح أكبر جسماً ، وأعل صوتاً وإنه لونه أوصح ، وأن وجهه أجمل ، وأن نياه أنطق ، وأنه ادعى إلى الاحترام ، وأخيراً . لا احتمل

وحيل إلى أن عم (نهامي) كان قد انتقلت إليه علوى السعادة فانطلق لسانه ،
فوصف حروفه الشديدة من أن يعود يوماً إلى (الحسنة) . التي لا يود أن يحكم بها
الله على حبيب ولا عدو

وهموا بالانصراف ، ولكن لم أستطع أن أعالب في نفسي سؤالا رأيت أن
أنفاه - على الأقل - يقصى بتوجيهه فقلت : وما أسرار عبد الجابر أمضى - لقد انقطع
عنى مد رمى ؟ » وتوقعت أن سبب هذا السؤال لرتناكا ، ولكن لم يتحقق مما
تصورت شيئاً ، فقد أجاب عم نهامي بما معناه أن عبد الجابر مشغول بالسلام مخزون
جديد للمصلحة ، وأن عملية السلام تستغرق ساعات النهار كله ، في الصباح
وبعد الظهر ، وأنه حللهم السلام إلى الاعتذار من عدم ريارق . .

ولم ألمح على وجه حيدة ومدبولي شيئاً . هيران مدبولي بعد قليل أصاب أن عبد
الجابر رجل شهم » ومنش يمكن يكون أحسن من كده » وقالت حيدة : فضله علينا
ما يتقدرش .

أكان هذا الكلام بجمالة ، صاخر من قليل أصبحنا في مأمن من خطر كان
يهددهما سهل عليهما أن يقولوا كلاماً طيباً ، لا حقد فيه ، ولا ضحى ؟ .
ولست أدري لماذا أحسست في هذه اللحظة بأن عبد الجابر يعانى آلاماً مبرحة ،
وأنه يحاول أن يدمى آلامه تلك في عمليات التسليم والتسلم .



كان عم نهامي مجرد قضية بالنسبة لي أول الأمر . كان تحقيراً في البداية وقراءة
ملف مكتوب بخط رديء ، وكان هودة إلى قانون العقوبات بعد أن تركته بعد
الامتحان ، وكان تحصييراً لمراقبى البكر ، وكان الأمل في النجاح ، والخوف من
النتيجة . يعنى كان كل شيء ، يتصل بى أنا ، ويتبع من أناسي ، وانشغالي
بمسمى ، ولم يكن هناك شيء مطلقاً ، يتصل به هو .

ولكن عبد الجابر جعل عم (نهامي) كائناً حياً ، يتصل بمشاعري . فقد
قدمه إلى ، في أشد حالاته سوءاً بعد أن قضى ليته في قسم عابدين وكان الرجل
مشغولاً لحسن حظي بما ناله في تلك الليلة أكثر من انشغاله بقضيته ، فوصل ما بيني
وبين الحوالب الإنسانية في القضية ، وجاء عبد الجابر ليكمل برود هذا الجانب ،

وظهوره ، بما أقصى به إلى من سره ، وما رواه لي عن دنياه المطوية على الناس ولعل هذا الأسلوب الإنسان في الاتصال بالقضايا ، كان مما يتفق مع دوقى ويوائم حائقى في بداية عمل فسرى عنى ، وحدث الله أن جعل لجرىنى القصائية الأولى على صورة لاؤمل أن تجود الأيام بتلها ، فعدا سأبحث عن مكتب حمام كبير ، يختاره لي فريى الذى يشعل منصاً قضائياً عظيماً ، وعددا فستقدم لي القضايا في شكل أوراق ومستندات لن أرى أناساً ، بل سأرى مشكلات بشرية معقدة أو معلة ، أى موصوعة في علب أو أوعية رجاجة ، كالأطعمة للحفوظة ، التى قد ترى فيها أكثر خصائص الطعام الطازج الحى ، من حيث الشكل واللون والحجم إلا الروح ، أى الرائحة والتكهة .

عل أن هذا ليس سوى المعقول الطيى . فلو كلمت كل قضية محامياً ما كلفتني قضية عم تهاى لما اتسع وقت أى حمام ولا طاقته الروحية إلا لقضية واحدة أو اثنتين في العام ولو عرضت القضايا على كل المحاميين ، كما عرضت على قضية عم تهاى ، لما انقطع للمحاماة إلا الذين أهأه الله عليهم رزقا خاصاً من غير المحاماة وهذا هو الفرق بين المجتمع القديم البسيط الذى لم تكن العلاقات قد تشابكت فيه تشابكها في مجتمعنا الحديث . قد كان كل شيء يتم ، محظا بطبيعة الإنسان :

فالقاصى يكاد يعرف المحاصيين بأسمائهم وصفاتهم وماضيهم لأنه يعيش في حيزهم والاستاذ يعرف تلاميذه ويعرف آباءهم وأحياناً أجدادهم ولا يعلمهم العلم محسب ، بل يعلمهم إياه ، ويأخذ بيدهم أيضاً في دهاليز الحياة ودروبها ، ويشع عليهم يعصاه ، كما يشع الراعى على غنمه والتاجر يعرف عملاءه ، فلا يكون مهم بالعم يبيع ليكسب محسب ، بل قد يفرصهم عند الحاجة ويظهرهم إلى مبصرة عند الضائقة ، ويحلمهم في الأفراح ، ويواسيهم في الأتراح

وبالجملة كان المجتمع أسرة كبيرة

أما اليوم فالقضايا بالألوف ، والفصلة لا يكادون يحتفظون بصحة أبدانهم ، وسلامة أعصابهم ، ونور عيونهم ، إلا كما تقبض الكف المفتوحة على الماء من كثرة ما يفرأونه من القضايا ، ويحتملون من إرهاب الحكم

ورشلت حواطرى هذه كالمعدة قبل الجلسة نشاطاً رهيباً ، هي الجلسة
الامتحان الأكبر .

سابق أمام القاصى ، وظهري للنس في وضع لا يعرفه إلا المحلى وحده ،
فالحطباء والمدرسون وأئمة المساجد يواجهون الناس حينما يحاطونهم أسا المحلى
فيعطى ظهره للناس ، ولا يهمه أن يتأثروا بكلامه مهم في الحالى لا يقدمون ولا
يؤخرون في القضية التى يتراجع فيها ورجل واحد يتوجه إليه المحلى بالكلام ،
وعقدار تأثر هذا الرجل وحده بهذا الكلام ، يكون حظ صاحب القضية نحوياً
أو سعوياً . .

ولم أفكر من قبل في غرابة وضع المحلى حينما يتراجع حتى اقتربت الجلسة ،
وأخلفت أستجمع بخيالى صورة لنصى وأنا أترافع وكان أول ما قرى الصورة ،
وضع الجمهور فقد تجمع في الصورة عدد كبير من الناس في قاعة مسحة مظلمة ،
يتدفق إليها ضوء من نوافذ عالية تسد الواح رجالية حملة وفي الصورة مصة
مرتفعة يجلس عليها قاص هادى ساكن ، جزل رأسه ، شعر أسود يتخلله بياض
كثير وإلى جانبه من اليمين وكيل النيابة ، ومن اليسار الكاتب ، يلبسون جميعاً
أردية سوداء ويقف في منتصف القاعة حليج يرتلى ثوباً أسود ، ويسود القاعة كلها
صمت رهيب وسكون عميق ، فالجمهور لا يسعل ، وأصراجه حينما يدخلون ،
يسهرون على أطراف أصابعهم فلذا سمعوا شيئاً أعجبهم ، تكلموا همساً ، وهم
بالحملة حش مسندة ، كأنها يكملون المفاعد التى يجلسون عليها ، فلا يصدر عنهم
صوت ، إلا اضطراباً ، ولا يحدث هذا الاضطراب إلا في أحد أمرين ، أن يسمعو
ما يصححهم ، فتعجز صمكتهم على الرعم منهم ، فيعاجلها القاصى الوقور
بطرفة من يده ، ترن رنيناً غمواً ، فيسود الصمت الحجرة في الحال ، ويقع الطرف
الثاني من الاضطراب حينما يصدر حكم يتظره الجمهور ، سواء أكان بيراعة منهم
يعطف عليه أم بإدانة منهم يكره ويستكر فعلته فمن أين تجمعمت عناصر هذه
الصورة ؟ .

لست أنكر أن شهوت قبل الجلسة التى سأتراجع فيها ، جلسات ولكني كانت
كلها في الريف . فقد شهدت جلسات في عاصمة بالصعيد ، وحلست في عاصمة

أخرى بالوجه البحرى ولم تكن صورة قاعلت تلك المحاكم التى شهدتها لنسبه شيئاً مما رسمه فى جبالى ويزخره ، وأوسع عليه الحلال والوقار ولكن كنت أقول لمسى هذه محاكم الريف أما محاكم العاصمة فشئء آخر وكان يشجعى على التشتت بهذا الخيال ، والأطمئنان إليه والافتناع به ، أن كنت أرى العارق كبيراً بين عاصمة البلاد وبين الريف فى كل شئء .

فى القاهرة لليادين المصانة بالكهرساء والمشوارع المسيحة التى تطلها الأشجار ، وفى القاهرة المسارح الأنيقة ودور السينما الكثيرة ، ووسائل الراحة وأسباب الترف وفى عواصم الريف شوارع مهملة ، لا مهيضة ولا مصانة ، لا تعرف الظل ، ولا الاستشفة والناس فى الريف ينامون بعد الغروب ، فإن لم يناموا هم نائم المدن نفسها أو استغرقت فيها يشة النوم . فحلت شوارعها من المارة ، وشملها سكون موحش كسكون المقابر ، واحتواها ظلام ، إلا أن تكون يد العناية قد أضاعت فى بعض شوارع دبالات خافتة تتراقص فى الهواء ، وكأنها هى أشباح تعبت قودت لو تعارق الوجود التماساً للراحة ، وفراراً من السماء .

فلا لوم على إذا طنت لو تخيلت محاكم القاهرة على هذه الصورة الجميلة الباهرة

لكن من أين جاءت عناصر صورة هذه القاعة ؟ من السينما لا شك ، فقد شهدنا على تلك اللوحة العنصرية الساحرة ، روايات كانت المحاكمات بعض ما تعرضه ، وكانت هذه الروايات بفضل تلك المحاكمات أمتع ما يراه ونحس فى المرحلة التى هى بين الصبا ، وبين الشباب . والتى يشتمل فيها خيالنا ، ويرسم لنفسه أشياء جميلة ، يتخيل أن يتحقق ، وتبقى فى أطواء نفسه إن لم يكن التحقيق من صبيها - توجهه ونسيره ، وتمكس على كل ما يفكر فيه وكل ما يكرهه .

ولكن هذه الصورة لم تكن صدى لروايات السينما وحدها ، فقد عاد زوج عمى من باريس وكان من الأحيان اللذين يزورون أوروبا كل صيف ، أو على الأقل أكثر فصول الصيف . وفى ذات مساء ، عقب عودته من رحلته تلك ، جلس يروى بعض مشاهداته هناك ، فسأله الحديث إلى وصف ما شاهده فى إحدى قاعات محكمة باريس من أحده ضباط البوليس للمخرجين حديثاً اليمين أمام قضاة تلك

المحكمة . وكنت صبياً في نحو الرابعة عشرة فاستول على حياي لأسلوب زوج عمي وهو يصف قاعة المحكمة المخروشة بالبسط الخمر ، وتوافدها التي أسدلت عليها ستائر من القطنية الحمراء أيضاً ، وملاس القضاة السوداء ، وملاس الخناج الكحلي أو القاتمة وسهم اللعاع الذي يسكه بيده ، ويسير حاملاً إياه ، وهو ينادي أساء الذي يدعو لأداء البمين ، وكأنه قائد في معركة

ومضت الأيام ، وصورة المحكمة هي مريح بما راين في السبيا ، وب وصف فريس بأسلوبه الخميل ، ومن شيء ثالث هي تلك الأيام ، كانت أبني الناس تتداول سلاسل قصصية تصدها دار نشر ، هي أقدم ما عرفت القاهرة من دور النشر ، وكانت تسمى « بحارات الشعب » وكان في بيتنا من هذه السلاسل أربع أو خمس مجموعات وكان من بين أسماء بعضها « قلوب العذارى » و « اليتيمى » ولم أقو على قراءة تلك القصص ، على الرغم من أن وجدت أن أفند الكبار من أهل بيتي ، ولا سيما أحي الذي كان يكبري ، والذي كان يقبل عليه باب حجرته ، فيقرأ كتب الهندسة - ثم إذا تب أحد يقرأ في هذه القصص إذا دخلت إليه في حجرته لأمر ما راعى أن أراه مقبلاً عليها مصرفاً عن كل شيء غير هال يكلد يطبق أن أوجه إليه سؤالاً أو أن أدعوه إلى تناول طعام ، أو أن أجبره بأن أحد أصدقائه قد قدم للسؤال هه ، وأصبحت هذه القصة عندى لوباً من السحر ، أود أن أمارسه ، وعرف عني أحي هذا ، فإذ كان إلى حجرته يوماً ، وبأولى قصة صغيرة ، وقال أقرأ هذه ، وإن صعب عليك فهم شيء منها ، تعال إليّ ومرت مرحاً شديداً ، وأحدث أنراها ، حتى إذا خرج أحي إلى بعض شأنه دخلت حجرته ، وحلست على مقعده ، وأحدث أنقرأ كما كان يقرأ وأنا سعيد بالحجرة والمقعد سعادتي بالرواية والمطالعة

وفد كانت العصة تدور حول قصة قتل وسرقة ، فاحتوت بطبيعة الحال على وصف للمحكمة ، فكأنما كان هذا الوصف امتداداً لوصف روح عمي

وبقي هذا الخيال الخميل ، يساورني ، حتى كان التحقيق مع نهام ، فتأثرت الصورة الخبيثة على ملك المحكمة ، قبل أن أدخل إلى حجرو وكل البنا ، إلا أنه

نقبت لتصور أو قل تؤمل - أن تكون قاعة المحكمة شيئاً آخر غير ردهاتها ، وغير الدهاليز المؤدية إلى قاعة وكيل النيابة . .

ولقد كان أحوف ما أحياه ، موقف المرافعة فلما جاء يوم المحكمة عرفت أن هناك شيئاً أشق من المرافعة هو . الوصول إلى قاعة المحكمة .

الحق أن لم أتصور أبداً أن الوصول إلى قاعة المحكمة سيكون لوناً من الجهاد حتى كابدته بنفسى . فقد اجتمع على باب القاعة عشرات من الناس من كل سن ، ومن كل جنس ، يلبسون أطرزة لا حصر لها من الثياب ، فقد كان منهم الرجال والنساء والأطفال ، والمساکر والمذنبون ، ولايسو الطرابيش ولايسو الصمام ، و اللامبات ، والقبعات ، والطواقى ، وهرة الردوس ورأيت في ذلك اليوم مكشوا بمحاول الدخول ، ومعه عصا ، يمدحها أمله ، يتحس بها طريقه ، لا يسأل الرحام ، ولا يخاف أن يدفع أو أن يتمثر أو أن تصيب عشاءه شيئاً بسوء ، وفيها يحاول هذا العدد الضخم دخول القاعة ، رأيت شاباً يرفع على يد واحدة إلى مافوق رأسه ، صبية مستطيلة من الصاج الأسود ، صف عليها ألواناً من الفطائر ، تحملوها ورقة صمراء ، لتحميها من هجمات الذباب ، الذى يجتمع فوق تلك الورقة ، فى أسراب كثيفة ، يكاد يسمع لها أزيز كآزيز الزنابير ، وفى أقل من لح البصر ، شق هذا الشاب لنفسه طريقاً فى هذا السد البشرى الذى قام على باب القاعة ، ودخل إلى القاعة حيث رن صوته عالياً فيها ممدحاً مزايها فطائره المسانعة .

ومرق مثله شيخ أسود اللون ، أشيب الشعر ، يحمل فى إحدى يديه سطلاً مملأ الماء تلك وصفت حاله رجالهات المياه المعازية ، وقد راقبه وهو يتخطى رموس الجبالسين ، ويغد بمود السهم فى صفوف الواقفين ، وكأنه يهلوان ألف الخس على الحبال ، دون أن يتر أو يقع . .

وبعد قليل أتيت جماعة يلبس بعض أفرادها بيجامات بيضاء والبعض الآخر بيجامات زرقاء ، بصحبهم اثنتان أو ثلاثة من المساکر الذين يحملون فى أيديهم العصي الخيزرانية الطويلة فضلمت أن هؤلاء هم المتهمون المقبوض عليهم ، جرى هم من السحر وأن لايسى اللابيس الزرقاء محكوم عليهم فى قضية سابقة ،

ولابسى اليجامات البيضاء محبوبون احتياطيا ، لم يستطيعوا أن يدعوا ثمن السرير
 في السجن فلبسوا ثياب السجن في انتظار الحكم في قصيتهم ، وعند وصول هذه
 الجماعة ، صرب الماكر العصى في الأرض ، ليغرق الجمع المحتشد على باب
 القاعة ، فلم يبق في القاعة ، فدفع بالأيدي ، وأدخل المسجون إلى القاعة . وانتبهت
 هذه الفرصة ، فأسرعت ورأهم ودخلت تلك القاعة . فكانت انتقلت بوصولي
 إليها ، ودخلت فيها إلى يوم الحشر ، فالتاحم والتزاحم ، والصياح والصراخ ،
 واشتعل كل بنفسه ، ومظاهر الحرج والإشفاق والدعاء والرجاء ، والألسن التي تنلوا
 آيات القرآن في صمت ، والتي تنضرع إلى الله في عنف ، والحركة الدائبة ، من
 خروج ودخول ، ومن قيام وقعود ، ومن انتقال إلى قصص المتهمين مرة ، وإلى منصة
 القاضي حيث كاتب الجلسة مرة ، وإلى صفوف المحامين مرة ثلاثة . فهي في حركة
 لا تكف . حركة تزداد حل من الوقت شدة وعمقا .

أين أنا من هذا كله ؟ ماذا أفعل ، وفي أي مكان أجلس ، وإلى أي شخص
 اتجه ، لم أستطع أن أجيب على هذه الأسئلة جميعاً فتركت نفسي في هذا المرح
 المتلاطم ، قائما بالتأمل فيما يجري ، شاعراً بأن هذا هو حرمي الأول ، فلا يخفى في
 أن أقلق ، ولا أن يند صبري ، وجل الرخم من أن - كما علمت - أن مثل هذه
 المجتمعات ، أشعر بالوحشة والغربة ، إلا أن في ذلك اليوم ، لم أمان شيئاً منها ،
 فقد أحسست بأن العالم الذي احتوا في هذه القاعة جعل من الناس الذين انضموا
 إليه ، عجيبة تخالط بينهم خلطاً ، فلم يعد لواحد منهم كيان قائم بذاته ، فالجميع
 يتكلمون ولا يصمت إليهم أحد ، أو الجميع يصمتون لكل كلام يقال في القاعة ،
 فهو مشاع لكل لا يستقل به أحد .

وانتهت نحر المقاعد المحصنة للمحامين ، وأنا أقدم رجلاً ولؤخرها ، فليست
 أدري كيف يقع منظري من نفوسهم ، وكيف يستقلوسى ، وأي كلام سيوجهونه
 لي ، ثم وجدت نفسي بجانب هذه المقاعد ، فاستندت إلى الطاولة الموصوفة
 أمامهم ، والتي نثروا فوقها ملاباتهم ، وعماطتهم ، فإذا بها غتر وتكاد تميل تحت
 يدي . وفي هذا الوقت كان أحد الرملاء يكتب شيئاً ، على ورقة يضعها على هذه
 الطاولة ، فاهتمت الورقة ، فنظر من تحت منظار كك يضعها فوق عيبه

وقال « حاسب » ثم استأنف عمله . أما أنا فقد أحسنت أن ارتكبت خطأ فادحت .
 فقد قبلت كلمة « حاسب » جافاً ، بلا عمالة ، ولا حتى دون أن يكلف قائلها معه
 النظر إلى واستعدت عن معاهد المحاميين إلى منصة القاضي ، ودفعني الرحام دفع
 فأسدت ظهري إليها ، فإذا بها تهتر بدورها وتكاد تسقط أو تترجح من مكانها .
 وسمعت صوتاً يبعث من فوقها ، فطرت فإذا شاب صغير يحيط بجلس على مقعد
 القاضي ، ويسط أمامه أوراقاً كثيرة يقلها بي يديه بعول في صوت يسم عن ميل
 صاحبه إلى الدعامة « حاسب يا محترم » ويطرب إليه ، فطر إلى نظرة خاطفة وعلى
 شفه اسامة أحلته دون أن يتوهف عن الكتابة ، والناس من محاميين ، وغيرهم ،
 لا يكونون عن بدائه في تودع طاهر « يا حبريل اهبطي » تارة ، و « يا استاد جبريل
 تارة » و « يا جبريل بك » تارة ثالثة ، وهو يجهيهم جميعاً إجابات أكثرها دعابات
 ووقعت أتايع أحاديث حبريل اهبطي مع الناس ، وقد استطلعت أن أتبين أنه كاتب
 المحلصة ، وأنه انتهر فرصة تأخير القاضي عن الحضور ، فأخذ يحرق بعض أعماله ،
 من تبييض أحكام ، أو استيفاء محاضر جلسات .

ولما حفت الحركة في القاعة ، بعد وصول المتهمين وإيداعهم القفص ، وبعد
 ابتلاء القاعة بالسفارة ، تيبب شخصية ذات حطر ، تلك هي شخصية
 « الحاجب » والحاجب قبل افتتاح المحلصة ، يتمتع بحيازة أهم ورقة نصائية تلك
 هي كسب القصايا التي اصطلاح على تسميته بلفظة فرسية هي « الرول » وهي
 ورقة طويلة تكتب عدة بخط رديء تتضمن أسماء المتهمين حسب ترتيب قصاياهم ،
 ولا تنقضي لحظة على حاجب المحلصة دون أن يقتررب منه شخص ليظهر إلى هذه
 الورقة ، وأحياناً يدنو منه شخصان أو ثلاثة ويمدون أيديهم في وقت واحد نحوها
 ليأخذوها معاً ، فيلفوا عليها نظرة ، ولا حظت أنه لا يكاد يدعها تخرج من يده ،
 فإن أعطاهما لأحد بقى طرفها في يده ، ولا حظت أن طلبها منه يحدث أحياناً وهو
 مشغول بحديث آخر ، فتمتد يده بها ، وهو لا يزال ممسكاً بها ، لا يدعها تغفل من
 يده ، ووجهه متجه إلى من يجده .

وراق لي أن أراقب الحاجب عن كثب فافترت منه ، وسألت عن قصية تهايم ،
 فإذا به يكمل اسمه ويقول « تهايم عبد المولى ؟ » قلت نعم ، وكذت أعمل كأي
 قروي صادق ، فأسأله هل تعرفه ؟ .

ولكنى أردت أن أتأكد ، فلم يمانع فسطى الورقة في سرعة فأحلب بطري
فيها ، فمجرت عن حل ومرها ، ولكن وصح أصعبه ، وكأنا بمرأى طرفه ، برايل ،
للعيبان أى بالنحسب ولحت اسم هلمى ، وطوى الحاحب الورقة في حبه ،
وانجى حاجة الباب فأسرع إليه اثنا أو ثلاثة كل منهم يطلب إلغاء نظرة عن هذه
الورقة المقدمة ، وسمعت فقهه عاليه حاجة مقاعد المحاميين فحدثى هذه
الفقهية ، فاتجهت ناحيتها

دبوت في استحياء إلى حيث يجلس رملاتى المحامون ، وقد اتعظت بتعريقى
التي لم ينقص عليها دقائق فلم أصعب يلى على الطلوة ، فقد أدركت أنها لا تحتل
ضعطاً ، وابتعدت عن منصة القاضي أيضاً ، فهي غير ثابتة ولا مستقرة فالأشياء
في هذه المحكمة مبررة تتحرك ولا تثبت شأن جميع من فيها فهم قلقون غير
مستقرين ، في موسهم من الاتصال ، ما يقيمهم ويقعدهم ، وليس فيها
ما يطمتهم أو يثبتهم وقت أنظر إلى المحاميين ، وأنقل عيني إلى وجوههم ،
فأداهم مستمعون إلى أحدهم ، يروى النافرة وراء النافرة ، والفصة وراء الفصة ،
وهم مستغرقون في الصلح ، وانتقلت إلى حالتهم التي شملتهم فارتست على
شفتي ابتسامة دون أن أشعر بذلك ، وامتلأت بمسى بحواطر بيحة فاختتمت
القاعة برجاجها واضطرابها وفوصاها واحتوى قصص الاتهام الذي غص برلانه ،
الحلوس والوفوف ، والصغار والكبار . ولم بعد أمامي إلا هذا العريق : أفراد هذه
الأسرة التي انتسبت إليها ، دون أن يقدمى لأحد لها ، ودون أن يقدمها أحداً لي .
هؤلاء هم رملاتى الذين سأعيش معهم ، (أتعلم منهم ، وسأناظرهم وأناستهم
فمن هم ؟ وكيف هم ؟ .

عجباً ، إنهم يصحكون ملء قلوبهم ، ويتأدلون الدعابات ، ويتجاذبون
أطراف الحديث ساحرين بكل شيء ، وبكل السلس . فهل لم يقف بعضهم من
بعض موقف الخصومة والمناصرة في القضايا ؟ هذا غير معمول ، فلا بد أن يكونوا قد
تداولوا آراء بعضهم بعضاً بالنقد والتصيد ، بل بالسحرية والتتديد

فما أعجبهم من مقاتلين ، وما أجدها مهنة للحب والاحترام وسألت بمسى
أهم الكبير ، وأهم الصغير ، رأيهم تعاونوا في الأسلاك والأعمار فمهم الصغير

الذى لم يلع سس الرشء إلا مند قليل ومنهم من تجاور الستى وأشرف على السمع ومع ذلك فهم ، الواحد منهم بجوار الآخر ، كالأناء والأشاه ثم ما بالهم جميعاً تهر أعطافهم حيوية شانه فلم يقع نظرى على واحد منهم يمر قدميه فى تناقل ، أو يتحدث فى حموت ، أو يتحرك فى إعياء وغارص .

وتوات حواطرى ، وأنا أخطو خطوات الأولى فى طريقى إلى حرم هذه المهنة ، وقيل وقوى فى صفوف جودها

وكان أولى هذه الحواطر ، أنها المهنة الوحيدة التى تعرض بصاعتها علنا والثى تحكم الناس عليها أولاً بأول والثى يعيش فيها أناسها فى امتحان دائم

فالطبيب والمهندس والمعلم والمؤلف والموسيقى ، يعملون فى عرفات معلقة ، والذى يتعاملون معهم ، لا يملكون إلا السكوت أو المواجهة أو الاستسلام . فأى مريض يستطيع أن يعرف معنى هذه الدقات التى يدقها الطبيب على صدره بطنه ، وعند قلبه ، وأى عليل سأل مصالحه عن المشراط أو المحدث أو الدواء الذى يستعملونه ، والمهندس هو الذى يستقل بمعرفة الأرقام التى بصريها ، ويقسمها ، ويجمعها ، ويطحرها والمؤلف ، يكتب ويفكر فى حلوله ، لا يدري أحد من استعان ، ولا يفهم عليه أحد صعوبة عمله

أما المحامى ، فمهما ذكر فى حلوله ، ومهما استعان بميره فى وحدته فهو لا بد أن يفهم أمام الناس ، ليعرض بصاعته ولا يكفى أن يرضى القاصى ، المحمور بسمع ويحكم ، ولا يكفى أن يرضى الوجدان وحده ولا أن يرضى العقل وحده . بل لابد له أن يرضى الناس معاً ، ويرضى معها أو ضلها فنه وصميره

وبصاعة المحامى ، فى تناول الجميع ، فأكثر الناس يستطيع أن يفهم ماذا يقول المحامى ، وأكثرهم يظن أنه قادر أن يقول كلامه ، وأحياناً أن يقول أحسن منه

فالحاماة مهنة إنسانة ، شديدة الاتصال بحياة الناس ، لأنها شديدة الاتصال بالناس أنفسهم

يكتب عن المحامي ، ما لا يكتب على غيره في النهى الأخرى ، فأصحاب المهنة الأخرى ، يتنافسون ولكن لا يسيئون أمام الناس بينا المحامون في سباق مستمر ، فالمحامي مهما كبر ، لابد أن يقف أمامه في الطرف من الدعوى عمام آخر قد يكون أصغر منه بكثير ، بل قد يكون من تلامذته ، الذين شوا في حجره ، وشأوا في حصصه ، وتعلموا معه . بل إن المحامي الوالد قد ينظره أبه ، فلا كرامة في المحاماة ، إلا للمهونة والكمايه والاحتهاد والسعة ٩

والمحامي وحده دون غيره ، يعمل شيئاً ثم يدع كل ما يعمل به يدي غيره ، هو القاضي ، فإذا نجح ، اقتسم معه القضاء على أحسن العروض ، نصف الثواب ، إن لم يذهب الآخر كله للقاضي العادل ، وإن فشل ، ما كان له أن يقول إن الخطأ ليس خطأ ، وإن قال ابتسم الناس

والمحامي وحده ، الذي تتجدد حياته ، يوماً بعد يوم . فما من يوم يمر عليه ، إلا وهو ينتظري آخر يومه ، نتائج عمله في قضايا ، فهو بين سرور وحيه أمل دائمين ، لا تؤذيان أبداً به إلى بلادة في الخس ، بل تجعلانه أكثر نشاطاً للحياة ، وأكثر استرخاءاً للمستقبل . .

والمحاماة ، بعد هي مهنة الكلام ، وهي الطريق المصروف دائماً بالمحاور والمحاطر ، فأسعد الناس هم أقلهم كلاماً ، وأشقاهم الذين تقتصيه طائفتهم ، أو وظائفهم ، أو صماتهم ، أن يقولوا ما يطوون عليه صدورهم بما من كلمة ترعى أحداً إلا وتسحط غيره ، وما من كلمة مطلوبة اليوم ، إلا وهي مكرره عداً ، وما من كلمة لا قيمة لها حينها نقال ، إلا جاز أن تصيح ذات حطر حينها تذكر بعد زمن طويل أو قصير . .

إذن هذه هي المحاماة ، على بركة الله ، والله المستعان

ولما عصفت عن نفسي هذه الحواطر ، اردت اقتراباً من المحامين ، وكأني أود أن أصفحهم جميعاً ، وأن أقول لهم أنا رملكم الجديد حسين القويسى ، ولكني لم أحتج إلى شيء من هذا فقد أقدم أحد المحامين ، بجمل تحت إبطه ، محفظة تكاد تنمرق من فرط ما امتلأت ، به من الأوراق ، ووضعها بتؤدة شديدة على الطاولة ،

ولم يكذب بغير دلائل عليه حتى هلكوا . فقال : إنه يا أولاد ! وسطر إلى وقال عبدك
مرة كم يا أستاذ ؟

ولماد سألني أنا لست أفرى قلب ١٧

قال حسناً ، إذا طلبت ١٨ أحجزها لي أنا في الحجره المعدنه على
نصيه صغيره

وترك عصفته وذهب ، وكان إلى جانبى زميل بكرى عللا ، قال أنتظر أن هذه
الأوراق ملعت قصايا ؟

قلت إند ماذا تكون ؟ قال لا بل كتب من كل نوع في العسمة والأدب
والطب والتاريخ بالعربية والإنجليزية والعربية . هذه حسارة حقيقة

قلت وأنا شديد الرغبة في أن أحد من أكله ولماذا حساره ؟

قال إنه لا يتنعم به في شيء . ولو احتار لنفسه فرعا ، لأحد وأحسن . ولكنه
لا يحتمل الصبر على شيء واحد إنه من نوع مزلى العهد الذين يؤلفون في
كل شيء . . ألم تقرأ له شيئاً

قلت أبداً . . .

فغفر زميل فاه مندهشاً وقال ألم تسمع باسمه ؟

قلتلى حياه : أنا . . أنا لا أطلع كثيراً ..

فهر رأسه وكأنه يريد أن يؤسى ، فالتفتي نادياً بهذه الحركة ، فالتفتي ولم يسعنى
لسان ، عجوز لبق ولكن لم تتسع لي فرصة التكبير فيما قال فقد تدخل في حديثنا
أستاذ في نحو السنين قائلاً أتتكمون عن الأستاذ فلان ، قال زميل نعم ، فقال إنه
من رملاتي في الدراسة ، وهو أعرب الناس جميعاً ، فاطلاعه الواسع ، جعله مثل
المعارضة في كل مجلس فإذا كانت المناقشة حول الدين ، ورأى أن الخالسين قد
مالوا إلى تأييد فكرة التندين ، دافع عن الإلحاد ، وبثر على السامعين آراءه فحلاسه
العرب والشرقي ، المؤيدة لرايه ، وتهكم بأسلوب لادع على رجال الأديان من علماء
وأساقفة وأحبار ، وروى عشرات من القصص الدالة على خللهم

والدعوات ، ولم يدع لأحد عمالاً لقول يقوله ، وإن رأى جماعة من الملحدين الهب ظهورهم بسوط لسانه ، وتهكم عليهم ، وسمه أحمالهم ، وعدد من آيات الله الناطقة بوحدايته ، واستشهد بأقوال علماء الطبعة والرياسة عن إيمانهم بحال خلق ومدع السموات والأرض ، وإن رأى شيواً يقرأون في القُرطبي والسفي وسعد بن عذرة واحافظ ، وسجعهم لأهم لا يزالون يعيشون في الملاصق ، ودعاهم إلى أن يفتحوا عموهم ، ليعرفوا ديكارت وبينشه واضطر وإن اجتمع شبان اتوا عليهم في أوروبا وأمريكا ، وأداروا على ألسنتهم أسبه داروين وبيوتن وأيستين ، أو شكسبير وحيته وهيجو وصعهم ، بأنهم عبيد العرب وأنهم باعوا أنفسهم لخصاره غير حصارهم ، وأكد لهم أن ما في بطون كتب العربية في الطبيعة والفلك والكيمياء والطب ، أصل أصول العلوم ، وإن رأى مترجمين متوفرين لا يفصحون عنهم وهرأ من جدتهم ووقارهم ، وإن رأى صاحبين انطلقوا على سجيتهم ، علمهم أحسن الأدب وشرهم بسوء المقلب وهكذا وهكذا

ولما أكمل أستاذنا الذي يكرما وصف رمله نجت على الله ، أن اسمعه في تلك جلسة وإن أراه ، ولكي فاحاتنا حركة ، انشقت لها صفوف الواقفين في طرفة فاعة ، الخلسة وظهر على باب القاعة رجل أبيض ، تنال حيويته ، وتلمع عيه لمعان الفرح والثقة والاعتزاز ، وسمعت زملاء يكررون اسمه ، وكنت قد سمعت هذا الاسم من قبل ، فتزايد وجيب قلبي إذ عرفت أنني على بعد ذراع من صاحب هذا الاسم الصخم ، وأحسست بملادة دونها أية ملادة إذ تصورت أني سأسمع هذا المحامي الكبير يتراجع ، في نفس القاعة إلى سائر أبع فيها أنا ، وأمام نفس القاصي

وقلت لنفسي وهذه مرة أخرى من ميراث مهنتنا

فالتطبيب الصغير ، أو المهندس الصغير أو المدرس الصغير لا يستطيع أن يشهد كل مهم الكبار من رملاتهم وهم يؤدون أعمالهم إلا لماماً ، ومن مد اليوم الأول برى أستاذنا ، وسمعهم وتحدث إليهم ويستفتحهم وبألمهم

وسأل المحامي الكبير ، هل القاصي شرف ؟ فقيل له ، إنه مد دقائق لم يكن قد حضر ، فاندفع إلى باب حجرة القاصي للزدية إلى قاعة المحكمة والعيون تشيعه بتفترات الإعجاب والإعجاب :-

وحانت من التهمة إلى الصوف الخلفية في داعة المحكمة ، فرأيت عم
تهامى ، جالساً وإلى حاسه حميد ومدبولي ، أما تهامى ، فكان على العهد به ، كان
لا صلة بينه وبين هذه القاعة ، فهو لا ينظر إلى يمين ولا يسار ، ولا يتابع شيئاً مما
يجرى فيها من حركة ، أما حميد ومدبولي فقد أحدا في حديث متصل ، كانت تلمع
له عينا حميدة الواسماتك الصاحتان بيها كان مدبولي حلاله بجلاً معه بقطع من فطير
اشتره من بائع الفطائر ، وعليه من علامات الرضاء والطمانية ، ما يدل على أن
الأمور تسير في حياته ، وحاء ولكن — أين أين عبد الجابر سرى ؟ لماذا لم يظهر ؟ هل
بعض يده من تلك القضية ، وقطع صلته بهذه الأسرة ؟

ولم يطل تساؤل ، فقد لمحت عبد الجابر ، في بدلة جديدة ، وربطة عنق
جديدة ، ووقوف رأسه طربوش الذي حيل إلى أنه لا يزال بحرارة المكوى هل ظل
عبد الجابر أنه في يوم عيد أم اعتر حضوره إلى المحكمة ماسة ، تستحق التهنؤ لما
يلبس أحسن الثياب . .

ومع ذلك فملاس عبد الجابر لم تكن تشغلي في ذاتها ، إنما كان يشغلي فيه
ما وراء ظاهره فتأملته طويلا ، وأبغض تأمل فيه عن القاعة ومن فيها ، فكان
وحدى في حجرى ، وكان كل الذين حوله قد ذابوا

وهذا هو عبد الجابر ، لا تتلقى عياه الصغيران النافذتان في صفحة وجهه
الأسمر المثلث لقد حباضوهما ، أو هذا على الأقل ما تصورته ، وجلس بعيداً عن
الباس ، لا يتكلم لقد تكلم عن ثرثرته ولم يعد قادراً على أن يورع على الباس
ذات اليمين وذات اليسار أفكاره ونحوها . .

إنه لم ينظر إلى حميدة وصاحبها ، طوال اللثة التي نظرت إليه فيها ، فهل لم يكن
يعرف مكانها من القاعة ؟ وكان هذا صراخ المستحيل ، ولكن أية فائدة من النظر
إليها ، وقد كنت له أنه لا يستطيع أن يصل نفسه بحميدة ، لقد شك في أن
مدبولي ، أثر عدها ، وأقرب إليها ، فطار صوابه لهذا الشك ، وكان دفاعه عن
كرامته معه ، وكان تعبيرة عن ألم الحرج الذى أصابه ، أن يمد يده إلى الباس
طراز من الأشقياء الذين يحطوهم الحط ويمسكون العشل والهرمة ، فلا يطيقون أن
يعبروا عن ألمهم لهذا العشل بالصرخ ، ولا يجدون بين أيديهم من القوة ، ما يعينهم

على أن يقاوموا ، ويحصوا الإقوال المخرجة هؤلاء هم الذين يظنون أنهم يعلمون الحياة بالاستعلاء عليها ، ويظنون الحرمان ، معصاة نصيبهم منه ، والمالعة بتعليب أنفسهم به ..

وفي المهرمين في الحياة ، من يلد لهم أن يظنوا التكبر في هزيمتهم ومعرضوا ألوانها عليهم ، تنفي صورها في أدهاسهم ، تعكس بالتالي على ما يقولون ويفعلون ..

وأحسب أن عبد الجابر كان من الطرار الأول ، لقد قرر ألا يبدو مهتبا ولو كان قراره صدر وهو في حالة طبيعية ، لما فاطح حيلة وأناها ، ولما فاطمى أنا ، ولكن كان لابد أن يبالغ ليشع رعبته في إيداء نفسه ليمزى ما أتعسا نحن البشر ...

إننا لا نكاد نفهم أنفسنا ، إننا لا نكاد نفهم الغير ، لذلك فإننا لا تكف عن مصارعة ذواتنا وقلوبنا ..

إنك تعيش في دهاليز متداخلة في المجتمع ، جعلتنا يعيش في دهاليز مصروب ، متفاطمة ، مع أنفسنا ؟ ..

وتصورت في هذه اللحظة أنني لو أخذت عبد الجابر من يده ، وقلت إنك تريد أن تزوج حيدة لصرح (نعم) ، ولو قلت له إنك تريد أن تطمش إلى أنها تحبك دون مدبولى لراد صراحه علواً ، ولو سمع كلمة لطيفة منها ، لانهارت مقاومتها ، ولكن دون ذلك كله كبرياءه الذي راد بعداً عن حقيقة نفسه ، وكلها بعد هي نفسه ، زادت هذه الحواجير ارتعاعاً حتى ينتهي به الأمر إلى أن يقع خلفها كطغل ، يرتقى خلف الباب ، ليكني ويضرب الأرض بيده وقدميه ..

ونقلت عيني إلى حيدة ومدبولى أو قل نظرت إلى مدبولى وحده . ولكم أحسبته إنه لا يزال على العطرة كان يحب حيدة منذ السداية ، فلما ظهر عبد الجابر ، بقي أقرب ما يكون إليها ، فلم يستسلم لشواجر من صنع حيالها ، كهو حسن عبد الجابر . ولم تنس له الخيالات كبرياءه إنه الآن فرح بها كطغل ولعله لا يذكر عبد الجابر لا مختبر ولا مشر

وحدث في هذه اللحظة أن تنهى العصبة .

وصرح حليج الجلسة ، صرخة أخرجتني من تأملاتي لتروني إلى الحياة التي لا تحترم حرباً ولا ألماً ولا حبلاً ولا أحلاماً ، فهي في سرها الذئب المتجدد ، تريد ما جميعاً أن يسير معها ، فإن تلكأنا دفعنا ، فإن لم نكن في مثل سرعتها ألقتنا على وجوهنا ، فإن لم نقف سريعاً على الأقدام ، داسنا الأقدام

وهزوت رأسي كأنما أنقص عنها ما كانت فيه من حيالات حميدة ومدبولي وعبد الحارث ، لبني في رأسي شيء واحد ، هو القصة وليبقى أمامي شخص واحد هو تهاشي عبد المولى ، مقتربا بمعنى واحد : الواجب . .

وكجلسي صغير يدخل المحكمة لأول مرة ، أخذت مكان في مصفوف المحامين ، وقمت يميناً يججلج صوت الحاجب . .

محكمة ١ .

ووقف الجميع ، وكأنما كانت هذه الصبحة وهذه الوقفة ، بمثابة عطاء سيج من أجل وأسمى الخيوط ، وأسدل على مجموعة من سبط المتاع ، فأحفاها عن الأعين ، ليظهر دونها بديهاً أنيقاً

بعم أسدلت هذه الصبحة على قاعة المحكمة القديمة التي ارتفع فيها سواد الرطوبة إلى منتصف حدرانها ، والتي امتر وترافق فيها كل شيء المفاعد والمصبات وقمص الاتهام أسبعت هذه الضجة مظهر الجمال والجلال على المحكمة .

ولأول مرة وقع نظري — وأنا واقف — على صورة معلقة فوق رأس القاضي ، صورة علاء من العبار ، يفتخر ما علا رأس القاعة بعصا فالصوره كانت أعلى من أن يطولها الفراش بيده ، فلايد له من جهد ليصل إليها ، ولما كانت الأشياء التي هي أقرب مالا لا نال حظها الكامل من النظافة والرعاية ، فإن المنطق يقضي بأن تكون هذه الصورة وهي مرتفعة احتارت لعصا هذا المكان العبد ، أقل حظاً من النظافة ، أو لعل هذا هو العدل . .

ولا أقل من أن يجري العدل في دار العدل

ونظرت إلى الصورة صورة رجل في اكتمال وحيوة ، ذي شوارب مرفوعة وعينا صاحبا حاليئان من كل مظهر إنه ينظر إلى رعاياه في هدوء وثقة بأن كل شيء يسير على الصورة التي ترصيه هو .

كأن الشيء بالشيء يذكر ، فقد دخل القاصي - سير في تودد كاملة يحمل في يده - لدهشتي - منه وله شاربان مشابهان لشارب صاحب الصورة لمعتة وكنت قد سمعت من رملاتي المحامين أثناء أحاديثهم الكثيرة ، أنه لحرقة ماقية من جين من القصة القديمة لم تصبهم الترقية ، المرة بعد المرة ، والحركة بعد الحركة ، يبعثون بعض عاكس العاصمة رعاية لهم ، وقد أكسبهم المراء ، وطول الطيرة ، آخر العمر ، ما أغورهم في صدر الشاب ، حينما تفر إخوانهم دوسهم إلى المناصب الأعلى .

دخل القاصي وقد طابق شكل شواربه ، شوارب الصورة التي بقيت نعلوراسه سير طويلا ، وجلس ، فطرت إلى وجهه ، فرأيت عليه من علامات الطبقة والوداعة ، وطول المال ، ما طمأنى سكنت القاعة لأن القاصي اعتلى المنصة ولكن يأبى الضجيج أن يدارقها ، فإنه يتدفق إليها من الطريق عن مواعده العاليه ، سمعنا ألوانا مختلفة من أصوات ذلك الطريق

وقد كنت أظن أن الأصوات تعكر على القاصي ما يحتاج إليه من هدوء ولكن بدا لي أن القاصي لما رأى أنه ليس ممكناً الفرار من هذه الأصوات ، فقد استعمل في أدائه وظيفته فصحا تعليقاته على مراءعات الأساندة المحامين ، وقد ألب المحامون هذا الأسلوب منه ، ونشأ بينهم مفصل روح القاصي الخفيفة مصطلح يعمهون به بعضهم بعضاً ، مائع العرقسوس يصرح « الفسر طيب » وبائع لحمة الرأس يصيح « نرح » وبائع الخرافات ينادي على جريدة « السيلسه »

فالفسر طيب ، يرددها القاصي إذا بعد صبره لطول المرافعة ، وتفرح نقال إذا ألق المحامي في أمر لا يحتاج إلى الجراح ، والسياسة نقال ، مصحونة معارة ، « لأمش عاورين السلسه » إذا اقتحم المحامي في مراءعته ، أموراً عامة لا تصل بموضوع للدعوى ، من قبل الدعاية لحرره ، أو التتقدم بالحكومة العامة

ولم تكن جلسة ذلك اليوم بالعادية ، فقد ظهر أبا مشهد مراعتين كبيرتين
إحداهما في قضية عادية ، كان التهم فيها طيباً ، أسد إليه أنه قتل سيلة خطأ لأنه
استعمل مخدراً على غير الوجه الذي تقضى به القواعد الصحيحة والثانية قضية
مظاهرة سياسة وكانت القضايا التي نشبه قصصى من بين القضايا الهامة خليفة
بالتأجيل مع جهد يسير منى ، ولكنى كنت لا أعرف شيئاً من ذلك ، ولم أكن أحرز
حقى على التفكير فيه .

وبدأت المحكمة صردى على القضية الأولى ، ولم أسمع عما دار فيها شيئاً ، فقد
وقف أمامى من حجب منصة القاضي عى ، واشتد تلاصق المحامى على المقعد
المخصص لهم ، حتى كادت أشعر بأن أعصر عصراً ، على الرغم من نحافتى
البالغة . . .

ثم سمعت المحامى الكبير يقول . القضية رقم ٢٠ : لقد وجوت سيدانكم
طلبها ، والأساتذة لا يعارضون . .

ونودى على القضية رقم عشرين . ووقف شاب ، هرعت أنه من الأجانب
التمهرى ، أنقى ، كل ما فى ملبسه مع حركاته وسكناته يؤكد مع وقته أنه
لا يبالى بالمحكمة وأنه مطمئن إلى أنه لن يصيبه ضرر وان أسوأ الفروض هو عرامة مالية
لا يابه بها ، ولا يؤده دفعها .

وسمعت الشهود وترافعت النيابة ، وترافع عام عن ورثة المجنى عليها التى
قتلت تحت وطأة المخدر ، ثم وقف المحامى الكبير . .

لقد كنت شهدت قبل ذلك اليوم روايات فى المسرح ، وهرعت هذا الشعور
الذى يجالطنا ونحن نسمع المدقات من وراء الستار مؤذنة بقرب بدء الرواية ، ثم
ونحن نرى الستار نسه يرتفع قليلا قليلا ، فكأننا يرتفع عن عالم مسحور ، يرى فيه
العجائب والعرائب ، وما يمتع أدهاننا ، وما يرضى أدواقنا ، وما يروح عن نفوسنا ،
وما يرفضنا فوق هومنا . .

ولكن لم أكن أصور حتى هذه اللحظة ، أن فى مقدر شخص واحد ، بلا
متائر ولا مناطر ، ولا أدوات ولا ملابس ، أن يؤثر على حيالنا تأثير المسرح بكل
وسائله ووسائطه

إذ ما كاد المحامي يقف حتى تعلقت الأنفاس في الصدور ، وشحمت العيون في الوجوه وانجذبت إليه الأفئدة والقلوب . وسكت كل شيء حتى حركة الطريق التي لا سلطان للسان عليها ، ولا صلة لشخصه بها ، حيل إلينا أنها هذات ، أورات ، لأننا انصرفنا عنها ، وشغلنا بهذا الرجل العجيب .

لم يكن قصيراً ولا طويلاً فهو ريمه ولكني تخيلت طويلاً ، وكأنه يظل هلياً من مكان عال ، يرتدى ثوب المعاملة ، الذي هو شقيق ثوب الأستاذة في الجامعات الذي هو اس المراجعة والحجة التي كان يليها أئمة المساجد في الأندلس ، ثم حاكاهم في لباس أستاذة الجامعات في السوربون وأكسفورد وكمبرج وفي غيرها من جامعات براغ ووارسو . .

كان يليس ثوب المحامي الأسود ، ذي الأكمام الواسعة ، مع أن المحامين لا يلبسون ذلك الزي في المحاكم الخزنية ، إلا أنه كان يعرف قدر مهنته ، ويدرك أن هذا الثوب ليس تزيئاً ، وأنه لا صلة بينه وبين درجة المحكمة التي يتراجع أمامها ، فهو من المحامي كالسماعة من الطبيب ، لا تفارقه حتى ولو ذهب ليكشف عل متولى ، لحق بجانب ربه ، وسكت قلبه ووقف نبضه .

وبالسحر هذه الأكمام الواسعة ، هلبا الثوب الأسود القائم إنما لم تتحرك وحدها كلها لروح بيده ، بل كانت تتحرك معها قلوبها ، وتروح وتغلو هيوها فكانت هذه القلوب وتلك العيون ، قد تعلقت بها ، فلم تعد في مكانها بين الضمير ، أو في المحاجر في الوجوه .

حتى أن مراعاة هذا المحامي كانت عجباً كلها . وإنك وأنت تسمعه ، لا تحس أنه يتكلم بل تشعر بأن الكلام يصجر من مكان في هذا الجسم الشيط المتله بالخيرية ، سهلاً بسيطاً ، فإذا تلمعت هذا اللسان الخرب ، أو تردد ، راده هذا الغيب ، لأنه يريك إنسانيتي ، ويكشف لك عن صدور هذا الكلام من عقل يهكر ، لا عن آلة ، تتدفق منها العبارات بلا حس ولا شعور . .

ولقد هممت يومئذ كيف كان آبلؤنا واجدنا يقضون أكثر الليل ، وهم يسمعون إلى الشاعر يروي لهم على « رباته » الساذجة وشبابته البسيطة ، أقاصيص

في شعر صعب ، نعوذه أحيانا كل حصائص الشعر ومجراته من الورد والثاينة
عزى الذى يحرك الخيال ، ليس هو الصوت ، واللون فقط ، بل اللفظ والصوت
أيض

وأى لفظ كان يقع عليه هذا المحامى ١ كل كلمة يختارها كأنها سحت لتوها لتعبر
عن المعنى الذى كان يعنيه . وأى صوت ١ إنه كأوتار الكمان ، أو كمفاتيح البيان ،
حسبه أنه يريد السحرية لتشعر أن ما يسحر به ، قد تهاك وتهلوى ومقط . أو أنه
يريد العصب ، لتحس بأن الأحوال موشكة أن تقع ، أو يطلب الرحمة ، حتى تحس
بينابيع العطف ، قد تدفقت في أعماق قلبك وتمسك

وأصبحت القاصى ، يتابع هذه الصورة المتلاحقة ، في سكود تام ، لا يحرك
عصوا فيه ، ولا يعبر وصحه على مقدمه ، وجد الحاجب ، وورقه المقدمة في يده ،
وتعلق المهتمون بقصص الاتهام وكأنهم رموس باتت بلا حثت فقد ثبتت العيون
لا تطرف ، وسى كل منهم أن له نصبة في ذلك اليوم

سبحانك ربى لقد جعلت الإنسان على صعب بدنه ، وقصر عمره ، وكثرة
ما يصطاح عليه من الأمراض والأدواء ، سيد هذا الكون ، وجعلت أقوى ما في
الإنسان ، اللسان ، على أنه شريحة من اللحم ، محبوبة بين شديقه ، لكنها تقيم
الناس وتقعدهم وتدعو إلى الحرب وإلى الفتى ، وتحرض على القتال ، وتجهل الحب
والبعص ، وترين الأشياء والأصداد من الأعمال والمشاعر والمعتقدات

وسكت صوت المحامى وكأنه قد فك الرقية ، أو التعويلة التى قيد بها ساحة أو
يريد من الرمان . فقد تحرك القاصى واحد من كان يود أن يعمل في السعال ، ومن
كان يحب أن يجرى في التوى الخروج ، ومن كان يريد أن يتكلم ، في الكلام

وأخرج المحامى منديله ، فمسح به عرقه ، وطوى أوراقه في عطفته في سرعة
وكانه لم يكن يفعل شيئا . مع أن قسمت وجهه ، نحى شعورا بالارتياح ، مرده أنه
كان يعلم أننا بقيا في قصة بيانه وأمر كلامه ، وقتا غير قليل

وقال القاصى المحكم أحر الجلسة وانطلقت الصبغة في القاعة ، وسمعت الضجة
التي تدفق من الشارع فالحلم السميع والطائر الذى وصحه بآثمه بأنه كله

« سمع » والعرقوس الذي هو شعاع عرخت عليها ، وأصوات النداء عليها ،
تزيها للأكليس والشايرين . .

وقبل أن يفتح القاصي فمه ، يطلب القصة التالية ، كان يسمع ها من بعيد ،
دوى وصحيح فلفنا رعوينا إلى الخلف فرأينا عجاً رأيا اثين من الشبان ، ركب
أحدهما كسي صاحبه ، وسط يديه في الهواء ، وأحد يصرح مرددا كلاما مسجوعا ،
لا تكاد نفهم له معنى ، ومع ذلك صاحبه ، يرفعه ويكرره وكلها كرره رادت
حماسة ، ونصب عرقه ، ويح صوته ، ومن حوله احرون يقفرون ، ويلبسون
ويكررون الكلام ، أحيانا بنصه ، وأحيانا مملوطا ، وإن كان على ورنه ، والناس
مهوطة ، مأخوذة لا تدري ما الذي وقع ، ومن أي مكان ست الهاتمون والمرددون ،
وظهر الحامل والمحمول . .

وفهمت أن ذلك كله طليعة القصة السياسية ولم أكن أعرف شيئا من أساليب
السياسة الحربية لأى كنت تلميذا بعيدا عن الشؤون العامة طوال دراستي الثانوية ،
ودراستي بالحامة ، لذلك اشرأت عني نحو هذه المظاهرة وتعمقت ما كان يجري
فيها بشعب عظيم وقد استولى على منظر هذا الشاب الذي أتىك معه في الحتاف ،
حتى إذا ما بلغ حد الإحياء ، رأيت آخر ، يمد يده إليه ، فينتزله من مكانه فوق كتف
صاحبه ، ثم يثب هو مكانه ، ليهتف بنفس الطريقة ، مكرراً نفس العبارات ،
ولكن بصوت أكثر قوة ، وأقل إنهاكاً ، ورأيت دائرة المتأففين ، ترداد وتسمع
وأدهشني أن كثيرين ممن كانوا يسلكون عن الحبر ، انضموا إليها ، وأغلوا يردفون
الحتاف ، والظاهر على وجوههم أنهم لا يعرفون معناه ، ولا يدركون هدف هذه
المظاهرة ، لما اقتربت منهم يدافع من العضول ، تبين أن الكثيرين يعرفون
أصواتهم بالأعاط قرية من الحتاف الصحيح دون أن تؤدى معناها . .

وبعد قليل جاء شاب آخر من حارج دار المحكمة ، بحمله شخص قوى البدن
أصلع الرأس ، وجرى به لينضم إلى المظاهرة الأولى ، ومن حله المظاهرون يتبعون
ويدلأ من أن يتم بين المظاهرين تملون ، قام تنافس فكان كل رعيم من الزعيمين
يصرح غير ملتق مالا إلى ما يصرخ به صاحبه ، والأتباع مورعون بين هذين الحتافين ،
لا يدرون أيهما يتامون . واستمر الحال هكذا ، والقاضي لا يستطيع أن يستأنف

عمله ، حتى حصر ضابط بوليس ومعه بعض حسوده عن يلبسون الخوذات على رؤوسهم . . فأسرع المتظاهرون كل إلى مكانه ، وجرى الشاف القوي الأصل بصاحبه الذى يعلو كفه ، وكأنه يبحث له عن مكان يجتئ فيه ، فلما ضاقت به السبل ، أسرع إلى سلالم تؤدى إلى الدور الثانى فى المحكمة وصاحبه لا يرمى عن هذا السبيل من العراء بحتح ويقترح طريقة أخرى ، وخامله لا يأبه باحتجاجة فقد أصبح شيئاً واحداً لا يتصل فلما بلغ أعلى السلم نظر الناس إليهم فى الدور الثانى منهذين إذ لم يكن خبر المظاهرة قد وصل إليهم ، فلم يهموا سر ركوب الشاف ، كتب شاف آخر وعنوانها هكذا فى زدهات الدور الأعلى للمحكمة

أما زعيم المظاهرة الأولى فقد قفر فى سرعة ورشاقة وخفة ، من كتب زميله ، واحتسب فى مثل لمح البصر ، وذهب كل متظاهر إلى حال سبيله ، كأنه لم يشارك فى هذا العمل منذ قليل . ووقف الضابط وعساكره أمام قاعة المحكمة .

على أن المتظاهرين ، بعد أن أسوا عصى البوليس ، تسللوا إلى قاعة المحكمة ، عملاً بأركابها وأراحوا بعض الجالس على المقاعد ، فاحتلوا . ولم ينفض إلا القليل ، حتى سمعوا فى الخارج تصفيقاً ، ودارت رموسنا إلى مصدر التصفيق ، وما هى إلا لطات ، حتى هل محام كنا سمع اسمه ، وسرى فى الجرائد رسمه بسلام ، وهو يجب فى رداء المحاماة مفتوحاً ، قد ملأ الهواء ، فكانه طائر أسود ، لا يقوى على التحليق فى الفضاء ، فغلب بقدميه على الأرض ، وكان ذلك المحامى لا ينظر إلى أحد ، فهو يسير مندفعاً كأنما يحيط من كل مفتوح الصدر ، بدورى الناس بهيمه لا تستمران ويرفع يده اليمنى قليلاً يرد على غيات يفترض حصولها وأنها له ، حتى إذا وصل إلى مكانه ، من مقعد المحاميين ، تطلب فلما وذلك من الزلاء . ووقف أمام القاضي ، يسأل ما إذا كان يمكن طلب القضية رقم ٣٨ .

ونادى الحاجب على القضية ، كأن طلبها أصبح محتملاً ، وسأل القاضي عما إذا كان رجال البوليس الذين طلبوا فى الجلسة الماضية للشهادة ، حصروا ودخل ضباط عظام وشبان ، فادوا التحية العسكرية ، فأصبح نظر القضية لا معرفته . . وكان معي ذلك أن الجلسة مستطول ، فقام زملائي إلى محاكم أخرى ، أو إلى قاعات أخرى

في نفس المحكمة ليعرّوا من أعمالهم وقيمت في مكان أشهد هذا اللون الظرف من
القضايا

ولمّا جاء دور المرافعة ، طلب أنا سحلق تحلفاني القضية السابقة ، ولكن كم
كانت حية أمل عظيمة ، حيناً رأيت المظاهرة التي كانت على باب القاعة ، قد
انتقلت إلى المرافعة



وجاء دور قصيتنا بعد يوم مليء مشحون بالحركة سمع فيه العاصي كبار المحامين
وكبريات القضايا ، ههل لتهامي عبد المولى ، وقصيته ، وهل لمحامي حسين
القويسي ومرافعته ، مكان عند القاضي ؟ وهيب من عساياه المحكمة
ورعايتها ؟ لقد حلت قاعة المحكمة تقريبا من شهودها ، وخلا قصص الاتهام من
حشروا فيه حشرا ، وأصبحت أنا والقاضي وجها لوجه ولم يكن على مفاصل
المحامين ، إلا عدد قليل ، أكثرهم من أمثال المحامين المتدنيين ، أو المحدثين

وبدئ على (تهامي) فجاء بثلث لا يدري أين يقف ولا كيف يقف شك
دراعيه فوق صدره ، فأنزلهما العسكري للواقف إلى حوائره ، فشكها خلفه ، فمدل
العسكري من وصمها ، فتركها إلى جانبه ، والتمت إلى القاضي وشفتاه تنلوا شيئا
من القراء ، وبظرت إليه ، وكأن مشفق عليه من قلة حرق ، وصعب حيلتي ،
وأحسست بوطأة الواجب يثقل عليّ ولكني شعرت أيضا بأن من واجبي أن أنفي من
نفس كل خوف ، وأن أتمد من ثقة هذه العائلة الفقيرة بـ ومن إيمان هذا الشيخ
الطيب وإخلاصه لي قوة . وسمع الشهود واحداً واحداً ، وحيل إلى أن قصيتنا
هذه أصح من جميع ما رأه القاضي في يومه الحافل ، فقد استمررتي ، كان قلبي
يقفر فرحاً حيناً ، ويكاد يتوقف خوفاً من ضرباته حيناً آخر ، حسب تطورات هذه
القضية الصغيرة ، فشهود القضية الذين كانوا معاً ، وشهود الإثبات الذين كانوا
عليها ، جعلوا منها بحرّاً تتلاطم أمواجه ، ويمثلو به اند ويطه به الحرر ، وأنا في
الحائرين ، أنظر إلى وجه تهامي فأخجلته في ثياب السجى ، مدفوعاً بتمتر في خطاه ،
ويكاد يبك على وجهه فأكاد أسقط أنا إعياءه ، وتلوة أراه قد عاد إلى بيته ، وتزوجت
أبنته فيعلو وجهي البشر والسرور .

وبين الحين والحين ، كنت أنظر إلى وجه القاضي لأتبين أثر ما يسمع ويرى ، فلم يقع نظري على وجهه إلا على آيات رحمة كبيرة ، ومظاهر أبوة واسعة ، بعد أناس أرى في حرم المحكمة ، وأنه في منصف الحكم ، وأوهى بأنه أحد دوى فرماي وأنه لم يبق إلا القليل حتى يقول لي يا « ابني » . ويدخل إلى قلمى الطمأنينة والثقة

وفجأة سمعت صوتاً يأت من بعيد ، يدعو إلى المرافعة ، انفصل انترافع « انترافع ؟ من ؟ أنا ! ماذا أقول ؟ » لقد قضيت الليلة الماضية أحضر كلاماً ، وأرتد دفاعاً ، وأجرب نفسى ، ألحذف وأضيف ، وأغير وأبدل ، واحتصر ، حتى لا يسأم القاضي ، وأطيل وأسهب حتى لا أزع فكرة ثقلت عنى ، ولا حجة تصعب على صوكلى .. ولكن أين هذا كله من رأسى لقد تبخر وذل ، ولكن أسمع نفسى أتكلم . لسالى يتحرك ، القاضي ينصت ، ماذا كنت أقول ، كيف بدأت ؟ كيف انتهيت ؟ لقد تصورت أن القاضي ينسم كما ينسم الرجل الكبير للطفل الصغير ، حينما يراه يقلد الكبار ، بلبس لبهم ، أو يمشى مشيهم ، أو يكرر كلامهم . لقد بدأت أتكلم عن الأصول المفهومة من وجوب وجود صلة بين الخطأ المنسوب إلى موكل وبين إصابة المجنى عليه ، ومثل هذا الكلام لا يقوله عمام مجرب لأنه من البدهيات المسلمة .. وتغير إلى أننى أعطلت فاريتك ، ولكن القاضي لم يقاطعى ، وواصلت الكلام .. كم دقيقة لست أدري أطلت ؟ لم أوجرت ؟ لست أستطيع أن أقول .

وقال القاضي كلاماً رأيت نهائى بعلمه يسحب . إلى أين ؟ هل حكم عليه بالحبس ؟ لا بد .. أن المسكرى سمعه ، وجلست إحياء فى مقعدى ، ورأيت هذا تمتد إلى .. يد من ؟ يد أحد الزملاء ، لهله كان ينتؤن بالمرافعة ، أو لهله كان يشجعى ويواسى ، ويخبرنى بأن هذا ما يجب أن محتمله جميعاً ، ونحى فى طبيعة حياتنا العملية .

وفىما يشبه حالة الإفاقة من عبوبة ، رأيت وجهاً أعرفه جيداً . هذا هو وجه حميدة .. إن عتبتها ضلحكتان ، إذن لا بد أن القاضي حكم بالسرعة فهذا حدث ٢

وأخيراً علمت أن العاصي مطلق بالحكم آخر الجلسة ؟ متى يكون هذا الآخر ؟ أفتقرت قاعة المحكمة وقام العاصي ولم أعد أرى أحداً سواي وبعض كنه المحامي ، وبعض أصحاب القضاة

وفي ركن من الأركان عبد الحايك ..

وبدا لي عبد الحايك كأنما هو ذكرى قديمة ، وسرت نحوه ، وأنا أسحب رجلي سحاً ولما وصلت إليه مددت يدي ، ومضت يده ، قبل أن يصابح اليد الممدودة وقال : « يشاء الله خير » وأخست أن هذا رجاء لا عاطفة فيه ، ولا مودة ، أبكون هذا هو عبد الحايك سرى أفندي الذي أعرفه ؟ أبكون هذا الشخص الذي كان يتدفق مرحاً وحيوية وطنية لا إنه الآن التحفظ بعينه ، فما أسرع ما يتحول لناس .

ولم يطل انتظاراً ، فالغاريب دوت ، معلنة أن تهامي حكم ببراءته

أنبلت حميدة ، من بعيد ، وقد سقطت عن رأسها الملامة ، وانسلخت إلى القاعة

إذا كان يمكننا تصور المرحلة في صورة آدمية ، فقد كانت حميدة هي هذه الصورة ، عيناها وجنتاها ، جبهتها ، كلها تتوجه ببور حائط إياها لم تكن تدرى ماذا تعمل وصحاة أسرعت إلى عبد الحايك سرى الذي كان قد وقف مليئاً بالأفعال المكسوت ، وقد لمعت عيناه قليلا ، كأنما هي الدبالة الموشكة على الانطفاء قد اشتعلت قبل أن يطويها المظلام ..

اندفعت نحوه حميدة ، ولما اقتربت منه ترددت قليلا ، ثم قبلته في جبينه ، وهي تقول : « الله يبارك في عمرك . وما يديم حياتك » وحيل إلى أن عبد الحايك سيرفع هذه القبلة ، ولكن لم يرد عن أن يتشم امتسامة باهتة حريئة ، فقد كان من حلف هذه المظاهر مدسولى وقف يورع على الناس بفرداً صميرة ، حلاوة البراعة »

كم كان يهرح عبد الحايك لو أدرك أن هذه القبلة تعبر عن حياله ولكنها كانت كالزهرة التي توضع على القبر التي تشبه تماماً الزهرة التي تقدم في العرس

لم يبق أحد في المحكمة .

كنت إحتراءات الإفراج عن نهامي فخرج ، وسط عشرات من الناس ، من
الأنبار والرملاء والمتصلكين الذين مجدهم في كل مناسبة ، يحدث فيها
الرحام وفي وسط هؤلاء كنت أرى حميدة ، طويلة رشعة ، صاحكة ، وأرى
مدبولي منها فرياً يعانق ويصافح ، ويبقى ويتقل التهاى

واحتفى هذا الركب ، وبعد قليل ، رأيت إنساناً ينزل في نطة شديدة على درج
المحكمة وحيداً صالاً تائها لا يرى أين يذهب

ولم يكن هذا سوى عبد الجليل سري . .

تأنته وهو ينزل درجة درجة ، حتى إذا وصل إلى نهاية السلالم تلعت مجياً وساراً
ويد يده إلى حده هل كان يمويه دمة انحدرت على وجهه

أم هل تصورت ما لم يحدث . .

أما أنا فقد اختفت بالدموع .

خط العتبة

الطفولة

لم أكن أول من يولد لابوي ، فقد رزقها الله طفلين آخرين ، ولكن عمرهما لم يطل ، عماتا ، وتركنا في قلب أبي حيرة ، لم يخلقا مثلهما في قلب أبي ، ولكنها كانت حيرة حفيظة ، لأن أبي لم يكن يجرد أو يهرح يعمق : تفيض نفسه حسناً ورحمة ، ويأثر بالصغيرة والكبيرة فتتله عيونهم بالدمع ، حتى يشرق بعبواته ، ولكن ما أسرع أن يصفو خاطره ، وكأنه لم يكن يبكي منذ حين .

أما أمي ، فقد كانت على التقيض منه ، لا تستجيب لدواهي الحزن والفرح بسرعة أو في شدة ، ولكن إذا حزنت امتلأت نفسها همًا ، وإذا غضبت ، فاضت حباً ، وهي في حالتي السرور والحزن ، والرصاص والغضب ، لا تفقد اتزانها ، ولا قدرتها على الإبانة عما تريد ، في طلاقة ووضوح ، بعبارة مبهنة ولفظ رصين .

ولقد جثت ثمرة هذين المزايج المتناقضين . ولم أعرف أيهما أكبر أثراً في نفسي . وإلى أيهما أنسب ؟ إلى الأم ذات المزاج الدموي ، الأميرة المتحدثة ، شديدة الظموح ، المحبة للألفاظ الجميلة ، في الشعر والنثر والزجل ، المعجبة ببطولات الرجال والنساء ، والقارئة تاريخ الملوك والزعماء ، الكالوعة التفاصيل : ولا سيما نقصة الكلب والجبن ؟ أم إلى أبي العفول المزاج ، الذي تعوزه القدرة على الإبانة ، والذي يبدأ الجملة بمعنى وهو يقصد نقضه ، والذي لا يرضى عن شيء ، ومن ثم لا يكف عن نقد الناس والأمور ، ومع ذلك فهو خفيض الصوت ، قليل الصخب والخللان ، صعيق الحيلة في دنيا الشطر والوصوليين ، وإن كان مثاليًا إلى

حد المبالغة أمياً لا يعمل أن يأخذ ورقة يهباء ، من ورق الحكومة ، ولا يقوى على مسيره رجل سييء خطوتين اثنتين في الطريق العام ، ولو عرصاً ، إذا اعتدى عليه لا يحس الرد ، لا عن جس ، ولكن عن عجز ، إذ تنقصه الطاقة العضوية ، والطلاقة اللسانية ، والحرارة الدموية . ومع ذلك لا يسلم بأن أحداً حيرمه ، أو أغل مقاماً ، لشدة اعتداده بمضيفته أو نراهته ، وسلامة قصده ، وصائه في العمل الحكومي . ومع هذا الاعتداد فهو يرى من الكبرياء والزهو ، لا يباهي ولا يتحدث عن نفسه ، ولكنك تلمح هذه الفصيلة إذا تحدث عن الناس ، فعندها تدرك أنه لا يطبق أن تقع منه حقوة تلوث شرفه ، أو تلقى ظلاً ولو خفيفاً على صفاء صفحته ١٩

وأبي وأمي ، نقيضان كذلك في الخصائص العقلية . أمي سريعة الحفظ ، سريعة القراءة ، وأبي لا يقرأ إلا الجريدة ، إذا اتسع له الوقت ،

ولاشك أن أمي كانت أول عرام لي . كنت أحبها حباً شديداً ، في سن الطفولة ، ومازلت أذكر إلى اليوم ، كيف كنت أشم رائحتها ، في ثوبها المعلق على (الشماعة) فانتشى به ، كما ينتشى عاشق الخمر ، ولاشك أن أكبر سعادة لي ، كانت عندما تحبس ساعة السوم ، في الليل ، فأقوى إليها ، ولكني أراجع نفسي وأحاول ، أن أتبين ما إذا كانت صورتها في رأسي ، حينما كنت طفلاً ، واضحة ، وهل كنت أتأمل نفاطع وجهها ، وأعرفها ، وأحبها ، وأتأمل قوامها ، ومشبثها ، وصوتها ، وكلامها وصمتها ، وصحكتها وانتسابها . وبعد طول التفكير ، أستطيع أن أقول إن عقل الطفل ، لم يكن يعرف لأمي صورة ، تظهر فيها القسوت والتقاطيع . كانت أمي ، كأنها حباً أشبه بالأمي أو الرمز . فهي الملجأ والدفء وهي العزاء والمهوى ، هكذا جملة واحدة . هل هذا هو حب الأطفال لأمهاتهم ، أو أنه حينئذ ، تأثر بمزاجي ، وأحصلني ؟

ولم أكن أعرف ، أن حبي لأمي ، كان غراماً ، أشبه شيء بغرام البالغين إلا بعد أن استعدت يوماً ذكريات طفولتي ، فذكرت ليلة كنت فيها صيفاً على حائقي إحدى قرى الريف في شمالي الدلتا ، إذ كان زوج خالتي موطئاً في مصلحة الأماك الأميرية ، وكان يسكن في (فيلا) تحيط بها حديقة واسعة ، فلما أظلم الكون ،

وهذا الناس جلست في ركن من حجرة نطل على الحديقة وهت السيم هادنا ،
ما توت أعالي الأشجار هزة حصة بطيئة ، أحست أنها كثيفة غابة الكاسة ،
وشعرت بانقباض يحد بحاقي ، ثم بوحشة قاسية ، أدركت معها أنه ألم الفراق عن
لمى . ولم أقل ليلتها لأحد شيئاً عن هذا الشعور ، وكانت معي أحق التي تكبري ،
ولكن لم أكن أراها يديلاً عن لمى حتى يمكن أن أوصي إليها بدلت معي .

ولاشك أن هذا العرام ، كان مزيجاً من المشاعر التي ملأت حياتي فيها بعد فانا لم
أقل قط لأمي إلى أحبها ، ولعل لم أكن أدرك أن أحبها ، لأن حلفت ومعني هذا
الشعور ، ولأن أمي كانت تقسو علي ، لأنها لا تعرف التجاور عن الإحطاء مع أعز
الناس عليها فطبعها الحاد ، وغضبها الكاسح ، لا يدع مجالاً للمعاملة
أو التسامح .

ولست أدري لماذا أريد أن أذكر هنا واقعة تتصل بعلاقتي بأمي : رارنا خالي ،
أكبر إحوة أمي ، في الواسطي ، حيث كان أبي يعمل مهنياً للري ، وكنت قد
أبليت أو كدت ، من عملية الختان التي تجري للأطفال ، وكان لا بد أن أنام مع خالي
حسبياً قضى عدد الأسرة في سرلنا ، فرفضت رفضاً مائاً أن أحرم النوم مع أمي ليلة
واحدة ، ودهمت كل جهودها ، بل كل غضبها الذي كنت أفضاه وأحب له كل
حساب ، عبثاً ، فقد بقيت راضياً أن أنام مع خالي في سرير واحد ، وخجل الرجل
الطيب ، وكان طيباً متساهلاً بحق ، وبدأ عليه خجله ، وأدركت أنا ذلك على الرغم
من طعولتي ، وأربكيتي بيني وبين معي ، ولكن بقيت صامداً لا أترجح ولا أنزل
عن هذا القرار .

ولكن ماذا كان شعوري نحو أبي ؟ هذا هو الذي لم أكن أتنبئه وأنا طفل ،
وما نيتته عندما شئت عن الطوق . لعل الشيء الوحيد الذي أستطيع أن أذكره عن
أبي في السنين الأولى ، من حياتي ، هو حبي لرائحة ثيابه المبروجة برائحة التبغ
ولا شيء بعد ذلك . لا يبعد أن يكون شعوري عند مقدمه ، من سفر - وكان كثير
السفر والتعب عن البيت بحكم عمله كمهندس للري - هو الفرح يعودته . ولكن
لم يكن لأبي دور في حياتي كطفلي . بل أنا لا أذكر أنني أنست إليه دقائق من النهار ،
يلعبني أو يلزمني أو يستمع إلي ، أو يفرح بشيء مما يصدر عني ، كما يفعل الآباء

مع أطفالهم وهذا أمر عجيب ، فقد علمت فيا بعد أن أبى ، شديد التعلق بى ،
 وأنى كنت عنده أملاً مرجوياً قبل أن أولد ، ورجاء تحقق بعد أن ولدت . ولكن أبى لم
 يشعرو قط بهذا الشعور ، لا كتماناً لمواقفه ، فهو لا يحسن كتمانها ، ولا لكثرة
 مشاغله فمشاغل الآباء مهما كثرت لا تمنع أحدهم أن يسرى عن نفسه ويهيجها
 بملاحظة ابنه أو ترديد كلامه ، أو الفضح على أسخطائه في المطلق ، وتعمته في
 الحركة ، ولكن أغلب الظن أن أبى كان يحمله أن يعرف الناس عواقبه ، إلا إذا
 كشفتها دموعه وهو مغلوب على أمره .

ولعل قد عرصت نفسى عن هذا الحب للكتوم والاستمتاع به بمحادثة وقعت وأنا
 في العاشرة ، أو دون ذلك بقليل . فقد مرصت بمصر الرومانزم طويلاً ، ومضت
 شهور وأنا ملازم للفراش ، وقد ترتب على ذلك رسوب في امتحان السنة الثانية في
 الدراسة الابتدائية ، وهى السنة الوحيدة التى تخلقت فيها عن زملائى . وفى ذات
 يوم كنت مغفياً ، وجاء أبى من الخارج ، رأى هادئاً ، شاحب الوجه تردد أنفاسى
 بضعف حتى حيل إليه أنى فارقت الخيلة ، فالتى بنفسه على صدرى ، وراح يتحب
 وجامت أُمى على صوت انتحابه ، نكادت تنكمى على وجهها . وكان يجب أن أبقى ،
 ولكنى خجلت أن أرى أبى مثلبساً بهذا البكاء ، فرددت قليلاً أن أفتح عيني ،
 وعلم الله أنى لم ألد أن أطيل هذا المشهد ، استمتاعاً به ، ولكن أُمى ، بفضل
 رباطة جأشها ، وضمت حداً له ، ونبت أبى عن الاسترسال في البكاء ، واهبطتني
 وتظاهرت أنا ، بأن لا أفهم ماذا يدور حولى



لقد ولدت في مدينة المنيا ، وانتقل بى أبى ، إلى مغاغة والحيزة والقاهرة ، ثم
 الواسطى . ولست أذكر شيئاً مما جرى لى في المنيا . ولست أدري في أية سن
 تركتها . .

أما الحيزة فذكر بيتين سكنا فيها خلال إقامتنا بها ، وأرى صورتها أمامى ،
 واضحتين غاية الوجوح . ولكن ثمة شيء غريب غاية الغرابة في علاقتي بهذين
 البيتين . فأول البيتين « فته وأنا أصغر سنأ منى في الوقت الذى عرفت فيه البيت
 الثانى . ومع ذلك فلما أدثر موت البيت الأقدم في تلريح الذكريات من الظاهر

والداخل في حين أن لا أذكر من البيت الأحدث إلا الطريق الطويل المؤدى إليه من المدخل العام للعمارة التي كان بيتنا واحداً من بيوت تضمها عبراني أذكر أموراً كثيرة جرت لي إبان إقامتنا في هذا البيت ولكنها كلها أمور حدثت خارجه فيما سر هذا ؟ لماذا حانت ذاكري البيت الأقدم ، وأعصت عن البيت الأحدث ؟

هل حدث لي في البيت الأحدث ، أمور مؤلمة ، حمرت ذاكري على نسيانها ؟ على أن علاقتي بالبيت الثاني ، لا تخلو من عنصر غريب فأننا أذكر من حجرات هذا البيت ، حجرة واحدة كانت تنام بها אחتي حسية التي نصعري ، وأذكر أن أمي كانت تعطي وجهها بملالة من الخمرير الأورق الرقيق ، كنا نسميه في ذلك الحين (البرسج) وهو لا يعدو أن يكون عطاء رقيقاً لوجوه الأطفال تحرف اسمه بالمرسية والإنجليزية من (فيل) Veil إلى (فيلو) .

أما الدور الأول ، فأننا أعرف جاتياً منه كنت ألعب فيه مع و حليلة و حميدة الطباخة السودانية (أم حسبي) فقد كانت لي وأنا بعد في الخامسة من عمري شفاوة مع هذه الطعنة المسكنة ، التي قالت من صرير وإيدائي ما كانت تشكوه حينها أكثر مما كانت تشكوه حليلة نفسها .

ماذا كان في البيت الأول ، من حجرات ، ومادا كان في الحجرات من أثاث ؟ أين كانت تقيم أمي وأبي وأخواتي ؟ أين كانت حجرة سومي ؟ من رازبا في هذا البيت ؟ لا شيء من هذا كله بقي في ذاكري ولقد تذكرت الآن أن هذين البيتين لا يفترنان في ذاكري بمرارة أحد لهما خارج هائلتنا المحلوقة لا عديقات لأمي ، ولا أصدقائه لأبي ، ولا أصحاب لي سوى حميدة ، ومع ذلك أذكر أموراً واضحة كل الوضوح تتعلق بالبيت الأول .

أذكر مثلاً أنه كان إلى جانب بيتنا ، الذي كان يقع في ميدان صغير هاديء حال من الحركة ، مسجد يسمى مسجد سعد الدين .

وأذكر أنه لما وقع نظري على مقال عن هذا المسجد الذي لم أكن أحسب أن له قيمة تاريخية أو فنية تؤهله للكتابة عنه ، فرحت بالمقال ، وقرأته وكأنه مقال عن شخص يميت إلى بصله قرى . وقد كانت لي مع هذا المسجد صلات ، أذكر منها أنني وقفت ببابه يوماً حتى دخل المصلون لأداء فريضة الظهر أو العصر ، فلما انطمأنت إلى

اعطاء الحركة ، جمعت ما تركته للصلون من أحذية ومعال وأحبتها في مكان ما ولكن العجيب أنني لا أذكر ماذا تم بعد ذلك ؟ هل صبغت متلبساً بهذه الشقاوة ؟ أو أن الأمر مي كان شروعاً في الحرime لا حرime كاملة وهذا أيضاً من عجائب الذاكرة ، فأنما أذكر بوصوح تام القسم الأول من المعامرة ، ولا أذكر باقيها ، وهما واقعتان ، بل جريان من واقعة واحدة ، جرت في وقت واحد وفي مكان واحد هل تكون الذاكرة قد عملت أيضاً طمس القسم الثاني ، لأنه يقتزن بما يؤلم أو يمجّل ؟

أما المعامرة الثانية . فضع هذه المرة في متنة الجامع ، لا الجامع نفسه ، فإن لأذكر جيداً أن صعدت مع المؤذن في ذات مساء لكن كيف ؟ لست أدري ، هذا أذكر أن استعفى إلا بمنظري في أهل المتنة ، ومعنى المؤذن وقد صعدت أن أرفع عفتري بالأذان وهي عفترة صبي صغير لا يحفظ من الأذان إلا مطلعها ، لولا أن صعد المؤذن برفق . وأحاول جاهداً أن أتبين من وراء حجاب السبن وجه المؤذن وملاحه ، وملاسه ومظهره وسه ، وظروب تمارها وما الذي دعاه إلى الصعود معه ، ولست أذكر أن كنت من هواة الأصوات الجميلة ، أو أن الأذان كان يستوقفني

وتصل بالأذان المبني المجاور للمسجد ، وقد كان مستوصفاً أو مستشفى صغيراً تشرف على إدارته سيدة إنجليزية ، لا أذكر من وجهها وجسمها وصوتها وملاحها شيئاً مطلقاً ، ولكني أذكر بوصوح تام أن أهل كانوا يتحدثون عن أن هذه السيدة الإنجليزية كانت غمبي ، وأنها أهدت إلى شيئاً ما لا أذكره الآن . لعله علي حلوى أو علة فطائر صميرة (بسكويت) . ولا أظن الآن أن هذه السيدة احتق لميرة جسمية أو عقلية فلم أكن طفلاً جميل الطلعة إلى الحد الذي يستهوى سيدة أجنبية ، ولم أكن لطيفاً بحيث أكتسب هذا الحب كنت مجرد طفل عادي ، وإن كان شديد الحموية ، كثير الحركة ، ذائب السؤال ، أقحم نفسي ، في أمور قد لا يفكر الأطفال الآخرون في الاجترأ عليها ، أو الجؤوس خلالها ، ثم أنا لا أسمع حديثاً يثار حتى أستمع إليه ، ثم أسأل عن الغريب في العاطف ومصطلحاته . فأنما أسأل مثلاً : مامعني العروسة والمرح ، والمتنة والأذان ، والموت والقرافة ، والداية

والمرکز والمأمور والخوذة . وهكذا وهكذا عشرات من الأسئلة أمطر بها من يقع في برائتي ، ولا يسمي أن يتعد صبره ، أو أن أجده حائراً في البحث عن الإجابة ، ولا شك أن هذا السيل من الأسئلة المحرجة والسيطة كان يصحك بعض الكبار ويربه عنهم فيعتقدون على عظمهم ، ولا شك كذلك في أن بعضهم كان يمين بي ، فيسء الرد ، ويعمل عبثاً على صرقي عته . ولعل هذا الفريق هو مصدر الإهجاب بي ، لأنه يتحلى عني -- عندما تصفونهم -- في رصا ، ويمس الشهادة في حقى فهل رأت السيدة الإنجليزية شيئاً من هذا ، وسرها أن نزاع ، كالسحلة ، أصعد درجات المستوصف ، وأدخل المسجد ، أشاهد في أهل سطح منزلي ، ثم أهدوني المهدا ؟ الأرجح على أسمى كنت عند هذه السيدة ، وسيلة لإشباع عاطفة ما عندها فهي كأغلب الأجانب في بلادنا ، يعطون على الحيوانات والأطفال فينشرون للبهائم مستشفيات بيطرية ، وللأطفال ملاجئ ومعاهد .

ولكن أذكر أنه كان لهذه السيدة نزاع مع المسجد ، فقد كان أذان الفجر يزعمها ، إذ يعكر عليها صغوبها في ساعات ما قبل المصليح ، ولعلها حاولت أن توقف هذا الأذان ، ولعلها أيضاً قد علمت أن هذا الأذان فرض ديني ، وأن المساس به ، يخرج عن مقدور الحكومة وجيش الاحتلال معاً . ماذا حدث في هذه الأزمة ؟ لست أذكر .

بقى من ذكريات فترة هذا المنزل المجاور للمسجد من ناحية والمستوصف من ناحية أخرى ، أن رجلاً اسمه « علي » كان يعمل في هذا المستوصف اتصل بنا بسبب هذا الجوار ، وصر السئير . ولكن ماذا كان يعمل في المستوصف ؟ ممرضاً ؟ فراضاً ، طاهياً للسيدة الإنجليزية مديرة المستوصف ؟ الله وحده يعلم . ولكن كيف أصبح كأحد العاملين في خدمة عائلي . فانا أذكر ثلاث وقائع تتصل به . أذكر أنه ذهب في ذات مساء إلى الشاطئ الشرقي لليل ناحية منيل الروضة عند كوبري الجزيرة المعروف آنذاك بكوبرى عباس . وكانت الأرض في هذه البقعة من الشاطئ صحراء رملية ، ليس فيها منزل واحد ، وقد مضيت أنا « وعلي » في هذا الرمل ، نتعز أقداما فيه ، ونقلها تقليعاً حتى وصلنا إلى كوخ قابلنا فيه صديقاً لعل في مرة أخرى ذهب إلى المستوصف وكان الوقت ظهراً ، والبهل مشرقاً ، فتركى « علي »

في حجرة به ، وذهب إلى بعض شأنه . ولست أدري ما الذي أروعني في هذه المحطة التي لا تدعو إلى الفرع . فلم يكن الوقت ليلاً ، ولم تكن الحجرة معها تخيف ، أو تخيف لشيء فيها ، ولكني لأذكر في عاين الوصوح ، أنني اضجرت في الكاء ؛ وأن الرجل فصل راجعاً ، على صوت نكائي ، وسأل وهو مرتبك ماذا حدث ؟ واضطرت أن أكذب فأقول إن (دموراً) لدعي ، ويحث الرجل عن موضع الإصانة ، فأنشئت إلى نذمة جرح قديم ، فأدرك في الحال ، أنه عذر منحل ، فأخذني معه بدون أن يمانني على ما ست له من خوف

أما آخر ما أذكره عن « عل » فهو أنه جاء يرومنا عندما تركنا بيتنا في الحيرة إلى بيت نملكه المثلة اليهودية « مليا حيان » مظلة روايات الشيع ملامة حجارى ، ولعل والدن ، عهدت في هذا اليوم إلى « عل » ليصحى إلى حديقة الحيوان

ومارلت صورة « عل » واصحة في رأسى رجل أقرب إلى السطول به إلى القصر ، وإلى السمرة به إلى النياص ، مؤذب ، أمين ، قليل الكلام ، دومة كان يعاملني بوصفه تابعاً لنا فعلا في بيتنا ، ولكن بروح الأح الكبير

إذا انتقلنا إلى بيتنا الجديد في عمارة الحكيم ، المواجهة لكازيو (الحمام) وقد كان مشهوراً في أيام طمولتي الساكرة ، كما كان مشهوراً عندما كنت طالباً في كلية الحقوق ، واستمرت شهرته بعد ذلك سنين .

واسمه يدل على سر شهرته ، فهو يقدم الحمام ، محمراً ومخشواً ، ولكن إلى جانب هذا الطعام الشهى ، يتيح للعشاق مكاناً نموذجياً ، فهو ملاصق للسيل ، فيتأخر فيه لذلك عنصر الشاعرية ، ثم هو في منطقة لا تدب إليها الرجل كثيراً ، فيسجوا بذلك من الرقباء والمعيون ، ثم يجود فيه الطعام ، والشراب ، فيرضى بذلك رواده من كل ناحية ، فمجلس المرام منه قديم ، كان يستلزم الجيد من الطعام والشراب .

كانت تلعب الكازيو ، عائلته يومانية ، عميدها يسمى « استاورو » ، وكان أبى يستقبل أصحابه ورملاءه ، في هذا المقهى ، لأن شهة الموعد المرامى ، لا تلحق بالمقهى ، وتنصرف عنه إلى الكازيو . ولا أذكر جيداً أن صحبت أبى إلى هذا المقهى المقرب جداً من دارنا ، وهو يسمى بصيهوه ، ولكني أعلم يقيناً أن هذا حدث

أما بيتنا نفسه ، فقد كان جزءاً من أربعة أجزاء تتكون منها عمارة الحكيم
ولا أذكر أبى شهدت ، حتى اليوم ، عمله في مثل تصميمها ، فكل جزء من
الأجزاء الأربعة ، يتكون من منزل مكون من فودين الدور الأول ، من طراز
سميه في مصر السلامك يصعد إليه الإنسان على سلم يبلغ عشر درجات أو أكثر
من ذلك قليلاً وهو سلم له درابزين ، ويستهي على وسطه منزل بها شعبة أخرى
من السلم بعد الدرجات نفسها ، وتصلب ثلاثة منازل من المنازل الأربعة ،
الواحد إلى جانب الآخر ، حتى تكون صلعاً ، ثم ينتهي الصلع برؤية يكونها معه
المنزل الرابع الذي يكون وحده صلعاً قصيراً ، وتقع أمام المنازل جميعاً « طرقة » هي
المدخل ، ولكن بعض هذه « الطرقة » حلقة صغيرة مسورة ، فالمنزل كما نرى
عريب ، ولست أذكر شيئاً مما صدر مني في هذه الطرقة ، ولا في تلك الحلقة ولا في
المهوى ، أو الكازيرو إنما الذي أذكره جيداً للشارع الذي كان يسمى بشارع النيل
الاعظم ، المثل على النيل ، والذي يتقابل مع كوبري عباس في طرفه العربي . هذا
الشارع ركعت فيه كثيراً ، ولعت فيه طويلاً ، ولكن لا يبقى في ذاكرتي إلا صورة
كشك عند محطة الترام الذي يقطع كوبري عباس ، ثم ينجه إلى ميدان الخيرة ، ثم
يصعد وسط حقول الدرة إلى شارع الأهرام .

هذا الكشك كان يبدو لي في تلك الأيام كعملية سحرية ، مما تذكره قصص
الأطفال العربية . ولست أصف إحاسني اليوم . بل إنني أصف ما كنت أحسه
يومذاك ، واعتقد أنه لا يزال حياً ، وإن لا أحلط بين مشاعر الماضي ومشاعر
الحاضر . كانت صاحبة الكشك سيدة يونانية اسمها « مدام أبو » ، وكانت تباع
أشياء للأطفال والكبار ، لا أذكر منها إلا رجالات « الكازورة » سبتس ، ولكنها في
العالم كانت تباع في الشيكولاتة بأصنافها المختلفة ، ولعلها كانت تباع أيضاً قطع
الملابس وبعض الألعاب الصغيرة ولكن الذي أذكره بوصف تام (الكازورة) التي
كنت أشربها مستمتعاً بكل شيء يتصل بها . من إزالة الرباط المعدن للصوع من
الصمغ الذي كان يوضع على سدادة من المعلى إلى إطلاق السدادة العملية ، أنه
شيء بطلقة سدس ، أحياناً عالية كصوت القذوف غمماً ، وأحياناً أخرى خافتة ،
وبمقدار الضغط داخل الرحلة يدفع السائل ، فلما يتدفق ويسكب فوق الأرض ،
وأما يبقى لا تعلو عن هوراته الداخلي إلا بعض الرعاوى كأنها الزبد

وقد كان كشك « مدام ابو » صندوقاً سحرياً ، تشرف عليه ساحرة طيبة ، لا ساحرة شريرة ، ساحرة لا ينقصها حتى المقشة التقليدية التي تفتقر بالساحرات في قصص أطفال العرب ، ولا المظهر العام لساحرات تلك العصور ، فقد كانت شبيطة حازمه قليلة الكلام تلتصق فوق ثيابها الخارجية مريطة وتصنع في الشتاء على رأسها شالاً من الصوف . وقد مرأى أحاط هذا الكشك من هالات الخيال الشرة ، أحاط هذا الخيال نفسه مرئياً كله مدحله ، والحديقة التي تحتل جزءاً من الطريقة الواقعة أمامه ، والمنازل المجاورة لنا ، عن يمين وعن يسار . فقد كان الجو كله أحياً ، وكانت هذه العمارة لا تزال حديثة فتلألأ الدرامين حتى براق ، والجيران كلهم من الأجانب ، لذلك كنت أشعر ، وأنا في هذه الساحة المبكرة جداً ، بشوة حفية ، وأنا أشاهد أعطية القراش ، منشورة فوق سور (الدرازين) بألوانها البرتقالية والبسة والبيضاء الناصعة مع عدد من السطاطين السبة والرمادية من صنع بريطاني . وقد يعجب القاريء إذا قلت له إن من عناصر هذه المنشأة الروحية ، إذا حاز نصيب أن يعرف ماذا تكون الشوة الروحية ، المقامات المنشوة للأسات يسوياًببات اللواتي يقمن بنهوية هذه الأعطية والملاعات ، أدعهم البيضاء ، البسة ، وربما سيماسن الملعوفة القوية . فهل كانت هذه تأثير الحرية الجنسية ؟ وهل يمكن أن تلوح هذه التأثير المبكرة هكذا في نفس طفل لم يبلغ الخامسة أو بلعها ونجاورها بقليل ؟ ولو أكد ذلك لي « هرويد » ومدرسته ، لما كان لي اعتراض على هذا القول ، فأننا من المؤميين أن الطفل مهما صغرت سنه ، فهو وعاء كامل للنفس الإنسانية بكل عناصرها - حبرها وشرها ، قوتها وصميمها ما سامى به ، وما نخجل منه ، ما نعتنه وما نحفيه .

ولا أحسب أنني أستطيع أن أذكر شيئاً قط عن داخل بيتي في هذه العمارة ، فداخل المنزل ، والأثاث فيه والمكان المحصن لومي فيه ، وموضع أخواتي وأبي وأمي ، ومن كان يعمل عندها ، كل ذلك يحوطه ظلام كثيف وعلى الرغم من أن الليل في أصحح وأوسع مواقفه كان يقع أمام المنزل ، فإنه لم يجديني نحوه ، لم أذهب أمامه متأملاً ، ولم أفكر في أن أركب فاراً (ملوكة) شرعياً وحدتي أو مع غيري . بل لا أذكر أن منظر المراكب الشراعية الصالحة التي كانت ترسو أمامها ، داهية وآتية من الصعيد وإليه ، استوقفت يوماً ، في حين أن الكوبري نفسه ، كان يحتل من اهتمامي وتأملاتي نصيباً أكبر .

أمي وأبي

لقد تحدثت عن أبي وأمي ، ووصفت كليهما ، ما استطعت الوصريح والإبانة ، ولكن لأراي أحس أن عندي ما أقول عنها ، ولاسيما قبل أن أنتقل إلى منزلنا بشوارع سلامة بحي السيدة زينب ، حيث تبلغ أحداث طفولتي قمتها من الحركة والتشعب والاحتدام .

وقد تعجب إذ تعرف أنني لا أدري إلى الآن ، كيف تعلمت أسرة أبي وأمي ، وأخبر أنني لم أجدي يوم من الأيام أية متعة في تفصي حقائق هذا الجانب من حياة عائلتي ، ولعل ما كنت أسمعه عن هذا الجانب ، كان يطرئ سمعي ، فلا أبقى على شيء منه .

ولكن نشأة كل من أبي وأمي ، على بساطتها ، تحمل شيئاً خبير عادي ، وإن كان مثله قد عرض لبعض الآباء والأمهات .

فوائد أبي كان ، في الأغلب ، تركياً ، لو كان على وجه التحديق ضابطاً في الجيش التركي ، ولكن لا أحد يعرف ما الذي جاء به إلى مصر ، تاركاً تركيا ، وما الذي جعله ، يجتاز قرية (المتير) ليقيم فيها ، بعد أن أحيل إلى المعيش ، ثم كبدن فيها ، حيث اتخذ الملاحون في القرية ، من مقامه مصل ، وحيث أصبح في الناحية ولياً من أولياء الله ، يقسم باسمه ، ويقدم له التذوق ، وتزوي عن كراماته القصص . وأعترف أنني ضمنت صعباً شليداً حينما كان في وصي الأمر بتوسيع

مقام الشيخ عثمان ، وتزويده بالسجادة والقناديل ، والعناية بذكرى مولده ، وكان يحدون إلى إنفاد هذه العكرة ، أننى أعلم يقيناً أن للشيخ عثمان مكانة عند أهل الناحية ، وإن إقامة المسجد فيه خير لها ، وفوق ذلك ، فإن ما يروى عن الشيخ ليس فيه ما يخاف منه على حقول الملاحين . فهم يرون أنه كان يوزع كل معاشه على الفقراء والكلايب الضالة ، وأنه كان يأبى أن يأخذ من أحد شيئاً ولو كان شربة ماء ، وإن طريقته كانت تدعو إلى الاستغناء عن الناس ولو بالاكتماء بما يقيم الأود ، ويسر العودة . وهذا مثل جليلير بالى يُحتسى به ، وإن يتسم مطلق المستمعين له ، والمتأثرين به . ولكن رضى عن هذا العمل ، أننى خشيت أن أتهم بالى أحابى جدى ، ومن باب أولى كرهت أن أرجو ورءاء الأوقاف ، من رملالى وأصدقائى ، أن يفعلوا ما نهيت نفسى عنه ، وكرهت أن أظاهر بالمتنصف ، وأخالف مقتضاه مستشراً وراء سوى .

وكانت جدتى ، والمدة أبى ، مصرية ، ولست أدرى شيئاً عن هائلتها ، ولا عن مسقط رأسها ، وإنما أعلم أنها من الناحية التى تقع فيها بلدة (المنير) وفى الغالب أن أسرتها كانت من زراعى الأرض متوسطى الحال ، استتاجاً من حال ومظهر أرواح بساتنها وأحفادها من الرجال والنساء . وقد كانت لوالدى تقاطيع غير مصرية ، وإن كان لون وجهه مائلاً إلى السمر ، بخلاف لون سائر بدنه ، وقد تراسى إلى سمى أن والدته كانت شديدة المعصية ، بها عطف ، وسرعة غضب . ولكن لا شبهة عندى فى أن أبى كان خليطاً من أبيه وأمه . فالتجرد والرهف فى الدنيا ، هو ميراث أبيه ، والعنف المكتوم ، والميل إلى التمرد والسحرية من الناس ، وعدم الاقتناع بهم ، هو ميراث أمه .

وقد كان أبى نموذجاً للمهنتس المحب لعمله . كان العمل عنده عبادة يحق فإذا كان لديه ما يشغله ، زهد فى أن يكلم الناس ، أو ينظر إلى أولاده ، ليعرف أمورهم ، أو يذاعب صغيرهم ، أو يواسى مريضهم ، أو يورور جواراً أو يكتب خطباً ، أو يشيع جنازة ، أو يحضر فرحاً ، ولم يكافأ كثيراً على عمله ، لعمولى المجتمع ولعمولوى فيه هو ، فقد كان رجلاً لا يحس المداينة ، ولا حق التلطف لرؤسائه ولمرملاته ، على الرغم من أنه لم تكن به علفة أو حفاظة ، ولكن كان فيه ما هو أشد على الناس من العلفة والحفاظة ، فقد كان صريحاً إلى حد الإيلام .

فكان لا يقع بأن يقول للأعور إنه أعور في عنه على حد عبارة المثل العلمي ، بل إنه يقوفا للكلور إذا اقتضى سياق الكلام أو للمصلحة العلمية أو إذا طلب منه إبداء الرأي ، فتخرج العاطفة غلظة صادقة ، لا يقصد صاحبها إيلاام السامع أو رد اعتدائه ، فتكون بذلك أوجع وألم ، لأن سامعها لا يمكن أن يتهمها أو يتهم قائلها بالمرض أو الخصومة أو التحجى . فهي أشبه بصراحة الطفل الذى يعصع أقاربه غير عامد فيوقعهم فى أشد الحرج . ولذلك كانت أمى دائمة الشكوى منه ، فهو على فرط حبه لها ، وانقطاعه التام عن العالم كله لعمله ولبسته ، ونزوله على مشورة أمى ، والعمل برأيا ، وترك كل دخله بيده يديها لا يراجعها ولا يجاسيها ، بل لا يعرف فيم أنصقت ولم ادحرت ، ومن أعطت ومن منعت ، إلا أنها لم نسمع منه طوال حياتها ، كلمة ثناء واحدة ، على شيء فعلته أو قالت . ولا كلمة رضا عن أولاده ، لشدة حباؤه من جهة ولأن عينه لا تكاد تنقع على العيب أو تلمح النقص حتى تندبهما ، على الرغم من قناعته ورهده ، ولكنه لا يطيق أن يحسب في نفسه اعتراضا على الصعيرة والكبيرة مما يراه في محيطه الضيق ، سواء كان ذلك في البيت أو العمل ، ورجل كهذا ، لا يحق له أن يطعم في أن يرقى درجات السلم الاجتماعى ، وقد كان تحلعه في الترقية يجرئه ، ولكن لم يصدف قط عن العمل ، ولم ينقص أمانته له واستبساله فيه ، وإيمانه به . بل لعل الذى حفظ له صمته ، واعتدال مزاجه ، أنه وجد العمل الذى يشغله ويستند كل طاقته حتى يبلغ الستين . فلما انتهى عمله ، وجد بيتا تهر فيه زوجته له من أطايب الراحة مالا يطعم رجل في مثل قناعته وبساطته في أكثر منه . للحديث الطيب المتنوع من زوجة محدثة فلوثة ، واستماع منتظم للإذاعة في الداخل والخارج ، وقراءة مافعة وسلية ، في الصحف والكتب والمجلات ، واستقبال منتظم للأبناء والحفدة . وعلاقات هادئة بالخيران مع انتفاء للأصدقاء .

ولم يكن في مراجع أى شيء يمت إلى المصرية في قليل أو كثير . فلا هو يحب طعام المصريين ولا مشروباتهم ، ولا يشارك في وسائل ترفيههم ، ولا يقوى على اتباع عاداتهم ، فهو مثلا لا يحب المأكولات الحريفة مثل المصبيخ والسردى والش ، ولا يحب البصل الأخضر والأبيض ولا يظلم البصارة ، ولا يشتهى العاشوراء أو سند الحنك أو لقمة القاضي ولا يحضر للموالد ، ولا يجمل بللانسبات اللبينة والعمومية احتمال المصريين بها . ولا يتردد على أصرحة الأولياء . ولا يذكرهم ،

ولا يحمل مسبحة ، ولا يحفظ بمصحف على مقربة منه في موضع نومه أو في مكتب عمله ولا يحسن تبادل صبح المجاملة من مثل « شفيتم ، يرحمكم الله ، وحج مرور وشكر الله سعيكم » بل إنه لطول عمره في الصبح ومع رملاء من الأقباط يستدل بالسلام عليكم « سحيلة وسعيدة مباركة » .

وأكل أي قليل ، يستمتع النهار مشربة كاربونات الصودا ، ويأكل البيض « البرشت » ، واقفاً ، ويحطب لقمات العداء كأنه يؤدي واجباً يؤد أن يعرع منه ، بدون أن يدو عليه التلدد والتدوق ، وقل أن يطلب من أمي صنماً ، وإن كان يجب أن تكون على مائدته القفاطر والخلوى عبر الشرقية ولم أذكر أن سمعت أي يتحدث سد وعيت الدنيا حتى توفاه الله إلى رحمة عن طعام يحبه ، أو عن مائدة طعام حصرها ، ولكنه كان يدعى شرب السجائر ، وقد بقي يشربها ، حتى قبيل وفاته ، وكانت سجائره مصرية ، فلم يدخن سيجارة واحدة من دحان فرجينيا سواء كان من تعبئة الإنجليز أو الأمريكان إلا أن تقدم له على سبيل التحية وفي أحيان أياهه كان يستعمل العطوس الذي كان يوفر له قدرأ من التنيه بعد كل عطسة

وقد شغلني علاقة أي بالدين حينما بلغت سن الشباب ، وأصبح التأمل في الناس ودراسة تصرفاتهم متعة من متعني الذهنية المحببة . ففى أيام طفولتي وصاى ومطالع شبان لم أر أي يصل إلا نادراً ، وكانت صلاته في الأهل الأهم ، في الصباح يؤدي ركعتي المريضة في سرعة ، ثم لا يصل طوال اليوم ، ولا ياتى أيام الأسبوع ، ثم يعود إلى ركعتي الصباح . وفي حياته اليومية ، لا يعرض للموضوعات الدينية التي ينسل بالحديث بها المصريون علقة فلا أذكر أنه استعرض معنى كلمة في آية ، ولا تفسير آية في سورة ، أو واقعة في حياة الرسول ، أو شبهة من شبهات العقيدة . كما لم ألحظ عليه تأثره بما يتأثر به المصريون عادة من سماع الأذان أو سماع القرآن ، ولا حماسه في الصلاة على الرسول إذ ذكر . وهي مناسبات ألف أهلوا ، أن يرددوا فيها ألفاظاً معينة سمعت متفق عليها ، كأن يكبروا أو يسلموا أو يملوا أو يشهدوا . والذي حير في هذه الظاهرة ، أن تكوين أي المزاجي ، وتوقد وجدانه ، كانا كغليظ بل أن يجملأه من هريق التدخين ، ولكنه لم يكن من هذا الفريق ، حتى بعد ما دأب على أداء فروض الصلاة كلها ، وحضوره صلاة الجمعة والعيديين والامتماع إلى القرآن في الإذاعة ، وتلاوته من المصحف

بل إن والذي كان ينظر إلى حال في كان مغرماً في الدييات ، متصوفاً يتبع العرق الصوفية ، ويتبعه مريدون ، نظرة الإشعاع ولا أقول السخرية ، ومع ذلك كان يصيق بمساجلات الدبية مع روجي أحنى ولاسياروج أكبر الأحنى ، ولم تكن هذه المساجلات في بعض الأحيان ، تخلو من المجاهرة بشكوك هي في فترة الشباب والتحصيل أمر طبيعي .

أما أمي فهي حياتها ما يستحق أن يروى فقد اجتمع في عروقها دماء شركسية صربية ، وحشية صربية ، ولم يكن فيها من المصرية أو العربية ، إلا مولدها ، والبيئة التي نشأت فيها ، واللغة التي تتقنت بها . فقد وجدت أمها ، وحالتها إلى مصر طفلتين كبيرتين ، في التاسعة أو العاشرة من عمرها من ناحية في جنوب روسيا تدعى (حتكاي) في إقليم (تشركس) وكانت تنتمي إلى عائلة من بدو هذا الإقليم المشهور بفروسية رجاله وجمال سائه ، وكان اسم القبيلة أو العائلة « تشيياز » وقد علمنا أن سبب نزوح الأختين ونحال لهما من أراضي الشراكسة إلى تركيا ، هو الحرب التركية الروسية التي وقعت في حوالي سنة ١٨٧٠ ، ولما كانت بلاد الشراكسة واقعة بين الدولتين الحربيتين الكبيرتين ، فقد كانت لرص المعركة : تحتاجها هذه الدولة حياً ، وتلك حيناً آخر ، ولا يصيب أهل المنطقة من الحرب ، في حلقى القصور والحرم ، إلا التشريد وقد روت جدتي ، كيف أن قرار أميها صدر بوجوب سفرها إلى مصر ، مجاة لها من ويلات الحرب ، فصحبها أخوان لها أحدهما شاب مقاتل يدهي « إيشماف » والثاني شاب متعلم منقطع لقراءة القرآن ، ودراسة العلوم الدينية يدهي (الشيخ محمد) وفي يوم الرحيل ركب الجميع الخيل ، وانجهوا إلى حدود تركيا ، ولكنهم قبل أن يلقوا الحدود ، لحق بهم واحد من أفراد الأسرة ، وأضفى إلى « إيشماف » أن الروس دخلوا منطقة « حتكاي » ، وأنه لا بد أن يعود لينضم إلى المقاتلين من أهل الناحية ، فاستدع المسافرين الله ، وقفل راجعاً . لم يتردد لحظة ، ولم يتحمل علناً .

ومضت العاتقان وأحومها الشيخ ، يتلو القرآن سرّاً ، ويستمس من الله العون والسلامة ولم تطل إقامة العاتقين في تركيا ، إذ ركبنا البحر إلى مصر ، حيث كان في استقبالها قريب لها هو اسماعيل أفندي حدي . وهو موظف من موظفي الإدارة بلغ

في آخر مراحل حياته العملية وظيفته وكيل قسم ، وهي إحدى وظائف الإدارة إبان عهد الخديو اسماعيل ، وتقع في المرتبة والأهمية بين وظيفة مأمور المركز و وكيل المدينة .

وكان اسماعيل أفندي حلى ، واحداً من الشراكسة الذين كانوا يفتدون إلى مصر ، تلبية لدعوة شركسى ، وصل إلى مركز كبير في مصر ، ويدعى « إلياس » باشا تزوجت ابنته فيما بعد من قاضٍ مصري قبض له أن يبلغ أكبر المناصب معين رئيساً للوزراء وللديوان الملكي ، ومعنى به توفيق نسيم باشا .

وعدت الفتاتان « حفيظة » وصحبة ، لا تعرفان من العربية حرفاً ، فوجدتا أن تربيتهما قد أحيل إلى المعاش ، وأقطعت الحكومتان ، على نظام تلك الأيام ، خمسين فداناً جيدة في رمام قرية الخيس ، التابعة آنذاك ، لمركز الزقازيق في إقليم الشرقية .

وكان إسماعيل أفندي حلى رجلاً طيباً ، يحسن معاملة الناس ، وتطلب له مجالسة رجال الدين . وكان قد تزوج إحدى جوارى قصر إسماعيل ، فعاشا في هدوء في عزته الصغيرة التي أحسن إدارتها واستثمارها ، فأنشأ فيها حديقة ازدهرت بما فيها من ورود ، وفاكهة ، وبما أقيم في ناحية منها من مناحل لمسل النحل ، وأقام لنفسه ديواناً يستقبل فيه أعيان الناحية ، يتقدمهم رجالات عائلة أباطة التي كانت تملك أطيافاً في ناحية يبردين وغزالة القريبة من قرية الخيس . ولكن ما كان ينقص على الزوجين إلا أنهما لم يرقيا غلاماً ، ولذلك أدمت زوجة إسماعيل أفندي له أن يقارب جارية عندهما ، حبشية الجنس ، قوية البدن ، سريعة الحركة ذكية ، عسى الله أن يهبها غلاماً منها ، يتخذانه ولداً لويؤسى وحشتها .

وحملت الجارية « راد المال » وأنجبت غلاماً ذكراً أسموه عليا وكان العهد بين إسماعيل وزوجته أنه لا يقارب الجارية ثانية ، بل أن يبيعها فور وضعها مولودها . لولا أن علماء الدين من أصدقائه أفتوه بأن ذلك حرام يأباه الدين ، إذ إن الجارية لا تكاد تحمل من مآلكتها ، حتى تتحرر ويحرم بيعها فلما بقيت الجارية في البيت ، عاد إسماعيل أفندي ، إلى الاتصال بها ، فولدت له ابناً ثانياً أسموه « أحمد » وكان ذلك خروجاً على الميثاق المتسلط بينه وبين زوجته ولما شئت حفيظة كبرى السنين

الشركستين الواعدين روجها من أكبر ولديه (عل) فزرقها الله بتين وثلاثة من الذكور وكانت كبرى التين هي أمي .

وأصيب اسماعيل أنفلى حمدي بالشلل ، فلزم فراشه ، واحتاج إلى من يؤسه مطلب من حفيدته أن تقرأ له ما كان قد اقتناه من كتب الأدب والحديث والتفسير والقصاص ، وكانت أمي قد عرضت من المدرسة في مكتب القرية ، ولذلك كانت قراءة الكتب التي يجدها ، عذافاً كبيراً . فقد كان لسانها يتعثر فيها وكانت لا تفهم مما تقرأ شيئاً ، وفرت مراراً من هذه الواجب المرير . ولكن أمها كانت تنبرها وتغفل عليها ، وتردها إلى أداء الواجب ، وكانت حمدي تفر من الجيش ولم تلبث حتى وصت ما تفرؤه شيئاً فشيئاً ، ثم استفهم لسانها ، وأخذت ذاكرتها تحتفظ مما تقرأ بالقليل فالكثير ، حتى أصبحت القراءة هوايتها ، وحضور مجلس الأدباء والعلماء الذين يملكون إلى ديوان جدها متعتها ، وأحسست الاستماع إلى ما يقولون ، ولهم ما يتبادلون ، ثم أحسنت أن من حقها أن تشارك في الحديث ، فيطربون لما تقول ، كما يطرب الكبار للكلام الصغار دوى الفجاة ، ثم أصبحت نفاً لهم ، تبارعهم الحجة بالحجة ، فاستمعوا لها باحترام .

ولم يتعلم أبوها ، ولم يرد في المال الذي تركه له أبوه ، ولكنه كان فصيحاً منطيقاً حلوا الحديث ، تواتبه بديته بالقصص المرحل ، وبالروايات المستطرفة وينقد الكبار بما يفسدك ويسل فاحبه جيرانه من الأعيان الصغار والكبار ، فالفرو التردد على ديوانه ويبدونه كان سخيا ، فقد روى لي (زكي أباطة) رئيس بيعة القاهرة في العقد الرابع في القرن العشرين أنه زار حمدي مع أبيه ، وعاد بديعة ملكية هي خزال جميل كان يسرح في حديقة حمدي مع قطيع من الغزلان .

وقد تمت أمي مواهبها الليتائية ، فكانت تقرأ الكتب ، والقرآن ، وتروى بعض ما يعلق بذاكرتها من الشعر والقول المجيد ، وتفسر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، واقتنت عدداً غير قليل من الكتب الحديثة والمقدّمة ، كان في مقدمتها صحيح البخاري وبعض كتب الأدب القديم ، ومن الأدب الحديث حديث عيسى ابن هشام ، ونظرات للمفلوطي وما جلولين ، ومجموعة من قصص مسلمات الشعب التي كان يعلوها خليل صادق ومجموعة أمجاد اللوات الذي كان يصدره

مصطفى كامل ، وترجمة حياته بقلم أخيه على دهمي كامل ورسائل رسمية ومصرية لجوليت ادم وروايات جورجى زيدان فى سلسلة التاريخ الإسلامى وهذه الكتب على قلتها ، كانت رداً كافياً لإشعال جذوة عقل أسمى ، مروايات جورجى زيدان ، جعلت وقائع التاريخ الإسلامى الكبرى حاضرة فى ذهنها ، وفى تناولها عند الاستشهاد بوقائع التاريخ القديمة ، وكانت روايات مسامرات الشعب الصالحة ، مائدة تطل منها على الحياة الأوربية بكل وجوها ، من رواج وطلائق وغرام ، فى ناحية ، وعلاقات الأمان والأبناء ، والأعياء والفقراء ، ونظام الحياة المدنية وأحداث السياسة والحروب أما المولى محيى والمنطوطى ، فقد صقلا ذوقها الأدبى ، وهبأها لمتابعة ما كان ينشر فى الصحف اليومية وفى مقدمتها « الأهرام » من مقالات الأدباء والساسة ، وشعر حافظ وشوقى ومطران ، وقد علمت كل من فى البيت المواظبة على قراءة (الأهرام) ومتابعة الأحداث السياسية ، وتحليلها والتعليق عليها ، وكانت تبدأ فى الأهرام بقراءة الموفيات ، وفى المساء لا أنسى جلستها إلى جانب لبة نصاء بالكىروسين ولها (برنيطة) كبيرة من الزجاج المصنفر ، وفى بعض الأحيان كانت تقرأ بصوت خفيض جداً ، ولكنك تسمع همه ، وإذا قرأت انصرفت بكلماتها إلى ما تقرأ ، وإذا قرأت بما يصحك صحتك بصوت عال ، وإذا قرأت بما يحزن عبرت عن الحزن أو الأسف . وهكذا أصبحت الصحيفة اليومية فى حياتنا ، شيئاً ضرورياً ، أشبه بوجبة الإفطار أما تاريخ حياة مصطفى كامل بما فيه من مقالاته وحظه جميعاً ، وأخبار رحلاته وتنقلاته ، فقد كانت أساساً طلياً لثقافتها السياسية ، أعانتها على فهم ما يجرى فى بلادنا من شئون السياسة والحكم

ولكن الذى استوقف نظرى وحررت فى تفسيره ، هو الفارق العظيم بين قدرة أسمى على الإبانة بلسانها ، وعجزها عن الكتابة المتناسقة مع هذه الفصاحة اللسانية ، فقد كان خطها — على وصفه — شبيهاً بخط تلميذة فى السنة الثانية الابتدائية أما درجتها الإنشائية فقد كانت درجة شابة أمية لا تعرف من الكتابة إلا كما يقول فك الخط وهذا أمر يدعو إلى المصعب حقاً ، فالظاهر أنه لا يكفى أن يكون الإنسان فصيحاً مطلقاً ، قادراً على التعبير عن نفسه بلسانه ليكون كاتباً ، بل لابد إلى جانب ذلك من المراء والتأيرة على الكتابة .

وقد كانت أسمى على التقيض من سيدات عهدنا لانحب أن تشمل سلها فلم أرها

يوماً في المطبخ نظهوا ، ولو طبقاً من البيض أو الفول ، كما لم أشاهدها واقعة إلى الخوض بعمل منديلاً صغيراً ، كما لم يقع نظري عليها وهي تكتس ، ولكن بيتها مع ذلك كان آية في النظافة والنظام والترتيب ، مروحاً بكل ما يلزمه من أدوات الطبخ والفصل والكفى ، وأجهزة ومعدات لإدابة السمن ، وتسيجه ، وتخميره ، وما يلزم في البيت من حبال ، وحيرط الدوبلرة ، وللمسافر والشواكيش ، وللمكاشاشات ، والكبيران ولمازير والمكايل ، فلم تكن تطيق أن تقتصر من جلوة لها حبة منع أو ديساً صغيراً ، أو حرق لا تساوئ عليمي ، وكانت تنهانا أن نفعل ذلك حتى شيبا ونحن معتقد أن اقتراس هذه الأشياء الصغيرة لا من قبل التناول فقط بل من سبيل السرعة أيضاً ، التي تلوث السمعة ، ونحط من القدر . وكانت لا تطيق طلبات جاراتها في هذا السبيل ، فلما صاقت درعاً من كثرة ما طلبوا منها مكياً للسم يصنع من صمغ ، صحت على حسابها لكل منهن مكياً وأرسلت هدية منها ، ولما عدد يطلب بعد حين المكياك نفسه ، انفجرت عاصبة ، وكأنها سمعت هولاً لا قبل للناس بالسكوت عليه .

وكانت صلتها بمن يعمل أو يعملون عندها صورة من شخصيتها ، فقد كانوا يحشونها ، ويحسبون كل حساب إذا وقع خطأ من أحدهم أو إحداها ، إذ لو سلطت على المحطى غضبها الكاسح ، لأحس أن الدنيا زلزلت من قواعدها ، وأن السهله ستقع على رأسه كسفاً ، فقد كان سبيل تأنيبها وتقريرها عند الغضب متلخفاً وصوتها مجلجلاً ، ووجهها مريداً وغضبها صادقاً ، لا تكلف فيه ولا صالمة ، فإذا هذات كانت نحو على هؤلاء الذين غضبت منهم ، وجلست إليهم تتحدث معهم ، ونسمع لهم ، يروون قصص حياتهم ومشكلاتهم . وقد كان من بين من عمل عندها امرأة تجاوزت منتصف العمر اسمها « أم جليلة » ، ولقد درجت أمي على مداعبتها وعلى تنع أحبار بنتها جليلة وابنها سيد ، فإذا أراقت أن تلوى إلى فراشها ونجايلت على نوم الذي لم يكن يواتها سهولة ، أجلست أم جليلة إلى جانب فراشها ، وطلبت إليها أن تروي قصصها الحقيقية والمثلية ، وتستمر المرأة في الكلام رمتاً طويلاً بعد أن تكون أمي قد استعرت في نوم عميق .

ولست أنسى مشهداً لا يغادر حياي أبداً في حجرة الخزين سطح منزلي في السبعة ريب ، فقد صطت أمي ، عبد الله ، وكان يعمل عندها كبواب وساع

لقضاء حوائجنا . وكان مولوداً في أرض جدي بالقيس صبيته وقد أهد قرطاساً طويلاً ليعلاه برراً فعل الدم في رأسها ، إذ لم يكن بعضها شيء مثل هذه الدنيا الصغيرة فلما فلجأته متلبساً بحريمته ، انتهالت على أصداعه بأقلام حبل إلى أن المكائن ارتفع لها ، والرجل مطروق مستعد لا يقول شيئاً ، ثم خرج من الحجرة ، وكأنه سجين نفذ فيه حكم الجلد يجر رحليه ، ولا أكتمك أني يومذاك غضبت من أمر عضباً عيباً ، فانسجبت إلى حيث استطعت أن أتأجى عسى الكسيرة الحريمة وبودي لو استطعت البكاء .

ولكن هذه الأم القادرة على إقامة النظام والمفانون في بيتها ، لم تكن تتسامح مع أحد ما نهى أولادها وبانها ، حين سىء إلى صديق أبيا كان سبب ضعفه : ففروا الطريق ، أو رجل أو امرأة لو فتاة نعمل عندها ، أو طفل جاء مع أمه أو مع أبيه يلتمس عوناً أو يطلب نعمة . فإن وقعت من أحداً هذه الإساءة ، فالويل له من عضبها .

ولم تكن أمي قوية مع الصغفاء بحسب ، بل إنها مع الأقوياء كانت أكثر قوة ، وقد تزوجت خالتها من (باشا) بعد واحد من أغنى أمهات مصر ، فقد بلغت مساحة أطيانه وشقيقه نحو ٣ آلاف فدان في الشرقية والمصرية . وكان شقيقه رجلاً طامعاً ، لا يسمح لأولاده حتى بعد أن أصبحوا كهولاً شابت رؤسهم ، وحصلوا على رتب البكوية من الدرجة الأولى أن يوجهوا إليه الكلام إلا إذا أذن لهم ، فإذا تكلم أطرقوا ووضعوا الأيدي فوق الصدور ، وإذا غضب على أحدهم أطار طربوشه من فوق رأسه أولاً ، ثم وكله بقدمه ثانية على مرأى ومسمع من الفلاحين وموظفي عربيه ودوايره الكثيرة . فإذا أتبع لأمي أن تجلس إليه وتناقشه ، حاطبته كما تخاطب أحد أبنائه ، بلا تحفظ ولا رهبة ، مع الاحترام المناسب لسنه وبهوه ومقامه ، وقد تخالفه في الرأي ، وتعاتبه على ما فعل مع بعض مناته ، أو سات أخيه روج حالته ، والرجل يسمع ولا يصيق بما تقول ، بل يضحك أحياناً ويقر نثره عن ابتسامات الرضا والسورور أحياناً أخرى ، فإذا خرجت أمي من لديه ، وجلدت على الباب الرحال والسقاء ، يعجبون كيف خرجت من عرين الأسد ، ملا حروص ولا رصوص ، وتأملوا وجهها ، فإذا رأوها هادئة رابطة الجلس ، حاروا في تفسير هذه الطاهرة الإنسانية التي لا تفسر بقوانين حياتهم ، وقواعد شائهم .

جَدَّتِي

في حياتي شخصية جذيرة بأن أنف أمامها ، وإن أحبها ، تلك هي أم أمي التي وفدت من إقليم حنكاي سلال الشركس ، صراوا من ولايات حرب الروس مع الأتراك .

وقد بقيت أعرف أن اسمها حفظة ، ولم أكتشف أن هذا الاسم أطلق عليها في مصر ، وأن اسمها الحقيقي هو بهيجة ، ولم أجد من أهل من يصر لي سر هذا التمييز ، فكلا الاسمين هريان ، يسهل النطق بهما على المصريين ، في حين لو كان الاسم شركشيا صعب النطق ، لكان مفهوماً تغييره .

وقد كانت جدتي ، على خلاف الشركسات ، قصيرة القامة ولم تكن جميلة جمال بنات عشيرتها ، فالشراكة والشركسيات مثال رائع من جمال الرجولة والأنوثة ، وكلا الحسنيين يمتاز طول القامة ، ومثانة بنيان الأجساد ، وسواد الشعر ، مع نموت وكسر العييين وحلاوة التقاطيع ولكن جدتي لم تكن دمية ، بل إن تقاطيع وجهها جميعاً سليمة إذا قيست بالمعيار الهندسي فلا بروز ولا نتوء ولا التواء ، مع شعر أسود فاحم باهم ، وعيون واسعة سوداء ، وحواجب ثقيلة مقرونة ، وجهية عالية ، وأنف مسنور ، وشفتين بين الرفيعة والعليلة ولكن يبقى وجهها بمد ذلك كله في حاجة إلى مسحة الحمال ، ولعل طابع الحد والمندود باعد بينها وبين جمال الأنوثة .

ولكن جدتي ، على بساطتها ، وبساطتها ، كانت نموذجاً إنسانياً ، يؤكد

للباحثين في ديا العنوس أن الإنسان ، هو أشد مخلوقات الله ، استعصاء على العهم والكشف فكم من إنسان يبدو قليل الشأن ، وهو قوة تعجز الأقوياء وتحيرهم وكم من آتمين يحثون الرعب في القلوب ، وتبدو عليهم مظاهر اليأس الشديد ، وهم أمام الأحداث صغار للعنوس ، صغاف الإرادة ، قد تستعبدهم شهوة ، أو تزولهم صلحة .

وجئت من طرار الأقوياء الذين يبدون في مظاهر البسطاء الذين لا يؤبه لهم ودلائل قوتها كثيرة ، من ذلك أن زوجها تزوج عليها ريفية من أهل قرية الخفيس ، لم تكن على شيء من الجمال ، لو الثراء أو الوجاهة . مجرد ريفية طويلة فظيرة ، كانت أمي نصحها بأنها كالإب طولا ، وكخفير الأرياف جفلا ، وبعداً من الرقة واللفظ والأنوثة فلم نعتيه جدي ، ولم تحدثه في فعلته هذه ، بل تركت له بيتها في القرية ، ووفدت إلى القاهرة ، وصرفت كل حياتها لأولادها ، وما كان لها في العزبة ، وأنعتت لإيرادها على تربية أولادها الثلاثة ، وكانو يتعلمون في المدارس . لم يجرؤ جدي على مصالحة جدي ، ولم يطلقها ، ولكنه أدرك أنها نبذته من حياتها إلى غير رجعة ، بلا تردد وفي هدوء ، وقد رأته وأنا صبي ، في زيارة أولاده في بيت جدي ، فلم يجريبه وبينها شيء يشعر بأنها منفصلا . يشادلان الحديث القليل الذي تستدعيه ظروف إقامته في صالحتها ، لا أكثر فهي لا تشيح بوجهها عنه إذا رأته ، ولا تقطب جبينها إذا حدثها ، بل دخلت يوماً عليها ، وكان جدي في زيارة أولاده منها ، فلم ترد على قولها : « جديك في الداحل . ادخل سلم عليه » .

كان مسلكها ينطوي على عنصرين خلتين عظيمين . أولها الحزم ، وثانيها الترفع .

فمن الحزم أنها قررت ترك زوجها ولم يبد عليها أسف ، ولم يأنس زوجها منها ضحفاً بذنيه منها ويسر له أن يكون له زوجتان : إحداهما في مصر ، والأخرى في الريف ، وأن يكون له بيتان : أحدهما في الخفيس والثاني في القاهرة .

على أن حياتها استمرت متصفة بالقوة ، وإن بدت سيدة أجنبية ضحمة الخيلة لا حول لها ومن مظاهر قوتها أيضاً ، أنها قامت على تربية أولادها المذكور والإناث ، فأحسنت تنشئتهم جميعاً . خلايتها من الشجار الذي يدب بين الإحوة

الذكور . الكل يجترمونها ، وكل فرد في الأسرة يحترم الآخر ، والبيت يسوده استقرار وهدوء ، ووقار واحشام ، وأعضاء الأسرة قاطبة ، أهل جد وخلق . لم يتأخر أحد من المذكور : في سهره حرمة الليل ، إلا أن تكون سهره في مسرح مرة في العام . ولم يدر يخلد أحد من أولادها أن يرتكب منكراً في البيت على عادة الشبان ، لو أن تكون لهم علاقة بواحدة من بنات الجيران ، بصورة يأبهاها عرف المصريين ودستور أخلاقهم .

حدثني جليل يوماً ، وكنت صبياً فقالت : « ابني حسين أصفاء الله من كل خطيئة فإذا ارتبعت في تصرف من تصرفاته مع واحدة من بنات الجيران ، ثار واحتج ولم يقبل مجرد العتاب . أما ابني محمد فليس على منهج أبيه . يخطئ فإذا ته ، أطرق ولم يرد » .

أما أبها الثالث ، فمقصوف زاهد وللإنعزة الثلاثة حديث آخر يتبع هذا الحديث .

وكانت جليل ، على هدوئها ويعدها عن اللعب ، ذات إرادة ، تنفذ رأيا ، وأولادها مطعمون . ووجت أبها الأكبر إسماعيل من الزوجة التي اختارها له أمي ، وصحمت على أن تزوج ابنتها الثالث حسين من صغيرة شقيقتها صبية التي ولدت معها من بلاد الشركس إلى مصر ورفضت أن تستمع في هذا الموضوع لأية مناقشة ، وأعلنت في هدوء أن أية زوجة أخرى لابنتها مرفوضة ابتداء ولو كانت بنت الملك .

الصفة الثالثة من صفات جليل هذه المتأثرة العجيبة على أداء فروع الصلاة منذ وحيت الحياة حتى أقعدها المرض من كل شيء إلا من هذه المريضة تزديدا في مواجدها ، حتى صلاة الفجر ، فإذا جاء رمضان صامت ، وصامت بعده الأيام الستة التالية لعيد المطر والتي تواضع المصريون على تسميتها بالسة البيض ، وكانت قد نلرت صيام هذه الأيام ، ليحفظ الله عمر وحيد أختها صبية ، الذي أصبح عضواً في الجمعية التشريعية ، فعضواً في مجلس النواب سنة ١٩٢٤ ، والذي علمت أنا فيما بعد أنه كان زميلاً للمرحوم عبد اللطيف بك الصوفاني في نشاطه السري ضد الإنجليز . وقد بقي هذا النشاط مستوراً ، حتى توالى اعترافات بعض المتهمين في قضية مقتل السراذر السير لي ستاك مفتش الجيش المصري ، وحاكم السودان ، في

نوفمبر ١٩٢٤ ، فقد صدر الأمر بحبس عمر بك على ذمة تحقيق هذه القضية الكبرى ، وكاد يساق إلى السجن ، لولا أن الموت سبق الحياة ، فاحتاره الله إلى جواره الكريم

وقد كانت لحظتي خلعتي الزعيم ، فقد كان لها من أهل قربتها في مصر أئاع يعملون عندها ، وتظلم برعايتها ، فلا يجرؤ أحد في الأسرة على أن يسهم بسوء ولو ساء مسلكتهم وقد بقيت على هذا الحال إلى أن ماتت

وبقيت تلير شئون بيتها ، في همة وبشاط حتى كب بصرها لما أصبحت عيناها بالياه الررفاء ، وقد رفضت في تلك الفترة ، أن تستمع لصيحة أولادها في أن تدع شئون المنزل لمن كان يعمل عندها ، وقد كان لديها دائماً من يعيها من الرجال والسامع وكانت بطبيعة الحال ، لا تنتسب إلى مواضع الأشياء ، فتحطم من يديها الصمون ، ووجاجات الشرب ، فتور وتلعس الناس ، وتتهمهم بالإهمال ، ونأى أن تسلم بأن الخطأ يرجع إليها وإلى عندها

أما حينها لنا ، وعظمها علينا ، ولاسيا على أهل أخنى أمية ، ثم هل أولاد ابنتها الصغرى حالي - فحدث ولا حرج

ولقد بقيت صورتها في ذهني سين طويلة بعد وفاتها فحشت أذكرها وهي تلور في البيت ، سواء في مصر ، أو في الرقازيق ، وحول حصرها حرام تحلده عاتمة من ربطات رقة أولادها الحفريية ، كما لم أنس حواديتها الشرسية خصوصاً (حلوثة) المراتل الثلاث - بك ومك وقرون الغزالات

وفي كل صيف ، كنت أقضى شهراً عندها في الرقازيق ، في بيت حالي وإبنا الذي بقيت معه سبعين ، وهو لمعزب ، واشتد عليها المرض ، وأشرفت على الموت مراراً ، وفي كل مرة كان أولادها يجتمعون حول فراش مرضها ، ثم لا تلبث أن تبلى من المرض فيتبرق أولادها وفي ذات مرة قالت أمي: إذا حال الأجل فستموت أمي وحدها . وقد تحققت نبوءة أمي ، بعد ذلك سنوات فقد علمنا أنها في حالة خطيرة ، فطاطنا في السفر حتى إذا حم القضاء اجتمعنا حول فراش موتها باكين

وقد قصت على عميرة التي لا زمت جلوس في أيامها الأخيرة ، كيف عادت إلى

جلتي ذكريات طفولتها في بلادها ، مراحت نعي بالشركبة ، ونحاطب أناس
لا وجود لهم في مصر ، حتى سكنت أنفاسها وفارق ديارنا

أخوالى الثلاثة

كان المقروص أن أتحدث عن شقيقى الثلاث ، هس الصق بى وأقرب بى دنيا طفولتى ، ولكن لأخى سيصحبنى يوماً بعد يوم ، فلامعى لأن أورد لى نصلاً خاصاً بين أما أخوالى الثلاثة فهم أقرب إلى حلفية حبان ، فلا بد من تقديم الحديث عنهم ونص فى أولى مراحل الكلام .

وهم جديرون بالتحدث عنهم ، لأنهم ثلاث ثلاثة ، تزداد أهميتها ، بمقارنة الواحد بالآخر . ولقد سمعت أمى تقول إنه كان لأبيها ، ثلاث حصال ، فوزعها الله على أولاده الثلاثة . فأعطى أحدهم التربة اللينة ، وإطالة الصلاة والتراوىح وإدامة الدعوات والتسابيح ، ومسح التأتى القدرة على الفقهمة العالية ، بمناسة وبغير مناسبة ، وحصى الثلاث بالحصى على استيقاظ نصيه من الدنيا ، كاملاً غير منقوص ، وأحياناً زائداً عن المقسوم لأمثله الناشئين فى حضن المحافظة والقواعد المرعية .

ولما تقدم بى العمر وقرأت قصة الإخوة كرامازوف ذكرت كلام أمى ، وحل لى أنها تشير - وهى تتكلم عن أشقاتها - إلى هؤلاء الإخوة ، لا لتطابق بين صفات كل من الإخوة « كرامازوف » مع نظيره من الإخوة « حمدى » بل لتضارب بين الصفات وتباين بين الأخ وأخيه تبايناً يعجب الإنسان له ، لأنه يتحدى قوانين البيئة ومعلمها ، وقوانين الوراثة ، على مايعهه الناس ، لا على مايقدره العلم

فأفكر أحوالي كأن درويشاً تعلم في المدارس الابتدائية ، ثم احتلحت أمة إلى معونه حبيبا انفصلت عن روحها وجاءت إلى القاهرة ، فقطع تعليمه ، ووظف معه في وظيفة مهندس بالمساحة ، بعد أن أهدى لذلك في المدارس التي كانت الحكومة تدها لتخريج مهندسي المساحة ، ومساعدتهم

واستطاع أخوه بفضل هذه التضحية ، أن يتبع تعليمهما ، فكان الأخ الذي يليه مباشرة مهتماً ليرقى في سلم الوظائف الحكومية ، إلى أعلاها ، أو ما يدانق أعلاها . واستطاع الثاني أن يحصل حل إجازة الحقوق ويشغل عملياً ، وفي حالي الأكبر وحده بينهما لا يحمل مؤهلاً عالياً ، متحملاً آثار ذلك النقص المادية والأدبية معاً . وكلاهما آثار فادحة . فمصر مجتمع الشهادات يقاس الإنسان فيها بالإجازات العلمية التي حصل عليها ، بل بالدور الذي أدى فيه امتحانه النهائي الذي حصل فيه على الشهادة . ويعقدوا ما حصل الإنسان على مؤهلات مدرسية يحصل على مال ، بعض النظر من كفايت في العمل وحسن أخلاقه ونفعه للناس ، وقد بقى الناس يذكرون له حرمانه من المؤهل ، كان ذلك الحرمان عاحة من العاهات ، حتى الذين يقدرونه ، ويتصلون به بصلات اللودة والمحبة ، لا ينسون وهم يتنون عليه ، أن يقولوا : لقد وصل إلى ما وصل إليه مع أنه لم يحصل على شهادة .

ولكن خالي ، لم يبد عليه قط ، أنه يشعر بما بلله في سبيل أخويه من تضحية أو أنه يهن عليها بالفضل الذي أسداه إليهما ، بل إنه لم يبد عليه يوماً أو ساعة من يوم أنه أسف إذ حرمه الله من العلم الذي كان مؤهلاً له بذكائه ومثابرته وانقطاعه عن هو الدنيا ، ومضى إلى حياته المتواضعة التي فرضها حظه عليه ، سعيها مرحاً ، لا يكف عن مداخلة كل أولاده أغنيته ، بأسلوب عرف عنه ، فكل طفل عنه (قط رومي أو قط بلدي) وهو يقبل الصغار في جباهم ، ويضحك لفكاهات ومداخبات الجميع ، ولو خلت من خفة الظل ، ولطف العبارة ، وهو يحمل أنواعاً من الهدايا لصغار العائلة ، هي الحلوى التي تباع في ميادين للساجد : كميذان السيدة زيب ، وميذان الحبيب ، مثل (المريسة) والحلويات الحمصية والسمسمية والعلف والسودانية . ولكن أحب هداياه إلى نفسه هي المريسة المصنوعة من جوزة الهند ، ولذلك فإن أكبر علامات الرضا عنه هي (المريسة الجاوي) .

ولقد كانت له حركات عصبية تدل على مدى الحيوية المكونة ، أو الوجهة إلى غير وجهتها فهو يصطط على فكه الأسفل إذا سمع ما يصحكه أو يعجبه حتى تبرز عظام الفك ، من وراء جدار وجهه وهو يمك رأس الإنسان يديه الأنتين ويديه شئ من الصف ليعمل بجهته وإذا اشتد صحكه دار حول نفسه دورة أو نصف دورة ، وهو يرشف كأنما يشرب ماء .

إذا فرغ من الحديث ونهيا للخروج ، احتاج إلى وقت طويل ليند قراره فهو يخرج حتى يصل إلى الباب ، ثم يعود ثانية ، ليستأنف الحديث ثم يخرج ثم يصحش ثم يقبل محذنه في جهته ثم يستأنف للخروج ثم يذكر أحد المولى ، يقرأ العائنة . وقراءة العائنة هي الأموات ، قريين ويعرلين ، يعرفهم محذنه أو لا يعرفهم لأزمة من لورام الحديث ، فهي كشرب الأنحاب على موائد طعام الروس السوفيت ، تقع مرات في الجلسة الواحدة . ويأت هذه اللازمة مثر الضحك والمداخلة في العائلة ، بما يتحدث خالي إلى أحد منا حتى ندس في الحديث اسم أى ميت ، ثم يقترح قراءة العائنة على روحه ، فيسط خالي كفيه لأعلى ، ويتلو العائنة بدون أن يسأل عن اسم الميت . فطلب الرحمة عمل طيب ، ولا سم من يكون المطلوبة له . والسما في المدعية فكنا نقترح قراءة العائنة على محمد هل باشا مؤسس العائلة المالكة ، فنقرأ العائنة فوراً ، ثم على المرحوم الشيخ سلامة حجازي قتل في الحال ثم ندس اسم حورج الخامس ملك بريطانيا معهم خالي بالقراءة ثم يكتشف (البكرة) فلا ينصب ولا يجتج ، بل يقبل جبهة محذنه العايت ، وهو يقول : « الله يجازى شيطانك .. تعرف أننى أحبك .. » وهكذا .

كل هذا هو الغلاف الخارجى لحياة خالي ، ولكن القسم الداخلى الذى يشه لمن الأقداس في معبد القراعة ، حيث تقام الصلوات ، وتجرى أكثر الأعمال قدسية ، فهو صلاته وتمبده ، وحبه لأهل البيت ، وانقطاعه لساجدهم ، أى لمسجد السيدة زينب والسيدة نفيسة والإمام الحسين . إنه حب عميق حقيقى حالص ، فيه كل سمات وخصائص المرام ، ولم يكن لدى دليل أقوى على صدق هذا الحب وحلوه من كل عيوب التظاهر والمراعاة ، من أنه خالي لم يكن يتحدث عن هذا الحب لأحد فيما كان يدعونا إلى تقليده ، ولا يبحث أحدنا عن صلاة ولا ينهى آخر

عن إهمال العبادة فلم يكن ينظر إلى نفسه كراعظ . ولا كناسك ، ولا كسائر في طريق يدعو الناس إلى اتباعه أو السير فيه . فهو يجد في صلاته وتسابيح وصوره راحة وسعادة ونشوة فيمضي فيها حياً ، ولا يتحدث لأحد عن هذا السرور الزباني الذي يعمر قلبه ونفسه ، كأنما الحديث عنه أشبه شيء بإفشاء المحبوس أسرار عراهم .

ولعل لم يجد متصوفاً صادقاً كما وجدت خالي ، فقد كان قليل الدحل ، ولكنه كان دائماً لطيف النياب ، مجداً في عمله ، متفوقاً فيه ، لم يشك قط شيئاً في دينه . لا قلة المال ، ولا الحرمان من الترقى ولا قلقاً في حياته العائلية . رأته مرة واحدة تدمع عيناه ، وذلك يوم أن مرضت ابنته الصغرى ، بحمى التيفوئيد ولم يكررها .

ويلع نصوفه أهل مراتبه بأشعاله الدائم الموصول بمشكلات الناس ومتاعبهم ، فهو لا ينقطع عن السعي في قضاء مصالح الناس والتخفيف عنهم ، مع أنه رجل بلا نفوذ ولا صلات ، ولكنه على قدر طاقته يعمل ولا يتأنخز . وكم من مرة زار في مكتبتي ، لا يرجو لنفسه شيئاً ولا لأولاده ، إذ كان كل رجائه مصروفاً إلى الناس .

وفي ذات يوم جلوس ومعه خطاب صغير ، وقال لي إن بداخل المطروف ورقة تخص رجاء موجهاً لي ، ولكنه لا يجب أن أصر المطروف إلا بعد انصرافه .

ونجلى لي يومها أن خالي يمر بصائلة حانقة لم يستطع أن يجتملها ، وهزن هذا التصور ، لأنني أعرف أنه لا يطلب لنفسه شيئاً . وجلست ألتفت إليه وأنا شارد العقل ، مشغول النفس ، بما عساه أن يكون في الخطاب . ولم أكد أصرغ من توصيله إلى الباب ، بعد أن قبل جبهتي عشرات المرات ، وبعد أن قرأنا عشرات المواتع على العديد من الموتى . وبعد أن هم بالانصراف والعلول عنه المرة بعد المرة فصصت الخطاب فمادنا وجدت ؟ ورقة صغيرة مكتوباً عليها بخطه الذي لا يشبه كثيراً خط الآخرين . يطلب فيها مني ، ماذا تظن ؟

يطلب أن يدمع عندما يحين الأجل إلى جوار أبي . ولا أحد سواه ! واغرورت عيني باللموع . .

لا لأن هذا المطلب من شغاف قلبي ممعب ، بل لأنني وجدت في هذا المطلب أكبر تركية لخلق أبي وطيبته فقد كان حالي يحمي أراه في الناس حسنة وسيئة ، لأنه لا يجب أن يشغله الناس عن دنياه

وبعد أيام . أيام قليلة جداً مات خالي ، في أول مرض يصاب به في حياته الطويلة ، فدفنناه إلى جوار أبي .



أما حالي الآن فقد كان أيضاً شخصية فريدة ولم يكن نموده هو نقاء حياته العامة والخاصة فقط ، بل منهجه في التفكير أيضاً .

ربما كان فريداً بين لداته وزملائه ، لأنه لم يلدح قط ، ولم يشرب الفهوة ولا الشاي ، ولم يجالس أحداً في المقاهي التي كانت جرماً لا يتجرأ من حيلة أي موظف ، بل أي مصري ولم يكن له أصدقاء يتبادل معهم الزيارات ويردد اسمهم على لسانه وإن كان له زملاء يجالطهم في العمل والمناسبات الأخرى خارج العمل ، ولكنه على بعده عن المجتمعات كان مرحاً ضاحكاً ، سمح فقهته في البيت طوال النهار ، ثم هو لا يكف عن مداعبة الناس ، الكبار والصغار ، بدون أن يلتفت إلى أثر مداعبته في نفوسهم بل إنه يوجه الحديث إلى الناس ثم لا ينتظر ردهم ، وهو يقص على مجالسه ، النادر ويضحك عليها ولا يسمع من أحد كلاماً مهما كانت جمعة عهده مليحة بالملح والطرائف

قل أن يتزوج ، كان يقصى إجازته السوية عندما يصرفها جميعاً في البيت يلعب مع نفسه لعبة (الصبر) بورق اللعب (الكوتشيه) وهو حلال نعبه ، يروي القصص لمن يمر إلى جواره ، ويشاغ أهل البيت من أقاربه والعالمين فيه ، ولا يخرج إلا نادراً ، ليشتري شيئاً من الحلوى لنا من محل صولت الذي كان متدني الخاصة في تلك الأيام ، فيلقى فيه بعض زملائه وعارفيه لقاء عارضاً ، يتبادل فيه كلمات قليلة ، ويعود إلى المنزل وقد امتلأت جعبته بالعشرات من التعليقات، على أشكال الناس وكلامهم وتصرفاتهم وقد يكون كل هذا صليلاً فريداً لحالي، إذ

لا شك أنه لا يوجد كثيرون غيره في سنه وشبابه ، وبخاصة في عمله ومركبه يمعون
من دساحم هذا القدر السيط ، بل النافه ، من الترويح عن النفس

صحيح أنه كان يردد على السبيا أحياناً قللة ليرى أفلاماً جيدة ، وصحيح أنه
سمعه بمن يوماً على الملحن في أيامه وثنى على أحدهم ولعله داود حسني ، ويبدو
عراشه وبمده للملحن آخر ولكني لم أسمع قط أنه قضى ليلة طرب في ملهى عام كما
سمعه يوماً يرى مشهداً مسرحياً أدخل إلى قلبه سروراً عظيماً ، وهو مشهد يتحصن
في مريض يشكو أوجاعاً في أسنانه وأصراسه ، فأطال الشكوى على حشنة المسرح ولم
يتعب المظهر ، حتى صافى دمعاً أحد النظارة بهذا السطح ، فانتهر الممثل وطلب إليه
أن يكبح عن الصراخ المزيج وأن ينسحب إذا لم يكن لديه شيء آخر يسمعه
للجمهور ، فتطوع مفرح آخر لحماية الممثل ، وانقسم الجمهور إلى مؤيد
ومعارض ، ثم اتفصح أن هذا كله جزء من المشهد المسرحي وأن المؤيدين
والمعارضين كانوا جميعاً مثليين . واستمر يروي هذا المشهد أياماً طويلة ويضحك ،
ثم يستأنف الرواية ويضحك دمعاً دخل أحد إلى الحجرة ونعالى يروي هذا الذي
راه . فلا يتناول الحديث من بدايته ، إنما يشر فيه ، ويدعو الداحل إلى المشاركة في
الضحك ، والآخر لا يدري ما الحكاية .

ودهب يوماً إلى « اللوباروك » في مدخل مصر الجديدة ، وقد أزيل مد سوات ،
وكان مجمعا للالعاب لا مثيل له لا في مصر ، ولا في غيرها من الدول الأوربية التي
زرعتها . وكان من بين الألعاب فيه ، سلك ممدود على بحيرة صناعية يتعلق اللاعب
من الجمهور بهذا السلك ، ويحتم قارب صغير . والقروض أن تكون سرعة اللاعب
موارية لسرعة القارب ، فإن تحلف وتميت دواعه . سقط في ماء البحيرة ليتشل بعد
ذلك ، وقد ابتلت ثيابه . . ورأى خالي هذا المشهد ، وسمع اللاعب وهو يصرح
(حسيب . حسيب باناس) أي أنه صيرك الحبل . وكان في اللوباروك شخص
اسمه (حسيب) فجاء مسرعاً ليسأل عن الخبر . فلم يجد من المتأذى واستمر يسمع
اسمه يتردد حتى سقط المتأذى في الماء .

كل هذا بلا شك شيء غير عادي إنما التمرد الذي أعياه هو موقف خالي من
حين . إنه لم يصل قط وإن كان لم يقطع عن الصوم مطلقاً ، كل رمضان وعدم

صلاته ليست بالشئ غير العادى في عمنمنا ، لاسيما بين الذين تلقوا التعليم الحديث ، وإنما الشئ العريب الذى لم يتحدث قط في أى شأن من شئون الدين . ولم نسمعه يذكر اسم النبى ، ولا يشهد ، أو يستمع إلى قرآن ، بل لم أسمعه يجلف لا بالله ولا بغير اسم الله الكريم . وكان يرى أحله الأكبر ، فلا ينطبع على وجهه ، إلا تعبير حفيف جداً لا يكاد يلاحظ عن شئ لا نعرف أهكون امتعاضاً أو اندهاشاً . وكان يسمع أحاه الأصغر ، يتحدث حديث الملحد ، فيلو على وجهه التعبير نفسه ولا يزيد .

وبالجملة كان - الدين فيما عدا الصوم - لا وجود له في حياة خالى ولا أثر له في تصرفاته . ولكن هذا الموقف مقترن بصمت كامل ، هنيه ، لم يخرج عنه في يوم من الأيام ، حتى توفاه الله .

والى جانب هذا الموقف غير العادى ، كان شديد الاحترام لأه ، ولكنه لم يقلق بها ، ولم يسمح لأحد أن يقلق يده هو بفن صحيح كثير ، إنه لا يجب تقبيل الأباى ، ولا يجب أن يقترب من الناس ، ولا أن يقترب الناس منه ، ولكنه كان أبر الناس بفقرائه عائلته ، ومن يلود بها من الصعاف ، بمنحهم الصدقات ويواسيهم في الملمات ، ويحاميهم في المناسبات بدون كلام . لا يقل من أحد شكراً ولا يقول إن ما يفعله واجب ، أو دون الواجب ، كما يفعل الناس في بلادنا إذا شكرهم شاكر

والرأى الوحيد الذى كان يعلنه ، يدل كذلك على غرابة أطواره ، ذلك هو رأيه ، المستمر للتحريج ، المعلن بأعلى صوت مقروياً بالفقهية . من أن كل من اسمه « على » متطع ، أو صخيف . ويشرب الأمثال المندبة على هذه النظرية العرية من حياة الأسرة والجيران وزملاء الدراسة ، والشخصيات المشهورة في مصر ، وفي التاريخ العام ، ولست أدري أكان هذا مجرد رأى عريب ، كمعظم ما يصدر عنه أم كان نقداً حقيقياً لأبيه فقد كان اسمياً . أما خالى الثالث ، فهو في ظاهر الأمر أكثر الأشقاء الثلاثة اقتراباً من المعتاد والمألوف في أخلاق الناس ومظاهرهم وطعامهم ولكنه في واقع الأمر ليس بهذه الساطة . بدأ حياته التعليمية في الأزهر ، كما كان يفعل الكثير من أولاد أعيان الريف ، إذ ينشرون واحداً من أولادهم للأزهر تقريباً إلى الله . ولكن الاختيار وقع على أصغر الأولاد ، دون أكبرهم الذى كان مهتماً لهذه الدراسة ، ثم انقطع عن التحصيل والتعليم في الأزهر ، لا لتصور منه ، أو لتحلف

عن ركب رملاته ، كما وقع لكثيرين ممن لم يطبقوا أسلوب التدريس في الأزهر وحرصى التعليم وانعدام النظام فيه ، وسوء تأليف الكتب المقررة على الطلاب ، وإنما لسبب آخر أعده ما يكون عن العلم والتعليم ، ذلك هو القتال السوى الذى يقع بين (البحارة) أهل الوجه البحرى من تلاميذ ، و (الصعايدة) أهل الوجه القبلى ، وقد كان الشراقة ، أى أهل الشرقية ، ومهم حالى حلفاء طبعيين للصعايدة ، يدعو أن الجميع (عرب) ، ولا يبعد أن تكون القبائل التى انحدر منها أهل الشرقية هى القبائل نفسها التى صعدت فى التل ووصلت إلى مصر العليا ، ذلك لأن وجوه الشبه كثيرة مثلاً فى بطق الألفاظ وفى العادات بين أهل الشرقية والصعايدة . وقد يكون اتصال الشرقية المباشر بالصحراء الشرقية وقبائلها ، واستمرار الهجرة من الصحراء إليها هو الذى قارب بين الإقليمين . ولما كان أهل الصعيد ، أطول أجساماً ، وأقوى أبداناً ، فقد كانوا أقدر على القتال ، وأصر على متابعه ، وهذا كان يتطلب من حلفائهم أن يكونوا فى مثل شدة بأسهم وشجاعة قلوبهم . ويبدو أن حالى كان فى صباه أضعف من أن يكون مقاتلاً قوياً ، فقد فقد على هامى متوالين عصامته ومركوبه أى حذاه ، ورأت أمه أنه يجس لاكتساء يده البداية ، أى أحد الأمر من قصيره كما يقول ، فعولت بها إلى المدارس الملية ، فتعلم فيها حتى وصل إلى مدرسة الحقوق الملكية ، وتخرج فيها ، واشتغل محامياً فى مدينة الزقازيق .

والعجيب أنى لم أناقش حالى فى تاريخه فى هذه المرحلة من حياته ، ولم أسأله عن حياته فى الأزهر ، ولا عن هذه المعارك التى أجلته عن صحن المسجد العتيق العريق .

أقول عجيب حقاً أنى لم أحدثه فى ذلك ، فقد كنت كثير الأسئلة لا أضع إنساناً ترمطى به صلة وأطمش إليه قليلاً حتى أحاول أن أعرف كل ما عده ، بدون أن أبالى بضيقة ، أو على الأصح ، بدون أنه إلى هذا الضيق ، والعجيب أيضاً أن حالى على ما قام بسا من الألفه والمودة ، حتى أصبحنا صديقين بحق على الرغم من مارق الس ، لم يخطر ساله أن يروى لى ، ولو طرفاً من حياته الأهرية أكان فيها ما يحمله ، أكان لا يجب أن يعرف عنه أهريته القصيرة العمر ، أم كانت فترة قليلة الأثر فى حياته فلم يجد فيها ما يروى على قدرته على الحكاية وحده لرواية الطرائف

هل أن في حياة حالي فترة أهم بكثير من تلك الفترة الأزهرية ، سكنت عنها ولم
يحدثني قط عن شيء يتصل بها ، مع أن كل ما وقع في حياتي بعد ذلك كان يستحق
على أن يشير إليها ولو بإقتضاب .

فلقد علمت أنه مر بفترة ولزئت بعصه كثيراً ، تلك فترة الشك القاسي في أصول
الدين ، وفي العقائد السائدة في المجتمع الذي ولد فيه وعاش ومات . وقد قيل لي إنه
في هذه الفترة كان لا يستطيع اليوم حتى خيف على عقله ، فانتزع نفسه انتزاعاً من
هذه المغموم الروحية ، وقد سبح في ذلك ، ولكن يبدو أنه قرر ألا يسألش هذه
المشكلة ثانية ، لذ لم أسمع به يحدثني في الدين ، إلا كما يتحدث في الناس وأهلب
حديثه بدور حول واقعة في تاريخ الرسول عليه الصلاة والسلام ، أو تفسير آية ،
أو التعرف على حكم من أحكام الشريعة . أما العقيدة نفسها ، فلا حديث عنها
بحير أو شر . ولكنه كان يصوم رمضان كما كان يفعل أخوه الأوسط ، وظاهرة صوم
الدين لا يصلون في مجتمع المصريين مشاهدة بوصوح ولعل مرجع ذلك أن الروح
الجسدية في رمضان تغرى بالصيام وتجبه إلى الناس لأن كل ما يتم في رمضان يتم
جامعاً ، وباحتمال عظيم . فالصيام في السحور يتم بعد مدقع ضرب ، ومسحوق
بطين وبنشد ، وأهل البيت يستيقظون ، ويوقدون للوقاد ، وتذب في البيت
الحركة . فإذا كانت ساعة الإفطار صرب المدح ، وهلل الأطفال ، وأذن
المؤدنون ، وأبهرت اللذذ ، وقلمت الأطعمة الخاصة بـرمضان وأتفق عليها المال
الكثير ، فإذا فرغ الناس من الإفطار لوقفت الفوانيس في أيدي الأطفال ، وطلب
الكبار بعضهم على بعض يتبادلون الزيارات ، ويتناولون مشارب خاصة بـرمضان ،
ويسمعون القرآن ، ويأكلون الثقل ، ويسهر كل من في الحى ، ويشمل الجميع روح
من الفرح والبهجة لا يشهدنا شهر آخر ، ولا يعرفها عيد من أعياد الغرب على
حرمهم الشديد على الاحتفال بأحاديثهم ، ونجمل أيام حياتهم . وقد كنت أسمع
خالي يقول وهو يمج بالتوم أحياناً ، بسم الله الرحمن الرحيم ، ولا يزيد عليها شيئاً .

ولكنه كان حريصاً على أن يجي حياته ، كما يطيب له . فهو يشرب الخمر ولكن
بدون أن يكون مدمناً ، ولعل أكثر ما كان يشربه من الخمر هو البيرة في الصيف .
ولكنه لم يحفظ قط برجاجة وسكى أو كونيالك أو حتى بيذ في بيته . ولكن لا يعد إن
جعه مجلس شراب بأصدقائه ، أن يشرب معهم

وقد ألف فيها بمد - كل خميس يأتي فيه من الرقائيق إلى القاهرة حيث دراسنى ثم
عمل - أن يصحبنى إلى الملاهى الليلية المشهورة ، ولكنى لا أذكر أنه كان يشرب
هناك الخمر .

لما جانب المرأة فى حياته ، يختلف عنه فى حياتى أخويه ، فهذان بقيا كالراهبين
حتى تزوجا .

ولكن الذى كان يجرى فى أمر خالى ، قلناته الزائلة التى حالت بينه وبين التقدم
فى المحاماة وفى المجتمع . فهو بين أخويه ، وبين أكثر زملائه يحب للكتب يشتريها
ويجلدها أحسن تجليد ، ثم هو مرتب للمحل ، حسن العبارة ، ورث من أبيه قدرة
بإتية كانت خليفته أن تسمو وتصفل ، لواعتنى بها . وقد بدأ عمله فى المحاماة فى وقت
كانت الأحزاب تتنافس فيه على المحامين ، وكان له من الأرض التى خلعها جده
ركيزة يمكن أن يستند عليها فى الحياة السياسية ، ولكنه لم يفعل ، فقد كان يؤثر
الراحة ، ويحرص على الدعة وخلو البال . إنما العريب حقا أن الحياة الحزبية بكل
استخدامها ، والحياة السياسية بكل اهتمامها ، لم تمسا فى مصبه وقتاً واحداً ، فقد كان
ينظر إليها بأقل مما ينظر المخرج إلى أشباح السنين : تروح وتغدو وتظهر وتختفى ،
وهو ساكن فى مكانه ، قد مضى حياً وقد مضى عبثاً حيناً آخر .

ولكنه فى مكانه لا يتحرك . وإنى لا أذكر أنه تمسك لحزب ، ولا لحزب
حزب ولا لحال فى جريدة ، ولا لحظة من رحيم ، ولا شارك فى مناقشة حزبية ،
وليس هذا من تبلد فى الحس ، ولا نقص فى العاطفة الوطنية ، وإنما لاكتفاء شديد
بنفسه ، وثقة كاملة بها ، فلا يسه أحد من الصغار اللذين يكبرون ، ولا يفس
عليهم تقدمهم فى المناصب ، ولا شهرتهم فى الحياة ، ولا يحس أنهم أفضل منه ،
أو أن الواجب أن يسبح على مواهبهم ، أو يحسد على ما حققوه من مال أو مكانة ،
لذلك لم أسمعهم يطمس فى أحد من الناجحين ، طمس المحققين الحاقدين ، بل إنى لما
اشتغلت بالسياسة ، وسمعتى أحطب ، وقرأ لى ما أكتب ، كان يفرح لى ويفرح
بى ، بدون أن يقف موقف المؤيد أو المعارض أو الموجه لى فى نشاطى السياسى . فقد
كلا المهم عنده أن يوافق ناجحاً ، ومسروراً وسعيداً بنشاطى . وحدث أن ترافعت
معه مرتين ، فقد نى على نفسه ، وتكلم بعدى فأحس الكلام ، وسد النفس التى

تركته ، ولم يعلق على هذا كالم شيئا لم يحدث . والحق أن هذه قوة جلي لم أر لها مثيلا
في الناس الذين عاملتهم واتصلت بهم ، سواء كانوا من الأقارب أو الأبعد

وقد تأملت طويلا في مصدر هذا الخلق الجيد ، واعتدبت بعد طول التأمل إلى
أن هؤلاء الأشقاء الثلاثة كانوا رجالا جليين لم تشعلهم المظاهر قط ، ولم تحطف
أبصارهم أنوار الماصب الكيرة أو شهرة الأسماء الدائمة ، مع قناعة مادية ، حتهم
من التردى في حماة الثرف أو التمريط في الكرامة ولكن لراس اسماً لأن هؤلاء
الرجال كان ينقصهم جميعاً شيء من الطموح ، إذ لو أناسهم الله فترا منه لكان
أكبرهم شيخ طريقة بقية سالحة ، محبة للبحر ، ساعية لمصلحة الفقراء والمجهولين ،
ولكان الثالث عامياً ذا شأن ، ينفع الناس بلسانه وقلمه ، وعقله ، أما الأوسط ،
فقد أتبع له أن يصل إلى مكانة لا بأس بها في عمله ، وإن كان جديراً بأن يمد يده
للناس ، لو وصل إلى أعلى مما وصل ، ولكن الذي شغلني حقاً ، هو مواقف الإحوة
الثلاثة من الدين .

فأحدهم متدين منصوف ، كل نشاطه موجه إلى الدين ، منصرف إلى عالم
الآخرة ولذا نالته كدائد الروح من صلاة وتبجد ، وصوم وتباعد ، وزيارة للأضرحة
ومشاركة في مجالس الذكر ، وسير وراء شيوخه ثم هو آخر الأمر صلح المقينة
نظيف اليد واللسان مجتهد في خدمة الناس حقاً ، بلا نظر لكفائة أو أجر أو مشورة
أو كلمة شكر . لا يعنيه إلا « دعوته » .

والثاني مقطوع الصلة بالدين تماماً ، ولكنه أمين صادق محب للبحر ، دافع لاهله
وللباس ، حسن التقاطيع ، حسن المظهر ، كل ما فيه عادي وطبيعي

والثالث انتابته شكوك العقيدة الدينية ، فلوقة طويلا ، وانتهى به الأمر إلى أن
نفخ يده منها ، ولكن في صمت تام ، واحترام كامل لمشاعر الدين حوله ، وقد
خرج من هذه التجربة ، لا درويشا كآخيه الأكبر ، ولا سلبيا كآخيه الأوسط ،
ولكنه صاحب موقف ، وعقيدة ولكنه موقف لا يعلن عنه ، وعقيدة لا يصرح بها
وإن كان يلتزم بحكمها ، ويعمل بمقتضاها .

وقد استوقفى شيء آخر في حيلة الأخ الأكبر ، ذلك أن لم أسمعه قط يتحدث

عن الحج ، لا على سبيل الأسف لأنه حرم من أداء هذه الفريضة ، ولا على سبيل التمتع ، وهو لو صدق العزم عنده على الحج لحج ، مهما كانت موارده قليلة ، ومطالب أولاده الأربعة كبيرة . أم يكون هذا دليلاً على صدق عقيدته ، وخلوماً من التظاهر والبراءة ؟ لأنه يعلم أنه ليس لديه فائض يسمح به ، فحرام أن يسمح بالثنين ، لو أن يسمح على حساب ضرورات الحياة . . . والله أعلم !

شخصية حن

انتقلنا من الجيزة إلى منزل في شارع سلامة ، بحي السيدة زينب ، ثم بقينا ننتقل في بيوت بهذا الحي ، ولما كبرت أنحنى الكبيرى ، وتزوجت ، قضت وقتاً في الأرياف ثم انتقل زوجها إلى القاهرة فأقامت في الحي نفسه ، ثم أقام حلالى الأكبر والأوسط في هذا الحي ذاته ، وكانت جلتى تقيم فيه أيضاً قريباً من بيتنا فحي السيدة زينب ، كان لنا بمثابة وطن . .

وحى السيدة زينب بين أحياء القاهرة ، أكثرها نفرداً وامتيازاً فهو حي الأعيان الذين لا يعرفون كبح ينقصون ثرواتهم ، وحي الفقراء الذين لا يجدون قوتهم : يعيشون في قلعة الكيش ، وقلعة طولون ويمارسون مهناً أقرب إلى الجرائم ، فمنهم الفردانى ، وصاحب (القره قوز) والحامى وصاربه الودع ، وآكلوا البار ، ولرفاعة الذين يستخرجون الثعابين من المنازل والمهرجون والرقاصون ، ومن هؤلاء جميعاً شبالون ولصوص منازل ، وخاطمو أطفال وقوادح صغار ، وبلدرو بيوت للبعاء السرى . بل إن في قلعة الكيش ، خيلماً لممارسة الدهارة الرخيصة . وفي شارع من شوارع الحي وهو شارع الصليبة ، كان يقدم مستشفى الحوصى المرصود ، لمعالجة البعابى في عهد البعاء الرسمى العالى . وكان له موكب معهود في الذهاب إلى المستشفى والعودة منه . حل عربات (كاردو) يجلس عليها صغاراً وعمل وجوههم القبيحة الذائلة ، طلاء أحمر فاصح وأبيض صلب يزيد دماستها نفوداً ، أو يستثير في قلوب قوى الرحمة الحنان والشفقة قلناً يخرج من المستشفى ، وقد ثبت

للطبيب (طبيب المحافظة) أمم حالات من الأمراض السرية ، ولم يحتجهم ،
عند عل بعض العربى وهى يعنى بصوت مسلوح سللة بأسلامة ، رحب وحينا
بالسلامة ، وكنا سمع هذا الصاء ، ولا ندرى له معنى ولا سأل من يكن أولئك
لمعات الحيفات المهرولات اللواق يشبه المريصات

وفى حى السيدة ريب شياحات ، كل ممها له ذاتيته المميزة ، ومن هذه
الشياحات ، شياحة « المدح » حيث تدح الدمايح التى تطعم العاصمة جميعاً
باللحوم ، وكان لعربات المدح ، موكب رهيب ، يحترق شارع ريب العابدين الذى
يبدأ بميدان المدح ، وينتهى بميدان السيدة ريب ، وهى عربات حصراء من
الخشب ، عبر الممايك ، فوضع فيها الدمايح ونجوها جراد صحنمة ، يقودها
جرار ، متمنطق بحرام هو سلسلة حديدية يمتدلى منها (ساطور) أو (مستعد)
وهو أداة تنس عليها المكاتير ، والحرام يدور حول وسط جليات أبيض ، تلونه
الدما وتطلق العربى ، تكاد تملك أجوازها بعضها من بعض ولكنها تبقى
متناسكة لى غير معلوم ، ولا يعمل مظهر تمككها هذا شيئاً إلا أن يريد خوف
المارس فى الطريق والساتير على الأعاريز ، من شر نائر أجراء العربى ، التى تغطى
تهب الشارع نهباً وصراح فائدها يلع عنان الساء يؤمده صراح أحر من جرار
شاب ، يجرى بجانب العربى ويقود الحصان .

وفى أوصى المدح ، تقام عادة حيام (السيرك) حيث شاعدا الأسد المصرى
(عبد الحليم بك المصرى) والنمر السورى (يوسف أهندي برره)

وفى حى السيدة أنصاف أحياء تعرف تارة بالحنائى ، وأحياناً أخرى بالمعمارات
وثالثة بالأحواش ، ولكل ممها شخصية خاصة به ، فمن الحنائى مثلاً جينة ياميش
وجنية لاط ومن المعمارت ، عمارة البابل ، ومن الأحواش حوش أبواب سك ،
ولهذا الأخير دور خطير فى حياة صبيان وشبان شياحة المعالة من حى السيدة ريب
ففى هذا الحوش يتخرج لاعبو الكرة فى ديمقراطية طبيعية تلقائية . تدل على طبيعة
أهل الحى ، بل طبيعة أهل القاهرة ، بل أهل مصر جميعاً . ففى هذا الحوش يلعب
أبناء الحرايين والقلايين وسائقى عربات (الخنطور) و (الكارو) ، وأحياناً أبناء
المصروس والنشاليين والدين لأعمل لهم ، مع أولاد المدارس من أبناء المهتمسين

والقضاة والأطباء ، وأبناء بعض البيوتات القديمة التي قلت ثروتها ، وبقيت
تفاليها ، ولعب الصبيان في هذا الحوش ، بدون صدام أو عراك ، وبدون
الشعور بالحاجة إلى إدارة تنظم اللعب فيه وتتكون الفرق المؤقتة وشبه الدائمة ،
وتجرب مباريات بينها وتغلب وتخزم وتتساجر وتنفذ وثائق غيرها . وكل شيء يقع
ببساطة وسهولة . ويتعمق الصبيان الصغار على مباريات الكرة - بين فرق صغيرة -
منهم تتكون من ستة لاعبين مثلاً وتسمى (السداسيات) ، أو (أربعة) وتسمى
(الرباعيات) يجمعون بعضهم من بعض قروشاً يشترون بها جوائز تمنح للفرقة
الفائزة وتجري المباريات ، وتسم التصفيات ويعرف الغالب من المغلوب ، وينتقى
الأول الجوائز ، وينتقى الثاني التعازي ، ولا شجار ذوبال يقع .

والى هذا الحوش تأتى أحياناً شخصيات أكبر من اللاعبين الملعبين فيه ، فمثلاً
قد رأيت يوماً عبد الله شداد ، وكان في تلك الأيام ملحقاً معروفاً جاءت له بعض
أهالي ثورة سنة ١٩١٩ ، كما رأيت محمد صلاح الدين وكان بطلاً للملاكمة ظهر في
بعض المباريات المحلية وفي الخارج ، وتسر له صور . وعندما كانت تجري
مباريات بين النشء الأغر من جيلنا ، يصطف المتفرجون من الصغار والكبار في
نظام يجلسهم عليه الآن أهل القاهرة .

والى لأرى الآن بعض الخيال سفراء لمصر ، ووزراء ونواباً لرئيس الوزراء
وأساتذة في الجامعات ، وعلمين وأطباء ومهندسين وصحفيين كباراً ، وهم يلعبون
بجلايبهم كرة القدم في حوش أيوب بك ، إذ كانوا في سن الصبا .

والحق أن تأمل في هذا الحوش الفريد وفي أثره في حياة أهل الحي من الصبيان
والشبان ، يوحى إلى بالتأمل لا تمتد . فمثلاً يحق لهذا الحوش أن يهزى ويهزى سواى
بلدياته واستقلاله ، الذى يجسده عليه - قطعاً - أكبر الأندية لا في مصر وحدها ،
بل في العالم كله . فنحن لا نعرف لهذا الحوش صاحباً ، ثم إنه بلا خفي ولا حارس
ولا مشرف - حتى الحكومة لا تلمح لها صلة به ، أو اهتماماً بشأنه ، كأنه قطعة
انفصلت عن مصر ، وعاشت وحدها لجماعة من أهل هذه الأمة العجيبة ، في هذا
الحي القل ، بل لست أذكر أن عسكرياً واحداً مر بهذا الحوش مرور العابرين وعمل

كثرة ما وقع فيه من مصادمات صغيرة ، فإن الإصعاف لم تجد ما يدعوها إلى الاتصال بهذا الخوش لتتقل جرعاً أو لتصمد جرحاً .

ثم أين الدجته أو الهيئة التي تدبر هذا الخوش ؟ إن أساتذة القانون الدستوري يعدون للند الإغريقية النخل الأعلى في الحكم الديمقراطي ، فقد كان أهل المدينة جميعاً يجتمعون ليدولوا في أمورهم ، ويصدروا القرار الذي يملوهم لا ينتخب عنهم نائباً ، ولا يفوضون مثلاً ، فيتبون بذلك عيوب الانتخابات التي يعور فيها في أحيان كثيرة أصحاب الألسنة الشيطنة والوجوه الصميقة ، ويسقط فيها أهل الحياة والتواضع ولكن أرى أن حوش أيوب بك ، قد فلق المند الإغريقية في ديمقراطيتها ، إذ إن الحكومة فيه ، احتججت من أعين المحكومين ، فكأنها رالت من الوجود ، وهذا أعظم ما يطعم فيه المحكومون . لا يحسون بالحكومة ولا يشعرون بوطأة يدها على أكتافهم ، ثم تسير الأمور مع ذلك ، سهلة مبسرة ، لا تصادم ولا مشاحنات ، ولا تتعطل مصالحهم وتتمثر

ألف تحية لخوش أيوب بك .

ألف تحية لديمقراطيته التي لم تر لها بعد ذلك في حياتنا مثيلاً .

ألف تحية لخدمات حوش أيوب بك لصاننا وطلعوتنا

ألف تحية لهذا المالك العجيب الذي ترك هذه الأرض ، لا يتمتع منها بقرش ولا يعرض عليها صرية ولا يرد راصاً في حبر

ولعل الحق يقتضي أن أعترف أنني لم أفكر طوال صباي ، في أن هذه الأرض يمكن أن يكون لها صاحب . أليست هذه الحقيقة أيضاً دليلاً على اشتراك حوش أيوب بعد ديمقراطيته ؟ فلكل حسب حاجته . هذا كان دستور صاحب هذه لأرض القندسة فالأعضاء عند هذا الخوش كالفقراء الجميع يعدلون لا يتقدم أحدهم على الآخر ، ولا يدعى أن له حقاً أكبر . والجميع يجيئون هذا الخوش ولا يأنفون منه ، ولا يتعالمون عليه .

وعلى الترتيب المنطقي للأمور كان يقتضي أن أبدأ بمركز الحى ، أى سرته كما يقول أهل القاهرة عن الميادين الكبرى في بلدتهم العتيقة والمجيدة مسرة الحى أو البلد هو أكبر ميديها . أو أوسع شوارعها ، إذا لم يكن في الحى ميدان

وميدان السيدة ريب ، كالحى معه ، يجتمع فيه القديم والحديث ، والدين والدنيا ، والتطهر والمعاد بغير دعوة من أحد ، في هدوء واتسجام كاحسن ما يكون التعايش والوثاق ، كأن هذه الأشياء ليست أعداداً ، وكان الواحد منها لم يأت ليقتلع الآخر . فتحتى نرى مسجد السيدة ريب ، بواجهته الحميلة البسيطة ، ومثاليته الرفيعة الرشيقة ، تتداعى أمامنا صور الجهاد الإسلامى الأول ، وتتل علينا طلمه الرسول العياصة بالسور ، المشرقة بالعلمانية ، ثم يرى في الحال ، صورة الإمام علي ، ثم صورة اسة الحسين ، وابته زيب ، ويتعطر الجو ، بغير التصحية والاستشهاد ، وإنكار النفس ، والفرار من الدنيا ، دار العرور . ثم يرى إلى جانب هذا المبنى الوقور الوديع الرفيع ، مبنى آخر هو قسم السيدة ريب ، فسمع ويرى منه ، وحوله ، لخطأ وصرياً بالأرجل وصنعاً بالأبلى ، وأناساً يحبون علي وجوههم وألعاطاً كالرصا ص الطاش تتناول العرص ، وتجرح الأذن ، وتدمى الحياه ، ويرى ما هو أمر والدهى ، إذ احتل الإنجليز في أيام صباها الناصر القسم وجملوه مقراً لجنودهم بحدودهم الخديلية ، ووجوههم الحمراء ، وكان القسم بكل ما فيه ، يقول للمسجد بكل معانيه : لقد انتهى عهدك ، وبدأ عهد جديد لا بهم هذا الذى ترمز إليه ، في أن ما عند الله يبقى ، وما عند الناس يند . فالأيام دارت ، والشهوات سادت ، ولم يعد الدين أملاً للحياة ، ولا حافزاً لهمة ، ولا مثلاً لأهل لامة ، وإنما هو واحة يلجأ إليها المتعبون ريثما يستبدلون قدرتهم على الصراع من أجل أهراض الدنيا البراقة الخدانة . وفي الميدان حصة مصورى شكل حسة وسائل للنقل فقد كان فيه موقف للحمير ، وموقف لعربات الكارو ، وموقف لعربات الخنطور ثم موقف لسوارس ، ثم محطة ترام رئيسية . ولكل هذه الوسائل طالب بطلبها . الخمار يمثل القرن السابع عشر وعربة الكارو تمثل أوائل القرن الثامن عشر ، وعربة الخنطور تمثل منتصفه و (سوارس) هو (أتوبس) تجره البغال كان يملكه يهودى ، أنرى ثراء فلحاً حتى أطلق اسمه على ميدان القاهرة ولم يزعزحه عه إلا اسم « مصطفى كمال » فأطلق عليه بدلاً منه ، والترام يمثل القرن التاسع عشر وفي محطة الترام تقف سيدات يلبسن الملاحة اللب ، وسيدات يلبسن (الحبرة) و (التزيرة) والبرقع الأبيض ، يغطى بعض وجوههن ، ويزيد عيونهن للمصرية جمالاً وفتنة ، وإلى جانب هؤلاء جميعاً . يبل للقرن العشرين في صورة فتيات مدرسة السنية حاسرات الوجه ، يطلبن العلم في استحياء ، وكأنهن يغالطن

الرمس ، ويختطف الخطو إلى دنيا المستقبل وإلى جانب هؤلاء جميعاً رجال كاهن شحوص في متحف ، لاس العمامة والحة والقفطان ، ولايس الجلباب والعمامة اللدى ، ولايس الطربوش على الحبة والعمطان حيناً ، وعلى الجلباب اللدى حيناً آخر ، ولايس اللثة ، والطاقيّة واللامسة ، وأحياناً لاس البدلة الإفريقية وبعض لاسى هذه البدلة لا يقعون بها طيلةً على تمرّجهم إذ يابون إلا أن يقيموا أطراف شوارعهم كحد السكين بما ينهياهم من أسس النظرية والتلميح ، التي كانت الألس تتداولها بلعظها الأجسى (جوزماتيك) .

ويتأثر حول الميدان عدد من المحال التجارية والمقاهى كل منها يمثل عهداً ، فالصيدلية هي القرن العشرون بما تقدم من دواء حديث في رنجلت وأنايب وعلب وصلايق من صنع الحصار الحديثة ، وتطبيقاً للطب الحديث ، إلى جانبها عطاردون يبيعون أدوية وعلاجات القرون الخالية ، مع توابل وبهارات ، لا تعد الحاجة ، إليها ولا يشبع من تناولها وحدها لو مخلوطة بالأطعمة والأشربة ، أهل المراج وه الكيف ، فيما يؤكل ويشرب ، وإلى جانب هذا صالون خالصة حديث ، يسدل على بابه حيوط انتظمت كرات صغيرة ملونة حراء وصفراء مثقوبة ، تحدث صوتاً عند الدخول والخروج وتجمع اللباب ، وإلى جانبه حلاق يكتب على بابه لوحة أنه طالب « عمرو الحلاق الأسطى محمد عجوة الحلاق » وليس هو منياً للروى وس والشوارب محسب ، بل إنه أكثر من طيب ، فهو يبيع الدود الرومى ، ويخلع أسنان الزبائن بفنونه بنج ، ويباشر أعمال الحجامة أى مصد الدم الزائد ، والعاصد بالموسى ، ويريم داخل الجسم للرجال ، فيترع عنها شعرها الرائد ، ويصنع الدهون للثقوبة ، وإزالة الرطوبة ، وتجليد الشيب ، ويروى الفكاهات اللادعة التي تجدد الحبوبة ، ويشر الإشاعات اللامسة التي تشج الفضول ، ويحكى أسرار البيوت والعائلات التي تنفى الملل ، ويشغل سمساراً ووسيطاً ، يجمع الرعوس في الحلال ، ولهذا استطاع محل الخلقة اللدى أن يصمد طويلاً أمام الصالون الإمبرجى ، وإن كان الأسطى في الصالون الأخير ، حيناً محضراً وتهلب حمل معه ترائه القديم ، فترك الدود الرومى وحلج الأسنان ، ولكنه لم يكف عن الشرقة وأحكام مصه فيها لا يفيد ، وشرح بواطن السياسة وخوافيها ، لاسياً ما كان منها متعلقاً بالسياسة الدولية وما تعلق من السياسة الدولية بالحروب والمعارك العالمية

وسمى إلى الميدان أحياناً بعض مشاط الخوازي والأرقعة ، وإن كان ذلك قليلاً ، سوى في أطراف الميدان (الفرداني) مع قوده وحماره وصاحب (الأراجور) مع دولاه ، والخوازي مع حماره ، وصلوه الودع على رأسها مقطعة ، والعارية ووراءها المعجون منها ورفصها وقد غمر في الميدان سرعة حاطمه ، ادواب التي ترعها الشحيفات الفلة في الحى ، والى ميات حدينها في حيه

ولما كانت يد التسيق والتنظيم لا تمتد إلى الميدان إلا بأقل القليل ، فإن كل شئ يقوم في الميدان ، وبأحد مكانه اعتباراً ، سوى الخوازي تتجاوز بلا مطلق مفهوم أو حطة موضوعة ، فالكنة التي تتبع الكتب المدرسية مثل مكتبة رياض بجانب (مسقط) يبيع الكوارع والكركشة ولحمة الرأس وحقوق السيلة ريب الذي يقوم بالخدمة الخاثرية من تكعب الموق وتقديم الموش وتوريد نوع من العمال افرض وانطوى عهده ، وهو نوع بضحك على الرغم من شدة اقترانه بالناسي والآخرين ومعنى به حلة القماقم ، وهؤلاء قوم لا يصحون لعمل ، ولا يقفون على جهد ، يديهم لحياة ، في ريعان الشباب ، لوى حريف العمر ، فأصبحوا لا يقدمون للناس إلا حلقة لا تقع على شرح لها في القواميس ، هي السير أمام الجسائر ، وأصحابها يرتدون حُللاً (بذلات) سوداء المفروض أنها من طراز الرديجوت ، الطويل الوقور ، ويعملون في أبلجيم مبصر ، تفوح منها رائحة الأعشاب الهندية والجارية سيراً على المذهب الفرعونى ، الذى بعد إحراق البخور ، طقساً من طقوس الدش ، أو تطيب روح الميت ، ولكن مع دوران الأهم تصبح « البذلات » السوداء الوقورة ، خرقاً لا لون لها ، مهلهلة لا تكاد تتماثل تماماً كلابسها ، الذين لا تكاد ترى لهم عيوناً ، لطول ما شربوا المكيفات والمثومات ! وأما أحذيتهم ، فهي القصة المكبرى في أنيقة هؤلاء الذين يمدحون لإضفاء الوقار والجلال على حنازة لا وقار فيها ولا جلال فأصابع الرجلين تطل ، في غير موازية ولا حياء ، من الأحذية وكل الأحذية ضاقت بها لفرط الخزن ، أو لطول الحبس ، والمباشر نفسها زال لونها القمى ، فأصبحت مجموعة من الألوان ، وخلت من البخور ، وقتعت بالتأرجح الضعيف في أيدي حاملها ، ولو رأى هذا المركب ، أجنى غريب عن مصر ، لظن أن هؤلاء المساكين من أهل الميت ، وأن البكاه ورم عيونهم وأهزل جسومهم أو أنهم موق بعثوا من القبور

وكما امرود حانوت السيدة هؤلاء الرجال فإنه يورد للمنزل البادات ، ومن طرد من «صنات» يعين الكاثيات ، ويثر الأحرار ، ويستلزون الدموع من العيون العبيدة ، وإلى جانب هذا الحانوت ، يقوم مكتب الموسيقى الأهلية ، التي تستأجر في الأفراس والمائم على السواء فتعرف على باب (العريس) في ليلة الزفاف أدواراً ، بهيجة وبوقع في مواكب دفن الصبيان والشباب الصغار أبعاماً حرة ، ومن حلف هذا المركب ، تركب السوة على عربات كارو ، وقد طلي وجوههم بمنقوع نبات البيلة ، على طريقة جدات جدات العربيات وإلى جانب هذا الدكان يقوم على وجهه ، ترداد واجهته في المولد النبوي والمصنات الدبية والقومية بالكهرماء ، ويقف على باب رحل عريض الكتفين ، واسع الصدر ، بين الطويل والقصير فمحي اللون ، حلو التقاطيع ، بليس قطعاً وجة ، نفوح منها رائحة حاصة ، ويقوم في صمحة الوجه كالللهيان السامر على الأناقة شاربان ربيعان حاذقان كنص السيف ذلك هو عمل (الرتلوى) ، الذي حقق شهرة كبيرة وديحاً عظيماً ، والذي فتى صاحبه عانيت الحى ، من لاسنت (الملاية اللف) بحلاوة فرحيه بين ، وبطراف مايقلمه إليهن .

وفي صلب من أصلاح الميادان الذي لا تعرف له شكلاً هندسياً ، فلا تدرى أهو مربع أم مستطيل أو مئس ، يقع دكانان كأنما يكمل أحدهما الآخر الأول يبيع أسواحاً من المشروبات المثلجة في آنية من نحاس أبيض ، يسمى كل إساء منها (بالسطل) ويحتوى كل سطل على قدر من شراب (الشعير) أو (الخروب) أو (العرقسوس) ، قل أن نجد في هذه الأسطال عصير البرتقال أو عصير المانجة

أو العنب ، فهذه كلها لم تكن تعرف في تلك الأيام ، ولا يقبل على شربها الجمهور ، وقد بدأت في منافستها آنذاك المياه الغازية التي بدأ يتجها الأحرار (سيرو اسبانس) و (بقولا اسبانس) أما الدكان الثانى فكان يبيع الحلويات المصرية .

أفراص السسمية والحمصية والعلف ، في أيام الموالد والأعياد الإسلامية ، ويبيها مع غيرها من الحلويات المصرية كالحريسة والمبسوسة والقلاوة الجوزية واللوان الملبس المحشو باللوز والحز والبندق المحلو طعماء البورد ، والمصروع على شكل حبال ، وعلى شكل مربعات ، وللملبن أسها ، فهو ملبس وهو (لكوم) ويقال إنها كلمة

تركية أصلها (راحة حلقوم) فانقلبت الفان كافا ، وحدثت بعض الأحرف
للتنحيف ، فأصبحت (لكوما)

وفي الميدان أكثر من مقهى ، المقهى الإفرنجي ورواده أكثرهم من موظفي
الحكومة ، يعدون ناعاً ابتداء من الساعات الأولى للأصيل ، يشربون القهوة ،
ولا يطلبون الشاي ، إلا إنه لم يكن مشروباً شائعاً في تلك الأيام ، ويشربون مع
القهوة الكاكاو ويطلبون لأولادهم إن اصطاحوهم معهم إلى المقهى أحياناً
(النكوم) ثم يدحون النارجيلة ويقدمون جريدة المقطم ، عندما كانت جريدة
المساء الوحيدة ، ثم قرأوا بعد ذلك معها البلاغ ، حينها ظهر البلاغ ، وفي حلال
الثورة ، كانت تصدر جرائد مسائية كالمحررة والنظام ، فكانت تنافس المقطم
ويلمع رواد « القهوة الإفرنجي » الطالوة وقد يلعبون (الدومينو) قليلاً ويلعبون
الورق في التلحز .

وفي الناحية الأخرى تقع القهوة البلدية ، وغالباً ما تكون أرضيتها طياً بلا بلاط
ولا رحام . تتورع في جها كراس من الخشب ، وقواعدها من نقش القصب
أو العلب ، وموائدها ذات أكراس بحلابة وقوائم حديدية ، ولا تشرب في هذه
المقهى القهوة إلا قليلاً وإنما يشرب الشاي الأخضر والأحمر في أكواب صغيرة ،
ويشرب الزنجبيل والقرنة ، ولا يلمع الترد أي الطلوة إلا نادراً ، هالورق
والدومينو ، هما اللعتان المفضلتان لأبناء الشعب ، وتناظر الجورة في المقهى
البلدي ، النارجيلة في المقهى الإفرنجي . وهما شيء واحد ، غير أن النارجيلة
تصنع من الزجاج ، ويركب فيها خرطوم من المطاط ، وينتهي بمسم فلتر من العاج
في حين أن الجورة تصنع من كرة من الصفيح ويركب عليها عانة ، تقوم مقام
الخرطوم المطاط ويسمى العاج .

وفي أطراف ميدان السيدة زيب يقع دكان أو اثنان من هذه الدكاكين ، تنشر
أصلاً في شارع الد البراز الذي ينتهي إلى الميدان ، وهي دكاكين لا أخرى هل
انقرضت أو لا يزال بعضها قائماً ، في حين (الصاعة) وحده هي دكاكين تجار
مصوغات الذهب من عيار منخفض ، أو من نحاس مطلي بفشرة من الذهب ،
ويعرف بلهب الفشرة ، وقد راجت في تلك الأيام مصوغات شركة التلحز

« السمكة » شعاراً لها ، وعلامة تجارية مميزة ، وأصبحت هذه الدكاكين تباع هذه المصوغات للمعاملات في المنازل ، وورجحت العمال ، كما تباع للمرميمات الخلفاء والكراديس الثقيلة من هذا الذهب الرخيص ، ولكن العمل الاساسى لهذه الدكاكين هو عملية الإقراض بمصان مصوغات ، ويقالدة مرتفعة ، وكان أصحاب هذه المحلات جميعاً من اليهود ، وكانوا غالباً من الشبان الصغار - بيض الوجوه - يملحون التقاطيع ، ويروجون تجارتهم بالقرل الصريح والمستور مع الفتيات اللواتي يعدن بالعشرات على هذه المحلات ، يتاملن في المصوغات ، ويشترين ويقايضن ويرهن ويستلن - ويرصين عواطفهن بأيدي غامة تمند إلى أيديهن في أثناء تناول المصوغات ولبسها في الأيدي والأدان وحول الأعتاق - وفي هذه الأثناء تتصاعد أصوات الفتيات السعيدات بالحل ، وبافتراء الحمد الشاف الفياض بالحلاوة ، بالاكتجاج المزوج بالصحك .

ولم يبق في الميدان إلا مقلعان من أكبر ماله « المدرسة الابتدائية ثم المسجد نفسه ، بمشدته الرقيقة الرشقة ، وبقية الوقورة للهيبة .

وكانت مدرسة محمد علي الابتدائية ، هي المدرسة الأميرية الوحيدة في الحي كله . ولم يكن يظفروا ، ولا يدانها في المقام مدرسة أخرى ، ولم تكن هناك مدرسة ثانوية ، تسابقها وتتقدم عليها ، ولذلك إذا قيل (المدرسة) في حي السيدة عرف السامع أنها مدرسة محمد علي .

ومدرسة محمد علي ، لم تكن مدرسة ككل المدارس ، لأنها لعبت في تاريخ الرياضة البدنية دوراً عظيماً ، إذ أخرجت أبطالاً في كرة القدم ، والألعاب السويدية وفي مجال الكشافة . كان أهل الحي كله يحبون كرة القدم ، وكانت الحوارى والشوارع ميادين هذه اللعبة ، وكان حوش أبواب بك الفنى حشدك عنه (مشتل) لأبطال وأشباه هذه اللعبة . أراد الله أن يبحث إلى مدرسة محمد علي مدرس لغة إنجليزية اسمه (حسين سليمان) ، كان يحب كرة القدم أكثر من حبه للغة الإنجليزية ، فأعطاهما من قلبه وبمسه ما جعل هذه اللعبة هوى كل تلميذ ، بل كل موظف في المدرسة من المدرسين إلى الإداريين إلى الفرائشين بل لقد رأيت رميلاً لنا بإحدى قفصيه عامة ، لا يسير إلا قفزاً ومع ذلك يتنافسنا في ميدان الكرة ويغلبنا ، وقد

اصاح هوى هذه اللعبة على زميلنا الجليل الدكتور عبد الحميد يونس نور عييه .
والطريف فى الأمر أن حسين سليمان ، كان يعد تدريبات كرة القدم ، درساً ، فكان
يلتزم اللاعبون بعضاً من الخيرون ، يضرهم بها حتى إذا أحطوا ، وكان الخطأ فى
الكرة أشبه شىء بجرمة ترتكب أمامه ، فقد دوج على أن يتدفع إلى اللاعب
المخطئ وعلى وجهه من علامات الضيق ما يدل على أنه كان يعانى من رؤية أخطائه
الكرة ، ولما كان التلحين ممنوعاً أمام التلاميذ فى الصبح ، فقد كان يحرص حرمانه
منه فى القسم الأول من النهار ، بالإصراف فيه فى النصف الثانى منه ، إذا جرت
التدريبات بعد نهاية اليوم الدراسى . لقد خرج من تحت عصا حسين سليمان
لاهبون دوليون على رأسهم محمود مختار (التنس) ومصطفى كامل طه الذى كان
يسمى « صاحب الأقدام الملعبية » ، كما خرج بفضل هذه العصا لاعب كان يمكن
أن تكشف شمس محمد الرياضى كل هذه النجوم ، إلا أنه هجر كرة المقدم إلى التنس
والبلاردو ، فوصل فيها إلى أعلى المراتب ، وأعطى به محمود طلعت بن أحمد باشا
رئيس محكمة استئناف القاهرة .

وقد انتقلت علوى الاهتمام بالرياضة من حسين سليمان إلى زميله فى المدرسة
عبد الحميد حلمى ، إذا لم تكن الذاكرة قد حانتى . وقد كانت مدرسة محمد على
تسبى مدارس القاهرة جميعاً فى مباريات الألعاب السويديّة التى كانت تعرف مرئها
المدرسية باسم (القسم المحصور) ثم كمل الثلاث الرياضى بعيسى حلمى
أحمد رواد الكشف فى مصر ، فقد قام على إعداد فرقة كشافة بمدرسة محمد على ،
كانت نموذجاً لفرق الكشف فى المدارس الابتدائية ، كانت تقوم بين المدارس مباراة
على كأس ضخمة من العصف . وكانت هذه الكأس فى أكثر السنين إن لم تكن فيها
كلها من حظ مدرسة محمد على الابتدائية . ولست أنسى يوم المباراة الأخيرة على
أرض النادى الأهل فقد كان الناس يتزاحون ليأخذوا مكانهم فى هذا الملعب ، ولم
يكن شهود هذه المباراة مقصوداً على تلاميذ المدارس ، بل كان جمهور هذه المباراة
يفهم وزير المعارف مع باعة الصحف وأصحاب الحرف الصغيرة وفى حتام هذه
المباريات وبعد أن تحمل الكأس إلى المدرسة ونحن حوله ، نقر ونصرخ ونستأجر
عربات الحظوظ ، ونزيهة بالأعلام الصغيرة ونشد نشيداً للمعجب (يا معنى دبل
المصورة ، محمد على هى المنصورة ، والناصرة هى المكسورة) .

هذا في مباراة الكرة ، فإذ اعتقد لنا النصر في الألعاب السوفيتية على مدرسة
عاس مثلاً ، وظهر ما بالدرع الفضية التي كانت تسمى بالفضية هناك « صينية وكلس
عيطة في عاس » أما إذا كان النصر قد كتب لنا على القرية عدلنا المتناف إلى
« كلس وصينية ، غيطة في القرية » .

وإن لأعتقد أنه سجاح ما بعده سجاح للرياضة في تلك الأيام أن تكون المباراة بين
المدارس الابتدائية ، محلاً لاهتمام الشعب ، مدفوعاً من تلقاء نفسه ، بعير إعراف
من صحيفة ولا من سلطة

وإذا كانت الكرة لعبة شعبية أثبتت شي ، بمحركة بين جيشين فيها هجوم ودفاع ،
وهي بهذا قدرة على أن تستثير حب الناس وحماسهم ، فعاداً تقول في اهتمام الشعب
أيضاً بمباراة الفرق المدرسية في المعاهد الابتدائية على الدرع الفضية التي حُرِّفت بين
الشعب باسم (الصينية) والتي حصصت بالمسابقة بين هذه المعاهد في الألعاب
السوفيتية ؟

ولقد أثمرت هذه الروح الرياضية التلقائية في أن تكون للرياضة في مصر مجلة
أسبوعية رائجة ، هي مجلة المضمحل التي كان يملؤها جيب أسعد داغر ، بلغة
عربية صحيحة ويشر في صحتها الأولى صور فرقة مدرسة ابتدائية ظافرة .

ولكن لا بد أن يذكر المدرسة محمد علي الفضل في بذل بذور هذه الروح وفي
تمهدها وإشاعتها بين الناس . ولهذا كان من حق الحى في المدينة زيب أن يصح
بمدرسته ، وإن بعدها نحن معلماً من معالمة ، ونسمة من قسامته .

وأحس أنه قد آن الأوان لصل إلى تاج الحى كله ، إلى مسجد السيدة زينب ،
لدى صبح الحى اسمه ، وقد يحكم أن تعلم أنه لا ينافس مسجد السيدة زينب من
مساجد مصر كلها إلا مسجد شقيقها الإمام الحسين بن علي

ومع ذلك فإن حصيلة صندوق التلويح المسجلين الرئيس والحسيني نذل على
تقدم مسجد السيدة زينب على مسجد الحسين بكثير . فقد بلغت حصيلة صندوق
لتلويح المسجد الرئيس سنة ١٩٧٠ (٥٣ ألفاً) وصندوق السيد الهوى (٥٠
ألفاً) وصندوق الحسين (٣٣ ألفاً) .

ولعل مرجع ذلك أن المرأة القديسة أقرب إلى قلوب الشعب من أولياء الله من الرجال مهما علا مقامهم فالمرأة إلى جانب طهرها وقداستها تمثل لأصحاب الحاجات ، من النساء والمستضعفين الأم الحانية التي تظلل عليهم صبرها ، والتي تحترف ضيعتهم وعجزهم وقلة حيلتهم والسيدة زينب هي (أم العواجر) (وأم هاشم) هي الأم . ولذلك فالذين يفصلون في الأزمات والضوابط والألام والشدائد أكثر من الذين يفصلون سواها ، حتى ولو كان أحداها وقد تحققت بركة لم العواجر ، وأصبح الحى الذى يحمل اسمها هو أشهر الأحياء ، وأعظمها فضلا وبدأ على مصر . ففى حى السيدة زينب قامت جريدة اللواء التى أصدرها مصطفى كامل ، وكانت دارها مقرا لنشاطه السياسى والوطنى ، وفى هذا الحى قام (بيت الأمة) الذى اتخذه المصريون مركزاً ثوريا سنة ١٩١٩ ، وإلى هذا الحى انتسب عدد من كبار المفكرين والكتاب فى مقدمتهم مصطفى لطفى المفلوحي أشهر كتاب مصر فى العقد الثالث من القرن العشرين ، والملى استمرت كته مصدراً لإلهام الشباب والشابات فى أعقاب ثورة ١٩١٩ لمدة ربع قرن من الزمان ، ومن هؤلاء الكتاب أيضاً الشيخ عبد العزيز العريى ، صاحب مقالات فى (المرأة) التى كان يشرها فى جريدة السياسية الأسبوعية ، فلهبت نموذجاً للأدب العربى القديم فى ثوبه الشباب ، وفى هذا الحى ، عاش الشاعر أحمد رامى ، شاعر الشباب وقد شهد مولد شهرته وديوع اسمه ، وفى شارع سلامة الذى عشت فيه سبب عاش توفيق الحكيم وغلبه فى روايته « عودة الروح » ، كما عاش الشاعر حلى الجارم والأدب محمد السباعى مترجم رباعيات الخيام . وفى هذا الحى كانت حياة الدكتور محبوب ثابت أحد أبطال ثورة سنة ١٩١٩ ، وواحد من أطرف شخصيات مصر ، وأوبرها حموية ، وأغناها بالمواهب المتنوعة والمتنارة ، وعن هذا الحى ، كتب يحيى حلى قصته القصيرة « قنديل لم هاشم » التى أكتبه إعجاب القراء ، ومسحته أول قسط من أفساط شهرته الأدبية ، وفى هذا الحى أقام ثلاثة من أصحاب أجمل الأصوات وأندرها ، أقام سلامة حجازى فى بركة النفل ، كما أقام فيها الشيخ أحمد بدا قارىء القرآن فى مسجد السيدة التى كان صوته يملأ صحن الجامع فى جلال وقار والشج محمد رفعت أشهر قارئى القرآن فى العصر الحديث . وفى شارع محكمة السيدة زينب كان مقر جريدة (الكشكول) التى يعدها التاريخ الصحفى أول مجلة سياسية نقدية ، زومت بصور الكاريكاتور بالأسلوب الحديث ، والتى أسهمت فى رفع

مستوى الأسلوب الأدبي في النقد السياسي المفكاهي ، وفي شارع المبتدئين قلعت أكبر دار للنصحف الأسبوعية المصورة وهي دار الهلال التي أخرجت إحدى مجلتي أدبيتين عظيمتين هما الهلال والمقتطف ، وغير بعيد من دار الهلال ، قامت جريدة المقطم جريدة الاختلاط والاحتلال ، وصدرت عن نفس دارها مجلة المقتطف هذه ، لتكون أولى المجلات الأدبية العلمية في الشرق العربي ، وأطولها عمراً وأعظمها أثراً .

وفي بيوت من بيوت هذا الحي ، اجتمع وسهر إلى الصباح شبان كان لهم شأن في الحياة الأدبية والسياسية ، اجتمعوا ثم تفرقت بهم السبل ، كان منهم أحمد محمود حسين تلميذ مدرسة محمد علي الابتدائية فالقديوية ، وقد عرف أحمد محمود فيما بعد باسم أحمد حسين عندما ابتدع مشروع القروش ، ثم أسس جمعية « مصر الفتاة » التي أصبحت حزب مصر الاشتراكي ، وعقد صلاته بيوسف فهمي حلمي الذي عرف باسم يوسف حلمي الكاتب والصحفي والفصاح والوطني المصري السلام ، فالرائد اليساري الذي عانى السجن والاعتقال فالتشرذ بالمرض بالمرص الريب فالموت المأساوي الصالح ، ثم مصطفى كامل الشاوي الأهرقي ، فالصحفي المبتدئ والشاعر ، قصديق العظمة والكبراء ، فالدائب فالصحفي الدائع الصيت الذي أنشأ مدرسة للفكاهة والنقد الاجتماعي ، بالكلام في منوات بدور الصحف ، وفي العنادق يمتد فيها السهر إلى الصباح فيقذف العظمة والشعراء خلالها ويسحر منهم وينتو شعره وشعرهم ثم محمد نزيه الذي لم يتح له قط أن يصل إلى الشهرة وما كان أهلاً له . وفي بيت بشارع السيئة رهب أنشأ حافظ محمود جمعية القلم وراح يحطب في عدد من صفار النشاب كنت واحداً منهم

ولكني تكمل صورة هذا الحي ، يجب أن نشير إلى قلعة الكش وحي طولون ، حيث القفر المدقع ، والجريمة الخفية والدعارة البرجسية التحية ، وإلى شوارع وشباعات أقام فيها شيوخ أزهر سابقون ، وأساتذة في المدارس العليا ، التي أصبحت كليات ، ومن هؤلاء محمد خليل عبد الخالق أحد السابقين إلى البحث العلمي في بلادنا وأخوه أحمد نقيب طب الأطفال في مصر ، بعد عبد العزيز نظمي ، فأبراهيم شرقي ، فقد عاش هذان الصبيان الكبار في حارة البهلوان عبر عبيد

عن شارع الشيخ سليم الذي يحمل اسم الشيخ سليم الشرى شيخ الأهر ووالد
عبد العزيز الكاتب .

ولكن الحى يمتد ليشمل حتى الإشل ، حيث تتجاور بيوت المشاويات وكبار
رجال الدولة المدنيين والعسكريين ، ثم حى الخيرة والمبتدئين ، حيث ترتفع درجة
الثراء فتجد عدداً من أثري أثرياء مصر كما تجد بيت أمين باشا سامى أحد كبار المربين
الذى ترك تقويم الليل أثراً ماقيا من آثاره الأدبية . وفى هذا الحى يقوم معهد كان هريد
عصره ، وسيجاً وحده ، لعب فى الحياة المصرية الأدبية والسياسية ، أصناف
ما لعته مدرسة محمد على ، ذلك المعهد هو دار العلوم ، الذى أنشأه على باشا مبارك
سنة ١٨٧١ ، فأخذ به اللغة العربية . فقد أخرجت هذه الدار العلماء والفقهاء
والأدباء ، فأحبوا اللغة والأدب ، وأسمعوا الناس خلال نصف قرن ، من متع اللغة
العربية ، وكشفوا لهم عن كنوزها ما جدهم إليها ، وأعاد ثقنتهم فيها . وقد ولدت
دار العلوم فى درب الجمامير ، ثم انتقلت إلى مبنى مدرسة السنية الحالية ثم استقرت
فى مبناها الكائن على ماصيق شارع هو العرب وأمين سامى ، وقد قدمت دار العلوم
مصر خيراً كثيراً تجسد فى الأعلام الذين لم يدهوا درباً من دروب العمل الوطنى
والأدبى ، إلا أسهموا فيه ، فمن أساتها الثمانيامين عبد العزيز شاولى ، ومحمد
المهدى ، ومحمد عبد المطلب ، ومحمد الخصرى ، وأحمد ضيف ، وأحمد
الإسكندري وأحمد إبراهيم ، ومصطفى السقا ، وأبو العلا عيسى ، ولم يلمح أبناء
دار العلوم اللغة العربية ، والفلسفة الإسلامية والشريعة والفقه الإسلامى فى مصر
وحده ، بل علم بعضهم ذلك فى جامعات أوروبا ، وفى مقدمة هؤلاء حسن توفيق
العدل الذى علم فى برلين وكمبريدج ، ومحمد حسين المرسلوى الذى علم فى
أكسورد مع زميله منصور سليمان ومحمد أحمد جاد المولى ، كما علم فى كمبريدج
كل من محمد على مصطفى وأبو العلا عيسى ، والطريف أن مدرسة دار العلوم لم
تقع بتحريج أساتذة اللغة العربية والعلوم الإسلامية ، بل تخرج فيها فضلة ، جلسوا
فى أعلى محاكم القضاء الأهل كمحمد صالح باشا رئيس محكمة الاستئناف ، ومهد
الرحمى سيد أحمد وكيل محكمة النقض ، وحفى ناصف الذى تقلب فى مناصب
القضاء الأهل ، وعلا اسمه لحياناً وشاعراً ونحويّاً .

وقد أثبت أشبال دار العلوم أن تجلدهم اللوى أمدهم بجد ثورى ، فقد قرروا

أن يجمعوا العمامة والحجة والمطمان ، وأن يلبسوا اللثة الأوربية ، فعدت الحكومة ذلك تمرداً ومروقاً ، فأرادت أن ترد عن مدرسة دار العلوم ، الألفية الخلدبولكن التوار صمدوا بقيادة الشاف طاهر الطناحى ، فكتب لهم الفور ، وسجلوا لتطوير الاجتماعى نهراً لم يكن فى أيامه بالقليل

أما طاهر الطناحى فقد كان له فضل فى ديا الصحافة والأدب غير قليل

وعلى مرمى حجر من مدرسة دار العلوم قامت المدرسة السية التى تستطيع أن تنافس دار العلوم ومدرسة محمد على فى عمر عشقة فى الخدمات التى أفتتها للبلاد ، والأبلى التى أسندتها للمرأة . فقد أنشأها الخديوى اسماعيل ، فكانت واحدة من أقدم مدارس البنات فى الشرق كله ، من المغرب إلى اليابان ، وقد أخرجت لنا هذه المدرسة كل رائدات التربية السوية لمدة ربع قرن من الزمان ؛ فكانت من أولئك الرائدات ملك حمى ماصف ، وشقيقتها كوكب ، سوية موسى ، نسمة عزمى ،

عميدة وقائى ، الأخوات فكتوريا ومارى وماتيلدة موسى ، وإنصاف سرى فكرمة السعيد ، هبة كرم ، فدولت الصدر ، وبذلك يمكن أن نقول إن حتى السيدة زيبا بنالونه التبروى محمد على مدار العلوم فالسبة له أن يدل على جميع أحياء القاهرة كما له أن يدل بنالونه الصمى اللواء القديم ، فالساسة اليومية ، فالكشكول ، ثم بنالونه فى الطباعة والشر دار الهلال ، مدار المقطم والمقطف ، و . بالانتهب المصورة مطبعة مصر فى مرحلة من مراحلها ، ثم مدار اليلاع لعبد الزمان حرة ، فالجهاد لتوفيق دياب عميدنى الصباح وأبن الهول اللذين أصدرهما الصمى المعصامى مصطفى القشمانى ، فأصبحنا ميلانين جرب فيها عدد من كبار كتابا أقلامهم قبل أن نذانيهم الشهرة ، كمكرى أباطة وسعيد عبده والصحفية سيرة ثاست روى الحى نفسه أقام سلامة موسى مطبعة وعمته الشهرة ، المجلة الحديثة ، بشوارع النواويس سابقاً ، ثم جمع الحى المتناقصات . الفقر والحق ، حرية الحرب الوطنى ، حرب المقاومة للتجليل وحرية السياسة لسان حال حرب الأحرار الدستوريين حزب المعتدلين ، فيت الأمة ، مدار المنشود السامى مقر الاحتلال ومجلس النوراء ووزارات الداخلية والمعدل والمالية أى الاقتصاد والحرارة الآن ، ثم مقر الجمعية التشريعية أول مجلس نيابى فى تاريخ مصر الحديثة ، فمجلس النواب ، فمجلس الأمة ، فمجلس الشعب .

على أن في صفحات حي السيلة وبث أشياء أخرى لا ينافسها حي آخر ،
فقد وقعت على أرضه أكبر أحداث مصر الكبرى وقعت فيه أول حادثة قتل
سياسي ، إذ قتل بطرس على باشا رئيس الوزراء برصاص إبراهيم ماصف الوردان
في فبراير سنة ١٩١٠ ، وقتل أحمد ماهر في مجلس الأمة في فبراير سنة ١٩٤٥ ثم قتل
محمود فهمي النقراشي في ديسمبر سنة ١٩٤٩ . فكان جميع الرؤساء الذين قتلوا
لقوا حتفهم في هذا الحي ، كما شرع في قتل اثنين من رؤساء الوزارات في الحي نفسه
أولها توفيق سيم في ١٧ من يولية سنة ١٩٢٠ بشارع الشيخ ريحان ، وثانيها
مصطفى النحاس في شارع قصر المعيني وشارع الساتت سنة ١٩٤٩

وقد قتل السيرلي منك سردار الجيش المصري وحاكم السودان في نوفمبر سنة
١٩٤٩ في شارع الطرقة الشرقى ، ومات حس البنا في مستشفى قصر المعيني في سنة
١٩٥٠

ومستشفى قصر المعيني معلم بارز من معالم حي السيلة وبث ، وهو أشهر
مستشفيات مصر كلها ، ولو جمع ما كتب عنه ، مدحاً وقلحاً وثناء وهجواً ،
وما جرى حوله من استجوابات وأسئلة في المجالس البرلمانية ، وما نشر عنه في
الصحف وما خرج من أسئلة كبار في الطب ، وما اقترن به من أساءة أهلام من
كلوت بك إلى علي إبراهيم باشا لفاقت هذه الكتب صحافة ووزناً ، كل ما كتب عن
غير هذا المستشفى من الأسمة والمؤسفات والدور في طول البلاد وعرضها . ولقد
شهد هذا المستشفى كثيراً من جرحى وقتل حوادث الوطن والسياسة

ويستمر حي السيلة نسب طولاً وعرضاً حتى يمتد إلى النيل ، حيث تقوم أجمل
القصور وأغناها ، يسكنها كبار الطبقة الأرستقراطية التركية أمثال حداد بك ،
والأرستقراطية التركية أمثال بدلولى حاشور ، والأرستقراطية المحملة والتي تعرف
الكثير من أسماء أصحابها ، ثم أرستقراطية المال الأوربي ، من رؤساء ومدبري
البنوك والشركات التجارية والمالية والمصارف ثم دور السفارات ، وموظفوها الذين
يعيشون أناة ، وتكبرج شوارع جاردن سقي بمطر حلائق بيوتهم ، وعطر زواجهم
ونباتهم اللوان ينظرون إلى مصر ، أول يجيئون إليها ! يعمون مفتوحة دهشة
واستغراباً ، ثم لا يلبث أن يقص في هواها ، ويحين كل ما فيها ، حتى يودعها
ويصلها وانها .

ويطل على هذا كله المسجد الزينى ، وكأنه الأب الكبير الذى اتسع مع الرمن صبره وصلته ، فنظر إلى دار المذنب السامى ، الفخيل الغازى ، وإلى عرش القفر والشعب المطحون والأصيل الطوى ، وهو يهيم الصلة بين هذين الطرفين وما يدوان للناس وكأنها يتسبان إلى عالمين جد بعيدين . وقد كان المسجد الزينى على أيماننا مصدراً لحياة كاملة لأهل القاهرة بل لأهل مصر كلها . فلأناس تقصده من كل حذب وصوب ، والوصول إلى ضريح صاحبه عند الملايين من أهل مصر ، فى الوجهين البحرى والقبلى . فى السواحل والصحارى وفى الواحات بكاد يكون كند الرحال إلى الكعبة وكثيراً ما تفد العائلة الرفيعة من القرية بقضها وتضيئها ، وقد لا يسفها ما عندها من مال قليل للنزول فى فندق من فنادق الحى ، فيفرشون الفراش ويحفظون السقاء ، وهم لا يشكون تعباً ولا يملون من تحمل هذا الحرمان ، فإذا وضع الرجل أو المرأة يده على شباك ضريح السيدة ، أحسست وأنت تراهم وتسمعهم ، بأن هذا لقاء غرامى ، يصل فيه المحبون إلى أقصى درجات الوجد والوله ، فالدموع عميل ، والأهات تصعد ، والقلبات تتوالى ، ومناجاة تدور فى صوت خفيض صادق . وإلى لا أزال أذكر هذا المرجاء الحار : « والنسب يا ست يا طاهرة .. يا أم هاشم .. يا لم العولجز .. يا بنت الإمام .. يا أنت الإمام .. نظرة .. والنسب » .

وفى بعض الأحيان يصل إلى حد الإلهام والخيوبة ، وفى هذا الجو ينشط عدد كبير من الأذكياء ، ليستغلوا هذا الاستسلام والوجد ، فتباع الأحبية ، ويظهر العديد من الدجالين والمحتالين ، فى أبواب عديدة ، لهذا مجلوب ، وذلك إلى ، والثلاث يعرف شيئاً مطمئناً له أرقى الصلوات بالحكام وأصحاب النفوذ وبهذا يختلط الدين بالدنيا ، ويتنافس أولياء الله وأولياء الشيطان فى كسب الانتصار والانتاج .

لذا كان المولد امتلاء الميدان بالمقاتل جباراً والألوف ليلاً ، لماسحت الشوارع بالأجسام المتلاصقة وتلايلات الأنوار على واجهات المحوانيت ، ونشطت التجارة نشاطاً عظيماً ، ونشطت معها صنوف من الخمر بأنواعه : تباع السبع ، وعلب السعوط ، والمصاحف ، كما تتناول الألبس أنواعاً لا حصر لها من المكيفات منها ما يؤكل ، ومنها ما يشرب ، ومنها ما يدخن . وفى الأتقة والمطوف ، يجد شيطان

المحوى ، فرحاً لا يجهلها طالعو لثبات البدن في غير مناسبة للمولد ، هذه المناسبة الروحانية فانظر وتعجب !

فلذا دخلت المسجد ، وعلقت في قاعاته ، ورأيت الأصواء الثلاثة ، والثريات المتوهجة ، خيل إليك أن البور غسل الناس من أحزانهم وأحقادهم ، وأهم جميعاً سعداء فرحون ، يكادون يطيطون في الهواء من السرور والنشوة ، ويلعبون العنازة في الليلة الكبيرة لمولد السهلة فهي هذه الليلة يمشي الناس ، بأنهم موشكون على العودة والانفصاف ، فيخالط السعادة حزن وحسرة ، فتجتمع للناس في تلك الليلة أقوى الانفعالات البشرية .

يوم الجمعة هو عيد أسبوعي لأهل الحلى ، ففيه يأتى الناس إلى المسجد الزينى لسمعوا القارىء العظيم الشيخ أحمد ندا ، صاحب الصوت الجمهورى العتيق ، ذى الطبقات ، الذى يتردد في جبهات المسجد بلا مكبرات ، فتخشع القلوب ، ويهدأ النفوس ، فإذا فرغت التلاوة صعد الشيخ مصطفى الحماسى إلى المنبر ، ليهدير هدير الزهد بما تترزّل له قلوب المؤمنين من الخشية والرهبة . فإذا وقفوا بعد ذلك صموتاً وخرجوا ، حسبوا أن ما سمعوه من الخطيب ومن القرآن ، قد حرّهم من هموم دنياهم ومخاوفهم فترة يمكن أن يعيشوا على راحتها أسبوعاً . واستقبلهم حل باب المسجد ، صنف من أصحاب المعامات من عمى ، ومقطوعى الأيدي والأرجل ، والمعتوهين ومدعى الجنون ، وكل منهم يحس حالته ، أكبر مقاماً وأحق بالتقدير والرحابة ، ومن خلفهم يقف طابور من بالعى البخور وحشب المسواك ، والمطوّر ذات الرائحة النفاذة التى تدبر الرموس وأشياء كثيرة يخطتها العد والحصر .

ولنا آخر الأمر أن نتساءل : أليكون سحر حى السهلة زينب وسرها : البائع ؟ هو الذى قرر أنه لا يتصل بحيها مكان ولا إنسان ، إلا ارتفع شأنه وعلا مقامه ؟ ولو خالجت شك في ذلك فلنسرده حدثاً آخر من الأساء :

مات أحمد هراي زعيم أول ثورة مصرية في تاريخها للعاصر ، بمنزل في شارع خيبرت من شوارع الحلى المتيد ، كما مات في شارع آخر مصطفى كامل زعيم الثورة الثانية وفي شارع ثالث مات سعد زغلول زعيم ثورة سنة ١٩١٩ وفى شارع قريب من بيته أقيم ضريحه القرحوى .

وقد شيعت مصر جثمان مصطفى كامل من دار اللواء التي كانت قائمة قريبا من ميدان لاطواعل مرتين ، مرة يوم ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ ، بعد وفاته والثانية في سنة ١٩٥٣ ، حينما قررت الثورة نقل هذا الجثمان الطاهر إلى ضريحه الجديد في ميدان صلاح الدين ، ومن الدار نفسها شيعت مصر جثمان محمد فريد إلى ضريحه مع زميله مصطفى وذلك في ١٥ نوفمبر ١٩٥٣ .

وفي دار من دور هذا الحى انعقد المؤتمر الوطنى سنة ١٩٢٦ ، هى دار محمد محمود بشارع الفلكى ، للمطالبة بعودة الدستور ، بعد واده فى سنة ١٩٢٥ بعد مقتل السردار ، وفى دار أخرى فى الحى ربحى عبد الرحمن فهمى ، قائد ثورة سنة ١٩١٩ . ورئيس أركان جهادها ، ليدبر هذه الثورة بشجاعة ومهارة ورياسة جاش مدة ستين ، كان سعد وصحبه ضلالها فى أوروبا ينتظرون المفاوضة مع الإنجليز ومفاوضون مندوبهم فى باريس ولندن .

وبعد ، ألا ترى معنى أن تاريخ مصر الحديث كله ، يرتبط بهذا الحى الفريد
الفد ١٩

شارع سلامة

إد كان حىّ السيدة زينب كله جديراً بأن أكتب عنه فصلاً قائماً بذاته ، لأنه وطن طموئقي وصباي ، ومطالع شبابي ، وإن شارع سلامة ، هو الشريان الذى تدفقت منه الحياة لأيامي في هذا الحى . فهو الشارع الذى كان فيه بيتي ، وهو الذى شهد أولاً عدوى وركضى وصراخى وشجارى ولعبى وطوى ، وقد عرفت زملائي ولدائى فيه وعلى جوانبه ، ثم أغلقت حباتى تتفرع منه إلى شوارع أخرى في حى السيدة زينب ، ثم إلى دروب وعطوف وحول وأحواش ، حتى أصبح هذا الحى امتداداً لوجودي .

هل أحببت شارع سلامة وأنا صغير ؟ هل أحببت منظره وأهله ؟ لقد سألت نفسي اليوم هذا السؤال ، أى بعد أكثر من نصف قرن مضى ، حينما كان هذا الشارع مسرح طفولتي ، وميدان مرحي ولغوي . ولعل لم أسأل نفسي - وأنا طفل - هذا السؤال .

فقد كنت طفلاً كثير الحركة لا يكف عن اللعب ، ولا يشكو من شيء ولا من إنسان ولا يعرف الانسواء ، وتحضى علاقته بالإخوان والزملاء طبيعة كعلاقة الأطفال بعضهم ببعض ، يتشاجرون ويعودون إلى الصلح ، ثم يتشاجرون من جديد ، وشجارهم وصلحهم جزء من اللعب لا تعرف كيف تفرق بينهما ، وقد كنت ألعب مع عدد كبير من الأولاد في سقي ، أولئك الذين كانوا يصغرونى قليلاً ،

أو يكبرونى قليلا ، بدون أن تنشأ بينى وبين واحد منهم صداقة خاصة ، لا أذكر أن أحدهم اعتاد التردد على منزلنا ، ليلعب معى فى إحدى حجرات منزلى ، ولا سيما فى حالات المرض الكثيرة ، كما لا أذكر أنى زرت أحداً فى بيته ، وترددت على هذا البيت حتى ألفت ، وأصبحت من أهله .

كلها علاقات ظاهرة سطحية على الرغم من حيورها وحاراتها . كنا كذرات الماء المغل ، لا تستقر ، تملو وتتهبط ، وتنبه يمينا ، وتنبه يساراً ، بلا هدف إلا أن تكون الحركة نفسها هى الهدف ، وهى للسلعة . كان المسكون معناه الموت وما دنا أحياء فلابد أن نتحرك ، وماذا فى هذا من الغرابة ؟ أليست الأرض دائمة الدوران حول نفسها ، ودائمة الدوران حول الشمس ؟ أو ليست الكواكب تفعل مثل ذلك منذ ملايين السنين ، وبلايين السنين ؟ أو ليست هذه الأجرام السماوية المضغمة التى تزيد ألوف الملايين من المرات على حجم طفل مثل ، حينما كان يجرى ويلعب فى شارع سلامة ، تدور فى أفلاكها ؟ فأتا مثلها أو هو مثل ، لا تكف عن الجرى والركض ، واللف والدوران . ولكننا تدور حول محاور مائلة ، لسبب لا يدريه أحد . فأتا أحسن حالاً منها ، فأتا أجرى فى خطوط مستقيمة أو دوائر ، فى وضع

طبيعى لا ميل فيه ولا انحراف . وأجلس الآن لأتأمل شارع سلامة وأستعيد صورته بعد هذه السنوات الطويلة . فأتا أسمى شارعاً فسيحاً نسبياً . مستقيماً ومصطف البيوت على جانبيه فى استقامة . وهى بيوت ليس بينها تفاوت كبير . فليس فيها الرفيع الذى يتعالى بفناء وإثرائه على ما حوله . لا قصور ولا أكواخ ، تعيش فى هذه البيوت عائلات من الطبقة المتوسطة الكبيرة . فهم المهندسين والقاضى ، والتاجر وصاحب الأملاك . وقد شد عن القاعدة العامة بيتان : لولهما كان له حديقة كبيرة ، ومظهر القصر الصغير ، والثالث كانت تسكنه أسرة خفية نوعاً ما ، كان ربها من بكوات ذلك العهد ، وقد زوج ابنته الجميلة إلى موظف كبير ، وصل إلى منصب فى أهمية ، إلا أن أهل البيتين كانوا كسائر أهل الشوارع بسيطة وطباعاً ومظهراً . والغريب فى شارع سلامة أنه ينتهى إلى جبل طولون . وقد بنت الحكومة سلام من الحجر ، لصحة الناس فى الجبل ، لأن البيوت بنيت على هذا التل ، وزاد عدد سكانها . ولكن مع بناء هذه السلام لم تلد الحركة فى العلاقة بين أهل الجبل الذين يعيشون فوقه ، وأهل الشوارع الذين استوطنوا سفحه . فلم يند حلينا نحن أطفال

شارع سلامة مثلاً حدد من أطفال التل ، يشاركوننا اللعب ، أو يفزون حيناً بالطوب والمقلاع ؟ .

والطريف الذي أذكره الآن أن الآباء والأمهات كانوا بالنسبة لأطفال الشارع أشباحاً بلا أرواح إذ لم تنب أي علاقة بيننا وبينهم . كنا نرى السيدات أمهات زملائنا يخرجن من البيوت ، ويسرن في الشارع ، ثم يحدثن إلى بيوتهن ، وهن يرتدين الحبرة أو (التزيينة) وهن رى للسيدات يتكون من جرمين من القماش الأسود ، واحد يوضع حول الرأس ، ويلوح حول الوجه ، والثاني (كالجونلة) أو (الجيب) بلغة اليوم ، في حين يغطي وجه السيدة نقاب من الحرير الأبيض ، فيجب فمها وفنقها وشرك عينها وجبهتها . كنا ننظر إليهن لئلا نحبس ولا ينجسنا ، ولا يلوح بيننا حديث كذلك يخرج الرجال إلى أعمالهم ، أكثرهم يرتدي الشلّة والطربوش ، ومنهم من يحمل في يده عصا أو مشة ، ومنهم من يحمل في يده كتاباً أو مطروفاً أو جريدة فننظر إليهم كذلك ولا يرون ولا يري ما يدهو إلى السؤال أو الكلام أو التحية .

هالم الصغار قائم بذاته ، وهالم الكبار قائم وحده ، وهما متجاوران ، ولكن بغير اتصال !

وأحاول الآن أن أتذكر وجه أم من أمهات أصدقائي ، فلحجز عاماً ، وأعجز أيضاً من تذكر وجوه آباء هؤلاء الأصدقاء ، بل أسألهم ، وأستش من ذلك رجلاً واحداً . لم يكن والد أحد أصدقائي ، وإنما كان والد شاب يكبرنا قليلاً ، ومن ثم لا يشاركونا في لعبا . وإن كنا نركل ويرانا ، ولكن هذا الرجل سجع في شيء لم يسجع فيه رجل آخر من آباء زملائي ومن كل جيراننا ، ذلك أنه أقنع والذي بأن يلعب معه مشاهدة مباراة كرة قدم بين فريق مصري ، يرأسه بطل مصر في كرة القدم ، في تلك الأيام : حسين حجازي ، وبين فريق إحدى فرق الجيش البريطاني ، على أرض نادي المختلط التي قامت عليها قبابا بعد مبان المحكمة المختلطة التي أصبحت بدورها دار القضاء العالي . وكلما تذكرت أن الشوارع التي تراسها الآن مزدانة بالبالونات الضخمة ، والتي تحتضن بالحرارة ، وتموج بالساترين والساترات ، كانت في أيام صباي أرضاً راحية ، يلعب الناس عليها الكرة . أغلقتني العنشة لسرعة سير

الحياة ، ولصحافة التطورات التي وقعت في مدينتنا المحبوبة « القاهرة » ، ولا أزال أذكر يوم ذهبت مع والدي وجاره وابن جاره لمشاهد هته المباراة التي لم أشاهد غيرها مع والدي إلى آخر العمر ، ولكن لا أذكر شيئاً من شعوري يومذاك إلا حاضراً واحداً استولى على يومها ، ذلك هو تساؤلي كيف نلعب مع الإنجليز ؟ ولقد تأملت السلاعيين الإنجليز ، وهم ينزلون إلى الملعب ، وهم يصطلمون بالسلاعيين المصريين ، وهم يسابقونهم إلى الكرة ، ثم وهم يقعون على الأرض ، وكأننا أشاهد عفاريت استؤموا ، أو عيلانا روصوا . لقد كان عهدي بالإنجليز أنهم يلعبون الخردات ، ويكوبون في سيارات ضخمة ، فيحت منظرهم الرعب في القلوب ، فكيف يلعبون معنا وكيف يسمحون لنا أن نلقي بهم في الأرض ، ويصطلف منهم الكرة ، ونلقى بها في شبكهم ؟

هذا وحده الذي بقي من ذكرى هذا اليوم ، أما صورة الملعب واحتشاده ، وصورة حسين حجازي وهو يقود الفريق المصري ، كأنه قائد مظفر يقود جيشاً في رصانة ووقار وثبات ، فلمور لا تبدولي واضحة ، وإنما تظل على مكانها وجه يندوم خلال سحاب ١

أما جاراننا فقد كان رجلاً عجوزاً ، فقد إحدى عينه وكان قصير القامة نحيلاً سريع الحركة مشطاً ، وكان طوال المباراة ، يقفز طرباً لرمة موفقة ما ، ويقفر رجلاً ضخمة موفقة من الإنجليز علينا .

يبد أن أذكر شيئاً عربياً ، ذلك أنني دخلت في منزل من المنازل المجاورة لنا ، لسبب لا أدرسه الآن ، فرأيت رب البيت - ولم يكن من أولاده من يقاربني في السن - رأيت يلبس جلباباً واسماً ، مفتوحاً حول العنق ، وكنت أرى هذا الرجل في جبة وقططان رفوق رأسه عملة ، هيلولي مهيباً محترماً ، فلما فوجئت به في منزله بجلباب ، ورأيت عنقه الضخم الأسمر ، خيل إلي أنه أشبه شيء (بسالونة) ففقت ، فتهاوت وأصبحت جلدا متحفنا مترهلاً وقد بقيت داهلاً أنظر إلى الرجل وفي نفسي شعور من الحجل له ، وشيعة الأمل فيه ، وقد هانت من هذا الشعور نفسه بعد ذلك حينما زرت مع خالي مدرسو اللغة العربية في مدرسة محمد علي ، وكان رجلاً طويلاً القامة ، ذا لحية يجالطها شيب ، فلما وقع نظري عليه في

جليليه أحسست وكأن ضبطته منليسا بجرم ، ولو استطعت أن أدير عيني عن منظره لمعلت . . . وكتم كانت دهشتي حينما رأيته في اليوم التالي في المدرسة في جيت وقفطانه وعمامته ، فقد أحسست يومذاك أن هذا المنظر زائف ، أشبه شيء ثوب يرتديه مثل لأداء دور . في حين أن أحرف الممثل خارج المسرح على حقيقته . ليس ملكاً مثلاً ولا وزيراً ولا قائداً . . . وقد بقيت فترة اجترىء على الشيخ محمد روف ، حتى صرني بشدة ، ونسيت جليلابه ، وعدت أتق في هيئة ربه الرسمي

ما أذكر من شارع سلامة ٩ . . . أشباه متاثرة ، لست أدري لولاها بالانقديم أذكر وقائع ، وأذكر شخصيات ، وأذكر ظواهر تكرر فيه

فمن الوقائع ، المعركة الدامية التي اجتمع فيها أهل عدد من الصبيان من كانوا يلعبون معي ، وقد وفدوا مسلحين ببعض الخيزيان يتقدمهم شاب أكبر مني سناً ، وأقوى مني جسماً ، وأكثر مني طولاً . كانت به شراسة في طعونه لم يحل دون وصوله الى وظيفة السمر فيها بعد ، وأحاطوا بي في حوش أيوب بك ، وأهالوا علي صرباً بالسهم ، ولم يكن معي عصا . أدفع بها ، ولم يكن لسلي عدم بمقدسهم أو عزوتهم . ولم أستطع أن أحبس دموعي . ولست أدري ما الذي نقل المعركة الى شارع سلامة ، ولكن الذي أذكره أن فتاة لا علم لي حتى باسمها ، ولا صلة تربطني بها ، لا قبل الممدوان ولا بعده ، خرجت من أي مكان في الشارع ، لست أدري وقد راهتها بذالة المعتدين وكثرتهم ، فاهالت عليهم نلسان نشيط قوى حاد ويكلمات كقدائف المدفع الرشاش ، فوجه المعتدون ولم يمس أحد منهم بيت شفة ، وسيت يمس ، ونسيت الألم الذي أصابني وحرارة العذر ، وقسوة الضرب وقفاهه السبب ،

واستمعت إلى هذه الفتاة التي كانت مثالا للندفاع من الحق بعبر غرض ولا هوى . فهي لم تكن تعرفني ولا تعرف أحداً من أهل ولا أنا لحات إليها طلباً منها العون والحماية . ولكن الشعور بالظلم وكرهه العذر هما اللذان ألهماها ، وقد اجتمع الناس حولها وحول في حلقة ، وأنصتوا لكلامها مأخوذين معجيين ، ورأيت وجوه الصبيان المعتدين وقد علاها خجل مر ، وألم واضح . وبعد قليل ابتدأت أشعر بمرارة الهزيمة من جديد ، فأنما لم أدفع عن نفسي باليد ، ثم لم أدفع عنها باللسان وهامي دى فتاة لا تعرفني قد آلهما صفني فانتصمت لي

ولكن الذى عراى يومذاك ، وأنا طفل دون السابعة ، شعور مرعب أراه قد جاء من مبكراً قبل الأوان ، ولكنه كان شعوراً واضحاً كاملاً ، إلى الحد الذى لا أزال أذكره إلى اليوم ، غير مختلط بوله ، أدركت أن العدوان أصابني انتقاماً من شقيق روح אחتي ، الذى اصطدم برعيم الصبيان في يوم سابق فضربه صهري صريعاً موجعاً ، على الطريقة الرقيمة ، فلم يكن صهري من يحسون الملائكة ، أو استعمال (المقص) أو استعمال (الروسية) فهذه فنون من الصرب وقف على القاهرة وحدها ، إنما كان يتقن تماماً أن يحيط بحصر عدوه فيعصره عصرأ ، حتى تكاد روحه تخرج من فمه ، ثم يستطيع أن ينال على رأسه وصدره بقبضة حديدية ، ولا مانع من ليّ الدواغ وضرب الركبة في أسفل البطن وهو موطن حساس يفقد المضروب معه الاحساس ويتعب من صولبه ، دارت المعركة سريعة وصرب عدونا صريعاً موجعاً وسار يتمأيل ولا يكاد يدرى رأسه من قلعه وما انتهى القتال دعوت صهري إلى قطعة من الشوكولاته الهولندية التي كنت أحبها ، وأكل منها بإسراف . صحتي إلى حانوت كان يبيعها للدغمت ثمنها ، وأخذتها وقبل أن أسلمها لصهري رحمت أتأمل صورة خلالها الجميلة وهي صورة فتاة هولندية تلبس قبضاً خشبياً ، وقبعة من القماش الأبيض ومن خلفها طاحونة من طواحين الهواء ، وأكل الفارس الشيكولاته المهداة وتلمظ بها ، ولأن حاله يقول : إذا كان مقابل كل حركة كهذه شيكولاته كذلك ، فسأضرب لك صبيان الحى جميعاً !

أما الحادثة الثانية فهي اشتراكي في لعبة عسكرية ، لا أخرى لهذا اخضت من شوارع القاهرة ، فأنا لم أجد أراها ، ولا أسمع عنها . لعبة اسمها (أبونا ! ضربونا) . ينقسم فيها اللاهويون إلى فريقين فريق يحمي ، وفريق يطارد . والفريق المطارد يقسم بدوره إلى قسمين قسم يبقى عند الأم ، وقسم يشترك في المطاردة أما الفريق الآخر ، الفريق الفار ، فهو يجتفي ، ثم يفاجئ القسم الباقي عند الأم ، فإذا صرخ هذا القسم عند هول المهجمة المفاجئة (أبونا ! ضربونا) كان على المطاردين ، أن يلبوا النداء ، ويسرعوا إلى النجدة ، فإذا لم يسمعوا أو كانوا بعيدين ، يستمر صرب القسم الالذد بحصن الأم . ولا تنتهي اللعبة إلا بالقصص على فريق الفارين ، وكلما ابتعدوا عن ميدان اللعبة ، صعب وصعب اليد عليهم ، ونعمرص القسم الباقي ، الذى لا حيلة له في دفع العدوان لصرب عنيف . وأذكر أن

اشتركت في هذه اللعبة في ليلة من ليالي رمضان ، واجتهدت ابتعاداً شديداً عن شارع سلامة ، فذهبت إلى شارع السد البرقي ، وروحت أعدد ، ولا حوف عليّ من صبطي وإحصاري مقبوضاً عليّ . وفورحت بواحد من المريق الآخر ، أمامي وجهاً لوجه ، فانطلقت أعدد ، وسط الجماهير ، وأشق طريقتي كالسهم للشارق ، ومن حلمي عسوي ، لا يسمح لي بالاحتفاء عن ماضيه . إنما أذكر أن المسافة كانت تعمري وأنا غار من وجه الذي يتعقبي ، فقد كان إحساسي وأنا أسير في شارع السد وحيداً لا يسأل عني أحد ، ولا يتم بي عصي من أعضاء المريق الآخر ، بأن لا قيمة لي ولا شأن ، وأحسست بأن اللعبة فقدت مذاقها ، أما الآن فقد دبت في اللعبة الحماسة وتولاني شعور برد الاعتبار .

وهكذا أدركت ، وأنا بعد طفل صغير ، أن الأمن والطمأنينة وإن كانا من أهل ما يطمح فيه الإنسان فإنها إذا اتسبا بالركود ، وضالة الشأن ، كانا شعورين مريين ، لا يقبلهما الإنسان ، ويقبل أن يضحي بهما في مقابل شعور من الأهمية والمكانة

ومن وقائع حياتي الصغيرة ، التي جرت في شارع سلامة ، واقعة أذكرها إلى الآن ، أرى نفسي فيها على « بسطة » بأعلى درجات سلم في منزل يقع في شارع سلامة ، أو في حارة متفرعة منه ، ويومها لم أكن وحدي بل كنت مع عيرى من الأطفال الذين كانوا في مثل سني ، والذين كانوا يكبروني ، وبينهم بنت في سن الشباب . ويبدو أن الأطفال الآخرين والنات الذين كانوا معي على هذه « البسطة » كانوا يدرون لم نجتمعوا على هذا البسطة ولم تزارحوا على الباب المتصل بها ؟ أما أنا - ربما لأصغر سني - فكانت وأهلاً هناك بحكم قانون القطيع ، فلنفراد القطيع من الماعز والبقر تسير وهي لا تسير إلى أين تذهب ، يذهبها في المسير روح الجماعة والأطمئنان إليها ، ولكن قليلاً من المعلومات بدأ يشرب إلى ، وأنا واقف هناك ، لا أستطيع النزول إلى أسفل السلم ، ولا أستطيع التفرّد إلى داخل الشقة التي نجتمعنا على بابها ، وأول ما وصلني من هذه المعلومات أن يلفلخل « رلوا » وصافعت الكلمة ألقى ، ولكنها لم تنقل إلى معنى ولا جزءاً من معنى ، وتكلمت فتاة قاربت من الشباب ، وكانت سمينة مليئة بالغيرة لا تزال أذكر اسمها كان « عائشة » فقالت الفتاة . « الستات بيتطوطوا جوة علشان العفريت راكمهم » . ولم أجزع من اسم العفريت التي ظهرت في « عز الظهر » فقد كنا فعلاً في الظهيرة ولكن لم أهتم كيف

تركب العفريت (الستاب) ولا السب الذى جعل العفريت تختار هذا المكان لتدخله ولتبعث بالسيدات هذا العث العلوى الصريح ، وأغرب شيء أن فصولى لم يتحرك ، علم أبذل جهداً ما لشق طريقى إلى الداحل الأمر الذى كنت أفعله لمجرد وجود سد بشرى أمامى بدون أن أسأل لماذا وراء هذا السد ؟ الدافع وحده هو الإعراء ، فلمأذا لم يتبى شيء من لدع الإعراء واستدراجه لنا جميعاً أبشء هذه القبيلة الضحمة قبيلة بى آدم ؟ لعلنى كنت سعيداً لأنى واحد من جماعة تغف متألفة ، شاعرة بالأنس ، على « السلطة » ولعل الركود وعدم التطلع إلى شيء جديد ، للحظة متعة من منع النفس الإنسانية ونحن لا ندرى ، ومن يدري ؟ فلفل هذه التجربة تجربة الوقوف فى أعلى سلم ، وأملنا أناس متراحون ، ومن وراءهم شيء مجهول ، لئلا لم نأرسلها من قبل ، فلم يكن بأس من إطلالتها يومذاك قليلاً ثم دبّ فى الموقف ، شيء جيل ، فقد دوى فى الداخل صوت رهيب ، دفعة واحدة ، لم أجزع منه ، ولكن أحسست أن كل مشاعرى قد تنبّهت ثم توالى الدوى . وسط نعم مظلم ، رتيب ، مشابه ، قوى . ثم وقعت عاتبة على أطراف أصابعها حتى بدت ركبناها من تحت الثوب ، فالتحمت أنظارنا ، نحن الأطفال إلى هذا الجزء من جسمها الذى تعرى ، بدون أن نمكر بمجرد حركة غريزية ودفعت عاتبة الفتاة أو المرأة التى تغف إلى جوارها فاهترئ ثديها ، فزاحت أبصارنا كذلك ، بدون أن يدري . وقالت لنا ، وكأنها هى صاحب « صنلوق الدنيا » الذى يروى لنا ما نراه من صور الصنلوق وهو يفتى : اتفرج يا سلام !

« أأشبح حط على وشه طرحه يضاء » ثم بعد لحظة : « العفريت ليس الشيخ ، العفريت يتكلم .. هس . هس والنس خليص أسمع »

لقد كانت هذه التصريحات كثيرة وهائلة ، وكأنها هى كلمة السر :
افتح يا سمسم ! هكذا مرة واحدة . عفريت ليس الشيخ ! ثم أخذ يتكلم من خلال الشيخ . . . عفريت ؟ كيف يكون وماذا يكون ؟ وما شكله ؟ ، هل له قرنان ؟ وله أرجل مثل أرجل التيس أو الخروف ، كما شاهدت فى كتاب إنجليزى كانت أخفى تروى لى منه قصة أم الطرطور الأحمر والشجرة والعفريت ؟

ولكن حالى يومذاك كان عجلاً ، فأننا لم نتحرك من مكان ، لأرى هذا العفريت

أو على الأقل لأسمعه ، بل أنا لم أسأل أحداً عن حولي من الأطفال أو الصبيان عن هذه الحقائق الصعبة التي تكشف لنا هذا الكرم السحي . بل علينا كما مشغولين بأمور تافهة بما تشمل الأولاد ، كقصة (دويارة) سارعها ، أو (يليه) سقطت من يد أحداً وحطعها الثاني وهكذا

ثم علا الصوت ، وسمعا دويًا مستظماً يجري مع الصوت العميق الرهيب المجهوف وعلماً أن الصوت المصاحب هو وقع أقدام السيدات اللواتي كن يقفون في الداحل قفراً منتظماً ، وبعد قليل خرج شابان أو صبيان يكبرانا يصيح سوات ، وهما يتفاحكان ، وكان وجه أحدهما محمقاً بالدم ، حجلاً من شيء لا أدريه ، وفي هذه اللحظة سمعت الشاب الثاني يقول بصوت جاحل أن يكون ممساً ولكنني سمعته . « شفت نيرة نظيرة » وهي تنطق . « ثم قال كلمة جدما لها ، وعلنا لم نفهمها إلا بالمريرة ثم أصاب : « يابوي . . . ذا أننا كنت عاوز أبوط فيها » . ولما انصرف الشبان ، صحككت عائشة وقالت : « الله بخيك يا عوزي » . والتي لا قول لأمه . « أبوط فيها آل شوب القياحة » وفي هذه اللحظة خرجت سيدة لا أذكر وجهها وصرخت فينا ودهمتنا بيدها دفعا فترجنا من فوق « البسطة » ، اثني اثنين ، أو ثلاثة ثلاثة ، كأنما نحن بلاء انهار فجأة . ولم نكد نصل إلى منتصف السلم ، حتى عاد بعضنا مسرعين إلى أهل السلم ، وهم أشد عروا على النقاء ، وبعضهم انصرف وأخذ يتحدث مع زملائه ، بغير ألم ولا أسف ، كأنما لم يحدث شيء .

الحادثة الثانية كانت يومها بالسبة لي كالكابوس ، ولا أذكرها اليوم حتى تبدلني وفيها جميع حصاصي ومزايا الكابوس ، فقد كان على مقربة من دارنا في طريق إلى مدرسة محمد علي منزل في دوره الأرضي أو الأسفل ناعلة كان يجتمع فيها عدد من الأطفال الذين يكبروني في السن ، وينظرون إلى الطريق من وراء قضبان حديدية وضعت على النافذة ، فلذا وصلت في سيري إلى مقربة من هذه النافذة سمعت لهم صرنا كأنه ضجيج الأعاصير ، ثم عدوا أيديهم وأخرجوا أنستهم ، فتولاي فرع لم أعرف مثله من قبل ومن بعد ، جعلت أدرجسي إلى منزلي ، وأنا لا ألقى على شيء . ورفضت العودة إلا ومعني أحد أهل المنزل ، ليحميني من هؤلاء الأطفال ، وفي كل مرة يذهب معي واحد ، وفي كل مرة كان هؤلاء الأطفال يصمتون صمتا مطبقاً كأنما

هم الذين استولى عليهم العرع ، فينتظرون إلى في عيود رائحة ، ووجوه شاحبة ، إلى حد أنهم كانوا يدكروني دائماً بالكلاب الضالة الملتصقة من عرص الطريق ، والموصوعة في عربة الكلاب . والتعريب أن هذا الخوف يتولاى فقط في صباح اليوم ، أما طوال النهار ، فلا أراهم ولا أحاف منهم إن رأيتهم ، بل لعلهم لا يحاولون إخافني إلا في هذه الساعة المبكرة من النهار . من هم هؤلاء الأطفال ؟ متى رحلوا من هذا المكان ، لماذا كنت أخاف منهم ساعة من النهار ؟ ثم لا أشغل بهم ، ولا أسأل عنهم طوال النهار ؟ هذه أشياء لم أجد لها حلاً ، وأسئلة لم أعرف لها جواباً .

وفي هذا الشارع أستطيع أن أذكر نفسي في موقفين متناقضين : أولهما في آخر الشارع عند السلام المقصية إلى جبل المقطم ، والثاني في منتصف الطريق . فعند آخر الشارع أقامت عائلة غنية في بيتها الكبير المواجه للتل مباشرة ، حفلة رفاف كبيرة ، عندما تزوجت كبرى بنات العائلة ، بموظف عالي المقام في الدولة وقد دعيت مع أهل الحضور هذا الفرح ، ولست أذكر نفسي في أى موضع في هذا المنزل ، ولكني أذكر نفسي جالساً مع فرقة موسيقى الشرطة ، وكانت أباهما المحبى الحفلات مقابل البحر عبر كبير ، فبعث في الحى كله بهجة وصروراً عظيمين ، لا بالحنانها وموسيقاها فقط ، بل بحس هندام أعضائها وأناقتهم ، وجمال الآلات النحاسية ، وبريقها الساطع . وأذكر جيداً كيف جلست على كرمى حيزران وسط الفرقة أو على مقربة منها ، وأنا غير مأخوذ بأنوار الفرح ، أو بموسيقى الفرقة ، بل لعل كنت لحظتها شاعراً ببعض الضيق ، لأن حذائي الجديد لا يسمع بالحركة الحرة ، وبذلك الحديدية وفيها ربطة حتى في أعلى السرة ، تشعلني قليلاً لعدم ثباتها ، ولا أذكر أن صادقت لبيتها طفلاً أو طفلة في مثل سقى يؤس وحلق

أما الموقع الثاني فقد كان في منتصف شارع سلامة وكان فيه مرادق مائمه رجل كانت زوجته صديقة لأمي ، وهي سيده طويلة ، ذات صوت أجش ، أشبه بصوت الرجال ، كانت في أسلوب كلامها كالمشايخ فلرني القرآن . ولم يطلب أحد مني عندما مات الرجل أن أشارك في العزاء ، ولكني لوتقديت بذلكي يتطلونها القصير ، وجلست في المرادق بين الرجال . ومازلت أذكر إلى اليوم أن المرادق لم يكن

مزدحمًا ، وإننى جلست تسمرون خواطر غريبة ، تفد على عادة في مثل هذه المواقف التي يقرأ فيها القرآن ، ويتظاهر فيها الناس بالوقار والحزن والتجلد ، فعلى هذه المواقف يتجلى إلى أنفى عادة في الطيبة ، وأنه يمكن أن أكون وليًا من أولياء الله ، أو شيئاً أعظم من ذلك ، وأحب - لحظتها - أن الناس الذين حولي يدركون هذا ، ويعلمونه جيداً ، وإن كانوا لا ينطقون به ولا يعنون به . وبطبيعة الحال لا أكاد أضع قدمي خارج السرداق حتى أنسى هذا كله ، وأندفع عدواً وكفصاً ، وصرخى يبلغ هناك السماء .

أما شخصيات شارع سلامة فلذكر منها اثنتين .

أما الشخصية الأولى لرجل فقد عقله ، كان يسير مطرقاً ، وينظر إلينا بعيون واسعة جدًا ، سوداء رصينة ، كأنها عيون البقر ، تدور في وجه حليق ، لا شارب فيه ولا لحمية ، والرجل صموت لا يتخاطب أحداً ، ولا يحتاج غيره ، ولا تمتد يده بأي . ولكن الأطفال عرفوا سر ضعفه ، وهوانه لا يطيع أن تمتد يد إلى جسمه ، رمل من الأيام أصبحت الأيدي تمتد إلى موضع بستر الحليم له ولا يكاد يحدث هذا حتى يتخلع الرجل جلبابه ، ويسند عالياً تماساً ، ويصرخ « يا عسكري ! يا عسكري ! » مرتين أو ثلاثاً ، ثم يضع جلبابه على جسمه ، كأنها أدى واجبه ، ثم يسير في الطريق مطرقاً صموتاً رصيناً وزناً .

أما الشخصية الثانية لرجل كان يرتدى عباءة خضراء ، ويمسك في يده سيفاً خشبياً ، ويضع على رأسه علامة سوداء أو خضراء ليست أخرى ، ويعطون في الشارع عدواً ومن خلفه عدد من الأطفال الذكور والإناث ، وهويغف وهم يرددون : « الله حي عباس حي . » فإذا وصل إلى موضع من الشارع يستدير وفي يده سيفه الخشبي ، وأخذ وصح من يطلق بندقيته ، فيقع الأطفال في الأرض صرعى طلائته ببندقيته الموهومة ، ثم يقفز من فوق جثث صرعه ، فإذا بعد عنهم قليلاً ، قاموا وتابعوه . وهكذا تتكرر هذه الموقعة الحميلة التي تبعث في الطريق حركة وفي نفوس الأطفال بهجة ، وفي نفوس الكبار رثماً يرسم على وجوههم ابتسامة ذلك لأن اسم عباس كان في ذلك الحين رمزاً على ما يحمته المصريون من تغير ، لأنه اسم الحنبلي عباس الذي عزله الإنجليز ، والذي عاش المصريون مستين أو ثلاثاً من سنى الحرب

العالمية الأولى ، وهم يسمعون أنه قادم على رأس جيش تركي . سيفزو مصر من
ساحبة الشرق عابراً قناة السويس . وهو حلم لم يتحقق ، ولكنه بقى يراود
المصريين ، وكلما اشتدت قصة الإنجليز ، أو ساءت سمعة السلطان فؤاد الذي
أصبح ملكاً ، تنق المصريون إلى رجل يتغير لهم الأمر القائم ، ويويل الحكومة ،
لتحل محلها حكومة وطنية ، تكره الإنجليز ، وتطردهم من البلاد .

ولقد كانت السلطات جسيمة بأن تمنع مظاهرات الشيخ علي ، لأنها تذكر
المصريين بالحنين عباس ، ولكن الإنجليز أُنخبت من أن يفعلوا في هذا الخطأ .
لاحظوا أن هذه المظاهر ترضى الناس ولا يسجم عنها أحد خطر ، حتى أصبحت
مظاهره رمزاً على الأمل الكاذب ، والهلوسة المضحكة .

ثم إن الإنجليز كانوا يجهلون أن يقفوا السلطان فؤاد في خوف مستمر من عودة
عباس ، فهمسكونه من خطابه ، ويجهرونه بفضل خوفه إلى حيث يريدون ، كذلك
يجرون أن يشعروا الملك أن الشعب لا يحبّه ، وأنه ينتظر عودة عباس ، فلا تأمن هذه
الشعب ، واحتم بنا .

وهكذا نعلم ، من منظر فولكلوري شعبي صغير ، كيف تعمل المراسية
البريطانية وكيف تتجه .



وكانت تقع في شارع سلامة مشاهد كأنما هي مناظر من رواية استعراضية دائمة
تتقلب على طول شهر السنة .

ولكن أود أن أغمض عيني لأحصى هذه الظواهر جميعاً ، حتى لا تفلت من
ذاكرتي وبين المد والإحصاء واسلة منها :

موكب وفاء النيل ، وصبيّة « عاشورة » وجولة المسحراتي الليلية في ليلاني
رمضان والنهارية في أيام العيد ، وموكب المرفلف مع قصة التفريز ، وزفة المظاهر
في عربات الخنطور ، والشحفظة من أجل مولود يلتئم أهل له الحيلة . هذه
مشاهد غنية ملونة ، تترى إلى أي حد تمشي حياة أهل القاهرة بتفاحات الفن

لحميل ، فن الرقص والغناء المرتبطين بمعتقدات الشعب المودوت ، وتقاليد
المحروطة

فموكب وفاء النيل لا أعنى به مطلقاً هذا الموكب الرسمى الذى تنظمه الحكومة
فى الهرم ، وتسير من أجله باخرة تخرج من رومس العرج إلى دم الخليج ، عندما يبلغ
الفيضان قمته ، ونجى - حسب التقاليد القديمة - المصرية عمل الأرضى
الزراعية .

وإنما أقصد موكباً حليماً متواضعاً ، قولمه رجل ريمى يبدو حل ملابسه وحلى
شكله أنه آت لتوه من إحدى قرى الريف المجاورة للقاهرة ، ومن خلفه فتاتان
وصبيان أو ثلاثه ، كلهم بثياب الريف ، وعمل الرجل وبعض أفراد هذا الموكب
علمين أو ثلاثة أعلام قديمة بالية ممزقة قلرة ، لست أدرى مسوخ حليها ، ثم يرددون
معاً فى صوت خال من البهجة والحلولة ، غناء لا أذكر منه شيئاً إلا أنه ينتهى بقطع
« عروها والله » . ولا أدرى أيضاً ما معنى هذه العبارة ، ولقد فكرت فيما يحمل هذا
الرجل وأولاده على الاعتقاد بأن من حقهم أن يلتبسوا الهدقة والإحسان بمناسبة
بلوغ الفيضان غايته ؟ ولكن بعد قليل من التفكير تبين أن حق . ففيضان النيل هو
مصدر الخير للبلاد ، والفيضان المحفّض هو كارثة الكوارث لمصر ، قد نسب
المجاهات ، إذ لم يكن لمصر مصدر وى سوى الزراعة التى تعتمد على النيل
وفيهضانه ، فالرجل بأعلامه يحمل إلى الناس البشرى بأن الخير واق ويتنظر لقاء هذه
البشرى الجميلة أن يعطوه شيئاً من الخير الذى سيمهمهم . أما هذه الأعلام فى
الأغلب أنها البقية الباقية من أعلام كثيرة ، كان يحملها أتباع الطرق الصوفية
يخرجون بها فى موكب حافل ، ويطوفون الأحياء ، فى مناسبة هذا العيد القومى ،
فتقلصت هذه الموكب وانحصرت من الأحياء والشوارع الفرعية ، فبقى هذا الرجل
وموكبه إشارة إليها وبقيت منها .

أما الظاهرة الثانية ، فهى لا تزيد عن صينية كبيرة يحملها رجل على رأسه ،
وفيهما شيء كالمدقق الملون ، يوزع فى الصعيد ، فى شكل مثلثات متجاورة ، مثلث
منها أحمر ، والثانى أصفر ، والثالث أحضر ، والرابع أزرق ، وهكذا . . وتكون
المثلثات المتجاورة دائرة مستديرة كاملة الاستدارة ، وهذا المدقق الملون هو بطور

يبعه الرجل وهوى . محروا السلام من عين لم سالم ، محروا السرير من عين أم
سمير إلح

أد الطاهرة الثالثة ، فهي لا تحتاج إلى تصوير ، فهي ظاهرة معروفة لكل
مصري في القاهرة وفي غيرها ، تلك ظاهرة المسحراتي ، والذي يطوف ببطلة صغيرة في
رجلي يديه وجلدة في يده الأخرى يلق الطيلة بالجلدة في ليالي رمضان داعياً إلى
الاستيقاظ ، وتناول السحور ولكن مسحراتي شارع سلامة وما حوله كان
شخصية فنية عدة ، لا يضارعه في سحر غيائه مسحراتي آخر ، من سمعت في أحياء
مصر وإسكندرية وطنطا وبنى سويف وأسيوط ، وهي بلاد أقمت فيها وصمت خلال
إقامتي بها شهر رمضان ، وسمعت صوت المسحراتي ، فلم أسمع فيها جيمها صوتاً
لمسحراتي ، كهذا الذي كان يوقظنا في الليل البهيم ، في شارع سلامة لتناول طعامنا
ولم يكن صوته عذبا ، وإنما كان صوتاً حياً منعشاً فياضاً بالبهجة ، وكان صاحبه
شاعراً شعبياً ينظم المعاني الجميلة ، في ألفاظ جميلة ، ويحيى بها أهل كل بيت .
وكان لدينا قط نحبه جيمها اسمه « أصلان » فطلبت إلى هذا المسحراتي الفنان أن يحميه
فيمن يحميهم من أهل البيت ، وهو لا يدري أنه قط ، فراح طوال شهر رمضان ،
يصف كل ليلة أصلان هذا وصفاً لو أدرك القط معناه لتلألأ علينا فوق دلاله ، كان
يقول له : « ياسي أصلان بك ، ياسي الكرم والجود يائي يمر عليك رمضان بالفرح
ويعود ، ويحملك الحلوة طايحة ربي الورد والعود » .

بقي من مشاهد شارع سلامة رتل من الباعة يعرضون فيه حلواهم عرضاً
خاصا ، كان كل نوع من هذه الحلوى شخصية إنسان ، تحالف عداها من
الشخصيات ، فلدينا بائع اللدافة يبيعها على عمود طويل في نهايته (شحشحة)
يرها فتحدث صوتاً بطير له صواب الأطفال ، فيخرجون من كل شق وفتح ومعهم
ملاييمهم ، والرجل الطويل كالعمود فإذا جاءه الطفل شد الحلوى البيضاء الملتعة
حول العمود ، وهي تمتد في يده إلى أي بعد شاء ، ثم ينفذها إلى الطفل المتلهف
ثم يأتي بعده بائع (الدندمة كحك) وهي المثلجات التي عرفت فيها بعد بالجيلال
الإيطالية و (الجلساس) الفرنسية و (الأيس كريم) الإنجليزية ، ولا يبيع هذه
لكحك إلا رجل تركي أبيض اللون والشعر ، يرتدي قميصاً أبيضاً صامع
البياض ، تحت معطف أبيض في مثل بضاعة القميص ، والكحل يتنافس المثلجات

«سبية في بيابنها . فإذا مضى هذا الرجل جاء في أعقابه (بائع الفانيليا) وهي رقائق من الدقيق ، يضعها الرجل في صنتوق أسطوانى الشكل ، يجعله على ظهره ، وفي يده موق صغير ، ينفخ فيه ، وقطعتا حشيتا يحملان صوتاً خاصاً يعرفه ، فإذا سمعناه وسمعنا (يسكوت فانيليا) نتلحرح على الطريق وفي أيدينا ملايمتا ، فإذا احتضى ظهرنا على قارعة الطريق فتاة تحمل في يدها طبقاً من الصالح المقشور القدر ، وفي يدها معلقة من الصمغ اللين ، وراحت تغمى على ما تسميه (على لوز) وهو حلوى مصنوعة من السكر العفود وموثة بعض حبات من اللوز المقشور وبعض أجزاء من (الكراميل) ولا تكاد ياتمة على لوز تذهب حتى يبل من حلمها بائع (حمر البات) الذى يصنع على حمة تحمل صبية من الرنك ، وفي وسطها دائرة تدور بسرعة ، فتسبح حسب نظرية الطرد المركزي شعراً من السكر ، هو غرل البينات التى لا يسم ولا يرمى من جوع ، ولكن منظره وهو يصنع ، هو سرشته ، يحمره .

ولست أريد أن أحدثك عن بائع القصب وندائه (سليم بالقصب) ولا بائع الملائنة ولا بائع العنب الذى هو يبيض البام حماً ويبيض الحماض حماً ، وإنما أريد أن أنتقل بك إلى صنف آخر من عوارض السوق الشعبية ، وأبدأ بالبائع (حب العزيز) لأنه وسط بين باعة الحلوى وفنانى الشارع ، فحب العزيز يباع على طبلية يحملها رجل ، ولكن يصحبه آخران ، فإذا وقعا في شارع سلامة راحا يؤذيان مولوداً عبثياً ومروفاً مظلوماً « حب العزيز الريمة بفرش » .

ثم يسمعون المارة (مولودات) مختلفة ، وأغاني مشهورة ومعروفة ، بأصوات لا بأس بها ، تمتنع لها الشيايك ، أو تبقى مغلقة لتظل من خلفها الأنسات والسيدات لترتفع أعين الشبان ، متصورة من جمال الناظرات مالا وجود له من الأغلب من الأحوال .

ومثل بائع حب العزيز قلوة في استشارة اهتمام المارة وأهل البيوت : الغدائق ، فصاحب الأراجوز ، قالغازية التى ترقص ، وممها رجل يطبل وصبي يصفر ويسير وراءها صف طويل من الأطفال والصبيان

ويأتى في ذيل هذا الصف من الفنانين صاحب صندوق الدنيا ، وهو دائماً رجل
فرع من الحياة يعمل عمالاً متصلاً ، يضع صندوقه ، وأمامه مقعد خشبي طويل ،
يجلس عليه ويسدل فوق رموسنا جزءاً من مثانة قلوة أو عزمة وبطل من فطحين
رجاجتين تكبران الصور ، فنرى السفيرة عزيزة وغيرها من الصور المرسومة بيد فنان
لا يتقدم بحيث لا تستطيع أن تميز وجوه الأصدقاء في صوره من وجوه خيله وحيره .

ولا يكاد يحفل صندوق الدنيا مكانه حتى تلك فجيرة (بين زين وسخط بالودع)
أو (بين زين وبلج وبطاهر) فهي فنانة وطنية في الوقت نفسه ، تجري عملية اللتان
الروحانية للبنات ، وهذه الفجيرة دائماً طويلة فاعة القوام ، مكحولة العينين ،
سمراء الوجه ، لها صوت لجش من كثرة النداء ، ولكن لمشيها وحيلاتها سحري
نفوس الرجال الذين يجلسون على أبواب المنازل ينظرون إليها وهم يتلوهمون .

فشارع سلامة كما ترى شارع مائج بالحركة ، فهاض بالفن ، كل ما فيه يبعث
البهجة ، ويحرك الماضي ، ويخرج بين طلب الرزق ، واشباع الروح ، في تواضع
ينظر له قلب الرحيم ، فكل ما يطمح فيه البائع الفنان هو سلاليم يهود بها
الأطفال ، ومع ذلك فالعن بردهر ، والتجارة تستمر ، والأطفال لا يكفون عن دفع
ملاهمهم الصغيرة ، إلى أهد صفحة سمراء ، تشقت من طول الكدح والسعي من
أجل الرزق الضنين .

على أنه بقي في جميعي من مشاهد شارع سلامة منظران كلاهما يفيض بالنور ،
أول المشهدين وقع في ليلة أن أدخلت مصلحة التنظيم فوانيس غاز الاستصباح إلى
شارعنا فأضامت لنا في هذا الشارع بنور أبيض ساطع لم نر مثله من قبل ، فشهرا
لبناتها تحت الفانوس حتى الصباح ، لم يستطع واحد منا أن يذهب إلى بيته وأن يدع
هذا النور العربي الذي فلق نور القمر بهاء فضلاً عن قربه منا . وقد كان في بيتنا نور
الكهرباء ، فقد دخلها قبل تلك الليلة بسنين قليلة ، ولكن أن يضاء شارعنا بنور
أحاذ تنك هي السعادة الجماعية . ولقد كان لهذا النور يد أخرى في أضافنا فقد
أضاف إلى شخصيات شارعنا شخصية لم تكن نعرفها بعد ، فادخلناها ضمن
شخصياتنا المحبوبة . تلك هي شخصية (حفريت الليل) الذي كنا نحبيه بأهنية
القاهرة المعروفة ، « حفريت الليل يسبح رجلين وأسنانه سود من أكل اللود » .

أما المشهد الثاني فمشهد أشعلت فيه لأول مرة (كبريت الهواء) في ليلة من ليال رمضان . ثم أشعلت في أعقابها (الشمس والقمر والنجوم) . . . كان كبريت الهواء عباداً طويلة ، فإذا أشعلناها وأدونا بها يدنا طويلاً ثم قذفناها في الهواء شعلت المكان ألوان منها الأحمر والأزرق والأخضر . ولم تشهد بلاننا بعد ذلك هذا اللون من الكبريت الوضاء الباهر . ولم تشهد بعد الشمس والقمر والنجوم بجمالها وبريقها الذي كدت تشمه أصابع من السلك مغطاة بطبقة مما يشبه الإزدوار فقد تدهورت هذه اللعبة فيما بعد . حتى نسيها الأطفال إذ أصبحت اسماً على غير معنى . أما نحن فقد صحتنا ليلالي كانت آية من آيات الفن الجميل ، ومتعة من متع البر الذي تتمدد ألوانه وتتوالى موجاته وتتسع دائرة بهجت وفرحته



وقد بقيت زمناً ، لا أعرف من يكون ه سلامة ه الذي سمى شارعها المنيح باسمه ، حتى عرفت من خطط حل مبارك ، أنه أمير ومهندس ومدير لنهوض الأشغال العمومية ، فسرى أن يكون الشارع الحبيب ، قد حمل اسم مهندس كأي ، ولم يحمل اسم أمير جاهل . . .

بيت ملياديان

انتقلنا من بيت الحكيم في الجزيرة إلى بيت مليا ديان في شارع سلامة وكان هذا المنزل هو مرتع طفولتي بحق . إذ شهد من متى حيائي ما سبق دخولي المدرسة الابتدائية . والستان الأوليان من حيائي بهذه المدرسة ومعها ستان قضيتها في مكتب لولي ، هي سنوات طفولتي الأربع ، أما ما بعد ذلك فقد كان عهد الصبا . وكان بيت مليا ديان يقع على ناصية شارع سلامة وشارع أنور متضرع منه ، نسبت اسمه لملأ ، وكان الشارع المفرع كالشارع الأصل فسحاً نظيفاً خالياً من الحيوانات ، تقع على جانبيه بيوت يمكن علها في جملتها فوق المستوى المتوسط لبيوت القاهرة .

ولم أكن أعرف من تكون مليا ديان يوم سكنا في هذا المنزل ، وبنيت أجهول دورها في الحياة العامة حتى شببت من الطوق ، وقرأت جرائد ومجلات المرح ، فعلمت أن مليا ديان هله كانت نجمة مسرح سلامة حجازي ، مثلت معه أكبر رواياته ، وبنيت جاهلاً أنها مبدعة يهودية ، حتى جاع اسم موسى ديان القائد الصهيوني ولاحظت التشبه بين الاسمين ، ثم تأكدت من أنها يهودية مما كتب عن تاريخ المسرح المصري .

ولما انتقلنا من الجزيرة إلى القاهرة ، وسكنا هذا المنزل ، انتقلت معنا أم حسين الطباخة السودانية ، وحفيدتها صديقي وفريسة شقاوي (حميدة) ولكن لم تلبث أن

تركنا وحلت محلها سيدة مصرية اسمها أم جلييلة ، صاحبتنا طوال حياتنا في القاهرة ، وبقيت حل صلة بنا حتى بعد أن تركنا القاهرة ، فقد قلعت لنا أكثر من ثوبية لها لحمتنا ، حتى أصبحنا . ولما اشتغلت بالحمل في القاهرة بقيت أم جلييلة حل ودها ، تزورني وتدهولي وأفرح بزيارتها ، لأنها صديقة أمي ، ورقيقة حياتها سنوات طويلة .

وكان مع أم جلييلة شخصية أخرى ، هي عبد الله الفلاح الذي وفد مع عائلتنا من الحبس ، وبعبارة أدق من حربة حلى ، فأصبح بندويًا ، وحرف مداحل وخارج الحملة في القاهرة ، وكان له دور في حياتنا ، فقد استمر يعمل في بيوت العائلة . بدأ عمله في بيت جنتي الذي كان يقع قريباً من بيت (عليا ديان) في شارع سلامة ، ثم عمل عندنا في هذا البيت الآخر ، ولما تزوج خالي الأوسط ذهب معه وحمل معه ، وأحب لثقة كانت تعمل عند شقيقة جنتي في منزل قاسم باشا ، فلما توفيت سيدتها ، ورثتها جنتي ، ثم لما تزوج خالي عاشت معه أمي ، وعاش معها من كان يتقدمها . أحب عبد الله حورية ، فالتحق عليها بيت الشعر البدوي :

وأحبها ونحبي ونحب ناسقتها بمهرى

وقد تم الزواج بعد حب عفيف ، ختم به عبد الله مفارقاته العاطفية ، ولما سافر خالي لأقصى الصعيد مفتشاً للرعى أثر عبد الله أن يلقى في القاهرة ، فبعثت لواءاً بمكتب لجنة مشروعات القرض ، فلما طرد رجوت الدكتور عبد الواحد الوكيل وكيل وزارة الصحة ، لتتطلف الرجل وعينه على إحدى حنفيات المياه بالقاهرة ، فلما فصل من عمله تولته وزارة الأوقاف بشيء من يرها ، حتى توفاه الله بعد مرض طويل

ولا يحسن القارىء أن من الإصراف ، أن أمتوقفه لأحدثه عن عبد الله هذا ، وعن أم جلييلة ، هذه ، فهما شخصيتان — وإن كانا من عامة الناس — فبيتان مجرايا إنسانية لا يستهان بها .

أما أم جلييلة فتمنوج لثناء أهل القاهرة اللواتي نقول عنهن (سات البلد) ولا يبعد أن يكون أجددها من شراكسة الماليك الذين كانوا يحكمون القاهرة ومصر كلها ، والذين فقدوا سلطانهم ، ثم فقلوا ثرواتهم ، شيئاً فشيئاً ، فازدادوا اقتراباً من طبقات الشعب الدنيا ودوناً فيها ، ثم فناء تاماً في حصائصها العقلية

والروحية ، فقد كانت يفضاه وكانت عيونها الضعيفة تحصره أروقه ، وكان لها ولد اسمه (سيد) قوى البية ، علماً بفنون المشجاري الخوارات ، لا يكف عن الصدام مع غيره ، ولا ينقطع عن شج الرموس وكسر الصلوع وإسالة الدماء والدخول إلى أقسام « البوليس » والسجون فالمودة إلى الحرية وهكذا دواليك .

وارتقى هذا الشاب المفامر في درجات الشجر حتى أصبح (فتوة) الخارة التي يعيش فيها ، ثم الحى ، فلارتفع اسمه ، وداع صيته ، وبالتالي كثرت قصايد ، وكثر إيلاغ أمه بأرماته ومناحيه . وكانت لا تقوى على البقاء أمام حلى الطليخ لحظة ، بعد سماعها من أبناء ابنها العرير المثرة ، فقد كانت تحطف ملاءتها ، وتلقبها على رأسها ثم تندفع لا تلوى على شيء ، فإذا علمت وهي تعلم أن أبيا رهن الحبس ، فقدت حيويتها وكف لسانها عن الكلام ، وفهبت إلى فراشها لتنام ، في ساعة مبكرة من الليل . فادا أفرج عنه ، ولو بكفالة ، عادت إليها بهجتها ، وأعدت إليها البهجة

وكانت أمي تألمها ، وتأنس إليها ، وتسمع لها أقاصيص بعضها من نسج الخيال وبعضها منس حقيقي ، كان أهلها وجيرانها أبطالها وفي الخالين كانت المبالغة أسلوبها المفضل .

وقد هودتنا أمي أن نعيد لنا رواية بعض حكاياتها ، وهي لا تقوى على الكلام من شدة الضحك . فأم جليلة لا تعرف من الناس إلا كل ذي مقام كبير ، ولما كان كل الذين تعرفهم لا يريد الواحد منهم على أن يكون سقاء أو شيلاً أو نجاراً ، فالوصف الدائم هؤلاء جميعاً أنهم من الكبار ، فقلان روج بنت عمته . سقا ، ولكن ياست سقا من الكبار . الكبار قوى ، أما ابن ست خالها فهو شيل ، اسم الله على مقامك ياست . بس شيل كبير كبير قوى أد الدنيا ، وإذا جاء عسكري لابنها يسوقه إلى السجن ، فهو عسكري شاورش . طويل طول البلب ، وشنبات والسبي ياست صديق اللي قال يقف عليها الصقر . وهف ابني قلم . الناس سمعت صوته كده زي المدفع . وصل من هنا للعبه . . فاني رد عليه بروسية كوته حته واحدة في الأرض ، وإذا وصعت أم جليلة سيلة جميلة ، فحواجب هذه السيدة (أد كده) وتشير بأصابع يدها الخمسة مبسوطة ، أما رموشها (فاد كده) وتشير بكف يدها متوحاً ، أما شعرها فهي طول ذراعيها معاً . وكانت أمي تعلق

على هذا الأسلوب المضحك ، بأنه يشبه أسلوب ألف ليلة وليلة ، والذي يروى
قصص الخان والعمالقة والأقزام ، ويبالغ مبالغت لا يقطعها عقل ، وأن
هذا سحر الحكاية في كل زمان ومكان .

ولما كبرت ، وأصبحت أجد متاعاً ما بعده متاع في تأمل شخصيات أولاد
البلد ، أدركت أن هذه من سلالة حاكبين ، وأن ابنها المقاتل المصارع ، تجري في
عروقه دماء أجداد كانوا يتخذون من المارك بالسيف والخنجر فوق صهوة الحصان
مصدر رزق ، وسبيلاً إلى السلطة وفقاً للترويع وتجهيد الحيلة . والأم والابن كلاهما
كان يحوس بعنه عن القوة الرائلة ، بالخيال والاصطدام بالناس . هي تروى
قصص عظماء ، تخلفهم من أهل حارتها الفقراء الضعفاء ، وتتحلى الواقع ،
ولا يسمها في قليل أو كثير ، وهو يعد أهل الحارة كاذبة أو أمراء يتاعسهم ويدخل معهم
في نزال لا ينتهي

وإذا فرغت أم جليلة من حملها ، ولدت أمي إلى فراشها ، والتست النوم ،
جلست أم جليلة تروي الحكاية في إثر الحكاية ، وأمي تسمع وتضحك ، أو تسمع
وتسأل ، أو تسمع وتستعيد بعض ما سمعته ، حتى يوافق سحر الليل الباهر ،
فيبعد أجنابها ختام ، وتبقى أم جليلة تحكي وتحكي ، أشبه شيء (بترانزستور)
هذه الأيام ، نندفع إلى جانب وسادة النوم ثم ننام وننساه ، ويستمر في الغناء
والحكاية والتجميل والتعليق . . . لكن أم جليلة لم تكن لتحتاج قط ، إذا أدركت أن
كلامها ذهب في الهواء ، فقد كان يسرها أن تتكلم ، ولا يهم أن يهد سامعاً ، فإذا
وجدت من يسمع ثلاثة أرباع كلامها ، ويبدى الإعجاب والمشاركة ، فإن الربيع
الأخير صدقة ، لأنها وجدت رفيقاً يطلب منها أن تتكلم .

ولكن هذه المحادثة الردود وتلك الأم المتلهفة على ابنها ، لانتليت أن تخرج من
إحباب طينتها إلى امرأة أخرى طويلة اللسان ، ترفض وتحجج وتغضب ، وتحصل
ملاذمتها وتترك المنزل لأنها تأي أن (يدوس على طرفها أحد) ثم تهدأ وتصفح وتعود .

أما عبد الله فطرلز أنمر ، ريفي ، يعمل في نفسه خصائص خويج الريف ،
الذي عرف أن السبل للنتيجة من المذنب والعظم ، هو ضبط النفس وكم الرأي
والمداورة ، وأنه لا يأخذ حقه صراحة ، وإنما خطأً وغشاً وتدليساً ، وفي الأخطب

يأخذ أكثر من حقه . وهو يرى أن ذلك هو القانون الذي ارتضاه السادة أن يعبوه فلا يدفعون له أجره ويعبوه فلا يقيمون له ورثاً ، ويمجسوا عليه ، فلا يحسبون لكرامته حساباً . كان أبو عبد الله ، حليلاً خلوايا الرجل التي أقامها حدى ، يقتل (الرباير) ويبسى لها ما يلزمها ، فلما جلست جلوس إلى القاهرة ومعها أولادها ، جاء معهم عبد الله . ولكنه لم يلبث حتى تخفف من أخلاق أهل الريف وبياهم ، وأحب القاهرة وعرف لغة أهلها ، وأسلوب معيشتهم ، فركب كثيراً منهم . فقد أصبح له صندوق من الخشب العالي - من خشب الموحانا - ملاء بكل الكتب الشعبية كتاب ألف ليلة وليلة ، مجلداً مجلداً جميلاً ، وسيرة سيف بن ذي يزن ، وسيرة الطاهر بيبيرس ، وسيرة عترة بن شداد ، وكتاب ابن سيرين في تفسير الأحلام ، وكتاب (أبو معشر) ، وفوق كل ذلك الكتاب الشهير : رجوع الشيخ إلى صباه . وكان في الصندوق إلى جانب هذه المكتبة الثمينة التي لا يقتنيها إنسان لمرتينه عبد الله وثقافته ، ملابس صيفية وأخرى شتوية ، وعصا من الأبوس الجيد ، وجوارب مهيئة بأنواع (البلى) اللورى والبل المصنوع من النيكل ، نكاد تكون من انتقاء ماو من هواة جمع التحف ، كجمع العراشات أو الطواغيع أو الأصداف ، وكانت له بعد ذلك ساعة ذهبية ضخمة ذات سلة ذهبية جميلة .

وبهذه الخصائص الثغافية ، ثم بهذه المكتبات الثمينة ، أصبح لعبد الله ، مكانة بين الطهارة والعاملين في المنازل التي تعملون منزلنا ثراء وعلامة وتعوداً ، فقد اعتاد هؤلاء أن يجتمعوا عند (صادق) الذي ينظرون الصداق اسمه مخففة حتى تصبح سبياً . وصديق هذا هو طاهي القاصي (ليب عطية) الذي أصبح فيما بعد نائباً عاماً ووكيلاً لمحكمة النقض ، ولأن بيت القاصي هو دائماً ، بيت مختار بين بيوت أى حى ، فقد كان الاجتماع عند طاهي هذا المنزل أمراً متفقاً مع تقاليد هذا الشعب العريق الذي يجعل للعدالة مكانها المرموق ، وللقاصي مركزه الفذ ، ويصمى على كل من يتصل بالقاصي المهابة والاحترام .

وكان نروح ونغشوقى الأمسيات والأصائل ، فزى عبد الله جالساً ، ومعهم كتاب ينلو منه بصوت مسموع ، والجميع قد تحلقوا حوله ، يسمعون كأن على رؤسهم الطير ، ولم أكن أدري وأنا طفل أن هذه لحظة أتاحها الله لعبد الله ، حتى كبرت وعرفت قدر الكتاب .

ولما أصبحت قادراً على أن أسمع (الحوادث) المكتوبة في الكتب ، والتي تطول بوعاءها ، وتتعمق فيها الحوادث ، طلت من عبد الله أن يقص علي بعضها فقص علي من قصص ألف ليلة وليلة ، ما كان أول بداياتي الفنية والفكرية معاً . وفي لأكد أقول - لولا أنني لا أريد أن أعظم عبد الله - إن عبد الله كان يخلط بين قصص ألف ليلة وليلة وبين قصص رجوع الشيخ إلى صباه ، عمداً أو سهواً ، والعارق بينهما في الواقع ضعيف ، محض قصص ألف ليلة وليلة ، تكاد تكون قصصاً أُخِطت طريقها إلى كتاب رجوع الشيخ

ولكن عبد الله كان مضطراً لتمويل مكتبته وتسمية مقتنياته إلى أن يتورط في بعض الانحراف ، وكان لا يقوى علي ردعه عنه ، فقد كانت جذبي أضعف من أن تردده ، وكان خالاي الأكبر والأصغر ، أليس من أن يجمعهما ، ولكنه حينها عمل عندما رأى من أمي أسلوباً آخر في التضويم والتهذيب والإصلاح .

لقد كان وجه عبد الله محبباً ، تبرز منه عظام وجهته ، وكانت عيناه قد أسددهما رمد أو مرض في الريف ، فأصبحتا نقطتين لا تبين لونهما .

ومرت يوماً في طريق الشد البراني مع عبد الله وكان في جيب جلبابه الصغير الموجود في أحمل الصدر جنبه من ورق . . وفجأة رأيت عبد الله يصيح : ابن الكلب سرق الجنيه ؟ . ! ومهت من كلامه وصراخه أن نشالاً خطف الجنيه . . والحق أنني لم أر إنساناً يقترب منا في هذه اللحظة ، ولا إنساناً يحاول الفرار . صحيح أن هذا الشارع ، مزدحم دائماً ، ولكن في هذه اللحظة لم تكن في قلب الرحام ، عبد الله أساء احتيार اللحظة . وعدنا إلى المنزل ، وجرى تحقيق سريع ، كان عبد الله ينتظر مني ، وأنا الذي أنضج بمكتبته وأسمع قصصه ، ثم جوارب البلى التي صادرت أمي بعضها قرأاً لثمنتي إياها ، أن أشهد لمصدره . والحق أنه لم يهاوصني في ذلك قبل التحقيق ، لاطمئنائه إلى عبايا له وانحيازي إلى جانبهِ ، ولكني قلت بسذاجة ، وأنا لأدري عواقب هذا القول ، إن لم أر أحداً يغترب منا . وعدَّ عبد الله سارقاً ، ولكنه لم يضرب ولم يجر هذه المرة .

ومرت أيام ثم مرضت بالتهنؤيد ، وطال مرضي ، ودخل علي عبد الله ليجيبي ، ولما قلت له إنني أعاني من المرض ، قال . هذا نسي ! قلت ببراعة تامة :

كيف ؟ قال . ألم تشهد صلى كذباً ؟ وحلقت في وجه عبد الله تحديفاً شديداً وأنا لا أصدق أنه يقسو على هذه الفسوة الثالثة ، فيعد مرضى الطويل الخطير ، عقياً إلى لأن لم أحابه ، وأصر وجه عبد الله ولم يتكلم ، واتصرف مستحدياً وعرفت أني ظلمت أمي وأنها لم تقس عليه يوم ضربته . . . وانقطعت صلاتي بعد الله فلم أعد أطلب منه قصصاً ، ولم يعد يحسني من أصدقائه .



أما بيت مليا ديان فحقيق بكلام طويل . .

لقد تفتحت فيه طفولتي ونضجت ، إذا جز أن الطفولة والنضج يتزان

وما أعنيه بنضج الطفولة ، هو استقرار الصورة في ذهن الطفل . ومعرفة عدد من الأسماء وآخر من المهارات ، يبرز شخصيته كطفل ، فيكون للناس حكم عليه ، فيقولون عنه إنه ذكي أو خواف أو شرس أو مريض أو عبيط أو مكاف . . . لاشك أن الناس تميز بين طفل وطفل ، فيحبون طفلاً ، ويستهجون لحيه وأسلوب كلامه ، ويضيقون بآخر ويفرون منه .

وقد كنت في بيت مليا ديان أجمع بين صغتين متناقضتين ، فأنا دائم المرض ، ولكن ما أكاد أستعيد بعض قوتي حتى اندفع إلى اللعب والحركة ، كل لم أكن مريضاً منذ لحظة . ولا أكف من اللعب العنيف والوثب والفر والصياح حتى ترتفع درجة حرارتي ، ويحمر وجهي من أثر حرارة بلى ، وتسلمني الحرارة الشديدة إلى ما يشبه الهذيان . ومر صعب صحتي ، هو مرحلة احتقان لوزج ، وإذا احتقتا ارتفعت حرارتي ، وانقطعت عن الحركة ومن الطعام وأخلدت إلى الممراس وانشغل البيت كله بـ .

ولا أكنم أنفي . وإن كنت أعالج أشد المعاناة من مرضي . كنت أستمتع بهلا المرض ، حتى لقد خيل إلى بعد أن كبرت وقرأت شيئاً في علم النفس ، وأصبحت أميل إلى التأمل في نفوس الناس ، وإلى مراقبة الأطفال ، أنه كان لإدراك دخل في مرضي ، بعبارة أخرى أني كنت أمرض نفسي ، لا اتصالاً ولا ادعاء ، فقد كان مرضي حقيقياً وكان الأطباء يعالجوني ، ويترددون على بيتي ، وكان منهم أكبر أطباء

الأطفال في تلك الأيام ، في مقدمتهم الدكتور عبد العزيز نظمي أول طبيب أطفال ،
معلم في مصر وفي فرنسا .

ولكني حينما أذكر كيف كنت أرقد على الفراش ، وإلى جوارى أمي ، وأمامي منصبة
صغيره عليها الأدوية (ودورق) به عصير الليمون ، ولإناء به ماء مثليج وقطع من
نقماش ، نوصع على رأسي ، لتلطيف الحرارة ، وأهل البيت ، وأحواي ،
والخيران يألون عني ، ولما كان أهل البيت جميعاً لا يتأهبهم المرض إلا قليلاً ، وإن
مرض أحدهم لم يطل مرضه أصبح مرضى متبازلاً لي ، لا يشاكرني فيه أحد ،
وكان هذا المرض ، سيلاً إلى الاستئثار بحب خاص من أمي ، ويقلق خاص من أبي
وقد عرّض هذا كله كبري الولد الوحيد بين أحوال البيت

ولما كانت معاناتي حقيقية ، وآلامي إبان المرض شديدة ، فقد كان العطف على
مشروعاً ، ولم يكن هناك من يشكك في كونه حقاً لي ، ولكني لا أكاد أصبح قديمي من
هبة الصحة حتى أنطلق كأشد ما يكون الطفل الصحيح حركة ، انطلاقاً من البيت
وتصفاً في اللعب . .

فلست إذن ممن يتخلون من المرض سيلاً إلى استيفاء العطف بعد الخروج من
أسره ، ولم يكن كل آلامي من استئثار اللوزتين ، وإن كانتا هما مصدر المرض
الرئيسي ، فقد أصبت في بيت ملياً دهاً بالدخريا وكانت وقتذاك مرضاً ممتناً ، وكان
علاجها حيراً ، إذ تأخر تشخيصها ، وقد بدا ضعفي فضحني خالي حسين إلى
عيادة طبيب على ماصية شارع الشيخ ريحان ، معروف في الحمال أنها الدخنيريا ،
فأعطاني المصل المصل ، وبعثت بعد أن كنت من الموت قاب قوسين أو أدنى ، وقد
يقى حالتي من علة إلى آخر العمر بأنه أنقذني من الموت وأنه لولاها لما نفع في رد الموت
عني طب ولا طبيب . وبومها ذهبت أختي أمينة إلى بيت جليق ، لتصبح بأهل
صوتها أو حلقى قد سداً ، وأني موشك أن أموت ، فزرع الجميع ، وأسرعوا إلى ،
بعد عودتي من عيادة الطبيب ، وعلى وجوههم وجع الحزن المكتوم ، وفي نظراتهم
لرائعة دعله من حزن حول العاقبة ، إن لم تستفتح أبواب السهارة .

ويبدو لي أن لم أقع بالأمراض المألوفة ، فأردت أن أضيف إليها الحوادث نصي
دانت يوم سمعت صوت ياتع (الدندومة كيملك) هويت من أهل السلم إلى البسطة

نتالية ، وكانت هذه عاقبة في الثرول على السلم ، وكنت دائماً موفياً في هذا الفجر ، ولكن في ذلك اليوم احتل توازي فهويت على لم رأسى ، فحملت وأنا غائب من صوابى ولم يسجم عن هذه السقطة ارتجاج في المح ، واقتصر الأمر على الترامى فرائشى حبيب يومى ، ولست أنسى في الليلة الأولى وأنا بين الإقامة والدعول ، أن دخل إلى حجرة نومي خطيب أحنى الكبيرة ، وكان رجلاً جليداً ، طويل القامة لا يعرف المزاح ، وقد جلس إلى جانبي دقائق ، وتحدث مع أبى حليثاً عرفت منه أنه يشارك العائلة قلقها . وقد بقيت هذه الليلة وما جرى فيها عالفاً في ذهني ، كأنه مشهد في مسرحية . يتكون من سكون الليل وطفل مسجى على الفراش لا ينتظر ، والوالد بمقد الحزن لسانه ، ورجلى طويل يدخل على أطراف أصابعه ولا يتكلم إلا قليلاً .

وأصبت بالحمى (الفرغرية) ، وهى حى لا تعرف كثيراً في مصر ، ولذلك كان الأطباء يقولون لأهل ، إننى لا أكفى بالأمراض الحمسية المعروفة ، فأضيف إلى سجل الأمراض النادرة الوقوع ، ثم أصبت بحمى البراتيفويد ، ثم التيفود ، وقد سمعت وقتها أن من يصاب بواحدة منها لا يصاب بالثانية ، ولقد بلغ من كثرة تردد الأطباء هل يتناهم أصبحوا يعرفون أنشوا بالشكل والاسم ، ثم يعرفون (عبد الله) ، و (أم حسين السودانية) و (أم جليلة) التى حلت محلها .

ولذلك كانت صدمة أبى عظيمة حينما أصبت بأحد أمراض الكثرة ، فأنصل تليفونياً بالطبيب الذى كان يتولى علاجى في كل مرة بصفة أسبوعية ، وإن كان بعض كبار الأطباء يساعدونه بين الحين والحين عندما تشتد الحالة أو تغمض ، في تلك المرة نظاهر الطبيب حينما أخبره الذى باسمه أنه لا يذكر هذا الاسم ، فالح عليه قاللاً كيف لا تعرفى يادكتور ، وأنت لا ينفضى شهر بدون أن تشرقنا بزيارة ؟ لكان جواب الطبيب : ما علينا ! المهم هل تعرف كم أجر العيادة ؟ إنه أصبح الآن حينها ونصف جنيه أى أنه زاد نصف جنيه ، فعمل الدم في رأس أبى ، وكادت عصيته المكتومة أن تخرجه من هدوئه ، فنهى المكالمة وعلقى بالسماحة ، ولكن حروبه الشديدة حلى ، حله على ضبط نفسه ، فقال وهو يعانى أشد المعاناة من هذا الإسفاف تمال يادكتور وغداً ما نشاء ! والعجيب أن هذا الطبيب نفسه حينما جاء إلينا ، دُيتم .

ادعائه الجديد أنه لا يذكر أبى ، ولا يذكرى ، إذ راح بداعب هذا ، ويمزح تلك ،
 ويحدثنى عن سابق أمراضى بما يدل على علمه الكامل بكل ما يتصل بى . ولما علم
 أهل البيت بهذا التصرف المرفول من الطبيب الشهير ، طالب أكثرهم بالأى يسمح له
 بأن يضع قلعه فى دارنا ، والأعمال بيد الله .

والعجيب فى أمر هذا الطبيب أنه كان من أصحاب الأسماء الدائمة فى ميدان
 الحلمة الاجتماعية ، وأنه كان يكتب فى الصحف ، وقد حصل على إجازة الخفوق
 من فرنسا ، وحق له أن يشغل بللمحكمة ، وقد أبت الأيما إلا أن تجمعنى بهذا
 الطبيب الشهير ، فى مناسبة ، فاضت فيها نضى شفقة عليه ، وأسى له ، فقد طلب
 أحد أصحابى أن أكتب خطاباً إلى صاحب الدار الذى يسكن فيها ، بخلاف بينهما ،
 فذهبت إذ رأيت أن صاحب هذه الدار ، هو طبيبى السابق صاحب الشهرة
 القديمة ، رزقت دهشنى حينما رأيته بنفسه فى مكتبى ، بمجرد تسلمه خطابى ،
 فاندركت للرهلة الأولى ، أن الزمن أدار له ظهره ، وأن حالته أصبحت رقيقة ،
 فاستمعت له فى صبر وسعة صدر ، وحولت ما استطعت أن أوفق بينه وبين
 خصمه ، وحديثه من دينه فى عتى ، وأن حنة منه ضد الدخترى لحد أنقلت حيان ،
 وصرتى من الرجل أن هذه الذكريات لم تجزه ، فكأنه نسى الماضى تماماً ، وقنع
 بالحاضر ، فلم أترسل فى حديث بئر الذكريات ، وأحسنت توديعه ، وقللى أنا
 موجوع حزين .



علمت من أخوانى أن مليها ديان ، بطلة مسرح سلامة حجازى ، وصاحبة
 منزلها ، كانت تزورنا من حين إلى آخر ، لتطمش على منزلها ، ولتحصل أحياناً
 الإيجار المستحق لها . وحدثونى أنها فى كل مرة كانت تفضل علينا بالزيارة فى
 عربتها الخاصة التى يجرها جوالدان ، كان أهل الحى ، يجتمعون حول بيتنا عند نزولها
 من العربة ، وصعودها إليها . وأخفى أنى لا أذكر شيئاً من هذه الزيارات ، ولا كيف
 كان قوام هذه المثلة الدائمة الصيت ، ولا قصة واحدة من قصص وجهها ، ولكن
 لغريب أنى أتصور أنها كانت سمينة وبيضاء ، وأنها كانت طويلة ، وأنها كانت ذات

أذرع بضة ملفوفة ، ومازلت إلى اليوم لا أذكر اسم ملياديان حتى تمدد على أمانى
صورة ذراع واحدة بيضاء لسيدة طويلة ضخمة ، تجلس على مقعد ، ووجهها متجه
إلى غير الموصح الذى أجلس أنا فيه ، لذا لا يبقى فى ذاكرتى من ملياديان إلا هذا
الغالب ؟ وقد يكون جائناً رافقاً ! فقد لا تكون طويلة ولا سمينة ولا بيضاء ، ولكن
هذه إحدى عجائب العقل الإنسانى وعبث الذاكرة الإنسانية

ويقولون لى إن ملياديان طلبت عليه سجائر كيرازى ، وإنى تبرعت بشرائها من
بائع سجائر ، مازلت إلى الآن أذكر وضعه فى شارع زين العابدين الذى يتقاطع مع
شارع سلامة .

ولما كبرت عرفت أن علب سجائر كيرازى ، تحمل صورة مسيح ، تلحن ألامه
امرأة جميلة بضة ، سيجارة من سجائر كيرازى ، وتنتعش للملحاح فى وجه المسح ،
الذى يستنشق هذا الدخان فى لغة ظاهرة ، تملن من عصفها عيناه للمنشطات من
فرط المتعة .

ولقد قلت فى أكثر من حديث صحى بعد ذلك إننى يومها عدت بعلة
السجائر ، وأنا سعيد بالنظر إلى الصورة التى تحملها ، وإنه حيل إلى أن هذه صورة
مليا ، وإنى بتقديمى العلة إليها أحسها تحية فى طياتها هزل مكتوم . ولست أدري لماذا
قلت هذا كله ولماذا كررته . مع أن شيئاً منه لم يحدث ، أو على الأقل لست أذكر شيئاً
مطلقاً إلا أننى ذهبت لشراء علة سجائر من بائع سجائر أذكر موضع دكانه ثمناً ،
وأذكر نفسى وانصاعاً فى الشارع ، ماذا يبنى بالنفوذ نحو صاحب المحل أو عامله بدون
أن تظهر على لوحة ذاكرتى صورة هذا الرجل ، أياً كان هو

وشبه هذا كثيراً ما ذاع فى وسط العائلة ، من أنى لردت أن أحرق منزل جارنا
الذى يفصلنا عنه شارع ، فأوقدت النار فى منزلنا نحن ، لكى تنتقل النار من دارنا
إلى داره . وقد رددت هذه الأكثورية ، وضحك لها أهلى وأصدقائهم ، وهى
لا أساس لها من الصحة ولا نصيب . وحقيقة الأمر فيها أنى كنت أسرق شارع
السد البراق أمام دكان يبيع أدوات منزلية ، وكان من هذه الأدوات موقد للفحم
(كانون) وكان (كانوناً) صغيراً هو إلى اللعبة أقرب ، وقد بقيت شهوراً أو سنتين
أرجو أسمى ، كلما مررت أمام هذا الدكان ، أن تشتري هذا الكانون . وكانت ترفض

بحرم وشدة قائلة : ماذا تعمل به ؟ ولكن منظر الموقد كان مثيراً لخيالي إلى حد أنني لم أتمكن قط على كبح رغبتي في الحصول عليه ، والغريب أن هذا الموقد لم يترك مكانه ، فلم يَنتَج لأحد ، ولم ينخفض وراء سلعة من السلع الكثيرة التي كانت تملأ الحائث وفي ذات يوم صعدت أسمى لهذا الرجل اللصوح ، واشترت لي الموقد ، وهدمت إلى البيت . وكأن أحمل تحفة من أجل لمحفة الدنيا ، ومضيت مدة أتأمله وأعرصه على الصيوف والأصدقاء ، فيعجبون به ، لأنه كان حقيقة شيئاً لطيفاً ، ولكنني حوت بعد أن هدأت حرارة رغبة الاستحواذ والتملك ، ماذا أفعل به ؟ إن السبيل الوحيد للاستمتاع بهذا الموقد ، أن أضع فيه الفحم ، وأن أشعله ، ولو وجدت من يعاوبني لكان من الممكن للمعب به على هذا المنوال ، بدون أن يصيب الناس ضرر ، ولكن لم أجد من أحد عوناً ، وفي ذات أصيل كنت في سطح منزلي شاعراً بالملل . غير واعد ما لزجني به الوقت الفارغ ، فبدأت في فجأة أن أحاول إشعال هذا الموقد نسلياً لا يمس بها ، عجمعت أوراهاً وأنتشاباً صغيرة من هنا وهناك ، وأشعلت نقاب كبريت ، فلهبت النار ، فجزعت وجريت . والظاهر أن واحداً أو واحدة من الجيران كان على سطح مترهم . فلو أن النار فأنخر أهل ، فأسرعت أخفي الكبيرة إلى موضع النار ، وهدمت إناء أو إناءين من الماء ، أطفأت بها النار . وبسحوا حتى ، وقبضوا على ، وعند السؤال الأول رأيتني أقول أنني أردت أن أحاقب فلاناً من أبناء الجيران لأنه هاكسي . وصرف حتى هذا الاعتذار السخيف الغضب ، وانقلب الموقف من محاكمة وتهديد بالمعاقبة إلى ضحك واستعادة هذا الجواب . ونجوت من هذاب أليم ، واستمرت هذه الحكاية ، محلاً للإعجاب والرضا . وهي من أكافيز التاريخ .



وفي بيت ملياحيان بدأ أول اتصال بيني وبين المرأة والأدب . فقد كنت أشاهد في ميدان العتبة المحضراء ، حينما يصحني أحد أقراني في رحلة عمل أو نزعة في الترام ، في أيدي باعة الصحف ، مجلة لم تكن على شاكلة سواها من المجلات التي كنت أراها في أيدي أقراني ، أو أيدي الباعة حول منزلنا . فطلبت من والذي أن يشترى لي نسخة منها ، فأخذ والذي يستفسر مني عما تكون هذه المجلة ، وبعد طوال السؤال والتعثر في الجواب هزّ والذي رأسه وقال : « آه . هزتها . . اللطائف

المصورة : ولم أعترضه لأنى لم أكن أعرف اسم هذه المجلة ، فقد كانت صلتى بها من الظاهر ، وحضر أبى ذات يوم ومعه المجلة المنتظرة ، قطفناها فى سرعة ، وبسطتها بين يدى ، وكما كانت حية أمل إذ ظهر لى أنها ليست صالتي المنشودة ، ظهر لى أنها « اللطائف المصورة » ، صحيح أن بعض صفحاتها كانت مرينة بالصور ولكن أى صور ؟ صور أشخاص ثابتة خالية من الحركة ، كأنهم حيحاً رعوس قتل تحديق لى وجه الناظر إليها ، نظرة جامدة ، ولكن لم يكن هناك بد من أن أنظر إلى هذه الصور ، وإن أفرا بعض ما فى المجلة نفسها . وكما كان ضرورى إذ رأيت أن الطبيب الذى يعالجنى والذى أهرقه جيداً ، تشمل صورته مكثاً ضحياً فى إحدى الصفحات ، وفهمت من الكلام المكتوب تحت الصورة وحولها أنه يدور حول ملجأ الحرية الذى كان يهدو إليه الطبيب على أنه مؤسسة من المؤسسات التى تستلزمها الوطنية . ولم أدرك يومها أن هذا مصداق لعقيدة غمكتنى منذ مطلع شبلى ، وبقيت تلازمى حتى كتابة هذه السطور . وقوام هذه العقيدة أن النهضة لا تأل « بالقطامى » وإنما تأل جملة ، ولا بد لمجبتها أن يشمل الأمة شعور سائد بالمعصب ، أو شعور سائد بالحب ، يوقظ ملكاتها ، ويحرك الساكن من فضائلها ، فإذا الحيلة تدب فى كل فرع من فروع النشاط : الطلبة والنساء والعمال والصحافة والأدب والصح والافتصاد ، كل شىء يتغير ، وكل إنسان يتحرك ، وكل مشروع لديهم يعال بالتحقق وهكذا .

وعلى الرغم من أن عدد اللطائف المصورة لم يرضى تماماً فإنه رطبى بالصحافة والأشياء المطبوعة ، التى استولى هواها على قلبى ، حتى باتت رائحة الكتب أحب الروائح إلى أنسى ، وليس الورق المصقول أجمل ما تجرى عليه يدى ، ولست أنسى يوم أن اشتريت كتاب مبدىء القراءة الرشيدة من مصر وفى الحاصل ، من مكتبة بميدان السيدة زينب ، وكان طبعه أنيقاً ، وورقه مصقولاً ، وصوره جميلة ، وعدت به إلى البيت ، لا أحطوخطوة حتى أذنيه من أنفى ، وأجلبب نفساً صمقاً ، كأى أود أن أستشقى الكتاب كله ، وبقيت هذه حائق طوال سنى الطفولة ، هى اليوم الذى توزع علينا الكتب المدرسية كنت أحتضن الكتب ، وأذهب بها إلى فراشى ، وأروح أنامل فيها ، وأقبلها ، ثم أضم راحتها ، كأنها أجمل الورود ولست أدرى لماذا لم أهر عليها أنفلها ؟

وبقيت - بعد أن قرأت اللطائف المصورة - أنتظر اللحظة التي سأعز فيها على المجلة التي رأيته في العتبة الخصر من بعيد ، والتي بقرت جاهلا اسمها ، حتى رأيته وجهاً لوجه في يد أحد الساع ، فصرخت ، كأن أم هثرت على وليدها الصال ، وروغ من كان معي وسأل : ماذا حدث ؟ فقلت : الحقيقة ! لم يههم ، ولم أنتظر لأشرح له ، فقد مددت يدي نحو مجلة (الحقيقة) في يد البائع ، وأحدثها ، ورحت أقلب صفحاتها ، غير ملتفت إليه ، ولا إلى من كان معي وعرفت وقتها كم كان الفرق شاسعاً بين هذه المجلة والمجلات المصرية . وقد كان إدراكي لهذا الفرق شهادة لي بتكبري في معرفة حقائق الطاعة وما يتصل بها ، فقد كانت « الحقيقة » مجلة دهائية تصدرها إدارة الدعاية البريطانية ، لتباليغ في انتصارات بريطانيا وحملاتها ، ولتألمع في هزائم ألمانيا وحلفائها ، ولتثير مظاهر العدل والخصاصة البريطانية ، وآيات الظلم والاستبداد الألماني . وكانت مطبوعة خارج مصر بطريقة (الروتوغرافور) التي لم تعرفه صحافتنا إلا بعد ذلك بسنين ، وقد تناولها من كان معي في ذلك اليوم ، وقلبها ، وهو يبر رأسه ويقول : « ولاد كلب ! الملاعين !

باسلام ، ولم أنهم يومها من هم أولاد الكلب ، ومن هم الملاعين ، بل كنت أنحرق إلى حردة المجلة إلى يدي وعادت إلى فهيت هل راتحة الخبر المستعمل في طباعة الروتوغرافور ، فأسكرى ، ثم تأملت فرأيت صوراً جميلة غاية الجمال ، ولا أنسى كيف قصيت الدقائق الطويلة ، وأنا أتأمل صورة رجل تقوى البدن ، كشف عن ظهره ، وهوى رجل آخر بسوط ذي شعب على هذا الظهر العاري كانت الصورة أنعاجة وناطقة ، حتى حيل إلى أن من واجبي أن أرفع يدي لأمع السوط من أن يقع من الظهر . . . وعدت إلى البيت فأتت المجلة فيه ضجة ، فقد تحاطمها كل من كان فيه ، وسألوا : « ولماذا لا نطبع مجلاتنا بهذه الطريقة ؟ » وسمعت تعليقاً من هنا ،

وتعليقاً من هناك ، كانت كلها بنور ثقافتى السياسية ، وبعد يومين جاء خالي المهندس ورأت مكبا على النظر في الصور ، ملتوذاً لللب بها ، فمط فثبته على عاتقه اشمزازاً وقال : « تعجبك مجلة الإنجليز الأعداء » وصدمني أن تكون هذه المجلة الجميلة عملاً كريها ، وإن كانت تعليقات أهل بيتي هياتنى لأسمع هذا التصريح الحاسم . وأمسك خالي بالمجلة ، وأشار إلى الصورة التي أعجبني وقال : هذه الصورة مثلاً ، ماذا يريدون منها ؟ يريدون أن يقولوا إن الألمان يجلبون أهل

أفريقيا . . وهم ألا يجلدوننا نحن ؟ . والحق أنني كنت مستعداً أن أسمع الريد من هذه التعليقات غير المفهومة ، وسرى أن حالي احترامى ، فقال لي كلاماً بوجه عذبة إلى من هم أكبر منى سنًا . ولكنى لم أكن مستعداً أن أغير رأيى في هذه المجلة الجميلة الأنيقة . وبقيت أباهى بها الأطفال الذين لا يعرفون شيئاً عن المجلات .

ولاحظت غمّوحى للكتب والصحف ، ففى ذات صباح كنت واقفاً على ناصية شارع سلامة ، عند تقاطعه بشارع زين العابدين ، وكان بائع الصحف يقف هناك يبيع الصحف الصباحية ، فولى علينا شاب أزهرى ، جميل الطلعة ، بلبس جبة وقططاً حريريين أنيقين ، وأخرج من جيبه خمسة فروش ، واشترى كل الصحف النهارية : الأهرام والسياسة وولدى التل . وسلم البائع له الجرائد الثلاث ، وهى بعد مصفولة ، وشعرت بحسد شديد ، إذ لم يكن فى وسعى أن أشتري هذه الجرائد الثلاث ، لأنى لم أكن أحرف القراءة جيداً بعد . وبقيت أتأمل الشاب الأزهرى وهو يحمل الصحف حتى انخضى ومضت سنون طويلة حتى عرفت أنه الشيخ عبد الرحمن الجندبى ، من شبان ثورة ١٩١٩ .

وفى بيت مليا دهيل عرفت لأول ما عرفت مصطلحات الحياة السياسية التى أذاعتها ثورة سنة ١٩١٩ وكان أول اتصالى بأحداث ثورة ١٩١٩ ، فى ميدان السبنة زينب ، فقد كنت واقفاً هناك أسلم بالعمة فاكهة . وفى الحال أحسست كأن كل ما فى الميدان قد صمت ، حتى الترام الذى يبعث ضجيجاً متصلاً . ونميل إلى وكأنهم أشخاص فى صورة السينما ، التى تقف فيها الحركة فجأة ، فبقى كل إنسان فى موضعه لا يكمل حركته . من مد قدمه تبقى قدمه ممدودة . ومن رفع يده تبقى يده مرفوعة . ومن انحنى ليلتقط شيئاً يبقى منحنيّاً لا يرفع رأسه ، ومن وضع يده ليخرج منه شيئاً لا يرفعه فى جيبه ، وهكذا وثقت حوائى . بحركة خمرية لآتين ما هنالك . فرأيت منظرًا جد له الدم فى عروقى . فقد رأيت سيارة ضخمة تكلس فيها عدد من الجنود الإنجليز الذين لبسوا الخوذات الحديدية فوق رموسهم ، وحلوا فى أيديهم البنادق ، وتبادل الجمهور المنتشر والمتفرق فى الميدان معهم نظرات صلدة ، ولكنها كانت تفيض بالترجس والتوقع والكراهية ، تصورت لحظتها أن الجمهور هو الذى كان خائفاً ، ولكن حينما تقدم إلى العمد عرفت أن لا يسى الخوذات الحديدية ، وحمل البنادق الإنجليزية ، كانوا أشد خوفاً ، وأن من يطلب منه أن يخيف بلوى

الطلب وهو حائف . صور لنا هذه المشاعر كثيرون من الكتاب والقصاصين أمثال تولستوى في راقته « الحرب والسلام » وبيرنارد شو في مسرحية « الإنسان وال سلاح » . وقطعت البائعة التي كنت واقفاً أمامها الصمت الرهيب بقولها : « الله يكفيكم شرهم ! » ثم زال الجمود عن الناس كقطعة كل البشر ، لا شيء عندهم يلدوم ، وما يجب الإنسان خالداً يزول سريعاً ، فقد ذهب الروح من الناس ، وتحركوا ، وتكلموا ، وعادوا إلى ما كانوا فيه من بيع وشراء ، وشجار وخصام ، بل عاد الذين كانوا يلعبون الطاولة في المقاهي إلى اللعب . وعجل إلى أنني بدأت أسمع من هنا وهناك عبارات غير عالية ولكن مسموعة مثل : « ولاد الكلب .. شوية تشيلهم .. بإسلام ! شياطين ولاد شياطين » .

وجدت إلى بقي متحمساً ، وعجل إلى أنني لود أن أخطب ، ولكن لم أعرف ماذا أقول ، فقد كان علمي بالسياسة ضئيلاً .

ولكني رأيت بعد ذلك في ميدان السيدة زينب متطراً تماماً لهذا المنظر ، ولذلك ضابقي ، ولم أجد ما أفسره به . فقد مررت يوماً بقسم السيدة ، فرأيت جمعاً من النساء قد احتشدت تحت إحدى نوافذ قسم السيدة زينب المطل على شارع زين العابدين ، وسألت ما الحرج ؟ فعلمت أن أحد جنود الجيش الأبيض الذين وضعوا في قسم السيدة زينب لمواجهة الطوازيه ، قد تعلم بعض الألفاظ المصرية ثم بعض الأغان الشعبية ، بل الأغاني الوطنية ، مثل : « يا صير عيني وأنا بلدي أروح بلدي .. بلدي يا بلدي والسلطة خلت ولدي » . وأنه اعتاد أن يستعير من أحد الواقفين طربوشه ، فيضعه على رأسه ، ويأخذ يردد هذه المقاطع راقصاً ، مقلداً حركات المضمير المصريين ، والجمهور يرد عليه ، ويعلمه بعض العبارات المصرية الجديدة ، وهو يعلمهم بعض الألفاظ الإنجليزية ، والججميع سعداء ولاشك أن الإنجليز كانوا راضين عن هذا التودد الذي صافته الأيام سوقاً . وكان أحد الشبان الذين يعملون عندنا ينحس إلى هذه التلوة ، ويعود محملاً بالعلم من التلميقات والفكاهات ، والنواذر .

وقد كان أول مصطلحات الثورة مصالحة لأنني هو لفظ « الاحتصاب » ، للم تكن كلمة « الإصراب » قد عرفت بعد وشاعت ، وأول معتصب عرفته هو خالي ،

فقد كان طالباً يدرسه المحروق السلطانية ، وكانت هذه المدرسة هي ومدرسة الطب أسبق المدارس العليا إلى الاعتصام . ولم أهم يومها معنى الكلمة ، إلا أن رأيت حالي قد راراً في الصباح على غير عادته ، وكان في ملابس المثل ، فسألت عن سر انقطاعه عن المدرسة فقالوا : فيه اعتصام ! وما لست الأحداث أن توالى تتردى اتصالاً بحدوث ثورة ١٩١٩ ، فقد طردت أختي من المدرسة ، وجادت إلى البيت وهي في ثورة من الحماسة والشوة ، ثم راحت تقص على أمي وأختي شيئاً سمعته وأن لا أكاد أفهم منه حرفاً ، فقد قالت إنها قادت المظاهرة ، وحطبت في التلميذات ، وحرهن من المدرسة هاتفت ، فكانت هذه الرواية جرعة صحيحة من قاموس الثورة المظاهرة ! وهاتفت ! وخطت ! من لي بشرح هذه الألفاظ الجديدة التي بعثت في يوم وليلة ، وكأنها عفاريت خرجت من قمقم ؟!

وجاءت ثالثة الأثافي في رواية يحكيها أبي عن رحلة إلى مقر عمله في مدينة الوسطى ، بوصفه مهندس رى هذا المركز ، فقد سمعت منه أنه لم يسافر إليها في القطار ، وإنما في مركب شراعى ، لأن القطارات توقفت والسكك الحديدية خطوطها قطعت .

لماذا توقفت القطارات ؟ ولماذا قطعت السكك الحديدية ؟ لم أجد من يستطيع أن يشرح لي هذه الالغاز شرحاً يتناسب مع معنى ، فقد كنت لم أتم بعد الثامنة ولم يكن لبلادي عهد بالثورات والمظاهرات وتقطيع السكك الحديدية ، واعتصاب التلاميذ والعمال . ثم رأيت بنمسي مظاهر هذا الحدث الصخم المائل ، فقد دعت إلى ميدان السيدة ربيب هادئاً لا جلبة فيه ، فأدبرت نظري في سواحي هذا الميدان المائج بالحركة الممتلئ بالصحة ، فلم أجد أثراً للثوار صاحب الصبب الأوفى في الصبب . وفي ميدان السيدة كانت تلتقي خطوط عديدة ، ثم لم أجد أثراً لعربات سوارس ، ولا لعربات الحنطور ، ولم نجد إلا موقف الحميز ، ومع ذلك حلا من حميره ، إذ امتلأ من جبا الساس عن وسائل المواصلات الأخرى التي اختفت .

ولم يمض وقت طويل حتى اتصلت بأحداث سنة ١٩١٩ اتصالاً مباشراً ، فقد علمت من والدي أننا غداً داهسون إلى هيئة طب الأسنان الأرمي مسيرو

«دمرجيان» ، الذى تقع العمارة التى احتار فيها عيادته أمام فندق شبرد بشارع كامل الذى أصبح فيما بعد شارع إبراهيم باشا ، ثم أصبح الآن شارع الجمهورية وفى اليوم التالى حضرت عرفة حنطور أمام باب بيتنا ، ونزلنا جميعاً أسى وأخوالى ، وفى يد بعضنا علم مصرى أحمر ذو هلال وسجوم ثلاثة ، ومضينا إلى شارع كامل بشق طريقاً وسط كتل بشرية متراصة ، ثلأ الطرق ، وتمتد المتأفد ، وقد شمل الجميع حملة لا تعرف مصدرها ولا غايتها ، متاعف ، وصيحت ، وأيد تلوح بالأعلام وعرق يتمعد من الجباه ، وتدافع وتراجع ، وأناس يتأدلون التهانى وزغاريد تتعالى ، ونوافذ امتلات برعوس تطل إلى الشوارع ، ورجال شرطة يسىرون جماعت ، ويسىرون فرادى ، وفرسان يمتطون صهوات الخيل فى رشافة آتلفة ، ووصلنا بشق الأنفس إلى العمارة التى كانت فى تلك الأيام قدمة ، ومع ذلك بقيت قائمة إلى اليوم بعد انقضاء أكثر من نصف قرن ، وأردنا أن نصعد سلام العمارة فإذا بابها المام مغلق ، فراحت الأبدى تطرقه وتدفقه ، وارتفعت أصواتنا بصياح الاحتجاج ، ففتح لنا البواب الباب بعد لآى ، ثم صعدنا سراحاً إلى الدور الثانى أو الثالث حيث شقة الطبيب الأرمى ، وفوجنا عند وصولنا إليها ، أن بابها مغلق كذلك ، وهادونا الطرق والصياح ، فلم يرد علينا أحد فزادنا الطرق وهلا الصياح ، ففتح الطبيب بالباب موارباً ، وقفمه خلف الباب خشية الأكساح ، وصرخت أسى فى وجهه ، وذكرته بأنها أرسلت إليه العلم المعلق على شرفة منزله ، فصرح بلجوره : « البيت سيق ، والشرفة ستأخذ من فيها ويهوى إلى الشارع » ، فدخلنا الباب دفعاً وهو يسب ويلعن ، ووصلنا إلى موقع فى الشرفة لمحات قامق القصيرة دون أن أرى شيئاً ، ولكن مع الصبر والمتابرة ، تسمرت إلى موقع فى الشرفة بين سيدتين ونظرت إلى الطريق ، فرأيت يوم الحشر : ألوفاً فوق ألوف حل الصفيق ورءوساً إلى حيث يمتد النظر فى النوافذ ، وفى الشرفات وحل فروع الأشجار ، وفوق أحملة النور والتليفون ، وفوق ظهور العربات ، وأعلام حمراء هى أعلام مصر وتذكلك ، تررب فى كل مكان ، ويلاهبها الهواء ، فبيث منظرها فى النفوس حماسة وبيعة وسروراً . وبينما هكذا لآرى إلا بشراً حتى بدأ من آخر الطريق موكب متقلعه سيارة عرها فيها بعد أنها سيارة الشاب النعى حل كامل فهمى ، الذى قتله فيها بعد روجته الإنجليزية مرجريت ، ثم برأ الفضلاء البريطانى ساحتها . فقد وضع سيارته الضخمة فى حطمة سعد زهلول المائل إلى بلاعه بعد أن قضى فى المنفى بمالطة أقل من

شهر ، ثم ستين قصصاً بين باريس ولندن يفاوض الإنجليز حتى أسفرت المحادثات عن مشروع ملر . ولم أر إلا شيئاً طويلاً شاب كل رأسه ، وهو يجيب الناس ، يميناً ويساراً ، بحركة رتيبة وثيلة من ذراعيه ، ولكن هذا الذي رأيته وراه كل من اصطفت يومذاك في الشوارع لو احتشد في المشرقات والواظف ، كان كافياً ليدخل إلى كل قلب السعادة والسرور ، بل الفخر والزهو .

والحق أن الشعوب تسكرها سعادة لا ميسل إلى وصفها حينما تجتمع وتترامس ، ونحس أنها أصبحت شخصاً واحداً ، ولا يحرم يوم هذا الاجتماع أن نسال لماذا حققت هذا الاجتماع ؟ فاجتماعها ووحدة صفها والتفقاها في مشاعر واحدة ، هو نفسه غاية ، إذ ما أصعب أن تجتمع الشعوب هكذا وما أقل اللحظات التي تبلغ فيها بشرة الأمم باجتماعها المبلغ الذي وصل إليه الشعب المصري في يوم عودة سعد من أوروبا ، بعد ستين من الغياب . .

لم يال أحد نفسه يومها ماذا فعل سعد في هاتين الستين ؟ ولماذا ترك بلاده وأقام في عواصم أوروبا ندون أن يتولى بنفسه قيادة الحركة الوطنية التي اجتمعت خلال غيابه ، وتفوقت حل نفسها خصوصاً في شهر أبريل سنة ١٩١٩ ، هذا الشهر الدامي المجيد ؟

بل لقد سبت الأمة في هذا اللقاء التاريخي التادر تاريخ سعد كله ، وكيف عاش يؤس بالتعاون مع الاحتلال البريطاني ويدافع عنه ، ويبدل صداقته في سخاء وبلا تحفظ لعميد الاحتلال الماكر الخبيث : كرومر ، وأنه احتفل بتوديعه حينها سقط من كرسي سلطانه ، بعد حملات مصطفى كامل عليه وعلى دولته وعلى سلطات الاحتلال ، في أعقاب فاجعة دمشق الرهيبة .

والحق أن هذا الاجتماع ، وهذا الترامس ، وهذه الفرحة المشتركة ، وهذا النظام في الوقوف والتحية ، وهذا الانبعاث التلقائي إلى الشوارع ، مع الأعمال والهناف الموحد ، ومع الفرحة المشتركة ، والإحساس بوجود مصر ، وعظمتها كل أولئك شهادة عالية لمصر ولشعبها ولأولادها .

وبانت مصر ليلتها قريرة المعين ، مستريحة الخاطر ، سعيدة ، تؤسها أحلام جميلة في مستقبل سعيد .

ولقد شذرت بالطريقة والأسلوب نفسها في يوم آخر ، هو يوم إطلاق سراح المعتقلين المصريين من مملكة ، في ٨ أبريل سنة ١٩١٩ فقد سمع المصريون أن سعداً وأصحابه الثلاثة ، محمد محمود وإسماعيل صدقي وحمد الناسل ، قد أطلق سراحهم من مناهم في مملكة ، وأنهم عائلون إلى مصر ، ومعهم الاستقلال فخرجوا تلوفاً ، ولكن لا يبدرون إلى أين ؟ رجعوا الأهل ، ودكوا العربات ، وملأوا الشوارع ، ولكن لأنه لم يكن يومذاك شخص يستقبلونه أو مكان يقصدهه أهولتهم رابطة ووحدة يوم ٨ أبريل ١٩٢١ ، مع ذلك كانوا في نشوة وسرور ، بيد أن سرورهم لم يطل ، فإن زعماءهم لم يعودوا يومها ، وبدلاً من أن يروا هؤلاء الرهماء سمعوا رصاصة يطلق وشهداء يصرخون فساد الجماهير فرع وحزن ، وغية أهل تنشر أجنحتها الكتيبة المقاتلة . .

عاد الناس وأعلامهم مسكة ، ونفوسهم كسيرة ، ولكن رغبتهم في القتال أعظم ، وكراهتهم للاحتلال أكثر . .

ومن ذكرها في حي السيدة زينب عن ثورة سنة ١٩١٩ ، حضوري اجتماعاً سياسياً في مسجد السيدة زينب ، سمعت فيه اثنين ممن كنت أعرف أسماهم ، وآخرين لم أكن أعرف أسماهم حين سمعتهم ، وهايت أسماهم من ذاكرتي ، بعد أن سمعتها يومذاك . أول الاثنين كان محمداً زميلاً لحالي في مدرسة الحقوق ، اسمه محمد أمين عبده ، وكان خالاً وأخوئاً ، يصحكون من طريقته الخطابية ، لأنها تميل إلى المبالغة في الحركات ، حتى قبل إنه كان يشد شعر رأسه الطويل الناعم ، من فرط الحماسة ، ويثقل الغضب والحزن والسرور بحركات وجهه وتلويحات يديه بل ذراعيه ، في حين كان الثاني حل النقض منه : هفواً وبساطة ونرسلا في القول ، واتصالاً في المعنى ، وكان أيضاً من المحامين وكان أبوه الشيخ محمد حر العرب محامياً شرعياً كبيراً ، أما ابنة أمين فكان محامياً أهلياً ، وكان جديراً بأن يصل إلى مرتبة الزعامة ، فيكون نداءً لمعاطف بركات وسينوت حنا وأضرابها الذين فقوا مع سعد إلى جزيرة سيحل ، لولا أنه نفذ إنذار اللسلى الملتوب السامى الذى وجهه إلى زعماء الوفد ، في سنة ١٩٢١ ، طالباً منهم فيه أن يتركوا العاصمة ، وفيهوا في قراهم وقد شاع في تلك الأيام اسم لأمين عز العرب ، حل لسان حصونه إد أسموه « عز الحرب » وكم تتردد في الثورات من أسماهم ثم لا تلبث أن تختفى ، ولكن الذى أعجب

نه كثيراً أننى حصرت هذا الاجتماع السياسى ، وجلست هادئاً بين الذين يكبرونى فى السن ، وأنا الذى لا أطيق القاء فى مكان دقائق متصلة ، والأعجب من ذلك أننى سميت إلى هذا الاجتماع وفرحت بالنجاح فى الوصول إلى المسجد ، فى حين أنى لم أكن أعهم مما قيل فى هذا الاجتماع حرفاً واحداً ، فقد كنت فى حدود الثامنة لم أكملها ، أو أكملتها وتجاوزتها بشهور قليلة .

ولم يكن الفصول وحده كافياً لتعبير سمعى إلى المسجد ودخولى فيه ، إلا أن يكون الاجتماع قد عقد بعد صلاة الجمعة ، التى كنت أحضرها بين الحين والحين ، فاسمع فى المسجد قراءة الشيخ ندا الذى كان من شخصيات حياً ، إذ كان قارئاً شهيراً وكنت أراه يخرج من داره قريباً من منزلنا ، وقوراً صموتا ولم أطراف جيت وقطفانه ، كأنما يحشى أن يصيبهما من تراب الأرض سوء ، وقد كان أبه رئيساً لفرقة كرة القدم فى مدرستنا ، فكان صورة من أبيه ، أناقة فى اللبس ، ووداعاً فى الحركة ، وطولاً فى القامة ، وجوداً فى تقاطيع الوجه .

ولم يبق من ذكريات الثروة فى حى السيدة إلا رؤيتى بطريق المصادفة جنازة شهيد من شهدائها ، عمرى شارع السد البرانى ، وهو شارع تجارى لم أعهم مسير الجنازة فيه ، وقد رأيت فى هذه الجنازة العلم المصرى بنوسط هلاله الأبيض صليب ، ويتقدم الجنازة شيوخ من الأزهر مع قسيسين ، وكانت تسبق العشي موزقة موسيقية لإحدى جماعات الكشافة ، توقع لنا جنازتها حزناً وسيطاً ، فى حين يترك أصحاب الخرافات أعمالهم ، ويقف الجميع فى وقار وصمت جنيرين بالإهتجاب . وهكذا توالى البراهين على أنه حسب الأمة أن تشملها روح عامة ، حتى تبعث فيها خير فضائلها ، وتقتضى ذائلها .

أنا والفن

حياة المصريين في أحياء القاهرة حيلة متملح بنعم الفن وآثاره ، وإن كان فناً سادجاً بسيطاً ، لكنه في كل حال . فكل من في الطريق يقف أو يرقص ، أو يقف ويرقص معاً . بالغ اللعب والجولة والمشمش بالذات يقفون غناء حلواً ، يطرون فيه بضاعتهم ، والمسحراق يقف ، والأمان غناء ، والقران في الماتم والأفراح والمناسبات الدينية ترتل ومراكب الفرق الدينية ، توقع ألماتاً موسيقية وتؤدي نطقاً ضئيلة ، وهي في المساء بغوانيسها المفضلة في عتيم صغيرة من القماش الأبيض ، لوحة فنية لمحرك حاسة الجمال في الأطفال . وضاربة الودع لوحة فنية أخرى ، ومراكب الرهاف والختان لا يتخطى أسبوع دون أن تمر واحدة منها في شارعنا أو الشوارع القريبة منها .

أما العروض الفنية المباشرة فهي (الأراجوز) و (القردان) و (الحماري) و (صندوق الدنيا) . ولا أكنم القاريه العزيز لأن هذه العروض جميعاً كنت لا تستهوي ولكني كنت أشهدها ، تطبيقاً لمبدأ (شيء خير من لا شيء) ولكن لم أكن أزاحم لأصل إليها ، ولم أكن لأسف إذا فلتني ، وإذا وقتت أشاهد العرض فعلت ذلك وأنا بارد الإحساس ، ولو عرفت أن أعبر عن نفسي لقلت ببساطة .
ما هذا السخف ؟

ولكني لا أنكر أن شخصية الأراجوز كانت تعجبني وصوته الغريب الذي لأعرف من أين يصدر كان يطربني ، وحركات الأراجوز نفسه وحركات زوجته

والعراك الذى يعلو بينهما ، كان يبعث على شفق انتسامة ، وباحتصار كان الغالب
ناجحاً يظهر برضاى ، ولكن للموضوع فى هذا الغالب ، كان باعثاً على الملل لتكراره
من جهة ، ولخلوه عما يضحك من جهة أخرى .

ولكن على مرة رأيت الأراجوز إلا وقفت وشاهدت ، فلما انتقل بقلة قريبة
ذهبت ورواه ، وأنا سمعت طلبته وكنا فى المنزل أطلت من الشرفة ، وقد أجد
عندى النشاط الكافى للإسراع إلى الشارع ، ولايم إن استطعت اللحاق به أو لم
استطع ، فالمركبة بركة ، والاجتماع بالناس ممتة . ولا يبعد أن أحاول تقليد صوت
الأراجوز ، بدون الإصجاب بالقاطعة نفسها .

ولقد قاضى الأراجوز يوماً إلى قلعة الكيش ، فقد صعدت درجات السلم المبنى
فى آخر شارع سلامة ، حيث أقام صاحب أراجوز خيمة ثابتة ، وجمع فيها مقاعد
خشبية مستطيلة ولأول مرة فى إحدى ريلوات هذه الخيمة هرعت سر الأراجوز . فقد
كنا فى فترة استراحة ، فرأيت الفنان الذى يلعب الأراجوز وقد أصرح من فمه قطعة
صغيرة من المصيح ، وراح يملأها ، ثم يصق ، ثم يخرج منها صوتاً قصيراً ثم
يصق ، فصرخت إذ كشفت السر ، وقلت ما معناه ، « إني هرعت السر » . وعلى
الرغم من أن الخطأ كان خطأ الفنان لا خطئى وعلى الرغم من أن هذا الخطأ كان من
الناحية الفنية فى نظرى جسيماً إلى أبعد حد ، إذ لا يجوز لعنان أن يبتك سر العمل
الفنى أمام النظارة بهذه البساطة بل إن هذه هى الخيانة العظمى نفسها فإن الرجل لم
يرفدنى أن يسبق سباً قبيحاً كان أول سب أحرص له فى حياتى فشعرت له بالإهانة
وأحسست بأن دى قد غل فى رأسى ، وخيل إلى أنى تمسيت فى جرح دام لأمى التى
أحبها وأحلمها ، والثى كانت دائماً حولان الاحترام بين الرجال والنساء . وشعرت
بالمعجز المهيمن ، إذا لم أستطع أن أجمع على الرجل ، وأحقه يذى ، أو أجره إلى
القسم ، أو أحرص عليه رجلاً فى مثل منه ، لا ليضره ، بل ليثقل . والمعجب
أنى بقيت فى مكانى ، وشاهدت العرض الى نهايته . ولكن لا حرصاً على المشاهدة
ولا إعجاباً بها ، بل لأنى جمعت فى مكان ، وفى المساء ، لم أتم جيداً ، وبقيت أياماً
لا أستطيع أن أرفع وجهى إلى وجه لأمى ملوكاً أن الذى فعلته هو دس لا يرقى إليه
عفو . ولم أتح من أهل من اللثوب إلا هذا اللثب ، وآخر لا يبلغ مبلغه من
الجبامة ، ولكنى جئت عن أن أكشف عنه ، للابسة نفسية اتصلت به ، فقد

أحقيقته ، لأنه كان دليلاً على عجزى أو قل خييتي ، والإقرار بهذا العجز لدى ولد لا يكف عن اللعب والحركة ، وما يسميه الناس (الشقاوة) كان مهيناً للكرامة ، إلى أقصى الحد . وخلاصة الأمر - ولو خرجنا من السياق قليلاً - أنني ذهبت ومعى (النيلة) ، ووقعت أمام دارنا أصوب القذائف مينا ويساراً ، فإذا واحدة من هذه القذائف تصيب لوح زجاج في منزلنا نحن ، ولم يكسر اللوح ، وإنما شق شقاً عرضياً ، وبقي اللوح في مكانه ، وعلقت إلى المنزل بعد ساعت ، حائفاً أترقب ، ولكن الكسر لم يكتشف إلا بعد أيام ، وحار أهل البيت عند اكتشافه في تفسيره ، وكان تحليل كل واحد منهم ، بالنسبة لي ، شيئاً معتماً إذ كان ذلك أول تجربة أعرف فيها قصور العقل الإنساني ، وبعد استنتاجه وفروضة عن المنطق حيناً ، وعن الواقع أحياناً فأرى فيها الأبرياء السليين يلهبون ضحايا هذه المفروض وتلك الاستنتاجات .

وإذا كان إعجابي بالأراجوز من حيث موضوعه ضعيفاً ، وإن كان إعجابي بذلالي عظيماً ، فإن حداثتي بصندوق الدنيا ، كانت فائرة فترراً شديداً . للصعود التي كان يعرضها كانت من الجمود والقيح إلى الحد الذي لم يكن يمح في نفس سروراً قط ولكن مجرد الجلوس أمام المدسة الكبيرة ، والتميز عن باقي الأطفال كان متعة في نفسه ، أما المتعة الحقيقية فقد كانت مشاهدة (الحماري) . كان الحماري في نظري فتناً لا يشق له قبار ، لا لغرابة الألعاب التي يأتونها والتي لا تعرف لها تفسيراً بل لسرعة يده وسعفتها ، ولطف الألفاظ والمعارف التي يرددنها ، ولتفرد الألعاب التي يفتنها ، كان فتناً يختلف عن الآخرين ، لأن لديه فوق البراعة ، ولطف الإيماء وسرعة الحركة ، الضموص الملى لا يتوى أحد على تقليده أوحى تفسيره . ولما دخلت المدرسة ، وعلمت شيئاً من علوم الرياضة ، كنت أرى هذا الفنان حلاً لأنه يأتي بما يمتد من خوارق الطبيعة وما يتحدى قوانينها .

فأدواته تتحدى قانون الجاذبية ، وتحالف قواعد الجمع والطرح ، وهو يجيبى الموت ، ويأكل النار فلا يهترق ، ويدخل السيوف في حلقه ، فلا يهترق ، ومع علمه هذا ، وبراعته تلك ، متواضع يقيم مسرحه على أرض الطريق ، ويأخذ منا ملائيم بلا تأفف ولا تعال .

ولكنى ارتقيت في سلم العن درجه درجه حينا صحيحى خالى الأوسط إلى سينا
(ابديال) في شارع عاتدين ليلة ، ثم إلى سينا أولمبا ليلة ثانية ، وفي أخرى تلك
المرتين ههنا متأخرين قليلا ، عشقا طريقا في المظلام ، ثم التفت ناحية الشاشنة
المصرة ، فرأيت ما سحرى ، رأيت طاقة مفتوحة مضببة ، أطللت منها على عالم كل
ما فيه عجيب وعلب وعير حداثى وقصور ، ومساء جيلات ، يلسس أنوباً
لا أصرى كيف أصفها ، وسيارات وجيوشاً ، وجلست إلى جوار حالى ، يؤلمنى قليلا
نعاله . ولكن كان يهوى على هذا المسلك أنه كان لدى رصيد من الكبرياء يعملنى
أفاهل نعاله بعدم الاكتراث وكانت السببا هراء عظيمياً ، وإن كنت لا أفهم مما
يخرى على الشاشنة شيئاً ، ولكن رحت أتابع هذه المناظر مأخوذاً بالبور وبالحركة وبهذه
الطاقة المفتوحة على عالم ، لأهرف من أين فخر ليقف أمامى . . لمد كان الحواوى ،
أعظم المائتين عندى ، وكانت السببا حاوياً من طراز لا يشبهه شئ في الدنيا .

ثم جاءت تجربتى في سينا أولمبيا ، فكانت خطوة أخرى نحو عالم السحر ،
فقد ذهبنا ، إلى (سوار) مطل على القاعة ، وكان في جوارها عارف أعمى يلعب على
(البيانو) ، ولكنى ليلتها لم أهرع مصدر الصوت ولا موضعه ، وإنما كنت أسمع
صوتاً عميقاً امتزج بظلام السينا . ويمتظر رحوس النظارة الجالسون في نظام وهله
واحترام وصمت ، مع الضوء المنبعث من هذه الشاشنة السحرية ، تأسكرون كل
هذا ، حتى غبت عن الوجود حقاً لا مجازاً . ولقد حدثت لى أن كبرياء خالى حال بينه
وبين الكلام ، إذ لو تكلم لبعد هذه الخلفة العجيبة التى امتغرقت فيها منذ وصمت
قدسى في السينا . وتوالت المناظر التى لا أفهم لها سياقاً ولا أتيس رباطاً يربط بعضها
ببعض وأنا أتابعها بعين مفتوحة ، وأنفاس مبهورة ، وسعادة لا توصف . ولما
أنصابت السببا ، وبدا المارق شامعاً بين الأنوار الفضية التى تنعكسها الشاشنة ،
والأضواء القريبة إلى الاحمرار التى تنصاه بها القاعة والطرققات ، كان ذلك بمثابة
شروق الشمس بعد مور الفجر الخافت الفضى الخلقى الذى لا تعرف أين منته .
وركبنا الترام معاً وقد أحسست أن خالى نزل قليلا عن كبريائه . لأنه رأى مكثياً
بذلك ، مشغولاً مع خواطرى ، لا أوجه إليه حديثاً . ولا أسأله عن شئ ، فبلوت
له إسباناً وقوراً يستحق الاحترام .

ولم يمض إلا القليل حتى خطوت خطوة ثالثة في عالم العن ، ففى يوم سمعت

أمر تكلم إحدى أحوالي ثم تقتضب كلامها فجأة وتحول مجراه ، وكأنها نورطت فيما لم تكن تحب أن أسمعه ، ثم رأيت وجهها يحمر من ضغط صحتك تحاول أن تكتمه ، ولم أهتم شيئاً ولم يتحرك فضولي ، ولكن ألس التي طبعت على الصراحة ، لم تلبث حتى قالت « دعك من هذه المرة ، والمرة القادمة سنأخذكم معنا » وبدأ فضولي يشتد فقلت « هذه المرة ؟ أي مرة ؟ وتأخذوننا إلى أين ؟ » فقلت شقيقتي : « لا تصانين لقد دهبنا ليلة أمس إلى مسرح سلامة حجازي ، ولم نأخذكم لأنه يتأخر كثيراً في الليل » ، ويبدو أن ألس وأحق أصيبتا بعية أمل لأنها لم يسمعا مني احتجاجاً ، فقد كنت لأعرف شيئاً كثيراً عن المسرح ، ولذلك لم يكن حرماني منه ، فيأ مؤلماً ، ولما سمعت أنهم ذهبوا قبل ذلك إلى « الأنتيكحانة » قمت وتركتها ، لأن لم أهتم بالضبط ماذا تكون « الأنتيكحانة » .

ولكن لما راد سماهي لاسم الشيخ سلامة حجازي ، ولأنباء المسرح ، بدأت أحس بأن خسرت شيئاً ما ، ولم يطل ألس ، فقد ذهبت إلى المسرح مرتين مرة إلى مسرح الكسار ، في شارع عماد الدين في دار (الإيجسيانة) ومرة في مسرح كشكش بك ، ولم يبق في ذاكرتي من المرة الثانية شيء إلا صورة (كشكش) وهو يلبس العمامة والجببة والقفطان وقد بدا في وجهه شديد الحمرة بسبب الزوان (التكر) ، كما بدت لي الراقصات وهن يقعن عبر معهنومات ، ولكني تابعت حركاتهن في سرور ليس خالصاً للفن كله ، وإن كنت دون السابعة ، أما العرض الذي رأيته على مسرح على الكسار ، فقد سبب لي أول الأمر غيبة أمل فقد كنت أسمع اسم على الكسار ، وبطبيعة الحال كنت أظن أن أراه ، فإذا بالرواية التي جئت لمشاهدتها ، واسمها (راحت عليك) فلا يظهر فيها على الكسار ، وإنما يلعب دور البطل فيها ممثل كان معروفاً في تلك الأيام اسمه (محمد هيجت) وكانت تتقاسم معه البطولة المطربة الشهيرة (هتحمية أحمد) .

ولم يبق من هذه المسرحية في ذهني إلا القليل ، أذكر أنها انتهت بمشهد تلف فيه البطلة الرواية نفسها بالعلم المصري ، فقد كانت الروح الوطنية على أشدها وكان كل ضياء وكل تمثيل ، وكل خطابة وكتابة تصرح أو تلمح للحالة السياسية ، كما كانت أسماء المحال ، وأسماء المصنوعات والملبوسات والمشروبات تحمل أسماء ورموزاً

مصرية قديمة وجديفة كالأهرام وأبى الهول والحلال ، والتفاسط الحريه والاستقلال والوطن ومصر ، ووادى النيل ، والتضامن والإخاء . ثم تزوجت أخفى الكسرى الأستاذ كامل أحمد ، وكان على صرامة حلقه ، وميله إلى الجدل ، فى كل ما يقول ويعمل ، محباً للأدب ، قارئاً للشعر ، يتزود ببعض الفن ، ومن هنا صحبى مراراً إلى شاطئ روض العرج الذى كان فى الصيف مصيفاً لأهل القاهرة ، يلتصقون فى الأصائل والأمسيات بعض السمات الرطبة التى نبت عليها من النيل ، فى عمال تقدم المشروبات المثلجة ، وفرق من الدرجة الثانية تعرض مسرحيات الفرق الكبرى الباجحة ، فكان موري ميب يمثل مسرحيات الكسار وكان يوسف عز الدين ولؤاد الجزايرى يقدمان مسرحيات الرمانى ، ولذلك ماقلتني من هذه المسرحيات الكبرى ، حل مسارحها الكبرى رأته فى هذه المسارح الرحيصة المتواضعة ، ويبدو أنها لم تعجبني كثيراً ، هلست أذكر شيئاً من وقائعها ، كما لا أذكر شيئاً من وقعها فى نفسى . ولكن لابد أن أذكرها اندس فى عقل ، وبقي غزواً ، يمدق بما أحتاج إليه هلما الجأ إلى الصلابة فى الكتابة والتعبير عن شخصيات مصرية وبلمبة وقد تدعش إذا هلمت أن أكبر تجربتين فنتى فى حياتى كانتا أبعد ما تكون عن المسارح الكبرى ، أولاهما فى جملة مدرسة ، فى مصر القديمة ، أقسامتها إحدى المدارس القبطية للأطفال وكانت المثلة التى أصعبتني ، وأثرت فى نفسى ، طفلة صغيرة ، تروى شيئاً أصابها لا أذكره الآن . ولكن صوت الطفلة ، كان مسوحاً برغم الضجيج والفوضى اللذين يلازمان الحفلات المدرسية ، وكانت ألفاظه مفهومة ، وكان فى برمتها تعبير عن حزن وانكسار ، أحسست معها أن هذا العرض كان ناجحاً ، لأن صدقته ، وقد بقى هذا هو معيارى ، فى الحكم ، على كل عمل فنى .

« أما التجربة الفنية الثانية فكانت مع حكايات للأطفال ، فى كتاب باللغة الإنجليزية كانت أخفى الوسطى تقرأ وتروى لى منه ما تقرأ ، وتدعى أنظر إلى صور الكتاب وعلى الرغم من أن ورق الكتاب — على غير عادة الكتب الإنجليزية للأطفال — كان خشناً ، والصور فيه كانت رسوماً بالقلم ، وليست صوراً فوتغرافية ، فإن وقائع الحكايات ، ورسوماتها ، ملأت على دنياى ، بعالم سحرى هائن عرفت أم الطرطور الأحمر التى كانت تحمل جلدتها كل صباح ، فى سلة من الفس ، إسطرها من الجبن والمرى والمفاكهة ، وعرفت قصة الولد الخائب الذى باع

بقرة العائلة بكيس من العول ، فرمت أمه في وجهه الكيس فأنبت حبة منه شجرة
صحمة صعد إليها يوماً ، رأى في هابئها طريقاً طويلاً ، يؤدي إلى بيت العول
وعرفت الساحرة ومكنستها ، والطفلة الشيمة التي كانت تعذبها الساحرة ، حتى
أنقذها الأمير الشاب وتزوجها ، وقتل الساحرة ، ثم عرفت بحيراً سنتريل ،
وحذاءها الزجاجي وهربتها التي تجرها حيول من الفئران

والمدحش أنى لم استجب كثيراً لحكاياتنا . حكاية الشاطر حسن ، وحفلة
الصباح ، ربما لأن الحكايات الإنجليزية ، كانت مزودة بالصورة ولأن الصورة
عرضت على عالمنا ليس من السهل مقاومتها : عالم العابة وأشجارها المتفتة ، وطرقها
وسط الحشائش وحلوع تلك الأشجار ، والعول وألته الموسيقية ، وبيت حث الإوزة
التي تلد بيضاً ، بيضة من ذهب ، وأخرى من فضة ، ورحلت أقصى للأطفال ، هذه
الحكايات ، فكانت أول عمل إنشائي أقوم به .

وكان الفن في أيام طفولتي ، في طفولته ، ولكن المعجب ، أنه استمر في هذه
الطفولة رافضاً أن يتجاوزها إلى الصبا فالشباب .

كانت الأغنية الفردية التي تحكي عاطفة العنان ، ولوله في الحب ، وشقاءه في
الهجر ، ومذلة في الصد ، وسهره في البعد ، هي أهل مراتب الفن ، وقد بقيت
حتى اليوم ، مترتبة حل حرشه ، وبقيت محصنة بحصانها الأولى ، وملابسها ،
وجوها القديم في الأداء ، والاستماع ، فالتكرار الذي يستند كل صبر هو سمة
الأداء البارزة ، أما المعاني فهي هي ، فالمحجوب ، هو الشمس والقمر ، وهو البداية
والنهاية ، وهو عمر المحب ، وخره ومن وراء هذا التله والتلذل ، إيماءات جنسية
صارخة حيناً ، متوارية حيناً آخر . أما حفلات الطرب في الماضي فهي خليط من
الزار والشجار ، ومن ضجيج الحفلات ، وفحش الأذقة . صراخ حداد ، وقفر
عنيف ، وتشنج وإرقاء على الأرض ، وهلات يناديها السامعون . وهالبا
ما يكونون من السكاري . تبلغ في البذاءة الغاية ، ودهابت تبط في غلش الحلاء
إلى الدرك الأسفل ، مع حركات بالجسم والأيدي ، لايحد الإنسان أية صعوبة ، في
مهم مراميهما ودلائها ، فإذا انتهت الحفلة قيل الصباح ، خرج السامعون ، وكأننا
هم العائدون من معركة : صيون احمرت من طول السهر ، وحناجر أجهلت من كثرة

الصراخ ، وأدركت ، من شدة التلوى والتلويح . والكتابة ، عن الفن والفنانين ، وذكر أنبأهم في الصحف ، لا يعدو أن يكون خمراً ولزاً عند الغضب ، وتالياً ومجيداً عند الرضا .

أما المسرح فالسراج فيه لا علاقة له بفكرة المسرحية ، ولا حسن بمائها إلا في التندر الذي لا يحسب له حساب ، فالاعتماد فيه على مدى ما تتيحه وقائع المسرحية للممثلين والممثلات ، من حركات وإشارات أيديهم وجوانبهم ، وتلويهم وتطاولهم وتقاصرهم ، والصنع على الألفية والركل في الظهور والجري والرمح على خشبة المسرح ، أو صراخ الممثل وقوة حنجرته ، وكثرة الصرعى والجرحى وارتفاع العويل والبكاء .

ولاشك أن ثورة سنة ١٩١٩ قد ألهمت بديع خيري (المعبود) وسيد درويش بعدد من الألحان جميلة اللحن والمعنى ، واللحن والأداء ، وقد أوشكت المسرحية الذاتية ، والأناشيد ، والأغاني الجماعية ، أن تتخلص من الغناء الفردي ، وتقاليد (الصالات) ، ولكن هذه المحاولة أجهضت ، وضاعت « يا هرير حبي وأنا بندي أروح بلدي » و « بلادي بلادي » و « يا هم حزة » في بحر طام من ألحان جنسية صارخة بعضها لعبد اللطيف البنا ، مثل « تعالى يا شاطر روح الفاطر » و « ارضي الستارة اللي في ريمنا ، لاحس جيراننا نبحرنا » وأغان أخرى مثل « أنا واحدة سيحجروا » في العشق يأنته وإخله البكالوريا « وكان ألطف هذه الأغاني « أسمر ملك روجي » لمهرة المهدي ، و « زوروني في السنة مرة » من تلحين سيد درويش في حين بقيت أسطوانات سلامة حجازي القديمة . مثل « أجوليت ، ما هذا السكوت » و « المشرقان عليك يتحبان » ميمان على المصريين ، كأنها أنسام آتية من بعيد .

هذا العناية الفردي كان أكثر غلاء الشعب الفنى في تلك الأيام ، عبر أن البليّة كانت تحف بفرط الاهتمام بقصائد شوقي وحافظ فنشر القصيدة في الصفحة الأولى من الجريدة كان حدثاً منياً وقومياً تسمع صوته في كل بيت ، وتحدث الناس عنه في الدواوين والمقاهي ويقرأون القصيدة ، ويتقنونها . كذلك كانت المقالة الجيدة ، والخطبة الرائعة ، والبيان السياسي الحميل ، والمرافعة العظيمة مدداً روحياً للشعب

والخاصة ، ولقد شهدت بنفسى آثار هذه الأعمال الأدبية وأنا لأعنى سر الاهتمام ،
ولا سبب الاجتماع حول شىء يقرأ بصوت عال ، والسامعون من عائلتى
منصتون ، متفججون مع القارىء صامتون كأن على رؤوسهم الطير .

شعب بلع حيه للفظ الجميل ، وللعمل الأدبى ، هذا المبلع ، كان جديراً - إن
وجد من يحسن قباضه - أن يخطو فى دنيا الفن ، خطوات رائعة ، تحققت بداياتها
الكبرى ، تتمثل غصة مصر ، ومحاولات المسرحيات الغنائية التى شهدت مصر
ميلادها ، فى فترة صباى . ولكن الثورة خبت نيرانها فاندثت الخطوط التى كانت
سرعة وهذا التبار الذى كان منطلقاً .

ثلاث مدارس

تنقلت في حرم السيدة زينب بين ثلاث مدارس كانت كل منها تمثل نوعاً من أنواع المدارس التي كانت تعلم أولاد المصريين في تلك الأيام : الأولى منها مكتب محمد سعيد ، في حارة متفرعة من شارع زين العابدين التابع من مهدان السيدة الرئيسى ، والمختلط مع شارع سلامة ، والثانية مدرسة الجمعية الأهلية المصرية ، وهي مدرسة أهلية ، والثالثة مدرسة محمد علي التي حدثت عنها .

أما الأولى من الثلاث فلا أدرى لماذا كانت تسمى مكتباً ، وليس في شيء من أئانها ولا بنائها ولا نظام العمل فيها ، ولا المكتب التي تدرس بها ، ما هو أدنى لو أقل شأنًا من المدارس الابتدائية ، إلا أننا كنا نضفي من الخيال إلى المكتب بالبدلات ، إذ كان الملبس المسموح به هو الجلباب فقط أو الجلباب والبالطون الشتاء ، والجلباب والسترة في الصيف مع الطرايش بطيخة الخال .

ولم يكن هذا كل الفارق بين المدرسة والمكتب الذي بدلت به تعليمي ، فقد أحيينا في هذا المكتب من تعلم اللغة الإنجليزية ، وهذا هو الفارق الثانى أما الفارق الثالث والأخير فهو أن ناظر المدرسة كان شيخاً معهما ، والغريب أنني لا أذكر من هيئة التدريس وإدارة هذا المكتب ، أحداً ، إلى حد كنت أتصور أنه كان كل موظفى المكتب ، وهذا غير ممكن ، إذ كان المكتب يضم سنوات أربعاً وكانت الفصول تتلقى المروس في وقت واحد ، مما يستلزم وجود أكثر من مدرس ، ولكنى لا أذكر واحداً

من هؤلاء كما لا أذكر اسم أو وجه فراش واحد ولا بد أنه كان هناك فراشون . ولكن هذا الاختفاء من الغاز الساكرة ، التي يلذ لها أن تتمسك بأشياء ، وتسقط من نفوسها أشياء ، ولا تنرى لماذا أبقت ما أبقت ولماذا تخلت عما تخلت

لا أذكر أحداً إلا ناظر للكتب ، وأذكر الصورة العامة لوجهه ، وهو وجه فلاح مصري عادي الضابط ، ليس فيه عيب من العيوب الشائعة في وجوه أبناء رفينا ، من جبهة بارزة ، أو هيون غائرة في محاجرها ، أو أنف غليظ في شكل غير معروف . ولكن السمة الأساسية التي بقيت في ذاكرتي من جسم هذا الناظر هو عظمة عنقه المعروفة بجوزة آدم ، فقد كانت بارزة بروزاً ملفتاً للنظر . وكان الرجل جليلاً ، والكتب التي يشرف عليه نظيفاً ، وسجراته واسعة ، وسلاله من الحجاز الجبلي الذي كان يغسل كل يوم جمعة ثوبه في أنوار الماء عليه يوم السبت والذي أرجحه أنني كنت بعد في غيبة الطويلة ، فلم أستفد من الكتب شيئاً . ولم يعلق في رأسي حرف مما قيل لي فيه . والذكرى الواحدة التي أذكرها عن حيالي في هذا المعهد أنني اشتريت معطفاً أسود اللون ، خالي الثمن ، وذهبت به إلى المكتب ، وفي اليوم الذي ذهبت به إلى المكتب أو في يوم نال رسم لنا الشيخ الميكيل العظيم للإنسان ، وأذكر أنه كان رسماً جيداً أصعب لي اليوم كيف نال الشيخ في تلك الأيام أن يقوم به ، واستعان في هذا الرسم بطباشير ملون ، فاحر فلعلنا نتأمل في هذا الرسم لللون ، وسنح فرحون به ، وفرحون أيضاً بهذا الترحيد المنعم الذي قمنا به ، مقتنعين باستاذنا : « الجمجمة ، الرأس ، الصدر . . . » ولما فرغنا من هذا الفناء المدرسي ، آن أن يحى هذا الرسم الغالي بالوانه الباهرة ، فسأل الشيخ من يتبرع بعملية المحو ، لعدداً أفرعنا ، ورفضنا أصابعنا في حرولة ونشاط ، فوقع الاختيار عليّ ، ربما لتميزي بهذا المعطف الذي لا يتيسر كثيراً لأولاد المكتب — وأكثرهم من أبناء العمال في المنطقة — شرفاً ، فأسرعت إلى قطعة القماش التي تستعمل في تنظيف السبورة والتي كانت تعرف « بالبشارة » وأنساق هذا التميز ، المعطف ، فأقصفت جسدي الصغير بالسبورة وخرجت من هذه العملية بمعطف ملون . . . حرمت عليه حزناً شديداً وعدت إلى البيت وأنا مغطاة الرأس كبير الحائط ، شاهراً بعيني ، وقلة حيلتي . . . وبقي هذا الشعور إلى اليوم لا يفارقني . .

ثم انتقلت إلى مدرسة الجمعية الأهلية المصرية ، الواقعة في القسم الثاني من

شارع سلامة ، وهي مدرسة أهلية لاتديرها الحكومة ، وقد كان هذا الطراد من المدارس مشتهراً غاية الانتشار في أعقاب ثورة سنة ١٩١٩ ، وقد اردت الحاجة إليه لما كثر إقبال الناس على تعليم أولادهم ، وقامت العواقي دون إلحاق هؤلاء الأبناء بالمدارس الحكومية ، إما لأن منهم أكبر من السن التي تسمح بها قوانين الحكومة ، وإما لأنهم سقطوا أكثر من ثلاث سنوات ففصلوا للناس من تربيتهم وتعليمهم ، وإما لأن مصروفات المدرسة الأهلية أنحف ، ويجوز المساومة فيها ، ويجوز خصم بعضها ، ويجوز أشياء أخرى ، منها أن يقفر التلميذ البلدة سنة أو سنتين من التعليم فبدلاً من أن يدخل في السنة الثانية مثلاً ، يدخل في السنة الرابعة ، وكل شيء يثمة . ولذلك كانت المدارس الأهلية سيئة السمعة ، وزاد سمعتها سوءاً أن كثيراً ممن سُئلت في وجوههم أبواب الرزق ، بعد أن التمسوا معاشهم كسامة أو وسطاء لومثلين أو موظفي حكومة ، يجربون حظهم في المدارس الأهلية ، وقد يوظفون ، فتتهال عليهم الأموال ، وقد يجعلهم النجاح على التزام قدر قليل من الامانة ، وفرض حد بسيط من الضبط والربط في المدرسة ، فتتحسن سمعتها وسمعته ، فيرداد امانة وثقة ، وهكذا ، حتى يخرج من جماعة المشوهين إلى جماعة المربين ، وقد يصيح - بعض الإعلانات - المربي الكبير وترسم له صور في الصحف ، ويحضر مؤتمرات التربية والتعليم ، وقد يسافر إلى الخارج لقضاء عطلة الصيف ، فحمل أنه اشترى للمدرسة المعامل والأدوات المنمنمة ، وأجهزة الطيعة والكيمياء ، مما لا يتوافر في المدارس الحكومية ، وهكذا دواليك

أما مدرسة الجمعية الأهلية المصرية ، فقد كان على رأسها رجل وطني فاضل ، لأنه كان مهندساً من زملاء والدي ، وكان وطنياً ، اتهم مع بضع عشرة من الموظفين المتطرفين في أعقاب قضية مقتل بطرس غالي بأنه كان شريكاً بالاتفاق مع قاتل رئيس الوزراء ، إبراهيم ناصف الورداني ، وقدم هو وزملاؤه إلى قاضي الإحالة متولى غنيم بك ، فأخرج عنه وعينهم ، على أساس ، أن الشروع في الشروع لا يعاقب عليه قانون العقوبات في مصر ، فوضعت الحكومة تشريعاً خاصاً لسد هذه الثغرة ، فأنشأت جريمة الاتفاق الجنائي ، التي يعاقب فيها بالناس على مجرد الاتفاق على الجريمة ولو لم يشرعوا في تنفيذها

فدافع أبى إلى اختطاف هذه المدرسة كان دافعاً وطنياً . ولكن هذا لم يغير شيئاً في

الأمر ، فقد كانت مدرسة أهلية بكل عيوب المدرسة الأهلية . . ولكنني أشهد أن بقاء المدرسة ، كان صالحاً لأن يكون مدرسة ، وكانت حجراتها فسيحة وطرقاتها مستقيمة والأدوات المستعملة من مقاعد مجلس عليها ، وسورة يستمع بها المدرسون في الشرح ، إلى آخر هذا الأثاث كانت في حالة جيدة . ولكنني انتقلت من مكتب محمد سعيد إلى المدرسة الأهلية ، وكل جوارحي نائمة ، فلا أذكر أنني انتضعت عليها بشيء . .

ولكنني أذكر أن أسوأ ما مر في حياتي المدرسية وقع لي في هذه المدرسة ، صيرت أقدس صرب من مدرس الدين ، لأنه طلب أن أسمع له سورة « البقرة » ومازلت أذكر حتى اليوم كان ملحدت كان في أمس فقط ، أذكر أمي جالسة إلى جانب مصباح يضاه بالترول ، وهي تطلع الأهرام ، وضعتها تسحر كان حركة خفيفة ، كعادتها ، وقد تقدمت إليها وفي يدي كتب يضم سور جزء عم ، لأسمع لها سورة البقرة ، تلوت السورة ، فظهر لي لم أحسن حفظها ، فحاولت المحاولة ، مرة ومرة ، ثم ذهبت لأنام وأنا لم أتقن الحفظ . وفي اليوم التالي قرأت السورة فتمتت كثيراً فأنهال على الشيخ ، وكان رجلاً طويلاً ؛ بعضاً في مثل طوله ، واشتد ألى ،

وانفجرت باكياً ، ويبدو أن وجود فرقة أمام الإنسان يقرى بالإسراف في العدوان عليها ، فالشيخ ازداد ضربه ، في تصاعد غضبه ، وأنا أصرخ وأتلو ، بدون أن يترك منظري الرحمة في قلبه . وذهبت إلى البيت كبير القلب ، شامراً بالإهانة ، وبأن ظلمت بقوة ، ولم أستطع أن أحفظ هذه السورة طول حياتي حتى سير قليلة مضت ، فقد شرعت أحفظ القرآن في المعتقل وبدأت بسور جزء عم فحفظتها جميعاً في يسر وسهولة ، لكن حفل رفض رفضاً باتاً أن يحفظ سورة البقرة وحدها بل إلى تحطيتها أول الأمر ، كأني أحملي أن أمر يبدى على ندية جرح لا يزال جديداً .

أما الحادثة الثانية ، فقد كان ظلمي فيها الفاحش ، فقد ذهب تلميذ من زملائي إلى مدرس الحساب ليصحح أحد كرويه فالتقى إلى المدرس هامساً « إن التلميذ المجاور لرضوان ، يهضغ اللسان » . وسمع المدرس أن (رضوان) هو الذي يهضغ اللسان ، فتداني وأنهال عليّ ضرباً . وخاف زميلي أن يصحح للمدرس خطأه . فتركني أضرب بلا ذنب ولا جريئة وحاولت أن أصح دموعي بمندبل ، فوضعت يدي في جيبى ، فخرجت يدي بساحة قضية كان أي قد اشتراها لي ، ولم أجد متديلاً

مراد ذلك من ألى وشعورى بالإهانة ، والعجب أن هذا الرميل الذى نسب و
إلهائى ، عن غير قصد ، بقى شخصاً خفياً بالنسبة لى ، بل لى لم أستطع أن أحب
كل عائلته ، وقد تصادف أن عرفت بعض أفرادها فيما بعد ، وكانت عائلة مقارن
بياض وبناتين ، وتغلب عليها طباع عمال هذه المهنة ، وإن كانوا يلبسون البدلات
الأوروبية .

وقد مرت بى فى المدرسة الأهلية تجربة نفسية ذات قيمة كبيرة ، فقد كان من بين
زملائى وجيرانى فى الحى ، صبي مصاب بالشلل ، فلزدت أن أدعبه يوماً ، فأومته
أن مآقوده إلى حجرة الناظر . التى كنت أجهلها فى الحقيقة ، إذ لم تطرأ المناسبة التى
تدهونى إلى الدخول فيها ، بل الاقتراب منها . فلذا بالصرع يركب هذا الزميل
للكوب ، إلى الحد الذى أدهشنى ، وأطمعنى فيه . وفى اليوم التالى كررت التهديد
وخطوت معه خطوة جديدة ، إذ صاحبه من يده إلى حجرة الناظر ، وثبتت المسكين
بالخائط ، وبالباب ، وكلما زاد خوفه ، ردت إصراراً على سحبه ، حتى إذا بلغ فرجه
إلى الغاية تركته لأفعل شيئاً قريباً إلى أقصى حد . تركته لأتزوى جانباً ، ثم أنصهر
بكاه حار صادق ، لو صبطنى أحد متلباً به لظن أن فاجعة كبرى قد حلت بى
وأصبحت هذه العملية القبيحة ، عادة لى ، كل فسخة ظهر أسحب ، ويصرع ، ثم
أتركه وأبكى .

ولست أدري ما الذى ألوقف هذه العادة ؟ ولا متى وقعت ؟ ولقد مصت سموات
وأنا لا أكف من تذكر فعلنى الشنعاء هذه ، ثم بدأت أحللها لما كبرت واستطعت أن
أقائل المظاهر النفسية ، وإن أزداد معرفة لتواريخى ، ومداخل نفسى وخارجها

ولو استرسلت فى الكتابة عن هذه الواقعة ، لاستطعت أن أضع فيها كتاباً ولكن
ما أستطيع أن أقوله عنها بإجمال إنه ليس لها شيء فى حياتى بعد ذلك من قريب أو من
بعيد ، فأنا أكره تعذيب الأشخاص والحيوانات والحشرات . فليست أطيع أن أرى
مثلاً فأراً داخل مصيدة ، وهو يز فيها بعنف لقتله ، وكم نيت بشلة أطفالاً فى
الطريق العام إذا رأيتهم يهرون قطة بحبل من رقتها . بل إن مجرد دخول عصفور
ضال فى حجرى وتخبطه فى رجاج النافذة ، يجعلنى فى حالة شبيهة بحالة عريق مشرف
على الموت فى بحر متلاطم الأمواج . ثم لى لست ممن يستعجبون تعذيب أنفسهم ،

ومن الناس من يسره أن يستحضر الذكريات المحزنة ، والمواقف المؤلمة ، بل إلى أنفى عن بعض هذه الذكريات وأنجح في ذلك مجلحاً عظيماً . ولاشك في أن عملية سحب هذا الزميل النفس والتألم لمرآة ويده المشلولة ترتفع وتنخفض في الهواء هي ضرب من (الساذجة) ، أي التلقذ بتعذيب الغير ، ثم الانفجار في البكاء والشعور بالارتياح ضرب من (المأسوسزم) وهي التلقذ بتعذيب النفس . وربما كانت العملية كلها صرياً من هذا التعذيب الأخير ، بمعنى أنني لم أكن أبى تعذيبه ، وإنما أبى تعذيب نفسى بدلالة شعورى بالارتياح التام بعد انفجارى بالسكاه . والحق أنه كان بكاء مريحاً للنفس ، يعمل الهوم ، ويرفع عنها ثقلاً لست أدرى أين مصدره وأنا طفل صغير .

أيكون حرمانى من الأصدقاء في هذه المرحلة ، وعدم تقدمى في الدراسة ، وعدم شعورى باهتمام أحد بى قد أحدث في نفسى اضطراباً ، وكان يجد متنفساً في هذه العملية الفريدة ؟ لم يكون ذلك التصرف استجابة طبيعية لأن كل إنسان ميل لممارسة القوة عندما يجد الفرصة متاحة ، والعقبات مرفوعة ، والجزاء غير محتمل ؟ الذى أحد الله عليه أننى حيناً تركنا المدرسة الأهلية ، دعنا معاً - أقصد أنا وزميل المشلول - إلى مدرسة محمد حل ، فلم أكرر هذا العنوان القبيح ، وكان هذا نعمة وهضلاً من الله حل ، ولكن الذى كان عندي أهم وأهل درجة أن زميل تقابل معى وكان شيئاً لم يحدث معى . لم يتعد عني ، ولم يتجههم يوماً لمرأى ، ولم يبلغ ضدى بحق أو يبطل إدارة المدرسة كما يفعل الرملاء . والأغرب من هذا كله أنه لم يشر قط إلى فعلانى هذه تلميحاً أو تصريحاً .

مضت الأيام ، ونحننا تلميحتنا ، وأصبحت أرى زميلى هذا ، لا تزال العامة تلازمه ، ولكنه سهر واتق النفس ، معتداً ، أنيقاً ، ويبدو لى أنه وفق في حياته العملية ، ولم يدر هو أمى كلها رأيت على هذه الصورة حدث الله ، ومرت بنجاحه ، كان هذا النجاح تعويض لى أنا وعزاه .

ثم انتقلت إلى مدرسة محمد حل ، ومرت الأيام فيها عادية ليس فيها ما يستحق أن أذكره ، ولكن التجربة كلها تستحق أن يستخرج منها بعض المعانى ، وأن توحى بغير قليل من الحواطر .

فمدرسة محمد علي مدرسة حكومية ، والتعليم في مدارس أوروبا ، خصوصاً ما كان في مراحل الابتدائية ، وما كان محلياً ، من شأن الجمعيات الأهلية ، والمجالس البلدية ، وكون التعليم الابتدائي بل التعليم بكل مراحل ، نشاطاً حكومياً من عهد محمد علي ، ظاهرة اشتراكية سبقت بها عصر ، كثيراً من البلاد الاشتراكية ، ومرافق المواصلات منذ أكثر من قرن ونصف قرن ، مملوكة للحكومة وتدار لحسابها .

وأشهد أن المدارس الحكومية كانت على مستوى جيد من كل ناحية . فللبان لاقية بالمدرسة ، مثقفة ، بها من الملاعب والمعامل والدرجات ما يتيح تربية علمية ورياضية جيدة . وكانت الكتب حسنة الطبع ، ائقة ، مصورة تورع في الأيام الأولى للدراسة ، فلا يتأخر التلاميذ في تلقى علومهم بسبب تأخير وصول الكتب والكراسات ، كما حدث ذلك فيما بعد ، حينما سمعنا الكثير عن الديمقراطية والاشتراكية ، وعن إصلاح الإدارة الحكومية ، وعندما اشتلت حاسنتا الوطنية ، فحسنا الممارك مع الأجانب والإنجليز ، وأشهد كذلك أن مظارنا ومدرستنا ، بل وفراش المدرسة وعصاها ، كانوا جميعاً عظمى الإحساس بالواجب ، يؤدونه في حماسة ، ويفرحون بتجلبتنا ، ويعجبون لثعثرنا ، ولست أذكر أن واحداً منهم ، كان مثلاً سيئاً ، حقيقة لقد مضت السنين بدون أن تقدم لنا المدرسة شخصية فريدة ، يذكرها بإعزاز خاص ، أو تترك هي في حياتنا أثراً خاصاً . شخصيات عادية ، متقاربة ، فالكل متشابهون تقريباً في اللبس وطريقة الأداء ، وفي التواضع مع التفاضات الختمى الموجود بين إنسان وإنسان . ولعله من المؤسف أن أقول إنى لا أستطيع أن أذكر لواحد من هؤلاء الأساتذة جميعاً كلمة وطنية ، أو إخاء جريئاً ، أو دعوة للمجاهرة في الحياة ، أو حكاية طريفة ، أو خاطرة غير عادية كلامهم كلام طيب في عمومه ، يتصل بالمدرسة نفسها ، ولا يخرج عن نطاق الكتاب والمدرس ، ليس فيه ما يهاب ونيس فيه ما يؤدى الشخصية ، أو يثور الضعف أو يفتح السبيل للإحتراف أو التهانون في الواجب أو الشرف ، ولكن حلت حياتنا في مدرسة محمد علي من نماذج رفيعة ، أو كلمات عظيمة أو شخصيات غلة . كل شيء رتيب في مستوى جيد .

وأحسب أن الرتبة في مدرسة محمد علي كانت قانون الحياة في مصر . في البيوت

كل شيء يوم في اليوم كما تم في الأوس ، وكما سيتم في الغد . نظام الأكل والمعيشة
نفسه ، التحيات والمجاملات نفسها ، وأسباب الكد ، ودواعي السرور . .
وبعد العمل : المقهى نفسه في الموقع نفسه ، مع الأصدقاء أنفسهم ، ليقولوا الكلام
عينه ولينجسوا المكاتب نفسها . . لم أذهب إلى مدرسة محمد علي في يوم من الأيام
حائثاً كارهاً لها ، ولم أذهب فرحاً بالذهاب إليها ، ومتوقفاً شيئاً عظيماً أو مفرحاً
وأعترف أن السنوات الثلاث الأولى لي في المدرسة كانت امتداداً لحياتي في
المدرسة في مكتب محمد سعيد والأهلية المصرية ، أعني فترة (بيات) ذهبي ، أي
نوم ، وإن لم أكن قط في مؤجرة الصف ، ولا من زمرة السيئيين أو الفاشلين . ربما
كانت السنة الأولى الابتدائية في محمد علي سمة بقطعة ، فقد كنت من العشرة
الأوائل ، وكان أسلوب في الكلام ، ومسلكي بين الزملاء ملتفاً للنظر بدليل أن
المدرس الشهير (حسين سليمان) قال لي يوماً وهو يحثي لعمل صبر مني . نعم
بمحاضرة الفيلسوف ، ولكن لماذا قال هذا ؟ لست أدري حتى الآن .

فإذا كانت السنة الثالثة بدأت بواخر اللفظة تتوالى ، فقد دخلت في مائتة أدبية
مع محمد كامل عبد السلام زميلنا الذي بدت بواخر مواهبه الأدبية ، في وقت مبكر
فقد كتب صوراً قصصية وصحة الشيخ هاشم عطية بفضلها بأنه (المويلحي) ، ولم
نكن نعرف ماذا يكون المويلحي ، وبعد أن شينا من الطوق وبدأنا نقرأ المفلوطين
وعمره ، عرفنا من يكون المويلحي ، فلما كانت السنة الرابعة بدأت أحسن بوجودي
جيداً ، وكتبت ما استوقف المدرسين ، ولكن هذا حدث فترة نالية ، هي فترة
الصبا ، فلا يحق لنا أن نتناولها بالكلام ، حتى نستوفي القول في فترة الطموحة

أحاول أن أذكر من بين مدرسي وموظفي مدرسة محمد علي ، من يستحق أن
يوصف بالشخصية فلا أجده .

صحيح أن حسين سليمان مدرس الكرة ، كان شخصاً مؤثراً في حياة لاعبي
كرة القدم في المدرسة ، وأنه استطاع أن يستثير حب هذه اللعبة في نفوس تلاميذه وأن
يخرج الكثيرين من أبطال الكرة في مصر ، الأمر الذي يجعله بحق رائداً من رواد
الترفيه البدنية في بلادنا . وصحيح أيضاً أن رعايته للعبة كرة القدم كانت نشاطاً
إصباتياً لعمله الأصلي ، وهو تدريس اللغة الإنجليزية ، مما يريد من فضله ، فقد

كان هذا التطوع من جانبه قليلاً حليماً ، يدلل في مسيله من الوقت والجهد كأنه كل عمله ، وكأنه يقتات منه . ولكنه بعد ذلك كله إنسان عاقل لا يستوفك في مظهره ، ولا في أسلوب تدريسه ، ولا في علاقه بالتلاميذ ، شيء يميزه عن سواه .

إذا كان لابد أن نضفي لقب شخصية على أحد من مدرسي وموظفي مدرسة عمد على ، سأحترار ثلاثة لا لأنهم يستوفون (صفات الشخصية) ، بل لأنهم أقرب مايكونون من (الشخصية) أولهم مدرس اللغة العربية ، بقى يحتفظ بالعمامة والحبة والقطفان ، و(المركوب) .

والمركوب هنا عصر مهم فقد هجر — أبلم طفولتنا — وجمال الأزهر هذا النوع من الأحدثية ولكنه احتفظ به ، وإن لم يحتفظ بشيء من صفات الأزهرين القدماء كالحرص على التكلم بالعربية الفصحى في شئون الحياة اليومية ، مثل طلب كوب ماء ، أو أصبح طباشير . فقد كانت لغة سهلة وبسيطة ، وكان حل شدة لا يبالغ في هذه الساحة المبالغة التي تخرج التلاميذ من طاعة ، وتجعله هدفًا لسخرتهم ، ولكن كانت له لازمتان ، أولاهما أنه كان يتفق جزواً كبيراً موفته في الحصص في عمل غاية في الغرابة ، ذلك هو كتابة جدول الحصص المقررة عليه حل ظهر عليه من جلب سجاتره ، فهو يبدأ بإعداد هذا الظاهر ، ثم يرسم جدول الحصص بالقلم والمنسطرة ، ثم يكتب الحصص في أنة ودقة ، ثم يتأمل الجدول بعد ذلك ، ويحيط التأمل فيه ، ثم لا يلبث أن يلقه في صلة المهملات ، فبدأ يُعدّ جدولاً جديداً ، وهكذا . . . فإذا كانت الحصة التالية تحيل إليك أنه فرغ من هذا الجدول ، وأنه لم يعد بحاجة إلى تحضير نسخة جديدة منه ، ولكنه لا يكاد يكلفنا بواجب مدرسي وشغل به حتى يخرج عليه سجاتره القارعة وشرع في حمة وانشغال بال يسطر ويكتب الجدول

وكان يكمل هذه اللازمة عنايته المشددة بيري قلم رصاص صغير ، يعلوه خطاه من الصميص الأبيض ، كنا سميه (ليسة) فلقم هذا الأستاذ يجب أن يكون قصيراً لمسك به الأصابع بصعوبة ، ولابد من خطاه الصميص ، ولابد من (بربه) كلما سمحت الظروف بإعداد جدول جديد . فإذا فرغ من يري القلم بمطواة يضعها في جيب صغير ، تحت حرام قطفانه نظر في سن القلم طويلاً ، حتى إذا اطمأن إلى أنه حاد ، كحد السيف ، شرع يكتب .

فلذا فرغ من الأمرين معاً أخذ في يرى أقلام بسط ، وهي أقلام من البوص
أو القصب ، كنا نستعملها في درس الخط العربي ، التي كان صمناً لتحسين
خطوطنا . ما أشد حاجتنا إليه الآن !

أما الظاهرة الثانية فهي حرصه الشديد على أن يضرب التلاميذ المخطئين بكل
كفه ، حل أهل طرايشهم ، فوطيقها تطبيقاً ولعل هذه الحركة كانت تعبيراً
(سيكولوجياً) عن رغبته في إلحاق الإهانة مع الألم بالتلميذ المسيء . فقد كان
الطربوش في تلك الأيام ، عنوان الشرف ، فتحطيمه تحطيم لشخصية المعاقب
وربما كان هذا اللون من العقاب ، ضرباً من التعبير عن كراهية الشيخ للطربوش
ربما يعني من الخروج من النظام القديم الذي مثله العمامة والجبّة والقمطان
والمركوب .

ولقد درس لنا الشيخ التاريخ المصري القديم في السنة الثالثة ، ولست أنسى
تعليقه يوم أن وصلنا إلى تاريخ (إخناتون) فقد قال في أسف صادق : « يقولون إنه
اعتلى إلى فكرة التوحيد ، فظننت أنه عرف الله ، فلذا هو يدهو إلى عبادة
الشمس » .

وربما كان هذا هو التعليق الوحيد الذي يحمل تصريحاً واضحاً لرأى الشيخ
ولكنني كنت أحب ، وقد أحبني ، فوكل لي في درس الدين أن أقرأ كل الحصة شيئاً في
كتاب الديانة والتهذيب ، حتى تلق الحصة ويدق الجرس .

ولكم أحرزني أن بعض التلاميذ كانوا يضعون في موضع الرر من طربوشهم
ديوساً ، كأنه مانعة للصواعق ، حتى إذا أهوى بكفه حل رموسهم ، اخترق الديوس
لحمه ، وقد أصابه من ذلك أول الأمر ، ألم شديد ، ولكنه تجلد ، واستعاض من
الضرب بالكف ، بالضرب بالعصا ، فوق الطرايش والرموس معاً ، وعجز
التلميذ عن مواجهة السلاح الجليل ، بسلاح مثله ، مع أن الثابت أن الإنسان
لا يفرق إلى سلاح ، حتى يوفق الأعداء إلى سلاح يلحق أضره . . رحم الله أستاذنا
ورحم تلك الأيام ! .

أما الشخصية الثانية فمدرس اللغة العربية ينتهي اسمه بهاشم ، وهو من عائلة هاشم التي أخرجت عدداً من الأساتذة ، وقيل لي إن اسمه عطية هاشم أو هاشم عطية ، وقد كان سميناً ، أقرب إلى القصير ، يسير مفتوح الصدر ، عرف بين التلاميذ (بعثرة) ، لأنه كان شديد الإعجاب بعثرة بن شداد ، يروي لنا شعره ، ويشرح لنا بطولات فروسيته وحرره ، وكان عصرياً جداً ، لا يميل إلى صرب تلاميذه ، وكان يحدّثنا عن الأدب الحديث ، ويهدونا إلى الكتابة في الأمور الجارية .

لما الشخصية الثالثة فهي شخصية الشيخ مصطفى ، ولكنه لم يكن مدرساً ولا معاوناً أو ضابطاً ، وإنما كان قراشاً ارتقى بهت وحيوية وطموحه إلى أن يكون شيخ الفراشين ، واستطاع بهذه الفضائل أن يجعل شيخ الفراشين موظفاً أقرب إلى السلطات العليا منه إلى طبقة الفراشين وإن كان وليسهم . كان يتبع الناظر وهريوزع الشهادات على المتفوقين ، وكان يتولى توزيع الكتب الجديدة ، وتلدجاً إليه كلها أردنا أن نستعلم من شيء يتعلق بالامتحانات أو سداد الرسوم أو الحصول على الإحصالات ، وكان له نشاط لا نذكره حتى أترجم عليه ، وأترجم على أبيه ، ففى تلك الأيام كان نظام التوفير بطوايح البريد سائداً في المدارس . وكان الشيخ مصطفى يوزع علينا ورقة مقسمة إلى مربعات ، وكان المطلوب منا أن نلصق في هذه المربعات ، طابع بريد من فئة الخمسة مليعات ، فإذا أتمنا لصق عشرة طوايح في المربعات العشرة سلمنا الورقة ، وقهد لنا في دفتر خمسة قروش وهكذا . . . وكان الشيخ مصطفى يستحسنا على ملء المربعات بالطوايح ، حيثنا كلها ادخرنا جنبها . . وكان كل ذلك تربية اقتصادية وقومية من الطراز الأول .

وقد كان الشيخ مصطفى سميناً في غير ترهل ، ولكن سمته لم يحمل بينه وبين الحركة الدائبة ، رايته يوماً والناظر يحضر للصفحة الرياضية التي تقام آخر السنة ، بعددوى حوش المدرسة ، ليرى بعض التلاميذ المطلوب منهم الاشتراك في مسابقة قد اصطفوا ليما رسوها ، فأتاحل شال عمامته ، وصحك الناظر ، وضحك التلاميذ ، وحاد هو إلى موقعه إلى جانب الناظر ، وهو يفعل شال العمامة ، ويلهث ويضحك .

أما الشيخ عجاج فلا يعدّ من الشخصيات ، وإنما لا أستطيع أن أنحدث من مدرسة محمد علي وأيامي فيها ولا أذكره ، فقد كان مثالا للمدرس الذي يستطيع بعبر العضا والتهديد أن يجيب إلى تلاميذه اللاعة التي يدرسها لهم ، وإن كانت قليلة الشأن

رسمياً فقد درس لنا مادة الدين ، وهي مادة لا تدخل في مواد المجموع الذي يتحدد ترتيباً بناء على درجاته ، والرسوب فيها لا يؤدي إلى السقوط في الامتحان .

وهي تدرس في حصة واحدة يتيمة تترك في ذيل حصص اليوم ، إشعاراً للجميع ، بأنه مادة في الذيل . ولكن الشيخ عجاج استطاع أن يقلب الأمور رأساً على عقب ، قلباً طيباً ، وبغير ضجيج ولا عجب ، مع أنه عجاج .

إنه لم يعلمنا الدين بحساباته وحفظاً ، ولكنه قص علينا من تاريخ الإسلام قصة إسلام (عمر) ، بطريقة استلذت النسم من هويتنا ، فقد روى لنا كيف سمع عمر بإسلام أمته وزوجها سعيد ، فذهب إلى بيتها ، بعد رحلة صيد متمتظاً بقوسه وسهمه ، فلما وصل إلى البيت سمع صوتاً يتلوشه لا عهد له به ، فأنصت فإذا هو سورة (طه) . وقرأ لنا في الحال ، من سورة (طه) ، بصوت جيل مؤثر الآيات الأولى لمجاشيت حواظتنا وجمعت هويتنا ، وأصبحتنا جميعاً في أشد الشوق لمعرفة ماذا أصاب فاطمة بنت الخطاط وزوجها رضى الله عنهما ، فلما أخبرنا الشيخ عجاج أن عمر فتح الباب برفق أحسنا كلنا أن وراء هذا الباب مفاجأة لنا نحن . . وروى بعد ذلك ما دلل بين فاطمة المؤمنة الضعيفة وعمر الكاسر القاهر ، حتى إذا ما انتهت القصة بانتصار الإيمان مع الرقى ، حل الكفر مع العظفة ، كدنا نصق كذا كذا نفعل في حلقات الشاشة الفضية . . وهذا الأسلوب القصصي الجميل استولى الشيخ على قلوبنا ، فأصبحتنا طوع بناته ، أوحى إلينا أن نصل ، فاجتمعنا في اليوم التالي ، بقضنا وقضيتنا في الفصل بالمدرسة ، ودهش زملاؤنا في الفصول الأخرى ، لهذا التغير المفاجيء الذي أصابنا فقلدونا ، وسرت العدوى إلى الفصول الأخرى ، وأدركنا ناظر المدرسة ، أن سر هذا كله صوت الشيخ عجاج الجميل ، وحاسه تواجبه ، وأسلوبه المؤثر في التربية . . وعلى الشيخ مثلاً عندي على المدرس النجيب ، وعلى القدوة وأثرها الذي لا يرد ، وقومها التي لا تغلب . .

أنا والريف

صحبتي أمي ، وأخوتي الكباري ، إلى الريف ، وأنا طفل دون السابعة بل دون السادسة ، أكثر من مرة ، فعرفت ريف مصر ، في هذا الوقت المبكر ، وأصبحت أعرف بين المحراث والورج ، وبين الشادوف والطبورة ، وبين الساقية والمسقى ، ووعيت معاني أساء كالعمدة وشيخ البلد ، والخفير وشيخ الحفراء ، والنقطة وملاحظ البوليس . ورأيت رأى العرس حقول القطن ، وسمعت بأذن فتاة الأطفال ذكورا وإناثا ، وهم يجمعون زهرات القطن في حجوزهم ، كما رأيتهم يلتقطون دودة السورق ، ودودة اللوز ، في كيزان يحملونها ، ومن ذرائعهم « رس » بشعر فوق رؤوسهم حصا معدودة ، وجلست في الأمسيات على قناطر صغيرة أقيمت فوق قرع وصاقي ، وأصبحت لأهل الريف كشاطف النمل في القاهرة ، يلتسمون عندها ، بعد غروب الشمس ، وعناء اليوم نسملت خفيفة ، يروحون بها عن أنفسهم . ثم دخلت أكواخ الفلاحين ، وشريت من القلة التي يشربون منها ، متفرزا نوعا ما ، ولكن تمهلدي وشدة حرصى على حواطف الآخرين ، أعاننى دائما حتى أن أغشى مشاهري . وركبت الحمار والحصان والبغل وهربت في الريف قديمة ، كما ركبت فوق النورج ، ودخلت زريبة المواشى ، وميزت بين البقرة والجاموسة ، وعرفت ماذا يكون الشنبري وماذا يكون الجلندى . ثم أتيت في فرصة ما أظن أنها أتيت لسواى ، فقد زرت ضياعا قامت في إصلاح الأراضي البور على الوسائل الحديثة ، فראيت قطار (الديكوبيل) وهو قطار سكة حديدية صغير ، يجرى فوق قضبان حديدية من مقاس صغير ، وهو قطار يستعمل لرفع الأثربة ، ولتنقل الطمي المطلوب .

للأرض المراد استصلاحها ، وركبت إلى جانب سائق هذه السكة الحديدية الصغيرة ، وأجبنى صوت صفارته والوقوف في محطاته التي تشبه السكك الحديدية الحكومية ، ثم رأيت رواعيت جديدة في مصر ، كزراعة الحياء والعول السوداني ، ورأيت أكياس الحياء بعد سحق لوراقها ، وقضيت أياماً سعيدة في الريف ، ولكن لا مرحاً بحياة الريف نفسها ، لأنني كنت أجد في كل زيارة قمت بها للريف صديقاً أو أصدقاء اللعب معهم ، وأتسل بصحبتهم أما الريف نفسه ، فلم يكن يروقني كثيراً ، وإن كنت لا أكرهه ، ولا أضيع بالبقاء فيه ، وأشعر بالحنين إلى المدينة . ولكنني لم أجد في الريف ، متعة لم أجدتها في المدينة ، فاليوت التي كنت أنزل بها في أثناء زياراتي الريفية ، هي أشبه بيوت القاهرة بناءً وأثاثاً ، والحفنة فيها تكاد تكون الحفنة التي أهرقها في مصر ، والناس الذين أهابهم في القرية ، وأحدث إليهم ، وألهم معهم ، وأخرج للترحة في صحبتهم ، هم حضريون ، تلاميذ مدارس ، وأقرباؤهم من النساء والرجال من الذين يلبسون ملابس المدينة ، ويتكلمون لغتها ، ويفكرون تفكيرها .

أما طعام الريف الذي كنت أحب بعضه كثيراً ، كاللبن « الرائب » الذي يمد في آنية فخارية يسمى كل منها (مترد) ، والقشدة والعطير « المشانت » ، وحسل النحل ، فهذه أشياء كانت ترد إلينا ، ونس في المدينة ، وفي شوارع القاهرة كانت عربات الهد ، والعربات التي يجرها الحمير ، والمشانت والمقاطيع والأقصص ، تقدم إلينا حتى أبواب منازلنا خيرات الريف من الحضر والفاكهة ، فالفصص والجزر ، والحس والجرجير ، والتضاح والموز ، والبرتقال والموسقى ، والخيار والقش ، والليمون والفجل ، نراها ، ورائحة القبط تفوح منها ورحله يقرعها ، والذين يبيعون لنا فلاحون وفلاحات بملابسهم ، يخاطبوتنا بلغتهم . وفي القرية مدارس هوايات أهل البلد من التصوير ، والتحميض ، والصيد بالبنديقة ، ولعب الترد وأنشطرج والدموينو ، وقراءة الصحف والمجلات ، وصمغ أقراص « الفونوغراف » .

ولذلك بش الريف بعيداً عنى ، وأنا أسير في حارات القرية وأزقتها ، وأحس شيوخها وكبارها ، والأعب صبياتها وقضاياها ، فلم تتضح لى صورة الريف

تفاصيلها ، ومعاني هذه التفاصيل . لم أميز بين رجل ورجل ، ولا بين صبي وصبي فالجميع كانوا أشبه برقصات التاليف على المسرح ، وبالجنودى الصف . فمن الصعب على المشاهد أن يحس أن لراقصة « بلييه » فى المجموعات ، ميزة عن زميلاتها ، وإذا كان هذا عيباً فنياً فى العرض ، إذ يبلغ النجاح قمة ، عندما تتشابه الرقصات أو الراقصون ، كما يتشابه الجنود ، الشارون أملاك ، لا تقوى على تمييز ملامح واحد منهم ، لأنهم جميعاً أجزاء صغيرة فى صورة كبيرة القروض أنك تعرفها فى جملتها الشاملة .

وكما ينجح التدريب فى البالية والجيش والعروض الرياضية ، فى تحويل الأفراد إلى مجرد وحدات ، لا شخصية خاصة لها ، كذلك استطاع النظام الرتيب المستقر ، فى تحويل الملاحين نساء ورجالاً إلى مجرد وحدات تراها من بعيد أو قريب ، فلا تبعث فى نفسك إحساساً خاصاً . فالجميع فلاحون يرتدون ثياباً سوداء لوفاتة متشابهة ، ويسهرون فى خطوة واحدة ، وتبدلون على وجوههم المسحات نفسها . وهم إذ يكلمونك يقولون الكلام نفسه ، وهو فى الأغلب الأعم كلام لمسلم خيال من العمال المحدثه ، فأكثر عباراتهم « الله أعلم ، ريتا يسهل ، إن عشنا ، تعيش يا سيدى ، حاضر على عيني ، ما شفتش ، ما سمعش ، ما جلتش ، مظلوم يا سعادة اليه . . إلخ إلخ » .

لذلك لم أستطيع أن أنشئ علاقة مودة خاصة مع أحد فى الرف ، إلا حيث يكون العمل قد أتاح للفلاح أن يتكون له شخصية ، فأكثر أصدقائى ، وأنا طفل ، كانوا « وأوسطى » ، و « بوبر المله مثلاً ، أو سائق قطار « الديكوفيل » ، أو الفلاح الذى يرسل إلى المركز لشراء الحماضيات والجرائد ، أو صبي جميل الصوت ، أو فتاة تحفظ بعض أغاني المدينة ، فهؤلاء وحدهم تستطيع أن تميزهم ، ويمكنك أن تتحدث إليهم ويتحدثون إليك ، وإن كانت القشرة التى تتكون خارج شخصيتهم رقيقة ، لا تكاد تقشطها بالمطواة ، حتى ترى أن ما تحتها هو فلاح بلا شخصية ، لا يعنى من أمور الدنيا إلا أقل القليل ، وأنه يمرود فى الحال إلى اللوح المحفوظ . يكرره عن ظهر قلب : « الله أعلم ، ريتا يسهل ، قسمة ونصيب ، بعدنا سيدك ، حد الله ما جلت ولا سمعت . . إلخ » .

ولكن قد كنت لي في الريف أشياء أحبها ، وإن كنت لا أحب في حبها إلى حد الحماسة ، كما في حبها أحب ، أو أشغف بشيء أو هواية لو مكان . كان صوة القمر المنبسط على حقل القطن ، يأخذ مجامع قلبي . وكان الإحساس الذي يشعني حين أرى هذا المنظر ، كيف أحويه احتواء . وكيف أحس هذا الضوء الأبيض المادي ، مع هذه الشجيرات التي تمتد إلى أقصى حدود البصر ، في وحدة واحدة ، كجذرة أو كقمة مثلاً ، أشربها أو أكلها ، فلونوي لو أشبع وأنصرف . لم أكن أحب انعكاس القمر على سطوح الماء الواسعة ، كالبحر أو النيل ، بقدر ما أحب انعكاس نوره على مجاري الماء الصغيرة ، كمسقى أو ترعة ، فدرات الماء تتحول إلى فصوص ماسية ، لا أعرف كيف أجمعها في بلى ، وأشبع من التأمل فيها .

وقد كان نقيض الضفادع ، مع صفير الصراصير الحظية في الليل يبحث في نفس شعوراً غريباً ، أقرب ما يكون إلى الحزن ، ولكنه مع ذلك ، شعور استعبد وتصفو نفسي له . لعله كان يمثل أنين الريف كله ، وانكساره ، ورتابته وعجزه . وكلها اشتدت حلقة الليل زاد أثر هذا الصوت في نفسي عمقاً ليسلمني إلى الحزن المادي .

أما الشعور الثالث الذي كان يبحث في نفسي الريف ، فهو شعور بالأمان الفلق . حينها نخرج بالليل في زيارة ، ومن خلفنا خفير يجرى وهو يحمل على كتفه بندقيته ، وأحد أقربي أو أصدقائي أو زملائي في الرحلة ، يحمل مسدساً ، يتأمل في بداية الرحلة ، على ضوء مصباح ذي خيلة ، أو على ضوء القمر ، ثم تسير بنا (الركائب) خبيأ ، ومن حين إلى آخر نسمع صوتاً في التيهط المجاور لترفع الخفير أو الحبل أذانيها ، ترقماً ، ودراصة للموقف . في هذه اللحظات لا يتأبى الخوف ، وإنما أشعر بالأمان ، إذ لم يدرك بخلتي قط أن نكون هدفاً لوصاص الأعداء أو هجوم ، وإنما لا أستبعد ذلك تماماً . فلذا انتهت الرحلة شعرت بسعادة من كان في مغامرة ، ومن انتهت مغامرته على خير .

وقد كان لحواء الكلاب في الليل ، أثر يبحث في نفسي الشعور بالأمان كاملاً ، لا سيما إذا كنت في فراشي ، وهذا الصوت يترامى إلى من بعيد ، فأفقد صور مدني

البعد الذى جامع عبره الصوت . الناس فى الخارج ، وأنا فى فراشى ، ملتحف
بغطائى ، والكلاب تسبح تنبيهاً لخطر ، أوردنا لعدو

ومن الروائع التى كنت أحبها رائحة الخبز ، حينما أمر مناحية القرون الريفى ،
وأشم رائحة العجوى ، وقد بدأت النار تشوبه . كما كنت أحب رائحة إسطنبول الخيل
الذى ترعده أيد خبيرة ، كما كان يستهوى منظر الخيول ، وقد أطلت مرموسها من
فوق الحاجز الخشبي الأخضر ، وهى تنظر بعمق واسعة إلى الناس ، وقد خلت
نظراتها من الهم والقلق .

وقد كانت فى الريف هواكه محبة ، أقدمها حل مثيلاتها من فاكهة المدينة ، فانا
أحب التوت أكثر من حبى للمراوثة ، وأحب الجميز الناصح أكثر من حبى للذخوخ
ولو كان جيداً . وأحب اللبن « الزائب » أكثر من القشطة . وأحب الجريدة التى
يحملها ساعى البريد الذى يركب الحمار ، ويضع للتدليل المحلاوى تحت طربوشه ،
أكثر من الجريدة التى يبيعها لى بائع الجرائد فى القاهرة .

ولى فترة طفولتى انطبعت فى ذاكرى صورتان لشخصيتين فى الريف ، أولاهما
« بكير بك » ناظر الزراعة التركى ، ذو الشلوب الكتيفة ، الهادى الطبع ، الذى
يسر ويبدأ ، ولا يفعل أبداً حل العكس من زوج خالتي الذى يناظره ، والذى كان
أحمر الوجه ، شديداً ، سريع الغضب ، هيفاً مع مرموسه ، ورؤسائه معاً . رأيت
بكير بك فى محفة موسى ذات ليلة ، وكنا جلوساً فى الحديقة ، ولما حانت ساعة العودة
أخرج مسدسه ، فى نور القمر الذى كان قد تسرب إليها من خلال ورقى الشجر ،
وهم فى سكون إلى حصانه ، وكان كل ما أراه مشهد من مشاهد السهبا

أما الشخصية الثانية ، فسوداقى بلغ سن الهرم ، وسقطت أسنانه ، وكان
« أسطى » لوابور مياه ، ومعه كلب يزامله المعيشة فى هذا الوابور خارج القرية فإذا
جاء الرؤساء ، هوى لهم ، الشيخ ، وهو يرقص : طلعت أدب نزلت أدب . وهو
يضحك . كان عم سعيد أيضاً شخصية تصلح للمسرح لو لقصة فى كتاب وقد
انضمت بها فعلاً ، فكان يفلوها فى ذاكرى ، ويثأرى بها ، دليلاً على أن الريف
المصرى ، ترك فى نفسى ، من اللاكرينات مالا يحويه الزمان .

الخليج العاشق

مملكة الطفولة

لقد كشف لنا تاريخ الإنسانية حل مرصوصه وأدواره أن الحدود هي مبعث الخلافات ، ومثال الحروب بعد للنزاعات ، تنازعت القبائل ، وهي تبحث عن المرحى من جراء حدود الأراضي ، واحتلقت الدوليات على ما يدخل في أرضها وما يخرج من أرض الجيران ، لأن بضعة فراعش تروح يمينا ، أو تخشى شمالا تعنى معها لنهر ، أو منجبا من ذهب ، أو بئرا من نطف ، لو تغرا على بحر ، أو قمة فوق جبل ، أو موقعا منهما يحدد الغزاة ، أو مدخلا سهلا يتسلل منه العداة

ولقد كنت أحسب أن الحدود الشيرة للتراع ، هي الحدود المرسومة بالقلم والمسطرة على خريطة ، فلما هزمت أن أكتب قصة هذا الصبي المصري بعد أن فرغت من كتابة قصة طفولته في كتاب « خط العنية » رأيت جانبا طريقا من مشكلة الحدود ، فقد كنت أحسب أن الحدود بين أدوار عمر الإنسان واصحة المعالم ، بينة للمواقع لا يختلف فيها اثنين ، ولا يتطرح هنزلا 1 ولكن لم ألبث حتى عرفت صكس ما وعت ، فهي أدوار العمر الإنساني حلقفت بتارخها الجيران ، حتى لا تكاد تعرف لها في حياة الإنسان حيزا تقنع به ، ويقنع بها : فالطفولة دور له مقام يقربه الجميع ، وتؤلف فيه الكتب وتنظم القصائد ، وتنشأ حبا وتقديرا له المؤسسات ، وتقام من أجله الدور ، وينافسه في كل هذه الرايا الشباب ، فالطفولة هي البداية ، وهي البراعة ، والطفل هو ابتسامة الحياة ، وقرة أعين الأيوين ، وضحكته في البيت الحزين ماقوس من ذهب ، يبدد ظلام الحزن .

أما الشبب فهو ربيع الحياة تصل به إلى قمتها ، وتبلغ أجمل قنتها ، وتصبح الدنيا أمامه ، ساحة فسيحة يتألق الحمال على جانبيها ، تتحللها الياابيع الضاحكة بمائها المتلألئ ، وحريرها المهموس ، وجرياتها المتوازي غير المحسوس ، وهي مع ذلك ميدان معركة يطلب فيها الصولان والجولان بحثا عن الحب والمجد ، والتضحية التي توهم بالخلود ، وتوحى بالعظائم .

ولكن قل لي برك - ماذا يكون دور (المصبا) ، بين مراحل الحياة ؟ وماذا يكون المصبي بين الطفل والشباب ؟ لا هو البداية ، ولا هو النهاية ، ولا هو أقصى القوة ، ولا هو عاية الضعف ، لا يذكره ذاكر ، ولا يطرحه ناسر أو شاعر ، وإذا سألت الكتب أو الناس عن السن التي يبدأ بها المصبي صباه لم تجد جوابا شافيا ولا ردا هاديا وقد فرحت إذ ذكرت أن القرآن الكريم جاء في موضعين منه لفظ المصبي مرقوتا باسم نبيين كريمين ، وفي سورة واحدة هي سورة مريم ، ولكن الأمر زاد غموضا عندما لجأت إلى تفسير المفسرين :

في أحد الموضعين : جاءت مريم عليها السلام تحمل حملي عيسى ، وهي لم يحسها بشر ، فهال الأمر قومها ، فسألوها كيف نلد وهي لم تزف إلى رجل ولم يعرف عنها ولا هن أمها سوء ؟ فكان جوابها كما قال الله تعالى : « فأشارت إليه قالتا كيف نكلم من كان في المهد صبيا ؟ » .

ولعلك متى في أن اجتماع لفظي « المهد » و « صبا » يزيد الباحث حيرة ، ويزيد البحث تعقيدا : فلهذه من خصائص الطفل ولو ازمه ، أما المصبي الذي نقول كتب الطب إنه يكون في السابعة - فكيف يحمل وهو في هذه السن أو حتى الرابعة في مهد ؟ وإن جاز أن يحمل هل كتب شيء من التجاور والتسامح ، ولجأت إلى كتب التفسير ، فلم أظفر منها بما ينفع الغلة ، فقد قال القرطبي : « وروى أن عيسى عليه السلام إنما تكلم في طفولته بهذه الآية ثم عاد إلى حالة الأطفال ، حتى مشى هل عادة البشر إلى أن بلغ مبلغ الصبيان ، فكان نطقه إظهار براعة أمه » .

فعمسى عليه السلام في رأى المفسر العظيم ، كان طفلا يحمل على الأيدي ، أو يرفع في المهد ، ولكنه حينما تكلم كان صبيا ، انتقل من الطفولة إلى الصبا للملاحظة ، وعاد إلى طفولته ، ولكن تبقى الطفولة والصبا متداخلتين ، بل إن بعض الشراح

يقولون : إن عيسى كان يصرع فلما سمع كلامهم ترك الرصاعة ، وأقبل عليهم بوجهه وأثكنا على يساره وأشار إليهم بسبابته اليمنى .

وكان موضع آخر من سورة مريم ، جاء من مولى الله « يحيى » عليه السلام . (يحيى) أحد الكتاب بقوة ، وإتياء الحكم صبيا) وجاء في تفسير القرطبي عن الرازي عن « معمر » أن الصبيان قالوا ليحيى اذهب بنا ليلعب ، فقال ما للعب خلقت فأمر الله تعالى (وإتياء الحكم صبيا) وقال قتادة : كان ابن مريم أو ثلاث سنين وقال مقاتل : كان ابن ثلاث سنين ومن هنا نرى أن اثنين من كبار رواة الحديث الشريف ، يعتبران الصبي من بلغ الثانية أو الثالثة ، وليست أدري كم يكون عمر الطفل إدد ؟ كما لا أدري إلى كم من النسخ تمتد سموت الصبا ؟

وهأنذا نرى أن شكوى من ميوعة الحدود بين الطفولة والصبا شكوى تقوم على رجلين ، وأنها تخلو من المبالغة ولا ديب لعهد الصبا إلا في أنه بين عهدتين عظيمتين ، ظفرا من أهل الأدب كتابا وشعره ومفكرين من العناية ، ما استند اهتمامهم ، فلم يعد باقيا منها ما يمكن صرفه إلى عهد الصبا الذي حرمه الله جديبة الطفولة ، ورواه الشباب .

إذا طالت قامة الصبي ، واشتد عونه ، ودبت إلى صورته خشونة ، وامتلأ بدنه بالقررة ، وأصبحت له لحية كثيفة تكمل على صدره ، وشاربك حاداك ، تصل أطرافهما كصهل السيف إلى ما فوق الوججات ، قريبا من جفون العيون فإن طمرلة الإنسان تبقى من حلف هذه المظاهر الغليظة وذلك التكر الثقل . فالرجل طفل كبير ، حسب أن تنزل به الثائرة ، أو يستبدج هوى شيء مما يسيل له لعاب الرجال : امرأة حيواها ، أو منصب يحلم به ، أو صفة يتمناها ، أو مكيدة يعقل حياها ، حتى تمرى طمرنته ، وتسقط عنها الأستار ، وإذا هو يكي بكاء الأطفال ، أو يهرج فرحهم ، أو يتحلل من أسر الوقار ، أو يخرج من حدود الاحتشام ، فإذا تكلم وهو في حالة من تلك الحالات — أجهشك أن يتقلب الخاد المتزمت الرصين في لحظة إلى طفل لا يضبط نفسه ، ولا يلزمها جانب الاعتدال ، بل يتركها على سجيبتها تهزل وتسف ، وتكفي وتصرح ، أو تقفر في الهواء ، أو ترقى في الأرض لا تبالي أن يراها

الناس على هذه الصورة ، وأن يكون الحافظ على كل هذا أهون من أن يستتر من
العيون دعة ، أو يبحث من الصلور أنه

والعرب أنه كلما تقدم بالإنسان العمر ، اقترب من الطفولة ، فسندت عليه
مخائلا ، لا في تصرفاته وسلوكه ، وما يحب وما يكره بل في خصائصه البدنية فصوته
يرق وحطاه تقصر وحاجته إلى رعاية الناس تزيد ، وميله إلى الثرثرة يشتد ، ومن هنا
نرى أن الأجداد والحفدة يتبادلون الحب والود ، وطبب الأحاديث ، ويسهل عليهم
التعامل والتصاهم ، فإذا وصل الإنسان إلى أولئك العمر ، انقلب طفلا كامل
الطفولة !

فلا عجب بعد ذلك أن يهت دور الصبي إلى جانب دور الطفل ، وأن يصبح
الحديث عن قصة الصبي أصعب من الحديث عن الطفل ، وهرائب أطواره ،
ولطائف أحواله ، وأشق من قصة الشاب ، بمجازاته في دنيا الحب ، ومغامراته من
أجل المجد ، ولكن لا بد ، مما ليس منه بد !

فما تستدق فرغت من قصة « حط العنة » التي رويت فيها قصة هذا الطفل
المصري الذي كان يطلها فالترتيب إذن على قصة الصبي الذي استحال إليه الطفل .

طالت قامت وإن بقي سحيا ، وأصبح أقل حركة وإن بقي قلقل لا يستقر على
حال ، سرعا لا يعرف المسير إلا عدوا ، والنزول على السلم إلا قفرا ، والصمود إلا
وثبا ، وتناول الطعام إلا حطفا لا نراه أبدا إلا وفي يده « منديل » كأنه العلم
المنشور ، يضعه بين أسنانه حينما ، ولكنه في جميع الأحوال لا يفارقه ، ثم هو معتز
الوجه ، متصبب العرق لاهتا ، يلقف أنفاسه : كأنه في سباق مستمر مع منافس
مجهول في حلبة غير منظورة ومن أجل حائقة غير مرئية يملؤن كل ما يمارسه الصبيان
وربما ساهم في لعبتين لو ثلاث خلف الرمي (البل) بين كل هجمتين أو يرى في يد
صبي مثله طائفة من الورق فيأخذها منه غصبا أو عن رضا ، فيمرح بمزأها وهي
نصعد وتعلو وتتأرجح في الهواء ، وتكاد تهوى على الأرض ، فإذا ما اقترب الأعداء
من الجسم الذي يحميه أسلمها لصاحبها وأخذ الشرف ، وأدى الواجب ، وعاد
يبحث عن شيء آخر ، ولكن إذا كانت المباراة حامية اللطيس واللعب يستأهل
التركيز رأته في الرمي ، أو على خطوط الدفاع على الرغم من ضعف جسمه وتحوله
متوئبا متأهبا ، تكاد نفسه تذهب حسرة ولما ، لو أفلحت منه الكرة .

والحق أنه حل جسمه أكثر مما يحتمل فقد كان كثير المرض ، لا يكاد يشفى من التهاب في لوزتيه حتى يصاب بالحمى فيها من جديد ، وفي كل مرة بعد بأنه لن يعود إلى العيف من عنده وركبته ، ووثيه وقفزه ، وصياحه وصراخه ، وتشبت ذهنه بين الألعاب ، حتى يكمل شعوقه ، ولكنه ما كاد يستطيع أن يرفع رأسه عن وصافة المرض - والصعرة يادية في وجعته . والضعف مطل من عييه حتى تراه في الطريق ومذيله في يده يسلو ويهبط ، وينشر ويطلو ، وهو كريحة في مهب الريح ، قلّة وزن ، وكثرة تارجع ، وسرعة عطب ، ولكن مغالبة المرض وإنكار حقه في طلب الراحة والاستجمام كانت لفة هذا الصبي الضعيف الواهن ، وكأنها لعبة من ألعاب الكثرة بيد أن هذا الصبي المسكين كان أشبه شيء « بدون جوان » أحب كثيرا ، لأنه لم يحب واحدة . فلما استأثرت به إحدى معشوقاته فأص بها . وأطمأن إليها ، ما أحب سواها ، ولا نطق لها ، فهو عاشق فاشل وإن بدا عاشقا غاريا فهو كشهريار قتل معشوقاته ، لأنهم جميعا كن لا يصمدن لتبذبه ، وتقلب هواه !

كذلك أحب الصبي كرة القدم والملاكمة والمصارعة ، ولعب « البلي » وركوب « الدراجات » وممارسة الألعاب الأخرى على اختلاف أسمائها ونباين قواعدها : فمن لعبة « الرصة » أو « الأولى » وإن كانت لعبة بنات أو لعبة المحجلة المعروفة باسمها الفرنسي (أتانسيو) أي الاهتمام ، والفقر على الحبل ، وإن لم يظنه قط ، دع عنك ألعابا لا أخرى هل كنت قد سمعت عنها ؟ مثل (الجند) و (البلس) والنطة « الإنجليزي » والطرة ، والقطعة العمياء ، والألعاب « الكونشيه » والطاولة والدومينو . ومعازلة الشطرنج عند الاقتراب من سن الشباب ، وألعاب الذاكرة والذكاء ، والألغاز والعوازير . عشرات من الألعاب لكل منها سحر ولكل منها وقت ، ولكن منها موسم يشتد الإقبال فيه عليها ، ثم تنسى ثم يتجدد الاهتمام بها والإقبال عليها . كأنها عرفت لتوها .

ففي اشتاء غمحو ألعاب البيت ، وغمحو هذه الألعاب في الأمسيات والليل ، أما في الصيف فتحلو ألعاب الطريق العام ، والأندية التي لم تكن نسميها « الشعبية » لأن هذه الكلمة لم تكن قد عرفت بعد . ولم تكن نقول قط عن أحد من الكبار أو الصغار : إن له « شعبية » لأننا كنا نقول : رجل طيب أو محبوب أو « عشري » أو « خلعوم » ، أو « شهيم » .

والحق أننا كنا سعداء بالعاطفة المتواضعة تؤدي لنا معانيها ، على أحسن مواءمة ،
وترتبط علائقا توثقا كأننا أسرة واحدة تضم جميع الصبيان في جميع الأحياء في القاهرة
كلها ، وكأنهم يشقوا في بيت واحد . وتلقوا في التربية أسلوبا مشتركا ، فيما من مرة
تجلبوا إلى الحى الذى يعيش فيه ، إلا رأينا أنفسنا أمام بعض الألفاظ ، وذات
الألعاب ، وعين القواعد !

ولقد ماتت الألفاظ التى كان قاموسنا يعرفها ، احتفت ولم يعد أحد يذكرها ،
بل لم يؤيد أحد ، كأنها لم تضع نفسها في خدمتنا طويلا ، وكأنها لم تمنح كلامنا
حرارة ولطفا وأسا ، لم تكن نقول « تحمى » لبيان محاولة إدخال النفس والخديعة
والغفلة عليها ، ولكن كنا نقول : تستغلى وتستكرس ، وكنا نقول عن الخدم غير
المجرب كرويدا ، وحشى ، كما كنا نقول عن أهوزنه رقة الإحساس « باف » ،
و « دغف »

لم تكن قد ولدت بعد ذلك اللفاظ مثل « هبكة وبمكة » ، و « هل ودنه » ،
ولكن هذه كلها اللفاظ الطريق في أماننا لا تصل أبدا إلى حجرة الدراسة ، ولا إلى
البيت ، ولا تسرب إلى لغة الصحف ، ثم قل أن نسمعها في المسرحيات
المكافية ، حتى لو كانت في مسارح الدرجة الثالثة ، كان الناس في تلك الأيام أشد
حرصا على استعمال الألفاظ : وأكثر إحساسا بالجمال والضعف ! ربما لأن كل شيء
كان يتم في بطن محدود ، يخلو من الرحام والتدافع ومن ثم يسجد من الضجيج
والصراخ الذى يصود الإنسان كل ما هو غليظ وجاف . ولم يكن هناك سوى
« القومعرات » وقد كان صوته بالنسبة إلى أصوات مكبرات الصوت المستعملة في
السراقات ، والمدارس والأندية وفي الحفلات رقيقا متواريا محتشما ، أما صوت
أجهزة الإذاعة التى تعمل اليوم بالكهرباء أو بالبطاريات الخافتة - فقد هودت الناس
فرقة كبرى القنابل حتى أصحمت الأعصاب في حلجة إلى غلاف خارجي غليظ في
مثل غلظة ظهر التناسخ أو المبلل ، وفي ظروف كهذه تجد الألفاظ السمجة الجارحة
الباب مفتوحا تدخل منه إلى البيت والجامعة والصحيفة

ولد هذا « المصبي » القلق الكثير الحركة . السقيم البدن ، الضعيف البنية في
عصر كله حركة ، وكانت لهذا العصر مفاحره العظيمة ، ومآثره الرائثة ، ولكنه لم

بكر عهداً بلا اسقام وبلا غل ، بل كانت أزماته ومارقه وسقطاته وعيوبه في مثل صحابه أنجاده وجلال آثاره ^١

مات مصطفى كامل قبل أن يولد هـ الصبي هـ ثلاث سنوات ، ولكن بقي العصر موسوماً بجسم مبوب إليه ، متأثر به ، كانت حارته التي احتشد بها الشعب كنه أول حدث من نوعه في مصر منذ فروع ، ولعل مصر لم تشهد مثله من قبل ، ركبت صور هذه الحارة حيه في الأدهان والموس ، وما هرب به وجدان المصري ، وما استنارت من شعر الشعراء وقول الكتاب وتعليق الساسة ، وما أدت إليه من حروح السيدات والعوائل إلى الشوارع يشهد ويغسل ، وما أعلنته من إرادة الشعب وتصميمه بكل طائفاته في مقدمة هذه الطوائف جميعاً الملاحون الذين مثلهم سجده دشروا الدين فك قلم مصطفى كامل ولسانه إسماعيل وأعادهم إلى الحرية

وكان قد سبق مصطفى كامل إلى ختام رحلة الحياة ، محمد عبده ، ولحق به في العام نفسه قاسم أمين ، وكان فريد قد مرل إلى الساحة جادا صامرا لا يحس المدورة ولا يعرفها ، عاشت الصراع مصله بين الشعب ممثلا في الحزب الوطني ، وبين الإنجليز ، محمي وطيس المعركة وسقط أول قتيل من الساسة في معركة الوطنية ، وحيث صوت أصدقاء الاحتلال البريطاني ، ونواروا عن المسرح إلا أن يكونوا ، وروا نفتتحهم الأعي وتسلقهم الألس ، ونسى الأمة هم الظن ، ثم لم تلبث الحرب العالمية الأولى أن انفجرت في دوى هائل هر أركان العالم ، حتى كاد ينهار ويشتد أوارها حتى رأت الإنسانية على صوه برانها المشوبة عالما حديداً تتداعى فيه عروش الأباطرة والقيصرة ويخرج من أحشاء التاربع القديم مواليد جديدة لم يسمع الناس بها من قبل كحق تقرير المصير والديموقراطية للشعوب المعلوبة عن أمرها ، والاشتراكية بأنواعها ودرجاتها ، والشيوعية بمصطلحاتها ومدلولاتها

وفي مصر ساد الظلم ، فكسرت الأقلام ، وكتمت الأفواه ، وهبت الأرزاق ، وفتحت السمجون ، وانتقلت للمقتلات شباب مصر الراصين لسلطة القاصب ، ولو دحج بالسلاح حيوشه ، ولو عطت الشمس أعلامه ، فأصبحت مصر كلها

تهجم بالثورة ، وإن كانت لا تعرف كيف تتدلع ولا على أى صورة تبدأ ، وأثمرت دعاية الحزب الوطني وإن عاب زعماءه بالموت والنهي ثمريها ، مما كانت الحرب تصع أوارها حتى اندلعت ثورة مصر فى التاسع من مارس سنة ١٩١٩ متلقائية ، ولم يعرف التاريخ لها نظيرا ، وتشابهت أعمال أساطها فى أقصى الشمال ، وأقصى الجنوب دون رعاية توحى ولا قبيلة تروسم ، واحتمت تماما كل عبارات الظل الحسن فى الاحتلال البريطانى والرعة فى التعاون معه ، وبدا هذا الاحتلال على حقيقته شيطانا مريدا ، لا يهوى إلا الفساد فى الأرض واسترقاق الأحرار واستعباد الأمم والشعوب .

فى هذا العصر الحر الملىء بلواصات مستقبل جديد ومجيد تنفس فيه الأراء الجريئة وتخرج بفضل بطولات - طال انتظار مصر لها ولد « الصبى »

وقد تأثر « الصبى » بهذه الثورة ، لأنها كانت فى الهواء الذى يستشقه هو ، ويستشقه كل الناس ، وقد دخلت إلى بيته ، ووصلت إلى مدرسته وسمعها ورآها فى الحى الذى يقيم فيه أنشيد ترنل ، وجسارات للشهداء تحترق الطرق ، ومظاهرات تبول فى الأفق ، ويمل عليه صوتها الماندر من بعيد ، ثم تقترب ، هيرى الأعلام تحفق وتهز فى أيد ترتمش من فرط الحماسة قد امتلأت وجوه أصحابها بالدم وهم يتصرون عدوا يثارلونه : ويحاصرون ويقضون عليه ، حتى يظهر هذا العدو حقا فى سيارات مصفحة ويأخذ مصوية ، ومدافع مسلطة ، ووجوه كريمة تملوها خوذات ثقيلة تهدد بالموت وتندم بالشر ا ثم تقع الواقعة فيلعدم الرصاص فى صوت متلاحق مكتوم ، ثم تسقط الصحابا ، فيخسل وجه الأرض دم فى مثل لون العلم المصرى الأحمر الذى كان يرفرف فوق الرموس ، ويملو على الماصات

لوحات إثر لوحات تصل إلى أعنى الأعماق ، تنهر التموس هزا ، وتنفس عنها أنصع هبوبها ، وأسوأ أمراضها الخوف والحرس على الحياة وتبعث فيها أجمل مضائلها . استهداف الخطر من أجل حير عميم ، وأمل عظيم .

ولكن هذه الثورة التى صاحبت صبا الصبى لم تلبث أن حيا أوارها ، واحتفى نهارها ، وحلت محلها حرب أهلية دبر لها الغاصب ، فأحسن التدبير . وتورطها فيها فى غفلة ليس لها نظير ، وقد كان لهذا كله ، صداه فى حياة الصبى ، فقد كان يرى

ويسمع ، وكان ما يراه ويسمعه يعلمه ، عن طريق أن الحياة لا تسير على وتيرة واحدة ، وأنه كلما يمرض هو ويطول مرضه ، تصعب النفوس وتقرص الشعوب ، ولكنها تعود إلى الشعاع ربما على مهل وفي بطنه ، وقد تكون الملة باباً إلى عافية أكمل ، وقد يكون المرض درساً يفي من علل أعظم

الزمان والمكان

الإنسان بحسب أنه يتأثر بالمكان أكثر من تأثره بالزمان ، وهو لذلك يرد كل تاريخه إلى الأمكنة التي عاش فيها واتصل بها . وانتقل إليها . تاريخنا : تاريخ مدن وبلدان ، القوالب منسوبة إلى موقع من الأرض ، لا إلى فترة من زمن ، فنحن نقول : « بئر » و« القاصمية » و« جبل طارق » و« الملمسين » و« وترلو » و« رشيد » و« إمبابة » والأهرام ، ولا أحد منا يقول موقعة السليح عشر من رمضان ، في السنة الثانية من الهجرة . ولو قال ما فهم عنه السامعون شيئاً إلا أن يكون بين السامعين عالم بالتاريخ أو فادرس له .

ونفسر هذا سهل ميسور ، فالإنسان مجبول على فهم الماضي من الأمور ، والإحاطة به أما المجرّد فلا نظيره إلا عقول الفلاسفة والشعراء ، ومن ثم هبط العمّة ، بالدين من الكلبيات إلى الجزليات ، ومن المجرّد إلى الملموس . فهم يقسمون بالنبي ، أكثر مما يحلفون بالله ويعرفون المصحف أكثر مما يعرفون القرآن . ويعرفون الولي أكثر مما يعرفون النبي ، ويجيئون الضريح والقبة ويتبركون وتمسحون بها أصعاف ما يتأفرون بالمعاني المجردة في دينهم ، كلها حركات متصلة بالمكان ، ولهذا كله أحببت أن أحدثك عن ثلاثة بيوت عاش فيها الصبي ، حيلة صباه وكلها في حي السيلة رتب وأنا أروى لك قصة طفولة هذا الصبي .

أقول لك عن البيت الأول . في (خط العتبة) إن صاحبه كانت عائلة مشهورة في أيام صباه هذا الخلام ، لأنها كانت الممثلة الأولى في فرقة المطرب الأول في مصر في

تلك الأيام ، كان اسمها « مليا ديا » ، كانت تؤدى الأدوار السائية الأولى في تراجيديا سلامة حجازى ، ولقد صورها له الخيال مبدعة طويلة القامة ، مملوءة الجسم في غير تحمل ، دلت أذرع يعضه سمينة وطلعة بيضاء ، وصوت جهورى يملأ القاعة فأمن على هذا التصور من رآها رأى العين ، وسمعها على المسرح تشارك سلامة حجازى في أدوارها . وقد خرج الصبي على الفول بأنها حين كانت تزوره في بيتنا الذى استأجرناه منها ، في حربة تجرها الخيول ، نعت زيارتها في الشارع حركة ، فيجتمع الناس ، ليروها وهي تهبط من عربتها الفاشرة ذات الخيول المطهمة ، فيبحث ذلك كله في نص الصبي شعورا بالزهو ، لأنه يقيم في بيت تملكه فتاة جميلة مهيبة ذات الصيت . تشارك في الطولة أحب المطربين إلى قلوب أهل بلدنا والبلاد العربية المجاورة ، ولستطيع أن أعترف لك الآن أن شيئا من هذا لم يحدث ، فلا أنا أذكر أنها كانت تملك حربة فاخرة ، ولم يجبرى أحد أن هذه الحربة كانت تجرها الخيول المطهمة ، ولا أن هذه الزيارة كانت تبعث في الحى حركة ، ولا الشارع رحاما أمام دارنا ، ولكن يفى أن تفسر لي ما الذى حمل على أن أقول هذا الكلام في أكثر من موضع دون أن أعنى تزييف الواقع ، ولا تجميله ، ولا أطرف السامع بشيء يرصى في الواقع صورا يتمسأها ، أى يثنى لوجسدت فعلا في حياته ، لنصفى عليه أهمية وحطرا ، ثم يحسب الخيال حقيقة ، ثم يستولى الواقع على الوهم ، ويدبجه في داته ويأبى النزول عنه ، ويرفض أن يطلعه من قبله وأسرته .

هأنذا أروى الواقع ، وأصمعه بين يديك ، وأدع لك أن تحكم كما تشاء ، ولنى أرفع أصمى احتجاجا واعتراضا ، بل حسى أننى كتبت نفسى ، وأنا طفل وصبى ، لنتعمع الأدب وعلم النفس إن كان في حياة هذا الصبي شيء ينفع الناس

ولست أدري ما الذى جعل الصبي يتصور هذا البيت الأول على هذه الصورة أيكوى مرد ذلك إلى أن الصبي كان - في أثناء إقامته في ذلك البيت - في مطلع حياته ، فكان كل شيء وكل شخص يكبره كبيرا ، ولكنه حينما تقدم به العمر أصبح إحساسه يكبر الآخرين بالنسبة إليه ، وصعره هو أضعف .

في هذا البيت - عرف الصبي لأول امتحان في حياته ، ولم يكن امتحاناً في العلم ، وإنما كان كشفاً صحياً ، فقد كان دخول التلميذ إلى المدرسة الحكومية معلقاً

على نتيجة الكشف الطبي ، وقد كان من أكبر عناصر هذا الامتحان امتحان قوة
إبصار التلميذ ، ولما كان ، قادراً على أن يقرأ الصحيفة أو الكتاب على بعد أمتار فقد
كان نجاحه مضموناً . ولكنه عاد إلى بيته شاعراً بالنصر ، ولم يقلل من هذا الشعور
أن جميع اللذين اختبروا معه نجحوا نجاحه فقد كان بداخله شعور بأن نجاحه هو من
نوع يختلف من نجاحهم ، إذ ليس فيهم من يدانيه في قوة النظر !

وفي أثناء إقامته بهذا البيت وقع أول تمسك بالأيدي بينه وبين زميل له ،
والتمسك بالأيدي — وإن كان جزءاً عادياً من نشاط الصبيان — كان بالنسبة لهذا
الصبي حدثاً ذا قيمة نفسية بارزة فقد عرف نفسه في ذلك اليوم . وبقي ما عرفه جزءاً
من تجربته النفسية ، لم تغيره الأيام ، فقد أدرك أنه لا يصلح لهذا اللون من النشاط
الحجوى الطبيعى ، لا لأنه فقط ضعيف البدن كثير الأمراض ، فقد لاحظ أن أكثر
زملائه على الشجار ، وأبرعهم فيه وأحبهم له ليسوا أقوى زملائه بدناً ، للقدرة على
الصراع البدن نوع من اللياقة المصيبة أكثر منه لياقة جسمية ، وأبطال المبارك في
حارات القاهرة ، لم يكونوا قط من دوى الأجسام الطويلة العريضة منهم ، بل كانوا
في الغالب على النقيض من ذلك رجالاً أميل إلى القصر منهم إلى الطول ، ومن المحدود
إلى المصعب ، ومن التحول إلى البدانة ، ولكنهم عندما يجد الجدل يبدؤ عليهم دراسة
لا تدري من أين جاءت ، ويميل إلى الإيلاء لا يوقفه دم سائل ، ولا سلاح مشهور ،
ولا سلطة تهدد بالعقاب والجزاء .

في ذلك اليوم أمسك الصبي بتلابيب زميله ، وأمسك زميله بتلابيبه ، وكان
الزمان ساعة مبكرة في صباح اليوم للدرسى . وساحة المدرسة لم تملأ بعد
بالتلاميذ ، وهو لا يذكر سبب هذا الشجار ، ولكنه يذكر تماماً اليوم — ماذا كان
يساوره في تلك اللحظات ، كانت كل لحظة جزءاً متصلاً عما قبلها ، وما بعدها ،
يذكر موقفه من صاحبه ، ويرى في وضوح كامل يده على ملابس زميله ، فهو لم يغب
قط عن وجهه . ولم يصرفه الغضب ، ولا الرغبة في النصر عن تتبع حركاته وحركات
خصمه ، فلدرك في الحال ، أن هذه معركة خاسرة ، أو بعبارة أخرى أنها ليست
معركة إطلاقاً ، فلا هو حريص على الوصول بها إلى غايتها ، ولا هو مؤمن
بضرورتها ، وحتميتها فليس هو إذن مقاتلاً في هذا الطراز من الصراع ، فأكبر

حروقات القتال أن ينسى الإنسان نفسه وألا يشغله مطلقا ماذا سيصيبه من هذا القتال أو ماذا سيصيب عدوه ؟ وأن يأبى أن ينهى للمركة متدخل .

أدرك المصبي أن طاقته الغضبية محدودة إذا ما وصلت إلى بطنك الأبدى ، وأنها تبلغ أقصى الغاية حينما تكون في تطلق الإحساس والفكرة ، لقد مزق لزميله شيئا في ثيابه . ومزق زميله ياقة حلتة ، وجاء شيخ الفرائدين فقلق « أمسكوهم ! » .
وتدخل التلاميذ وانتهت المركة !

ولكن المصبي شعر بإهانة بالغة سمحت حياته أسبوها أو أكثر ، لا لأنه هزم ، فهو لم يهزم ، ولا لأن حلتة تمزقت ، فقد كان قليل الاحتمال بتسائر من هذا القليل ، ولكنه أدرك - كما قلت لك - أنه ليس من طراز المقاتلين الذين يراهم من زملائه ، يدخلون في اليوم الواحد عشرات المعارك ، يضرّبون ويتلقون الضربات ، ويمسكون في الأرض ضحاياهم ، ويسقطون معهم ، ثم يقفون ويستأنفون القتال في إيمان وثقة وتلذذ !

آه لو كان واحدا من هؤلاء وإن كان أكثر هؤلاء من أقل التلاميذ حظا من النجاح في الفراسة ، وأقلهم نصيبا من احترام المدرسين والزملاء ! ولكن إلى الجسيم الفراسة والنجاح فيها ، وإلى الجسيم الاحترام إلى جانب أن يكون الإنسان طبقا من القيود النفسية قادرا على أن يستفرقه الغضب ، فتهدى قبضة يده على الوجه والعين حينما اتفق الضرب بلا تفكير في النتيجة ، ولا حساب لها .

هذا ألتبه الدائم لنتائج الكلام ونشاط الأبدى عيبه بحمله الإنسان على صدره ، وكأنه ظهر السلسلة الثقيل الذي يذهب معها أينما ذهبت ، أما هذا الصجر بنمضب ، ويطلاق ألقاظ السباب كأنما هي حم من بركان - قتلك هي الحرية حقا !

وقد راد من شعور المصبي بالإهانة أنه حينما رأى زميله في المشاجرة بعد ذلك لم يحس له بالكراه ولا بالريبة في معاودة القتال معه ، بل إغيا اجتماعا في صف واحد ، فكلّمه زميله في لحظة المتودد ، فأوجته هذه اللهجة ، لا لأنه ألفى صاحبه متساعفا ، فيكون أكثر منه سموا ، فمثل هذا للقي لا يرد على خاطر هذا المصبي ، مهما أردنا أن نصفه بالفضيح العفلى أو العاطفى ، وإنما كان مصدر الشعور بالإهانة أن هذا

التألف البالغ أطلعه على أن خصمه في الشجار لم يأخذ ملحد لحد ، ولم يأخذ شجاره كما يفعل المشاجرون عادة مراكا بحق ، وقد يدهشك أن تعلم أن الصبي عاش مسين يتحاشى الاتصال بهذا الصبي أو الاقتراب منه ، لأنه كلما كلمه رآه لا يذكر من واقعة الشجار شيئا ، وهو اليوم يؤكد لنفسه أنه يجهل اسم هذا الزميل ، ولا يستطيع أن يتذكر ملامحه ، وأغلب الظن أن نسيانه لاسم خصمه وملاحقه ، ضيق بالمشاعر التي خلقتها هذه الواقعة .

وفي هذا البيت مرت بالصبي تجربة نفسية أخرى لم يحدث بها أحدا لا بعد وقوعها ولا بعد وقوعها ، حتى ظن أنه نسيها تماما ، ولكنه حين بدأ يستعيد ذكريات صباه إدب بها تقفر بقوة مملوءة بالحيلة وبالحياة معا ، وإذا به يحس بكل الأم العربية التي كابدها يوم وقعت هذه الحادثة البسيطة التي كانت عنده يومذاك كبيرة واضحة .

كان يلعب مع صاحبه « محمد » في حجرة « بيدرون » المنزل ، وكان هو يعيش مع أسرته في الدور الأعلى ، و « محمد » وأهله في الدور الثاني ، وما يشعه من حجرات في أسفل المنزل ، وكان أبوه ووالد محمد مهندسين تخرجوا في مدرسة واحدة ، ولكن والد الصبي اشتغل في مصلحة الري ، واشتغل والد زميله في إدارة بمصلحة المساحة تسمى « إدارة مرع الملكية » . وكان والد محمد ينتمي إلى أسرة تنسب إلى « باشا » ، ثم خرج منها فيما بعد رجلاان اشتغلا بالسياسة ، ووصل كل منهما إلى رئاسة الوزارة كما خرج محام شهير احتير حصوا بالوفد عندما انتهت البلاد بالثورة ، فأسرة صديقه إدب أسرة لها مكانها في المجتمع ، ولكن ما كان يدخل شيء من ذلك في عقل الصبي ولا تقديره ، فهو وصاحبه متساويان ، بل إنه يحس أن في صاحبه مذاجة تدنيه شيئا ما من الغفلة وقلة الحيلة ، ولكن إحساسا جديدا يمر بالصبي ، وأوجعه ، إذ فتح الباب ذات يوم عليها وهما يلعبان ، وإذا بها فجأة أمام والد محمد ، دخل وهو يزم شفتيه وأنفاسه تتردد في صدره ، مضطربة ، كأنها قطع شوطا ، ثم جلس على مقعد كان قريبا من الباب الذي فتحه ، ثم سحب ابته من يله وبلا كلام أو مقدمات ، ثم وضع رأس محمد على أحد قطبيه ، وراح يضربه على إتيته صرياً متلاحقاً بكف يديه بطريقة لا توجع ، ثم دفعه إلى الزوايا وأطلق من الباب لا ينظر إلى وجوهنا ، ولا يقول شيئا .

تمت هذه العملية في سرعة خاطفة ، ثم وقع نظر الصبي ، على وجه صاحبه فإذا صاحبه حائر لا يدري ماذا يقول مستخدماً لا يستطيع أن يرفع عينيه في وجه الصبي الذي شعر بأن صدره يكاد يتعجز للآ ؟ وشعر بأن والد صاحبه ، جبار يستحق أن يعاقب أشد ما يكون العقاب ، ولكنه شعر أيضاً بأنه عاجز عن أن يفعل شيئاً ! فلانطلق من نفس الباب دون أن يقول لصاحبه حرفاً ، فلما بعد عنه انفجر في البكاء ، ومضى يهتد حتى وصل إلى أولى درجات السلم المؤدى إلى الدور الذي يقيم فيه وكان له باب مطلق على شارع آخر ، لا يفتح عليه ، البلرون ، الذي كان يلعب فيه الصبيان .

والغريب أنه لم يجد عنده الرغبة في الصعود إلى بيته ، فقد جلس على الدرجة الأولى ، وراح يتحب حتى شعر بأن ما كان عنده من دموع نفذت ثم قام يصعد السلم كأنه يعاقب من دولار ، فيما كاد يصل إلى بيته حتى حال أمره منظره ، فاحتوته بين ذراعيها ، وهي تكاد تذهب نفسها حصرة على منظره الباكي ، وشعر بالحاجة إلى

البكاء تجدد . ومضى يبكي زمناً ، فلما هدأت نفسه روى لأمه ما جرى ، وهو يود لو نعت والد صاحبه بأقسى النعوت ، ثم طبت أمه خاطره ، فالتفتي جانباً شامراً بالليل إلى العزلة فترة ، ولكن الصبي لم يلبث أن أدرك أن بكائه لم يكن كله إشفاقاً على صاحبه ، ولا مشاركة له ، بل رأى في أحماق نفسه شعورين لا يكاد يستطيع أن يتحدث الناس عنهما ، كان أولهما شعوراً عادياً مفهوماً أن يساور مثله ذلك شعور

الرحم من الوالد ، والقسوة التي اتسم بها أداء العقاب ، مع أن العقاب نفسه كان بسيطاً وحنيناً ، ولكن انفعال الوالد المكتوم الذي حاقه من الكلام أضفى على الوالد - وهو مشهور بالطيبة - شكل الجلال ، أما الشعور الغريب الذي أحس به الصبي - يومذاك أيضاً ، والذي لم يفض به إلى أحد - فذلك هو إحساسه بأن حمداً ووالده من طبقة أعلى من طبقته - فهذا الأسلوب في العقاب لا يجري في بيته ، وهذا الصمت الموقر الذي صلب العقاب بدا كأنه علامة من علامات الحكمة الرفيعة . وضائق الصبي أن يرى هذا كله . وقد كان ذلك في الواقع مبعث تلهة ، وإحساسه بأنه جرح ، كان إحساسه خاضعاً بطبيعة الحال ، فلم يستطع أن يصفه لأمه ، ولو وجد من يستمع إليه لفرج عن ضيقه وسرى عن نفسه

ومصت الأيام وأصبح والد صاحبه « باشا » ، وما من مرة رله الصبي إلا تداعت صورة ذلك اليوم وما جرى فيه ، واضحة أكثر ما يكون الوضوح . . وكبر الصبي ، حتى أصبح شباها مقلدا لبعض الناس . ومنهم الحكماء فلودع السجنون في قصبة الشروع في قتل رئيس الورداء ، وأحكمت الرقابة على الزنازين التي نزل فيها ، وبرك فيها زملاؤه في القضية وشددت الحراسة ، وتلبت مصلحة السجنون كل ليلة صابطا يقضى الليل في السجن ساهرا ريادة في التوقي والاحتياط ، على أن باب السجن الرئيسي كان يفتح بمتاح في ذلك الباب . . ويودع المفتاح ظرفا يختتم بالشمع الأحمر ، ولا يمض إلا في صباح اليوم التالي بحضور يثبت فيه أن الحتم لم يمض .

وفي ذات ليلة ، وكان السكون يشمل السجن . . وكان للساجين قد أحلدوا إلى الراحة أو كادوا ، فهذا صباحهم ، وغدا هم وشجارهم ، وانقطع كلام المسجونين على ذمة القضية السياسية من شراعات الزنازين ، ثم دبّت حركة غير عادية ، أفرحت الجميع . ففضي النائمون النوم عن عيونهم ، واتبه اللئيم كانوا قد لانوا بالصمت في إخماتة تمهيدا للنوم أو استحضارا له وسمع لمزاج الباب الكبير دوى في الليل الساكن ، كما سمع وقع أقدام تروح وتعلمو ، كان حدثا عاما قد وقع ، أو شخصية كبيرة رأيت أن تعالجها السجن ، وأن تيقن من بقطة الحراس . وسلامة إجراءات الأمن والاحتياط ، واتبه الصبي ، لو اتبه الشاب الذي تحكى قصة صباه . وتساءل بدوره ماذا يكون قد حدث ؟ أتطور جديد في القضية ، أم قضية جديدة مماثلة ، أم مسجون لفظ أنفاسه في الزنازة ، أم اشتدت به العلة أو الوجع ؟

وفيا يتأمل إذا بباب وزناته قد فتح ، وهذا على الباب ضابط سمى . تتردد على شعثه ابتسامة خجولة وكمرت الأيام إلى الموراء في لحظة أو جزء من لحظة ، ونسى كل ما كان حوله . نسي السجن ، والزنازة والقضية التي حبس من أجلها ، بل نسي الضابط الذي كان واقفا على الباب ، وعججه بمنعه من أن يتصرف كما كان زملاؤه يفعلون : فقد رأى الصبي أصبح سجيناً سياسياً : رأى محمد صديقه في بيت شارع سلامة . . ورأه صبيبا صغيرا ، واقفا خلف باب حجرة في « الدرون » بعد أن ضربه أبوه . على طريقة أهل الأرستقراطية وبأسلوب اللوات ، ومد الضابط

له يده ، والسعادة والألفة والامتنان تشمله ، وأمر الضابط ، في حياته الذي لا يفارقه السجن أن يتصرف ، وأغلق الباب خلفه . وجلس يتحدث إلى صاحبه ، حديث صبيين صغيرين ، ومضت الساعات في كلام من هنا ، ومن هناك لا انتظام له ولا ارتباط ، فقد كان « محمد » من لم تمنحهم السيد موهبة الحديث الطلي ، ولكن في مثل تلك الظروف يصبح أى حديث من ضابط مع مسجون طلياً وشهياً مما ، وزاد من طلاوته ومن حللته أن رئيس ديوان الملك القائل آنذاك في الحكم كان قريباً لمحمد . . . أما المساجين الآخرون فقد نعت أقدامهم من طول ما وقفوا على مقاعدهم الخشبية ، ليعرفوا ماذا هناك وكلت أقدامهم من طول ما تساءلوا : ما معنى هذه الزيارة ؟ ومن الزائر ؟ وما وراءه ؟ وعرفوا في الصباح شيئاً عنها من الصبي الذي أصبح شاباً ، وتكررت الزيارة ، كلما جله دور محمد ليؤدى واجب الحراسة ، ثم أفرج عن الصبي ، وأنته الأمل كل ما كان في السجن ، وفي ذات يوم قرر أن يبحث عن صاحبه ، وأن يرويه : في بيته أو في عمله ، ثم نسي ذلك أياماً ، ثم تذكر ، وخرج من بيته على نية أن يؤدى الزيارة لصاحبه بأى ثمن حلماً يهرغ من قضية كان عليه أن يتراجع فيها ، وفي أثناء جلوسه في مقعد المحامين ، ينتظر بصبر مادم أن يحضر السيد القضاة ، مد يده إلى جريدة الصباح ، وأجال فيها نظره ، لغير غرض واضح ، سوى دفع السأم الذي تملكه ، وسقطت الجريدة من يده حفاً لا مجازاً ، فقد قرأ في رأس العمود الأول في صفحة المجلات اسم صاحبه وزميل طفولته ، ولم يستطع أن يفكر ، كما لم يستطع أن يبقى في مكانه ، والتفت بمشقة إلى زميل كان يشاركه في الجلوس في المقعد بقاعة المحكمة أن يحضر عنه في القضية ويتنسى التأجيل فيها لأنه قرأ الآن نبأ وفاة عزيز عليه ، ومضى تائهاً في الشوارع لا يدرى أين يذهب ؟ ولا ماذا يفعل ؟ وكلها رأى والد صاحبه بعد ذلك ود لو يأخذ يده ليقبلها وما من مرة نظر إلى وجه المياثا والد محمد ، إلا رأى فيها صورة من تقاطيع والده هو ، وإن كان الشبه بينهما في الواقع ضعيفاً . فكيف تحول والد « محمد » من جلال إلى والد حنون وعجوب ؟

وفي بيت شارع سلامة ، وقعت حادثتان صغيرتان ، غاية الصغر للصبي ككل حوادث صباه ، ولكن بقى أثرهما — كالعادة أيضاً — في نفسه طويلاً . . . وجررت الحادثتان في المفردة .

كان من بين الذين درسوا للصبي . في مدرسة محمد علي شاب طويل من
خارجي دار العلوم الذين اختاروا الليونة الأوربية والطربوش ريعا لهم ، وبصواع
أنصهم العمامة والحية والقفطان ، وكان أفراد هذه الطليعة الثائرة آنذاك قليلين ،
وغاب المدرس عن المدرسة وقيل . إنه مريض ، ثم قيل إنه نوى ، وكان هذا أول نأ
وعلة يقع في عيط الصبي ، ومر على البادون أن يستوقفه طويلا ، وإن أحدا من
رملاء المدرس لم يكلف حاطره أن يقول شيئا عن الرميل الذي عاب ، ولكن أصبح
لهذه الوفاة معنى أكبر ، حينها وصل عدد مجلة اللطائف المصورة إلى بيت الصبي ، إذ
رأى فيها صورة غير صغيرة لأستاده ، وقد كتب تحتها أنه مات على إثر عملية جراحية
بسبب « قيلة مائية » ! ارتفع مقام للمدرس الفقد في عين الصبي ، فقد كانت
اللطائف المصورة عنده ذات حطر ، فلم يكن يرى فيها إلا صور أناس كان يعرف
من ذوي قرياء أنهم أشخاص مهمون وعظما ، فإن ينضم إلى قائلتهم أحد معلميه
فلا بد أن يكون عظيماً بدوره . ولكن الذي احتاج إلى تفسير ويك ، هو ما جاء تحت
الصورة من العملية الجراحية ومن القيلة المائية ، وقد كانت العمليات الجراحية في
تلك الفترة غاية في البدرة ، لذلك احتاج الصبي أن يشرح له حاله معناها ، ويسر
له أن يفهم هذا الشرح . ولكن الذي صدمه ، أن يعرف أن « القيلة المائية » فتق في
الحصية وأدعاه أن يموت مدرسة لهذا السبب . وراود من دهشته أن تنشر الصحف
صورة رجل مات لعملية جرت له بسبب هذا المرض . وحينما حاول حاله أن يفهمه
أن هذه عملية ككل عملية أخرى ، وإن مدرسة لابد له في وفاته ، وإن المجلة لم
تخطئ ، إذ نشرت صورته ، فلا بد أن يكون رجلاً فاصلاً وأن عليه أن يبني نفسه أن
يكون في مدرسة تنشر المجلات صور العاملين فيها أحياء أو أمواتا !

وإن نفس السمة الدراسية وإلى نفس الفصل المدرسي الذي كان يدرس فيه
المدرس الفقد ذهب الصبي إلى المدرسة بخلعة من قماش « السكروته » ، وحول
عنقه رباطة عنق من نوع (البايو) ولكنها كانت رباطة عنق حريرية حمراء فاخرة
الحمرة ، ممر به مدرس الرسم ، وهو يوزع عليهم أقلام « الباستيل » فقال للصبي
دون أن يتوقف : آئت بولشفيكي ؟

وسأل الصبي جميع زملائه عن معنى الكلمة ، وحشى أن تكون لفظاً مهيباً فلم
يجد عند أحدهم الجواب ، ومضى إلى خاله ، وسأله ، ما معنى هذه الكلمة .

وأجهد حاله نفسه في شرحها ولكن الأمر ازداد عند الصبي عموماً ، كان عليه أن
يستظر وقتاً غير قصير ، حتى يفهم معناها ، فهذا كمالاً . .

منازل وأرواح

وجد العقاد يوما في رفوف مكتبه مسرحية « عطيل » لشكسبير ، إلى جوار رواية « الزنقة الحمراء » لانتول فرانس ، وكلتاهما تنود حول عاطفة الغيرة ، فهتف : إن للكاتب أرواحا تشبه الشيء منجذب إليه ، لذلك سميت الزنقة إلى عطيل أو سمى عطيل إليها ، ولا يعلم إلا الله ، ماذا قالت إحداهما للأخرى . .

ولكن يبدو أن لكل شيء في هذا الكون الرحيب روحا ، ومن بين عناصر هذا الكون ، التي تكشف آثار روحها ، وتميزاتها ناطقة معبرة المنازل من قصور وأكواخ

والصبي الذي فروى ذكريات حياته يماي أن يترك حديقته عن منزله بشارع سلامة ، من حي السيدة زينب ، وهو شارع يكاد يز شوارع القاهرة جميعا ، إذ اجتمع فيه في جوار حيم عدد من كبار الكتاب لم يجتمع في وقت واحد في شارع آخر ، أما الذين اجتمعوا في الشوارع القريبة غاية القرب من شارع سلامة ، فالفلاح سمرموقون ، وهم كثيرون أيضا مع آخرين من ذوى الصيت الذائع والشهرة المستهضة . في دنيا الفن والفكر .

لقد كان ملاصق بيت الصبي في شارع سلامة ، الشاعر حل الجلام ، وكان آنذاك ممما حاد ثروه من انجلترا بعد بحث ضمت حندا من الصمود من أبناء دار العلوم الذين سهروا على اللغة العربية ، وجدحوا شبابها ، فكان مهم الكتاب والخطباء والمريون .

ولايسى الصبي أن أول مظاهرة سمع بها ، أو سمع عنها كانت المظاهرة التي احتجمت في مساء ذات يوم من أمام منزل على الجارم ، ثم هتعت بسقوطه ، فأطل من شرفة منزله ، وأطلت عشرات من الرعوس . رعوس الصبيان والفتيات والساء والرجال ، وهم لا يعرفون ماذا يجري ، ولا يهتمون لهذا الصياح معي ، فقد كان عهد المصريين بالمظاهرات جديدا غاية الجدة وخصوصا إذا كانت مظاهرات محلية ، في شوارع جانبية ولو أن المناسبة التي هتعت فيها المتظاهرون بسقوط الجارم كانت مناسبة عامة ، فإن الخلاف بين سعد وعدلى كان قد اشتد ، وكان كل من يقف مع عدلى ، يعتبر خائنا للوطن ، وخارجا على الإجماع ويستحق أن يهتف بسقوطه ، وقد كان هوى الشاعر الجارم أكثر كبار الموظفين في تلك الأيام مع عدلى باعتباره ممثل الصعوبة الرصينة ، في حين كان سعد يمثل الرعاع وأصحاب الخلايب الزرقاء ، وقد كان ذلك مصدر تفوق سعد على خصومه الذين كانوا من نفس مدرسته وسر التضاف الناس حوله دونهم . .

وغير بعيد من منزل الجارم كان يسكن مدرس في المدرسة الإعدادية ، الثانوية التي أسسها عبد العزيز جلوش يدرس فيها للترجمة والتاريخ ، ولم يكن اسمه قد برغ ، ولا شهرته قد بدأت ، ذلك هو إبراهيم عبد القادر المازني . وفي ذات ليلة عادت أخت الصبي الكبرى مع حاله وحالها ، وكانت مائدة حجرة المازني مضادة ، فأشار إليها وهو يقول . هنا بيت مدرس سيكون له شأن كبير . وبقيت الكلمة في ذاكرة أخت الصبي . اذكرته بها مرارا ، كلما وجدت في يده كتابا للمازني .

وفي نفس الشارع . عاش طالب في مدرسة الحقوق السلطانية ، لم يكن أحد قد سمع بشي مما يؤلفه ، ولم يكن التمرع الذي اختاره ميدانا لقامه ، مما اعتادت أعلام الكتاب والمؤلفين المصريين والعرب أن تقترب منه ، أو تجول فيه ، ذلك ميدان التأليف المسرحي ، ولم يكن ذلك الطالب سوى توفيق الحكيم الذي اتخذ من شارع سلامة وداره فيها ميدانا لخرايفت روايته « عودة الروح » .

وخلف شارع سلامة أو بعده بشارعين اثنين منزل أحب كتاب مصر إلى قلوب شبابها ورجالها في ذلك العهد ، ألا وهو السيد مصطفى لطفي المنفلوطي صاحب « مجلدولين » والعبريات والنظرات ، والتاج والفصيلة الذي جعل النثر العربي مراجعا من الموسيقى السهلة ، والأناقة المرسلة .

وفي نفس البقعة كان يقيم الشيخ عبد العزيز البشري وهو كاتب فحل آخر لانت
 العربية الفصحى في يده فاستعملها فيما لم تستعمل فيه من قبل ، حتى استطاعت أن
 تجمل إلى قلوب وعقول نكات ومداعبات وقصصات « أساء البلذ » في لغة من
 الفصحى النقية ، في رصانة لا تصد الناس عن تلوقها ، وكان « الجاحظ » قد بحث
 ليكتب في شئون حياة المصريين اليومية ، وجلساتهم على أفلاخيز الشوارع في المفاهي
 والأندية وه البليات ، وفي الأفراس والسهرات ، وقد كانت له فكاهات ومداعبات
 تروج على ألسنة ظرفاء أيلمه كشاعر النيل حافظ إبراهيم ، والشاعر إمام العبد وعبد
 الطرفة محمد البابل ، وقد ذاعت له دعاية لادعة . عندما خلع الحارم العمادة وليس
 البذلة الأوروبية ، فقد قال إن حافظا والمبايل يذهبان كل مساء بالجارم وهو يعتمد
 على ذراعيها من يمين ويسار ، إلى ميدان هابدين يعلمانه المشي بالبذلة وقد كان
 ميدان هابدين المكان الذي يتحرن فيه الصبيان على ركوب المدرجات ، عند بداية
 التعليم .

وقبل أن أصف لك شخصية بيت شارع سلامة ، كما وقعت صورتها في مصر
 الصبي ، وبالقدر الذي كان يمي به الأمور ويفهمها - أحب أن أرى لك ، آخر
 ما بقى في ذاكرة الصبي من هذا المنزل من وقائع ، فقد عرف فيه أولى السيدات
 العاملات اللاتي صادفهن ، فقد كانت المرأة العاملة كالمدرسة والطبية لواحكيمة أو
 للمثثلة أندر من الكبريت الأحمر ، ففى محيط عشرات بل مئات من الأسر لا يسمع
 الإنسان من واحدة ، تخرج كل صباح إلى حملها في ديوان من دولوين الحكومة أو في
 مكتب أو في شركة ، ولذلك كان من الطريف الذي يستحق الذكر أن يكون أمام دار
 الصبي في شارع سلامة سيدة تعمل صابطة في إحدى مدارس البنات الحكومية ،
 وهو لا يزال يذكرها طويلة عريضة ، مملوءة بالحبوبة ، وبالطية وكان زوجها على
 النقيض منها قصيرا نحिला ولكنه رجل يجمع بين الطية أيضا والذكاء والمهنة ، وكان
 عائدا لثوه من إنجلترا ، فكان بدوره شخصية جديدة بأن تثير الاهتمام في النفوس ،
 إذ كان العائدون من أوروبا كالعائدين من القمر ! وكان ما يروونه من مشاهداتهم في
 بلاد بره ، أشبه بمجزعات أبطال المعامرات في أفعال أفعقها ، ولا ينسى الصبي ،
 أنه سمع في غرفة المحامي بميدية الرقازيق ، حديث المحامي الأستاذ السيد جاهد
 فهمي ، شقيق أستاذ القانون محمد فهمي ، الذي درس « المرافعات » بعد ذلك

بعشر سنوات وقد تخلق المحامون حول زميلهم ، وهو يروى لهم شيئا غريبا غاية الغرابة رآه في باريس ، فلما نظن أن يكون هذا الشيء الغريب ، كان يحدث المستمعين إليه عن « النادى » الذى يفتح لك باب السيارة ، لواء التاكسى « من غير أن تدعوه لذلك ، ثم تكون بعد ذلك ملزما بأن تدفع له مبلغا من المال ، لم يصدق المحامون ذلك ، وانهاروا على زميلهم بالأسئلة : ماذا يحدث لك إذا لم تدفع « الماشي » . وهل الحكومة ترك هؤلاء الأشخاص يعرضون أنفسهم على الناس وهل جرؤت على عدم دفع هذه الفدية التى يعرضها هؤلاء السحابة ؟ ولم يلبس هؤلاء السامعون أن هذا الذى أثار تعجبهم ، وتلؤلم واحتجاجهم سيصبح ظاهرة عادية ومألوفة في بلادنا بعد حين .

وقد كان لهذه الأسرة الكريمة في المنزل المقابل أثر في حياة الصبي أى أثر ، لا لأن هذه الأسرة ، رزقت أول ما رزقت من الأطفال بنتا ولا لأن أم الطفلة خطبته — وهو صبي — لابنتها — على عادة الأسر التى تربط الصداقة والمودة إحداها بالأخرى — والصبي يسمع من هذه الخطبة ولا يشعر بشيء لا من الرهول ولا من الرضا ولا من السخط ، لأنه لا يدري من هذا الكلام شيئا ، وإنما كان أثر هذه الأسرة في حياته ، على وجه آخر ، فقد رشت هذه الأسرة لأخت الصبي الكبرى زوجا ، وكان من أصدقاء الزوج الحميمين ، فشهد الصبي ، مراحل الخطبة وعقد القران والزفاف ، وهى تجارب تحفز ذهن الأطفال ، وتطلمهم على جانب من الحياة ، يثقف وجدانهم . ويوسع إدراكهم . ولكن كان لهذه الخطبة في نفس وحياة الصبي ، أثر أعمق ، فخطيب أخته ثم زوجها بعد ذلك أصبح للصبي صديقا حميما مع أن فارق السن في ذلك الحين كان ربع القرن أو يقل قليلا ، كان روح أخته من تلاميذ مصطفى كامل ، فثبت عند الصبي حبه لمصطفى ، وإيمانه بمبادئه وكان قارئاً نهما ، لا يكف عن القراءة ، ففوى الليل في نفس الصبي إلى القراءة ، وكان ميالا للدراسة القانونية ، فانتسب إلى كلية الحقوق مع أنه كان قد أتم تعليمه العالى بنجاح ، فجعل عزم الصبي على أن يكرن شاميا ومن رجال القانون قرارا لا رجعة فيه ، وهو بعد يكلم (يترك الخط) متسرا .

ومن أمتع المشاهد التى مرت بالصبي حينئذ كبر ، وشغل رأسه — أن يسمع يولدين . لهذه الأسرة المحبة للجلوة (ولدا في صباه ، ورأى أحدهما في المهدي ،

ورأى صورة الآخر طفلاً تسند يده من خلفه « ليصور » وقد أصبح ضابطين كبيرين
أدبا في حياة مصر ، في الحرب والسلام دورين كبيرين ، ومازال دورهما محدوداً إلى
اليوم . وقد تعجب أنه لم يلتق بأى منها قط وأنها إذا رأته فقد لا يعرفان من هو .
وماذا يكون منها ؟ وقد بقى جملها لاسمها حتى تبهته إحدى أحوته ، وهو يطلق
غصراً في الصحف ، أن ذلك الضابط الكبير هو الطفل الذى سمعت بمولده إبان كنا
في شارع سلامة . . وسكت الصبي - وكان آنذاك رجلاً بل كهلاً - وهو يجب من
دورة الزمان !

وإذا كنا نود أن نخرج من نطاق ذكريات الصبي في شارع سلامة ، لننتقل إلى
سواها - فلابد أن نذكر أن قاصداً شاباً عاش في هذا الشارع على ما روى الصبي في
قصة طفولته . وقد أبى الشارع الذى اجتمع فيه وحوله الأدباء إلا أن يدرك بأفقه
الأدب . هذا الشاب القاضى . فاحب بدوره الأدب . فلما عمل في مكتب النائب
العام محمد عبد الحلقى ثروت باشا الذى ترافع في قضية الورداني ، ثم في قضية إمام
راكد ومحمود طاهر العربى ومحمد عبد السلام الذين اتهموا بالشرع في قتل الموردي
كثيرون والحندوبى عباس ورئيس الوزراء محمد سميد باشا - وجد أن أستاذة ثروت باشا
عجب للأدب ، والأدب القديم ، أحب المقدم الفريد والكمال ومع الطب وصبح
الأحشى حتى كانت مرافعاته في تلك القضايا قطعاً من أدب القضاء والقانون ،
ففسح القاضى الشاب على هذا المنوال ، فلما أصبح نائباً عاماً بدوره ، وحصل على
الباشوية وأصبح محمد لبيب عطية باشا ، وترافع في قضايا الاعتقال السياسى ، كما
ترافع أستاذة من قبل ، ومنها قضية « القفال » الذى شرع في قتل رئيس الوزراء
صدقى باشا ألقى مرافعة حسنة اللباجة ، ولكن الوعدين اللذين كانتوا خصوصاً
للبيب عطية باشا ، تنزلوا ما استطاعوا على عبارات في هذه المرافعات ، ووصفوها
بالتكلف . وهكذا دخل شارع سلامة في تاريخ الأدب المصرى . لا بمن أقام فيه من
الأدباء فقط ، بل بمن سكنوه من أدباء القضاة . . ولاتنس أن الشيخ عبد العزيز
البشرى لم يكن أديباً متقطعاً للأدب ، وإنما كان قاضياً في المحاكم الشرعية ، كما كان
الحكيم وكيلاً للنائب العام ، فكلهم أدباء قانونيون أو قانونيون أدباء

فماذا كانت صورة منزل الصبي في شارع سلامة في نفس الصبي أيام صباه .
كان يندوله هذا المنزل كرجل قليل الكلام ، يحترمه الناس ، ولا يعرفون ماذا يدور

في نفسه أبقى بغير إسرائاف . يطل على الناس من عل ، ولكن بعير استكبار ولا تعال .

فماذا كان من أمر البيت الثاني الذي عاش فيه الصبي في مصر الخبي ، الميع بدكرات الماضي ، ويأثّر الأولياء ، ويحدث تاريخ مصر الحديث الكبير .

يكفي تقديمه . بأن أقول لك ، إن هذا المنزل حينما هدم أقيم على جزء من أرضه سينيا كاملة ، هي السينيا الأهل ، بميدان السيدة زينب ، ولما أقيمت هله السينيا ، ذهب الصبي ، إليها ، لا ليُشاهد فيها . فإن الأفلام التي تعرضها ، لم تكن لتستهوي الصبي . وإنما ذهب ، ليرى كيف أقيمت على الأرض التي كانت مرتعاً من مراتع صباه دار عامة تؤمها المئات في الساعة الواحدة أو في الوقت الواحد مئات لا يعرف بعضهم بعضاً ، بعد أن كانت هذه الأرض ذاتها تقل بيتاً يضم أسرة صغيرة لا يزيد أفرادها عن سبعة . ومعهم ثلاثة آخرون يمينونهم على شؤون الحياة . سيدة وشابة ورجل . .

ولم يكن من خصائص الصبي الحنين المفرط للماضي فهو يذكره ، ولا يتجاهله ولا يتنكر له ، ولكن لا تتأبه مواطن الحزن ، ولا الأسف على الأيام التي انقضت ، ربما لفرط انشغاله بالخاصة ، أو لشدة تشوّه وتطلعه للمستقبل ، وربما لطبيعة مزاجه الذي لا يد له فيه ، والذي يختلف الناس بعضهم وبعض في مصيهم منه ، ثم يفلسفون الأمور بعد ذلك ، واهمين أن طابعهم يخص فلسفتهم وأن العكس ليس صحيحاً . .

ولكن لبادر بسؤالنا عن شخصية هذا البيت الذي يتكون من ثلاثة أدوار غير سطحه والذي كان يضم فناء ، طلقاً اتخذ الصبي ميداناً للعب كرة القدم مع لذاته وأصحابه .

حاول الصبي حينما سمع هذا السؤال أن يسترجع صورة هذا البيت في نفسه ، ويعد جهد استطاع أن يقول إنه بين البيوت كرجل لا شخصية له بين الأديين ! وكثيراً ما تلقى من الرجال أو النساء فرقا تحارفي وصف أثره في نفوسنا . وإذا كان من السهل تقرب الأشخاص إلى النفوس والمقول باستمالة ملحق الأطعمة والأشربة : فنقول - هذا حاضري ! وذلك لاذع . وذلك حريف ، والرابع حلو ،

والخامس مر - فهذا البيت لا طعم له ! فهو لا يعث البهجة ، ولا الانقياس ، ولا يستمتع بالمية ، ولا بالتواضع . تحويه فلا يستوقفك ، وتدخله فلا تحس أنك دخلت مكانا جميلا ، وإن كان تصميمه غريبا نوعا ، ممثلاً في العراية :

فعل السلام عند من الحجرات الصغيرة التي تسمى بمصطلح المصريين « المروقة » . وكل دور فيه حل اتساعه يضم أربع حجرات فقط ، لا تلتزم منها ذات منقح . تصل بين طرفيه طرقة طويلة رفيعة ، لا يمكن الانتفاع بها في شيء . وفي أحد الطرفين حجرة فسيحة تكاد تصلح قاعة للمحاضرات ، ثم في الطرف الآخر حجرة أقل منها اتساعا تقضى إلى حجرة صغيرة ضيقة ، فيها ألقى انتساب عقل للمهندس مصمم المنزل . ليهذه هذه للساحة الكبيرة حل هذه الصورة التي تكاد تكون سفها . وكان المنزل يطل على شارعين أحدهما جديد يجري فيه « الثرام » هو شارع الخليج المصري ، والآخر قديم هاية القدم ، والطريف أن هذا الشارع القديم اسمه « الدوب الجديد » وأن الشارع الجديد ، هو في الواقع أقدم شوارع القاهرة لأنه الشارع الذي كان منذ قرون خلت يجرى فيه المياه ، وكأنه شارع من شوارع الهندية . التي تحمل فيها القنوط على الطرقات . وتحمل فيها قوارب الجنول على العربات والمسلحات .

ولكن هذا الخليج ردم ، فقد ألف المصريون أن يلقوا فيه جيف الحيوانات والدجاج والكلاب والقطط ، وأن يملأوه بأطلال القمامة ، حتى إذا أصبح مسودها للنجاسة ، ومصدرا للأمراض ، اغتسلوا فيه وغسلوا فيه ألبعضهم ومواشيهم التي يأكلون فيها ويشربون ، فكان لا مفر من ردمه .

وكان هذا الخليج يشق القاهرة من أقصى الجنوب عند مصر القديمة ، وبالضبط عند فم الخليج حتى حمرة . فلما ردم الخليج . حل محله شارع جديد ، طويل غاية الطول ، تبلغ أرقام المنازل فيه بالمئات وتكاد تصل إلى الألف أو تتجاوزها .

وقد كان في المنزل شرقيات تطل على شارع الخليج مصنوعة على طراز « اشرييات » التي يرى الناظر منها الناس ، وهم لا يرونه ، مما يؤكد أن المرأة حتى في أشد عصور الحجاب ، كانت على صلة بالحياة الخارجية ، بل لعل صلتها بتلك الحياة كانت أقوى ، لأنها صلة مزوجة بالشعور بالحرمات . مما يرهف الإحساس بالدينين والرفيق والخفي من الأمور ، ذلك لأن الحرمان يزيد إحساس المحرومين

بلمذاث الحياة ، فيحصلون منها على مالا يحصل عليه المتعمون المنعمون ، فكسرة
الخبر عند الجائع الفقير تمنحه من التمة والشبع ، مالا يمنحه حروف حديد لشرف
غنى .

ولقد كان الصبي يقف وراء نوافذ هذه الشرفات ، وينظر من خلال ثقوبها ، أو
من الشافذة الصغيرة التي تتوسط الضلع الأكبر من أضلاع الشرفة ، ويعطى هذه
النافذة غطاء مصنوع من خشب المشربيات يدفع إلى الأمام ، فيرى السائر بعبر
حجاب ولا ساتر ، ولما كان أهم عناصر شارع الخليج هو « الترام » وكان الترام في
ذلك العهد سيد الشوارع التي يمر فيها ، إذ لم تكن القاهرة تعرف من وسائل الانتقال
ما تعرفه الآن ، وما عرفته بعد أيام مما يطل قصتنا من الأتوبيسات وسيارات الأجرة
والسيارات الخصوصية ، ووسائل النقل الخفيف من دراجات بخارية ، فكان
« الترام » محوراً لحياة متعددة الصور ، وكأنها شريط من الصور المتحركة ، لا نهاية
له .

وقد زاد من ضخامة دور الترام في حياة الصبي أن بيته كان على مرمى حجر من
ميدان السيدة زينب ، وقد كان هذا الميدان نهاية خطوط عدة من خطوط الترام ،
فكانت المحطة الانتهاية دائماً حافلاً بالحركة والحياة ، تلتقي فيه طوائف من البشر ،
من النساء والرجال والأطفال من أهل المدينة ، ومن أهل الريف ، من الأعيان
والفقراء ومتوسطى الحال ، في أزياء لا حصر لها ، أشار إليها الصبي في قصة
طفولته . وكان إلى جانب ركاب الترام سائقو الترام ومحصلوه ، « الكسارية » ثم
الفتشون من المصريين . ثم كبار المفتشين من الأجانب ، ثم الشياطين الذين
يتنظرون في المحطات ، ثم بائعو الطحويات ، من « الفراتيك » والفلايات والأمشاط
والدبابيس والأزوار . ثم بائعو الحلوى ، وبائعو الصحف ، وبائعو لعب الأطفال .
ولى كلمة ، كان سلم الترام ، سوقاً تتحرك معه . ويتوالى لديها عرض البضائع وقد
تبلغ هذه البضائع من الجسامة بحيث تشمل قطع القماش أو الكتب والمصاحف
والنظارات وورق الباصيب .

والطريف الممتع أن هؤلاء الباعة ، عرفوا كيف يتقنون فنون البهلوانية الخاصة
بهذا الترام ، فهم يقفزون إليه وهو ساكن بأقصى سرعته ويقفزون منه ، ووجوههم
متجهة إلى اتجاه الترام . إذ يديرون وجوههم ، ويقفزون في اتجاه مضاد .

وبصائعهم فوق أكفهم ، ولا تسقط ، ولا يسقط منها شيء ثم تدبروا وتقلعوا في هذا الصن الرائع ، فأصبحوا يقفرون من الجانب الأيسر من الترام ، وهو جانب تمد عليه قضبان حديدية لتمنع النزول منه ، ويوقع فيه سلم الترام ، فيصبح المتعلق مقطاره أو عربته من هذا الجانب كأنه متعلق بالمحور ، ولكنهم على هذا الجانب المحموف بالخطر لا تقف في أجناسهم شمعة ، ويستمررون في عرض الضائع والسلع ، كأنهم في حوانيتهم على مقاعد وثيرة ، لا يحسون بخطر ، ولا يندبهم الموت .

وقد جردت المحافظة أعوانا لها لا هم لهم إلا مطاردة هؤلاء الباعة الأبطال ، ومنعهم من القفز إلى الترام والقفز منه ، ولا سيما القفز من الجانب الأيسر ، فأصبحت هذه المطاردة لونا طريفا من ألوان « ميرك الترام » ، يطيب لمحيي التامل في حياة الشوارع أن يتابعوه ، وكأنها فصل فذ من فصول رواية ، من روايات مغامرات السيما التي بدأت تمزق قلوب وعقول وجيوب الصبيان والشبان ، ولا سيما شبان هذه الجماعة المجاهدة من باعة الطرزين ، وعلمى الرياضة المحفوفة بالمخاطر على سلام الترام .

ولقد كان للسيدات لسم خاص في كل عربة ترام ، مكتوب على بابها « حريم » وكانت هذه الكتابة في لوحة من الصلح ، وكانت الكتابة بالهنا البيضاء على أرضية زرقاء . وقد كان للشبان الذين يقفزون إلى الترام تشبها بالجماعة الجائلين ، غرام شديد بالوقوف على باب حجرة الحريم ، ليمزلوا علنا أو على استحياء ، سيدات وأنسات ، أسندن على وجوههن ، يراقع يضاء من الموسلين الرقيق ، فزادتهم هذه العلة جلالا وإغراء ، إذ أخفت التغطايع التي لا تستقيم كثيرا في وجوه المصريات ، وتركت العيون التي هي أجل ما في المرأة المصرية ، لتؤدى دورها ، في إثارة شجون ، ولوهام المحرومين .

وكثيرا ما كانت تسفر المغازلة من ظفر الشاب الذى غامر بحياته ليقترب من حرم « الحريم » بصفتين قويتين من شرطى يرتدى جلبابا للتخصى ، ثم يضع يده على كتف الشاب لجره إلى قسم الشرطة ، ولكن الشاب صاغة بقفز إلى الطريق ويمدو ، ومن خلفه غريمه ، فتضحك السيدات والأنسات من هذه المفاجأة التي أنهت مغامرة ، وقعت من أجل سولد هيونين حقا لا مجازا .

فلا عجب أن يكون « الترام » صديقة للصبي . يتابعه خارجاً من المحطة النهائية في ميدان السيدة زينب وعائلته إليها محملاً بحمولته البشرية ، وكأنه مدينة صغيرة تستل في بطنه من مكان إلى مكان في المدينة العظيمة . وقد أصبحت للصبي دراية أكبر بأرقام خطوط الترام وأنحطاتها مسلوها ، ثم معرفة بوجوده سائق القطر الذين كانوا يقفون أمام جهاز التصوير البسيط . ويميز بين عادات الواحد منهم عن الآخر . وكان في المحطة النهائية مطعم خاص لعمال الترام من قاعة ود كمشاية ، ومفتشين صفار ، وهو عبارة عن منضدة يباع فيها لحم رأس الضأن ، في أرصة ، كأنها الوالد الشرعي ، لما عرف بعد ذلك « بالسائدونتش » الإنجليزي الذي كان غرامه بالفضار سبباً في ابتكار هذا الأسلوب للنسر لتناول الطعام على المائدة المختصرة !

وكان أكثر قادة الترام يفضلون تناول طعامهم من لحم الرأس في أرصة يتصاعد منها بخار الموقد ، وهم يقودون قطارهم فيفضضون فضحات كبيرة ، تتضخم لما أشداقهم ، لتثير في الصبي شهية للطعام على الرغم من ضعف هذه الشهية وحزونه عن الأكل لكثرة أسفاه . وقل أن رأى الصبي قائداً ترام يحمل بين يديه ، كوب شاي فلم يكن الغرام بالشاي قد استشرى استشرائه الآن ، فقد استأثرت القهوة بحسب الناس في تلك الأيام . وكان الناس يتناولونها في هدوء . وصفو مزاج لا وقولاً ولا متحركين كما يفعل الآن قادة « الأوتوبيسات » في مصر بالشاي الذي أصبح مرضاً حاصلاً لا علاج له ، ولا شفاء منه !

وكان « للترام » دور آخر في حياة الصبي . فقد كانت مظاهرات تلك الأيام تبدأ أحياناً ، وتنتهي أحياناً ثالثة وتجري مرة ثالثة في الترام ، فإذا حدث في البلد حدث سياسي مرت قطر الترام أمام الصبي معلومة بتلاميذ المدارس ، وقد ركزوا علم معهدهم عند السائق . ثم تعلقوا بسلم الترام من الجانبين وخبروا مسار الترام وراحوا يهتفون ملء رئتهم ، وإلى أكثر ما تستطيع حناجرهم . فإذا اشتد بهم الغضب واشتد بغوسهم اليأس انقلبوا على صليحتهم الترام فأحرقوه ، وغلبوه على الأرض كانوا يفعلون ذلك بطريقة لا شعورية يوحى بها العقل الباطن ، فانظام سير الترام معناه استقرار الحال ، وانقطاع سيره معناه أن الأمور لا تجري مجراها العادي . وأن للناس هاضبون وسانطون ، ومظهر للمدينة الحالية من الحركة ومنظر المرات

المخلوبة ، والمعروفة ، بلاشك منظر كتيب قائم ، وهو يناسب تماما بلدا لا ترعى من حالها ، ولا من القائمين بالأمر فيها .

وقد كان من حظ الصبي أن يشارك في مظاهرة كهذه المظاهرات ، وأن ينتقل من دور المتفرج إلى دور الممثل ، وإن كان دورا صغيلا شاركه فيه مئات الألوف من أمثاله من الصبيان ، ومن يكبرونه قليلا وكثيرا ، ومن السيدات ، والآنسات ، ممن كن يسمين في ذلك العهد بالعقيلات وربات الخلود .

وكان ذلك في يوم الثلاثاء الثامن من شهر يونيو سنة ١٩٢٠ ، عندما نقل جثمان الزعيم محمد فريد من برلين إلى القاهرة على نفقة تاجر من تجار الرقيق وهو الشيخ عيسى حليل فقد خرجت القاهرة كلها ، بل مصر بأسرها . تستقبل هذا الجثمان ، وهي تعرف أن صاحبه استشهد في الحرية وحيدا . لا زوجة معه ولا ابن ولا رفيق ، مجردا من المال ومن السلطة طيرا معلما لا يجد طعام يومية ولا ثمن الدوا ليتمكن الآم حلة اشتدت به . ويرحت به أوجاعها كل ذلك من أجل مصر ، ومن أجل استقلالها وحريتها . قصت عليه أمه .

قصت عليه أخواته قصة هذا البطل ، فلم يستوعبها وبهم معانها فحسب . بل إنه أحب صاحبها مع أنه كان يجد نفسه حائرا أمام هذه المنافات التي كانت تملأ الجو بسقوط أشخاص رجلة أشخاص ولا أحد من أهله قادر على أن يقرب إلى دهنه لهذا هذا الرضا ، ولماذا ذلك الغضب ولا الفارق - بين المفضوب عليهم ، والذين أنعم الوطن عليهم .

أما يوم الثامن من يونيو سنة ١٩٢٠ يوم أن ذهب الصبي ليستقبل جثمان رجل أبي إلا أن يجازب الإنجليز وقد تصور أنه قادر على أن يحملهم عن أرض وطنه ، فكان سعيدا غاية السعادة بأن يكون فردا في هذا الجيش اللجب ، وأن يأخذ مكانه ضمن صفوف لا حصر لها ، وأن يسير على قديمه من ميدان السيدة زينب إلى ميدان المحطة ، وهي مسافة لا شك في أنها طويلة ويعيلة نصي ضعيف كثير الأمراض ، ثم سار في مصر اليوم وبعد ساعت طويلة من ميدان المحطة في أقصى المدينة ، إلى مدرج السيدة نفيسة في أقصى المدينة من الطرف الآخر لها ، ثم يدخل إلى المدرج الذي لم يتسع إلا لمائة أو مائتين ، فكيف استطاع أن يكون ضمن هذا العدد القليل في

ذلك اليوم الذى يشبه يوم الحشر . وسمع يومها واقفا خطبة رجل صاحب صوت
مجلجل ومدور ، عرف فيما بعد أنه على فهمى كامل ، وحفظ كلامه ، وسرته طريقة
نطقه لأسماء عواصم أوروبا قال : سمعتكم تذكرون جهاد فريد فى برلين وباريس
فقط . . وكأنه لم يجاهد فى فيينا وبروكسل ولوكسمبورج أيضا . .

كان يطيل هذه الأسماء ، ويتنطقها كما ينطق الفرنسيون ، فدخل إلى المصمى أنه
طاف بهذه البلدان ، وعاد إلى بيته سائرا على قدميه يكاد يطير من فرط الانشوة ،
ولكن رحلة ذلك اليوم كانت أكبر من أن يهتم لها بشفته الواهن ، فمرض مرضا
طويلا ، ليكون المرض تدشينا وتكريسا لحبه لعريد ، ولما تمثله فريد فى حياته ، وفى
حياة مصر . .

الخليج العاشق

الخليج العاشق هو - كما سبق القول - الخليج المصري الذي كان يشق القاهرة من أقصاها جنوباً عند « فم الخليج » أو مصر العتيقة إلى أقصاها شمالاً عند متلة صخرة .

هذا الخليج القديم كانت تقام حل جانبية الحدائق والبساتين وتصور الخلفاء الفاطميين ، كما حدثنا عنه حل مبلوك في سطحة التوفيقية ، كان نزعة للصون ، وفرجة للنفوس ، ومتجماً لطالبي الراحة والتسرية ، في القوارب والمراكب الشراعية تتهاذى فوق سطحة الهادي ، وفيها أحياناً الطبل والدف والمزمار ، مما يستعمله من يسميهم المقریزی ، « أهل الخلاعة » ، حتى أمر الحاكم بأمر الله منع ركوب القوارب في الخليج . ولكني لم أكن أعرف أن هذا الخليج نفسه قد انتابت لرواج الهوى والعرام ، فأحب فلم يجد عبوة تشابه ، وتصلح مطعماً لقلبه ، وغاية لشطحات وجده إلا « بركة الرطل » ينتهى إليها ، ويصب مائه فيها ، ويخلطان معا ، ويعد عدها ، بعد طول السفر الراحة والسكينة

وقد شاء خيال المصريين « القولكلوري » إلا أن يتخذ لقلعه الحسين : الخليج والبركة ، حيدا ، تقام له زينات الأفراح ، وتتقاطر جموع القاهرة ، ومعهم وسائل الطرب ، يفتون ويرقصون ، وكانهم في مولد من مواليد الأولياء الصالحين ، ثم تضرب الحليم ، لفنون التمثيل الشعبي من حيل الظل إلى آلة « قره قوز » ، ويحرص أصحاب المطاهم ما لذ وطاب من صنوف الحلوى والكوان اللحوم التي تصاعد لها

أحجرة تدبر الرعوس ، وتشيط شهية من أتحمهم كثرة الطعام كما أتحمتهم العروس ، ثم تدار الكتوس ، تلغ الشوة عايتها ، وتصل المتعة عايتها ، ولكن يبقى لمن لا يشمون هذا القدر من اللذات الحلال والحرام بقية من نشاط وروايا مستورة ومقصوحة ، تبدل فيها دوات الحمال اللهو والإثارة ، وتعددت صوره ، حتى لم يعد لحياء مكان ، ولا للمضلة رمام ، فوصل الأمر إلى السلطان ، فجمع أهل الرأي والقوى ، فأمرُوا أن يجمع هذا المولد ، العجيب ، مضاع على الفس عيد أى عيد !

وقد فاتني أن أحبك أن ختام حملات هذا الموسم الفريد كان رفاف الخليج إلى عروسه « البركة » وكان يرمز إلى الخليج شباب ، معشوق القوام جميل المحيا تنوع من أودائه أجمل المعطور يتمحط على وقع الطبول والرمور ، وترشفة الأواس بالورود والرهور ، إذ يرون في شحبه الخميل ، وقلة الحيل ، فارس أحلامهم ، وبطل غرامهم ، أما العروس وهى بركة الرطل فلم يجرؤ أهل القاهرة على أن يرمروا لها عتاة ، فأصبح العريس لا يؤانسه إلا الخيال ، وهوليس بالقليل على كل حال

ولم يكن الصبى الذى روى قصته وهو بطل من نافذته فى شرفته المصنوعة من حشب المشربيات على شارع الخليج المصرى يعرف من قصة هذا الشارع شيئا ، بل لعل اسمه ، لم يسترع نظره إلى أصله ، لأنه لم يكن يرى فيه ، إلا شارعاً ككل شوارع القاهرة ، ولم يكن أحد من أهله ولا معاصريه يلتفت إلى ما توحى إليه أسماء الشوارع من تاريخ قديم لها مثل بركة ، وفنطرة ، وساقية ، وبئر ، فلا يتصور أنه كان فى هذه الشوارع فى يوم من الأيام ، فنطرة حقا ، وساقية صدقا ، وبركة وبئر ، بل لم يصكر قط فى أن حى « البعالة » فى قسم السيدة ريس الذى عاش فيه وتفنن فى مواحيه كان فعلا موطئا لتربية البعال ، وأن حى « المعجالة » كان غيطا لزراع المعجل وهكذا وهكذا ...

يعود إلى الصبى ومنزله فى الخليج . وقد شهد فى هذا الشارع شخصية غريبة جدية ، بأن تصور وتذكر ، وحالته مؤلمة حقيقة بأن تروى وتقرأ ، ومأساة إنسانية ، سألت لها معر الصبى حينها وقعت ، وقيت أياما وليالى ، تؤرقه ويطارده خلالها شبح بطلتها المتعة الخط

أما الشخصية فلرجل قصير القامة متين البناء ملتصق كانت لمحيته الشديدة السوداء

السواد ، تدور حول وجه جميل التماطيع ، تلمع في صمغته عينا براقتان فوقها
 حجابان غليظان ، يتلاحقان ولا يفترجان ، وكان الرجل لا يرتدي رياء من أرياء
 المصريين ، لا القاهيرين ولا أهل الريف ، فلا هو عن يلبسوا الخليلاب المصري
 ولا الزيمى ، ولا الجبة والكاكولة ، ولا البللة والطربوش ، وإنما يصطع لنفسه
 رداء أشبه شىء برداء بلوموريا وفلسطين ، يتحل « خما » في قمعيه ، وشلا أبيض
 على رأسه ، يكونه بأسلوب خاص ، وتسدل على ظهره من تحت هذا الشال ،
 صمغتان طويلتان . وكان عمل الرجل ، أعرب الأعمال ، لم يكن يشترك فيه رجل
 آخر في مصر ، على الأقل ، إلى حد علم الصبي آنذاك ، فقد كان يصنع أحذية
 وجهها من قماش أبيض كأحذية الألعاب الرياضية ، ولكن نعلها لا يصنع من
 المطاط ولا من الجلد ولا من الخشب ، وإنما من خيوط الخيال ، يضمها بعضها إلى
 بعض ، فوق قطعة من الخشب ، تنثر فوقها بعض المسامير ، فيلب الخيال حول
 هذه المسامير ، ويدفها بمطرقة صغيرة من حديد ، لها بد من خشب ، ثم يستعين
 بفتاة صغيرة وفطيرة ودعممة لتشد وجه النعل إلى خيوط الخيل ، فتصبح حذاء جميلا
 رخيصا .

ولكن العجيب هو أن أحدا لم يشارك « الشيخ سليم » في مهته هذه ، وقد اتخذ
 لممارستها حائوتا يواجه منزل الصبي تماما ، وكان الشيخ سليم يتحد من حائوته
 مصنعا ومسكنا ومصل وخلوة ، فهو يعمل فيه ، فإذا جاء المساء نام داخله على
 أريكة ، فإذا حانت ساعة الصلاة صلى ، وإذا فرغ من كل ذلك انتفى جانبا ، وثلا
 ما لم يدر الصبي كنه : أدهية هي أو ترائيل أو تعاليد أو « تعاليم » سحرية ؟

كان الرجل يعيش وحده ، كانه يقيم في جزيرة وسط المحيط ، ليس له أقارب
 ولا أصدقاء ولا عملاء ، ولكنه لا يقطع جيرانه ، ولا يزور عهيم ولا يتعالى عليهم
 بدليل أن الصبي كان يتردد عليه ، ويتحدث إليه ، فلا يصيح به ، ولا يصرفه حتى
 يفرق فصلا على أن يشتد في الكلام معه ، ويحاول الصبي أن يذكر ماذا كان لديه من
 حديث . يتم به هذا الرجل الغريب فلا يستطيع ، ولكن تعلق بذاكرته حادثان أو
 ثلاث ، أولهما أن كتاب حديث عيسى بن هشام وقع في يد الصبي ، وكان في طبعته
 الأولى ، فقرأ مطورا في أول الكتاب ، تروى كيف سار عيسى بن هشام في صحراء
 الإلمام ، وقد حلا إلى خواطره يتادها ، وإلى معصه يتاجيها والغور من حوله يشملها

سكون عميق ، والصحراء أمامه ، يظنها ليل بيهم ، فخيّل إلى الصبي أن هذا الكلام شبه بما يقوله الشيخ سليم ، فلمسح بالكتاب إليه ، وقرأ منه سطورا ، فأنصت الشيخ وكف عن طرق حباله قليلا ، فلما رأى أن الأمر كله وصف طويل مملوطه ، وأنه لا يیش بفكرة عميقة ولا جديسة عاد إلى عمله ، وطوى الصبي كتابه .

الأمر الآخر يذكره الصبي عن هذا الشيخ أنه سأله يوما عن صلاته ، فوعده الشيخ ، أن يصل أمامه بصوت جهور حينما يوفى موعد الصلاة ، وأنجز الشيخ وعده ، ووقف يصل صلاة قريبة من صلاة المسلمين ، ولكنها لا تطابقها ، فلعل الشيخ سجد ولم يركع ، أو لعله ركع ولم يسجد ، وما تلاه لم يكن المفاتيح . ولقد حارت البرية في مذهب الشيخ وملة . فمن قائل : إنه درزي : ومن قائل : إنه علوي ؛ ومن قائل : إنه ينتمى إلى طائفة من الطوائف الكثيرة التي تخلفت عن الحركات المعادية للإسلام ، والحركات الباطنية التي يختلط فيها الإسلام بالمانوية العارسية ، وبعض عقائد اليهود غير الإسلامية .

وقد حدث أن قرأ الصبي في كتاب حل فهمي كامل عن سيرة أنصية الزعيم مصطفى كامل أن الزعيم ولد مختوما ، فسأل الصبي عن معنى هذه اللفظة ، فقل :

إنه ولد حل حال لا يحتاج فيها إلى عملية الطهارة التي يعانى منها كل صبي ، وتنبهى من ذكريات طفولته المريرة ، وقبل للصبي أيضا : إن الصبي الذي يولد هكذا لابد أن يكون ممن ترعى عنهم عبادة الله ، وفهم فيها فهم يومذاك ، أن عملية التحنن جزء من طقوس الإسلام لا يكمل إسلام المسلم إلا بها ، فاختزن هذا كله في ذاكرته ولما جلت المثنية سأل « الشيخ سليم » . هل قام بعملية التحنن ما دام يقول إنه مسلم ؟ وسكت الرجل ، ولم يد عليه غضب ولا صيق ، ولكن الصبي ذهب يوما إلى حانوت « الكنجى » المجاور لداره ، فلما صاحب المحل يقول وهو لا يستطيع أن يتمالك معه من الضحك : ماذا قلت للشيخ سليم ؟ إنه يشكو من أنك سأله :

هل هو مختون ؟ وشعر الصبي بحرج شديد ، فلما أنفضى إلى ذوى قرايته بما سمع هالهم أن أبهم اجترأ على طرح السؤال على رجل لا تربطه به صلة حميمة بل على مجرد رجل ، وبقي هذا الأمر كله من ذكريات الصبي غير السعيدة .

ولا يسمى الصبي صورة الشيخ سليم في يوم كان الصبي فيه في منزله مطالعا على شارع الخليج ، فقد رأى يومها الشيخ وقد ترك عمله ، ورفع إلى السماء عينيه يديرهما في الفضاء وقد ارتسم على وجهه من آيات القلق ما استطاع الصبي أن يطلعه من هذا البعد ، واستمر الشيخ يفعل ذلك ، وهو جامد في مكانه لا يترك وضعه ، وحار الصبي في سر هذا الموقف حتى أدار رأسه مصادفة إلى المنزل المجاور ، فرأى فتاة ، واقفة على قاعدة نافذة مفتوحة ، ويدها خرقه ، وهي تمسح بها رجلايها النافذة ، في همّة وفي حركة سريعة متصلة ، وأشفق الشيخ على الفتاة من السقوط ، واستبد به الحول ، حتى حال بينه وبين العمل ، الأمر الذي قل أن يصدر عنه ، وكانت أسنان الشيخ البيضاء تبدو لامعة ناصعة ، وهو يفتح فمه من فرط القلق ، وانطبعت هذه الصورة في رأس الصبي ، وأحس أنها صورة إنسانية تفيض بحب الإنسان للإنسان وجرعه لمصاب من لا يعرفه ، فالحب الشيخ حبا عميقا .

وكان والد الصبي يزور الشيخ سليم في حلاته بين الحين والحين ، زيارات قصيرة يتبادلان فيها النحية والسؤال عن الصحة ، ولكن قل أن يعود الوالد من إحدى زيارته دون أن يروي لأهل بيته ومنهم الصبي ، شيئا طريفا أو جيلًا أو مؤثرا لو غريبا من حياة الشيخ .

وفي أحد الأيام أفضى الوالد إلى الأسرة ، بأن الشيخ وقع في غرام الفتاة الصغيرة الضعيفة والدميمة التي تعاونه في عمله ، وألقى ثاقب كل مساء لتسليم ما انتهت من إعداده من النعال ، وتسلم الدفعة الجنيته منها ، وأن الشيخ بدأ يتحدث عن اهتمامه بالفتاة على استحمله ، فهو يتحدث عن ضحكها وشدة حاجتها إلى المعين ، وارتقى من ذلك إلى الحديث عن أمانتها واستقامتها ، إلى الحديث عن ذكائها وخفة ظلها ، حتى تفرقت عيابه بالدموع يوما ، وهو يتحدث عن مرضها ، وانقطاعها عن العمل لهذا السبب وواصله الوالد ، ودعا الله أن تكون الهكة خفيفة وسريعة الروان ، فمست هذه المواساة الرقيقة شغاف قلب الرجل الوحيد الغريب ، فاهتمت عيناه بالدموع ، حتى أنهجه أن يضبط في هذه الحالة من الوجد والدوة ..

وبقيت هذه القصة القصيرة تساور حبال الصبي ، وتتردد عليه ، وتدهو لأن يتأملها من جديد فيحدها موضوعا لقصة أو رواية ولكنها كانت بذرة لا تثمر .

أما المأساة التي وقعت والصبي في بيت شارع الخليج فهي جذيرة هذا الاسم بلا
 مبالغة ، إنها قصة ربيب الفتاة التي عانت في طفولتها من كساح ، فخرج بناء جسمها
 مخرلاً ، تحمل رأساً صحبها ، وكسعين عريضتين قويتين ، على جسم قصير ، وساقين
 ملتويتين قليلاً ، وحوض صيق ، ولكن ربيب التي كان الناس يسمونها « ربيب
 المكسحة » وربما نادوها مباشرة بهذا اللقب ، كأنه اسم أبيها ، كانت فتاة ذات
 حيوية قوية البلد ، تتكلم في لفظ يس ، وتمي الأمور وعيا حسنا ، وتقوم بالعمل في
 البيت الذي كانت تشتغل فيه حل وجه لا يدهو إلى الشكوى ، كانت تمتلئ بربيتها ،
 فتشترى لشعرها ضمائر مستعارة تضيئها إلى شعرها الأصيل ، فينوشعرا طويلا ،
 وتشترى لهذه الضمائر المستعارة قروشاً ذهبية تسمى « خريبات » تعلقها بهذا الشعر ،
 لتزيده جمالا ، وكانت فوق ذلك تقتصد من أجرها ، فتشترى من المصوغ الرافق
 عقدا يسمى « كردانا » .

وربما وضعت في شعرها وثوبها راحلة رخيصة ، ولكنها تسم من حرصها حل
 أناقتها .

وكان الصبي يالغها ، ويضحك معها ، كلما رآها ، وكان أحيانا يلصق يده في
 صدرها في براة الطفل وسذاجته ، وشقاوته ، فضحك ، ويتظاهر بالغضب ،
 والطفل لا يرى في كل ذلك ، ما يدهو إلى اللوم ، ولا يستوجب العقبة ، وفي ذات
 يوم شكت زينب من ألم مجهول ، ومرص غامض ، وحار أصحاب الدار التي كانت
 تعمل فيها في تشخيص هكتها ، ولما هم عليهم الأمر استعانوا « بأم جلييلة » التي
 كانت تعمل في بيت الصبي ، وغلت أم جلييلة بريب التهمة حيناً ، ثم خرجت
 لتعمل لأهل الدار شيئا بصوت هاهن مرتعش ، وقد علا وجهها مظهر حزن صادق
 وصحيح . مم تشكوريبت المسكينه ؟ أي حلة دعتها ؟ ولم يطل الأمر ، فقد استدعى
 أصحاب الدار حربة يجرها حار ، ووضعوا « زينب » فوقها ، وتطوحت « أم جلييلة »
 بالذهاب معها ، إلى أين ؟ عرف الصبي بعد ذلك أن العربدة بحمارها وعن تحمله
 ذاهبه إلى قصر العيني أو أن قصر العيني هذا مستشفى ، وأن المستشفى مكان لمعالجة
 المرضى الميؤوس منهم عادة ، وأنه قل من يجا من شر المستشفيات التي كانت تسمى
 في أحيان كثيرة « الأشلاء » ، لا نسبة إلى الأشلاء ، باعتبار أنه لا يذهب إليها إلا من
 أصبح أشلاء ، كما كان يظن للصبي ، بل تصحيفا لكلمة تركية هي القشلاق .

ولذلك الصبي من الخمس أن « زينب » لرنكت خطية ، وأنها تدفع ثم هذه الخطية ، ولا ينسى الصبي شكل هذه الفتاة المسكينة التي كان يلعب معها رعبائها ، وغاصمها ويصالحها ، فقد كان وجهها شاحبا تملوه صفرة الموت ، وكان جبينها يتفقد حرقا ، وكانت تقاطعها تحدث عن ألم عميق ، يمتصها اعتصاما ، وكان مع ألم الجسم ألم محض ، وهو ألم الشعور بالعار ، ومفتت الحرية بحمارها المزيل ، والفتاة النضة ، ملقاة حل ظهرها ، كأنها جث لفظت أنفاسها ، وظهر ألم جليلة على الحرية كأنه يروى ويتحدث ويكي ويصرخ . . لا لمأساة زينب « للكسحة » ، بل لآلام الإنسانية كلها ، وضحقها ، وهوانها وقلة حيلتها

ولم يلك الصبي ، ولكنه وقف أمام باب داره ، وقد تلجت بذله ، وتجنبت ساقه ، وزاغت عيناه ، وخص برقبه ، وصمت وأجما حائرا لا يدري ماذا يقول ؟ ولا ماذا يفعل ؟

كان يوده أن يصحب زينب ، لولا أنه لا يدري بالضبط بالأمر ، ولا إلى أي مكان تذهب ؟ ولما اختفت الحرية خيل إلى الصبي أن كل شيء اختفى : بيته ، والشارع والترام ؛ وأنه نفسه لم يعد له وجود !

وشمله حزن غريب ، وقلت حركته ، وهو لا يكف عن الحركة ، وانقطع كلامه وهو لا ينقطع عن التلثرثرة ، وسمع بعد ذلك من الأقاصيص والحوادث مزاجه ألما ، وما بقي في ذاكرته من هذه الأقاصيص والحوادث أن أحد أهل الشارع روى أنه كان عائدا متأخرا إلى بيته في ذات ليلة فاصطدم هو برجل عمود يتخطى في الشارع ويصيح : يا بت يا زينب . . وقيل . إن هذا الرجل « حرجي » ، وأنه كان يلقي « زينب » في ليال كثيرة في حوش الدار التي تسبل فيها ولا أحد يحس بما يجري هناك ! هل هذا خيال يوحى إلى الناس عند كل حادثة تقع ، أو أنه الحقيقة ؟ ولكن ما الفرق وقد اختفت زينب ولم يعد يسمع عنها أحد شيئا ؟ وقد قطع الجميع أنها لشوه جسمها لم يكن وضعها للجنون إلا موتا محققا .

وإذا كان الصبي لم يشهد حادثة من الحوادث من شرفة منزله المطل على شارع الخليج الذي يجري فيه الترام أكثر مما يجري في أي شوارع آخر بحسبان شارع الخليج هو أطول شوارع القاهرة فإنه تأثر بحادثة ترام لم يشهدها ، والغريب أنه لم يتأثر بها فور وقوعها بل بعد وقوعها بشهور :

ففى ذات يوم خرج من مدرسته إلى داره فرأى جمعا جالسا على مقربة من ميدان
السيفه زينب عند انجاء الترام إلى شارع خيرت فميدان لاطول على ، وسأل عن الخبر
فعلم أن صبييا كان يحاول التعلق فى الترام فسقط تحت عجلاته ، وأنه سيحمل فى
عربة إسعاف إلى المستشفى ، وتمهل الصبي قليلا ثم مضى إلى حال سبيله ، فإذا
كان اليوم التالى علم أن المصاب فى حادث الأمس زميل من زملاء الفصل ، فذكر أنه
كان صبييا أبيض اللون مستدير الوجه هادئا لا تعرف عنه رعب ولا خفة ، ومضت
شهور ، وعاد الزميل المصاب ، وقد فقد إحدى ساقيه ، واستعاض عنها بأخرى
صناعية ، وتيبب الصبي أن ينظر إليه ، وحاف أن تلتقى عياده بعين الزميل ، ولكن
الزميل للمصاب ، كان عليهما هادئا لم يبد عليه أنه شعر بأهمية خاصة لنفسه بعد هذه
الإصابة ، فلم يشجع تصرفه هذا إخوانه على الالتفاف حوله ، والترحيب به
ومضت الأيام فإذا خلق هذا المصى يتضح كلما كبر ، واشتد إحساسه بهيئته ساقه ،
لقد اتسم خلقه بالخلابة والجفاء ، لإخوانه أقرب إلى العدوان والرهبة فى المخاشنة ،
ويبقى هذا طابع سلوكه ، حتى بعد أن أتم تعليمه ، ونزل معترك الحياة العملية .

وكان من المشاهد التى كانت من صور الحياة الثابتة فى شارع الخليلج على مقربة
من منزل الصبي صورة أسرة مكونة من زوج وزوجته . كانت أسرة فقيرة مدققة ،
يعمل الزوج فى مصنع للسمر الخليلجية على بعد خطوات من دار الصبي ، ولكنه لم
يكن صانعا بل حمالا ، يرفع السمر إلى المربيات التى تنقلها إلى حوانيت التجار أو
بيوت العملاء أو يهزأها من المربيات إذا كانت فى حاجة إلى طلاء أو ترميم أو إصلاح
وهو يتقاضى لقاء هذا العمل الثاقل قروشاً قليلة ، لم تنه على شراء خرفة تستر
بدنه ، فقد كان يلبس أجزاء من ثياب ، وكانت زوجته على مثل سوء حاله ، ولما كان
أكثر وقتها فراخا فقد كتما يشاهدان جالسين الواحد إلى جوار الآخر يتحدثان أو
بأكلا من قطعة من خبز ، وقليل من إدام رخيص .

ولكن هلوه هذه الأسرة يفرقها فجأة ، فكانتا يبدآن النهار بشجار كلامى يمتد
قليل ، فإذا أوشك النهار أن ينتصف تحول إلى صراع ، يحاول الرجل فيه أن يضرب
زوجته فلا يستطيع ، لأنها أسرع منه حركة ، وأقوى منه بدنا ، فهى قادرة على أن
تناله بأسنانها وأنظفأرها ، فهوى وجهه ، وتقع من ثيابه الممزقة قطع ، فيزداد جسمه
عريا ، ثم تنظر يد المرأة بأجراء حساسة من جسم رجلها ، فيسقط مغشيا عليه ،

ويتدخل من الجيران بين الرجل وروجه ، من يفصلها الواحد عن الآخر ، فيتمرقان ثم يبدآن ويعودان كأن لم يكن بينهما شجار ، ثم يبدأ بينهما حوار عيب قبيح ، ويردد عماً ، فيمضى إلى التماسك ، ويقع المصراع من جديد ، وتسقط أجزاء من الحرق التي يرتديها الرجل ويرداد جسمه نعرها ، ثم يقضى عليه فيثوب إلى رشده ، وهكذا دواليك .

أهلام وراء أهلام والحال على هذا الموال ، لم يشبعا من الضرب والصنع والركل والعص ، ولم يتغير وضع أحدهما من الآخر ، المرأة دائماً أقوى وأشدّ اختناقاً والمراك ، والرجل دائماً مغلوب على أمره ، ولكن لم يفترقا قط ، ولا تبدو عليهما نية الانفصال أو الاتفاق أو مباحرة المكان ، ولا يتدخل أحد من الجيران ولا من عمال المصنع ، ليصلح ذات الين بين هذين الزيفين اللغريين ، ولكن الخاتمة والت أخيراً ، فقد سمع صراخ عنيف رهيب ، ذات ضحى ، وتخرج الناس من البيوت ، وأطلت النسوة من السوافد فرأوا عجباً : رأوا الزوج لأول مرة وقد لف شعر المرأة على يديه ، وذراع يلو به بعضه وهي تتلوى وتصرح ، ثم أمسك بفتحة ثوبها القديم البالي فشدّه إلى ذيله ، فلما هي عارية تماماً ، وأغمى على المرأة ، وجثا حاول الناس ، إعادتها إلى صوابها ، وبقيت هكذا ، حتى تبرعت لها سيدة بثوب ، وقبض فأعادها ذلك إلى صوابها وبدأت تغير عتيها ، واستطلى الرجل ، فنذهب بعيداً ، فلما تحركت امرأته قام فصار يحدوه بعيداً عن المكان في خطى متثقلة ، وأسندت المرأة ظهرها للجدار ، فلما مد رجل يده نحوها برغيف فيه بعض الطعام أحطت تقضم الرغيف وما بداخله في هدوء وتثاقل وحزن ، فلما حل للمساء مشيت بنورها في خطى متثقلة ، ولم يجد أحد يرى أبا منها أو يسمع منها .

حلاق الزعيم

أما الحلاق فهو الحاج طه ، ولما الزعيم فهو سعد زعلول
وعلاقة الصبي الذى اروى لك حكايت بالحلاق وبالزعيم ... أنه انتقل من بيت
ل شارح الخليج إلى بيت يملكه الحاج طه .

ولم يكن الحاج طه شخصا عاديا بل هو معيار لحيته لو وزنته ، فقد كان حلاقا
لرجل ، أحبته مصر حبا كاد يخلو حبا وانتانها ، بل رجل سواه ، فقد مسحت
حواله الأساطير ونسبت إليه المعجزات ، ورفعت له مراتب القديسين وأولياء الله ،
ورفعه أقوام أعزوا إلى مصاف أهل وأسمى . وفى حياة الأمم والشعوب ، فترات
يتخذ فيها وجدانها ، وتذهب مشاعرها ، حتى تصبح فى حاجة إلى ضرب من الوله
تبحث له عن إنسان يحسد : ففرنسا مثلا فتنت بفائد لم يبلغ مبلغ « نابليون » فى
البرق ولم يتمتع بما تمتع به الكورسيكى البطل من شمائل المبقرة وشارات النبوغ ،
هو الجبرال « بولانجه » ، وكذا تاريخ فرنسا يتعبر بسبب هذا الوله المفاخر ، لولا
أن بطلها المرموق وضع حدا لحوجة التذلل فى حبه ، بأن وضع حدا لحياته كلها على قبر
معضوقة ، لم تره أهلا للاستار بقلها .
... ماعلينا .

وددت أن أحدثك عن الحاج طه ، وعن يته الذى أدى فى حياة الصبي دورا بل
أدوارا عظيمة وطويلة لولا أن ليت الخليج المصرى ، فى ذمة التاريخ البسيط
التواضع الذى يرويه حقوقا صغيرة يجب أن تؤدبها .

فقد مرض الصبي في بيت الخليج مرضاً طويلاً يمكن أن نسجه مرضاً عصبياً
أعياً يُطس الأطباء حقاً لا مجازاً ، حسبك أن تعلم أن هذا المرض الهم الصبي فراشه
سنة أشهر أو يزيد ، منقطعا عن الدراسة تلح عليه آلام شديدة ، يحس نارها
للتنهية ، وشركها الحدا في معاصيل يديه ورجليه ، ولم يقع هذا الداء الكريه ، بم
يسه للصبي من أوجاع حتى أصاب إليها مصاعمتين - صعبة الحركة ، وورما عند
الركبتين ، قيل إنه ناجم عن 2 ماء ، تمرره الأجراء العسروية في المواضع
المربصة ، فيصبح عسوساً ، تنصخم له المركبة ، وترجرج عند الحركة ، وكان
يعالج الصبي آنذاك ، أكبر أطباء مصر الباطنيين وواحد من عاقره العلماء في مصر ،
ذلك هو الدكتور عبد العزيز إسماعيل باشا ، وكان في فترة مرض الصبي في مطلع
شهرته قليل العناية ببلبيه ويأثث عيادته ، قليل الكلام مع مرضاه ، لا يش
لهم ، ولا يش ، ولكنه لا يصل إلى مرتبة العبوس والتعطيل والخشوة .

وكان هذا الطبيب العظيم قد عالج الصبي نفسه من قبل من أمراض أخرى
حطرة كالتيقود ، ولكن الذي يمسنا من مرض الصبي أن طبيباً آخر كان يقوم بمساعدة
الدكتور عبد العزيز إسماعيل ، وكان هذا الطبيب الشاب بأمره الصبي أكثر من
علاقة : فقد كان زميل حال الصبي في الدراسة الثانوية ، وكان ساكن أسرة الصبي
في منزل شارع سلامة الذي حدثك عنه ، وكان إلى جانب هذا كله الطبيب الخاص
للصبي ، فلا ينقضي شهر حتى يموت من أجل مرض بسيط أو خطير

ومرت الأيام وكبر الصبي ، وأصبح شاباً ، ورات السلطات أن تزج به إلى
سجن الاستئناف وكان طبيه هذا من أطباء مصلحة السجون وشامت المصادفة أن
يكون الصبي في صياح أحد الأيام الشوية ينتزه في ساحة السجن ، فإذا به وجها
لوجه مع طبيه وجاره السابق ، وصديق أسرته فاستولت عليه فرحة لم يشعر بها حياً
أفرج عنه من قبل في قضايا سياسية ، ولم تكن فرحته بالطبيب راجعة لأمل يعقده على
الطبيب ، ولا لخدمة يطمح في الحصول عليها في السجن ، فقد كان أكثر موظفي
السجن حرصين على التلطف للمسجون السياسى أياً كان مذهبه ، حتى لو احتلفوا
معه في الرأي ، إلا أن يكون موظف السجن دنياً ضيق العقول ، قليل المروعة ، وقد
كان أمثال هؤلاء قليلين في تلك الأيام ، لتضاهة الصراع الحزبي ، وقلة جلواه في نظر
الناس ، وإن لم يصرحوا بذلك لو يذكروه بمقولههم .

فرح الصبي إذ رأى طبيبه يتكلم مع موظف آخر من موظفي السجن ، ولم يتنظر الصبي حتى يقبل عليه الطبيب ، ويخبره بحارته ، ويسأله عن صحته ، وصحة الأسرة فرداً فرداً ، ويذكره بأيام شارع سلامة ، وأيام شارع الخليج ، وتصور الصبي العذابات التي سيقولها له الطبيب ، فيحبل إليه أنه سيمسك بيده ، ثم يتأمل في وجهه ثم يقول له . لقد مضت الأيام سراعاً . ولقد أصبح الطفل المريض شاماً ، بل أصبح ميسابياً . دعني أتأملك ، فإن لا أصلق عيني ثم يلتصق الطبيب إلى رجليه موظف السجن « قائلاً : إنك لا تصور كم كان طفلاً ضئيلاً وصغيراً . . . » .

ولكن شيئاً من كل هذا لم يحدث ، فقد مد الطبيب إلى الصبي - الذي أصبح شاباً بدأً لا حياءَ فيها ، وقال ما نسب الصبي لشدة الصدمة وقبح المفاجأة ، وكأنه كان معه في الأسس القريب . وحاررت ابتسامة على شفقي الصبي لا يدرى كيف يتخلص منها ؟ واسترد يده ، وهو يحس أنها أصبحت ببلولة ، لم يدر أين مصدرها ، وعاد إلى الحائط الذي كان يستند إليه ظهره ، قبل أن يرى طبيبه القديم وحل وجهه من آيات خيبة الأمل والحسرة ملاً وصف له . .

ولا تحسب أن الرجل فعل ذلك من خوف من الحكومة ، فقد كان يرى ويعرف أن موظفين أصغر منه وآخرين أكبر منه كانوا يجاملون المتهمين السياسيين ، ويتناسون في التسترية عنهم ، وإجابة طلباتهم التي لا تحالف قانوناً ، ولا نسب للحكومة أدى ، وإنما كان نصبره راجعاً إلى فتور في الإحساس ، وبلادة في الشعور ، وثقل في اللسان ، ولقد عمر الصبي له في الحال ، لأنه كان يعرف خلفه ، وهو الخلق الذي كان يسميه الصبي - عندما شب من الطوق - بالمزاج اللبغاوي - وهو لا يدرى حتى الآن نصيب هذا الاصطلاح من الصحة .

عل أن الصبي لم يمتنع ، فقد عرف وهو طالب في المدرسة الثانوية جارا آخر كان يعمل قاصياً في محكمة أسبوط ، وكانت والدته القاصي صديقة حميمة لوالدة الصبي على الرغم من أنها تكبرها بكثير ، وعلى الرغم من أنها كانت دائمة الشكوى من تعصب المسلمين ضد الأقباط .

وكانت هي من أسرة قبطية كبيرة ، وكانت والدته الصبي ، تحب هذه السيدة المجوز ، وتحب ما تصور به أعمال المسلمين وتجنبهم على الأقطار وتصحك ما يشاء

لها الضحك ، وتروى للصبي وأحواله ما يندور بينها وبين جاريتها من طرائف ولطائف ، بل كانت هذه السيلة نجب للصبي ، وتؤثره بحلواها وكحكها ، وتجلسه إلى جانبها ، وتقبله في جيبته وتدعوه بخير كثير ، ثم تختم هذا كله بصحكة تملأها بهذا الصغرة المحبلة وهي تقول : يس إياك يتمر فيك . وما تظلمش زى بقية المسلمين ! فيقبل الصبي بهذا ويقول لها : نحن لا نقبل الرشوة ، فتظاهر بالغضب وتدعى أنها مستحطف ما أمام الصبي من كحك أو فطير أو حلوى !

فلذلك بات الصبي مع القاضي وأمه كثيرة حبة وحبة ، ومضت الأيام وتخرج الصبي في كلية الحقوق واشتغل بالمحاماة ، وكانت له قصايا خير قليلة في محكمة عابدين ، ونقل القاضي الجبل إلى هذه المحكمة ، وفي ذات يوم لمح الصبي رجلا يشبه يسير نحو حجرة القاضي ، فسأل الحاجب بلهجة : من يكون هذا الرجل الذي دخل الآن إلى غرفة المدولة ؟ فقال الحاجب : « زكى بك . . » وانتابت الصبي أو المحامي الشاب الذي كان صيا من قبل فرحة شبيهة تماما بفرحته وهو سجن الاستئناف حينما رأى جواره الطبيب وهي فرحة يربط خالية من الغرض ، لم يكن الباحث عليها أنه سيجد قاضيا يعرفه معرفة وثيقة ، فقد كان المحامي الشاب ، حل صلة عامة في الجردة بأكثر القضاة ، وكان منهم من يزوره في مكتبه وفي بيته ، بل كان منهم في القاهرة على الأقل ثلاثة من أبناء أسرته ، ولكن أن يرى الإنسان صديقا في حال ثم يراه وقد اكتسب مكانا رسميا ، وقد كتب عليه أن يعامله في حدود القانون فهذه هي السعادة . سعادة أشبهها بتظاهر الأب بحض ابنه مزاحا ودعابة ، ففرح الطرفين بهذه الدعابة . ترجمته : أنا أستطيع أن أحضك أو أؤلمك ، ولكني لا أفعل ، لأنني أحبك . . وأنا أتظاهر بالمحض ، لأقول لك : الآخرون يعصون حقا ، فيما يسعد أن يوجد من يستطيع أن يؤذينا ، ولكنه بدل الإيذاء يضحك معنا ويلعب . .

كذلك يقف المحامي الصديق أمام القاضي الصديق ، وكأنيما غير متعارفين ، ويتجههم القاضي ، ويمترض المحامي ، ويأخذ القانون كل حقه ، ولكن يحس الاثنان أن من وراء هذا كله حبا لا ينكر ، ومودة لا تنقص ، وعد لا يلهي . . وهم المحامي الشاب أن يتدفع إلى حجرة القاضي ليرحب به ويحبه ويدعوه إلى بيته ويسأله عن والديه ! ولكنه قد كبر وأصبح شديد التحكم في نفسه ، قليل

الاندفاع إلا في المسائل العامة ، وانتظر حتى حانت الساعة التي وقف فيها أمام القاضي بعد أيام ونظر إليه وعلى شفعية استماعة خفيفة لا تكاد تلمح ، وفوجيء بأن القاضي تجاهله تماماً ولم يرد على هذه الاستماعة بمثلها أو بأقل منها . وعزى الشاب نفسه أن ذلك مرط حيلة من القاضي ، وتصادف أن الاثنين تقابلًا في نهاية النهار ، وقد فرغ كلاهما من عمله ، والتفت الشاب إلى القاضي في حرارة مضبوطة جداً ، فإذا به يرى القاضي متدفعا في النزول على درجات السلم ، ثم التفت في سرعة خاطفة إلى الشاب وقال له . إزيك يا أستاذ ، وحيل للأستاذ الذي وجهت إليه التحية ، أن السهات أبطقت على الأرض ، ولكن حياته العامة ، وما رآه خلالها من سقطات الناس ، وأكاذيبهم ، ووضاعاتهم وفتاباهم .. كانت قد ردتته بمناعة صد الآلام الباجية من مثل هذه المواقف فقال للقاضي وهو يبط درجات السلم بخطى أسرع من خطاه : « الله يحفظك » .

وطال عمل القاضي في محكمة عابدين ، وتعددت المناسبات التي يتلاقى فيها والمحامي الشاب الذي عرفه صبيًا ولم يخرج العلاقة بينهما عن حدود الرسميات المخففة بالمودة الناشئة من كثرة التلاقي وعن احترام المحامي لزملائه . محامون ونضاة وبنى الصبي الذي أصبح شابا يتعامل . ألم يكن لهذا المحامي الزجاجي أن يكسر ؟ وفي ذات يوم ذهب إلى محكمة جنات الحيزة ليرافع في جنابة من أهدد ما مر به من قضايا ، قضية عمرة حقا ، لكن المستشارين لا يقرمونها حتى يستعرف يفتهم أن عقوبة المتهم في تلك الجنابة يجب ألا تقل عن الموت شقاً بحال . وترافع الشاب في القضية مرافعة أراد الله أن ترتزل عقيدة المستشار الجلولي وجوب الحكم بالموت ، ولكنها لم تصل به إلى يقين آخر . يطعن إليه ويرتاح .. وفي اليوم التالي للمرافعة وكانت القضية قد نظرت أهدأ رأى المحامي الشاب جواره القديم ، ورئيس محكمة الجنابات آنذاك يتلطف معه ويسأله عن الصحة والأسرة . وهو مأخوذ لا يدرى ما هذا التحول المفاجيء ؟ ولكنه سرّبه على كل حال ، بيد أن حجة لم يطل ، فقد خلعت المحكمة للمداولة ، وإذا بالمستشار رئيس المحكمة يؤجل الجنابة لنسب تأفه إلى دور مقبل ، وكان أحد المستشارين تربطه بالشاب المحامي صلة ، فلم يرحجاً في أن يقول للمحامي بعد ذلك بليام « زكى بك .. استأفنا في التأجيل ، لأن صلاتكم وثيقة تكاد تكون في مرتبة القرابة » وسرى أن تكون هذه

الصلة قد كانت ذات نفع على أى وجه ، للمستشار الحار فقد أنقذته من حيرة لم يكن يجد منها مخرجاً !

يعود إلى بيت شارع الخليج ، لزمى له ما بقى في الدعة أى في الذاكرة من حقوق : أى من ذكريات . .

وقد حدثتك عن مرض الصبي الطويل في أثناء إقامته في هذا البيت ، وأريد أن أروى لك من ذكريات هذا المرض : اثنتين أولاهما هي في واقع الأمر ظاهرة نفسية في حاجة إلى تحليل نفسي ، ليدرسها ، ويستخرج منها دلالتها ، فقد كان الصبي طوال مرضه يكتب بإصبعه السبابة على خطاه فراشه حرف الحاء يحط الرقعة بلا قلم ، عشرات المرات في اليوم الواحد ، بل مثاتها ، وقد كانت المدارس الابتدائية في تلك الأيام حريصة على أن تعلم الأولاد الكتابة المحسنة المتقنة بالحروف العربية ، وكانت توزع عليهم كراسات مستطيلة ، في أهل كل صفحة من صفحات هذه الكراسة سطر مطبوع إما بالخط الثلث وإما بالخط النسخ ، وإما بالخط الرقعة وكانت هذه الكراسات تسمى « مشطاً » .

ولما كان خط الصبي رديئاً إلى أقصى الحد ، فقد كانت حصّة الخط ، وهي مرة في الأسبوع ، من أثقل الحصص عنده ، ومن أكرهها إلى قلبه فقد قل أنه تمر حصّة من تلك الحصص دون أن يتألم من مدرس الخط ويخاصة في السنة الثالثة ، من الأستاذ عبد الحافظ عصا على كتفه ! وكانت مع الصبي ساعة لا ينظر إليها إلا في حصّة الخط ، فإذا نسيها أو تعطلت ، استعاض عنها بعد السنتين باعتبار أن كل سنتين تساوي دقيقة فإذا انتهت الحصّة والمدرس في بداية الفصل تنصص الصبي الصعده ، وارتفعت معنويته إذ نتجا من ضربة الضرب ، واستقبل الجزء الباقي من اليوم الدراسي سعيداً ، فإذا قلده سوء الخط ، إلى العصا المهوطة انفضى باقي يومه بغضباً مرّاً .

وكان المفروض أن يكون الخط ، وكل ما يتصل به أبعد الأشياء عن خاطر الصبي المريض ، ولكنه بقي طوال الأشهر الستة ، يتمنى أن يراً ، وأن يستطيع أن يمسك القلم بين أصابعه المريضة الموجهة ، ليكتب حرف الحاء يحط الرقعة . . لماذا

الكتابة على الإطلاق ، ولذا حرف الحاء ، ولذا خط الرقعة ؟؟ معميات بقيت إلى اليوم ، بعير حل والطريف أن الصبي حينما شفى من مرضه سى تماماً أميته القديمة .

وكان فراش الصبي غير بعيد عن الحجرة التي يتناول بها باقى أسرته طعامهم وقد كانوا يجتمعون عند تناول وجبات الأكل ، وقل أن يتحلف لحد من العناء خاصة ، وإن كانت مواعيد الطعام جميعاً محل احترام عظيم . وكان يتراعى إلى سمع الصبي المسكين أصوات أبيه وأمه وأخواته وربما بعض المصيف ، وهم يتناولون الطعام فكان يملأه من هذه الأصوات ، دون باقيها صوت المصع أحياناً إذا وصل إلى سمعه ، والصوت الناشئ عن اصطدام «دورق» زجاجي بالأكواب التي هل المائدة ، ففى هذه اللحظات كان يحس بالحرم من متعة الطعام على الرغم من أنه كان يشكو أعذب سقى طفولته وصباه من فقد الشهية .

وفى الفترة السابقة على إصابة الصبي بالمرض بدأت صلاته بعالم الحيوانات ، فاقننى قط صغيراً وأطلق عليه اسم «جناكليس» لأن أباه كان يشرب سجائر بعدها مصعب أجنى أهل المظر أنه يونانى ، اسمه جناكليس ، وقد كانت مصانع السجائر فى ذلك العهد موردة بى الأرض . وبين اليونانيين وقليل منها للطلبان وكان من أشهر السجائر الأرمية «ماتوسيك» ثم سجائر «ملكوياك» ، وكان من أشهر سجائر اليونانيين جناكليس ، وأشهر سجائر الطليان كونارلى وكريارى .

ووقع الصبي فى تناقص ، إذ يشعر به للقط «جناكليس» أحب الفئران البيضاء ، هاتقى منها اثنين أو ثلاثة وأودعها قمصاً من خشب بأسلاك رفيعة من النحاس ، وأحسن تعذيتها فتضحمت ولكن شامت المصادقة أن تكون كلها من جنس واحد . ذكور أو أنثى ، ولذلك لم تتوالد ، ولم يكشف الصبي هذه الحقيقة ، حتى كبر . والعريب أن القط لم يعكر قط فى أن يس الفئران البيضاء بسوء ، حتى بعد أن شب من الطوق : وهاج هائج شابه . والتمس لعنه رفيعة تكمل حياته ، فلما لم يجدها فى البيت انطلق يمشى فى الليل البهيم صائداً كأنه وحش جريح .

ولكن حدث والصبي مريض لا يكاد يقوى على تحريك عضو من أعضائه جسمه ، وأسرته تتناول العشاء لم يسمع فى المنزل صوت ارتطام جسم ما بالأرض ،

ومضت لحظة دون أن يتبه الصبي إلى أن هذا الصوت قد يكون مبه سقوط القفص الصغير المعلق في ردهة المنزل الذي تعيش فيه فتراته العريضة ، وانفجرت هذه الفكرة كأنها ضوء يرق غاطف لمع في الظلام ، ثم اختفى فجأة ، وأحس الصبي بأن حيلة جديدة لا عهد له بها ، وغرماً مفاجئاً لا يدري من أين مبهت قد استوليا عليه ، ليرفعاه من سريره ؟ وصرخ في مكانه ، وأسرعت الأمرة إليه الأم والأب والأخوات وغيرهم ، فرأوا وجهاً مصفراً ، وديس ترتعشان ، وشفتي تحتلجان ويكاء مكتوما لا يستطيع أن يفجر ، وبعد لاي أدركت الأم أن الطفل المريض قد عرف بعلمه أن الصوت الذي سمع هو صوت سقوط قفص الفئران ، فأسرعوا جميعاً إلى حيث وجدوا القفص في الأرض ، وقطاً غائزاً قد تسلل إلى الدار ، ووقف في عصبية وخوف يلوح حول القفص وهو يرى هذه القويسة الشهية فتران يفضله سمينة ، لا يدري كيف يطولها ، فأسلاك القفص لا تسمح له بأن يدخل فيه ، وهو يشعر بغريزته أنه في موقف خطر ، وأن عليه أن ينهي مجازفته سريعاً ، فلما شعر بدواهل الدار جرى في حيرة وهو يتحبط بين الجدران باحثاً عن منفذ ١ وحل القفص إلى الصبي فرأى الفئران في حالة من الاضطراب ، جعلها لا تستقر في قفصها تروح وتخلو ويضطرم بعضها يحض ولم يطق الصبي المريض أن يرى هذا المنظر ، فأنفض عينيه ، وهو يكاد يحتق بالخوف على أصدقائه الذين كان يجههم حقاً !

وفي هذا الوقت نفسه كان الصبي قد بدأ يرى « دودة القز » بنجاح ، فهو يرى الدودة وقد تحولت إلى شرنقة ورأى الفراشة ، وهكذا دواليك وأدرك أنه يجب أن يفتل الفراشة حتى لا تقطع الخيوط الحريرية حينها يكمل ميلادها وتود أن تنطلق ، ولكن صعب عليه أن يفتل الجزء الباقي من وضع الشرنقة في ماله ساخن ، وأن يبدأ في سحب الخيوط الحريرية البالغة غاية الدقة والرفقة .

ومن هرايب ذكريات تلك المفترة أن الصبي بقى أحوالاً يعتقد أنه كان إلى جوار بيته بيت قديم مبنى على الطراز الإسلامي الذي بيت عليه دور أخرى في القاهرة كدار المسيحي والسناري وثمان الكاشف المجلول لمدرسة السنية ، وأن هذا البيت القديم كان مهجوراً ، وأن من بين حجيراته ، حلاًماً مزهياً بالنوافذ الزجاجية الملونة التي في سقفه ، والتي تسكب فيه ضوءاً جميلاً خاصاً بهذا الطراز من الحمامات وما أكثر ما رأى الصبي نفسه يعين الخيال أو يعين للذكرى ! في هذا الحلم ينتظر إلى

السقف ، وسلم نفسه للإحساس القريب بغمره وهو ينظر إلى التواظف الزجاجية ، ثم ينقل من هذا الإحساس المريح للنفس إلى شعور من الأشمئزاز ، والانتباذ ، وهو يرى الأحجار المتساقطة ، بفعل الرمس من أسقف ويجدران هذه الدار القديمة ، وما اختلط بها من أقدار الناس الذين تحفوا من هذا المبنى الأنيق الجميل مرحاضاً دون أن تلحظهم رحمة بهذا العمل القبيح الذى ، يدل على مهارة صانعه وحسن ذوقه ، ولطف إحساس صاحبه ، والترف الذى كان يعيش فيه .

ولكن أهل المصبي جميعاً لا يؤيدون أنه كانت إلى جولر المنزل الذى فى شارع الخليج دار بالصفة التى يرونها لهم .

أكان ذلك كله خيلاً ؟ ولكن ما سر اتبعنا هذا الخيال فى رأس المصبي ؟ وما سر ملازمته للمصبي أعواماً بعد أعوام ؟

أن للمصبي أن يرحل عن شارع الخليج وداره فى شارع الخليج إلى شقة بعمارة لا يمسها عن دار الخليج إلا صف من المنازل ، ليزيل بعد ذلك بأعوام فاصبح الشارحان شارحاً واحداً ، وكان يمكن أن تبقى الداران ، دار الخليج ودار شارع السيلة زينب متناخرتين ، بتظر إحداهما إلى الأخرى ، وتقول لها : بفضل هذا المصبي أصبحنا متكاملتين : إحدانا تفضى إلى الأخرى لولا أن يد الدهر أتت إلا أن نزيل الدار الأولى ، وأن نعى على آثارها ، وأن نقيم مكانها داراً للسيدة الحسنى معاصر العصر الحديث ، ولجندى آفاته أيضاً ، ويقضينا للنطق أن نبدا الحديث عن دار شارع السيلة زينب ، بصاحبها زعيم الخلائق وحلاق الزهيم .

والحق أن المصبي لم يحترم أيام صباه أحدًا كما يحترم هذا الحلاق الزهيم لو حلاق الزهيم ، أو زعيم الخلائق .

فقد كان المنزل الذى يملكه بمقاييس تلك الأيام شيئاً ذا قيمة ، يتكون من خمسة أدوار بعشر شقق ، وكانت العمائر ذات الأدوار المتعددة والشقق الكثيرة أمراً نادراً فى تلك الأيام ، وقد بدأت تظهر العمائر فى المناطق التجارية ، ولغير أغراض السكنى ، فقد كانت هناك مثلاً عمائر الخديو عباس التى أقيمت فى شارع عماد الدين ولا تزال قائمة إلى الآن ولكن أن تكون هناك عمارة بهذا الارتفاع حتى سبكتى بعض ، وفى

حتى محافظ كحى السيدة زينب ، وعلى مقربة من ضريح أم العواجر ، وأم هاشم ،
وحديقة الرسول - فطر غريب غابة العراة

ولكن الأمر الأكثر إثارة للدهشة ، هو الرجل الذى بى هذه العمارة فى تلك
الأيام ، فالحلافون لم يعرف منهم آنذاك من يستطيع أن يجمع المال الذى يعينه على أن
يملك هذا المبنى العريد ، ولكن صاحب المبنى لم يفتح هذا التصرد بين وصلاته ، بل راد
عليه أنه بعث بأولاده جميعاً إلى المدارس يتعلمون العلم وينتهشون لأن يكونوا أطباء
وقصة وعامين ! ثم بقى فى جعبة هذا الرجل المجلد شئ ، أكثر طرافة ، وأكثر
استحقاقاً للاحترام - ذلك أنه بعث بابنه الوحيدة إلى مدرسة السية فأكملت
التعليم فيها ، ثم بعث بها إلى مدرسة المعلمات ، ولم يكن الأبناء ينظرون إلى إرسال
بناهم لتحقيق العلم ثم تلفته نظره وحنا واطمئنان إلا أن يكونوا على قدر من
الشجاعة يبرجهم من بطن أمثالهم وأشباههم

ولذلك لا يزال الناس يذكرون هؤلاء الآباء اللين سقوا جيلهم ، فعلموا
ناتهم ، صخرت منهن المدرسة والطبية والكاتبة ، وفى مقدمة هؤلاء بلا جدال
الكاتب الشاهر القاصى حنى بك والد المجاهدين محمد الدين وهصام الدين
ناصر ، ووالد ملك حنى ناصر باحثة البادية ، وكوكب الطبية وأختها حيمة ،
ثم تبعه الأستاذ أحمد الصلبر المحامى الوطنى الذى علم بناته ، فكانت منهن وجوده
ودولت وكنتاهما بعثت أعلى وظائف التربية والتعليم فى مصر والخارج ، ثم الدكتور
السعيد الذى كانت من ناته كريمة وعظيمة وأمية السعيد ، ثم والد مفيدة عبد
الرحمن المحامية ، وأختها كبيرة طليعات ووزارة التربية والتعليم .

ولكن لا يزال الحاج طه فى ذاته شحصاً هريداً ، فقد كان يته بصم عشر أسر
لكل أسرة رب ، وفى كل أسرة أولاد وبنات ، ومن هنا كانت العمارة تخرج بالحركة
من الصباح إلى المساء ، وكان كل فرد من سكان العمارة ينادى على أحد ما فى مجلسه
ما ولو مرة فى السة ، أو يسمع له صوت فقهة ، أو سعال ، وهو صاعد أو هابط ،
إلا شحصاً واحداً لم يره أحد عند صعوده أو عند هبوطه ، وقد رآه الصبى مرة واحدة
على السلم لم تبرز بأحرى ، فراه يصعد متسللاً لا يسمع لخطه وقع كأنه لص ينتظر
الدخلة التى يستأج معها أن يدخل إلى شقة بعينها مع قبح هذا التشبيه ، وإن كان

هو أقرب الصور إلى بيان هذا الرق البائع ، والاحتشام المسرف من هذا الرجل الحي .

وصعد الصبي إليه يوماً ليؤزروه مع والده ، وكان الصبي في العاشرة أو الحادية عشرة من عمره ، ولكن كان عهده بالمطائف المصورة ، اللجة المصورة الفريدة في ذلك الوقت قد قدم وكانت قدرته على قرأة الكتب والصحف قد توطدت فعرف من حرف من صناعة أوروبا الرئيس الفرنسي « كلينصو » كبير وزرائها إبان الحرب العالمية الأولى ، وكان من سماته الجسمية رأس كبير أصلع ، ولما كان الحاج طه « متبتماً بهذه الخصائص قد جعل إلى الصبي أنه في حصة « كلينصو »

لقد رأى رجلاً طويلاً هادئاً إلى أقصى الحد ، مؤدباً خفيض الصوت ، يتكلم في أناة وكأنه يهضي بصريح خطر إلى صحفيين لذكاء الباء يترصدون به المزالق العجيبة أنه تحدث عن الحرب العالمية الأولى ، وقال كلاماً عن الألمان والفرنسيين عما أكمل الاحساس لدى الصبي بأنه كلينصو حقاً ، ولم يهضي الصبي لأبيه بشعوره هذا . ولكن بقي يطوى عليه ، ويذكره بين الحين والحين ، ويعمل معه احتراماً لهذا الرجل .

وفي ذات يوم سار الصبي في شارع خيرت ، فرأى دكان الحاج طه ، وقد انسدت على بابها هذه الحيوطة التي تنظم حبات من الخرز الكبير الملون أحمر وأخضر وأزرق وأصفر ، وهي حبات ألطف الحلاقون أن يستعملوها بدلاً من الباب المنقلب . فتحقق للناس في الدخان الستر ، وتحول دون دخول الباب الثقيل ، ولا تمنع الهواء .

رأى الحاج طه وفي يده القصر وهو يخلق شعر رأس ، فراح في خواطر متشابكة . أهدأ الرجل الوقور المحترم الشيء برئيس ورواه فرساً يتواضع إلى حد استعمال القصر والغرشة ، ليؤمن رموس الناس وقال لصيه : « أستطيع أن أدخل إلى هذا الحانات ، وأجلس على كرسى من كراسيه ، فيكون في شرف الخلافة ، على يد حلاق الزعيم الكبير ؟ . ثم لما فضل الزعيم حينما يخلو به حلاقه : أيطا طه ، الرأس امتثالاً لامره ؟ وهل يدير الرأس يميناً ويساراً ؟ ثم كيف لم يتزاحم الناس على حانات الحاج طه تلمس رموسهم وشعورهم الأنامل التي تلمس رأس وشعر الرجل الذي أحبره حتى العبادة ؟

بيت الزعيم الحلاق

تحدث الصبي الذي بروى له ، ونزوى عنه ذكريات صباه فقال :
لم أكن أعرف أن البيت الحلاق طه اللى أقمنا فيه سنين دوراً كبيراً ومؤثراً فى حياتى
حتى اليوم الذى جلست فيه أستعيد أيام صباى ، وابحثت من الذاكرة شوارد
الذكريات أجمع ما تاتر من فترات أحداثها . وقد تعاطفت أن يكون لهذا البيت الذى
كان يملكه حلاق الزعيم ، لوزعيم الحلاقين ، أو الحلاق الزعيم ، كل هذا الأثر
الباقى ، وأنا خافل منه ، غير مدرك لقامه بحيث أن شخصية الإنسان كطيات
الثوب ، يعلو بعضها بعضاً ويخفى بعضها بعضاً ، حتى كأن ما اختفى قد زال من
الوجود وانعدم ، وهو فى الواقع حى يتحرك ويتيج ، فإذا سدت فى وجهه المسالك ،
واشدت ظلم الناس له ، ونجاهلهم لياه أثر أسلوب التخريب والتدمير ، ليعلن من
وجوده ، ليستقم من ظالمه ، ولعل هذا بعض ما قاله فرويد فى تبرير ما يستتر فى خبايا
العقل الإنسانى ، من ذكرياته وتجاريه المؤلمة هرباً من الضوء وخجلاً من المواجهة
أو كرها للعنانية ، فإذا طال الأمد بدأ يعمل فعل التجار ، يبحث عن نقطة ضعيفة
فى قشرة الكرة الأرضية ليحرقها وينطلق منها فى صخب مدمر وضجيج هروب .

ولكن ذكريات الصبا فى بيت الحلاق الزعيم ، ليس فيها ما ينجل ولا يجرن ،
بل حتى لا تضيق له النفس ، فإذا كان قد حين عملاً بقانون الحياة البشرية الذى
يشن بعض الفصلاء لمير علة مفهومة حتى ينصفهم الدهر ، بعد حين وهم أحياء ،
أو بعد حين وهم موتى

ويقول الصبي :

لقد جرت لي في هذا البيت أمور عرية إذا قيست بمقياس الصبا وما يصح أن يقع في أيام الصبا للصبيان ، وفريدة إذا قدرتم الشخصيات التي تعرفت عليها خلال تلك الأيام وما كان من أمر هؤلاء في حياته وحياة الناس بعد ذلك .

عرفت إبان أقملي في ذلك البيت الغريد الذي يملكه شخص فريد ، أحمد سالم الذي ، كان آنذاك تلميذاً بالمدرسة الخديوية ، أشهر مدارس مصر الثانوية وأقدمها جميعاً ، وأحمد سالم قلم بدور في الحياة العامة ، طياراً ومثلاً ، ومضامراً وصاحب قضايا ، ثم تعرفت بشاب كان صاحب دور عريب جداً في الصحافة والسياسة لم نكتب له الشهرة التي كان يطمح لها ، ويعمل لها ، ويعلم بها . ولم يكتب له النجاح الذي كان يؤمن بأنه يستحقه ولا المركز العظيم الذي كان يقول بلسانه ويكل جوارحه فيه إنه إذا لم يسع المركز إليه ، ويرجوه أن يعطوه له ، ويرتقى سلمه - وكله بقلمه ، وأدار له ظهره . . ولم يكن هذا الشاب سوى عبد الرحمن العيسوي

ثم عرفت الأستاذ ، حافظ محمود ، وكان بيته حل مقربة من بيت الحلاق الزهميم أو الزهميم الحلاق لا يفصله عنه سوى بيت أوييتين ، وكان قد فرغ لتوه من تأسيس جمعية القلم . وبدأ يلقي خطبه وأحاديثه علينا ، فربنا لوناً جديداً من الخطابة فيه من توفيق دهاب وأشياء ومن متصور فهمي وحافظ رمضان وسعد زغلول شيء ، والباقى كله لحافظ محمود فاته .

وعرفت في ذلك البيت نفسه شيئاً صمراً ، غابوا في زحمة الحياة ، ولم يظف حل سطوحها منهم قليل أو كثير ، ومع ذلك بقيت وفياً لذكرهم ، استمد ما كان منهم ، من قول وفعل ، فاضحك في وحش في أنس وراحة بال ، حتى نسمع هيناي ، ولذكر ما كانوا يحاتونه من مشفات الحياة وشظفها ، ومن قلة وفاتها وكثرة جسودها ، فأبكي لهم وأرثي لحالهم .

وكيف أنس الأستاذ ، بدو ، الذي كان يجلس معه أنداد له في سته ، وهم جميعاً يرتدون جلابيبهم تعلوها جاكيتات ويستنون مقاعهم إلى جدار المنزل حل الرصيف الذي فوقه بيتا العيد ، ثم يتكلمون في السياسة والأدب والطب والتاريخ واللغة

ويروون المكاهات ، ويتفرون على اللرة دون أن يجرحوا إحساساً لو يجرقوا قانوباً
أو يؤذوا سمعاً !

وكان من بينهم عيسى الصحم السمين ، الطيب الذى عاد من أوروبا دون أن
يحصل على شهادة مكتفية بألة تصوير كانت بمقياس أيامنا نروة لا يستهان بها ، فقد
كانت تصور الصور فى حجم « كاييت » وهو حجم يساوى صمغ الكارات بوستال
فكان يجمع الصور ويخرجها ، وانهم إلى جمعية رحلات صمغ طالباً فى مدرسة
الحقوق ، كان جديراً بأن يكون محامياً متفوقاً ، فقد كان جهم الصوت ، خفيف
الظل حاضر البنية ، يضع على رأسه عمامة فيتلو القرآن كفلرى متمكن قوى
الأداء ، حلو التبرات ، ثم يجمع العملة ويترى على كرسى لبتلو شعراً من طراز
الشعر « الحلمتشي » الذى كان ينظمه حسين شقيق المصرى ، ويرم التوسى
مقلداً المعلقات وقصائد الكبار ! ثم يصع حول وسطه شالاً مرقص ، ثم يجتم هذا
النشاط كله ، بغطية يرملها ، فىل فيها بالقول المحكم والمبالرة الرصبة وإن كانت
كلها هلاًراً وسخرية بالنسب والأشياء .

ولكن هذه المواهب كلها قمرها صاحبها فى وظيفة معاون إدارة فى القوم ، وقد
أحدثنا أن فتاة من أصل شركسى جميلة وميسورة الحال تعيش فى حيناً قبلت أن تزوج
هذا المهرج مع أن والدته كانت تسير فى الشوارع المحيطة بنا بالملاءة والششب !
وزادت حدثنا أن حياتها الزوجية كانت سعيدة ، فىل زوجها كان معاون إدارة
ناجحاً ، يسى كل مواهبه على عتبة مكتبه الحكومى ، ويصع على وجهه نقاباً من
الوقار والصرامة ، فاستطاع أن يرتقى التدرجف الحكومية واحدة فى إثر الأخرى .

ولكن لو اطلعنا على العيب مارأينا فى أيامنا فى ذلك شبتاً من الخرابه ، فقد
أسدت الآن وزارة الترية إدارة مدراس كبيرة لها لمثلين فكاهير فى بلادنا ،
لا يعرفون تشاطهم فى الحفلات الخاصة فقط ، بل فى كل بيت عن طريق الشاشة
السحرية التى اسمها التلفزيون « باللاتينية » والمربله « بعربة للمجمع اللعوى !

على أنى لن أحدثك عن كل الشخصيات الكبيرة التى مرت فى بيت رعيم
الحلاقي إلا بعد أن أحدثك عن الشخصيات الثانوية أولاً :

وأولى هذه الشخصيات بالحديث هو الأستاذ الذى كنا نجهل بحر الصباك

وطبقته ولا المصلحة أو الوزارة التي يعمل فيها ، ولا الدرجة أو الرتبة التي وصل إليها ، وإنما كان يبدو لنا أنه مرجع في شئون الثقافة والكتابة ، وكان يعاملنا ببساطة لا يتعالى علينا ، ولا يدهنا تألقه أكثر مما يجب . لقد كان له فضل على عظيم ، ذلك لأنني مدين له بأول سطور تنشر في مطبوعة وممهورة باسمي الثلاثي الذي اختصني منه الاسم الأول بعد سنوات من الصياح !

وجملة الحكاية أن مجلة ظهرت تحمل اسم «الصور المتحركة» ، وكان ظهورها آنذاك في حياة الصبيان أمثالي ، يل في خيلة الشبان الذين يكبرونا حديثاً يروى ويذكر ويؤرخ : ذلك أن السينما كانت لنا متعة وسحراً ، ومصدراً للإلهام ، ومدرسة نتعلم فيها فنون الشر ، وبعض أحوال الخير . فأصبحت أسماء الممثلين ولاسيما أبطال المسلسلات مثال : أبدي بولو ، ودوجلا فيراينكس ، وآرت أكورد ، دع عنك مسلسلات القوة مثل : ما شيت البطل المرقل الذي يصرع الرجال ، ويغلب ألبانيا بقوة بند رائع وجميل ومتناسق ، وطرزان الذي علمنا من التاريخ الطبيعي ، وشئون الغابة ، وصور الأذغال - ما أحببت التاريخ الطبيعي ودروسه أن يلفتنا إليه فأذا أصفت إلى هذا كله حلقات المصممين والمخرجين الذين لم يسمح أبناء الجيل الجديد من أسمائهم إلا باسم « شارلي شابلان » لأنه حمر فوق ما يستطيع الماديون من الناس ، أما « ريمون » و« هارولد لويد » . ولارى سيمون الذين لم يأت الزمن بأشياهم ، والذي لم يلحق بفيلهم « لوريل وهاردي » وإخوان ماركس ، « ولويس دي فيس » والمخرج البريطاني « نورمان يودوم » لهؤلاء حرم أبناء هذه الأيام للناقد وطرافق فهم .

ومن أجل ذلك كانت مجلة الصور المتحركة امتداداً لحياتنا في السينما ، فكان يسكرتنا ، ويمر موسى أن نجد بين أيدينا مجلة تنقل إلينا صور الممثلين وأنيابهم ، ونجعلنا على علم برواجهم وطلائعهم ، وشرايطهم التي مثلت ورأيناها ، وشرايطهم التي مثلت ولم نرها ، لقد استطاعت هذه المجلة ، أن تفتن إلى ما لم تفتن إليه الصحافة المصرية إلا بعد أجيال إذ فتحت صفحاتها لأفلام قرائها ، وأقلمت منيراً خطيراً وحرراً يقترحون فيه ويحرضون ويناقشون .

وكان من بين الموضوعات التي طرحتها مجلة الصور المتحركة هي «السينما الناطقة» وكانت هذه السينما التي نتكلم ونحكي ، وتسمعنا فرقة البنادق ، وهي

التقابل ، وهدير للدافع ، وزئير السباع ونباح الكلاب ، ووقع القنابل ، ومسى
 للمحين والمحيات - كانت هذه السينيا يكل سحرها الأعداء ، وجوها المقتل - ضياءً
 من الغيب . ولكننا كنا نسمع أنباء إرهاباتها ، فسلطنا مجلة الصور المتحركة . هل
 نحن من أنصار السينيا الناطقة أو خصومها ؟ ولما كنت عاشقاً من عشاق في دارلى
 شابلن ، لا أقدم عليه بطلاً من أبطال الضرب والمكس والقفز هل ظهور الخيل ، وكنا
 قد سمعنا أن دارلى العظيم ضد السينيا الناطقة ، وأنه قال : إن طق السينيا يذهب
 بسحر صمتها ، وأنه يجد من عالمها ، إذ تخاطب السينيا المصنعة الناس جميعاً باللغة
 الإنسانية الخالدة . الإشارة تصدر عن اليد ، وتصدر عن الفم - فقد اعتنقت هذا
 المبدأ ، وجلست أكتب سطوراً ، تبصر من اقتناص «لا عن قناعي» ، وأسرعت إلى
 استاذنا بدر فالتصمت في مكانه على الرصيف ، عرجته بجلبابه ، وجاكته على
 كرسيه ، وحرصت عليه سطوري فالتصمت الاستاذ الذي وجد أول ثمار غرسه . ولم
 يكن يزعمه أن تكون هذه التمار فجة غير ناصجة . مرة غير حلوة ، فقد كان يعلم
 لها البداية ، إذ اكتفى بأن أدار عينيه فيها كتبت ، وأضاف كلمة هنا ، وحذف حرفاً
 هناك ، ثم قدم وأخر ، وتبرع لي بجملة ضخمة لم يكن علمي باللغة قد ارتقى
 إليها ، فضممتها هذه السطور المتواضعة ، فأصبحت مقالاً صغيراً ، ثم أرسلتها إلى
 المجلة بشارع محمد علي ، بعمارة في مواجهة دار الكتب في البريد ، ولم يمض أسبوع
 حتى كانت مجلة الصور المتحركة في يدي وفي يد كل صبيان الحى ، يحذقون فيها قبل
 أن يقرعوها ثم أدخلوا يقرعونها ، ثم يستعملونها ، وذهبت إلى الأستاذ بدر فالتصمت
 لي الأصيل في مكانه على الرصيف في جلبابه وجاكت ، فأعسك المجلة ، ونصيح
 ما كتبه وهل شففته ابتسامة رصية تليق بأستاذ ، وهناك إذ كنت سعيد الحظ بشهر
 هذه السطور غير القليلة في رأس الصفحة ، قبل أن كلمة أخرى بمائلة ، وسرني أنني
 لم ألح في كلامه أترأ ولو خفيفاً من الغيرة ، وكثيراً ما يفلر الأستاذ من تلميذه
 وخصوصاً إذا حق التلميذ أستاذته صاحب الفضل عليه !

ولقد كان لهذه السطور أثران : أولهما أن مريباً فاضلاً عائداً من إنجلترا لثوه ،
 وقد حدثت عن في موضع سابق زارها ، فقدمت له المجلة فقرأها ، والتفت إلى
 وقال : أكل هذه السطور لك ؟ فالرضى هذا السؤال كبريائىء أكل هذه السطور
 لك ؟ ، إذ معنى هذا أنها سطور كثيرة ، ولما كنت أبعد الناس عن عالم المطابع

والسطور ، ومعايير الشهرة والقيمة - فقد صلبت هذا السؤال المطروح على مديح
عظيم .

لما الأثر الآخر فقد تمثل في أن هذه السطور نقلتني من مطلق التفكير إلى مجال
الحركة ، فقد ذهبت وحطى دون أن يصحني أحد إلى مقر مجلة الصور المتحركة
وشعرت بسعادة لا تقبل عن سعادة « غروستوف كولب » حينما وصل إلى جزر الهند
الغربية التي حبسها جزر الهند الشرقية ، حينما انتهت إلى مقر المجلة ، ولم يكسر
خيالي ولم يهبط بحية أمل حينما اكتشفت أن مقر المجلة كله ، تحريراً وإدارة
وتصحيحاً وإخراجاً ، هو أقل من حجرة ، إذ لم يرد عن أن يكون شاطئاً حشيشياً به
الواح رجاجة من الزجاج « المصنفر » ، وأن هذا الجانب المقطع من الحجرة لا يضم
سوى مكتب واحد ، وكرامه مقعد واحد ، ويعلو للمكتب أكديس من الورق !

وكنت أحرم التشرف بمقابلة صاحب المجلة العزيزة ومحررها ثولاً أبي استطعت
أن ألق به وهو بهم بإقبال الإدارة متأبطاً مجموعة من الصحف والمجلات . ثم
استطعت أن أختلس نظرة إلى داخل المكتب وأن أرى بساطته التي أسكرتني
وأسمعتني أصناف ما أسمعتني بعد ذلك بسنين أن أجول في المكاتب وطرفات جرائد
العالم الكبرى الدليل تلجراف ، والدليل هرايد ، والتيسر نفسها في شارع « فليت
ستريت » بلندن ، ودار وكالة الأنباء البريطانية « رويتر » التي في عمارة بذاتها .

وقد بلغ من استعراق هيام الصحافة والسياسة لي أن فرحتني هذه المناسبة لم تقل
ولا بمقدار غرلة حينما رأيت أن صاحب المجلة المرموقة كان يرئس نفس الأذى الذي
يرئسه أستاذي بلر على رصيف شارع المسبة زيب : الجلباب والجاكيت .

وكان صاحب المجلة في ذلك اليوم يحان من عملية جراحية صغيرة في عنقه
لعلها أجريت له لفتح « حراج » فقد كانت الأربطة الطبية حول عنقه ، مما جعل
إدارته لعنقه صعبة ، فكان يجثني من زوايا غير مألوفة بين المتحدثين عادة ، تقليلاً
لحركة العنق ، فخيّل لي أن كل هذا من مستلزمات العظمة الصحية ، وإن يكن
صاحب الجريدة مصاباً بجرح ، وإن يكن حول الجرح أربطة طبية ، وإن يكن تحت
دراعه حمل مجلات وصحف ، وإن يكن حليته معى مقتضياً - فهذه هي سمات
العظمة وخصائصها . وقد بلغت شوق قمتها حينما ذكرت لأول صحفي أراه في

حياتي على عتبة مقر الحرية التي سميت إليها بحسبي ، غير معان ولا مصحوب
بأحد - اسم ممثل فكري أمريكي هو « هـ » . فقد بالذن بالقول بأنه لن يكتب
عنه حرفاً واحداً لأنه صدر صوته حكم من محكمة في بلاده ، لتهريبه من أداء
الضرائب ، ولم أقهم ساعتها أكثر من هذا الكلام ، فالضرائب لم تكن معروفة في
بلادنا بمفصل وجود الامتيازات الأجنبية التي كانت تحمي الأجانب من دفع ضرائب
الدخل بأنواعها والإيراد العام ، فأغضى المصريون مسألة لم بالأجانب ، ولكن
الصحفي الأول في حياتي قال : نحن نهتم بالأحلاق !

ولأن أدع لك أن تصور مدى فعري واعتزاري بصاحب المجلة التي نشرت لي
أول مسطور في حياتي ؛ لأنه لا يكتب من السببا محب ، بل يحرص على
الأحلاق ، لو عرفت يومها ماذا يعمل الناس في العالم كله ، لغيروا من أعياء
الضرائب - لا عتبرت أستاذي الجديد قلباً لثمة حرصه على حقوق الخزانة العامة
في أمريكا لا في مصر ؟

ولكن بقيت هذه المسطور الأولى في مجلة الصور المتحركة آثار ظهرت بعد ثلاثين
عاماً من ظهورها . ذلك أنني بعد سنين طويلة أسلنت إلى أمور وزارة ما ، لفترة كان
فيها وزير الوزارة الأصل في الخارج ، فلما عاد إلى بلاده ، رأيت أن أمر معاً على
مكاتب الموظفين ، أنا أودع وهو يجلس .

وفرغنا من زيارة المكاتب الفاخرة ، مكاتب الوكلاء فمكاتب الوكلاء المساعدين
فالمديرين حتى نزلنا إلى الحجرات الأرضية التي يسبحها البالدون ووجدت في ركن من
أركان هذه الحجرات شخصاً ارتبك لرأى ، ثم ابتسم ثم صافحني ، وفي الحال
رأيت ذكريات ثلاثين عاماً ، تتدفق على متدافعة ، متزاحمة كسيل اكتسح أمامه
سداً . . . فلم يكن أمامي سوى أستاذي « بدر » صاحب الفضل على في أولى
خطواتي في طريق الكتابة والبشر في الصحف والمجلات .

وأرجوك أن تعفي من محاولة - مجرد محاولة - وصف مشاعري في هذه
ال لحظة : ولكن المرور على الموظفين كان سريعاً ، وكنت مرتبطاً بزميلي ، صخرت
من الحيرة ، وأنا أكاد أتمتر أو أنكفي . على وجهي من فرط الانفعال !

وفي اليوم التالي ذهبت إلى مكتبي الأصيل في الوزارة ، فجاء من أخبرني أن
بالباب ساعياً يحمل إلى خطاباً من وزيرة أخرى ، ودخلت للساعي ، وأخذت

الخطاب الذى كان يجمله ، والذى جاء لينتله إلى ، فلماذا نظن فحوى هذا الخطاب ؟

إنه أولاً من الأستاذ « بدر » وكانت هذه وحدها كافية ، لتجملنى هدأً لانفعالات لا أقوى على احتماها ، وكان الخطاب أحياناً يتضمن طلب قرض مبلغ عشرة جنيهات ، ومعك منك بهذا المبلغ وتعهده بسداده أنقاساً !

لست أدري أى شيطان ألقى فى وسمى أن المتعامل على هذه الصورة لا تسمح به واجبات الوظيفة ولا ظروفها ، وصرفت الساعى ، ولم أرسل للمبلغ المطلوب ، ورددت بطبيعة الحال الصك ، بل رددت معه الخطاب ذاته فى ظرف جديد .

ثم جرت الأحداث بشلة غير عادية ، فنسيت تماماً هذا المطلب الإتسان البسيط ، فلما ذكرته كانت أيام وأسابيع كثيرة قد مرت ، ومرة أخرى لم أجزئ على الاتصال بالأستاذ « بدر » والجلوس معه ؟ كما كنا نجلس على رصيف الشارع ، لاعتزله ، وأستعيد ذكريات سنين سعيدة . وعشت بعد ذلك لا أذكر هذه الواقعة إلا أحس بالألم بل الحزى !

ولعل إطلاعى الوقوف أمام هذه الذكرى المحزنة نوع من تطيب النفس ، شعوراً بالإنتم . هل أن مجلة الصور المتحركة ، ومطورها لم تكن التجربة الصحفية العربية فى أيام صباى ، إيمان إقلى فى بيت « الحلاق الزعيم » فقد كنت من قراء مجلته النديم الروائى الذى كان يصدرها أحد أفراد أسرة صروف وهم أصحاب جريدة المقطم ، وقد بدأت صليقاً فى أثناء إقلى فى بيت شارع الخليلج الذى أسميه « بالخليج العاشق » ، وقد كانت مجلة النديم الروائى ، تنشر سلسلة بوليسية لكاتب مصرى بقى من اسمه فى ذاكرى لقيه « حبر الله » . أما سائر القصص التى كانت تنشر فى هذا النديم الروائى ، فكانت مترجمة ، وفى ذات أحصل قصصت إلى مقر النديم الروائى ، فى شارع متفرع من شارع عمادى ، ولعله أول شارع فرعى بعد العناية الحضرية فى طريقنا إلى القلعة . . وقد كانت إثارة متواضعة على الرغم من انتساب صاحبها إلى أسرة أثرت ثراء فاحشاً من الصحافة والاعمال بها فى دنيا السياسة ، ولاسيما دنيا سياسة الاستعمار ، فلم يزد مقر الجريدة على بيت ، و أسفله المطابع ، وفى جانب منه سلم خشبى يؤدى إلى شرفة خشبية معلقة فوق المطابع ، يؤدى إليها

هذا السلم ، وفي هذه الشرفة مكاتب التحرير ، وتهبط أصول المقالات ، وتصعد التجارب عن طريق سلة مربوطة بحبل ، يشله رئيس التحرير ومعاونوه ويخوبه ، فيتم الاتصال بين عالمي التحرير والطباعة في يسر ومهولة . كان الكاتب « خير الله » هو المثل الذي نرجو نحن الصبياني ، فراء النديم الروائي أن يحاكيه ، ويتأسى به ، لنصل إلى مقامه الرفيع ومكانه العالي . وفي اليوم الذي زرت فيه دار النديم وقفت ألتحدث مع صاحب المجلة وكاتبها الأول في الشارح أمام مقرها وذكرت بالتجلة والاحترام الكاتب المصري الذي كان يكتب سلسلة الفتش « ماستوش » ولم أترسل طويلاً في الحديث حتى أهل علينا شاب - بكير - يستن - يوندي جلباباً « أيضاً » وهو فجاكة ولم أكن أنصوّر أنه صاحب هذه السلسلة العظيمة ، ولكنه اقرب منا روحياً ، فحسسته لأول الأمر أحد المعجبين بالمجلة من قرائها ، ولذلك كانت معاذق لا توصف حينها رأيت - بعد أن تمت عملية التعارف بين القارئ والكاتب - أن أصعب يدي في يد كاتب مرموق نقرأ له المصنفات ، وينتظر العدد القادم ؛ لتتابع الأحداث المدهشة التي يروينا لنا

ويثبت أهاماً لا أدخلو إلى نفسي حتى تقفز من مكان ما من خيالي صورة خير الله قادماً من بعيد ، والهواء يعبث بذيل جلبابه ، وهل شغفه ابتسامته الثقة بالنفس والسجاح !

ولقد كانت مجلة النديم هي أولى المجلات التي قبلت أن توجه إلى خطاباً ، فقد أرسلت إليها شيئاً ما للمشر فأرسلت إلى بركات بوستال وكانت تعد مصلحة البريد وعليه طابع بردي يعني هن شراء « الكارت » ، ثم شراء الطابع ، وقد تفضل المحرر بضميقي الأدب العاصل ، ووقع باسمه الكريم « صروف » ولكن أحد أهل البيت تلقى البطاقة ، فضحك من شذيقه وقال لي « خروف » . أرسل إليك خطأناً !

وقد كانت هذه الملازمة المؤلة جديرة بأن تنقص كثيراً معاذق بوصول البطاقة ، ولكن البطاقة مصفا كانت قلادة على أن تسبق كل شيء سواها ، فضضيت وقتاً سعيداً حقاً ، فلما نشرت في النديم الروائي في آخر صفحات عدد من أعدادها ، وفي ذيل هذه الصفحة خمسة عشر سطراً ، بعنوان : هل تعرف ؟ . . وأوردت في هذه السطور حقائق لم أكن أعرفها أنا بطبيعة الحال ؛ لأني نقلتها من هنا وهناك ولكن معاذق بتشرها لم تكن توصف .

شخصيات ونماذج

قال صاحبنا الذى نحكى قصة صباه والذى نروى عنه ما سمعته ورآه :
أرى نفسى بعد نصف قرن من الزمان بعين الذكري على سطح المنزل الذى
كنت أسكنه ، بشارع السهلة زينب غير بعيد من ميدان ضريحها وجامعها الشهير ،
أأراى واقفاً فى جلاب فى حين جالس على سور هذا السطح صبي مثل أكبر منى ببضع
سنين ، وقد ارتسمت على شفتيه علامة اشتمزاز خفيفة ، عرفت فيها بعد أنها لازمة
من لوازم أهل المال أو الشهرة أو للكانة ، فمير عن برهم بالناس ، وإحساسهم
بالتعير الذى يجعل تحدث الناس إليهم شاقاً فعلاً أو إدهاء . وهذه الحركة شبيهة بما
يرتسم على شفتي راقصات البطن فى بلادنا ، ومن يؤدين رقصهن فتعاهين نلتوى
قليلاً ، بما يشبه البسمة ، لولا أنها تخرج بالقرف ، فتدل بجميعها المتناقضين :
الابتناسم والاشتمزاز بأنها ترقص لنا ، ولكنها لا تفعل ذلك إلا عن تفصيل ، وبعض
البأس يرى فى هذا إغراء يزيد من جمال الرافضة وفتتها .

وفى بعد حينما كبرت لم أكف من ملاحظة ظاهرة « القرف » التى يعلن منها
المشهورون وأصحاب الكانة ، ولاسيا المحققون منهم ؛ فأنهم ينطقون بالألفاظ
وكأنهم يصقونها ، وهم يدمون الجملة ، ولا يهتمونها ، وفى حياتهم القصيرة ،
تكثر الجمل الاحتراسية ، وأغلبها جل تدل على الشك وعدم التيقن وعدم
الاهتمام ، وكلمة « يعنى » التى كثرت وشاعت هذه الأيام واحدة من قاموس هذه
الطائفة .

وقد وقعت في ذلك اليوم في سطح منزل الحاج طه ، أمام « أحمد سالم » الذي جلس على السور يتحدث - بأسلوبه - عن جماعة أنصار السينما التي أنشئت في هذا التلويح المبكر من حياة السبينا في بلادنا . وكان أحمد سالم يعد بين تلاميذ المدارس الثانوية أقرب إلى الأغنياء منه إلى الفقراء وأوساط الناس . وكان يتردد على بيتنا ليزور حاتنه . وكلما جاء لإحدى زياراته سمعنا لمقدمه دويًا وصجيجًا حقا وصدقًا فقد كانت وسيلةه للانتقال دراجة بحلرية : وهي « موتوسيكل » آخر صمغ صمغ ، فلم يكن اقتناء السيارات قد بدأ أو عرف بين الأغنياء ، ولم يكن لأولادهم مدبوحة من شراء « الموتوسيكلات » إذا أرادوا أن يشبعوا في أنفسهم حب الاقتناء والتعبير ولا أحسب أن السيارة المتأخرة أصبحت هذه الفواخر بالقدر الذي أشبهها به الموتوسيكل في أيامه ؛ فالسيارة لا يصدر عنها من الأصوات ما يصدر عن الموتوسيكل والسيارة لا تثير الشعور بسرعة وانطلاقها مثل الموتوسيكل ، وكان الموتوسيكل من مارك « أنديان » ، علامة تفوق في مجتمع القاهرة سنة ١٩٢٠ ، وما يملها لا يدايتها ، حتى التمتع بملكية سيارة من مارك « رولز رويس » فيها بعد ، أو سيارة مرسيدس هذه الأيام ، ولذلك كان من حق أحمد سالم أن يتحدث إلى من أهل السور بلهجة المتفضل ، وأن تردده على شفتيه الكلمتين علامة اليرمى والشفق ببرجوى ، وربما زاد شعوره بهذا أنه لم يبد على أن مقدر لزيارته في حين أن وصوله إلى دارنا بدرابته الغالية الجديدة اللامعة ، وهو يدبرها بمهارة ومهولة وثقة بالنفس كان يعمل الأناس على أن يظلمن برعوسهن الجميلة من التوالد !

فلذا صعد درجات السلم وقضى خلف الأبواب يتنلسن النظر إليه ولم أعبه من إعجابي به - علم الله - لا عن رغبة في المكايمة ، ولا عن كتمان لإحساس موجود ، ولا عن خبرة أو حسد ، ولكني كنت صبيًا قليل المعرفة بحواش الحياة الاجتماعية التي توفقي على حكاية مثل « أحمد سالم » في دنيا الوجاهة والفنيات ! ولكن الذي أفرأه باحتمال حديثي معه أتى كنت نداء له على صورة من الصور ؛ فقد كنت من رواد السبينا الشيطاني وكنت فوق ذلك من قراء مجلة الصور المتحركة فعرفت فيها من أسرار وأثناء عالم السبينا في عاصمتها الكبرى « لوس أنجلوس » ما لا تعرفه جماعة عشاق السبينا من الصبيان أمثالي ، ولا يحد أن تكون مجلة « بكشر شو » الإنجليزية قد وقعت في يدي مرة أو مرتين ، فذكرت اسمها ، فعلا مقامي عند هذا المعنى الشاعر بمقام قولمه اللدن ، وجايعيته المبكرة للنساء !

ولقد هون عليه الأمر أننى انحطت خطاً أرضى كبريائه ، وحفظ له — غير منازع ولا مدافع — تقوقه على لا بللوتوسيكيل ، ولا بكونه طالباً بمدرسة الجمهورية الشهيرة ، ولا بفنائه ، ولكن يعلمه أيضاً أو قل بجهل ، فقد اقترحت على جماعة أنصار السينما ، فى شخصه — أن نخرج مجلة لتكون لسان حال الأحرار الديمتوريين وقد كانت هذه سقطة ضحمة ، ومسيها أننى كنت أطلع جريدة السياسة من قبل الاجتهاد ، وكانت تكتب تحت اسمها مجلة لسان حال الأحرار الديمتوريين لحفظت هذه العبارة ، فلما جاء ذكر مجلة أخرى لتكون لسان حال جماعة أخرى ، قلب على ما حفظته ، فرددته بلا فكر ولا وعى فضحك وقفز من السور ، كأنه يقول : إنه لم يعد هناك مبرر لإطالة صيره على

وشعرت بالإهانة وبقيت زمناً لا يقع نظرى على جريدة السياسة حتى تنفض إلى رأسى صوري وأنا وأحمد سالم ، على سطح المنزل كل من فى جليلب ، مفروقة بالشعور بالجهل .

ومضت الأيام وراح نجم أحمد سالم يصعد ، فتقل من طالب فى انجلترا إلى رائد مغامر جسر من رواد الطيران المصرى الأوائل ، وصل فى سنة ١٩٣٠ إلى وطنه على متن طائرة يقودها بنفسه بعد الطيران محمد صدقى ، واشتل الطيران أحمد حسين الذى أصبح أحمد حسين باشا رئيس الديوان الملكى ، ثم احتل أحمد سالم مكانة بارزة فى المجتمع المصرى قفى رشيقاً لا يهضم خطوة ، إلا تعلقت به قلوب فتيات وأنسات المجتمع ، وصاحبه أبناء المحلات التى تروى ماهدور فى دنيا الوجوه القاتنين والأغنياء والمشهورين . واتصلت الأسباب بين أحمد سالم وزعيم مصر الاقتصادى طلعت حرب فأصبح مدير مكتبه ، المقرب إليه ثم أصبح مديراً لاستوديو مصر عند إنشائه سنة ١٩٣٤ فكبيراً للمذيعين فى الإذاعة الرسمية عند إنشائها سنة ١٩٣٥ ، ثم اقترن اسمه بمغامرات السياسة والحلب ، فأصبح رجلاً لأمانة الباروى نجمة المجتمع المتألقة ، وحميدة البطلين محمود سامى الباروى ، وطلبة عصمت من رعياء ثورة عرابى ورقائه فى المنفى ، وأسمهان الطيرة البداعة العصبى ، ثم الراقصة تحبة كزيوكا ، وأطلق الرصاص فى هذه المغامرات ومنقط فيها جرحى من كبار الشرطة !

وانتهت به معارفاته إلى اتهامه في قضية عسكرية نسب إليه فيها بأنه ورد للحجج
حودات مريفة ، وحاكمته المحكمة العسكرية العليا برئاسة المستشار سليمان حافظ
وحكم عليه بالحس مستتب ، واقتيد إلى السجن ، سجن مصر ، كنت انداك محبوساً
على دمة مقتل الدكتور أحمد ماهر باشا رئيس وزراء مصر .

وفي ذات صباح كنت أغشى في حوش السجن في فترة الراحة ، فلذا بصابط
شاب يعلو نحوي ويقول : أحمد سالم يود أن يراى فهل أسمع ؟ وابشمت قائلاً
نعمى منذ متى ، استأذن في شيء وأنا في السجن ، وكل ما يصيبني فيه من حبر
وشر لا أخطر به قبل وقوعه ، دع عنك استئذان فيه ؟ فقلت أهلاً وسهلاً وجهه
أحمد سالم يرتدى قميصاً بأكمام قصيرة ونظلوناً قصيراً ايضاً عما سمحه الآن
« شورت » وحيأت بحماسة شديدة ، وقد ذهب عنه تحفظه ، ثم قال لي كلاماً
لا أحبب أننى سمعت نحيه من أحد قبل ذلك أو بعده ، أثرت في نفسى كما أثرت
نحيته تلك يومئذ . فقد قال لي : إننى عرفت أكثر الواقفين على مسرح الحياة العامة
في مصر من الصف الأول إلى الصف الأخير إلا أنت . ولقد بقيت رصناً مشوقاً إلى
أقصى الحد لأن أراك ، وأحدث إليك . وأصاف كلاماً آخر موجزاً ومركزاً ولكنه
نضج شهادة مسرفة في حسن الظن . وعلا لارتباك ، فقد أضحكنى هذا الشاء الذى
لم يكن متوقعاً في هذا الوقت ، ولا في هذا المكان ، ولقد عهدت في نفسى أننى حينها
أمتحن بمثل هذا الموقف ، أسى التصرف : فلما أن أسى إلى نفسى بكلام لا معنى
له ولا مبرر ، وإما أن أسى إلى محلى بشير دافع ولا مقتض ، ولكن الله أنقلنى
فسكت ! ثم وقفنا نتكلم بضع دقائق فقال أحمد سالم كلاماً جيداً إلى أقصى الحد من
سليمان حافظ قاضيه الذى رَج به إلى السجن ، فقد قال لي :

كان يجب أن يكون سليمان حافظ أكثر الناس إلى قلبى ، فقد حبسنى وقضى
يادائى في قضية كنت لؤمى يرامق فيها ، وكان الصحفيون الذين يشهدون جلسات
القضية يؤمنون بذلك مثلى ، بل أكثر منى ، فلما سمعت حكم الإدانة وقع منى موقع
الصاحفة ، لذلك كان للمحتم ألا أطيع سماع اسم سليمان حافظ ، وأن يكون
الشيطان أحب إلى منى ، ولكنى ملؤلت على حى وتقديرى له ، فقلت له : أنا سعيد
أن أسمع منك هذا الكلام فهو صديقى ، فبعت عليه المفاجأة وصاح : والله . . ١

فلما قلت له : إنا نعرفنا - أحمد سالم - وأنا - منذ خمس وعشرين سنة جيبا كنا صبيين ، فتح عيبه وحلق في دقاتي وهو لا يصدق أخته !

وجاء الضابط يطلب إلينا أن نمرق ، فقال له أحمد سالم بشفة - ما هذه الحركات البهلوانية باحضرة الضابط ؟ دعنا فإن الحديث لم يبدأ ، ولكن الضابط رفض ، وأبدي لذلك علما ، وسار أحمد سالم إلى غير آخر من عنابر السجين غير عبري ، وكان ذلك آخر لقاء بيننا لم تتم الحديث ، ولم تكمل التعارف ، ثم مات بعد ذلك ، إثر عملية حادثة غير خطيرة ، ولعلها استحصال المصران الأعور ، وغاب عن مسرح الحياة العامة ، وعن مسرح الحياة المصرية بخاصة إلى الأبد . .

أما الشخصية الثانية التي عرفتها في هذا المنزل فلم يكتب لها أن تنظر من اهتمام الرئي العام ، وبعض ما ظفر به أحمد سالم ، أو أقل القليل منه ، ولكنه شغل من حياتنا نحن الصبيان في هذا الجانب من حي السيوفين مكانا غير قليل ، وترك أثرأ غير ضئيل . . وكان صاحب هذه الشخصية هو يحيى الدين الطالب بمدرسة المعلمين العليا ، استأجر من منزل الحاج طه الزعيم الحلاق الدور الأرضي ، ولكنه لم يلبث حتى فتح باب الحجرة الأولى من هذه الشقة وهو الباب المتصل باب العمارة العام ، فأصبحت هذه الحجرة بلا إجراءات ولا دعوة ناديا نومه ، كلما طاب لنا ذلك وانضمت إلى هذا النادي ، فكان أول ما أرتداه ، وكان لطال مدرسة المعلمين العليا زميلان : أحدهما كان طالبا في مدرسة أحدث لتخريج مدرسي المدارس الابتدائية سميت بالمعلمين الثانوية ، والآخر لم نعرف لماذا يعمل في الحياة ، وقيت أجهل صاعته حتى لقيته بعد ربع قرن من الزمان كاتباً في وزارة الأوقاف ، يشكو إهماله وسيائه ، ويلتمس المعونة ، ليحصل على حقه ، ومع ذلك كان يبدو لنا هذا الشاب صليل أسرة عريقة ، فقد كان أنيقا ، رقيقا مهلباً ، لا يؤذى أحدا ، أما زميله طالب للمدرسة الثانوية للمعلمين ، فقد كان حريصا على وقاره عظيم الاعتبار بنفسه ، وكان مصدر هذا الاعتداد أن شقيقه كان ناظر مدرسة المعلمين الثانوية بلديها ، هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد بدأت في هذه السن المبكرة في قراءة ما كتبه محمد فريد ويطي في دائرة معارفه « دائرة معارف القرن العشرين » من ملهب التطور المعروف باسم العالم البريطاني « داروين » فأعدت محاضرة عن هذا الملهم لإلقائها في هذا النادي ، فاستأجرت عدد كبير من الرجال والصبيان من الفتيات

والعتيان ، ومهما أردت أن أصطح من أسلاف التواضع الصالح فإني سأبقى بعد ذلك متدعشا ، كيف جطيتي ملهـب داروين إلى دراسته وأنا بعد تلميذ في المدرسة الابتدائية وترداد الدهشة درجات ودرجات من جرائق على التكبر في إلقاء محاضرة على هذا المذهب في نادينا ، لى في حجرة طالب مدرسة المعلمين العليا ، ثم لا تنص الدهشة بعد ذلك ، وتتقد كل طائفتها ، ويبدأ مالا تفسير له ، ولا تبرير ، وأعني به اقبال أطفال الحى وبناته وبعض رجاله على الاستماع لهذه المحاضرة ، بل على التزامهم على سماعها . وأغلب الظن أنهم سمعوا بلفظ « المحاضرة » لأول مرة في حياتهم ، والراجع الذى يكاد يكون يقينا أنهم إذ سمعوه لم يحوا من معناه قليلا أو كثيرا فكيف أقبلا على المحاضرة ؟ إذا قلنا : إن الذى جنهم هو الاجتماع في ذاته ، والأطفال بطبيعتهم يتقاطرون على مائه احتشاد للناس وتزاحم وتذافع ، لها تفسير أن بعض الكبار من الرجال وشباب الحى أقبلا وحضروا وعقبوا على المحاضرة ومارأت أذكر منهم إلى اليوم المرحوم عبد الحميد قنلوى المحرر آنذاك في جريدة المقطم ، واللى حرفته بعد ذلك في القضايا الكبرى ، يسجل وقائعها وينقل إلى القراء مرافعات المحامين ، ومناقشة الشهود .

وجملة القول إن هذه المحاضرة كانت في حيالى كلها ، لا في فترة صباى التى أسجلها وأرويا ، ظاهرة بحيرة فقد درجت بعد ذلك حينها شبيت عن الطوق ثم حينها استغنم العود ، وثبت أقدامى على طريق الخطابة والمحاضرة شيئا ما أن أنهيب موقف المحاضرة ، وأعد له الإحصاء الطويل إذا اضطرت إليه ، فدخل إلى القاعة مضطرب الأعصاب مشيت النفس ، أكاد أتعثر ، فإذا فرغت من المحاضرة ، وصمعت أقل عبارات الشناء ولو من قبيل المجاملة ود جبر الخطاير تنفست الصعداء ، فقلت بين وبين نفسى . هذا آخر عهدى بمثل هذا الموقف

وقد شهد محاضرتى من « داروين » فيمن شهد صديقى محسى « طالب المدرسة الثانوية للمعلمين ولعله كان يتلقى في مدرسته شيئا من علم الحيلة ، فانتهاز فرصة هذه المحاضرة فنثر علينا بعض علمه ، فذكر من بين ما ذكر من حقائق علم الحيلة ، نظير « الأميا » و « البرتولازما » وأول اللفظين يطلق على الخلية القريدة إذا لم يكن غطتا - وفرحنا وفرح غيرا من الصبيان بلفظ الأميا ، فكورناها ، معجبين ،

وكرريها صاحبكس ، وأصبح اسم « أمين » صديق « محبي » مرادفا للفظ الإميا ، وإن كان لم يصب مقامه هذا التردد بقليل من الأدب أو كثير

ولكن مقام (أمين) ازداد قوة بفضل اسم آخر هو (الدكتور وارنوك) ولم يكن (الدكتور وارنوك) سوى المدير السريطان لمستشفى الأمراض العقلية في حي العباسية وقد درج المصريون على أن يمرروا للمجبول أو من يهتمونه بالحبوب بلفظ « العباسية » و « الخانكة » حيث كان يقوم المستشفين الحاصلين عرصى العقول ، وكان أوهايا للمرضى في الدرجتين الأولى والثانية أما الثاني فله مرضى الدرجة الثالثة ، فكان التجديد الذي جاء به « أمين » أنه يستعمل اسم مدير المستشفى بدلا من اسم المستشفى بالعباسية ، ولما كان الاسم أجيبا فإن الناطق به يحترق متفقا ، وأحق بالاحترام تماما كما يتقدم في المجتمع من يقول « مرسى » على من يقول « أشكرك » ومن يقول « برفون » على من يقول « لا مؤاخلة » !

ولكن الشخصية التي عرفتها من طريق « « نادى محبي الدين » « أي غرفة التي فتحها لنا فكانت أباديا أي أبادي الحجرة — علينا عزيمة نشحن منا أن نقف أمامها طويلا ، فهي شخصية مدرس إرامس ، بحسب ما سيكون ، إذ لم يكن عندهما وفد إلى نادى أكثر من تلميذ بمدرسة عبد العزيز الأولية التي بشارع عبد العزيز الذي يهوى ميدان عابدين بميدان العنة الحصرياء ، وكان هذا التلميذ من أبناء دمياط أسمر اللون حشش الشعر ، ذا هيبي مستديرين ، تملقن في الناظر إليه ، في دهشة مبروجة بالتحدي ، والرعة البادية في الصدام والعرالذ . وكان عندهما يرور النادي يرتدى الرى المعتاد في تلك الأيام ، أي الحلبات فوقه « الحاككة » مع الطربوش ، لا الحلة والقفطان ، ولم ينس إليه حتى وقعت الواقعة التي استرعت نظري إليه ، والظاهر على حسب ما استنتجت على صوه ما عرفته فيما بعد من أخلاق هذه الشخصية أن إنسانا ما بدرت عه عبارة أو حركة اعتبرها ، ولنسبه « عبده » مساسا بشخصه ، وكان شعوره بالإهانة ، شعورا متقدرا ، هذا يحاجم المعتدى ، بأسلوب خطابي متدفق ، وبعبارة عربية فصيحة أدبية ، وقد اتسجت حديثه المستعان أصلا ، وراد تحذيقه العاصب في الخالسين ، وكأنما بود أن يقتحمهم بعبوة عيطا وغصبا ، ورأى أن صوته أسكت الحاضرين جميعا ، وأنه لم يتلعم ولم يترفف ، ومنى في ذاكرتي من

نعانى خطبه تهليلة بأنه قادر على أن يبيّن من يتأثرون عليه ، أو يفكرون في المسلسل
به بطرف أصبعه فيطهروا في الهواء ، ثم انتفض واقفا ، وانطلق مسرعا من مكانه
كالقذيفة | ...

هذا المشهد المسرحي أعجبنى واستأثر بكمائة خاصة به في ذاكرتي ، فلم يحده مر
الأيام ، ولا مآشيدته بعد ذلك ، من مواقف كبار الخطباء والزعماء ، ولعل مرد تلك
المكانة أنه المشهد الأول من نوعه في حياتي ، وأنه مشهد طبيعي ، لا افتعال فيه ،
ولا إعداد يسبقه ، ولست أدرى ماذا حدث بعد ذلك من « عبده » وهل عاد إلى
النادي ، كما أنني لا أذكر أين لاقته ثانية طوال السنوات التالية التي قضيت بعضها في
القاهرة في مدرسة محمد حل وبعضها تلميذا في مدرسة أسبوط الثانوية ، ولكني أذكر
فقط أنني رأيت « عبده » في مدينة بني سويف ، حينما وفدت إليها ، مع أبي ، وإن
كنت لا أذكر ماذا كانت الظروف التي جمعتني به في بني سويف ، وكيف كان اللقاء
الأول بيني وبينه في هذه المدينة ، فما أذكره فقط أنني أصبحت أراه فيها ، وكان
العلاقة بيننا لم تنقطع طوال السنوات التي سبقت هذا اللقاء ، وكان المكان المفضل
لشباب بني سويف للقاء اليوم هو محل حلوان يديره كالحاجة يونس ، وكان يطلق
عليه اللفظ العرسى « باتسبري » وكان رواده يشربون فيه القهوة والمياه الغازية ،
ويجودون ألوانا محدودة من الصطائر ، ويلعبون « الطلولة » وربما احتسى بعضهم
الزبيب « العرقى » أو الكونياك .

ثم أخذ « عبده » يزورني في البيت ، ولم أستطع أن أعرف بالصبط ماذا يفعل في
بني سويف ، سوى أنه مراسل مجلة فنية مجهولة بصورتها صحفي في مصر اسمه
« كمال الحل » . وكانت في المجلة أبواب ، لنقد الأشخاص العاديين كالعمد
والشايخ وصغار الموظفين من رؤساء الأقاليم في ديوان المديرية أو المحافظة وأحيانا
صباط الشرطة وخصوصا من كان منهم مشغولا « بالمباحث »

وكانت المجلة تكسب من وراء ما تنشره من الملاحظات اللاذعة لمؤلا فما أن
يدعوا قيمة الاشتراك ولم تكن تريد على ٢٥ قرشا في السنة أو يعاونوا على تحصيل
اشتراكات من غيرهم . لو أن محمدا المراسل مكافأت عينية أو نقدية من مالهم
الخاص أو المال العام .

وقد عرفت من « حيد » أن هذه المجلة - على ضلالتها - استطاعت أن تجعله قريبا إلى ذوى السلطة من ضباط المدينة وبعض الموظفين ، ولما قدم عهده بيني سوف أصبحت علاقاته بكبار أعيانها ، والعمد والمشايع واسعة النطاق . وأنه بفضل هذه العلاقات أصبح قريبا من مدير المدينة نفسها . هل كان يروى الحق ، أو أنه كان يروى تمحياته وأحلامه التي لم تغلظه حتى آخر أيامه حينما اشتد به المرض ، ووافته نهاية الأجل ، وانتهت كل الأحلام العظيمة والعريضة !

ومن الأيام الأولى لاحظت أنه يزيل الكلفة بينه في حديثه معي وبين هؤلاء الضباط والأعيان والعمد ، بل المدير نفسه ، فهو يشتر إليهم بأسمائهم المجردة : فعيد السلام ، هو عيد السلام الشاذلي مدير المديرية ، وسعيد أباطة رئيس مباحث المدينة ، وهو يصير على أن يروى أنه يتأخرون هكذا ، فيهرعون إليه ويترضونه إذا غضب ، ويتملقونه إذا عاد من القاهرة بعد زيلة من « محمد » أو « محمود » أو « داود » ومحمد هو محمد محمود باشا رئيس الوزارة ومحمود هو محمود فهمي القيسي باشا وكيل الداخلية ، أما « داود » فهو داود بركات بك رئيس تحرير الأهرام !

ولست أدري هل صدقت هذه الحكايات أو كذبتها ، ولكن الذي أعرفه هل سبيل الجزم والقطع أنها لم تكن تتراهملي ، ولا تزيد من احترامى له ، أو إعجابى به ، ولو انقطع عنها ، ما استزنته منها ، لو سألت عن شيء فيها ، بل كان يفرق منه إذا سرت في الطريق مما لم يجس عمة ، أو يمزج عنها من أعيان مركز من مراكز المحافظة والمديرية سابقا . ولكن بقيت أجهل أن « لعبد » وظيفة أخرى ، وأنها وظيفة متواضعة غاية في التواضع ، وأنه نجح نجاحا باهرا إذ انتقل من صلبته هذه المجلة الصغيرة المجهولة ، سبيلا إلى التحليق في عالم ملؤه السلطة والجلاء ، وأطاب الحياة تمويضا له من صغر مقامه ، وقلة ماله ، وحرمانه من الجلاء والتقوى !

وفي ذات يوم ألقى لي حيد أنه مجرد مدرس إلزامي في قرية « منطريش » من قرى محافظة بني سويف ، وأنه في أشد الضيق من هذا العمل الحفير ، ومن ضلالتة مرتبه ، وأن السلطة ، أي المحافظة ، لا يكسبها أن يقبل رجل في مثل علم وقوة شخصيته ، وصلاته بالحككم وأهل الرأي ، أن يسرف في التواضع فيقبل هذه المهانة على نفسه ، ويرضى هذا العمل اللئيم ، فتكيد له ، وتتغص عليه حياته النكد

أصلا بأوامر ومخالفات لا غرض منها إلا إخراجهم . ورثت لهذا الناس وكاد قلبي يتعطل حزنا عليه ، فقد تصورت كم يعاني شخص في مثل إيمانه بعظمته ، وعمره بالرياسة والجاه ، في الوظيفة الحظيرة التي وضعه القدر فيها ، وقد تجلده وصبر ، لأنه لم يكن يدري ماذا يفعل ، لو ترك هذا العمل على تفاعله شأنه ، وقلة جدواه ؟

ولكن جاء أخيرا الفرار المحتوم ، واستقال « عبده » وأسرع إلى العاصمة ، وظاف على دواوين الحكم ، ودور الصحافة ، ومقار الأحزاب ، وألفه وحده يعلم كم احتمل شعوره المرهف بالإهانة ، وهو يلقي - بطبيعة الحال - المصمود والمزوف عنه . ثم حصلت أنا على إجازة الثانوية العامة ودخلت الجامعة ، والتحقت مع صديقي « كمال » بيتا على شاطئ النيل ، غير بعيد من كوبري الجيزة ، ولقد شامت المصداقة الصريحة أن يكون هذا البيت بذاته هويت أبي منذ خمس عشرة سنة خلت . فكان « عبده » واحدا من أئشان الكثيرين اللذين كانوا يترددون على بيتنا الصغير ، وقد أتبع لكثيرين منهم بعد ذلك أن يظفر بالمكانة والجاه في الحياة العامة : السياسية أو العلمية . وتأكدت ملامح شخصية « عبده » فلم يمدك قط عن ثقته التي لا حد لها بنفسه وبمواهبه ، وبحرف الناس منه ، وبجسم له ، كما لم يكف عن رواية وقائمه مع العظماء والوزراء والزعماء واختلاطه بهم ، ووقوفه على أسرارهم ، واعتمادهم عليه ، وثقتهم به ، وهو في كل هذا لا يذكر إلا أسماءهم الأولى بدون ألقاب . وإن كان في أحيان قليلة لا يرى حرجا في أن يفترض منك حشرة قروش أو يحترف لك بأنه جائع منذ الصباح ، ولكن دون أن نحس في اعترافه أو طلبه ، بمرنة الضعف أو التسليم بشئله أو بسوء حالته

ولما طال إلفه إيماننا لم نجعل من أن يقول إنه يكتب تقارير سياسية لبعض رجال الأمن ، بل إنه كان يجلو بنفسه بعض الوقت في بيتنا ويسود سطورا في ورقة ، ويضعها أعمى في جيبه ، وهو يعلم أن في هذه الورقة من الأسرار الخطيرة ما لا يعرفه سواه . ومن هنا أصبح من حقا أن نعاينه ، وأن نذهب أحلام عظمت ، فيقبل منا هذه المعايبة وتلك المداخبة ، باعتار أن الصداقة وحدها هي التي تمتصا هذه الميرة التي لا يتمتع بها كبار رجال الدولة ولا أهل الحل ولا العقد فيها . بل لا يصلحون بها .

ولقد كان « عبده » بالنسبة لي لئلا لا يحل ، فقد كان يتمتع بأسلوب عري جيد ، وبحصول لعظمى عبر قليل ، وعبرة لحدية حسنة الندياجة ، وكان يتكلم أو قل يتحدث ، كما لا يستطيع الكثيرون من مرتزة السياسة ، وكان على سبيل التأكيد على صلة ببعض رجال السياسة والحكم أيا كانت طبيعة هذه الصلة ، ثم إنه ألف كتاباً في الإسلام ، جيد الموضوع والعبارة معا . فما الذي قعد « عبده » هذا من أن يقدم في عالم السياسة أو الصحافة أو يريد دخله وقد لزدحم ميدانها في أيامه بالآلوف من يبرزوه في نواحي صحفه ، ولا يتحلون بشيء من مواهبه ومراياه .

وترأخت الصلة بيننا حتى لم تعد تتصل بعضنا وبعض إلا لئلا . ولكنه لا يراى مصادفة أو عن موعد ، إلا فاصت حواطفه ، ولحظت عن أيمنه في بني سوي بلهجة صادقة حقاً . ثم غاب عني طويلا ، وفي ذات يوم كنت في سرائق انتحاب أقت لأعرض نفسي على الشخير في مصر الجديدة ، فرأيت من يشق صفوف الواقفين والمجالسين ، ليصعد على المنبر ، ثم ينطلق يسخ على ويضفي على شخص من الصفات والتموت ، ما كنت أعرف أن باعث عليه هو عاطفة الخطيب الصادقة التي لم يكن سوى « عبده » بعينه ودارت الأهم وأسلنت إلى إحدى الوزارات ، وجاء الموظفون يميون ، ورأيت شعباً يتمايل من فرط المرض ، فإذا بي أمام « عبده » بذاته وهو لا يكاد ينطق ، من شدة نوبة الربو التي كان يعاني منه واستيقته ، ولحظت إليه طويلا ، كما يتحدث الإخوان ، وحاولت أن أخفف عنه ، ولكن عبده بدنياً بعد ذلك لم يطل . . فقد تركها دون أن تحقق من آماله المريضة وأوهامه الكثيرة أملا واحدا .

قلت إنني عرفت في أثناء وجودي في منزل الحاج طه بشارع السيلة زينب « حافظ محمود » ألكاتب الخطيب ، ونقيب الصحفيين الأسبق ، ولست أذكر إلى اليوم ، ما الذي قاذى إلى يمينه المجاور لبيتي ، وما الذي عقد الصلة بيننا ؟ بل لست أذكر اليوم الأول الذي رأيته فيه ، وما الذي دهق ودعا معي رفيق الصبا والشباب « أحمد » إلى الانضمام إلى الجمعية التي أسسها حافظ ، واختار لها « القلم » اسما ، وهو اختيار في رأيي غاية في التوفيق ؟ ولو أن جمعية « القلم » التي أسسها ورأسها حافظ كانت في الواقع جمعية « اللسان » فقد كان نشاطها كله خطايا ، وكان أكثر هذا النشاط الخطابة جهده حافظ وحده ، إذ كان دور بقية الأعضاء الاستماع إلى

خطبه ، والإحجاب بها ، فلم يكن في الأعضاء من حياته مواهبه ليكون من فرسان
 دنيا البليد المخطوط أو المكتوب ، هم بين مقول مياك أو موقف حساس ، وكنت
 وصديقي أحمد لانزال طالين في المدرسة الثانوية نحاول أن نكتب ويحطب ويحاول
 أحمد فوق ذلك أن يمثل .

ولقد كان حافظ فريدا في الشارع الذي يجيأ فيه ، فقد كانت عافة الشبان
 والصبيان في القاهرة كلها أن يتخلوا من رصيف شارعهم ، علا مختارا ، يباشرون
 فيه نشاطهم من حديث أو شجار ، أما حافظ فلم يقف على رصيف منزله يوما ، ولم
 أشاهده قط في جلباب أو جلباب وجاكته ، وهما الزي الذي لا زى حيره إلا في
 المناسبات الكبرى من زفاف أو ماتم أو حملة مسرح ، حتى السينما كان أولاد
 المدارس يترددون عليها بجلايبهم وعليها « الجاكته » أو بنيرها . كانت البذلة
 والكرافتة أو « البايون » والطربوش هو الزي الذي يطلق به حافظ الناس محاظا عن
 أناقته ، مثابرا على الحرص على مظهره وجده ويعدّه عن الناس

وكان حافظ منذ البداية مشغولا بالكتابة والخطابة والمحاضرات من أساتذته في
 الجامعة منصور لمهني وطه حسين ، فلم يلعب كرة القدم التي كانت هواية كل صبي
 وكل شاب ، ولم يعد في طريق ، ولم يشتبك في مشاجرة بالأبلى ، ولا مشادة
 باللسان ، ولم يلعب الورق أو الطاولة على قارعة شارع أو رصيف .

وربما لا يعرف أحد أنه صاحب صوت جميل ، وأنه طالما أسمعنا من أخاى عبد
 الوهاب القديبة بداية قصائد متفرقة لشوقي ، ولكنه لم يكن يتم قصيدة واحدة منها ،
 ولو أحب الغناء ، لبلغ فيه درجة يحسد عليها المطربون الذين انقطعوا للغناء ، وقد
 ألف بعض الأخاى ليحبتها بنفسه ، وليغنيها لأصدقائه ، ما زلت أذكر منها

البيت البهيشا الفلاحة واقفة ع النيل مريحة
 واقفة والبدر قصصاها طالع على وشه جماها
 والهوى يسجى على نخعها الحمري

ولقد كان يواحه منزل حافظ ، منزل الشاب « حسين الداغستاني » ، وهو من
 أصل داغستاني حقا ، إنه جدير بأن يشار إليه هنا ، فقد كان أول طالب يحصل على
 دكتوراة من كلية من كليات الجامعة المصرية الحديثة ، وقد كانت رسالته عن

« السكك الحديدية في مصر » قدمها إلى كلية الحقوق ، وقد حضرنا مناقشتها ، وما رلت أذكر كيف ألهمها ألكها بالتصفيق حينما أعلنت لجنة الامتحان أنها محتته « درجة الدكتوراه » ، فقد كان هذا الحدث في نظرنا يوما مشهودا في تاريخنا العلمي والثقافي ؛ فقد أثبتت الجامعة في هذا اليوم أنها استقامت واستمرت ، لا تعلمنا فقط ، ولكن تمنح علماءنا أكبر الشهادات وتجعل منهم أساتذة ودكاترة ؛

كتب ومدارس

قال الصبي الذي نروى ذكرايته :

طالت قلماتنا . وغلظت نوحا ما أصواتنا ، وبدا تحت أنوفنا ظل خفيف يشر بأن شواربنا ستتبت بعد قليل ، وأن سائم ربيع الحياة ستهل علينا ، ولكننا كنا في الحقيقة صبيانا أقرب أن نكون أطفالا نلعب وطمحو إن قرأنا الكتب ، وطالعنا الصحف ، واقتنينا المجلات ، ولكن أكثر ما نحب ونهوى كان مما يشغل الصبيان : كرة القدم ، أو ملاكمة في الطريق ، أو مصارعة في المنزل ، أو صباح بلا ملئس أشبه شيء بالصراخ من ألم الفراغ الذي لا يطيقه الإنسان بجملة ، والصبي الملهو بالحياة بخاصة .

ولست أريد أن أنساق مع الرغبة الصادقة في التواضع ، فأهبط نفسى حثها في أن تتحدث عن المجلد محمود حتى ، الذي كان حاتوته أو دكانه ، على مرمى حجر من دار الكتب . إن في مكتبي إلى اليوم كتابا جلدنا هذا الصانع الماهر رحمه الله ولا تزال إلى الآن آية من آياته من التجليد بعد أن اتفقنى عليها نصف قرن أو يزيد ، فقد عرفت طريقى إليه وأنا دون الماشرة ، وتعاملنا كما يتعامل صاحب العمل ، والعميل ندا لنذ وراسا برأس . ولم أجعل قصصاً فقط ، بل جللت كتب تاريخ وعلم ، جللت ترجمة حياة أو تاريخ مصطفى كامل الذى وضعه شقيقه المغبون على فهمى كامل وجللت كتاب : رسائل فرنسية مصرية الذى يضم

بين دفتيه الرسائل المتبادلة بين مصطفى كامل وأمه الروحية مدام جوليت آدم ، هذه الرسائل التي تعتبر من هيون أدب الوجدان لفرط ما اشتملت عليه من آيات البلاغة التلقائية التي يجرعها الله سبحانه وتعالى على لسان وأقلام عباده الذين يصطليهم ويختارهم ، لما يراه من جلال الرسائل البشرية . .

وإلى جانب هذه الكتب الجيدة جللت قصص مسامرات الشعب ، وهي أم السلاسل التي عرفناها فيما بعد ، وقد كان يسكرى وأنا دون العاشرة أن أسمع على أهازير محطات السكك الحديدية ، ولا سيما محطة القاهرة مدله باقة الصحف ، على حلقات سلسلة مسامرات الشعب المنقمة « مسامرات الشعب ، المسامرات ، المسامرات . الشعب . الشعب » فإذا رأيت إنسانا ينادى على البائع ، ورأيت البائع يمد ذراعه إلى المنادي ، ينسح من المسامرات ثم يدفع له النسخ . ثم يقلب النسخة بين يديه ، ثم يلتفت مكانه في همة القطار ، ويروح يطلع القصة - ثم يت أن يكون في مقدوري أن أفعل فعله ، وأن أشتري قصة من مسامرات الشعب ، وأن أضج بين يدي الكتاب وهو بعد جديد ، فلما شئت من الطوق وأصبحت قادرا على أن أعجب في مكتبة والدتي ، وأن أكتشف فيها عددا من مسلسلات مسامرات الشعب - كان يودي أن أقبل هذه القصص ، من فرط حبي للكتاب ، ولفرحي باقتنائه ، وتجليده وجمعه .

ثم جاء الوقت الذي أستطيع أن أقرأ فيه هذه القصص ، وإن اشتريها من أرضة المحطات ، ومن مكتبات شارع عبد العزيز ، فقرأت قصة منها ثم شملت هذه القصة وروايات المتملوطى ومجلات أخرى في مقدمتها « المحاسن المصورة » التي سبقت السياسة الأسبوعية والبلاغ الأسبوعي : رصانة في الأسلوب ، وتجليدا في الموضوعات وجدية في البحوث ، وأناق في الإخراج ، ثم مجلة « المصمار » أولى المجلات الرياضية في مصر ولعلها آخرها . وقد أخرجها « خليل داغر » ليحدثنا عن أبطال المصارعة والملاكمة وكرة القدم والتنس في بلادنا وفي الخارج . ويضيف إلى أحاديث الرياضة قصة سلسلة ، ما زلت أذكر أن إسمها كانت يسمون « الانتقام العليل » ومجلد المصمار الموجود في أرض مكتبي المتواضعة لا يزال شاهدا على ريادة هذه المجلة العربية في دنيا الرياضة ، ثم جاءت مجلة اللطائف المصورة ، لتكون مذياع الصبيان والشباب والرجال في ذلك العهد المبكر ، من حيلة الصحافة الأسبوعية في مصر

ولكن بقيت مساهرات الشعب في مكان فريد خاص بها ، لا تنافسها فيه صحيفة ولا مجلة ، لأنها كانت تعبل القراء في مصر بأحد القصص في العرب ، ولم تكن الصلة به قد توطدت بعد ، ولم تكن الأقلام التي تترجم هذه القصص ، من المتطوعين على مائدة الأدب في مصر ، كما أصبحت الحال ، حينما كثرت ومعددت المسلسلات القصصية في بلادنا ، بل الذي عرفته أن عددا من كبار أدباءنا ومترجميها أسهموا في ترجمة حلقات هذه السلسلة المكرة ، ولعل منهم « سلامة موسى » ، ولطفي جمعة ، وراشد رستم وصالح راشد وطاهر حقي . وأنا أورد هذه الأساء على سبيل التعميم ، وإن كنت قد قرأت في موضع ما في شيء كنه سلامة موسى أنه أسهم في ترجمة هذه القصص

ولقد مضى صاحب هذه السلسلة الرائدة ، وهو المرحوم خليل صادق مسيا من مؤرعي الأدب مغمورا كأنه أساء إلى بلده في حين أن إخراج سلسلة بهذه الضخامة ، وبما تحتته من انتظام ومثابرة — كان يقتضى القائم عليها إنفاقا وجهدا وعناية ، وقد مهد الطريق بحق للسلاسل الشهيرة التي في مقدمتها سلسلة « كتاب الشهر » التي تعد معجزة من مفاخر مصر الفتاة الثقافية والتي أتبتها بعد ذلك سلسلة « أقرأ » لدار المعارف التي كانت ولا تزال ذرة من دور الثقافة العربية المعاصرة ثم سلسلة « كتابك » التي هي جذيرة بالإعجاب حقاً

وإذا كان « خليل صادق » الذي لا أعرف عنه ولا من ثقافته ، ولا من بيته أقل القليل — قد عين موسى فصله — فلعنه يجد المرء في الدار الأخرى في أنه لم يتعد هذا الصب ، فقد شاركه فيه كثيرون منهم اثنان لا أنسهما أبداً عبد الرارقي - هابت الذي بذل في سبيل المسرح المصري ما لم يبذله أحد من مواطنيه ، إذ حسسه أنه أقام مسرحاً من حر ماله ، فاحترق ، فأقام مسرحاً جديداً دون أن تنق الخسوف المادحة عرمة ، أو تمل في إرادته . أما الآخر فهو محمود مراد ، رائد الثقافة المسرحية المصرية ، ومؤلف « مجد ومسيح » المسرحية الموسيقية ، ورئيس الجمعية للمسرحية في المدرسة الخديوية الثانوية ، وقد حاولت أن أورد له بعض حيله ، والتتمست المعونة في ذلك من ذوي قرباء المصور السينمائي المرحوم حسن مراد ، وبجله الذي علمت أنه يعمل في إدارة التمثيل التجاري بوزارة الاقتصاد ، ولكن لم أوفق إلى شيء ذي قيمة ، وقد رجوت بعض دور النشر أن تعيد نشر كتاب ترجمه عن الإنجليزية المرحوم

محمود مراد ، وكان عنوانه « اعتراضات أكل آفيون » فلم يكن حظى في هذا المسعى أسعد منه في المسعى الأول وهو كتاب فريد في نوعه ، ولا يزال جليها بالقراءة وبالشعر ، ولو على سبيل إحياء التراث للمصري الحديث .

وقد جريا إلى هذا الاستطراد الطويل عمل محمود حنفى للتجليد الذر جوار دار الكتب في شارع محمد على ولا يزال قائما في مكانه إلى الآن ، وقد قام أولاده عليه بعد وفاة أبيهم رحمه الله .

ولقد معنى التردد على هذا المصنع الصغير ، كثيراً ، فقد كنت أرى حداثاً من صغار وكبار الأدباء والخطباء والساسة ، وكنت أباذلهم الحديث وأستمع إليهم وأفرح بالاقتراب منهم ، وملاحظة ما يقولون وما يفعلون ، وكان من المترددين على هذا المصنع - مصنع التجليد - محمد شكرى كيرشاه ، الذى كان خطيب ثورة سنة ١٩١٩ ، لم يدع صبرها في الجامع الأزهر يوما قط ، وكان ينطلق في خطبه كأنه القدبة ، تتابع وتتوالى حل لسانه التشبيهات الرائعة ، والأمثال العربية والنادرة ، ويهر مشاعر المصلين في الجامع العتيق ويثيرهم على الإنجليز ، ويحصرهم على الجهاد وكان فوق قدرته الخطابية العالقة من أكثر الناس بها في الفرامة ، وكان يقرأ في الإنجليزية كما يقرأ في الأدب العربى القديم شعره ونثره .

ومن غرائب الأمور أن يكون هذا الكاتب الخفيف المستبر الواسع الاطلاع - قليل الحظ من النجاح في المعاملة . مع أن الخطابة ، والفكرة السياسية ، وكثرة الاطلاع من أدواتها ، ثم لم ينجح كذلك في القضاء حينما عين قاصيا ، فقد صجر المنصب الحكومى ومقتضيات وقار القضاة عن أن ترده عن صراحته ، وأسلوبه الثورى ، إلى حد أنه أثر عنه أنه حينما كان يتمتع جلسة المحكمة قوله : فتحت صالة بديعة |

وقد كان أشبه الناس به ثورة على المجتمع ، وهزدا بالتقاليد ، وفشلا في الحياة العملية الأستاذ أحمد وقيق المحامى ، والكاتب الوطنى ، ومؤلف الكتب الدستورية ، والقانونية . وقد اشتغل من مطلع شبابه بالسياسة كتابيا وعمورا في جرائد الحزب الوطنى ، برعامة مصطفى كامل ومحمد فريد ، وبعدهما ، ولغى من شطط العيش ، والخمران في مصر وخارجها ما يجد عرائم الرجال ، فقد تشرد في

أوروبا وجنح ، ودخل السجن في مصر ، مرارا ، فلما سادت روح المساومة مع الإنجليز ، وتفرق رعاياه الحزب الوطني انصرف إلى التكايف ، فوضع ما يشبه الموسوعة في القانون الدولي ، بمواضع علم الدولة - بكسر العين . وكان يدعى إلى كل ما يصدر من هذه الموسوعة جزءا بجزء ، وقد نودت معه في كذبه ، لا أدري إذا كانت مما يسمى بالكذب الأبيض أم كانت كذبا صراحيا بحاسب عليه الإنسان ، ولا بد له من استعلاء وثوية . وكفارة ولو لم تفتن بفسم ، فقد لقيى الأستاذ وبيق يوما ، فسألى هل قرأت الجزء الثاني من كتابه ، وقد قام في وهمي أنه أهدى إلى الجزء الثالث أيضا ، وكان هذا الجزء في المطبعة ، تحت التعليل ، فقلت من باب المجاملة : لقد قرأت الجزء الثاني والثالث أيضا ، وما كاد الأستاذ وبيق يسمع لفظ « الثالث » حتى صرح وكأنه لدغ ، ولم أهمهم لأول وهلة ، سر هذه الصراحة المدوية ، ثم فهمت بعد ذلك أنه كان كثير التشكك في أمانة الناشر والطابع ، كأنه يتهمه بأنه يسرب إلى السوق سحاً من حلف ظهره ليستأثر بربحها دونه ، واعتبر وصول نسخة من الجزء الثالث الذي لا يزال بعد للتوزيع في المطبعة دليلاً على لصومية هذا الطابع الناشر ورجاني في إلحاح شديد وبمضيه بادية أن أطلعه على النسخة التي اشتريتها من الجزء الثالث ، وإن أدله على المكتبة التي حصلت منها على هذه النسخة ، ووقعت في شركي فقد وجدته بذلك مدعوي أنني لم أشرها بنمسي ، وإنما اشتراها رميل أو صديق ، يعرف حرصي على اقتناي هذه المجموعة .

ولم أكد أصل إلى مكتبي حتى سمعت جرس التليفون يلقق ويسأجة وهدت فإذا المتكلم هو أحمد وبيق ، وإذا هو يريد أن يعرف الجواب على سؤاله ، واضطرت إلى كذبة ثانية لمناخفة الكذبة الأولى ، فزعمت أنه اتضح لي أنني أجدت الكتاب معي إلى البيت ، ولم أكد أصل البيت ، حتى لاحقني تليفون من الأستاذ وبيق ، فاضطرت إلى كذبة ثالثة ، وقيت أصيب كلمة إلى كلمة ، حتى اضطرت آخر الأمر ، أن أطلعه على الحقيقة ، أو بعض الحقيقة ، فكف عن مطارد ، وفي نفسه ، شك مني ؛ إذ ظن أنني لم أرد أن أصليه الجزء الثالث ، ولا أن أدله على المكتبة التي اشتريته منها إشفاقاً على الناشر الذي سرقه !

وكان من رواد مصنع تجليد شارع محمد علي ، عام ثالث ، هو الأستاذ أحمد

قراءة ، وقد كان عمليا لا يشبهه كثيرون من المحلّين ، فقد كان من هواة التمثيل والنقد النقي ، ومن المترددين على دور الصحف الصبية ، والمسارح ، وعلى صلة بنقد الأعمال المسرحية أمثال عبد المجيد حلمي صاحب مجلة « المسرح » ورائد النقد التمثيلي في مصر ، ثم « الأحف » وهو حفي مرسى ، وهو طالب حقوق وكان يوقع بهذا الاسم المستعار ، وه أحمد حسن « الذي كان طالبا بمدرسة المعلمين العليا ، ولم يتم تعليمه بها واشتغل بالمسرح هاويا ثم انقطع للصحافة وعمل في مجلة روز اليوسف حتى توفاه الله ، وربما محمد التناهي ، منشئ روز اليوسف وآخر ساعة ، الذي هجر النقد المسرحي بعد أن بدأ عمله في الصحافة ، في مقالات يوقعها بإسمه »
« حندس » .

ولم ألق عند الأعلى عمود حنى - الوطني الكبير والمؤرخ العظيم عبد الرحمن الزاوي ، وإن رأيت كبه هناك قبل تجميدها ، وبعد تجميدها .

قلت إن سائهم الريح ، بدأت تهب علينا ، حفيضة ضعيفة ، لم تغير كثيرا منا ، ولا من حياتنا فحين صبيان أبرياء ، لا يشغل بالنا ، إلا كل ما هو يريء ونظف . . . بلهوكما قلت طوا يجهد أجسامنا ، حتى إذا جاء المساء لنا ملء البطن أو طوا يتخذ صورة عقلية أو فكرية . . فنقرأ القصص ، ونطلع المجلات ، ونحاكي الكبار ، فنشئ مدارس ، يكون بعضها فيها مدرسا ، ويكون بعضها الآخر لها تلميذا ، بل إن حيالنا امتد ، فجعلنا من أنفسنا « برلمان » وكانت الانتعاجات السابقة ، على نهام أول برلمان مصري في مارس سنة ١٩٢٤ ، قد شملت الصغير والكبير ، فأغرتنا أن نقبّس منها ما يرضى خيالنا .

وقد كانت أول مدرسة أشارك في تأسيسها وأنا صبي المدرسة التي لعبت لها أختي التي تكبرني ، والتي زاملتني طوال حياة طفولتي وصباي ، زمالة ملأت حل ألمي سرورا ومتعة . وكانت أختي حادة الطبع في صباها ، وفي كهولتها ، فتأني من حدة طبعها وأنا تلميذ في مدرستها الكثير ، ولكنني أفدت من هذه المدرسة ، وإن كانت لعبا وطوا الكثير ، كذلك تعلمت أول ما تعلمت منها فن « القصص » ، ورواية الوقائع ، الخيالي ، منها ، والحقيقي ، فقد كانت أختي قادرة على سرد الحكايات بأسلوب متعمم مملوء بالصور المصنوعة من الألفاظ المعبرة والمؤثرة .

قصت على قصة ماجنولين التي وضعها الكاتب الفرنسي « ألفونس كار » والتي ترجمها إلى العربية الكاتب العظيم مصطفى لطفى المفلوطي ، فأثرت على حاتمة « ماجنولين » التمسع ، فكبت وعلا صوت بصبي ، فأسرع أهل البيت على هذا الصوت ، مشفقين أن يكون قد أصابته سوء فلما دخلوا عليها الشقة التي اتخذتها مقرا للمدرسة رأوا دافع العينين ، وسمعون أصيح : ماجنولين ماتت ! وبعض من شعروا لنجدل ، كانوا لا يعرفون من تكون ماجنولين ، فالتفتهم فزع شديد ، فصاحوا من الذي مات ، كفانا الله السوء ؟ .

وفي يوم آخر كان الدرس تلخيصا لرواية « غادة كرهلاء » التي وضعها « جورجى زيدان » مؤسس مجلة الهلال ، كانت أختي قد سمعتها ملخصة من شفيقتها التي تكبرها ، فروعها في ميكتة لقتل الحسين رضى الله عنه واستشهاده ، ولكن في صوت مكتوم وذهبت إلى النوم محروون القلب . وكانت للمدرسة تشغلنا ، فلا نسمع لنا صوت . فهيجل إلى أهل البيت أننا تسللنا منه فيبحثون عنا هنا وهناك ، وهم لا يصدقون أن نكون في البيت ، ولا يسمع لنا ضجيج لا يطاق ، لا يبدأ إلا بالتأديب المباشر ، أو بالتهديد به ، فإذا اكتشفوا أننا في الشقة ، يقوم بطقوس المدرسة ، ونحترم تقاليدها ، كما لم نحترم هذه الطقوس وتلك التقاليد في مدرسة حقيقية من قبل ، أخذ منهم المعجب كل ماخذ .

غير أن هذه المدرسة كانت تستعمل أحيانا هدايا مورا لي ، وذلك عندما يسوء مزاج أختي ، وتروا جديرا بالعقاب ، فتهلك على صريا « همسرة » أهلت لهذا المرض ، ولم تستعمل قط في تلقيني علما ، وقد يقول قائل ، وما المثل أن تأخذ تقبول الانتساب إلى هذه المدرسة ؟ والجواب حاضر ، فقد كان في وسمى أن أخرج منها طواحية واحتيازا ، ولكن مقابل حرمان من صداقة ورمالة أختي ، وبس براعتها في القصة ، وحيرتها في الحركة ، ولقد هدفتي مرارا ، بغض المدرسة وإخلاق أبوابها ، ووصح حد لنشاطها ، إذا أنا شكوت من شدة العطب وقسوته فيها ، وقد فكرت مرارا كذلك في هذا الاختيار الصعب ، وقررت مكروها مرغبا أن المدرسة بعقايها وبميل ناظرتها ومعلمتها الفريدة والعتقة إلى الشقة خير من عالم تسوته الوحشة ، وتنقصه حرارة المشاركة وأنس الرمالة

والغريب أن ما ينالني من عقاب كان لا يصدر عن أخوتي عن رغبة في التعذيب ، ولا مخرج بوجود هريسة لا حول لها ولا قوة ، لا ثلك أن ترد الضرب بالصرير ، والمدونان بالعدوان ؛ فقد طبعت أخوتي على الصندق والصرخة ، ولو كان الأمر مراحا أو لمبا وهوا ، فقد كان في مسلكني ما يعقبها بحق ، وكانت ترى أنها تحون رسالتها إذا لم تقموني بعد السيف ، وحد السيف هنا ، هو حد المسطرة ؛

ولكن لكل أمر نهاية ، ولكل صبر حدود ، ولا بد من غصبة الحليم ، وقد وقعت هذه الغصبة في يوم ، فعوضت على كل ما نالني من مسطرة أخوتي ، وصديق غضبها ، فقد أعطانا أي وإجبا في اللغة الإنجليزية نحفظه ، فأنقلت عليه ، فحفظته عن ظهر قلب ، ولم تن أخوتي بحفظه لعلها بأن مشاغل أي كثيرة ، وأنه مبنس الواجب ، ونس أن يتحسا فيه ، ففرت أن أنتقم لنس انتقاما مشروها نقره القوانين وعلاقة الأخرة ، وولاء التلمذ لاستاذته : وإن قسا ضربا واشتد عقابها فقد هم والذي بالخروج ، فاقتربت منه وقلت له : لقد حفظت الواجب ، فعاد والذي أراجحه قائلا : كثر غيرك ، لقد نسيت ، وسألني عن كلمة من هنا وكلمة من هناك ، وأثنى على ثم نادى أخوتي فلكلت على أمل أن ينصرف والذي لضيق وقته ، فغاظه هذا التلكنز ، وألح في دعوها ، ورجعت مكروه ، وهي تنظر إلى عتبة . ففاص قلبى شفقة لها وألما لهذا المكر الذي بدا لي حسنا ، ثم تبينت أنمكر سس ، فساها وهو غاضب . فلم نجب ، وسأل ثانية وثالثة ، فلم توفق إلى شيء ، فانطلق يبحث ، فلم يجد أمامه إلا « المسطرة » ، المسطرة الملهونة بلذاتها ، فانهاى بها ضربا على وجهها ورأسها وظهرها ، وكانت معنا آنذاك ابنة عمالة ، فاندخلت نحو أي صرخة ، ثم وصلت إلى أصبع يده فعضتها ، فبدا عليه الألم ، وزاد غضبه ، فانفجرت أنا باكيا . وراى أي نفسه أمام مناحة ، وكان رفيق القلب ، شلبد الإحساس بألم كل الناس الحقيقي والتخيل ، ففاضت عبرته بالدموع وضمتا جمعا بين فراعيه .

لا أزعم لنسى أنني كنت في هذه المرحلة قادرا على فلسفة الأمور ، وإن كان مدرس اللغة الإنجليزية في مدرسة محمد على ، ورائد فكرة القدم الحديثة في مصر ، « حسين سليمان » ركضى يوما لفرط ضيقه في وهو يقول . « قل يا فيسلوف » أما أنه ركضى فذلك لأنه كان يجب للمكرة ، ويجب ركلكها بالقدم ، وكان كل ما عنده يركل ،

ولم أغفر له قط - مع إعجابي به وحبي لحبه للمكرة - لم أعمر هذه الإهانة التي لا مبرر لها والتي لم يلبس مثلها من استاذ ولا زميل .

مع هذه الركلة التي يورك بها لقي « فيلسوف » ، حتى لا أزعج أنني كنت قادرا على فلسفة مأساة الانتقام من نظرة مدمرة ، ومعلمي وأخوتي في ذلك الأصيل الأعبر ، ولكنني أستطيع أن أقول صادقا غير مبالي ، إنني أتيت إلى ركس من أركان حجرى ، في بيتى ، كحيوان جريح ، ولم أستطع حتى لعن جرحى ، فقد شللى شلل نفسى كامل ، هجرت معه عن الحركة ، وعن التفكير حتى عن الشعور بالالم

هل حدث ذلك لأن أحسست بالإثم ، إذ انحلت من المباشرة بالعلم ، سبيلا للانتقام من أخوتي التي كنت ألقى التعذيب على يديها ، ساخطا وثائرا وإن كنت قد ارتضيت هذا العذاب ، مقابل متعة روحية ونفسية لا تقدر بحال .

ولو استطعت أن أصب شعورى يومذاك ، وأن أصوره لغفت : إنني كنت أحس أن حبي لأخوتي وولائى لها وتعلمى بها ، بدا لي كإنسان حى طعن ، وترك موصع الطعنة ليزفد دما . وفي صباح اليوم التالى تلاقت عيوسا ولم نتكلم ، ولعلها كانت رغبة في الكلام ومقبلة عليه ، ولكنى أنا الذى رفضته وهزفت عنه . فقد عاشت حياتها بسيطة ومتساعمة وذات نظرة للأمور كلها العامة والخاصة تسم بالسامى والملائكية ، ولكن منظر أخوتي وهي تضرب وهي نصيح وهي تخرج بغى مائلا لعنى كالكابوس ، وقد وادع لإلما للنفس وتعلينا لها خيالى الذى هرفت نشاطه منذ وهبت الدنيا وما حولي فيها

ولكنى مهما أردت أن أرفع من قدر نفسى فوق حقيقة هذا القدر ، فقد كنت صعبا . وقد خلق الله للصبيان والأطفال ، ومعهم قدرات طبيعية تعين على لام الجروح ، وإلا مات أكثر أهل الأرض ، لكل جرح لو رضى أو كسر يصابون به في أول أيامهم ، وبقيت ذكرياتهم البسيطة منذ لحظة الخروج من الرحم حتى يدخلوا في دور الشباب مرورا بعملية الحثان وعذاب اللش والتلق ، وكل نشاطهم الإنسانى كالفرح الملتهبة ، ولاصياهم الحبل والجنون ، إذ لم يضعوا حياتهم نهاية بأيديهم . .

مرت أيام الحزن بسرعة ، وعدنا كئنا طفلين برهتين تلعب ويلهو ، وأقمنا

المدرسة وقصصها إليها من ينفذ إلى دولنا من أبناء الأهل والجيران ، وطرفنا أكثرهم ،
لأن لعبة المدرسة والمسطرة والحكاية التي تعلم على أفهام وأذهان الصبيان لا تروق
كثيرا لأغلبيتهم .

وكان لا بد أن ينقضى عمر خير قصير ، حتى تصبح أستاذتي ومعلمتي ومدرستي
وأختي تلميذة لي ، تسمع هي ، لأحلتها فيما يمر بها ويلدنا وبالعالم من أحداث ،
في حالت دون ذلك مشاغلي ، أو أمراض ، أو سوء مزاجي — غففت وحزنت ،
وانصرفت وهي تلعب الدهر رحمة الله وعمرها ، ولأختيها وتلميذها ، الذاك
فضلها

مشايخ وخواجات

قال الشيخ الذي فروى ذكرايات صباه :

في أيام صباي تقاسمت طائفتان السيطرة على حياة المصريين ، إحداهما اشتملت بدنيا النعموس الباطنية ، أى بدنيا الوجدان والمشاعر والمخاوف والأمال واستلهم القوة واستباه الغيب ، والبحث عن الهداية والظفر بالتوبة والمفصرة ، والترويح عن القلوب بالكلام المتع والطرائف المستملحة والوارد المستحبة

واستأثرت الأخرى ، بعالم المادة من المال والتجارة وصنع الأدوات السالمة وتجميل الحياة وتحسين وسائلها من ملابس ، ومأككل ، وأثاث وريسة ، والتماس المعرفة الحديثة ، والتقدم في مجالات الرقة والتلطف ، والحديث والاجتماع

أما الطائفة الأولى فتسميها للتبسيط

طائفة المشايخ ، وأما الطائفة الأخرى فتسميها طائفة الخواجات .

وطائفة المشايخ واسعة الميدان مترامية المجال ، تصمم دوى القيمة والكرامة الحقيقية . يقف على رأسها ال البيت في أصرحتهم من الرجال والنساء فمها الإمام الحسين بن على رضى الله عنه ، والإمام ريس العابدين ، والإمام الشافعى وأضرهم من الشهداء الصالحين ، والعلماء المجتهدين ، وأسباط رسول الله المرفرين رضى الله عنهم جميعاً ، وفيهم نساء يتنافس الرجال في العلم والصبر والثبات في وجه الشدائد كالسيدات زينب ونفيسة ، وعائشة ، ورابعة العلوية ، ثم يأتي بعد ذلك عند

صنم من المتصوفين الكبار ، انتشرت قبورهم في مصر من أقصى إلى أقصى ،
 منهم السادة أحمد البدوي والأباصيري وإبراهيم الدسوقي ، والمرسي أبو العباس ،
 والنشاطي ، وسيدى جابر ، وسيدى أبو الحجاج الاتصري ، وعبد الرحمن
 القتاني ، وجلال السيوطي ، وفرقل ، ونسفي إلى مشايخ لهم أضرحة لا يدرى
 أحد شيئا من تاريخهم ، ولا يستطيع أحد أن يقطع باحتمال أنه تحت قبة كل ضريح
 من أضرحتهم شيخ أو وهم يتجر به مشعوذ أو دجال !

ويدخل في طائفة المشايخ علماء أجلاء حملوا الدين بأقلامهم وألسنتهم ،
 وعلمهم وصلهم ، ازدانت بهم مشيخة الأزهر ، وأطلق عليهم الناس والحكومة
 ألقابا جليلة ، وأفاضت الشخصية والوقار عليهم علمهم ومهنتهم ، وأسلوهم في
 المشية ، وطريقتهم في الجلوس ، وأدلاهم للكلام ، وتصديهم للسلطة ، واتصلهم
 بالعامية ، وهدمهم للكمال ، وآخرون عضوا على الدنيا بالنواجذ ، وبللوا الغالي من
 ماء الوجه وحسن السمعة ليكونوا على مقربة من الحاكم ، مصرها كان أو أجنبيا ،
 صالحا كان أو طالحا ، لحفلوا الدار والعقار ، وغلبهم الناس ، وبعثت عنهم
 الرحمة ، فمروا من الجاه الحقيقي ، بلقون مترسلة ، وعبادات متضخمة ، وسبح
 حيايتها منتفخة ، وزيانها عندما تتوالى بين الأصابع مسموعة ، مع ثلثة في الكلام ،
 وتثاقل في الجلوس والقيام ، وإطراقة عند كل سؤال ، وحب في العثون ، وهو
 الشعر الذي يأن أسفل الشفة السفلى ، قبل الإدلاء بالفتوى ، أو النطق بفصل
 الخطاب .

وبين هؤلاء وهؤلاء ، أزهريون انتسبوا إلى الأزهر ، ولم يتموا تعليمهم فيه ،
 ثم تفرقت بهم السبل ، فمنهم الصحفيون ، والأدباء ، ومنهم موظفون صغيرا في
 المحاكم الشرعية ، وقوانين الحكومة ، ومكاتب الأزهر ومعاهده ، ومصححون في
 الجرائد . والمطابع ، وخطباء وشعراء « تحت الطلب » يقدمون إنتاجهم للأحزاب
 والأغنياء ، ويعملون ندماء في المجالس وعند أصحاب الجاه في الرفف والمدن ،
 وكتاب عرائض ويلاشات كاذبة ، ومنهم من أتم تعليمه فأصبح قاضيا جليلا ، أو
 عاميا شرعيا ناجحا ، أو أستاذا في الأزهر ، أو في دار العلوم ، أو في الجامعة عندما
 شئت ، أو معلما في المدارس الابتدائية والثانوية ، أو أديبا صاحب مكانة ، أو

خطيباً ، لا يتحامي مواطن الخطر ولا يتحاشاه ، ويؤلف الجماهير في ساحات
الشدة ، ويؤيد الرعامات الصادقة في أوقات المحنة

ويتقدم هؤلاء جميعاً بطبيعة الحال ، في عهد صباى شيخ الأزهر ، المسمى
بالأستاذ الأكبر ، والمعروف من عهد الأتراك « بشيخ الإسلام » وكان اسمه في تلك
الحقبة الشيخ سليم البشري ، وكان قد سبقه إلى هذه المشيخة في عهد الخديو
عباس الشيخ حسونة النواوى ، وجاء بعده الشيخ أبو الفصل الجبراوى فالشيخ
الظواهرى ، وتلاه الشيخ المراضى ، وكانوا جميعاً تنتهى أسماؤهم بـ « السبة » ،
وكان ذلك تقليداً تراء واصحاً قبل عهد محمد على حتى اختير الشيخ عبد المجيد
سليم ، قبيل الثورة فانكسر هذا التقليد ، ولم يعد قط ، فقد توالى حل المشيخة ،
شيوخ لا يتسبون إلى قرية أو إقليم ، فكانوا حل التوالى الشيخ الخطير حسين ثم
الشيخ عبد الرحمن ناج ، فالشيخ محمد الفخام ، فالشيخ عبد الحليم محمود ، وقد
استعاض شيوخنا الأجلاء عن « السبة » كالشرقاوى والمهدى والعباسى بلقب
الدكتور ، فظن أن عهد الآن في منصب دينى كبير عالم لا يضع قبل اسمه لقب
دكتور ، وبعض هؤلاء الدكاترة ، لم يحصلوا على لقب دكتور من جامعة أجنبية أو
مصرية ، ولكن لقب العملية في التخصص ، اعتبر مساوياً لقب دكتور فكثر عند
الدكاترة في عالم الشيوخ ، وهى ظاهرة لا تسر أحداً ، لا لأن التماس العلم في
أوروبا أو في مصر خارج الأزهر شيء نكروه لعلمائنا ، بل لأن لقب شيخ في رأينا
لا يعده لقب ، وهو يدل على انتمائنا إلى تاريخنا ، ولذلك لا أسمى أحداً من
علمائنا إلا مقروناً بلقب « الشيخ » ، وأنا أضمر في نفسى وأعلن الاحترام
والتبجيل ، لهذا اللقب الجليل ، ولكل من يحمله ، وخصوصاً إذا كان يعرف قدره
ويحفظ مقامه .

وقد كان لكل حزب في مصر ، في الأيام التى لورى وقائعها ، عدد من الشيوخ
يتمون إليه ، ويتحدثون عنه ، ويخشون مجالس زعمائه ، وقد كان أكبر هؤلاء
الشيوخ ، وأوسعهم شهرة ، وأبغاهم أثراً ، شيخ الحزب الوطنى ، الشيخ عبد
العزیز جلاوش ، وقد كانت له طلمة جميلة ، ولحية تزيد وجهه جلالاً ، وقد تولى
رئاسة تحرير اللواء بعد وفاة مصطفى كامل ، فلذات شهرة مقالاته ، لفرط حدتها
وحضنها مع متانة نسيجها ، وفصاحة عبارتها ، وكان الشبان يحفظونها عن ظهر

قلب ، فلما حوكم على إحدى مقالاته ، ثم نفى براءته حل الشبان سيور العربية ، وسرحوا حيولها ثم جروها بأنفسهم ، ولما حس في قضية أخرى ثم خرج من السجن بعد نهاية مدة العقوبة ، اكتب الشعب لشراء وسام من الفضة والذهب وشاح من الحرير والقص ، وأهدوه إليه في حفلة حافلة نوالى فيها الخطباء والشعراء ، ذاكرين مآثره ، مشيلين بأبائيه . وقد كان للشيخ جلوبش فضل على شيوخ آخرين كان لهم دور أى دور في حياتنا العامة ، وكان من هؤلاء واحد من الصق تلاميذه به هو الشيخ طه حسي فقد رماه الشيخ جلوبش منذ كان طالباً ، ثم لوحى إليه أن يلتمس العلم في الجامعة المصرية الأهلية ، ثم أن يتعلم العريسة ، ثم أن يسافر ليطلب مزيداً من العلم والمعرفة ، ثم بقى وزاده يذهب إلى مواقف الخطابة ، بعد أن شجعه على النقد العنيف لأئمة المكتاب في ذلك العهد ، وفي مقدمتهم شيخ الأزهرى آخر هو مصطفى لطفى المنفلوطى . وكان من تلاميذ الشيخ جلوبش الأفاضل الشيخ حل العائلى ، صاحب ديوان وطنى الذى قدم لديوانه محمد فريد رعيم الحرب الوطنى بكلمة ، كما قدم له الشيخ جلوبش بكلمة أخرى ، ففادت النهاية الثالثة ، صاحب ديوان ، واللدن قرقاه إلى محكمة الجنايات فحكم على محمد فريد ، بالحبس ستة أشهر وعلى الشيخ جلوبش بثلاثة وعلى صاحب الديوان بسنة ، ولكنه لم يدخل السجن إذ فر إلى تركيا فسويسرا فأقام بها ربع قرن من الزمان ، بنى خلالها مسيلة سويسرية فاصلة ، وأنتج مجلة « منير الشرق » وهاد يظن الفرنسية كأحد أبنائها كتابة وحديثاً وخطابة وشعراً .

أما حرب « الأحرار الدستوريين » فكان من شيوخه الشيخ الزنكلونى ، والشيخ المراهى ، أما الشخان والشقيخان مصطفى عبد الرازق وعلى عبد الرازق فكانا من زهاد الحزب ، إذ كان أحدهما حسن باشا عبد المارق أحد مؤسسى الحزب ، وأول وكلائه ، وقد قتل على باب الحرب ، وقد كان الشيخ مصطفى عبد الرازق ثودجاً لجمال الرجال ، تلعب جبهته ببريق عجيب ، لم لو مثله على جبهة أحد سواء ، وكان دمثاً رقيق العاطفة ، حافت الصوت حلول الابتسامة عظيم الحياء ، تكاد تحسبه من فرط حيائه ولطف تقاطيعه هنراء حفرة لا تكاد تقوى على رفع عينيه إلى وجه محدثها ، ومع ذلك فقد كان حلزماً يحسن ضبط تلاميذه ، حينها كان يدرس الفلسفة الإسلامية في كلية الآداب ، وكان له لازمة يكررها إذا ما سئل عن شيء

يستجته ، أولاً يعرفه أولاً يود أن يجيب عليه : فقد كان يقول . « يجوز . . . أنا ما أعرفش » وكان يعطش « الجيم » إذ كان من ناحية (أبو جرج) في إقليم النيا . أما أخوه على فكانت له حجة صعبة على طريقة علماء وأساتذة عرسا ، ولم تكن له وسامة أخيه مصطفى ، ولا بريق وجهه ، ولا لطف ابتسامته ، ولكنه كان في مثل وداعة شفيقة ، وتواضعه وخضوع صوته ، وقد ذاع اسمه بعد انتهاءه بالخروج على الدين ، عقب تأليفه كتابه « الإسلام وأصول الحكم » . فلما شلحوه من الأزهر حلق عمامته واصطنع لنفسه الزي الأوروبي وحلق دقته ، ففقد وجهه الكبير من حلاوته ونظف تأثيره .

أما شيوخ الوفد أو مشايخه فكان أشهرهم ، وأخطبهم وأكثرهم نشاطا الشيخ مصطفى القايى ، وكان من خطبائه ثورة سنة ١٩١٩ ، حطب كثيراً في جامع الأزهر في أثناء احتدام وقائع الثورة ، فقبض عليه الإنجليز ، ونفوه إلى الماطة ، وساقوه للمحاكمة العسكرية وحكموا عليه ، وكان من الشيوخ الوفديين الشيخ عبد المجيد اللبان ، كان عضواً في البرلمان الأول الذى انتخب سنة ١٩٢٣ وانصدق لأول مرة في سنة ١٩٢٤ ، ولكنه ترك الوفد وبعد من السياسة فعرض شجفاً لكلية أصول الدين

وكان سكرتير سعد زغلول ، شاباً أزهرياً تخرج في مدرسة القضاء الشرعى ، هو الشيخ إبراهيم الجزيرى ، وقد ألف كتاباً عن سعد بعد وفاته روى فيه بعض ذكرياته في أثناء عمله مع الزعيم ، وعنوانه « آثار الزعيم الجليل » .

وكان من شيوخ الوفد في الفترات التالية لوفاته سعد زغلول الشيخ محمد البنا وأخوه الشافعى وكامل ، ومدرس إلزامى من محافظة بنى سويف ، وهو الشيخ محمود صمار الذى عرف فيها بعد بشارع الرعاع ، وذاع لقبه وقضى حل اسمه .

أما شيخ السعديين فهو الشيخ عبد الرحمن الجندى لهم في قضية المؤامرة الكبرى ، مع عبد الرحمن فهمى قائد ثورة سنة ١٩١٩ ، خلال السنوات ١٩١٩ ، ١٩٢٠ ، ١٩٢١ بيان تغيب سعد وزملائه زهاء الوفد في أوروبا ، فزامل في هذا الانعام إبراهيم عبد الحادى الذى أصبح رئيساً للوزراء سنة ١٩٥٠ ، فبقيا على صلة وثيقة ، فلما ألف أحمد ماهر والنقراشى الحجة السعدية انضم إليهما ، فلما توليا الحكم أسند إليهما وكالة وزارة الشؤون الدينية ، فكان أول وكيل ووزارة زهرى ، وقد تخرج

أصلاً في مدرسة القضاء الشرعي ، وكان صديقاً لأمير الشعراء أحمد شوقي ، ومستشاراً أميناً له ، يستعين برأيه في تدقيق شعره ونقد عيوبه ، وكان الشيخ محمد عبد اللطيف دراز من شيوخ السعديين أيضاً وهو أصلاً من أبناء الحرب الوطني وقد كان له دور بارز في أحداث الفترة الأولى من ثورة سنة ١٩١٩

وقد حملت صفوف مصر الفتاة بعدد غير قليل من الشبان الأزهريين الذين أثبتت الأيام سعة علمهم ، وإخلاصهم لدينهم ، ومن هؤلاء الشيخ عبد الرحيم فودة مدير مجلة الأزهر الذي لحق بالرفيق الأعلى أخيراً ، والشيخ عبد المنعم عمر مدير الشؤون الدينية في دولة الإمارات المتحدة ورئيس مجلة المنار ومدير المعاهد الدينية الآن ، والشيخ عبد الرحمن الصوالحي الذي انفطعت هي أخباره من زمن طويل

وكانت الصحف تذكر في تلك الأيام أسماء عدد من الأزهريين فتنشر لهم المقالات ، وتذكر طرقاً من مشاطهم ، وكان أظهر هؤلاء الشيخ محمود أبو العيود ، الذي وجه كل نشاطه لإلغاء البغاء العلني ، وكان من قبل ، خطيباً من خطباء ثورة سنة ١٩١٩ ممن عرفوا السجن والنفي الداخل ، وقد توفى إلى رحمة الله ، في حادثة مريعة ، إذ علق طرف قطارته بقطار « الثرو » وهو يصعد أو ينزل منه ، فحضره القطار مسافة لفظ بعدها أنفاسه .

وكانت الأهرام تنشر مقالات للشيخ محمد سليمان عنارة الذي اختار لنفسه لقباً قلمياً هو « أبو التلاميذ » وكان هذا الشيخ هوله مع حرب الاتحاد والقصر ، ولكنه لم ينعمس في السياسة علناً ، وإن كان خصومه قد اتهموه بأنه وصل إلى المحكمة الشرعية العليا بسبب صلاته بالسرائي . وقد ألف الشيخ عنارة كتاباً جيداً بعنوان « من أخلاق العلماء » أما الذي عاود حرب الاتحاد جبهة من كبار علماء الأزهر الشريف ، فهو الشيخ حسين والي . وقد بدأ حياته الأدبية ، وهو في مطلع شبابه ، قبل أن يحصل على العالمية بمقالات في مجلة « روضة المدارس » التي أسسها رفاة الطهطاوي منذ قرن كامل وخمس سنوات ، وكان الشيخ حسين والي عالماً عبقراً وقد تولى أمانة الجامعة الأزهرية ، كما عين عضواً في المجمع العلمي ، فكان من أكثر أعضائه نشاطاً .

وقد أحب عند من علماء الأزهر وشبابه جريدة الأخبار التي كان يصدرها

ومجرها أميى الرافعى ، فاحتفظوها ميئاناً لأقلامهم ، وكان من هؤلاء ، عالم فاضل هو الشيخ عبد القادر سرور نجيم ، وقد نشر سلسلة من المقالات عموها بالآية الكريمة « وأنا لا بدرى أشر أريد منى الأرض لم أريد بهم رهم رشداً »

ويدنو أن هذه السلسلة طالت ، ولعلك ، فقد أطلق بعض عيى الدعاية الصحفية على الشيخ نجيم ، الشيخ « أشر أريد » ، وكان من الشبان الأزهريين الذين راسنوا الأخبار الشيخ « صديق عرجون » الذى عين فيها بعد عميداً لكلية أصول الدين ، والذي أخرج أخيراً كتاباً من جزئين ضخمين بعنوان « ساحة الإسلام » .

ومن أصحاب العمام المشهورة فى تلك الأيام . ثلاثة ، كلهم كان يتنى إلى طائفة المتصوفين أولهم سماحة السيد عبد الحميد البكرى ، شيخ مشايخ الطرق الصوفية ، وكان يلبس عمامة على الأسلوب التركى ، لى طربوشاً من طرابيش لأندية ، ثم شالاً أبيض يلف حول ، وكان لسماحة السيد البكرى صفات الأعيان وقد كان فعلاً من الأغنياء ، كما كان عسواً فى حرب الأحرار الدستوريين ، حرب كبار الأعياء من أصحاب العدايين ، وقد رأس الرابطة الشرقية ، وهى جماعة صمى بعض أدباء وأعيان المصريين والسوريين وآخرين يتوطنون مصر من أصول فارسية « كرفيع مشكى ميرزا مهدى » التاجر الإيراني أو أصول هندية أو تركية ، وكانت هابتها أن تدعم العلاقات بين دول الشرق المترامى الأفاق ، ولم تقص فى هذا السبيل ، أكثر من الدعوة إلى بعض المحاضرات ولحلها أصدرت مجلة باسمها ، ولقد لبى دعويتها لسماح محاضرة ألفها يومذاك أحد ركنى باشا الذى عرف فيما بعد بشيخ العروبة ، وارندى العقال ، لبطابق المظهر المخير ، أو الاسم للمسمى ، وكانت محاضراته عن ريلرة له قام بها فى فلسطين حدثنا عن مدى هذا الفطر الشقيق اللصيق وكأنه قام برحلة فى أحد القططين ، وقد تحملنا يومذاك حول نافورة ماء ، يسمع لها حريق صعب ، وكانت تتوسط مدخل الدار التى استأجرته الرابطة غير بعيد من ميدان لاطرغل فى شارع خيرت .

أما المعمم الثانى من أهل التصوف فقد كان شبيهاً بالسيد البكرى من حيث الزى ، وعمل التقبض منه ، من حيث المراج والطبع ، وأعني به السيد محمد العنيمى

التمتاز ، شيخ الطريقة التي يدل عليها اسمه ، وكان مصري التظاطيع ، وإن كانت له جهة بلورة ، لا نشاهد كثيراً في وجوه المصريين ، وهتان تحتلفان عن عيون أهل الريف المصري التي لابد أن السيد قد انتحدر منه ، وكان بعد ذلك ذكياً ، عظيم الحركة ، يتردد على كل الصباح ، وتربطه بكل كبار عهريها صلوات رد ، ويحسب « شوقي » أمير الشعراء ، ود حافظ ، شاعر النيل ومطران شاعر القطرين وتراه في كل الندوات التي تعقد في المقاهي العامة ، والتي تضم رهبان البلاد العربية اللاجئيين من عسف فرنسا وإيطاليا ، أمثال الأستاذ عبد العزيز الثعالبي ، الذي لم يكن اسمه يذكر في صحفنا إلا مقروناً بزهيم تونس الأكبر . كنسوة بار اللواه وبار الأجلو ، وقهوة متانها ، وكان له بيت قديم في حي الخنفي بالقرب من ميدان السيدة زينب ، وقد رثته في هذا البيت لأمر يتعلق بمغلف لأصهارى ، فقد كان السيد التمتاز ، عضواً في لجنة الجبانات ، وقد رأيت هناك موظفين كباراً ، وشباناً ممن أمروا بتعليمهم في الجامعات ، وعرفوا المعلم الحديث ، يقولون يد السيد ، ويطلبون منه الدعاء فيقو على بعضهم ، ويشد أذانهم ، وهم صاغرون ، ويلطف الآخرين في الانتصاب وإيجاز ، وكان هذا المشهد طريفاً حدى ، فقد كنت أعرف أن السيد كان ممن يقولون قول الله تعالى « ولا تنس نصيحتي من ربها » وقد داعبه الأستاذ الصاوي في مجلة « مجلتي » يوماً فنشر صورته على طريقة أشخاص « الكروتينية » التي تضم رأسه للشخص في كل جانب من الصورة رأس ، وكتب تحتها « شيخ الطرق والكبارى » ، وكانت الأهرام - على جلال قدرها - تترك له حديث رمضان شهراً كاملاً . يملؤه بحواطره الذهبية ، ربما نرولاً على مقتضى حسن علاقته بداود بركات رئيس تحرير الأهرام ولصلاته المتعددة بالجهات المختلفة بما فيها دار المنسوب الصامى البريطانى .

وكان المعصم الثالث من أهل التصوف ، الشيخ الدرعاش ، الذي منح لقب الباشوية ، تقديراً لسخة الحيرة الكبيرة ، التي كان قوامها وقفه لقطعة أرض مجاورة لضمير المحمدى ، وبنائه لمستشفى عام عليها من ماله ، باعتباره أن الأرض ملكه ، وكان قد اشترط في الوضعية أموراً تستحق التأمل لصنوبرها من شيخ طريقة مسلم فقد نص في وقبته على أن يقام له تمثال في مدخل المستشفى ، وقد أقيم فعلاً التمثال ولا يزال يطالع الداخلين إلى مستشفى الدرعاش إلى اليوم ، كما اشترط أن يكون

مدير المستشفى طبيباً بريطانياً ذكره بالاسم ، على أن يبقى هذا الطبيب الإنجليزي و
منصبه ، لا يهرل ما دام على قيد الحياة ، وقد لجب الشيوخ إلى طلبه ، وكان
لا يخفى ولاءه للإسكندر ، وحبهم له ، وقد حضر المتدرب السلمي حفلة انتعاش هذا
المستشفى ، وقد ورثت السيدة قوت القلوب ابنة نصف ثروته ، وقد أعانت
الظروف على أن أعرف طرفاً من تاريخ الأرض التي سرح بها الدمرداش باشا
للمستشفى ، فقد رفعت السيدة قوت القلوب دهوى طرد صد عدد من فقراء حي
المحمدي ، بحجة أنهم اعتصبوا أرضها بنون سند ، ووكلت السيدة توفيق دوس
باشا في هذه القضية وكنّت مرشحاً من دائرة مصر الجديدة ، التي كانت تشمل حي
المحمدي ، فحضرت عن الفقراء المدعى عليهم متطوعاً ، ولم يكن لي فضل في هذا
التطوع فقد كانوا من أنشط مؤيدي في المعركة الانتحائية ، ويوم الجلسة امتلأت
قاعة المحكمة بأهل المحمدي ، كما ازدحت الطرق المؤدية إلى دار المحكمة والمتصلة
بها بزوجاتهم وأولادهم ، وفي هذا الجو المشحون بحماسة الفقراء وأنفاسهم الحارة
ترافع توفيق دوس باشا ، وكان واحداً من أبرز المحامين في مصر ، ثم جاء دروي ،
فنهيت الموقف من جميع جوانبه ، ولكن دهوى السيدة قوت ، كانت بلا أسس
حقاً ، فلم تكن هذه الأرض أرضها ، وأنصف الله الحق ، فرفضت الدهوى ،
فانطلقت هتافات موكل ، مجلجلة مدوية ، حتى كانت جدران المحكمة تنفص .
فارتفعت من ثم ، أصوات النساء وزغاريدهن ، فكانت لحظة للمعركة
الانتحائية ، لم تدخل في حسابات ولم تأت عن تسيير ، عرفت منها حقيقة تبرع من
أشهر الثبرعات في تلك الأيام . .

ولم يكن الشيوخ الذين أئروا على المصريين وعلموهم وثقفوهم وأمنوهم كلهم
من رجال العلم والدين ، فقد كان أكثر أهل الفن ، شيوخاً ، لا يتأيدون الناس
الواحد منهم إلا ملقب شيخ ، وربما لا يذكر اسم الواحد منهم اكتفاء بلفظ الشيخ
فيعرف السامعون من المقصود ، وفي مقدمة هؤلاء ، الشيخ سلامة حجازي فالشيخ
سيد درويش ، فالشيخ زكريا أحمد فالشيخ أبو العلا فالشيخ صبح .

أما قارئو القرآن المجيدون أمثال الشيخ علي محمود فالشيخ محمد رفعت فالشيخ
أحمد ددا فقد كانوا شيوخاً لا يحكم الزم وحده ، وإنما يحكم الصنعة أيضاً ، وكان
الشيخ محمد يونس القاضي من أشهر مؤلفي الأغاني في تلك الأيام ، وكان من

المثاليين من خرج من صفوف الأزهريين ، وعلى القلب حالفا به كالشيخ عبد الحميد
 عكاشة شقيق زكي وعبد الله عكاشة الذين وردوا فن الشيخ سلامة حجازي ،
 والذين استأثروا لفترة يسرح حبيبة الأزيكية التي أنشأه طلفت حرب باشا ،
 وكانت الصحف الفنية تسميهم المكاكشة وكان معظم الملقبين في المسارح ، ممن
 انتسبوا إلى الأزهر ولم يتموا تعليمهم فيه ، كذلك المصححون في الصحف والمطابع
 وقد دخل نجيب الريحاني في زمرة المعممين ، حينما اصطحب لعمه شخصية « كشكش
 بك » ، وارتدى الجبة والقفطان واللحية ، وراح يمثل شخصية عمدة أخرى من
 ارتفاع سعر القطن الذي علا في أعقاب الحرب العالمية الأولى حلوا جنوبها ، لجهاء
 بهبته وبرزعه على راقصات شارع عماد الدين من بنات إسرائيل وبنات السلول
 الأجنبية الفقيرة ، في تلك الحقة أمثال اليونان وبلغاريا فأصبح بجبته وقفطاته
 ولحيته البيضاء أشهر شيخ في مصر ، وإن كان شبيهاً زائفاً ، فقد لجأوا إلى طرق
 القاهرة وحوازيها بأغان نجيب الريحاني وفي مقدمتها : يا أبو الكشاكش كان جرى
 لك ابه ، يا هل ترى ؟ وكان ينافس كشكش في الشهرة شيخ زائف آخر هو الشيخ
 متلوف الذي دأبت شهرته منذ ترجم عثمان بك جلال رواية مولير الشهيرة تارتوف
 باسم « الشيخ متلوف » إلى الرجل المصري المتض ، بعد أن مضى أحداث الرواية
 محصراً بارهاً ، وكان ثمة شيخ زائف ثالث ، هو الشيخ « رويتر » ، وكان رجلاً أمياً
 يختلف على الندوات السياسية في نواحي الأحزاب وفي المقاهي ، فيسمع ما يحد
 فيها ، وينقله إلى سواها ، ويستمع الأخبار ويشر المستوزدين بسقوط الوزارات
 القائمة ، ويترشحهم لها ، كما يشر الطامعين في الباشوية والبيكوية ، بالإعنام
 الملكي السامي ، في مناسبات الإعنام في الأعياد ، من جلوس للملك وأولاده ،
 وميلاد ولي عهده ، وكان إذا أهل على ناد في حزب ، أو ندوة في مقهى رجب به
 الكبار ، وأنصحوه له ، وإشاعته ومفتراته وتلفيقاته صبورهم ، ونفحوه إذا
 طابت لهم الأخبار الكثير . والحق أن قضية الحبة والقفطان والعمدة في مصر ، في
 أيام صباها ، وبعبارة أخرى قصة المشايخ والشيوخ ملتبة ، فقد كانت المسرحيات
 والقشحات والمدايعات والنواذر لا تكف عن اتحاد المشايخ هدفاً للهجوم الصريح
 حيناً ، والغمز الخفي حيناً ، ذلك لأن العمامة لم تكن رقفاً على أهل العلم والدين ،
 باعتبارها مع الحبة والقفطان زياً علمياً ، فقد لبسها جميعاً عند لا يحمي من أهان
 الريف عن لا يقرمون ، ولا يكتبون ولبسها عدد كثير من أهل الحرف من مائون

الشرع وخدمة المساجد ، وكذلك التسولون الذين يتحدون من القرآن وسيلة للاستجداء وعمل المدافس ، ولما كان هؤلاء أكثر اتصالاً بالناس من عليه الذين يحق وكان من جهة أخرى مفسو اللغة العربية ، عن يلبسون المعامم والحب والقفاطين ، وتلاميذ المدارس لا يرحمون مفسريهم من صروب شقاوتهم النفظية والعلمية ، فقد أصاب لقب الشيخ لدى كبير ، وكانت الحياة الحديثة قد هزت أسس المجتمع القديم ، فاندفع أكثر أهل المدن إلى اصطناع أساليب الحضارة الحديثة في البرى والمظهر ، وقطعوا صلتههم بالماضى ، ولدهوا عليهم بالثعلات الأجنبية ، وباسهم من بلغوا الغاية في التائق ، والتحضر ، فقد كان الأهرى تجسداً حياً للماضى المراد الانفصال منه ، والابتعاد عنه ، ولمتحن الأزهريون امتحاناً شديداً ، فإن احتفظوا بزيهم تكلّموا العربية الفصحى ، وحرموا على مقومات المجتمع القديم أحسوا أنهم عرباء ، وأنهم قطعة متلكئة من الماضى ، جديرة بأن تزاح عن طريق التقدم والتطور ، وإن تحنفوا شيئاً ما من مظاهر حياتهم الأصلية والقدمة كانوا كالمغرب لا هو احتفظ بأصله ، ولا هو نجح في محاكاة الطلوس

ولما كانت حل شدة الأزمة أن الحياة السياسية القائمة على صراع الأحزاب بدأت في شدة ضلالية ، في أعقاب صدور الحرب العالمية الأولى ، ثم رادت صراوتها ، وتطلبت هذه الأوضاع الجديدة من علماء الأهر مواقف محددة ، ولكن بعضهم تذبذب أو انحاز إلى أحزاب غير المشتمة بتأييد الأهلية ، فزاد ذلك من حدة النقد الموجه إلى علماء الأزهرين ، وقد دافع على الألسن يومئذ بيت شعر للشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي الديار المصرية معناه أنه « مع لوفد والأمرا والشعب والوزرا » أى أنه مع الجميع ولا يفرى لحد ما هل هذا قوله أو قاله تمكها على المديدين أو كان الشعر تليقاً من خصومه ؟

واستغل الإنجليز بمظاهرة هذا الموقف الخارج قصوروا إلى مقام الأهر والأزهرين ، سهيا عمتاً ، إذ ألفوا أن يدهوا إلى دتر المنتوب السامى ، في السابع والعشرين من رمضان كل عام شيخ الأهر وكبار علماته من المفتي إلى شيخ مشايخ الطرق الصوفية ، إلى شيخ المعاهد ، ليحصلوا مع المنتوب السامى البريطانى بيلة القدر ، ويتوجهوا إلى الله المل الكبير بطيب الدعاء ، ولم يكن في وسع واحد من

هؤلاء العلماء أن يرفض هذه الدعوة الأثمة ، لأن رفضها معناه عزله من منصبه إن عاجلاً أو آجلاً وحرمانه من مزاياه ، وسد لطريق التقدم في الحياة الدنيا لكل لداؤها ومتعتها .

وزاد الطين بلة أن هذه الدعوة المتحلية لكل سائى الشرف والدين ، أيا كان هذا الدين ، مضت علماً عاماً توجه على مسمع ومشهد من رأى العام في عهد الاحتلال ، وفي عهد حكم الأغلبية الشعبية بعد صدور دستور سنة ١٩٢٣ دون أن تعلم معارضة صيغة وصارخة ضد الإنجليز وشيوخ الأزهر ، ودون أن يقع اعتداء رادع على هؤلاء الذين كانوا يلهبون إلى دار الحماية البريطانية أو دار المنسوب السامى ، في هدوء المنعس ، وراحة البال ، كأهم لا يأتون أمراً إذاً ، لذلك كله لم يكن غريباً ، وإن كان مؤلماً إلى أقصى الحد ، أن تؤلف أغان وعبارات تنال من نصر الأزهريين العالى ، مثل قولهم « أزلز في الأزهر » ولحن بيرم وسيد درويش « الحق يا شيخ قفاعة ، تلغراف أسر سباحة الل في جرنال البوصى » .

وفي تلك الأيام ذاع اسم أزهرى فاسد ، وهو الشيخ عبد الظاهر السالموطى ، الذى تقدم كشاهد ملك صد عبد الرحمن فهمى قائد ثورة سنة ١٩١٩ ، والمشرف على توجيه حركتها ، وتنفيذ خططها والفتح في جنودها ، وجمع صفوف المقاتلين تحت رايتها ، والتصين على خصوم حقيقتها ، فقد اتهم الإنجليز عبد الرحمن فهمى في مايو سنة ١٩٢٠ ومعه سبعة وعشرون من الشباب بأهم كونوا « جمعية الانتقام » بقصد حلق السلطان فؤاد وقلب حكومته والتخريض على المصبيان والقتل .

وفي الثلاثاء ٢٠ من يولية سنة ١٩٢٠ عقدت محكمة بريطانية برئاسة جرنال اسمه « لوصون » أولى جلساتها في قاعة محكمة الاستئناف بميدان باب الخلق لمحاكمة الرحيم العظيم عبد الرحمن فهمى ورملائه واستمرت ثلاثة أشهر ، وهى شمل الأمة الشاغل ، وكان الاتهام يقوم على افتراءات عبد الظاهر السالموطى هذا الذى رود النيابة بكل ما كانت في حاجة إليه لتلغيق هذه القضية ، فأصبح عبد الظاهر قريباً للشيطان عند الناس ، يلصونه في الليل والنهار ، في البيوت والأندية والطرفات

العمامة ، ولكن لم يكن أحد يعتنه من الشيوخ ولا من المشايخ ، وإن كان يلبس
العمامة والحجة والقفطان وكان قد انتسب إلى المسجد العتيق !

على أنه في وسعنا أن نسمى كل هذه القناصح محتتم الحديث عن الأزهر
والأزهريين باسمي رجل وشاب لبسا العمامة وطلبا العلم في الأزهر ، وبهذا يفصله
فكانا نموذجين للأزهريين العظماء : أولهما السيد مصطفى لطفي المنفلوطي ، والآخر
الشيخ زكي مبارك .

أما المنفلوطي فقد عرفه قراء العربية في مصر سنة ١٩٠٨ بمقالات أسبوعية بدأ
بشرها في تلك السنة في جريدة « المزيدي » التي أخرجها أزهري آخر هو الشيخ علي
برصفت ، وما كاد يتوالى ظهورها في هذه الجريدة اليومية الذائعة تحت عنوان
« النظرات » حتى استمرت الأنظار ، ثم أثارت الإعجاب ، وفي أقل القليل أصبح
المنفلوطي أحب الكتب إلى قلوب القراء ، فلما جمع هذه المقالات في مجموعة باسم
هذه الأسبوعية « النظرات » في كتاب ونشره على الناس سنة ١٩١٠ ضم إليه ثلاثة
وثمانين مقالا ، واثنتي عشرة قصيدة ومقطوعة شعرية ، حتى نبهت الناس على
الفتناتها ، فبيع من الطبعة الأولى منها - على ما أحبرني المرحوم محمد راشد رستم
الذي فقدناه أخيراً - عشرة آلاف نسخة ، وهو رقم لم يصل إليه حتى اليوم عند المبيع
من كتب أكبر الكتاب ، إلا في القليل والنادر ، وقد أهدى المنفلوطي الطبعة الأولى
من النظرات إلى ثلاثة كانوا جميعاً من الشيوخ المعصمين الذين طلبوا العلم في الأزهر
وانتسبوا إليه هم على حد عبارته هو في الإهداء : « ولي نفسي والذي السيد محمد
لطفي ، وولي عقل أستاذي الشيخ محمد عبده ، وولي أمري سيدي سعد زهلول
باشا » .

ولكن ولاء المنفلوطي لأستاذه ، وولي نعمته حقا ، سعد زهلول ، لم يخرجه ،
كما أخرج الآخرين من دوى النفوس الضعيفة عن طريق الوطنية الصحيح ، فعرف
فقد مصطفى كامل ، كباعث للوطنية في مصر ، وقال لحركتها ورمز لثبوتها ، فلما
قبض مصطفى إلى بارئه لحسن توديعه فقال :

« مات مصطفى كامل غرقا الموت ، وما كنا نعرفه قبل ذلك لأننا ما كنا نرى

إلا أمواتنا يتقلون من ظهر الأرض إلى بطنها ، أما مصطفى كامل فكان حياة حقيقية
فكان موته كذلك .

كان الوطنيون قبل اليوم يتكلمون ، فلما جاء مصطفى كامل علمهم كيف
يحبون فلما صاحوا وأسمعوا عرفوا أن آذان السياسة لا يخرقها إلا الصوت
الجمهوري ولولاه ما كانوا يعرفون

كان الوطنيون يحترقون أنفسهم وسيئون الظن بها فلا يصدقون أن تربة مصر
تنت أمثال فولثير وهوجو وغاريبالدي وواشنطن ، فلما بيع بينهم مصطفى كامل
عرفوا أن تربة مصر لا تختلف كثيرا وثرة غيرها لو تعدها الراعون

فيأياها القاريه الكريم إن كان لك ولد تحب أن تجعله رجلا فاجعل بين يديه حياة
مصطفى كامل ليتعلم منها الشجاعة والإقدام

أما الراحل المودع ، طت حيا وميتا ، خدمت أمك في حياتك وبعد مماتك ،
لولا حياتك ما تمت العاطفة الوطنية في نفوس المصريين ، ولولا مماتك ما عرف العالم
أجمع أن الأمة المصرية على اختلاف مشاربها ومذاهبها تجمعها كلمة واحدة وهي حب
الوطن وحب رجاله العاملين .

وقد نالت بعد ذلك للمتعلوطي آثار ، كانت قصصا ، ومسرحيات فرنسية ،
منقلها إلى العربية عن ترجمة بعض أصدقائه طلبوا إليه أن يذهب ويشهرها على الناس
بلغته وأسلوبه هو لتكون أنصح عبارة ، وأجل صياغة ، وأعذب في آذان الناس ،
وأقرب إلى قلوبهم ، وظاهر هذا بوضوح من مقدمته لمسرحية سيرانودي برجرالك التي
وضعها شعرا أدوم روسنك فقد قال للمتعلوطي : « أطلعني حصرة الصديق الكريم
الدكتور محمد عبد السلام الحدي على هذه الرواية التي عربها عن اللغة الفرنسية
تعبيرا عربيا حافظ فيه على الأصل محافظة دقيقة وطلب إلى أن أعذب عبارتها ليقدمها
إلى فرقة تمثيلية . . . » .

ويستشف هذا المعنى بلوحة أقل وصوحا في مقدمة رواية في سبيل التاج التي
وصفها الكاتب والمترجم القدير الأستاذ حسن الشريف عليه رحمة الله .

أما الأزهرى الآخر ، وهو الشيخ ركنى مبارك ، فقد حاض غمار ثورة ١٩١٩ ،
وعلى رأسه العمامة وعلى جسده الحبة والقمطان ، نحيفا ضعيفا ، ولكن كان مليئا
بالعزم ، بتوث لثزال أعداء البلد بالقلم واللسان واليد ، يخطب على منبر الأزهر ،
وعيره من المساجد والأماكن العامة مستلهيا روح مصطفى كمال سائرا في دربه ،
ويكتب المقالات في جرائد الحرب الوطنى ، كما يندج النشورات المهيجة للخواطر ،
والؤلة للجموع ، يود أن يقتلع الإنجليز من جثورهم في ملاحه ، وأن يراهم خارج
حمى هذا الوطن ، والسيوف في أعناقهم ، والأحذية في أجهازهم ، واللغات
تصاحب خطاهم وتسبقهم ، فاعتقل ونفى النفى الداحل ، إلى صحراء مصر
الخديدة وصحراء الإسكندرية في سبلى بشر ، فزاد عزما على النضال ، وكرها
للإنجليز ، واحتقار للمسلمين ، من زعماء الأحزاب الأخرى ، الذين يتحلون من
السياسة سيلا للجهاد ، وأداة لاقتصاد للغنائم . .

هل أنه إلى جانب هذا العالم الظاهر الذى يعيش فيه المشايخ ، ويؤثرون في
الناس وصا وسحطا وإعجابا واستعجابا - عالم سفل لنوع آخر من المشايخ
لا يظهرون إلا في الظلام ، ولا يعملون إلا في الخفاء ولم مع ذلك تأثير أكبر ، وقد
كونوا جيشا محرما .

هيأته لحن هم ، من الرجال والنساء ، منهم دجالون ومشعوذون ، فأسطوات
« رار » ، بدهون الكرامة ، والقدرة على معرفة الغيب ، وشعاع الرضى ، وجمع
الأحبة ، وإزالة العمل السيئ وتحقيق المعجرات بالسحر والاتصال بالأرواح
والاستعانة بالأشباح واستخدام الحس ، واستعمال السحر ، وقد راجت سوق هؤلاء
حتى كاد يكون لكل بيت شيخ يستعان به فى المهمات ، كما أن لكل بيت طبيا يقصد
عند الأمراض والأفات ، وهؤلاء لا يقنعون بأكل المال الحرام مترويح مضاعفهم
الرائقة من أحبة وتلويد بل يصيرون إليها قائمة طويلة من جرائم الأخلاق من
تحسين المحشاء إلى ممارستها مع صبيانهم من الرجال والنساء

ولقد روت شيخا من هؤلاء أيام صباى ، وما زلت أذكر داره فى ناحية قرية من
سراى عابدين ، دخلت فى شقة هادئة ، ضوؤها قليل ، استجلا للزهة ،
وأصمعا للمهاة على المكان ، ثم خلف إليها رجل يطفى الحركة يسقه بطى متدل ،

ومد بدا سمينة رخصة تحس بليتها وامتلأها عند المصافحة له وكانها قطعة من عجين ، واستمع في هدوء ، ثم صمت وشرد ، ولم يتر ولم يسمع أو يحوقل ، وإنما تكلم في صوت حافت فكأنه طراز خاص بين وحوش هذه العانة ، التي منها أكلو اللحوم ومنها الأفاعى السامة ومنهم من يتسلق الأشجار ومنهم من يتسلل ولا يصدر عنه صوت ولا يحلف وراءه أثرا ، فأرهفت الأذن لسماعه ، وانصرفت السيدة التي كانت معي ، والتي لا أذكر من تكون الآن ، وقد سرى عنها ، وبدا ذلك واصحا في صوتها ووجهها كأنها حاجتها قضيت لها ، وسمعت بعد ذلك اسم الشيخ محمد يتردد ، ولكن الذي لأذكره ولؤ كنه أن بيتا لم يكن عن يعتقد صدق هذه الطائفة من الفوم ، أو يلتصق منها العون ، لو وسطها عند الله لقضاء الحاجات ، بل إن أمي كانت معي في زيارة السيد أحمد البدوي في طنطا ذات يوم ، فلما رأيت الناس يفترجون من الضريح ، ويتعلقون بشباك الحامس ، ويمسكون شئ ، وددت أن أحاكيمهم ، وليس لدى حلجة أطليها ، إنما هو حب التقليد ، فرددت أمي بعنف وكان أجبرمت ، ولقد كنت أسمعها وأسمع أبي يقولان عن هؤلاء الصالحين : إنهم بأس طيون ! ولا يربون ، بل إن أمي رأيت في المنام ، السيد أحمد البدوي ، وهي حامل ، فبشرها بمقدم صبي وكان أولادها الذكور لا يعيشون وأصبح الولد الذكر أملا يرتجى وقال لها : سموا المولود فتح الله ! وجئت أنا بعد ذلك المنام بقليل فأسمون : فتحى ، ولم يسمون : فتح الله ، لأن أحدا لم يتصور أن هذا أمر من السيد أحمد البدوي ، أو أنه يملك أن يأمر أو أن ينهى .



ويبدو أن حديث المشايخ لو تركنا أنفسنا على السجية ، ولم يصح عليها قيودا ، ما انتهى ، ولأمد لنا من أن ننقل إلى حديث الخواجات ، فلا مفر من مرس وقفة حيثما اتفق ولا بأس من أن يكون حتام حديث المشايخ ، حديثا عن المجاهد المغربي السيد أحمد البدوي .

لما حديث الخواجات فيبدأ من العملة الرسمية ، فقد عرف المصريون الأجانب ، وعرفوا أسلوبهم في الحيلة ، وطريقتهم في التكبير ، ومبادئهم في الحكم ، وأدواتهم في ارتياد المجهول وتحصيل المعرفة عندما اصطلم المجتمع المصري

الإسلامي الراجع إلى القرون الوسطى ، في المذاهب والمعنويات وجيش الثورة الفرنسية ، لم تمنح عينيه على عالم جديد غاية الحلة ، جديد حتى على أوروبا نفسها ، فقد كان جيش أمة ثائرة ، فرغت لتوها من ثل عرش ملوكها القديم ، وفي هدم مجتمعا الموروث ، وفي إزالة الأحكام والقوانين والأفكار التي سادت أوروبا قرونا .

ومذ ذلك اليوم وأوروبا تعالج أن « تعرب » الشرق ، أي أن تحب لأهل الشرق أفكار العرب وأصاليب حياته ، ومبادئه ، وأن تنفخ من أفكاره وحياته وحضارته وثقافته وجميع ما ورثه عن الآباء والأجداد ، وكانت عملية التفرغ هي صحن العرابة وانما تحيي في إسكلت صوت سمائر أهل الدول المفتوحة التي تدعوهم إلى المقاومة ، واضعاف حافر الرطخ عندهم ، ولقد سارت أوروبا شوطا بعيدا في هذه الحملة القوية التي ثابرت عليها ، وبذلت في سبيلها الكثير ، ودرت لها فاحست التدبير ، حتى استمالت أكثر أهل البلاد المفتوحة ، وما بقي على مقاومته ، إما أن يشمر بأنه متروك ومتحلف وهاجر عن مسابقة الحيلة ، وإما أنه صاحب رسالة لا أنصار لها ولا أهوان ولا مستقبل

لقد فتحت عين على الدنيا ، قرأت كل ما هو مصري وعربي وشرقي يسحب ويذبل ويتوارى تاركا مكانه للبريطاني والفرنسي والطلهاني ، فتحن نلبس السلة الأجنبية ، ونشترها من عمال تحمل أسماء أجنبية صريحة مثل « موروم » ، أو « شيكوريل » ، أو « بلاتشي » أو « سلامندر » ، وكنا نحرم على أن يكون هذا ما من متجر إنجليزي اسمه « روبرت هير » وقمصانا من عمل إنجليزي آخر اسمه « دينر برايس » وكانت ملابسنا تحمل ملووها أسماء إنجليزية أو فرنسية فالسترة هي الجاكيت ، التي يقول عنها جاكيت ويقول عنها العوام « راکتة » ، والسرناويل هي « البطلون » ، وريطة الرقبة هي الكرافت ، وملابس السيدات كلها أجنبية فالصديرة هي « الشميريت » والقسم الأدنى من ملابس السيدات هي « الجونيفلا » بالإيطالية والمخمرات هي « الدانتيل » والشريط هو « الفيونكا » ، وما نركبه هو « الترمائ » والمحصل هو الكومساري أي الكوميسر . وأطعمنا كلها أو أكثرها تحمل أسماء أجنبية فالسلطة باليونانية أو الخاتوه بالفرنسية ، والصحيفة اليومية هي « الجرنال » والمخطاط يصل بالبوستة ، وما ستمعله في الانتقال والاتصال إما الواوور ، وإما التلفراف أو التليفون ، والشركة هي « الكوبانية »

والمنصع هو (الفايريقة) تصحيحا للفظ « فايريك » أو الورشة تصحيحا للفظ « ورك شوب » ، والآف من ألفاظ الحياة اليومية كالكلوت والقومندان والياسبور والقومسيون والفيرا والاستيالية والمروشة ، وهي ألفاظ تعبرى على السنة الأيمن والمتعلمين على السواء ومنهم من يفهم معناها ومنهم من يرددنها وهو لا يدري لها أصولا !

وأحاول أن أتذكر الذين كنت أعاملهم من الأجانب فاجدهم يتجوزون الحصر ، فالمصور الذى أحضر عنده الصور هو « بى إسباناكيلس » فى الحى و « رولا » فى وسط المدينة ، والحلوانى الذى يشتري منه الفطائر والحلويات هو جروى لولابلس أو تيبلس أو صولت لوليمونيا ، والعرد الذى يحصل منه على الرهف « الفينو » هو « فرن » كوستى « وهكذا .. وهكذا

والأجانب هم الرؤساء فى الشركات والمرافق العامة ، يتعلمهم ويصبرهم الإنجليز ، ثم يأتى بعدهم الفرنسيون والاطليان ، والبنجيكين ، ثم تأتى طبقة أصحاب من الأروام أو اليونانيى والبلغار ثم فئة تالئة من اليهود الأجانب فاليهود المصريون ثم اللسانيون والسوريون المسيحيون ، ثم يأتى المصريون ليمتلوا فى المؤسسات الأجنبية العامة والخاصة خدما بجلاليب وإن كانت جلالية من الصوف العالى . والألفاظ كلها فى التعامل مع هذه المؤسسات سواء كنت متعلما أو أميا ألفاظ أجنبية ، والأوراق والإيصالات والخطابات والإنذارات والعقود كلها بالفرنسية وأقلها بالإنجليزية . فقل أن يتاح لمصرى أن يقابل مديرا من مديرى هذه المؤسسات أو نائبه أو مساعد نائبه ، فالمصرى لا يتال إلا شرف التحدث إلى أجنبى يتوطن فى مصر ، يتكلم العربية بطلاقة ولكن بلكنة أجنبية واضحة . ولا يصل إلى شرف مقابلة الرؤساء الأجانب إلا الروراء الحاليون والسابقون والباشوات وأصحاب الضياع الواسعة والأموال الوفيرة !

وكل أجنبى يتقدم على كل مصرى أو عربى أو شرقى حتى الكلاب : فالكلب الرومى هو أحصل وأنظف وأقوى من الكلب المصرى ، لى اللندى ، والرومى هو عنوان على الأجنبى ، سواء كان بريطانيا أو فرنسا كالبولدوج أو الودف

والأعياد المصرية ، قاومت كثيرا ، بعصل روح الشعب فى الأحياء الوطنية وفى

الريف ، فاحتفظت بحجوبتها وبصحتها وخصالها الزاهية ، ولكن لم تنفع هذه المقاومة إلا قليلا فأصبح عيد رأس السنة والكريسماس ، هي الأعياد التي يشتم بها الجميع ويسهرون حتى الصباح ، واحتمت شيئا فشيئا للمأكولات المصرية الشهية والمشروبات البلدية الشهيرة ، والتقاليد المصرية الرائعة التي تقوى روح الجماعة ، وتجهد نشاط النفوس وإقبالها على الحياة . وحلت محلها تقاليد مهجسة ، انحطت « المنادر » من البيوت ، وما كانت تستقبله كل مساء ، من الأصطفاء وجران الحى ، للسمر الأدهى والاجتماعى ، وتوارت نهائيا الاحتفالات برؤية هلال رمضان ، وبوفاء النيل حتى قبل إقامة السد العالى بسنين طويلة ، ولم يعد لدينا شخصية ، وزحمت المعايير العربية الجاهلية الخالية من الروح على أحيائنا القديمة والجديدة معا .

وأصبح الخواجة هو المثل الأهل ، فهو الرجل الأمين العالم النظيف المنظم الكفء ، وكل ما يعمله صحيح وكل ما يقول به صواب ، وكل ما يشير به واجب ، كذلك أصبحت المرأة الأجنبية مثالا تحمله المرأة المصرية في اللبس والمظهر وأسلوب التفكير ، وأصبح الإنسان المصرى تقليدا ومحاكاة ، واحتفى الإنسان المصرى الأصل ، حتى حينما يفكر ، يفكر بمقل حيره ، وحينما يتلوق ، يستعير فوق سواه ، وبضبت موارد الابتكار والحلق ، ورالت أسباب الثقة بالنفس والاعتمادان إليها ، وتناقص دور المشايخ باختلاف طوائفهم وطبقاتهم !

وقد كانت الخسارة فادحة ، لأن الاستعمار الغربى لم يصل إلى هذه النتيجة إلا بعد عملية تدمير مادية وروحية استمرت قرنا من الزمان في دأب عجيب ، فالخواجة وقف على رأس المجتمع المصرى ، وقد تمثل الخواجة الأكبر في المنسوب السامى البريطانى ، فأصبح هو حاكم مصر الحقيقى ، بنى وبنى ، وبجيف الملك المصرى ، كما يجيف الورداء ويحريم ويحييم ، فالذى يتحدى إرادته ، أو يتجاهل وجوده - يفقد مستحله السياسى هو اللحظة ، وقد قالها صريجة اللورد كيلرن آخر الطغاة الإنجليز في مصر ، في رسائله السرية لوزير خارجية بريطانيا ، وكانت كل سفارة أجنبية تحنم بالاحتلال البريطانى من جهة ، وبالامتيازات الأجنبية من جهة أخرى ، فتمارس سلطانا غير شرعى خاصا في دولة تقيمها في مصر

وكان من آثار هذا السلطان غير الشرعى أن يكون في مقدور أى حاجب في أى

قنصلية أجنبية أن يعترض على حكم نهائي صادر من محكمة مصر ومتوج باسم رئيس البلاد .

ولقد زال هذا العدوان السافر بعد سقوط الملك والملكية وانسحاب الاحتلال البريطاني ، ولأسيا بعد تأميم قناة السويس ، وهزيمة الغرب الأوربي الكبرى بعد هذا التأميم .

ولست أنسى يوما رأيت فيه أستاذي المرحوم الدكتور محمد مصطفى القلي وقد تعلمنا على يديه قانون المعقوبات وتحقيقات الجنائيات في كلية الحقوق في الطريق ، فاستوقفني وهو جامع العينين ، وقال : ألم تر اليوم الصورة المنشورة في صدر الجرائد ؟ قلت له رأيتها ؛ قال : ألم تر في قصص الانعام أعضاء السفارة الفرنسية ، وهل مقربة منهم كبار المحامين الفرنسيين جامعا ليراقبوا المحاكمة وشهدوا ولا يتكلمون ، من كان يصدق أن هذا كان يمكن أن يحدث في مصر التي انتهكت استقلالها لتأصل الدول الصغيرة والحقيرة استمراره للحدود المسلوب منا بفضل الاحتلال ، ولم يكتف الأجسي بذلك فقد أقام لاستعمارهم الثقافي صروحا وقلاها في المدارس الأجنبية ، فكانت تعلم أولادنا وبناتنا كل شيء إلا تاريخنا وجغرافيا بلادنا ولغتنا وديننا ، ولم يكن في وسع وزير التربية المصري ، أن يقتحم هذه القلاع الآتمة ، ولكن حينما سقط الملك ، وزالت الملكية ، وانتهى الاحتلال أصبحت هذه المدارس ، مدارس لمصر ، تعلم لغتها ودينها وتاريخها وتدهو لأبجدها ، فلنذكر ذلك فإن سبانه من الجحود الذي يعاقب عليه الله العظيم ، ولم يفتح الأجسي بكل هذا الخراب الروحي فأقام لكل عشرة من الأجانب الذين يتمون إلى طائفة في دين محكمة تحكم في قضية هذه الطائفة ، ويكفي أن تختم هذه المحكمة الهزلية ورقة بحائتها لتكون حكما ، وليجس القضاة المصري والإرادة المصرية له ، ويتركه يسرح ويمرح . . هذه المحاكم المليئة أو المجالس المليئة كما كانوا يسمونها ، زالت بجرة قلم بعد أن سقطت الملكية والاحتلال ، وجهد الحواجة البغيض إلى غير رجعة ، فلنذكر ذلك أيضا ، ولا نسه ، فقد كان عدوانا صارحا ومهينا لاستقلال قضائنا وكرامة محاكمنا .

والمصارف الأجنبية التي كانت تنهب ثرواتنا ، ونحوها للخارج دون أن تستورد من الخارج مليا ، تلك المصارف التي علشت سين ترعم أنها غول اقتصادنا ، وتعين

تقدمنا المادى ، عادت إلينا ، بعد أن كنا لا مدخلها – كما قلنا – إلا فى شكل خدم
يلبسون الخلابيب والخواجات من حثالات الأمم يترأسون ولعمرون وينهون . .
ومن واجبا أن نحسن استعمالها ونجعلها أدوات حقا لا ادعاء للتنمية القومية .
انتهى عهد الخواجة البغيض . .

فلمحمد الله على ذلك ، ولتحدث به ، وتحدث عنه ، فإنه زاد للمستقبل
لا عى عنه لأنه لا يزال أماننا الكثير .

ولكن كيف تكون مصر ، بعد روال حكمه وطفائه ؟ ما صورتها الجديدة ؟
ومادا يكون فيها دور شيوخها الإمامجد ، وثقافتها التليدة ، وروحها التى قاومت
الزمن ؟

أستلأ لا يزال علينا أن نجيب عنها ولأسرع مما تصور ، وإلا سبنا الرمن ،
وتركنا حيارى !

أخواتي الثلاث (١)

لَوْ لَمْ يَمْنَحْنِي اللهُ لَوْلَاكَ الْأَخَوَاتِ الثَّلَاثَ ، وَجِهَيْنَ ، وَالْمَثَلَ الَّذِي خُسِرَتْهُ ،
لَكُنَّ بِمَكْنَأُ أَنْ تَشْكَلَ حَيَاتِي ، عَلَى صُورَةِ أُخْرَى .

وَحِبُّ الْأَخْتِ ، لِأَخِيهَا ، مِيرَاثٌ عَرَبِيٌّ مِصْرِيٌّ ، فَالْحُسْنَاءُ الَّتِي يَكْتُمُ أَسْرَارَهَا
« صَغِيرًا » فِي شَعْرِ بَيْضِ أُمِّي وَدُمُوعًا ، رَمَزَ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمِصْرِيَّةِ ، الْمِصْرِيَّةِ ، عَلَى
طُولِ التَّارِيخِ ، وَقَدْ كَتَبْتُ الْوَلَدَ الْوَحِيدَ ، وَكَتَبْتُ أَصْغَرَ الْأَوْلَادِ ، وَأَكْثَرَ أَفْرَادِ الْأُسْرَةِ
مَرْضًى ، وَقَدْ كَانَ فِي شَبِيهِ فِي فِرْعَاقٍ أُخَرَ مِنَ الْأُسْرَةِ ، فَقَدْ كَانَ ابْنُ عِفَالَةَ أُمِّي ، الْوَلَدَ
الْوَحِيدَ مَعَ ثَلَاثِ مِنَ الشَّقِيقَاتِ ، وَكَانَ رَجُلًا فَاضِلًا وَوِطْنِيًّا شَجَاعًا ، مِثْلَ بِلْدِهِ فِي
الْجُمُعَةِ النَّشْرِيَّةِ ، وَكَانَ مِنْ نَوَابِ الْحَرْبِ الْوِطْنِيِّ آنَئِذٍ ، وَأَبْتَنَتْ تَحْقِيقَاتُ لُحْيَةِ
السَّرْدَارِ « لِي سَتَاكْ بَاشَا » الْفَتَشِ الْعَامَ لِلجَيْشِ الْمِصْرِيِّ . أَنَّ قُرْبَ أُمِّي هَذَا كَانَ

عَوْنًا لِهَذِهِ الْجُمَاعَةِ الْوِطْنِيَّةِ الْيَاسِلَةِ ، الَّتِي تَصَدَّقَتْ لِلْمُحْتَظِينَ بِالْحَلِيدِ وَالنَّارِ ، فَتَنَلَّتْ
مِنْ خِصَابِ جَيْشِ الْإِحْتِلَالِ وَجُنُودِهِ وَمَوْطِقِيهِ حُدُودًا ضَعِيفَةً قَلِيلًا ، فَكَانَ يَسْطِيهَا
السَّلَاحُ . وَنَقَلَ أَفْرَادَهَا بِمِرَّتِهِ ، وَقَدْ تَضَامَنَ فِي هَذَا الْعَمَلِ السَّرِيُّ الْبَاهِرُ ، مَعَ
مُجَاهِدٍ وَطْنِيٍّ عَظِيمٍ هُوَ الْمَرْحُومُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ الصُّوْلَمَانِ ، وَقَدْ أَصْدَرَتْ لِنَهَابَةِ أَمْرٍ
بِالْقَبِيضِ عَلَى كَثِيرِيهَا ، وَكَانَ مِنْ خِرَافَتِ الْمَصَادِفَاتِ أَنَّ كَلَامَهَا جَاءَتْ قَبْلَ أَنْ يَتَفَقَّ عَلَيْهِ
هَذَا الْأَمْرُ . وَقَدْ بَلَغَ مِنْ حُبِّ النَّاسِ لَهُ أَنَّهُ اسْقَطَ فِي أَوَّلِ انْتِخَابَاتِ سَنَةِ ١٩٢٤
فَكَرَى أَبَاطِلَةَ الْكَاتِبِ وَالْمُخَطِّيبِ وَالْمُحَلِّصِ فِي خَاتَرَةِ بَلِيْسٍ .

وقد كنت صبياً صغيراً عندما سمعت بوفاة هذا القريب الوطنى عمر بك مراد وهذا اسمه ، ورأيت من دلائل حزن أخوته عليه ، كأنه الأب ، والابن والزوج فى آن واحد ، ماجملنى أدرك وأنا بعد فى مطالع الحياة ، كيف تحب المرأة المصرية أحاما ، وقد سرى أن أكون شبيهاً بمجاهد وطى مكر لدائه ، كاره للشهرة ، مستهدف للخطر ، فى صمت عميق ووقور ، وبقت أذكر ليلة ، من ليالى رمضان ، صحبى فيها هذا القريب العظيم إلى منزل عبد اللطيف الصوفانى ، فى الحلمية ، فقد لشنا فى قاعة الصيوف ، حتى أحدى الصوفات فريضة العشاء ، ثم دخل علينا ، فى جبهته وقطانته وعملته نأخذ العين ، تقاطيع وجهه الضخمة ، واحمرار بشرته الشديد ، وثقت نفسه ، ولما رأيته بعد ذلك ، فى مجلس النواب ، يجادل « سعد زعول » استولى على لون من الهيجة والاعتزاز ، حتى حيل إلى أن من حقى أن أهمل لمن كان معى من زوار المجلس فى الشرفة المظلة على قاعته ، أن أعرف هذا الرجل العظيم .

وقد أبى القدر إلا أن يكون أزواج أخوان الثلاث ، أصدقائه ، لا مجرد أصهار ، وأن يكون اثنين منهم من المدرسة الوطنية التى أنتمى إليها ، وأن نشأ الصداقة بينى وبين أكبرهم ، وهو زوج أختى الكبرى ، والفارق فى السن بينى وبينه ، يكاد يكون ربع قرن من الزمان ومع ذلك استطعا أن يتبادل الأحاديث ، وأن تتقارب أمزجتنا ، حتى يزول عرق السن ، فلا يعود أحد منا يذكره .

ولما كان أبى مهتماً للرى كثير الغياب عن بيته لمرط حبه لعله من جهة ، ولأن والدنى أثرت أن تعيش فى القاهرة تتعلم فى مدارسها ونشأ فى أحيائها ، على أن يصبح والدنى فى مراكز الصيد التى تنقل بينها من الجيرة إلى موهاج مركزاً مركزاً فقد كنت بمثل الأسرة ، ورجلها حينما خطت أختى الكبرى إلى زوجها ، وهذا مسحق قدراً مكرراً من الثقة بالنفس أعاننى على أن أنتظر إلى نفسى ، على الرغم من شدة ميل للحركة والركض والقفز وكرة القدم والملاكمة كفى رجل ، دون اصطلاح الرفار ، أو اندماء المكثنة .

أما زوج أختى الوسطى ، فقد تقدم لخطبتها وأنا تلميذ فى مدرسة أسيوط الثانوية أشرف على تحرير مجلتها التى كانت آنذاك أولى مجلات للدارس الثانوية ، فى

ريف مصر وصعيدا معا ، وقد نسجت في تحريرها وتبويبها على موال صحيفة
المدرسة الخديوية في القاهرة التي كانت زعيمة المدارس الثانوية في الرياضة والعمون .
ولذا في أظفر في شخص هذا الصهر الجليلي يصدق يختلف في كل شيء ، وعن روج
أختي الكبيرة .

فقد كان أولها رجلاً جليلاً رصيناً ، لا يكف عن القراءة ، حصل على شهادة
البكالوريا مرتين ، واحدة للقسم الأدبي وأخرى للقسم العلمي ، وحصل على
الليسانس مرتين ، مرة من مدرسة الحقوق ، وأخرى من مدرسة المعلمين العليا ، في
حين كان الثاني طفلاً مرحاً ، لا يستقر في مكان ، صاحب صوت جميل ، ولكنه
لا يتم أخته ، بضحك من أعماق قلبه ، ويحب أهله وذوي قرابته ، وأصدقائه ،
ولا يطيق استماع كلام أحد إلى آخره ، وهو لا يروي لأحد قصة كاملة وإنما يتنقل
من شيء إلى آخر ، ومن بيا إلى خبر ، ومع ذلك يجب مهنة المحاماة التي كانت مهنة
ويحيط بقضاياها ، من قراءة سريعة حافظة ويتراجع في طلاقة دون جهد ولا عنه .
يكتب بحسب جبل مقروء كلاماً حسناً يطلعه على مسجته ثم لا يكرهه هم ولا يشغله
الغد ولا تهمه الشئون العامة في قليل لو كثير .

وكان إذا جاء يوم الخميس من مدينة طهطا حيث كان يمارس عمله انتزعى من
كتبي . ولو كنت على أبواب الامتحان ، لا يمه أن أنجح أو أسقط ، وأهرب منه
ولا يكف من التماسي في كل مكان حتى يجلس . وقد أوشكت فعلاً أن أسقط في
متاح شهادة الكفاءة وهي تسليو الآن شهادة الإعدادية ، لانشغالي طول السنة
بمجلة المدرسة وجمعية الخطابة فيها ، ولانشغالي في الأسابيع الأخيرة من السنة ،
بصهرى الحرير ، وصور مرحة التي تنسى الإنسان همومه ووساوسه ، وتنزعها من
مخاومه وهو واجهه .

أما أختي الصغيرة ، فقد كان زوجها قريباً لي من جهة ومن جهة أخرى زميلاً لي
في مصر الفتاة وفي الحرب الوطني ، وكان نموذجاً يحالف عديليه ؛ فقد كان سليل
باشوات ، عن طريق أمه وأبيه : جده الأعلى ناشا ، وجداه ظهر كل منهما بالباشوية
في المهود الخديوية ، وتركنا لأسرتها وبناتها آلاف الأفندة . في عشرات العرب
والصباغ في أكثر من محافظة ، ولكنه خرج من هذه الألقاب ، وتلك الثروات فلاحاً

بسيطاً ، غنيا بمواهب لا عدا لها ، فقد كان مصوراً باليد والقوتفرافية ، نجاراً مخرج من تحت يده قطع الأثاث الفاخر ، صياداً بصطاد الطائر الملحق في أجواز السماء ، وهو يحمل بندقيته بيد واحدة ثم يصف عشرات الزجاجات فيصيب أعضائها الواحدة إثر الأخرى بقذائف بندقيته لا يحطىء واحدة منها ، ثم هو محال لا يجاريه في العلم بالانحل ، بالفطالعة والتجربة محال معترف آخر ، ثم هو عالم بالرواية العلمية ، وهو آخر الأمر ، صامت متواضع يجلس بين الناس يستمع إلى أقلهم علماً ، وكأنه لا يعرف في الحيلة شيئاً ، يحب بلده ، إلى درجة العبادة في حرب السويس ، حينها صار الإنجليز على مقربة من الإسماعيلية ، أخذ أولاده وهدداً من الملاحين ، وريض ومعه بندقيته ، تاركاً أرضه وزراعاته ، فقد كانت عزته في طريق الإنجليز من بورسعيد إلى القاهرة .

وقد يتعرض متعرض فيقول هل الحديث عن أحوالك أو عن أرواحهم ؟ والجواب حاصر ، فقد كانت علاقتي هؤلاء الرجال ، صدى لصلى بزجاتهم ، وأنى أتذكر نفسى عن سجيبتها في هذه الذكريات ، لا ألزمها خطأ حازماً ، وإلا فقدت نفاستها ومساقتها ، وأصبحت بحثاً أدبياً ، لا صورة نفسية ، نصي ، يعيش في بساطة السنوات الأولى ، بغير تكلف أو اصطناع . .

وقد جرى في دم أحوالي الثلاث ، حب بلادهم والاشتغال المقيم المعقد مشيتهم العامة ، فقد ورش ذلك عن أمهم ، وبقي هذا الهوى معهم حتى توفي الله كبراهن وصغراهم ، ولكيلا تحسب أن ما أقوله عنهم ، من قبيل تعصب الأخ لأخوانه ، فإنى سأروى لك شيئاً من آخر ذكرياتي عن آخر أيام أختي الكبرى التي اختارها الله لحواره ، مد عام وبعض العام فقد أصابها حلة القلب . وكان يعودها ، طيب قلب شاب داعت شهرته ، وأعتى به الدكتور حمدي السيد ، فقد أحبرق صديقي المستشار إبراهيم حسين حلمي أنه سمع من الدكتور حمدي ذاته وصفاً لدهشته لما كانت تبديه أختي ، وهي تعالج سكرات الموت ، من المحرص على التعلين على شئون مصر وما يجري فيها ، كأنها في أتم صحتها وكان العمر محدود أمامها . ولقد كان من أولادها من حرق في السياسة إلى أذنيه ، واختار بين دروب العمل العام وسبله ، أشدها خطراً وأكثرها اتصالاً بالسجون والمعتلات ، وبقيت أختي حريصة على أداء واجبها نحوه ، لا تشكر ولا تململ ، ولا تحاول أن تني عزمه

ولا أن تطلب منه الرأفة بها أو التخفيف عليها . بل إنها لم تلجأ إلى ، وابنها يرج به إلى السجون والليمانات وينفى إلى أقصى الأرض ، وربما كان في وسعي ، أن أحضه عنه ، ولست أنسى يوماً كنت متجهاً بسيارة الدولة إلى عمل في حلوان فمررت في طريقى إليها ، بليمان طرة ، وإذا بشقيق هذه - نعمة الله بواسع رحمته وأمسكها فسيح جنته - على باب الليمان وفي يدها حقيبة ، لابد أنها كانت تحوى ملابس ابنها السجين ، ولمحتها في هذه الحال ، والسيارة تمرق كالسهم ، فصدرت عني أنه ، هزت نفسى هرا ، فالتفت إلى سائق السيارة وقد غشى أن يكون قد أصابني مكروه فتجللت وتماسكت ، وفي عيني دموع ، وقلت متصفاً : « مرونا بمدافن هنا ، فذكرت عزيزاً ، لحظه بها . . » فمر السائق الحاج عبد العزيز حبيب رأسه متظاهراً بالتصديق ، والطريف أن سائقى هذا كان من أنصار الحزب الوطنى عرفته في اجتماعات الحزب ، منذ ترددت على ناديه ، وأنا بعد طالب في الجامعة ، ثم عرفت أنه اعتقل ، في عيون موسى ، فترة من الزمن غير قصيرة لجرد أنه زار منزل المرحوم حسن البنا ، ليجزى دوى قرابته في وفاته .

وقد أصابت أخفى الكبرى الحمى الروماتيزمية وهى بعد طفلة ، وحيث يومئذ على حياتها ، فقد كانت تصل هذه الحمى الملغومة إلى قلب أخفى ، فلما تزوجت كان والداها مشغوبين عليها عابة الإشفاق من الحمل والوصع وتربية الأولاد ، وما يقتضيه كل هذا من سهر وجهه ، ولكن مصت حياتها الروجية ، ميسرة ، وكان أولادها حيناً أصحابه البدن ، والأعصاب . ولم أسمع طوال عمرها أنها شكت حتى من ركام ، فالمرص الوحيد الذى عانت منه ، هو المرص الأخير ، أو قل هو المرص الأول ، الذى اتصل بالوفاة ، وقد واجهت الموت ، كما فعلت أختها الصغرى ، والوالدها قبل أختها في شجاعة وعدم اكتراث إلى حد أنها كانت تمارح طبيها ، وهو يكتب لدواء ، ويشرح سبل العلاج قائلة : « وفيه هذا الجهد كله ، ولا بدع مني لأحد ، وقد بليت أعصاى حتى مات كل منها في حاجة إلى ترميم وترقيع ! » ولعل لم أعرف في حياتى إنساناً رجلاً كان أو امرأة ، في مثل صفاء طبع ، وسلامة مراج أخفى الكبيره ، فقد مصت سوات حياتها متصلة دون أن أراها ، ولو للحظة عاصه من شئ - أو من شخص - ولم أسمع طوال هذه الحياة ، منها لفظة واحدة ، تخرج أوتسى .

وعلى الرغم من وداعتها ، وسعة صدرها لم تعرف التردد ، ولم يطف بها طائف من صعب ، في أحلك الساعات فقد كنت معها حينما ماتت أمي ، وحينما مات أبي ، وحينما فارقتنا أختنا الصغرى بعد مرض وبيل هو بين الأمراض أشدها قسوة ، وأدفعها إلّا ، ثم رأيتها حينما فقدت زوجها ، فكانت دائماً هي هي ، ثابتة الجنان ، هادئة النفس ، لا يخالها اضطراب ، ولا تند عنها صرخة ، ولو حافت ، وفي قلبها من الحزن ما فيه .

ولقد تعلمت أخفى في سنى حياتها للبكرة بفرع مدرسة « فكتوريا » في مدينة الميا ، حينما كان يعمل أبي فيها مهتماً للرى . ثم تلقت نصيماً أكبر في مدارس القاهرة ، ولكنها لم تواصل تعليمها ، وتولت تنقيف مصفا ، وفي تلك السنين المبكرة ، تلقت بعض دروس في « الليتو » ولكنها انقطعت عن هذه الدروس وإن بقيت في شوق دائم إلى معادتها واستلها ، إنها لم تكن تقع في حيرة لفترة ، أو يرشد دهنها لبس من الأميات حتى ترى أصابعها تؤدي دوراً من أحوار البيان القديمة على ظاهر يديها ، أو على عتبة الكبريت أو على المنضدة التي تقف أمامها ، وقد كنا نمارحها ومداعبها بسبب هذه اللازمة التي لا نمارقها ، وفي ذات يوم ، أصبحت وأنا تلميذة في المدرسة الثانوية مجلة « عائلية » كان من بين أبوابها باب « في المرأة » وكانت هي موضوع هذا الباب ، في العدد الأول فصورتها في بقلبي الساج ، وداعبتها ما شاء لي أسلوبي الصبيان من الدهابة لأحوارها الموسيقية التي تعرف في الهواء ولغير جمهور ، وبلا (نوتة) .

وكان العارقي في السرى وبينها وأنا صبي قد جعل علاقتي بها خالية من الأزمات الحادة التي انتابت علاقتي بأخوتي « اللتين تصفرا نيا » ولكن حدث أن صابقتها يوماً ، فربطتني إلى عمود السرير ، لتعيد حركتي ، التي لم تكن تهدأ قط ، وبقيت زمناً طويلاً لا أحسها من حضي لهذا المقام المهين الذي لم يمرر عليه أحد غيرها ، ولما كانت جدتاً لأما سيدة قصيرة ، فقد حسيت أن مصير السيدات حين يكبرن أن تقصر قامتهن ، فتوعدنها بأن حبها أكبر ، وتقصر ساعاقبها بمثل ما عوقبت به ، وتناولت الألسن في الأسرة هذا التهديد الصبيان ، حتى إذا زفت أخفى إلى روحها ، وقد ليست ثوب العرس وحلست إلى جانب عريسها لاختفى ، فاديت بها فقالت وهي تضحك : « أمصر أنت على أن تتلر لنسك ، لم أنك

سأحتي ! . وعرفت يومها أنها « دبلوماسية » صوفوية ، فقد أحسنت اختيار اللحظة . هي المناسبات السعيدة ، تصدر الدولة قرارات العفو عن المذنبين ، فقلت ودموع العرح ، تساق على حصى . « لقد عفوت عنك ، ولا فصل لي ، فقد علمت أنك لن تقصرى مهما كبرت » فضحكت وقالت . « لقد خطعوك ! . »

ولقد عرفت الأبوة قبل أن أتزوج وأرزق الأولاد ؛ فقد كان أولاد أختي بمثابة أولادي ، أحسنهم ، وقد كان أكبرهم ، يقضى معنا ، ولا سيما في فترة الأجازات وقتاً غير قصير ، ولا أنسى أن قضيت في صيف إحدى السنوات ، شهراً في الإسكندرية ، وكانت مبدئ بشر ، مصيفاً بدائياً ، أقيمت فيه عشاء شبيهة بعشاء رأس البر ، وإن لم تكن من البوص المعروف « بالكباب » . مصحبت أكبر أولاد أختي إلى هذا المصيف ، واشترت له قرعتين من القرع الإسطمبولي لتحملاه فوق سطح الماء ، وانتظر إخوته أن تأتي عليهم بوية السم إلى الإسكندرية فلما طال الانتظار حشوا الأبناحم حظ السفر هفروا أن يؤدوا الصلوات الخمس ، ليدعوا في أعقاب كل صلاة أن تصلهم الدهوة المرجوة وكان أحدهم لا يعرف من الصلاة إلا حركاتها الظاهرة من ركوع وسجود فكانت صلاته دعاء واحداً وبسيطاً ومكرراً . يارب أسافر إلى الإسكندرية . ثم يركع ، يارب أسافر إلى الإسكندرية ، ثم يسجد . فلما لم يستجب لدعائه لم يصل بعد ذلك .

أما أختي الوسطى فقد كانت رائدة السياسة في عائلتنا ؛ فقد كانت تلميذة في المدرسة النسبية ، وكانت هذه المدرسة في فترة اندلاع ثورة ١٩١٩ ، هي كبرى مدارس البسات الحكومية ، وقد كانت أختي أولى بنات فصلها ، فلما قامت الثورة ، كبر عليها أن يكون دور رعيمة المدارس ، دور المتخرج بصحبة أنها مدرسة بنات ، فوفقت بين رميلاتها ، وخطبت فيهن ، خطبة ، تدعو إلى الجهاد ، وكانت تحفظ من شعر حافظ إبراهيم الوطني ، ومن الأناشيد . ماضته حطتها ، فلما بين رميلاتها خطبة لا يشق لها غبار ، ونجحت دعوتها ؛ واقتحمت الغنيمات وراء زعيمتهن باب المدرسة وأرحس من طريقهن النظرة الإنجليزية الحارمة « من كارتو » وانطلقن إلى الطريق العام يتغنن بالعربية والإنجليزية معاً ، لمصر وللاستقلال التام ، ويسقط الاحتلال والإنجليز .

كيف جعلت هذه الرعيمة التي لم تر مظاهرة ، ولم تر خطياً ولا خطية ؟ وكيف أطاعتها جموع تلميذات المدرسة ؟ وكيف لم تخش هذه الجموع الساطرة التي كان كلامها قانوناً ، وصوتها مرموياً وشخصها مخوفاً ؟

إن ذلك كله وحى الفطرة الإنسانية .

وحى المعطرة الإنسانية السليمة بلا شك .

وطردت أخفى الرعيمة من المدرسة ، فقيت أيلماً في المنزل ، ننظر إليها وننظر إليها زميلاتنا ، وجيراننا ، باعتبارها شخصية سياسية ، تمنع الإعجاب ، وتشبه - في محيط الأسرة - الرعياء الذين نفوا إلى مملكة في محيط الأمة

ولكن الإنجليز ، قوم مربوا على ملائمة الشعوب حين ثور ، لا ليعطوا الشعوب ما نطلب ، بل ليستديروا حول الحركة الوطنية الثائرة الهائجة بحثاً عن نقطة ضعف فيها ، فيعدّلوا إلى صميمها ويصربوا الثوار بعضهم ببعض ، ولأن أكثر الحركات التي تقوم في البلاد التي طال ههنا بالاحتلال يحرف التيار الوطني الضعيف المتدفق في وجهه بعض الذين لا يؤمنون بالحركات الوطنية ، ويعسبون جنوباً مدمراً ، واندفاعاً ونعيم العواقب ، وهؤلاء يستجيبون لمرجات المحتلين ، ولا يلبثون حتى يتقلبوا على الحركة ، فتقع في صفورها الفرقة .

وحرباً على هذا الأسلوب هفت السلطة عن الطلاب والطالبات الثائرين والناترات وأعدوهم إلى المدارس مقابل وعد شعوي من ولي الأمر ومن التلميذ بالآثار في الاضطرابات مرة أخرى وقد علقت أخفى كغيرها ولكن المظاهرات اجتاحت مصر مرة أخرى ولم تستطع أخفى الرعيمة أن ترى أمواج البحر تدعوها ، إلى إلقاء نفسها في صابه ، ثم تمع نفسها من ثلية الدعوة ، فما لبثت أن رأت نفسها على رأس تلميذات المدرسة ، وإذا بالشعر يتدفق حل لسانها ، وإذا هي حطية تثير الحماسة ، ثم تندفع إلى باب المدرسة العتيق والثقيل ، فيفتح ، وتجري ناطرة المدرسة وراءها وتمسك بشوفا من أصلاء عبد ظهرها ، وتقول لها بالإيجلرية . « تذكرى وعدك » فتدرد عليها أخفى وهي في أصلى درجات الحماسة : « وطى قبل وعدى » . وتتلقف البنات هذه الكلمة وكأنها قول ماثور

فيصحن : « وطني قبل وعني » وربما أقامت عليها اللوحة وحيا فقال : « لا وعد
لني لا عهد له . لا عهد مع أعداء الوطن » .

وعلمت أخفى مرة أخرى إلى البيت ، وقد زاد قدرها كزعيمه ، حتى هدأت
الثورة وقبض على مؤجج نارها ، ومنظم ثوارها عبد الرحمن فهمي ، ثم سبق إلى
المحكمة العسكرية البريطانية وأطلق سراح الزعماء الباشوات الذين قصوا في ملطقة
شهرأ واحداً ثم ذهبوا إلى لوريا ، حيث أقاموا في أكبر فنادق بلوس ولندن يملأون
مئثر ، ويمثله عمير كملين ، وانقسم للمصريون إلى سملين وعلمين . وقيل عن
الأوائل مطرطون وقيل عن الأولمتر معتقلون ، ولم يتخض على هذا الخلاف ،
إلا عامان حتى عاد الجميع في عهد الائتلاف يملأون ويكون على رأس المفاوضين
معتدل ، هو عبد الخالق ثروت ، في حين أن الأغلبية رفضت منذ ستين فقط أن
يفلأوس الإنجليز هذا للمعتدل نفسه . ضاعت الثورة وعدأت الأمور وبدأت لعبة
الكراسي في الانتحابات والموزلوات ، ثم استمرت نحو ثلاثين عاماً . لا يصيب
صدور الإنجليز خلاها من مصاصي الوطنيين ، إلا ما صوبه تلاميذ الحرب الوطني .
الصوفاني والدكتور شميص منصور ، حتى إذا ما أهدت هذه الكتيبة المقاتلة ، تلف
العلم منها ، شباب الحرب الوطني الجليل حتى قامت ثورة سنة ١٩٥٢ .

ولكن بعد أن وصلت أمتي إلى مرتبة الرعامة أصبحت في البيت مجرد شقيقة
لصبي : ودل استغل فيها أعظم فضائلها . فصيلة الحياء وراح يطردوها ، ما تقول
شيئاً ، ولا تصدر عنها حركة ، أو تمشي في المنزل ألقى الطريق ، مجرد المشي الذي
يلامس كل للناس ، إلا سفر منها ، بالقول والإشارة ، فإذا فعلت ذلك ، حرت
أشد الحزن ، وصاقت في وجهها الدنيا ، وأنا لو اصل هذا العمل الشيطاني الضيق
ولم يدر بجلدي يومها أن أفكر . لهذا أوجه هذا العدول لأحق التي تكبري مباشرة ،
أو التي تكبري جيماً ، والعادة بين أبناء الأسرة الواحدة ، أن يكون ما يسمى
« بالنفار » على أشده بين من كانوا « فوق رأس بعض » أي الذي يتابع ترتيبهم بين
الأبناء ذكوراً كانوا أو إناثاً ، ولكن حينها كبرت لمركت تفسير فلنك ، فأحق الكبيرة
تزوجت قبل أن أشب تملأ عن الطوق مخرجت من حلة المنافسة ، وأحق التي
تكبري مباشرة ، كانت سريعة الغضب ، نشيطه اللسان ، ميالة إلى العف ،
وكانت الرفيقة الوحيدة المتلحة أمامي لتؤنس طمولتي وصباي ، ولذلك فقد
سيرة ذكوية . ٣٨٥

اصطورت أن أعقد معها محادثة عدم اعتناء لأنجو من بطش يدها ولسانها ، ثم أصبحت المعاهدة معاهدة حسن جوار ثم استحوّلت إلى معاهدة حماية وتبعية فلم يبق أمام ميولي العدوانية ، التي ثبت أنها جرم من كل نفس ، ومن نفس كل صبي على وجه خاص ولاسيما من كان مثل في صلي كثير المرض ، شلبد الحساسية ، نتائج الحزائل ، مشمولاً بالتلذليل للمسرف حيناً وبالتأديب للمسرف حيناً آخر ، ولكن حينما تقدم في العمر ، عرفت أن أحتق فوق كونها عظمة العقل ، سريعة الخط . مثالية المسلك ، فنانة ترسم بالقلم والفرص ، الشخصيات رسماً أنيقاً ، ولكم ودعت أن تجد من أبيها ، وهو مهنئس عنابة بموهبتها ، ولو واتاهها هذا الخط ،

لكانت حساسيتها المفرطة ، وعصبيتها الشديدة ، مودعين لا ينضب ، لفنانة ، تزداد على الأقل نضجاً ، وقد عرفت شيئاً من هوة الرسم ، فسألت عن شيء يثبت الصور المعجمة ، ومازلت لأذكر أنه أرشدني إلى مادة اسمها العكسيف ، عرفت فيها بعد أنها الترجمة الحرفية لكلمة مثبت . وقد عقدت العزم ، هل أن أشتريها لأحتق ، ولكني لم أصل ، وفي ساعات المصفاة ، كانت أحتق ترسم لي خرائط الجغرافيا ، وما يطلب مني من واجبات الرسم ، فكانت كرامة الخرائط الخاصة بي متحفاً ، يخرج عليه الزملاء ، ويقطعها مدرس الجغرافيا مباهاها بها عند مقتش الجغرافيا حين يمر على صلي ، أما كرامة الرسم ، فقد كانت ملتقى للتناقض ، فيها أوسمه في حجرة الدرس ، لا يمكن تبير حقيقته ، فإذا طلب ما أن يرسم قلة أو وردة ، أو تفاحة ، اختلطت الأمور على الراي . فلم يعد يعرف هل رسمت حيواناً أو فاكهة أو نحلة ؟ فإذا طلب ما أن ترسم شيئاً في المنزل ، وصعت الكرامة تحت نظر أحتق ، وأحسنت علاقتي بها ، وجبت لساني عن التقذ اللادع ، وصبغت تقاطيع وجهي عن أن تمر عن « الشقلوة » و « المعرنة » وظفرت بلوحة ممشاة ، والعجيب أن مدرس الرسم ، لم يستوقمه الملقوق الرهيب يني رسم يصل إلى أقصى الضاية في الإتقان ، ورسم خط إلى الحصبص في السوء ولعله اعتبروني فناناً ذا نزوات ، تصفو نفسي ، ويستجم حيالي ، فأتلقي الوحي صلياً ثم تصصف أعصابي ، ويتمكر مراجعي ، فأنتج أسوأ ما أخرجه ريشات المانين وأقلامهم .

وحدثت ذات يوم وأنا نلميذ في أسيوط الثانوية أن طلب منا مدرس الرسم - وكان من تعلموا الفن في إنجلترا ، وهو المرحوم عبد الحميد القوال - أن ترسم شيئاً

عما كنا نرسمه في تلك الأيام ، وفي الأغلب كان زيراً فوق حافلة . وكانت علاقتي
 بأختي مقطوعة آنذاك ولم تنفع المحاولات الدبلوماسية لحسبها فاعتمدت على
 نفسي ، ورسمت كالمادة بالطريقة « الإسرائيلية » قبل أن تغزو هذه الطريقة
 بلادنا . . وضحك المدرس بهذا العبث ولم يكن يدري أن العبث سيصبح فناً قائماً بذاته
 تحق له الرموس ، وتتسابق في حلته المواعب ، فالوقع به عقاباً صارماً ، لم يثنني
 مثله في سنى الدراسة ، فقد حسنى منه أيام متوالية . كنت أبقي خلالها في المدرسة
 بعد أن ينصرف زملائي . ولما كنت في تلك الفترة من لاعبي الكرة - فيما يسمى
 « السكندتهم » أي الفريق الثنائي أو الاحتياطي ، فقد كنت أقصى فترة الحبس
 لاحقاً ، وربما سجلت انتصاراً ، بإصابة الهدف ، أتلقى بعده للنتهى والتصفيق ،
 وأخضبت على أختي ثمناً أنها أحسست الانتقام لنفسها ، حتى مضت السوات ، ولم
 بعد لهذا الإخلاء معي ، فأطلعتها على الحقيقة فاثرت لي أبهى التأثير ، ولامتني إذ
 أخبرتها بما نالني من وراء عدم فعلوها معي .

ومضت الأيام ، وتلقيت من محكمة جنايات القاهرة ، خطاباً يبحرني ليه القلم
 الجنائي أني نذبت لأثرافع من جزار قتل مفتش تموين بقسم مصر الجديدة ،
 وتصفحت على جعل اسم القاتل ولهم القتل ، لمعلمت أن الجزار القاتل هو والد
 فتانة كانت في بداية شهرتها عند وقوع الحادثة اسمها الفنى و أميرة أمير ، وأن القتل
 هو مدرس الرسم الذى قسا على - مع أنه فتان - لمجرد أن كنت من طلابه رواد
 السريالية في مصر . . فقد نذبت ودارة التموين من وزارة التعليم فأصبح مفتش
 تموين قسم مصر الجديدة .

هذهبت إلى رئيس محكمة الجنائيات وطلبت منه إعصالي من النذب لأن
 لا أستطيع أن أثرافع عني قتل أستاذي ، ولو كان هذا الأستاذ قد أنزل بي أشد
 العقاب بحكم أن « سريالي » قبل الأوان ، وقبل رئيس المحكمة اعتذارى .

أخواتي الثلاث (٢)

قال الشيخ الذي نروي ذكريات صباه :

لما تزوجت أختي الوسطى شعرت أنا وأختي الصغرى ، بعراغ عظيم ، فقد كنا نؤلف نحن الثلاثة أسرة صغيرة ، وكنت قد انتهيت تقريباً من فترة « المكابدة » الشيطانية ، التي لقيت فيها أختنا الوسطى ، على يدي ، آلاماً مبرحة ، أسأل الله أن يعفوني عما استحقته منها من عقاب وعذاب .

ولكن لا يعني هذا أن مضايقات الممجوجة قد انتهت تماماً ، فقد دخلت ونحن في أسبوط الثانوية مرحلة الاهتمام بالأدب وأنا آنذاك على رأس مجلة المدرسة وقد تلاحقت بدر أو مشائر اهتماماتي الأدبية والعنية ، وما يصلحها عند الصبيان ، من خروج على مألوف الناس ، في السير والحركة ، والعلاقة بالناس ، والانفعال بهم .

وقد كانت أولى ثمار هذه المرحلة الضجة ، التي لم يصقلها نضج ولا عمق ، أن وصفت مسرحية كاملة بعنوان « يوسف بلانكت الجميل » وكتبتها بخط مقروء .

وعمل وجهه من التنسيق والترتيب ، لم أعرفه من بعد ، فخطئ كلياً تقدم بي العمر ، راد سوءاً ، وأصبح من قبيل الألفاظ التي لا تحمل ، والرموز التي لا تفهم ، كما أصبح كل ما أكتبه ، صرباً من النشاط العصبي ، الناجم عن نفاد الصبر ، وشدة القلق ، والرهعة التي لا تكبح ولا تضبط ، في سرعة الإفضاء بما في النفس وما يجري على

الخاطر ، فإذا هدأت ، وبجيت ماكنت حياً ، وكأني بينة تماماً ، عدت إليه ، وكأني انجزع دواه مرا ، لا يساع ، فلعويت عليه بالقلم سطاً وحدها ، وقلبا ، حتى تخرج الورقة من تحت يدي ، مشحنة ، وكان عدواً لثوداً أهوى عليها ، بحجر ثمرباً ، وغرباً ، حتى لفطت الأنفاس ، وفارقت الحياة ، نشعت من جديد ، حلقاً آخر ، بعد حين يطول أو يقصر ..

فيما بال مسرحية يوسف بلانكت الجميل ، قد نجت من عمليات المحاص والولادة العسرة فخرجت في سطور متتالية متساقطة بلا حذف ولا إضافة ، ولا شطب ، ولا مسح ، ولا تعيير ولا تعديل ، وما بال الكلام ، متصلاً . مفهومأ خالياً من الاضطراب والقلق ..

وفكرة مسرحية يوسف بلانكت ، صغيرة لست أدرى من أين استقيتها ، وإن كان أغلب الظن عندي ، أن وقعت عليها في صحيفة أدبية ، تروى حادثة حياة هذا الشاعر الأيرلندي الذي أحبته لا لشعره لأن لم أقرأه ، ولا لشيء من مناض حياته ، لأن لم أنف عليها ، بل لهذه الحادثة الرائعة التي قرأت حكايتها في الجريدة أو المنحلة . ثم لا أيرلنديته ، أي لكونه من « إيرلندا » .

وقد كنت وقعت في غرام مصطفى كمال ، وأنا بعد تلميذ في المدرسة الابتدائية ، وكلما قرأت له شيئاً ، لو سمعت عنه ما ، أو رأيت له صورة أحسنت هذا الغرام ، يقوى ويستشري ويتحول مع الأيام ، هوى مبرحاً ، لا غراماً لفكرة ، ولا هياماً بمبدأ ، فقد تجسد لي جبا للوطن ، وصورة من لحم ودم ، للفضائل الإنسانية ، وحل رأسها التضحية ، وإنكار الذات والصناء في العقيدة

ثم بدأت في المدرسة الثانوية أقرأ فصولاً متفرقة للكاتب والمترجم العظيم حسن الشريفة ، في مجلة الهلال ، عن الكمنح الأيرلندي وأبطاله ، « إيمون ديفاليرا » ، و« مايكل كولر » و« ارثر حريث » ، فهذا لي هؤلاء الأبطال ، وأصواتهم وثلاميدهم وأتاعهم ، في حروبهم المسلحة ضد البريطانيين والحكم البريطان الاتم الظالم ، امتداداً لحركة الغدائين المصريين ، تلاميذ مصطفى وفريد وشوش والصوفان ، من أمثال إبراهيم الوردان ، وشفيق منصور ، وعبد الحميد عايت ،

والعامل العظيم « إبراهيم موسى » والحاج أحمد جاد الله ، ثم المجهولين أضراب محمد خليل « من المنصورة » ، ونظير و محمد فهمي علي « اللذين شققا دون دمة تسفك على قبرهما ، ولا كلمة وفاء .

ولما كانت الفصول التي ترجمها حسن الشريف ، لا تروى تاريخياً كاملاً للحركة الوطنية الأيرلندية ، فقد كانت هناك ثغرات ، لا يملؤها إلا الخيال ، وقد توليت بالفعل ملء هذه الثغرات ، واستطعت بعد ذلك أن أخلق مسرحية من ثلاثة فصول ، من القطعة التي قرأتها في الحريدة ، والتي روت كيف أن يوسف بلانكت ، شاعر الحركة الأيرلندية الوطنية ، حكم عليه بالموت ، وكانت تربطه علاقة حب بريئة له في الجهاد ، فقرر أن يعقد عليها قرانه في السجن من وراء ظهر السلطات البريطانية العرفية ، مستعيناً في ذلك ، بقسيس من أنصار الحركة الوطنية وقد بقى الشاعر ينتظر مقدم عروسه في صبر وقلق ، مشعراً أن يسبقها الخلاء الذي سيسوقه إلى المشقة ، ولذلك كان يعد الدقائق ومعه زميل له في الحركة اسمه جان يسأله كل بضع دقائق وأحياناً كل بضع ثوان « كم الساعة الآن يا جان ؟ » فإذا أجاب الصديق والزميل عقب الشاعر أجبل . أجل لم تنق إلا ثلاث ساعات وتناقص الصلابة العاصلة بين الموت والحياة ، ويكرر الشاعر : « أجل أجل لم تنق إلا ساعتان وخمسون دقيقة ساعتان وثلاثون دقيقة » ويدق باب البرانة ويظهر على عتبة الخلاء فيسقط في يدي الشاعر ويعتقد أن الموت سبق القسيس وعروسه وعقد الزواج ثم يتضح له أن الخلاء ليس سوى زميل في الحركة الوطنية ، ومن خلفه القسيس ومن خلف القسيس ، عروس الشاعر ، وتحسب العروس ، أن ذلك كله مجهود ونوطة ، لمرار رجلها من السجن وقد كانت لعبة المرار من السجن ، لعبة يتقنها الأيرلنديون الثوار ، فما أكثر ما هر « ديفاليرا » من أعين السجون ، وما أكثر ما هر « ما بكل كولر » من قبضة فرق المطاردة الإنجليزية ، موقفاً إياها في الحيرة ، هارتاً بها ، ومثيراً لسحرية الصحف في العالم كله ، من تدبيراتها المحكمة ، وحفظها المتقنة ولكن هذه المرة لم يكن للمرار ممكناً ، ولم يكن باقياً للشاعر الثائر ، إلا أن يعقد العقد ، ثم تصحح زوجته ، أمام الله والفانوس فقط ، ساعة أو بعض ساعة ، ثم لا يلبسها إلا مقلة على الجبين ، ونمضي هي إلى الحياة ، مجاهدة ، ويمضي هو إلى الموت شهيداً ، ورمزاً ، ومثلاً وتذكيراً !

ولما كانت هذه المسرحية هي باكورة إنتاجي ، ولم يكن هناك مسرح ولا فرقة ، ولا ممثلون فقد مثلتها على مسرح خيالي ، وأصبح المقطع الأول فيها هو العبارة التي أصبح فيها وأماسي أهل بيتي ، وبعبارة أدق أختي المسكيتين كم الساعة الآن يلبان « أجل أجل . » ولقد كرهتا الساعة وجان المسرح وأبرئدا ، وكرهتا صوتي ، وكل ما يتصل بي ولما تألفت الفرقة المسرحية ، في مدرسة أسيوط الثانوية ، دعمت ببعض المسرحي الأول ، إلى مدرس وقع عليه الاختيار ليكون المشرف على النشاط المسرحي ، وقد عرفت لعط دهنشني أنه لم يشاهد طوال حياته مسرحاً ، وكان يتفق اسمه في تلك الأيام مرسعاً ، ولم يكن يدري من أين يبدأ عمله ، فلما تقدمت إليه بهذه المسرحية ، حيل إليه ، أن خاتم سليمان قد وقع في يده ، وأنه ضعط عليه ، فأخرج له من الأرض حميرتا من الجان ، لم يحمل إليه عرش بلقيس ملكة سبا ، كما فعل ، مع نبي الله سليمان عليه السلام ، بل حمل إليه ماهو أعظم - وقتذاك - وهو مسرحية ، وأخذها مني ، وكأنه يحتفل عقد شراء قطعة أرض بمائة ألف جنيه . ولفرط لهفته ، ظن أن اسمي « رمضان » فراح يكرره ، ولم أرد أن أصحح له الاسم ، رغبة مني في ألا يرجع في قراره بأن تكون هذه المسرحية هي باكورة نشاط جمعية التمثيل في مدرسة أسيوط ، عاصمة الصعيد ، الذي لم تكن ترى المسرح إلا كل يضع سنوات مرة ، لمدة ليلتين ، أو ثلاث على الأكثر .

وفي الصباح التالي ركبت دراجتي ورحت أنهب بها الأرض غياً - إن كانت الدراجة تستطيع أن تنهب شيئاً حتى لو كانت دراجة من مصنع شركة « رالي » الإنجليزية الشهيرة - وما كنت أصل إلى المدرسة حتى انطلقت كعادتي في تلك الفترة من حباتي - كصلوروح بشرى - سبن الصواريخ السوفيتية والصواريخ الأمريكية إلى الوجود ، وقصصت حمرة مدرس التاريخ والجغرافيا ، فالتفتحت بابها ، فارتاع المدرسون ، وأدوت عيني في الحمرة بحثاً عن الأستاذ « إمام » لأسأله عن المسرحية ، ولحيتي أمل المروعة لم أجده ، ولم أطلق من هذه الغزوة إلا بكلمتي تأنيب لاذعتين من مدرس آخر يعرفني ، بوصفي نعلبداً بابها في التاريخ ورتبناً لتحرير عملة المدرسة أومديراً لتحريرها ، لأن رئيس التحرير كان الدكتور محمود الشربيني العالم المصري الكبير ، الذي أصبح عميداً لكلية العلوم

ووقفت متفرزاً متحمراً على باب الحمرة ، حتى أهل الأستاذ إمام ، في بظه

وشاقل ، وبرود ، فقد كان مثلاً للعتور . ونقيصاً لى فى الحجم والسن والطبع ،
وكانت به لثقة فى حرف الرأه ، قلياً منا فى نظر لى ، وكأنه لم يرن ، وقر قلبى فى
صدرى ، ثم دخل دون أن يلتفت لى ، فلهفت به : فسأل فى دهشة : فيه إيه ؟
فقلت له . الرواية ولم تكن آنذاك مقول للمسرحية فقال واية إيه يعنى رواية إيه ؟
فقلت له . الرواية التى سلمتها لحضرتك أسى ، فقال ، وكأنه يتذكر تاريخاً من عهد
وميسس أو مينا : اه . هى دى . وأخرجها من تضاعيف جريفة : فكادت تخرج
عينى حفاً وصدقا من وجهى : نعم . . قلت ذلك وأنا ألهث ، وقد نصبب عرقى ،
لا من مجهود رحلة المدرسية ، بل من توقع للقرار التاريخى الذى سيصدره المدرس
الفاصل إمام . . ثم قال اسمع . فخل لى أن أدس تدلوتها الطويل والمدامع
والرعود : الرواية دى ؟ فكادت أصرخ الرواية قل ياسلى برب السماء ، ثم قال
الرواية دى . . حلوة . حلوة خالص . . بس أنت كتبتها صحيح ، ولم اسمع شيئاً
إلا أنها حلوة . حلوة خالص فقلت - حلوة . خالص . . فقال الرجل
مدهشاً ، لأنه لم يكن يعرف أن فى الدنيا كلها ما يدعو لهذا الانفعال فقال : وهو
يقلب فيها - ويفتح صفحاتها وينظر هنا وهناك فى برود لا مثيل له : . « أنا بايع »
رايح لسعادة الناظر . . « وقام ووجدت أن هنا كلام يمكن السكوت عليه إد حسبى
من المجد أن تكون هذه المسرحية قد كتبت بخط مقروء ، لسبب مجهول ، وفى
كراسة نظيفة وأن تكون قد وجدت مدرساً بمدرسة ثانوية قد قرأها ، وقال شهادة
جيدة فى حقها - ثم أضاف : أنا حاب من أجلها لياظر المدرسة ، لياظر المدرسة
الثانوية الأولى فى الصعيد كله ، فلم تكن مدرسى بى سويك والميا وسوهاج وقنا ،
قد أنشئت بعد ، ولما انقضى اليوم المدرسى - لست أدري كيف - ذهبت لى
البيت ، لكن أصرخ هذه المرة ، لى كل الحق . كم الساعة الآن يا جان ؟ »

وعرفت أحتاى هذا الحدث المروع الذى وقع فأدركنا أن عذابهما سيرويد
صعبين ؛ فقد كنت أطاردهما بهذه الحملة البتيمة ، وأما مؤلف مسرحى ، غير
معترف به ، همادا سيحدث لهما وقد اتصلت مسرحيتى بالمسلطة . .

ولست أريد أن أروى لك قصة هذه المسرحية التى لا يزال بعضها تحت يدى
كاملاتى الكراسة النظيفة بالخط المقروء ، ويلجى الأذرق ، إنفا أريد أن أقول
لك ، إن رواج أحق الوسطى ، كان إيلاناً ، بنجاحها من هذه الجملة المقروءة ، التى

كانت يدورها عنواناً على عدد من الخفافات التي أطاردها بها ، والتي كانت لا تحتملها إلا بمشقة . فلما جاء يوم السفر ، سمرها إلى بيت زوجها ، اختلعت في نصي مشاعر من السرور والفراغ والحزن ، لم أشعر بها مجتمعة من قبل ، ولست أود أن أستمر في وصف الأحداث التي جرت بعد هذا السفر ، لأن موصح ذلك سيكون بإذن الله حبيباً أتحدث عن شبابه ، ولكنني أريد أن أجتريه شيء من حياة أختي بعد الزواج ، لأنني سبيل تقديمها ، كمودج إنساني ، ولا يكمل الحديث عنها بهذه الصمة ، إلا إذا رويت للناس لماذا فعلت في بيت زوجها عما يستأهل أن يذكر في كتب علم النفس ، الذي يشمل به الناس كثيراً هذه الأيام .

سافرت أختي إلى بيت زوجها ، وكان كما قلت ، في الفصل السابق ، محامياً ، في طهطا وسمره إلى طهطا - وهو من عائلة كبيرة بالشرقية - له قصة تستأهل أن تذكر فقد تخرج في مدرسة الحقوق قبل أن تكون كلية ، وكان له في تاريخ تخرجه قريان في مدينة أسبوط ، أولها خاله ، وكان رئيس محكمة . والآخر روح أخت وكان قاضياً فاقترحاً عليه أن يقضى فترة تمرينه في المحاماة في أسبوط حيث يعملان كمضامين في مكتب القضاء ، فيجد من الرعاية لهذا السبب ما لا يملكه في مدينة أخرى ، ولو كانت الرقازيق ، عاصمة المحافظة التي ينتمي إليها ، وكانت أسبوط في ذلك الحين تحمل بعدد من أكبر المحامين الجنائيين ، كان منهم محمد علي علويه ، وتوفيق دوس ، وكان يأتي بعدهما من الجيل الأصغر منا عدد من المحامين الموهوبين في مقدمتهم إبراهيم ممتاز وحامد جودة . كان محامياً جنائياً فريداً إذ لم تكن قدرته كمحام مصدرها البلاغة وحسن الصبابة ولطف الأداء ، ولكن كان مصدرها علمه التام بأسلاك الرعيص ، وسميات الجريمة ، فقد كان الشائع عنه ، أنه يدري من أمر قاطن الطرق في منطقته ما لا يعرفونه عن أنفسهم وأنه كان يعرفهم بالاسم كأنه واحد منهم ، وبعض خصومه في المنطقة ومن الأحزاب المعارضة كانوا يقولون إنه منهم بالفعل ، وقد كان من حظ زوج أختي أن يضمن في مكتب هذا المحامي « الفحل » حقيقة لا مجازاً ، ولما كان لحامد جودة مكتب في مدينة طهطا ، فقد كان يوفد زوج أختي ليشاور القضايا فيها عنه ، ثم رأى آخر الأمر أن يترك له المكتب هناك

ولكن المحاماة مهمة تحتاج إلى المتابعة والانقطاع والتفرغ ، فلما لا تدع

للمحاضر وقتاً ليسريح فيه ، ويستجم : في الصباح في المحكمة وفي المساء في المكتب ، وفي الليل لقراءة الأوراق ، وإعداد المذكرات ، حتى أيام العطلات مخصصة للاطلاع ، والمحاضر الناجح دائم الأسفار ، وهو كالطبيب يطلب أحياناً في الليل البهيم ليحضر تحقيقاً في جناية ، وقد يستمر في عمله حتى الصباح التالي ، ثم يصل في اليوم الذي يليه ، وزوج أخفى خلقاً للمحكمة من جهة ، ولم يخلق لها من جهة أخرى ، خلق لها لأنه يجيها ، ويجب مجيها ، ويجب الجلسة والمرافعة والتحقيق ، ولأنه لا يلقى عنه في قراءة أوراق القضايا والاطلاع على ما فيها تبعه في ذلك ذاكرة قوية ، ولا عنه في شرح أفكاره ، بعينه لسان خال من العيوب وكان محباً إلى نفس القضية ، يودونه ويستخفون ظله ، ويتقون في أمانته وحفته ويعدونه من هجر القول وفحشه ، ولكنه لم يكن يطبق البقاء في مكانه دقائق متصلة وكان يعوزه الجلد على سماع المؤكثين ، والاتصال بهم ، على الرغم من جهم له ، وحرصهم على توكيله ، يبحثون عنه في المكتب ، فيجدونه في المحكمة ، يلتصقون به في المحكمة ، فيسمعون أنه في النادي ، فإذا هو في الطريق ، يلاطف هذا ويذاعب ذاك ، فإذا جاء المساء فهو في النادي ثم عند هذا الصديق من الأعيان ، ثم عند غيره ، ثم عند ثالث . فإذا انتهى من طوافه ، أوى إلى فراشه ، فريز العيون ، هادي النفس ، كانه أدى واجبه ، وأراح ضميره ثم نام . ولم تكن معالحة هذا الطفل الكبير ، الذكي اللطيف المحبوب ، أمراً هيناً ، فلقد عاش طوال حياته يضيق بالنظام والقيود والنواهي ، وكان كل ذلك يهيئ على مواهبه ويبيحها ، فتناولوه أخفى بالرفق ، وراحت تلبك فيه ، وتعذب . وكان يعينها في هذه المهمة الشاقة سعة صدر ، ثم إنها أحبت البلد وأهلها وعرفت الموططين فيها والأعيان وموظفي مكتب زوجها وأقاربهم بالاسم والرقم ، حتى أصبحت واحدة من أهل طهطا وما حوفا ، وبقيت تحبها وتحب أهلها وتذكرهم ، ويحبونها ويذكرونها ، وعلى سبيل المثال فإن جميع تجار الفاكهة الصغار والكبار من مركز طهطا ، لما كانت تقابلهم في القاهرة والإسكندرية ، تذكر لهم أسماء القرى والأسر ، فيحبونها من أهل طهطا حقاً .

الانقطاع ينسبونها إلى أسرة من أسر الأقباط ، على سبيل التحمين ، والمسلمون ينسبونها إلى أسرة من أسر المسلمين على سبيل الحدس ، وهي لا تصحح ، وتقبل النسبة في الحائلي وتضحك . ولذا مرينا بآثاع فاكهة جائل ، دون أن نتدبر أحق

وتسلله على أهله في ملهطلا ، يداعبها من يكون في صحبتها آنذاك قائلا : « لئلا أموت
هذا من سؤالك وكلامك ؟ » .

وتعلم روج أحق الاستمرار في المكث قليلا ، ثم أحبه كثيرا ثم عرف كيف
يقابل الموكلين ويطلب صبره عليهم ، فكثر عمله ، فلما زاد رزقه ، وأصبح شخصا
آسر ، وقبل أن يمضي ثمار هذا النجاح ، احتبر ليعمل في القصص ، وقبل أن يطول
عهده بالقضاء وفاء الأجل المحتوم في مقتبل العمر ، ولم يكن قد رزق من النورية ولدا
أو بنتا ، وكانت وفاته صدمة لأختي مروة ، ولكن كأنما أراد الله بهذه الصدمة أن
يكشف عن الدور الذي خلقها له ، فقد تضجرت في نفسها ، ينابيع رحمة ، ارتفعت
بها عن مستوى مثيلاتها من السيدات اللواتي امتحنهن الله بالترمل فلم تكند تفقد
زوجها حتى فقدت والدتها ، فعاشت مع أبيها ، وكأنها أمه وأخت وابنة ، ولكن لم
يكن هذا كافيا لتروى جوعها المتجدد إلى عمل الخير ، في صورة المتعذبة ، ولست أود
أن أشرح تواضعها ، فأورد شيئا من هذه الصور ، وإن كانت العاية أن أرسم للناس
صورة إسانة ، في حيرتريد ولا مبالغة ولكن يكفي أن أذكر أن القدر ساق لها أفراد
أسرة ريفية ، فقيرة ظلمت الأم ، وكان من بين أعصابها بنات في سن الطفولة ،
فاختبرت نفسها أمهن جميعا ، ولم تقنع بزوجاتهن ، بل علمتهن حتى تزوجت إحداهن
طبيبا في الأردن ، واحتملت في سبيل تبشهن وإعدادهن للحياة من أدنى الناس ،
ونقد بعض ذوى قرياسها من كبر عليهم هذا الإصراف في الحب والبذل الشيء
الكثير ، ثم ذهبت كل فتاة في حال سيئها بعد أن تزوجت جميعا ، وأخفى لا تشكو
ولا تتبرم ، بل لا تذكر من كل هذا لا قليلا ولا كثيرا . ودعت أختي ، صديقات
ها ، لتعمل معهن في ميدان العمل الاجتماعي التي كانت تمارسه بمصر الحميميات
النسائية ، فليست الدعوة في صمت وكناء ، دون أن تنشر لها صورة ، أو يذكر لها
اسم ، وقد سافرت من أجل هذا اللون الجديد من النشاط في الداخل وفي الخارج ،
في غير ادعاء ولا تفاخر

ولكن كل هذا مما يمكن أن تقدم عليه ، صيدة أخرى ، أما الذي يتردد أمامه
الرجال والنساء على السواء فهو المجازفة التي يكون الثمن فيها ، السجى والأشغال
الشاقة ، ولكن أختي لم تردد لحظة ، في أدبه ما اعتبرته واجبا إنسانيا قبل أن يكون
واجبا وطنيا .

لقد فرأ المصريون وشاهدوا مسرحية وفيلم « في بيتنا رجل » وعرفوا من كل هذا أن « حسين توفيق » بطل هذه الرواية لجأ إلى بيت الأستاذ إحسان عبد القدوس يومين أو ثلاثة ، كانت كافية لإلهامه بهذه القصة المثيرة ، ولكن لا أحد يعلم أن « حسين توفيق » ، لحاً بعد ذلك إلى بيت أختي أساميع حتى أتبع له أن يهر إلى فلسطين ، ولقد أحسنت أختي كتمان مشاركتها في هذه المجازفة الخطيرة حتى على أنا بعضي ، فبقيت أجهل كلها ورتبنا أن « حسين توفيق » في الشقة المقابلة لشتتها ، وهي شقة تملكها أختي الصعري ، وتركها طوال فترة الصيف ، إذ نقصبتها مع زوجها وأولادها ، في حزمة بالشرقية ، ولقد كانت الحكومة ، قد فرضت مكافأة قدرها عشرة آلاف جنيه لمن يرشد عن حسين توفيق . وكان العقاب لمن يلو به بوصفه مرتكباً لجريمة قتل عمد مع سبق الإصرار ، مصحوبة بجنايات أخرى فلاحاً . ونحن نهبنا إذ نقول إن هذه المكافأة لم ترد لنا على خاطر ، لأن الطامع الذي كان يعمل عندها وهو المواطن الفاضل أحمد محفوظ ، لم تغره هذه المكافأة حينها دخل يوماً إلى الشقة المقابلة للشقة التي يعمل بها ، ليرى نفسه وجهاً لوجه أمام حسين توفيق ، أي أمام عشرة آلاف جنيه ، كاملة ، فأغلق الباب وراءه في صمت ، وفي اليوم التالي ، ترك العمل عند أختي ليطر انتحله خوفاً من أن يكون وجوده إلى جانب حسين توفيق مغرياً له بالانزلاق . . وأحسن الله إليه ، وكافله على هذا الخلق السامى ، فقد انخر في البقالة ، فدرت عليه هذه التجارة اختلاف الرزق ، وأهانته على إحسان تربية وتنشئة أولاده ، فبارك الله له فيهم .

ويرد أن أطبل الحديث عن الأساميع التي استضافت فيها أختي - بعلم والدها - رجلاً ماراً من وجه القانون ، تتمتع الشرطة والبيان والسلطات كلها ، عبر مسالية لا يخطر السجس ، ولا يحظر إقصاء السلطات ، وما يجره وراءه من متاعب ، إنما يحظر تخفل منه ، وتخشاه كل امرأة وكل رجل في العالم وهو ماسميه بالعامة البليمة : « اليهيلة » فإن يساق الإنسان إلى قسم - ويلقى به في حجر ، وأن ينتظر على باب عقق غمره جود ، تأمرهم القوانين بالشد والعلظة والحفوة ، ثم يترك ساعات ، وربما أياماً ، لا يلدرى متى يطلب ، وما مصيره ، ويحاطب بعض ، ولو تظاهراً ويكر عليه أن يطلب قضاء حاجاته الحميمة من كوب ماء ، وكسرة خبز - هذا هو الشفاء الحقيقي الذي وضعه كافكا بأبلغ بيان ، في قصة « القضية » .

على أن في المجازفة التي أقدمت عليها أختي غير هيلة ، جانباً من العذاب اسمه الترقب والتوقع والتوجس ، ففى كل طريقة على باب مجاور ، وعند سماع وقع أقدام أى صاعد من درجات السلم ، ولدى كل صوت في الشارع ينادى ، أو صوت عربة أو عربات تقف فجأة على باب المنزل أو على باب قريب يطل من يتظر خطراً مفاجئاً ، أن البلاء قد وقع ، وأن المصائب قد تحققت . . . وإلى جانب هذا كله ، ما يثيره الخيال للضطرب ، وما تبعث الأعصاب المتعبة . ولقد حدثني صديق كان قد فر من وجه الشرطة في قضية من القضايا السياسية ، ثم قل احتمال السلطات بالقضية وأخرج من كل المتهمين فيها ، وبقي هو في حجة ولم يعد ثمة خطر ، من الانتهاء إلى مكنته ، ولكن غلبت عليه روح لعبة « الاستمعية » إلى حد أنه كان يحس بالمرع ، كلما حيل إليه أن على الباب شرطياً ينفذ بيده . . . ولقد كان لدى أختي ما يفزعها على نفسها . وما يفزعها على اللاجئ إلى حمامها ، وما يفزعها على أبيها الشيخ ، وكل من في البيت ، ولكنها تماسكت وبذلت للناس ، ولّى أنا في مقدمة الناس حادثاً ، لا تظهر على أسارير وجهها علامة واحدة من علامات الخوف أو الاضطراب ، بل لقد هجرت أنا نفسى أن أمير من مظهرها خلال الفترة التي كانت تستضيف بها هذا الغار من وجه العدالة أن لديها ما يشعلها أيا كان هذا الشاغل لقد بقيت هي هي : هتوء نفس ، وحضور ذهن ، وصفاء خاطر ، وميلاً إلى الدهاية ، وحرصاً على المجاملة ، واهتماماً بسماع الأخبار العامة .

ومضت الساعات والأيام ، والسلس جميعاً يتكالبون على أسباب الشهرة والظهور ، الحفوية والمدعاة ، للشروعة ، والباطلة ، وأختي لا تحدث أحداً بما فعلت ، ولر تلعباً ، وإنما ذكرت تلك الأيام ، تحدث كل من حضر المجلس ، إلا هي .

ولست أدرى ما الذي مستغوله أختي ، حينما تقرأ هذه السطور ، وأنا أريح من شحصها متائر الرهد والصمت والترفع ؟ ولكنى لا أفعل ذلك ، إطرأ لها ولا ثناء عليها ، ولا اعتزازاً بأن تكون شقيقتى على هذا القدر العظيم من ضبط النفس ، وإنكار الذات ورياسة الحاشى ، وإنما أفضله ، لأن من حق بلادنا عليها ، أن تقدم للناس العاديين أسطواء ، غادج حقيقىة للإتسان المصرى الذى يتصدى للمحاطر

والمكافرة ، من أجل العقائد والمبادئ ، مؤمناً إيماناً هادئاً بسيطاً ، بها ، وكأنه
يتنفس

هذه الأخت ، بعد أن صقلت نفسها بالتجارب الكبرى والصغرى ، بعد أن
مات من حولها أحر الناس عندها : زوجها ، وأميها وأبوها وأختها ، وبعد أن قرأت
ما قرأت ، ورايت ما رايت ما زال في حياتها جوانب جديدة بأن يطل الإنسان عليها ،
ولو من « طائفة » صغيرة ، فإن في ذلك كسباً للإنسان . الإنسان العادي البسيط ،
الذي تقوم على أكتافه ، مصر ، ثم الإنسانية كلها

أخواتي الثلاث (٣)

قال الشيخ الذي نرى ذكريات صباه :

أوت أختي الوسطى ، « حسين توفيق » المحكوم عليه في جناية سياسية ، المطلوب للعدالة ، تتبعه أهوانها وتشم آثاره في كل مكان ، وتغري الناس بالقبض عليه ، وتسلمه لها ، بمبلغ عشرة آلاف جنيه ، تساوى الآن مائة ألف على الأقل .

فقد أمانتها في تنفيذ هذه المغامرة الوطنية الإنسانية معا ، أنها كانت تسكن في شقة في حين كانت أختها الصغرى تسكن في شقة مقابلة ، وكانت الأخت الصغرى كما مر بنا زوجة رجل من أخصياء الريف ، له هربة في محافظة الشرقية ، فكانت هي وزوجها وأولادها ، يستقلون بقضيم وقضيمهم إلى الريف ، بين بطة ولوره ، وأبقاره ونهراته ، وسوارجه ومزارعه ، شهورا ثلاثة ، ومن ثم استطاع هذا اللاجئ .

السياسي ، أن يجد مكانا حاليا لا يشاركه فيه شريك ، ولا يزعمه طارق . ولما كان الشاب متمتعاً بهذه العزلة ، لا يفكر في شيء ، إذ يفتتح الشقة بدور في فعلها بحركة وانفة خالية من الحصية ، بدون إنذار له ولا تنبيه ، ولم يستطع الشاب أن يضر هذا الغزو المفاجيء ، فلم يبق أمامه إلا أن يأخذ للأمر عدته ، وينتهي لأسرا مايلن به

المستقل ، فحمل مسلحه في يده ، يعد أن صلا بالصدائف ، وجعله في حالة استعداد ، ووقف هو في مدخل الشقة ، موقف المدافع الذي هزم عن أن يستسلم ، وألا يسلم إلى أحد إلا بعد أن يسلم آخر أنفسه . فإذا به أمام رجل سمح لا تغلرق

النسمة قسمت وجهه وإن كنت لا تستطيع أن تحدد مكانها ، فهي ليست على الشفتين ، وإنما هي روح تشبه الحبيبة واللوجهتين ، وجائتي الفم ، والعيين ، وتقدم هذا الرجل الملمس ، إلى الشاب الذي كان كل عصب فيه يتر استعدا للقتال ، فإذا بالرجل ، يفتح ذراعيه للشباب ، ويمتنوه بيما ، ثم يعانقه ، ويقول له : مرحبا .. وذلك الفرع من الشاب في التو ، وذهب الشك في لحظة ، فلم تدخله رية في هذه الحركة ، ولم يقل لنفسه : هذه حركة حذاع مصللة ، يريد صاحبها أن يخرج من حالة التهيؤ ، وأن ادع جانباً سلاحه ، ثم يهدو أحواله الواقفين في الخارج ليقضوا على ويجروني من خطمي إلى حيث العقاب المضاعف ، فإن لكل حركة ولغة ، وخطوة وسكة روحاً تمكس عنها ، وتشي بها ، فالصادق يقضي صدقه منه ، والكاذب يفروح كذبه منه ، وإن تريا الكاذبون في ثوب الصادق فهم أغلب الأمر لا يجدهون إلا من كان يريد أن يخدع لهم . . وقدم الرجل للشباب نفسه ، ولم يقل له مطلقاً إنه صاحب الشقة التي لجأ إليها ، وإنما ذكر له صلتة بصاحبه الذي هيا له هذا الملجأ الآمن ، ثم جلسا يتسامران في هدوء واستقرار ودعة ، وتناولوا المشاء معاً حتى كاد يطلع عليها الصبح ، فأوى كل منهما إلى سرير ، كأنهما صاحبان قديمان طالت صحتها ، وقدمت مودتها . وإذا رجعا إلى ما قبل هذا اللقاء غير المنتظر بين شاب أحب بلده ، وغامر من أجلها ، ورجل هام حيا بوطنه ، وقيل في سبيله مواجهة الأخطار ، في عبر من ولا تفاخر كان عليها أن يعرف أن أختي الصغرى جاءت حل غير موعد ، ومعها زوجها ، وأرادا أن يتجها إلى شقتيها ، إلا أن الأخت الوسطى ، اهتمرت طريقها ودعتها إلى شقتها المقابلة ، وقالت لأختها إن في بيتك ضيفا . فسألت الأخت الصغرى . ومن يكون ؟

وأشعقت أختها أن تعض إليها بالحقيقة دعة واحدة فصجأها ، وتدعوها المفاجأة إلى الاحتجاج والاعتراض والممانعة وهي صريحة لانغمي شيئا من عواطفها ، تميز عن نفسها بلفظ ير ، جل قوي ، فحاولت الأخت الوسطى أن تبحث عن مقدمة أو تمهيد ، ثم استخارت الله ، وقالت لها الحقيقة كاملة ، فإذا بأختنا الصغرى تهتل ، وتسال لتبين أن الأمر حق كله ، ولانصيب للمداخلة والمعاينة به ، فلما اطمأنت إلى صديق الخبر ، اندفعت الى زوجها تبشره ، فضحك ضحكته القصيرة وسأل بسوره مؤلا واحدا ، ليتقي ثم انطلق إلى الشقة ، ومعها مفتاحها ، وقد حاولت حتى أن تدعو إلى الالتاد والتريث خشية أن يكون دحوه المفاجيء . حل الشاب

مرجعاً له ، وحشية أن تدعوه المفجأة إلى الاعتداء على المداخل غير المستظر ، ولكن عواطف روح أحتى التي لم تكن تعرف مولودية ولا إحقاقه ، دفعته الى ذاب الشقة ، فكان هذا الصاق ، وتلك المودة للنبقة من القلب ، والتي لا يمكن أن تعمل في كسب قلب الآخرين وحبههم ومودتهم . .

هذه هي أختي الصغرى ، وما جرى منها في ذلك اليوم ، ليس سوى التعبير الطبيعي والدائم لشخصيتها : حب للناس لا يقف عند حد ، وانشغال بالوطن ، لا يعرف الاعتدال ولا القصد ، وإفضاء بذات النفس ، وكان كلامها ، هورائحة الوردة ، تصدر عنها ، بلا تمييز أو عهد . . .

نشأنا معاً وكبرنا معاً ، وذهبت كل من أختي الكبرى والوسطى ، إلى بيتي روحيهما ، وبقيت معي ، وما كان بيتنا ونحن صغار ، لازماً ونحن كبار ، فالخلاف والشجار والمقاطعة فالمخاصمة فالصلح هي دستور حياتنا ، يجسد فيها ، وبعث الحرارة والدفء ، ويعملنا كل حين وآخر ، أشبه بصاحبين يتلاقيان لأول مرة ، ويتعارفان ، ويكتشف كل منهما ماضي صاحبه ، ومزاجه ولقد طاف بحاطري الآن فقط ، بعد أن مائت أختي ، وانقضى على رحيلها من عالمنا هذا أكثر من عشر سنوات ، أننا لم تبادل الشكوى ، من هموم القلب ، لا قبل الزواج ولا بعده ، وإن كانت علاقتنا حميمة ، وصلتنا وثيقة ، وطبيعة كل ما قائمة على المصارحة والمكاشفة

في طمومتنا كدما تكون ثوب من ، ويبلغ من نشأتها في الظهور ، الخلد الذي عجز معه مفتش في مدرسة خاصة ، أن يميز بينا فقد حلقوا لها شعرها الخفيف ، على أمل أن يفرر وليس كلانا قعة المدرسة وربها ، ودهنا إلى المدرسة ، وكنا في الصف متعاقبين فلما جاء دور أختي قال لها المفتش . ما اسمك يا شاطر ؟ فقالوا له : هذه بت ، فصحك وسألني بعدها ما اسمك يا شاطرة ؟ فقالوا هذا ولد ، فقال الرجل شيء يلحظ ، فأصافوا . هما شقيقان ، فأجاب . بل هما شقيق واحد ، ولم يعرف يومها أن هذه شهادة ، يجب عليها أن تفرح بها ، ولكن كنا أصغر من أن ندرك معابها ، وكان ذوقنا ضائقين ، بما نسيبه لهم من متاعب ، فلم يكن يسرهما أن تكون شيتين ، أو شيئاً واحداً ، لأن هذه المتاعب لم تكن تثقفني ، إذ عدنا لناس شخصاً واحداً ، فإن شيطان الاثنين إذا اندمجا فيصبح شيطاناً مريداً .

ولقد كان يحدد تعلقى بالحقى إلى جانب مبادئ الخصومة والقطعية والصدق والمودة ، وما يتبع كل دور منها ، من تأجيج العواطف وإشعال الأشواق أنه كان لأحقى ملجأ سياسى ، تلوذ به وتهرب إليه كلما لم يعجبها الحال فى بيتا ، ذلك هو بيت جدتها ، فقد كان لها من حدة الطبع ، وبشاط اللسان ، ما يجعلها أكثر من تمرداً على نظام البيت الشديد الرصين الذى لا يحرف استثناء ولا ترسباً والذى لا يطبق التذليل ولا يدخله فى نظامه . نظام لم يسمح قط ، لعنة أو صبي أن يحمل اسماً من أسماء الإعرار ، والتعجب التى كانت ولا تزال شائعة فى كل البيوت ، نطق على الصبيان كما تطلق على البنات ، وإذا كان الغرباء قد أطلقوا على أحنى الوسطى اسم تذليل ، فقد فقد معناه ، وأصبح هو الاسم الأصل ، لأن هذا الخروج على الأصل الثابت والمستقر لا يتبع أثره إلا فى جو يعرف أسلوب التلطف ، ومن هنا كانت أحنى الصغرى لا تكاد ترى فى البيت مالا يعجبها ، حتى تحمل ثيابها ، وتلجأ إلى بيت جدتها ، وكان لا يبعد عن بيتا إلا بأمتار ، ولم تكن هناك هذه السلطة المستقرة الثابتة التى تأمر وتنهى ، وتعلم وتلقى ، وتوبخ وتندد ، وتلزم الكبار قبل الصغار ، لا بفاتون الأخلاق ، بل بمقتضيات الذوق ، فمن يفرض أطفاله بجرم يناله أشد التعرّيع ، ومن يعلو صوته أكثر مما يجب أو يلقى ، خارج على الدولة ، تتعذبه بكل عيب ، والجلاسة لها وضع مرسوم ، والضحكة لها شكل معلوم ، والوقوف لها قياس موزون وهكذا وهكذا ، ولقد كان لهذه التقاليد آثار فى كل منا ، فأحنى الكبرى ، واهمت بين نفسها وبين كل القيود ، باللطيف والمداواة والاحتمال وصبط النفس ، فخرجت « دبلوماسية » وأعانها أن قواها كلها داخلية ، لا يبدو عليها شيء منها ، فإذا صاحبت السيدات اللواتي يبدو أنهن من المجتمع متمرسات لبلقات ، يلعبن بالهضبة والحجر ، ويتبذرن برمتهن ومواهبن بما يبهز صاحبتهن ، دون أن تحس بنقص ثم سبقتهن إلى المكانة ، فحرصن على مودتها ، وعلى محاكاتها ، والأصل بنصبتها ، وواجهت أحنى الوسطى أهوال هذا النظام ، يعرط من الحساسية جعلها فانة ، تحس ما يحس به الناس ضعفين . فما كان يضايق غيرها ، يندمها تماماً .

وأما أحنى الصغرى ، فقد قوى عنصر التمرد والثورة عندها ، فهي لا تطبق نقداً ، ولا تختمل توجيهها ، ولا تصبر على توبيخ ، صوتها عال ولفظها قارس ، وكل ما فيها صريح وواضح ومعلن . فإذا آوت إلى بيت جدتها وجلدت تساعماً ورقفاً ، بل

أحقاً هي مصرية ؟ إن قامتها المرفوعة ، ومشبثها الطليقة ، وقوامها الذي لا تجد مثله بين المصريين كثيراً ، كل ذلك أصبغى ، فقلت له : هلم أخفى ، قال : هذا إند أثر الدم الشركسى فيها ؟ وكان رحمه الله شديد التعصب لشركيته ..

أما الأمر الآخر فإن أخفى ذهبت إلى الحج ، وكنت آنذاك أحد الوزراء ، فاجتمعت مع والدته السيد أنور السادات التى كانت تمجج أيضاً وحسنت رفقتهما وأطالنا الجلوس معاً ، فى الحرم المكى وتواعدنا على أن نحرصاً على صلتها عند العودة .. ثم أبت أخفى علماً حدث أن نبذل جهداً فى أن تحصل بالسيدة والدته الرئيس ، فسألته يوماً : ما سر هذا المسلك ؟ فقالت : لقد كانت معرفة حج فدهها صحبة الله ، لا شيء فيها من الدنيا ، ولا شيء فيها للدنيا . ! .

هلم أنت يا أختاه ، هلم مظهرك ، وهذا مخبرك ، وأنت بين المظهر والمخبر ، شيء بين ملائكة البشر ، وسموية أهل الأرض .. !

بيت العباقرة

إن عجبى من غرائب الذاكرة وحيلها مع صاحبها الإنسان ، في الإخفاء والإظهار ، والإيهام والخذاع ، لا تسهى ، وإذا كان بعض السليين يتحدثون عن أصول الألفاظ ، يزعم أن الإنسان سمى كذلك ، لكثرة سياحه ، فإن فضيلة نسيانه - ولا أقول آفة نسيانه - أسدت إلى هذا المخلوق المسكين أبهى لا حصر لها ، منها أن نسيانه حفزه إلى الكتابة والتسجيل ، وورقة التسجيل حفزته إلى إقامة الصروح الضخمة والمباني الرائعة ، وإخراج الصور البارعة ، والفصائد الرصينة والرقعة ، فكل هذه وسائل الإنسان ليحاصر الحاضر ، ويمنعه من الإفلات منه والضياع . .

ولو كنت أقيد مذكراتي وأنا صبي غافل لكتبت في يوم ما في سنة ١٩٢١ : أنني لقيت صبياً فلذا ، فلتعلقت به وأن بداية تعرفي عليه ، وتعرفه حل ، واتصال الواحد منا بالآخر - أنه قال لي كذا ، أو قلت له كيت . وإن هذا التعرف كان في مكان ما من مدرسة محمد علي ، ذلك لأن هذا اليوم وما جرى فيه يوم تاريخي بحق .

تاريخي في حياة كليتنا ، أو حيائنا أنا على الأقل ، فلقد امتدت صداقتنا منذ ذلك اليوم القديم المجهول حتى تملؤزت نصف القرن ، وإن كان قد انقضى علينا أخيراً سنوات لا تقابل ، ونأى الواحد منا عن الآخر في فترات الاتصال اليومي ، ولكني لم أكتب مذكرات وأنا صبي ، مثل في ذلك مثل كل صبي آخر ، لذلك فقد حاولت أن

أذكر حينما شعرت بأن كتابة هذا الفصل من ذكريات الصبا قد قاربت الحلول - حاولت أن أتذكر كيف تلاقينا أحدى وأنا ، وما الذي جذب الواحد منا إلى صاحبه وقد كنت في فصل لا يقل عدد تلاميذه عن الثلاثين ، وكيف كان اللقاء الأول ؟ وما الحديث الذي دار بيننا فيه ؟ وما الذي وثق العلاقة بيننا ، وجعلها في المثانة والقوة التي صمدت معها لأحداث أجيال شهدت من الوقائع والأحداث والتغيرات والانقلابات ما لم تشهده حقة أخرى في تاريخ مصر الحديث ؟ فلم أوفق إلى شيء من هذا كله ، والحق أنني لا أزال أحرص وأشوق ما أكون إلى معرفة هذا الجانب من حيالي ، لأنه يفسر لي ، أمراً منها غامضاً أشد الغموض -

ذلك أن ظاهر الأمور كان يؤدي إلى استحالة قيام صداقة ، بيني وبين أحمد ، لا في قوة الصداقة التي ربطت بيننا بالفعل ، ولا أضعف منها ، فقد كان الواحد منا على النقيض من الآخر ، كان أحمد ، صبياً صحيح البدن ، يكاد يظفر الدم من وجته ، ويشع نور قوى من عينيه ، ويمتلئ ثقة بنفسه ، يتكلم بصوت واضح عال ، وربما أمر ، لا يجشئ اللبس ولا يخلعاهم ، ويقف من الرجال موقف الند ، ويحسن الأخذ والعطاء معهم ، وعند الاقتضاء يشتد عليهم في القول ، فيهلل صوته على أصواتهم ، ويرد إليهم كل كلمة قاسية بمثلاً أو أقسى منها ، في حين كنت صبياً عليلًا ، لا أشقى من مرض إلا لأصاب بعلة أشد منه ، باحلاً ، خجولاً الخاضع للناس ، ولا أحسن التعامل معهم ، ولا أقوى على الصمود لمحاשתهم ، ولا احتمال عظمتهم أو فظافتهم ، فأنأى عنهم ، نأياً يبدو تعالياً وكبرياء ، وهو يعيش في الواقع ، ولا يعلم منه ، شديد التحكم في خياله ، يحفظ دروسه أولاً فاولاً ، ويعرف ما يريد ، وكان يريد أن يكون حل رأس قرفته ، ويحتضل بهذا العرض ، ويبدل في سبيله جهداً .

أما أنا فقد كان يطيب لي الاسترسال مع الخيال ، حتى أكاد أنسى الواقع الذي أعيش فيه ، لا أكره أن أكون من المتعوقين ، ولكني لا أبلل في سبيل هذا جهداً ، ولا أحرم نفسي من أمله متعة من متع الصبيان ، ولست أسى إلى اليوم أنه فرض عليا حفظ عدد من قصار السور ، ونحن في السنة الثانية الابتدائية ، وكان كل واحد منا ، يتمي ألا يصل إليه دور الامتحان أو ما سميه ، « التسميع » إلا أحمد ؛

فقد كان يعرض على الشيخ محمد رزق أن يمتحنه في هذا المقرر دفعة واحدة ، يتلو سورة وراء سورة سعيداً بهذه القدرة على الحفظ والأداء ، وقد كانت لي صلة بمتدرس اللغة العربية والدين ، وحدث أن زرته في مساء اليوم الذي كان أحمد قد نجح فيه في إقاع مدرسه بأن يستمع إليه ، فقال الشيخ « هوشاطر » ومضت السنين حتى رأيت أحمد يسحب ورائه مدرسه اللغة العربية في السنة الأولى من كلية الحقوق ، وكنا نتلقى العلم فيها بكلية الآداب ، إلى حجرة المدرس الأجبي ليسمعه النصوص الأدبية العربية المقررة علينا ، وأكثر الطلاب يعرفون من موقف كهذا !

وليس هذا سوى مثل على نهج الصبي العريب ، وقد كانت تصرفاته معي ، ونحن صبيان ، تسير كلها على موال واحد ينضج بهذا النضج ، ويدل عليه ، خاصيته يوماً ، فإذا به يحضر والدته - رحمها الله - ويأتى معها لزيارتنا ، متوسلاً بوالدته إلى والدتي لتصلح ذات بيننا ، وقد كنت أرى في هذا المسلك دليلاً ، على تعلقه بي ، وحرصه على استبقاء صداقتنا ، ولكن حينما تقدمت بي السن ، عرفت أن هذا الموقف لإرهاص بنضج أحمد المبكر .

ثم تخاصمنا مرة ثانية ، فأرسل إلى خطاباً قصيراً ، يقول لي فيه « إنك لا تهدي من أحببت » وقد هزني يومذاك أن يكون في مقدور صاحبي الاستشهاد بمثل هذا الكلام الكبير ، الذي لا يناسب هووسن وتجربة كل منا ، وقد كان ذلك ونحن في السنة الثالثة الابتدائية ، ولكن اللعشة حذيرة بأن تتعامل حتى تروى ، إذا علمنا أن هذه السنة هي نفس السنة التي شهدت أعرب مجازفة وقعت في تاريخ التعليم الابتدائي في تلك الحقبة من الزمن ، صحيح أننا كنا في سنى الحمل الثورى .

ولكن مهما تكن تلك الفترة موحية للشبان بالمجازفة ، وتحملى السلطة التي برعت الثورة الحزب منها من القلوب ، فقد كانت السياسة وقفاً على الرجال والشيخ والشبان ، فلم يتسع نطاقها للصبيان ، ولكن أحمد وأنا ، طلبنا على الناس أى هل نلاميذ مدرسة محمد علي ومدرسيها وباطرها وإدريتها بعمل غير مسبوق ، ومن ثم فقد كان مثيراً حقاً للدهشة ، وكان ما طلبنا به يومذاك مشهوراً مطبوعاً بورعه على زملائنا ، فيمقاطفوه ، لا حرصاً على قراءة ما فيه ، فقد كانوا أصغر من أن يدركوا معنى المنشور ، ولكن ألف الناس أن يمتوا أيديهم إلى كل من يورع شيئاً .

كان إعلاناً لمسرح أو ماهي فإنه يعز عليهم أن يورع شيء على الجماهير ،
ولا يحصلون على نصيب منه .

أخذ تلاميذ مدرسة محمد علي الابتدائية في حي السيطة ريب يتحاطفون هذا
المشور التاريخي ، وقد حل على رأسه لسم جمعية ، وكان اسم هذه الجمعية على
بساطته مريداً بين أسماء الجمعيات المعروفة والمتداولة في تلك الأيام ، فقد كان « نصر
الدين الإسلامي » قارن اسمها هذا الثوري ، بأسماء الجمعيات الإسلامية الكبرى
مثل : الحرية الإسلامية ، والعروة الوثقى ، والمواصلة والمجاهد المشكورة . أسماء
هادئة ، لا تحدث عن نصر ولا تأييد ، فهي أسماء احتارها شيوخ شابت
رعوسهم ، وشاخت نفوسهم في العمل العام ، أما هذا الاسم فهو البقي ما يكون
بصبي لم يصحأ أقدامها بعد على العتبة الأولى من الطريق نحو المجاهدة والصلح
والانصدام مع السلطة ، ومازلت أذكر هذا المشور الذي شعل صفحة من
« العولسكاب » في مطبعة حسنة الحروف ، ولا بد أن يكون قد حلا من الأخطاء
المطبعة إذ لا بد أن يكون قد كبه أحمد أو علي الأقل يصح بخطه الذي لا يقل كثيراً
عن خطي سوءاً وإن كان يبره ويتموق عليه في الوضوح

ماذا دارى منى هذين الصبيين فلحقت به رعوسها وانتهت حتى رها في
التخلص منه ، بالإفشاء به هذه الطريقة غير المطروقة ؟ من الذي قادها إلى
المطبعة ، ومن علمها التحدث إلى الناس بهذه الطريقة ؟ أين رأيا مشوراً يورع ؟
وإذا كانا قد قرأ مشوراً من مشورات الثورة ، يورع في الجهاد أو في العلى ، أفلم
يدركا أن تلك مشورات السياسة وفي السياسة ، وأن أحداً لم يورع مشور الدين ؟
ومن هما حتى يدهوا الإخوان والملاء ، وهم بعد في « بظلماتهم » القصيرة إلى
الجهاد ؟ ومن الذي أوحى إليهما بحواطر وأفكار هذا المشور ، ولم تكن الأحداث
التي بتداولها الناس وتتوالها الصحف ، مما يتصل بالدين ، عثرات من الأسئلة ،
كان يجهف من حديثها ، لو أن مسحه من هذا المشور ، استطاعت أن تنجو من
الضياع ، وأن تبقى ذكرى لهذا العمل الصيوان الصغير .

والطريف في الأمر أننا وجدنا ثلاثة من الزملاء ، يقبلون الانضمام إلينا ،
والاشتراك معنا في هذا العمل المحقوف بالمحاطر ، وأحسب أنه لم يخطر سائهم أنهم

وجدت نفسها هي سيدة الدار تأمر وتنهى ، وتطلب وترفض ، وجبتها تقفى في إجابة رغائبها بل نزواتها ، وخالها ، يجد فيها مايرفه ويمسح على جو البيت الهادئ ، الرتيب حركة ولطفا ، فإذا حدث أن نسي أحد أهل بيت الجنة نفسه فعاتبها ، جمعت أخفى حاجاتها وملابسها ، وعادت إليها دون أن تحس خجلها ، أو تشعر بأنها في حاجة إلى تفسير أو بيان . وربما ترددت بين البيت في اليوم الواحد ، مرات ولا يستطيع بيت الجنة أن يقلل من ترحيبه بها ، وفرحه بعودتها ، أما بيت الأبوين ، فيتنفى إثارة غضبها ، لاعتقادها منها بل إشفاقا على أهل البيت الآخر .

ولم يكن ثمة ضحية لهذا الطبع الحاد ، واللسان القوي ، المعبر ، إلا أنا . وقد قلت أول الأمر : إنها اتخذت مني تلميذا ، ثم أهانها خيالها ، فأقامت مدرسة ، واستطاعت بهذا الخيال أن تضيف إلى شخصي الضعيف عددا من زملائي كانت تأمرهم أن يجلسوا إلى جوارى فجلسوا ، وأن يسمعوا الدرس فيطهروا ، وأن يلتزموا الأدب ، فيلهوا ، فإذا حرح واحد من هؤلاء التلاميذ الذين يخلفهم خيال أخفى الخصب ، فالويل لي أنا ، إذ لا يوجد من يتلقى العقاب والمذاب سوى . وإذا رفضت قبوله صاغراً راضياً ، فزار عسكري معد ، يحل المدرسة ، وإعادة تلاميذها إلى بيوتهم ، وبقطعة مكررة تقوم بيني وبين صاحبة المدرسة ومدبرتها ومدرستها . وعربون العودة إلى المدرسة نصيب من المذاب أكبر والعجب أنني رحبت بهذه المحنة مع أنه كان لي في الشوارع المحيطة بالمدرسة منع وبدليل ، والأحوش التي كانت تجاور بيتنا والتي كانت مراتع وميادين للاهبي الكرة العالميين والمحليين ، والتي زاملتهم ، وكنت أكون واحدا منهم ، لولا أنني لم أنابر مشايخهم ، فقد كانت هذه الشوارع والحلقات ، أمامي تدحوى ، وأنا أقبل دعواتها ، وأعود إلى البيت وقد احتفى وجهي ونصب عرقى ، وانفطعت أنفاسى ، ولا أزال أكبر حتى أصاب باحتقان اللوزتين ، يلقي في في مرشش المرض أيما طويلا ، والحمى تسلمني في أغلب الأحوال إلى ما يشبه الفيوية والتهنات .

فما الذى جعلنى أقل استبداد أحتى ، وعنف نظراتها ، وبطش استاذيتها ؟
أكانت أحدثبها تستهوينى ، أم كان تعلقى بها ، تطبيقاً لقانون نفسى اعتدى إليه علم أهلنا المعطرى ، حينما قالوا : « القط ما يجيش إلا حناقه » . أى القط لا يجب

إلا من يحقه ، لأن الحق نوع من العناق أو لأن الحق صورة أقصى من صور الاهتمام ، وأن الاهتمام بها ملغ سوء التعبير عنه فإنه أفضل عند المحبين من عدم المبالاة والإهمال ، ولوطأوعنا أنفسنا وصدقنا عليه التمس المحدثين لقلنا إن الحب والكراهة ، مصدرهما واحد وأن الخلاف بينهما اختلاف في الاتجاه لا اختلاف في الطبيعة ، ويقول عواما « ماعية إلا بعد عدواة » ، لماعتبار أن العدواة محبة فاشلة فالإنسان الذي يود أن يظفر بحب إنسان ، ثم لا يوفق « تتحول مشاعره إلى كراهية » من قبيل مقالته اللب الذي حاول أن يطول العيب ، فلما لم يصل إليه قال عنه « حصرم ! » .

وأما كان نصيب هذه الفلسفة ، من الصحة والصدق ، فأنا وأختي الصغرى كنا نمش كائنين محكما عليهما بالأشغال الشاقة ، ربطا في قيد واحد ، نتشاجر ونصالح ، وتبادل اللفظ الكلمات . وأفساها ، ولا يتفصل أحدا عن الآخر

ولا أنسى يوما ، كنت أنا وهي حل درجات سلم منزلنا الرخامي الذي كانت لملكه « يرمحنونه » ذلك الزمان « مليا ديان » ، فقد أسندت أختي ساقها إلى طرف قدمها ، فراح ساقها يتر هزة عذبة وسريعة ، وتظاهرت هي بأنها أصيبت بشلل معاجي ، وكانت تكبري وكنت في السادة أودونها وصدكت مآلاته ، وانفجرت باكيا ورحت أقبلها ، وأرجو أن تعود إلى الشفاء ، وهو طلب غريب لأنه يدل على اعتقادي بأن المرض كان بناء على رجتها ، فمن الممكن أن تعود إلى الشفاء ، وتظاهرت بأنه لا أمل ولا رجاء . وأنا لا أدري ماذا أفعل وقد أبت حكمتي يومذاك أن أعلن لأهل البيت المصاب الذي حل بأختي ، لا إشفاقا مني عليهم ، بل خوفا من العقاب ، فأنا أعلم أن أمي كانت ستري فيها أصاب أختي عدوانا مني عليها ، ولم تكن محكمة « أمي » لتسمع عرافة ولا دفاع ، وبعد الله شمت أختي من تعديبي خلال المدة التي قررتهما أعلنت أنها شفيت ، وأن إذا ضايقته مرة أخرى فإن هذا الشلل سيعاودها وإن عاودها فلاشفاء ، وأنها ستبقى إلى الأبد كام « نجية » ، وأم نجية هذه كانت سبعة سنة تمت إلينا بقرابة ، وكانت تسير وهي تحتلج ، أي وهي تتهز ، وقد جعلها هذا الشلل الخفيف ، أقرب مما تكون إلى البلاهة ، فسمت طوال الليل ، أحلم بأختي ، ويأم نجية فلما كان صباح اليوم التالي أفضيت إلى أمي بمخاوتي ، ورجوتها أن تدعو الله ألا تصاب أختي بالشلل ، وسألت وهي لا تكاد

تصبط غصبتها ، عن سبب هذه المخاوف ، فافضيت إليها بالسبب فكانت النتيجة
 شريفة غاية العراة ، فإن أمي ضربت لمخني ضرباً شديداً ، حل حنيا ويديها ،
 وحدرتها العودة الى هذا التظاهر السخيف ، وقيلت لمخني العقاب ، لأول مرة في
 رضا ، ولم تمنح احتجاجيها ، كالعناد ولم تلجأ إلى ملجئها السماس للأنوف ، ولم
 أجرو على سؤالها عن هذه الاستجابة غير المتوقعة ، ولكنني حينها كبرت قالت لي :
 إن من اللحظات التي لا تنساها والتي تعلبت فيها أكثر عما تعلبت أنا لحظة تظاهرها
 بالشلل ، لأن ماكان يندو على وجهي يومها ، كان يدل على شدة خوفي وإلى ، مما
 دعاها إلى إنهاء هذا الموقف وعدم تطويره ، فقد كان في بيتها أن تصيف إليه ألوانا من
 هذا الشلل يجعلها تسمائل وتتهز وتقع على الأرض .

ولقد فارت ماحدث مني من ضبط النفس ، وأنا أرى هذه الأخت العزيزة تعاني
 شللا مفاجئا ، وما فعلته هي يوم أن أصيبت بالشلل ، وكانت يومها مرضا لا يسمع
 الناس في مصر عنه ، إذ كانوا يسمونه بأسهله أخرى كالخلق مثلا ، ولم تكن الأمصال
 المضادة له قد داحت ، إذ ماكانت لمخني تسمع من الطبيب أن حلقى سد حتى
 أسرع إلى بيت جلي ووقفت في ساحة وصاحت أخني قد سد حلقه ، فأثار هذا
 الصباح حزنا في البيت ، أدع لك أنت تصويره ، وأنا الولد الوحيد في بيوت الأسرة
 كلها .

ولكن كم أفدت من هذه الأخت ، فلقد تلقيت على يدها كما قلت من قبل أول
 دروس البيان ، فقد قصت علي من المقصص الديني والأدبي والتاريخي ، ماعلمي
 أو الأمر فضيلة الاستماع ، ثم ماعلمني فضيلة تفوق الفص والحكاية ، وأسمنتني
 قصة ماجدولين وأيكثي عليها ، وأسمنتني قصة الحسين سيد الشهداء وأبكتني
 عليه ، وقصة « ابنة مونتروما » لشارلس جارفيس ثم أصبحت أكبر تلاميذ ، وأكساهم
 ما قرأت في شيئا إلا أظهرت من الضيق لموضوع ما كنت أكتبه في محولان الأولى
 وكانت تعقد المقارنات بين خطابان وخطابات أصدقائي حينما كبرنا ووصلنا إلى
 مرحلة التعليم الثانوي ثم وصلنا الجامعة وتراسلنا ولكم كانت تحب خطابات
 صديقي ورميل « كمال » وكان في المنصورة ، وكنت في بي سريفي ، وكان يصف
 ما يراه في المنصورة من مظاهر الحياة اليومية وصفا سهلا ولطيفا ، حتى كانت تنتظر
 خطاباته وتفضها قبل عودتي إلى البيت ، وتقرأها ، أما خطابات ، « أحمد » التي

كان يكتبها من القاهرة عن المسارح والمحاضرات والندوات ، فكانت عندها أشياء
ولمتع من القصص ، فلما سافر إلى فرنسا ولرسل إلى خطابات في شكل مذكرات
يومية قرأتها مراراً

ثم تزوجت شاباً يمت إليها بصلة قرى قرية عن طريق أمها ، وذهبت معه إلى
الريف ، فكانما خلقت لهذا الريف ، فأحبته وأحبها الناس فيه من فلاحات يعملن
في البيت ، ومن رجال يحملون في الحديقة ، وحظائر الحبوب وفي إدارة العزبة ، ولم
تحاول أن تحدد عدد أولادها ، فكانت أوروبية تحب الأولاد ، كما تحب الدجاج
والمعجول ، والبط والوز ، وما سألتها يوماً عن أولادها إلا كان ردها الدائم
« حلوين » ، وتحس من هذه الكلمة الصغيرة البسيطة ، الإعزاز والتعلق ،
والرضا ، وقد ولدت بعض أولادها في الريف ، كما تلد الفلاحة دون أن يعيها
طبيب ، ولم أرها يوماً متزوجة لطفل مريض ، فقد انتقلت إليها بطريق العدوى ،
طمانينة وسكينة القرويات ، اللواتي دخلن في حياتها وسقط عندها الحاجز القائم بين
المدينة والقرية . بطريقة لا أوهي فيها ، فهي لم تقصد أن تكون رائدة التحول
اجتماعي ، غايته أن يرفع مستوى بنات القرية روحياً وأن يدخل في قلوبهن
وبعضهن إحساساً بالثقة ، ولكن كان السر في شخصيتها التي تترك كل تعامل على
الضغفاء والفقراء ، إذ لم يغفلها قط شعور بأنها أغنى من سواها ، ولا بفقر الفقراء
حولها وإن كانت نفسها تذهب حشرات على ما يعاتونه من حاجة وحرمان ، ولم أجد
ظرفاً ظهر فيه انحلالها مع الفلاحات واندماجها معهن ، إلا يوم شملت القرية
جثمانها ، مع أنها ماتت في القاهرة ولكن زوجها أبى إلا أن يخرج جنازتها من حزية له
اسمها كثر عياد كريم ، ليتاح لجميع أهل العزبة من النساء والرجال أن يحبوها
التحية الأخيرة ، وكانت تحية بسيطة وصادقة ومؤثرة ، فقد خلت من هذا الصراخ
الذي يشبه نحيب اليوم وصيبح الغريان ، وسار الجميع في صمت وإطراق ووجوم ،
أما صديقاتها وزميلاتها من نساء القرية ، فقد وقفن إلى أحسن وأجل ما يودع به
مسافرة فقد تعالى صوتهن بين الحزن والحزن ، مع السلامة يا أختي مع السلامة
يا حبيبي .

ولكم أحسست بأن الحزن الذي ملأ قلبي قد تبدد ، وأن الداهية هنا ، الماضية

إلى طريقها الذي لا يعرف أحد عنه شيئاً ، هي في رحلة وأنها في حاجة إلى الدعاء لها
بالسلامة ككل مسافر . .

ولكن قد كان لما قبل أن تموت دورها في العمل وكانت العزبة التي تقبع فيها هي
وسيلتها في هذه الخدمة العامة ، فقبل أن تستقل إلى الشرقية كانت مع زوجها في عزبة
في لقلبيوبية ولقد أوت هذه العزبة بعض الوطيس في حلال الحرب المالية الثانية
وظلام الأحكام العرفية العسكرية ، بسود البلاد ، والوطيسون ، مطاردون تتعقبهم
السلطة في هذه الأيام العصيبة لم تتردد أخفى ولا زوجها ، أن تلجأ هؤلاء بهدوء
ويدون أدنى شعور بأنهم يأتیان عملاً عظيماً ، لها إليها أحمد حسين ولجأت أنا إليها ،
ولجأ أنسرون فلم يجد أحد من هؤلاء جهاً شيئاً أقل من الفرع بقنومهم ، والنسرود
بإقامتهم ، والرهبة في أن يطيلوا زيارتهم وإن كانت زيارة مفرصة

وأصبح لأخى الصغيرة ، شاغل يلح عليها ، ولا يدها تسريع لبالا لونها ،
فذلك هو الانشغال بشئون بلدها ، وقد أعانها على هذا الانشغال تراحم الأحداث ،
مما تدهورت سمعة الملك ، واشتعلت الحملة عليه ، ثم حل الإنجليز ، وعلى
المعادلة ، حتى ألغيت ، وبدأ نشاط العدائين المصريين ، يظهر جدياً ، وكانت
هربة زوجها في الشرقية ، قرية غابة القرب من خط النار الأول إذ كانت هي بعد
كيلومترات قليلة من أبو حماد وكانت المطارات البريطانية في « أبو صوير » عبر عبدة
عنهم ، ولذلك أحسست بأنها هي التي تقف في خط الدعاع الأول عن وطنها ،
فراحت تتعقب كل ما يكتب في الصحف والمجلات ، وما يذاع في المخططات المصرية
والعربية والأجنبية للإداعة وهي وسط هذه المتابعة المحمومة التي لا تنتهي لا تكف
عن قراءة الكتب على اختلاف أنواعها ، فمن الأدب إلى التاريخ ، إلى الدين ، إلى
السياسة ، ! ولم أرق قارئة في مثل سرعة اتهامها لما تقرأ ، من إحاطتها بمطالع .

وكان الكتاب الذي تقرأه وفردا يلقي إلى الساريزينها صراماً ، واشتعالاً ، فما
تنتهي من كتاب إلا لتبحث عن غيره ، ولم يمحها عن هذا الاطلاع الواسع المتجدد
التنوع أنها لم تستأطلق ، وأن ظروف الحياة في القرية تزيد من أحيائها ، فهي
القرية حظيرة للدواجن ، وأبقار تحلب ، وزيد تصنع وعيش يعجن ويحجر ، وأنواع
من المخللات تعد وتحفظ ، وتباع في صفائح وزجاجات وإن كان حولها من الأهرام

الكثير من الرجال والنساء ، وقد كان بعض هذا ، يكفى أن يكون عدواً غيراً ، لكيلا تقرأ شيئاً ، ولكنها لم تنسك قط من أهله البيت ، ولا مشاعل الأولاد ، التي تحول بينها وبين القراءة ، فالقراءة عندها أشبه شيء بالأنفاس تتردد في صدرها ، لا تعتبرها واجباً يؤدي ، ولا شغلاً يشكى منه

وكانت تبحث عن مناقشهم في شؤون بلدها ، في الداخل والخارج ، فإذا وجدت عنها انصرافاً ، ضاقت بهذا الانصراف ، وهذه نقصاً في الوطنية ، وتحلفا عن أداء الواجب ، وكم من مرة جاءت ليرى في ولا هدف لها إلا أن تسمع وتخاص ، وتفتش وتستفسر وتعلق ، فإن وجدت من تكاسل في الحديث ، أو فتوراً في الاستماع خرجت وقد اعتل مراجعها ، وأحست بسوء ضيائتها ، وانصرفت شاكية محزنة !

وقد امتحنت في وطنيتها امتحاناً شديداً ، فقد أوبك الإصلاح الزراعي ، أمور زوجها المالية ، وضائق موارده ، وزادت أحباله ، في وقت كان أولادها قد كبروا ، وكثرت مطالبهم ، وكانت كبرى يتأنها تطلب العلم في أمريكا ، وأكثر أولادها ، في الجامعات ، فلم ير عرج كل ذلك إيمانها بالإصلاح الزراعي ، ولا لفرحها به ، ولا إصرارها على أن الفلاح يحتاج إلى مزيد من المنح والبلل ، وأن الريف يفيض بواعث الشكوى ، لكثرة ما حشش فيه الظلم ، وملا أرجاء الطفانيان ، وكان كل من حولها يبالغ الثورة ويتقد عبد الناصر ويضرب الأمثال لها على أن الثورة حقيرة ، وأن ما بدأ خيراً وبركة ، انقلب شراً ونقمة ، فكانت لا ترى في كل ما يقال لها إلا حرصاً على الماضي ، وكرهاً للتغيير ، واستمجالاً للأمور ، فإذا أصاب مصر شر أو سمعت من يتهجم عليها أو يسئ إليها من أنتها الفارين منها ، أو من أعدائها المريبين بها احتلم غضبها ، واحترق وجهها ، واستمطرت اللعنت على هؤلاء وأولئك . وصيبت لرجال في مصر يرون كل هذا ، ولا يفعلون شيئاً في رد عادية الجميع

وأي وسط هذا الانفعال الوطني ، المتلجج ، تبدأ مساعيها التي ختمت ، حياتها ، فقد كُتبت في حفلة مسرح الأزيكية ، ألقاها مدرسة الخليفة المأمون التي كانت تصمم بعض أولادها ، وواحداً من أولادها ، وكانت خطيب هذه الحفلة ، فلما فرغت

منها ، سألت عن أختي فقبل لي إنها ذهبت مع زوجتي إلى الدكتور عباس حلمي
 أستاذ الجراحة بجامعة عين شمس لأنها تشكو منذ فترة المآل صدرها ، وفي المساء
 علمت أن الجراح أمر بوجود تحليل جزء من الورم الذي وجد في مكان من صدرها
 وتوالت الأنباء ، كما يتحدث دائماً عتلتها تصل الرواية إلى أعلى أرمها ، فقد ظهر أن
 عملية جراحية لاستئصال الصدر يجب أن تعمل ، وأجريت العملية ، ولا أنسى
 أنني يوم أن أجريت خرجت من مكنتي ومعى الدكتور لويس فانوس وهو أحد أعضاء
 مجلس الشيوخ قبل الثورة ، ولم أنجح في أن أصره عن مراقبتي بقول له إن ذاهب
 إلى أختي لأعودها بعد العملية ، فركب السيارة معى ، وهو يؤكد أن العملية بالجملة
 وأن الأورام السرطانية ليست هيفة كما تصور جهلا ، وأن آخر الإحصاءات تدل
 على كذا وأن الجراح البرطاني المشهور الذي اسمه كيت ، كتب في بحث له منشور في
 مجلة لانسيت الطبية أشياء . . ا

وذهبت إلى حجرة أختي . وقد أدأقت من المخدر فوجدتها بين البقطة والنوم ،
 يعلو وجهها الأبيض ، هدوء واستسلام للواقع ، ولم أسأها عن الصحة فقد تبادلنا
 النظرات ونست أدرى ما الذي جعلنى أحس أنها بداية النهاية . فأخيت لا تعرف هذا
 الصمت ، ولا هذه التعليقات البسيطة ، ونست أنها لا تزال تحت تأثير المخدر
 وتركت المستشفى ، وعادت إلى بيتها وحياتها ، بنس الخيرية والإقبال على الحياة ،
 والثقة في المستقبل ، ولكن كان بحالط هذا شيء من الحزن العميق ، الذي لا تسمح
 له أختي بالظهور ، وأحبها أطلبها حبا جعلها صديقة لا مريضة ، أحبها دكتور
 عباس حلمي ، فكان يرحب كئنا جامته تزوره في العيادة مع شقيقتها لومع زوجتي

وكان يوصى بها زملاؤه الدكاترة : حسين عرفان ومحمود محفوظ ، اللذين تباريا
 علاجها بالأشعة حتى سبقها هو إلى الموت ونكس المرض ، وكان الجميع يناقشونها
 ويسمعون كلامها ، ويحاشونها ثم عودتها العلة ، فكان لابد لها أن تسافر إلى
 لندن ، وسافرت إلى لندن ، ولجرت لها الدكتور ريفز أكبر أطباء جراحة السرطان
 عملية ، ولكن المهم أن الرجل قس بها ، إلى حد أنه كان يرسل وهو في طريقه من
 إنجلترا إلى الشرق ، أو من الشرق إلى بلاده ، إلى الجراحين في مصر ليمدوا له مكانة
 في المطار يرى فيه أختي ويكشف على الجرح ، ويتحدث إليها ويفضح معها ،

ويطمئنتها ، وفي أحمرمة خرج من المكان الذي كانت قد تحدثت فيه ، ليرى تطور المرض فيه ، ووقف على عتبة الحجر في للظلمة ساهماً واجماً . فقد كانت النهاية !

وبقيت أحنى ، بعد أن اشتدت وطأة هذا المرض القاسى الذى لا يرحم ، وتحملت ألماها التى لا ينفع فى تهدئتها غدر ولا صوم ، تذكر كيف اعتنى بها الأطباء والمرصات والحكيما فى مستشفى لندن ، وقالت وهى تضحك ، لقد كانوا يربسونى كل يوم ، ويضعون فى شعرى الأشرطة الحريرية ، يمدحون على وجهى وجسمى المفلور ، ويربون حجرق بالأزهار ويقشون لى ، فيأله من وداع جميل ويكسى كل الذين حولها وهم يسمعون كل هذا الكلام ، وهى هادئة صابرة لا تطرف ، ولا تدمع ، وكانت ابنتى قد تمجد موعده لحظة عقد قرانها ، وكانت أسقى تحس أن أجلبها قد فتا ، فلم أرها شاعرة بالذنب ، وحجلة من نفسها مثل شعورها وخجلها تلك الأيام ، لأنها كانت تدرك أن وفاتها ستجلب الحيلة التى تبها الجميع لها فكانت تقول همسا : يارب . لكم دهونك لأن تدعوى إلى جوارك . . . والآن أنا أدعوك ، أن تجهلى أياها ، أيتها قليلة فقط يارب !!

لست الله أيتها الاحت التى لم أعرف فى النساء ولا فى الرجال أحدا فى مثل فئاتها فى المثل لأصل .

وقد كانت تواجهها فى مقلعها صورة ، لأبيها ، صورت له يوم انتهى عمله الرسمى ، وقد أحاط به وملاؤه . وكانوا جميعا قد ماتوا بعد أن أخذ هذه الصورة بأعوام ، فكانت تنظر إلى الصورة وتقول : كل هؤلاء ماتوا . وبأن الله لحكمة إلا أن أبى . . متلكة متشبثة بالحياة ، كضرس يرفض أن يتخلع من مكانه !!

ولكنى لا أستطيع أن أسمرسل فى تصويرها ورسم شخصيتها ، بأكثر مما فعلت ، فإن ذلك عناه لى لا أقوى عليه ، ولكنى أذكر شيئين هنا : أولها ، يوما كنت أسير فيه فى الطريق ، معها ، ناحية قسم مصر الجديدة ، حيث كان الفريق عزيز المصرى معتقلا ، وكان يتمشى فى سطح دار مأمور القسم الذى يعلمونى القسم نفسه ، فبنايته التحية بالأيدى ومضيت فى طريقى ، وفى اليوم التالى ، كنت عنده أزوره ، فها كنت أصل إلى عتبة الشقة التى كان معتقلا فيها حتى قال : من هذه التى كانت معك . . قلت له : ولماذا ؟ قال : أمصرية هذه ؟ قلت نعم ، قال :

مقدمون على شيء تغضب منه السلطة ، ومازلت لأذكر أسماء الزملاء الثلاثة مؤسسي أول جمعية توجه الدعوة للناس كافة من أجل العمل العام ، سبقت جماعة الإخوان المسلمين المؤسسة في سنة ١٩٢٧ ومهبر الفتاة التي بدأت حياتها في الربيع الأخير من سنة ١٩٢٣ ، كان هؤلاء الزملاء : عباس حلمي حتوت ، وعبد الحليم الذي اتصل بي مرة أو مرتين بعد سنة ١٩٥٢ ووعده بالريادة ولم تمكن الظروف الوفاء بوعده وأغلب الظن أنه كان يعمل في الريف كصاحب أرض زراعية أما الثالث فهو إما محمد حسن وإما حسن محمد ، وقد اعتاد أحد أن يسميه « هرقل » لأنه كان على نصب جسمه ، وضالة بذنه ، كان ذا عزم عصبى ، لا يهاب من يكبرونه في السن ، ويفرقونه في بسطة الجسم .

ما الذي قلناه هؤلاء الزملاء الثلاثة حتى لارتضوا أن يوقعوا على هذا المنشور الخطير ؟ ولم يطل الأمر ، فقد انتهت السلطة إلى هذه النتيجة الثورية ، بعد أن كتبت أنا منشوراً ثانياً ، طبعناه كأول ، وإن كان دون الأول ثورية ، فقد كان شرحاً تقليدياً لأركان الإسلام الخمسة ، وإن بقي حظه من الثورية عبر قليل ، لكونه مجرد منشور من ناحية ، ولأنه صادر من صبيان في مدرسة ابتدائية من ناحية ثانية .

وقع المنشور في يد ضابط من ضباط المدرسة ، فأسرع به إلى باظرها المحرم محمد توفيق البردعي واصطفنا أمامه ، وتساءل ما الذي حدا بنا للإقدام على هذا العمل الغريب ؟ أولم نرى أننا نجاهلوننا قديراً إذ نصينا أنفسنا هدلة ومرشدين ، وإن لكل إنسان مقاماً ، وإن على كل إنسان أن يلزم حده ، ويصطنع ربه ، فمن كان رجلاً كبيراً ، وليس طربوشاً قصيراً ، دعا الناس إلى الضحك عليه ، والسحرة معه ، وأشار إلى طربوشه ، وكان بالصدفة المحض بين طرايش الرجال ، طربوش قصير ، وقد تبه أحد إلى هذه الملاحظة وبقي يذكرها ويتندر بها ، في حين كان أعضاء الجماعة في خوف من المسؤولية التي ركبوا أنفسهم أمامها وجهاً لوجه ، وقامت السلطة بهذا الترجيح اللطيف ، وأخذت علينا تعهداً بالآ نعالود هذا العبث الخطير . وقصص علينا أن نضع بالخطوة الأولى ، وإن نحرّم ما بعدها ، وكان ذلك نذيراً بما سلفه فيما بعد ، فمؤخر الطلبة الشرقيين الذي دعوت إليه ، لم يتجاوز التحضير ، وإصدار الأعداد الخاصة من الجرائد والمجلات الكبرى ، وتأليف لجنة للتحضيرية من أكبر أساتذة ورعيه العالم العربي ، ثم دعت السلطة فضضت عليه ، ومشروع

القرش الذى دعا إليه أحمد ، والنزى يعلو أسعد حقا على الأقل لأن الآلاف من تلاميذ المدارس الثانوية والعليا والمتوسطة قد اشتركوا فى جمع التبرعات له ، ولسوا شارته ، ومشاوى صمونه لاسنة واحدة بل ثلاث سنوات ثم كان من معاره ، مصنع لا يزال فى شارع برج الظفر ، يتج ويتحدث إلى الناس ، عما يمكن أن تفعله لإرادة ، ولو كانت إرادة طالب لم يتم تعليمه .

وإذا كانت هذه التجربة المثيرة ، « عينة » من حياة هذين الصبيين ، فإن حياتها لم تكن كلها ، عجائزات ، تضطرب لها المتعس ، وتكأزم لها الأعصاب ، وإن لم تخل من ذلك بين الحين والحين ، فقد كانت صداقتها مصدر العادة ، ما أحسب أن صبيين بعما يمثلها ، فقد كانا قلديس على أن يتحدثا معاً الساعات ثلث الساعات ، ويتناقشا ويختلفا ويختصما ، ثم يتصالحا من جديد ، دون أن تخلف ولجبتها فى الحديث ، والمشاركة فى مذاكرة مثبات من الأفكار التى تعلو على منها ، وحسبك أن تعلم أن من بين ما مارساه من اللعب ، أن أقاما « برلماناً » فى حوش منزل أحمد بشارع مراسنة غير بعيد من ميدان السيدة ، وقد حاولت أن أذكر أعضاء البرلمان ومدلولاته ، فلم أظفر إلا بمنظر مائكة فى الصدر ، ومفاهد قد تبلغ السبعة أو الثمانية قد يكون نصفها خالياً من الأعضاء ، ومع ذلك يواصل البرلمان عمله بهمة وإخلاص ربما تزيد من همة وإخلاص أعضاء كثير من برلمانات ومجالس تشريعية شهدها مصر بعد ذلك التاريخ

وما دمت قد ذكرت منزل شارع « مراسنة » فلا بد أن يسمح لى الفارىء الكريم ، أن أقف أمامه وأن أحس الرأس تحية له ولصاحبه الذى بناه أو اشتره ، ولذكرى ما به ، أنا الذى لا أحس بالحنين إلى الأماكن التى صاحبها أو حشت لهما ، فى طفولتى أو صلبى ، أو شبابه ، فإن لدى القدرة على الفصل بين الذكريات ذاتها ، وروحائها التى احتواها من الأمكنة والموجود .

ولكن - بعد قليل من التأمل - وعناية كتابة هذه الذكريات ، أحسست بأن هذا المنزل ، صاحب دين فى عفى ، وأن على أن كؤديه ، فقد كان أحد منزلىن شهدا وقائع صبايا .

صاحب هذا البيت هو والد أحمد ، وقد كان - فى الوقت الذى بدأت صداقاتيه - موظفاً بوزارة المالية ، وما أحسب أحداً من زملائه بالإدارة التى كان يعمل بها

في درلة المالية ، جرو على التكيف في أن يقيم منزلاً بمدينة القاهرة قريباً من ميدان
السيلة ، وحل بضعة أمتار من قسم الشرطة ، ولكن والد أحمد ، كان رجلاً عظيم
الهمة ، طموحاً ، عاباً للإنشاء والتعمير فالتقى هذا البيت وعهده بالعمل بالريف
قريب — على ما أتصور — وكان البيت يضم ثلاثة أحوار ، عرفت فيه السيلة والددة
أحمد ، رحمها الله رحمة واسعة ، فكانت كلهم ذلك المهدي ، نموذجاً للطفية
والبساطة ، والرحمة والمضلة ، والصفاء في رعاية زوجها وأولادها . كنت
أصاحبها ، وأنا صبي فتجد يدها إلى ملفوفة بطرف قطعة قميص ، تغطي رأسها بها
عند الصلاة ، خشية أن ينقض وضوءها ، لأنها شافعية ، وقد بقي صوبها في أوس
سنوات حتى بعد أن توفيها الله ، في سن حكرة ، وأحمد بعد في المدرسة الابتدائية أو
الثانوية على الأكثر ، فلما ذهبت إلى أسيوط ، وجاءت إحدى السيدات تزور أوس
اضطربت اضطراباً ، فسألوني لماذا أصابني ، فقلت : هذا صوت والددة أحمد ثم
غيت تماماً عن الحاضرين فترة ، وعدت بخاطري إلى أيام ذلك البيت ، فلما أفقت
هذه الصوت يطرق أذن ، لم أجد أحتمله ، فخرجت من بيتي هائلاً على وجهي ، وأنا
أعجب لنفسي ، فلم أكن أهد في نفسي الاستسلام لنوبات الوفاء العاطفية الشبيهة
بهذه النوبة ، وقد عرفت مع الوالددة ، ولديها مصطفى وعبد الفتاح الذي يطلق عليه
تدليلاً « حلمي » . ولم أظن وأنا صبي في العاشرة لو دونه ، أن هذا البيت بالوالد
والأولاد الثلاثة ، والأم جدير بأن يسمى « بيت العاقرة » ، وإن لم تكن العقيمة
لفظة متداولة في أيام صبا ، ولم أكن قد اطلعت بعد على الأدب الأجنبية وعرفت
بعضها صوراً من الشخصيات الإنسانية المدة التي تجمع بين الذكاء طرافة أسلوب
الحيلة والتمرد على تقاليد الناس ، وطرائق عيشهم وتفكيرهم ، وقد كان الوالد ،
بصوته القوي ، الذي يجبه حقاً وشاربيه التلويح على شمتيه وبناته المتين ، ومع
كرش ككرش الآباء جيماً تتوسطه سلسلة ساعة ذهبية ، ورجلين مقوسين قليلاً ،
لا تنقصان من هيئة طبيعية — كان بكل هذه الخصائص ، نموذجاً للوالد ، الذي
يحتل في بيته وبين أولاده ، مكانة السيد للطاع ، الذي يرضى الجميع ، ويحترمه
الكل ، كسلطة أعلى تستمد سيادتها من إرادة الله ، ويسلم أهل البيت قاطبة بها

ولم أكن أتصور ، حينها كنت أراه من بعيد سائراً إلى البيت أو خارجاً منه ، أو
حينها كنت أسمعته يتحدث إلى أحد أولاده بصوته اللوى فانكش وأتوازي ، أن يوماً

سأني أكون فيه صديقه أو يكون صديقي وهذا ما حدث بالفعل ، فقد ارداد هو معها لتطورات الدنيا . وولد مائيرة للعصر ، ولا سيما كلما كبر ابنه أحمد ، وولد مقامه بين المواطنين - حتى تساقطت عناصر صورته القديمة والهيبة ، وحلت محلها صورة رجل وودود ، يتشوق الحياة ، ويألف الناس ، ويضحك معهم ويداعبهم ، ثم وصلنا إلى الخاتمة ، حينا قصدي من أجل قصة ضد الحكومة ، صديقي له تركي الأصل ، مصري الجنسية اسمه فريد بك صديقي ، كان صديقه هذا من حاشية الخديو عباس حلمي الثاني ، ومن رجال عهده ، فجاء والد أحمد ، بهريد صديقي بث هذا ، وأودع يدى قصيته ، وكانت قضية كبيرة حقا ، أو قل كانت أكبر مني ، فقد كانت ضد الحكومة ، بشأن معاش طلبة ابن رمري طاهر باشا الذي شغل وظيفة كبير ياوران الخديو عباس ، ولما ألتى الخديو عباس انتقاده لنظام الجيش المصري على الحدود سنة ١٨٩٢ ، هاج هائج اللورد كنشر البريطاني ، قائد الجيش المصري وأمر بطرد رمري طاهر من حاشية الخديو العسكرية ، وحينه وكبلاً لوزارة الحربية ، فلما أحيل إلى المعاش خرج من مصر لأنه لم يحتمل غطرسة الإنجليز وتوفي في تركيا ، وترك من أولاده ولداً ناقص الإدراك ، فطلب معاشاً استثنائياً ، ورفضت الحكومة ذلك الطلب ، لأنها استلزمت أن يأني طالب المعاش إلى مصر ، ليوقع عليه أطباء الحكومة الكشف ، وكان دفاع شفيق هذا الولد المقيم في تركيا أن نقله إلى مصر ، يمرض حياته للخطر ، ومن هنا كانت المدعوى دقيقة ، وكان المطلوب فيها مبلغاً ضخماً ، وقد كتب الله لي التوفيق فيها ، وكسب المدعى دعوته ، فسر والد صديقي أحمد ورصى حق ، ولكن أهم من ذلك ، أن القضية استعرت بضع سوات ، كان والد أحمد يتردد على مكتبي خلالها ، فتبادل الحديث ، حتى لم يعد ينقضي شهر دون أن أراه ، واستمع إليه ، ويستمع إلى ، حتى ألفت ضحكته ، وأحببتها ، على حشونتها ، وغريبة صنورها من رجل له مظهره . ولقد شعرت بما يطوى على صدره من الحب للناس والحرص على مجاملتهم ، حينما عرف أنني لن أقصر مقابل هذا الجهد الطويل الثمر قرشاً ولا ملياً لصعوبات إدارية . فقد كان مهموماً مشغول البال يقترح الحلول ، ويعبر فيها ، رجاء أن أصل إلى حقي .

وعرفت في البيت العباقره ، صقريا بحق ، هو الأخ الأوسط لأخي أحمد وقد كان موظفاً في قسم قضايا وزارة الأشغال ، عمل مع أحد أستاذتي المحبوبين والأفذاذ

هو المرحوم الدكتور عبد المتعم رياض ، أستاذ القانون الدولى بكلية الحقوق ، وكان مصطفى - رحمه الله - موظفاً مشهوداً له بالكفاءة ، وكان يعمل فى عقود وزارة الأشغال التى أصبحت وزارة الرى كله باللغة الانجليزية ، ومن ثم فقد أنقضا ، وأذكر أننا تكلمنا معاً على أسلوب القانونيين فى صياغة العقود ، فنطلق يكرر أمثلة ؛ مثل : به تلك العقود من تحفظات واحتياطات مثل ولا تسأل الوزارة عما يقع للعارف الآخر ، من أخطار محتملة أو غير محتملة ، أو تتيج عن العقد مباشرة أو بطريق غير مباشر فى أثناء تنفيذ العقد أو بعده ، من موظفى الوزارة أو من غيرهم . وقال كل ذلك بلغة إنجليزية سليمة وطلاقة عرفت منها كيف تمكن من هذه اللغة ؟

هیر أن هذا ليس سوى جانب ثانوى وقليل الشأن إذا قورن بما اتسعت له نفس هذا الشاب الذى وافاه الأجل وهو فى غفلة العمر وبصارتة . فقد انصرف فجأة وبلا تمهيد إلى الدراسات الدينية فقرأ القرآن ، وقرأ غيره من أمهات الكتب الإسلامية ، ورايته يوماً ، يقرأ البحارى ويستخرج منه الأحاديث التى يحيل إليه أنها مصوغة كحديث جناحى الديبابة الذى فى أحدهما جاء فى الآخر دواء ثم جلبت زهرة للتصوف ، ففضّل شأن الدنيا فى حياته ، حتى زهدنا وانصرف عنها ، تخلصاً غير مدع ، ولا متظاهر ، ولا راجح فى التحدث عن تصوفه للناس ، وقد شهدته فى تلك الفترة ولمزلت أذكر عيبه اللتين رجمها إلى يوماً ، وقد امتلأنا بصرحة طفل ، وفاصتنا بذكاء عجيب ، وأؤكد أنه كان للمرحوم مصطفى أثر فى حياة أحد ، بقى معه إلى اليوم .

وسأروى للقارىء حادثة طريفة من طرائف شامنا ، تؤكد هذا الاستنتاج . وقد بصحب الإنسان من هذا التطور الصمم فى حياة مصطفى إذا علم أنه كان رياضياً من أوائل الذين اقتحموا ميدان سباحة المسافات الطويلة ، وأنه كان يقوم بتمريه من مصر القديمة إلى النيل وأحياناً إلى روض العرج ، وقد اتفق يوماً مع شقيقه أحمد ، ليستظرو شيامه عند النيل ، والظاهر أنها اختلفا على المكان الذى تواعدا عليه ، فعلى مصطفى فى الله ولست لأرى ما الذى ساقى إلى هذا الموقع من النيل ؟ فلما رأى ، رجائ أن اعدوا إلى المنزل لأحضر له ملابس ، وانطلقت كما طلب ، ولكنى لقيت والده فى البيت ، ولما سألنى عن طلبى ، ترددت قليلاً ، ولكن لم يكن

ثمة ماضٍ من المصاحبة ، فثار الرجل ، وأرغى وأزبد ، واستنزل لعنته على مصطفى ونزواته ، وأقسم ألا أتسلم من البيت قطعة واحدة من الملابس ، ولكن رحة الأم وحانها ، لم تجعل هذا الفيض للتدقيق من الجسم ، وأجست التدبير وسلمتى لفة في حرمته ، وانطلقت ثانية إلى النيل ، فلذا لم أرى أحد عائداً ، فسألته أين كان ؟ وكبر عليه أن يصيغ متلبساً بهذا الخطأ الجسيم ، فتركنى ومضى في حال سبيله دون أن يرد على سؤالى ، وأنا فى غاية الخلق ، من هذا الصمت العياض بالتعالى .

أما العبرى الثالث فهو الأستاذ عبد الفتاح ، الذى لم يتم تعليمه ، ومع ذلك ، كان رياضياً موهوباً ، وكان فوق ذلك فيلسوفاً بحق ، لا يسمح شيئاً إلا استخرج منه معنى ، أو علق عليه تعليقاً طريفاً ذكياً ، ولقد ألف أن يكتب خواطر فى كراسات من كرايس المدلوس ، يقيدها بعبر أكثرها ولا احتفال ويكتبها فى منتصف الصفحة حيناً ، وفى جانب منها حيناً آخر ، ويلبثها ويربها لا يكملها . وعاش بعد ذلك حيشة الفلاسفة حقاً وصدقاً ، لا يكثر بشيء ، ولا يحملهما ، ولا يعنى بلبس ، ولا يمالج مرصاً ، ويضحك من كل شيء ، ضحك العقلاء الأذكياء . ولقد تولقت علاقته به ، وبحبته له ، حتى كان مكتئباً ، واحداً من الأماكن التى بالفيها ويتردد عليها ، ويطل الجلولس أياً كان موقع هذا المكتب . وقد كنت أفرح بمقدمه ، وأستمتع بحديثه ، وقد كان عتلى ، قبل وفاته المفاجئة فى حادث ، بيومين أو ثلاثة . ولؤكد أنى لو تمكنت من جمع كراساتة ، ثم من طبعها ونشرها لوقع الناس على الكثير الخبير واللطيف من الخواطر والأفكار .

وقد كان للمرحوم عبد الفتاح لوحى يلعب النرد والخطولة ، وكان شقيقه أحمد أكثر منه تمكناً من اللعبة وتمرساً بها ، فكانا يلعبان مما الساحات الطويلة ، فذا ذهبت إلى بيت شارع مرسيه ، وكان فى حى الوطيس لم يلبثنا إلى ، وقد كن للمرحوم عبد الفتاح قدرة ، إذا غلب أحد يوماً مرة على إخطائه ، مع أن أحد يغلبه بالعشرات دون أن ينتجع أحمد فى إخطائه أو إحراج صدره ولو مرة واحدة .

أما أنا وأحمد ، فقد كانت لنا جولات وشططحات ، تتردد بين سهرات فى المسجد

الرئيسي ، سميع الخطب ثم الدروس ، ويحيى مهرات في نادي الشبيبة الرياضي
الذي كان في شارع الدواوين المدى أصبح شارع توبار الآن ، وفي ذات ليلة سمينا
أنفسنا ، ورحنا مشاهد عروض الملاكمة ، وكان بين المتلاكمين شاب اسمه مراد
مينا ، كان يوصف بأنه بطل الملاكمة . فلما عاد كل منا إلى بيته ، دخل أحمد إلى
غرفته سالماً ، فلم يكن في بيته - مع شدة والده - مظالم كنظام بيتا الحلبي ، فقد
استقبلني أمي ، بالكفوف ، حتى التهيت خلجودي ، فتجلت ولم أبك ، لأن
وجدت أنه لا يليق بي أن أبكي ، وقد كنت منذ قليل ، بين جمهور رياضي ، كواحد
من الرياضيين .

وفي فترة ، زادت فيها أشواقنا الروحية ، تواعدنا أحمد وأنا على أن يصل الفجر
حاصراً ، وجاء أحمد بطرق بابي في غشة الليل ، والديها هاجمة ، والشوارع
حالية ، واستيقظ والدي مزعجين فقد توها أن وراء الطارق نبأ مفزعاً ، وإذا بي
أتحرك في فراشي ، وأنا لا أقوى حل التكلم ، وأحيرا أفضيت لها بما احترما القيام به
استمتاحا لمهد من التصوف والتهجد ، والتفرب إلى الله ، فوضعا حدا لكل هذه
الآمال المربضة بصرخة ومضى أحمد وحده في الشارع المظلم ، وقد لم عليه ونلاؤه
أن يصل الفجر وحده ، وأجل دور السامى الروحى إلى فترة أستطيع معه أن أفرج
من قيود المنزل .

وقد كان لأحمد جاري حتى طولون قبل أن يبنينا منزل شارع مراسية ، وقد كان
هذا الجار ولع بالشطاط المسرحي إذ كان غالب الأمر ، من متعدي الحفلات
المسرحية ، الذين يتأجرون هذه الحفلات مقابل مبلغ يجعلونه لمسرح الفرقة ثم
يجربون حظهم في توزيع تذاكر المسرح على الجمهور وأصدقائهم ومعارفهم ،
فاستطاع هذا الجار أن يرود أحمد بتذاكر في عدد من حفلات مسرح الأزيكية في وقت
كانت فرقة أولاد عكاشة تقدم فيه مسرحيات غنائية وعبر غنائية ، وكان أحمد في الأيام
التالية لليلة التي يلعب فيها إلى المسرح ، يقص على مآشاهد ، ومثل بعض المشاهد ،
ويؤدى بعض الأغاني ، وأجلس ألبامه وأنا مأخوذ للب بهذا المسرح الذي يقدمه
صاحبي بهذه البراعة والقذرة والسهولة . وجاءت ذات أصيل ليزوري فلم ينجني ،
فاتنظر عودتي ، فلما طال الانتظار ابتدأ يسلي نفسه وأخوات بإسماعهم عشرات من

الأغاني التي كانت شائعة آنذاك ، وكان أكثرها من تلحين سيد درويش كليم
السفائين والشبليين ، فلما عدت في المساء ، وجدت أخواني ، كاسعد ما يكن بعد أن
سبعين من هذه الوجبة السحرة من الأغاني والأدوار

وأقيمت حفلة بمدرسة محمد علي ، فهالني أن علمت أن من بين العروض في
الحفلة ، حواراً تشلياً بين اثنين ، مما يقدم عادة في حفلات المدارس ، وأن أحمد
قد تقدم ليكون أحد المتحاورين ، وشعرت بأن صديقي من قوة الأعصاب ، بحيث
جرؤ على الإقدام على مجازفة كانت تساوى عندي الصعود إلى القمر ، ولم أهدأه في
فترات الراحة بين العروض فقد كان متهمكاً في تجارب التمثيل التدرجية ، ولكن هذه
الحفلة لسوء الحظ المبيت ولم تمنح برؤيه بواكير عقربة أحمد العبة والخطابية ، ولكن
هذه البواكير سرعان ما أحلت عن نفسها بعدما سافرت إلى أسيوط ، وأصبحت من
قراء مجلة « المسرح » أكبر المجلات الفنية ، في ذلك العصر ، إن لم تكن المجلة
العريضة آنذاك ، فقرئت يوماً نقداً لحفلة المدرسة الحديوية التمثيلية ، عرفت منه أن
صاحبي أحمد مثل دوراً خطيراً في مسرحية أبي مسلم الخرماني الذي أعدها هو ، عن
رواية جورجى زيدان ، وقد وصف السائد الذي كان موقع مقالته بإصماء
« الأحص » طريقة أحمد في التمثيل فقال إنه يمثل وكأنه « شضل » وشضل تساوي
عصبي . وفي العدد التالى قرئت رداً طريفاً على هذا النقد بإصماء « أحمد محمود
حسين الشضل » وكان هذا المقال بداية اتصالنا مما بالصف والكتابة فيها . ثم
تلقت منه خطاباً قال لي فيه : إنه في نهاية الحفلة تقدم إليه أمير الشعراء أحمد شوقي
مهتاً .

وقد وعدتكم أن أروى لك شاهداً على تأثر أحمد بأخيه مصطفى ، عندما رهد
الدنيا وتصوف ، وهو شاهد طريف حقاً ، فقد ترقنا - في فترة نالية مباشرة
لصباتنا - بالأستاذ المرحوم مصطفى العلوى الذى كان معلوماً للمرحوم العلامة لربيد
وجدى في المطبة ودائرة المعارف التى كان يصدرها آنذاك ، وكان الأستاذ العلوى
مشتغلاً بالتزويم المغناطيسى وقد نجح في تزويم أكثر من وسيط أماننا ، وحاول أن
يؤم أحمد ، فظناكر أحمد بأنه نام فعلاً ، وقد كان من بين ما حدثنا به المرحوم العلوى
أنه يستطيع أن يوحى إلى وسيطه بأنه صغرى ، فظهر على الوسيط علائم السن
الصغرى حتى يبلغ سن الطفولة ، فيصبح صوته كصوت الأطفال ، وعندنا يروى

ذكريات طفولته وهذا ما يساعد على شفاء بعض الأشخاص المصابين بأمراض عصبية أو نفسية إذا كان سبب الإصابة ، صدمة جرت لهم في الطفولة ، ثم زاد طموح الأستاذ العلوي فقال : إنه يستطيع أن يعود بالإنسان القهقري ، حتى يصل به إلى ما قبل الولادة ، ثم إلى ما قبل ولادة أبائه وأجداده بمئات السنين ، وأوهم أحد الأستاذ المتوهم بأنه وصل بروحه إلى عهد القراعنة ، وأبدى ثقله الشديد ، فلما سأله عن سبب هذا التألم قال ' إنه يجلد بوصفه أحد العمال في معبد فرعون ، وخیل إلى الأستاذ العلوي أنه يذل طاقة روحية في تلك الليلة أكبر مما يجب ، فانتفض انتفاضة أفرعتنا ، ولكن أحمد طلب ورقة وقلما وهو مائم لأن روحاً من لزواج الموتى الأعزاه تحوم حوله وتود أن تمل شيئاً فلما وصحننا القلم بين أصابعه كتب ما لم نستطع أن نقرأه ، فلما طلبنا إليه هو أن يقرأ ما كتب قال : هذه رسالة من أحى مصطفى بقوله فيها ' احذروا حلوى ، . وقد أطاع أحمد - في الجملة - هذا الأمر من أخيه ، في كثير من مراحل حياته الحاملة الغنية الطويلة العريضة .

وداعاً أيام الصبا

هل حقا انتهت أيام الصبا ؟

وهل انتهت في حماننا هذا الذي كتبت فيه ذكريات الصبا ، لو أنها انتهت منذ نحو أربعين عاماً عندما بلغت الرابعة عشرة ، وقام بي وهمي ، أنني رجل ، لي حق الرجال ، في أن أقول ما أشاء وأفعل ما أريد وأبدى الرأي في شئون البيت والمدرسة والأمة ، وأرتاد مجملع الكبار ، وأختلف إلى حيث يجذب الزعماء ويتناقشون ، ويهاجمون بعضهم بعضاً ، في دقق حيناً وفي عصف أحياناً .

نعم إنها انتهت عندما انتهت من تحرير ذكرياتها .

يوم أن وصلت وأنا بين الطفولة والصبا ، إلى حبة الشبب أطمح إليه ، أشفق منه ، وأحلم به ، وأتصوره ، وأتصور نفسي فيه لم أحس بأنها انتهت ، فالرسم السحر يفتننا من دور إلى دور ومن حال إلى حال ، ونحن لا ندرك ولا نشعر ، تفاجئنا الشعرات الأولى تحت الأنف ، وحول الذقن ، فنتطيل النظر إلى وجوهنا في المرآة ، وفي أعماق نفوسنا ، يدور سؤال هائس خجول ، ممزوج بالدعشة والسرور والاحتجاج متى حدث هذا ، وكيف وهل صحيح . ؟ هل صحيح أننا خرجنا من إهاب المرح غير المسئول والنشاط غير المفيد ، والحرية غير المدركة لذاتها ، إلى عالم لا يدري قواعده ، ولم يجرب الخصوع لقوانينه ؟

وعندما تلوح الشعرة البيضاء في رءوسنا ، نهر من ميت الشعر إلى الخصر القدم ، بنفس المشاعر ، ممزوجة بحرارة حتى ، مع أن الشعرة البيضاء شيء جديد ، وللقدم كل جديد فرحة ، ولكن هذه الشعرة شيء جديد خيف ، إنها دليل بالنهاية ، التي تأخر عقوداً ، وتلكا في طريقها مسير ، ولكن آخر الأمر ، تشير إليها ، وتعلن قدومها ، وإياها من شعرة ، تتألق بياصاً ، وتبدو بريئة ضعيفة ، غريبة بين زميلاتها السوداء الحالكة السوداء ، وهي شعرة لا تعترف بالمنطق ، ولا تعلم به ، بدلالة أنها بيضاء في رأس أحد من أبناء آدم الذين تواصلوا ، على اعتبار البياض صنو النور ، والوادم صنو المظلام بجامع المقام في ؟ الشعرة البيضاء دليل الغيب والمغيب هو غروب الشمس وقد قالت لي ، الشعرة البيضاء : أنا بيضاء رمز العلم والنضج ، والرضا ، والتجربة بعد الحمة والطيش وقلة العلم ، إذا كان المغيب ، يعني أفول الشمس فهو يعني أيضاً شروق القمر بنوره المضي الوضاء ، وقد جعل الله القمر ضياء ، ودين به السماء ، مع الكواكب والنجوم ، ثم منذ متى ولبي آدم منطلق مستقر ؟ فالسواد عندهم رمز الحلال والآية ، لا يلبس إلا في أجل المناسبات ، وأعظمها مهابة ، وقد اتخذته حركات ذات شأن في القديم والحديث شعارها المفصل ، ولونها للمحب !

وأرادت الشعرة البيضاء ، يومذاك أن تسترسل في حديثها لولا أنني أحسنت الاعتدال لما فعلت . علم الله أنني لم أحزن لتقدمك ، ولم أنقبض لمرآك ، بل فرحت بك ، فرحى بكل جديد ، وأطلت النظر فيك ، ثم عدت أتأمل داخل نفسي ، وخارجها ، وفي ظاهر بدني ، وفي باطنه متساوياً هل لهذه الشعرة البيضاء التي تعدها ضياءً جديراً بالإكرام والإعزاز والتحية أثر في هذه النفس ، لو في ذلك البدن ؟ فلم أجد شيئاً ، بل وجدت كلامها غاملاً عنها ، راهداً في الحديث حولها ، مشكوك لها حسن نياتها وعدم اهتزازها ، وإن كنت قد أحفيت عنها وعن الشعرة البيضاء وأبى فيها من أنها ساذجان لا يدريان ملنا يعني هذا اللسان الغضبي في ظلام شعري الكثيف الذي لم يزل مني ما يستحقه من العناية والرحابة ، مع أنه عند غيري عظيم المكانة ، كبير القدر . . . ؟

لكن قبل أن تظهر الشعرة البيضاء التي وجدت من زميلاتها السوداء حبا شديداً في مآكنا ، ربما هرباً من السواد اللامع ، إلى البياض الناصع ، فقد تكاثرت

الشعرات البيضاء ، حتى اشتعل الرأس شيئاً قبل الأول ، قبلت بين الناس شيئاً شيئاً ، أو شيئاً شاماً ، وألف الناس أن يواسوا فيقولوا ، إن هذا الشيب المبكر ، زانى فاضمت يومئذ ابتسامة أسمى حقيقي ، لأننى أدركت يومها ، أن هؤلاء الصحب ، رأوني جديراً بالمواساة ، لأنها تزيدنى إحساساً بقدر الإنسان ، بجعل وحده مصابه ، وأترب الناس إليه يشاهدونه ، ولا يملكون له إلا دعواً تفرق في المآلئ يجمعونها ، وأهلت تلهب في الصلور يكمونها ، وصدق الله تعالى إذ قال - « وإن ندع مظلة إلى حملها ، لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قرى » وقد عرفت وأنا في مطلع الشيب ، هذا الإحساس ، المر ، فقد وضعت على عفة تتحرك على عجالات ، ودفعت المحفة إلى أعماق حجرة ، انتظر فيها رجال مكتمون يلبسون أردية بيضاء ، يخفون وجوههم ، قبلو عيونهم ، وكأنها عيون أعوان شر ، وهى هيون وصل رحمة ، وقد وقف على باب الحجرة ، أحوالى ومعهن صديق الصبا « أحمد » الملح - وأنا بين الموت والحياة - على وجوههم آيات الجزع ، فاشفق عليهم ، أكثر عما يشفقون لحالى ، لأن أعرف مدى ما يعتريهم شعورهم بالمعجز من إنقاذى ومد يد المعونة لى فى عمتى .

ولكن لقد دلفت إلى الشيب ، بعد أن فرغت أيام الصبا ، دون ألم ، فلم أبكه ، ولم أودعه فقد كنت وأنا أستقبل الشيب ، أشبه ما أكون بإنسان فقد شيئاً عالياً ، فى مناسبة سعيدة ، فاسته انساب ، ألم الحسرة ، وبقيت غير مدرك أن لصبا ، أجل جهود الحياة ، قد انتهى إلى غير رجعة ، حتى جلست لأكتب ذكريات هذا العهد ، فإذا به يعرض على مفاتيحه ، ولطائفه وخفاياه وأسراره ، فأزداد إحساساً بغفلة الإنسان ، الذى يدع هذا الدور الجميل الذى أنقذت يد الله الخلاق العظيم مسج حيوته ، من حيوية الطفل ومرجه ، ومن سلجته وعلم تجربته ، ومن تمنح الشباب ، وإقباله على الدنيا فى دهشة وترقب وتطلع وإحجام أكثر إمتناعاً عن الاندفاع والجراحة ، التى لا تنهيب شيئاً لمرط الثقة .

وطوال الفترة التى كنت أكتب فيها ذكريات الصبا ، كنت أملاً رثى من هبته وأريجيه وحلوه والحنه ، كنت أمتنع عني من رؤية هذا العصر ، الذى لا يستقرى مكان ، ولا يشيح من القمر والثوب والركض والعمو ، والمتعلق بأعصاب الأشجار والتعلق فوق الجدران والأسوار ، كنت أملاً لأنى بصيحات ومصرخات لدائه ورملائه

من الصبيان ، وهم يتخاطفون الكرة ، ويتخافون الطوب ، ويتذاعنون للظفر
 بشيء يتساقون إليه ، ويعيونهم تلعب بالسرور ، ووجوههم تطمح بالسعادة ،
 وأصواتهم تفيض بالفرح ، ولما وصعت القلم إلى جانبي ، بعد أن فرغت من آخر
 كلمة في آخر مطر ، شعرت بأن كنت أكتب شيء يخرج في دار سيما ، يتابع شريطاً
 متناً لطيفاً مسلياً موحياً ، فمسي معه ، حتى إذا أصابت الأنوار وبددت ظلام
 القاعة ، بددت معها الحلم ، تلفت حوله ، فليذا الناس يفادرون أماكنهم ، في
 صفوف طويلة ، يهرون أرجلهم جرأ في حين يقف في مكانه يأبى أن يسلم بأن الشريط
 انتهى أو بأن الحلم قد اختفى ، وأنه ترك للواقع جالساً على مقعد ، وأمامه حائط
 بارد ، لا تجرى عليه صورة ولا ينعكس فوقه ضوء ولا يبعث في القلب شعوراً
 ولا يوحى للتأمل عليه بالحس . ثم هو لا يدري ماذا يفعل ؟ أهترك مكانه ،
 ويسير مع الناس ، ويعمل كما يفعلون . أمكن أن يخرج من هذا الحلم الجميل ، كما
 يخرج الواحد منا من قاعة مسرح ؟

قد يبدو للإنسان أن ذلك سهل ، وهو في الواقع سهل لو أن هذا كان حلياً ،
 ككل الأحلام التي نراها فيما يرى النائم ، ولكنه كان خرة من عمر ومرحلة من
 حياة ، وجزماً من وجود ، وخصلاً من تجربة ، وقد بعث من الماضي فأصبح
 حاضراً ، بكل حرارة الحياة ، وملاباتها وإحساساتها حتى لقد نسبت تماماً ، ساعة أو
 ساعات من كل شهر ، أنني جلوت الصبا والشباب والرجولة ، وأنتى شيخ من
 الشيوخ الأمر الذي لم أحس به قط ، ولم أجد ما يدهون إلى التكبر فيه أو التسليم
 به .

يوم أن تجاوزت حبة الشباب ، لم أحس قط أن الصبا قد انتهى ، ولكن الآن
 أحس بشدة وبعمق ، أن هذا الصبا ، أصبح ماضياً بحق ، وأنه أقلت من يدى ،
 كمصفود ، طار إلى خضم عال من أخصان حذيفة فيحة لا نهاية لها ولا حدود
 وأنه ليس لي منه إلا أن أروى وقتامه للناس ، ثم أقرأ ما كتبت .

ولقد عدت إلى مجلد يحوى صور الصبا ، يسميه الغريون « اليوم » ورحبت أتأمل في
 هذا الصبي الذي أجلسه المصورون منذ طفولته على مقعد ، أو على عمود طويل ،
 بجانب إحدى شققته أو والده ، ولم ينس هؤلاء المصورون في جميع الأحوال أن

يفعلوا تحت إبط هذا الصبي أو بين يديه ، كتاباً . فهل كان هؤلاء الأجانب
 يعتقدون في تلك الأيام أن الكتاب حلية للكبير والصغير معاً ، أو أنهم كانوا يقرءون
 الفقه فيعرفوا أن الكتاب سيصاحب هذا الصبي ، حينما يكبر ، في الليل والنهار ،
 وفي الحل والترحال ، وفي العمل ، وعند الراحة ، ولأنه سيكون أذاته ، وعمله
 ونسبته وصلاحه الذي يقيه الاستسلام للألام الدنيا ، ووسيلته للهروب من حقائقها ،
 فهو مغر ، وعشدر وملهم ، ومانع من الحركة ، بما يبحث في الغس من رضى
 وأحلام ، وأنملة وأوهام .

ولكن أين هذا الصبي ، الذي يقف خائلاً للحقيقة — هادئاً وادعياً ، يطبق
 القدمين يفكر في شيء ما ؟ لقد انقضى حقاً وصدقاً ، فلم يعد له وجود . وبعبارة
 أخرى لقد مات ، فلا سبيل إلى بعثه ، ولا إلى التحدث إليه ، ولا إلى العثور عليه !
 ومع ذلك لم يشيعه مطيع ولم يكرهه بك ، ولم يلحقه ناع ، فحياتنا التي نحسبها ذفاق
 متصلة من الوجود ، حلقات متصلة من الموت ، فما من لحظة عمر ، حتى ينقضى
 شخص كذا إياه ثم انقضى ! ليرجى شخص آخر ، غير الأول ، وعندما تتراكم
 حلقات المنم ، يمل عمل الطفل صبي ، ثم يمل عمل الصبي ، شاب ، وفي كل دور
 ينتهي كائن حتى يحسبه ونفسه وملائحه وقسماته ، وأخلاقه ومزاجه ، ليأتي كائن
 جديد بصورة جديدة وصوت جديد ، وعقل ونفس ، لم يعرفها الكائن السابق !

فهل نحزن لأن الواحد منا هو ألوف الألوف من الأشخاص يجبل اسمنا ،
 ويحسبه الناس حقيقة واحدة لا تتغير ، ولا يتقطع وجودها ، وهو في الواقع ، أموات
 إلى جانب أموات ، لأن تدفق الزمن لا يتقطع ، وهو مع استرساله ، واتصاله ،
 يخفى إلى طياته حقائق صغيرة ، ولكنها هي عناصر الحقيقة الكبرى

غير أن هذا الصبي لم يميت كما لم يميت من قبل الطفل الذي كاته ، فقد قلت من
 قبل ، يبقى الطفل غرضاً في ركن من أركان نفس الصبي ، كشأن الأطفال الذين
 يهربون من قوى قرائتهم حينما يريدون أن يحملوهم معهم إلى مكان لا يحبونه ، وقد
 تصادق الطفل والصبي ، وأنشأ معاً حلفاً ، فلما جاء الشاب تأمر عليها واحتفظ في
 طيات إهابه ، ونعب حتى أخذاه معها إلى جانب مع الرجل الذي استحال إليه
 وهكذا

عنه ولا يغفر منه ، ولقد أوجعت إلى بالكثير وأنا أشرق وأغرب ثم أعود إليك وكنت في هذا الجولان أحس أنني أمارس هواية من هوايات الصبا ، فقد كنت خلال أيامك السعيدة لا أستقر في مكان ، ولا أستقر عند شيء ، ولا عند شخص ، وكان الطواف والتشرد والتفعل شعار حياتي ، وقانونها .

وشيء آخر أيها الصديق العزيز ؟

إذا قبلت أن أتحدث عن دور آخر من أدوار حياتي قبل أهلك إلى لن أنساك ، سأعود إليك ، المرة بعد المرة ، وسأذكرك ، وأذكر الناس بك ، وأقارن بين حكمة الصبا التي لا فضل لي فيها ، ولا يد ، وحكمة الشباب المستفادة من تجاربه المؤلمة والمرضية ، ومعاصراته العاشلة والناجحة ، ثم حكمة ما بعد ذلك ، ولعل غير قادر على أن أتمدحك ، فأنت تعلم أنني كلما ذكرتك ذكرت نفسي ، وكلما أرتببتك أرتببتها فالذكرى هي كل ما يبقى للإنسان ، من كل ما مر به من حلومر ، وعظيم وثاقه ودأماً أيها الصبا .

ودأماً . . .

فهرس

٣	مقدمة
٥	معام صغير
٧	الفصل الأول : معام صغير
٢٥	الفصل الثاني : القضية الأولى
٤١	الفصل الثالث :
٥٩	الفصل الرابع . عند وكيل نيابة
٩١	في المحكمة
١٣٧	مخط المتبة
١٣٩	الطقولة
١٤٩	أمن وأب
١٥٩	جلس
١٦٥	أخرون الثلاثة
١٧٧	شخصية حق
١٩٧	شارع سلامة
٢١٥	بيت مليادبان
٢٣٧	أنا والفن
٢٤٧	ثلاث مدرس
٢٥٩	أنا والريف
٢٦٥	الحايح العاشق
٢٦٧	مملكة الطقولة
٢٧٧	الزمان والمكان
٤٣٧	

رقم التذاع وبلر الكف ١٩٩٢/١١٤-٦

I.S.B.N 977-01-3633-6

تجبرام



سور الزينية

تجبرام



غواكر في بحر الكتب

لم يبق من تكريات الثورة في حى السيدة إلا رؤيتى بطريق
المصادفة جنازة شهيد من شهدائها، تمر فى شارع الاسد البرائى ، وهو
شارع تجارى لم افهم سر سير الجنازة فيه، وقد رايت فى هذه الجنازة
العلم المصرى يتوسط هلاله الأبيض صليب، ويتقدم الجنازة شيوخ من
الأزهر مع السيسين، وكانت تسبق النعش فرقة موسيقية لإحدى
جماعات الكشافة، توقع لحناً جنازياً حزيناً وبسيطاً، فى حين يترك
اصحاب الحوانيت اعمالهم، ويقف الجميع فى وقار وصمت جديرين
بالإعجاب. وهكذا توالت لى البراهين على انه حسب الأمة ان تشملها
روح عامة، حتى تبعث فيها خير فضائلها، وتخفى رذائلها .